

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية



د. حسن حنفي



د. حسن حنفي

المؤهلات العلميّة:

دكتوراه الدولة في الفلسفة، جامعة باريس، السوربون، 1966.
يتقن العربية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية.

التدرُّج الوظيفي:

عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة القاهرة منذ 1967.
رئيس قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988 - 1994.
أستاذ متفرغ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1995 حتى اليوم.

المهام العلمية:

أستاذ زائر، جامعة تمبل فيلادلفيا، أميركا، 1971 - 1975.
أستاذ زائر، جامعة فاس، المغرب، 1982 - 1984.
أستاذ زائر، جامعة طوكيو، 1984 - 1985.
مستشار علمي للبرامج، جامعة الأمم المتحدة، طوكيو، 1985 - 1987.
أستاذ زائر، جامعة UCLA، ربيع 1995.
أستاذ زائر، جامعة بريمن، ربيع 1998.
عضو في العديد من الجمعيات العلميّة.

الأعمال العلميّة، بالعربية:

- المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري، (جزءان)، دمشق، 1964. (تحقيق).
- نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، الإسكندرية، 1968. (ترجمة).
- رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا، القاهرة، 1973. (ترجمة).
- لسنج: تربية الجنس البشري، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- سارتر: تعالي الأنا موجود، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- التراث والتجديد، القاهرة، 1980.
- دراسات إسلامية، القاهرة، 1982.
- دراسات فلسفية، القاهرة، 1987.
- من العقيدة إلى الثورة، (خمسة أجزاء)، القاهرة، 1988.
- الدين والثورة في مصر، (ثمانية أجزاء)، القاهرة، 1989.

✱

محمد إقبال
فيلسوف الذاتية

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية

الدكتور حسن حنفي

دار المدار الإسلامي

محمد إقبال فيلسوف الذاتية

الدكتور حسن حنفي

© دار المدار الإسلامي 2009

جميع الحقوق محفوظة للناسر بالتعاقد مع المؤلف

الطبعة الأولى

حزيران/يونيو/الصيف 2009 إفرنجي

موضوع الكتاب فلسفة

تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي

الحجم 17 × 24 سم

التجليد فني مع جاكيت

ردمك ISBN 9959-29-415-9

(دار الكتب الوطنية/بنغازي - ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2007/183

دار المدار الإسلامي

الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريكو، الطابق الخامس،

هاتف 961 1 75 03 04 + خليوي 961 3 93 39 39 +

961 1 75 03 05 + فاكس 961 1 75 03 07 +

ص.ب. 14/6703 بيروت - لبنان

بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

الواقع الإلكتروني www.oeabooks.com

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائل نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مميمن من الناسر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية

زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس - الجماهيرية العظمى

هاتف وفاكس: 218 21 34 07 013 + تقال 218 91 21 45 463 +

بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

الإهداء

بروحي للحياة مع الفناء

صراع، لا أرى غير البقاء

(محمد إقبال)

حسن حنفي

مدينة نصر، يناير 2006



مقدمة

1 - تصدير

سمعت عن محمد إقبال لأول مرة ونحن طلاب في الثانوية 1947-1952، منشئ باكستان عام 1948، عيد استقلال الهند، ونشأة دولة باكستان «الأرض المقدسة». هو المفكر، ومحمد علي جناح القائد. كان هذا هو الحل الوحيد للتخلص من الاقتتال الدائر بين المسلمين والهندوس الذي لم تشفع معه سياسة غاندي وإضرابه عن الطعام. كنا إسلاميين بالطبيعة، مع باكستان أكثر مما كنا مع الهند. ولم نكن نعرف بعد «حزب المؤتمر» بزعامة نهرو ونضاله ضد الاستعمار البريطاني بالرغم من تأييد الهند لثورة 1919، ومراسلات غاندي مع سعد زغلول، وبالرغم من تأييده لقضية فلسطين. فعام 1948 هو عام النكبة، تقسيم الهند، وتقسيم فلسطين، وإقامة النظام العنصري في جنوب أفريقيا.

وفي أواخر الثانوية العامة بدأ النضال الداخلي المصري ممثلاً في أربعة اتجاهات: أولاً، الوفد خاصة جناحه اليساري، الطليعة الوفدية أثناء انتخابات 1951 التي اكتسح فيها الوفد معظم مقاعد البرلمان. ثانياً، الإخوان المسلمون الذين لم يشتركوا في اللجنة الوطنية للطلبة والعمال في 1946 لخطأ في التحليل السياسي. ثالثاً، مصر الفتاة لأحمد حسين وقد كان غامضاً بالنسبة لنا ونحن طلاب. فيه وطنية مثل الجميع وبه اشتراكية ولكن به قوة وعنف. رابعاً وأخيراً الماركسيون. وكانوا على أنواع أهمها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو). وكانوا أقلية أيضاً. وكنا بتوجهاتنا الوطنية الإسلامية التقليدية ننأى منها خاصة وأن سلوكهم كبشر كان مما لا تألفه العادات المصرية. كانت قلوبنا أقرب إلى الوفد ممثلاً للحركة الوطنية الرئيسية في الشارع المصري.

وفي صيف 1952 عام الثورة، انضمت إلى جماعة «الإخوان المسلمين» رسمياً، عضواً في شعبة «باب الشعرية». ودخلت الجامعة وأنا إخواني. وبالرغم من انفعالنا بثورة 23 يوليو مثل كل المصريين خاصة بعد طرد الملك في 26 يوليو، وتحول مصر من ملكية إلى جمهورية، والقضاء على الإقطاع ومجتمع النصف في المائة إلا أن الصراع كان مع القوى الوطنية ممثلة في الوفد أولاً في 1953 ثم في الإخوان والشيوعيين فيما يعرف بأزمة مارس 1954 قبل أن يتحول عبد الناصر إلى بطل قومي بعد تأميم القناة في يوليو 1956، والعدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر، ثم انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والصهيونية في ديسمبر من نفس العام.

عرفنا إقبال ومحمد خان، والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعلال الفاسي في ذلك الوقت كمصلحين كبار. وهو التيار الإصلاحي الثوري الذي فجر ثورة عربي في مصر. وأقام دولة باكستان. وكان وراء الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، وفي السودان في الثورة المهدية، وفي ليبيا في الحركة السنوسية، وفي حركة الأئمة الأحرار في اليمن. وامتدت الحركة الإصلاحية في وعينا السياسي إلى الألويسيين في العراق، والشوكان في اليمن، ومحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، ومصطفى السباعي في سوريا، وسيد قطب في مصر، والمودودي في باكستان الوليدة، وحركة «فدائيان إسلام» في إيران.

استمعنا إلى إقبال على نحو علمي في درس الفلسفة المعاصرة في السنة الرابعة من أستاذنا «عثمان أمين»، بالرغم من اعتراضنا أن ذلك لا يدخل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ولم يكن الفكر العربي المعاصر قد دخل بعد ضمن المقررات. ورب ضارة نافعة. تعلمنا منه الكثير فيما يتعلق بالحركة الإصلاحية خاصة محمد عبده. وكان يقرأ فيهم منهج المثالية الترنسندنالية التي سماها «الجوانية». وأصدر فيها كتاباً بهذا العنوان عام 1964 «الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة»⁽¹⁾. وكان لا فرق عنده بين ديكارت وكانط وبرجسون وإقبال والأفغاني ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق والعقاد «رواد الوعي الإنساني». كان يشرح لنا

(1) «من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي»، دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، 1982، ص 347

«ضرب الكلیم». ولأول مرة سمعت عن الذاتية والحرية والجمال والتخلق والآمال والإيمان والإلحاد ونقد الغرب المادي. وكما استمعت إلى فشته في الفصل الدراسي الأول، استمعت أيضاً إلى إقبال وانفعلت به وكأنني أسمع نفس الشيء، ونفس الفلسفة. وعزمت حينها أن أكتب عن فشته وعن إقبال، منذ ما يقرب من نصف قرن، وكان ذلك عام 1956⁽¹⁾. وكان إقبال يثيرنا أكثر من محمد عبده بسبب موقفه من الثورة العربية وتنصله منها، وحسن معاملة الإنجليز واللورد كرومر له، ونفيه مجرد ثلاث سنوات، أستاذاً بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت.

قرأت «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في صيف 1956. وقرأت «ضرب الكلیم» وأنا أستاذ في 1966 أدرس الفكر العربي الحديث كموضوع خاص. وظللت أجمع أعماله على مدى أربعين عاماً، نثراً وشعراً. وآخر مرة أثناء زيارتي للاحور وأنا أزور مسجد لاهور، ومقبرة إقبال بجواره؛ صورت مجموعة أشعاره التسع من أكاديمية إقبال. ثم حصلت أخيراً على «رسالة الخلود نثراً»⁽²⁾. وكان السؤال عن مبدأ الحركة في الإسلام هل هو التصوف أم الأصول، الكشف أم الاجتهاد؟.

الظروف متشابهة لظروف المسلمين في الهند، الخمول والكسل واللامبالاة. لذلك صاغ لهم إقبال فلسفة الذاتية. وظروف الأمة بعد ذلك بستين عاماً لم تتغير بالرغم من الثورات العربية في منتصف الخمسينيات. فبالرغم من استمرار العدوان الصهيوني على الأمة في فلسطين، والأمريكي في العراق وأفغانستان، والروسي في الشيشان، والهندي في كشمير، والأسباني في سبته ومليلية في المغرب، وبالرغم من قيام حركات التحرر الوطني بواجبها في الخمسينيات والستينيات إلا أن المسلمين مازالوا مصابين باللامبالاة والفتور كما وصف الكواكبي في «أم القرى». لذلك أتى «محمد إقبال» فيلسوف الذاتية، تلبية لعهد قديم، وفي وقته وزمانه.

(1) فشته فيلسوف المقاومة، ط2 المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ط1 الجمعية الفلسفية المصرية (4)، القاهرة 2002.

(2) وقد قام بمساعدتي في إسلام آباد ولاحور الصديق الدكتور / خالد مسعود، رئيس «مجلس الإيديولوجيا الإسلامية». وقد تفضل مشكوراً الصديق محمد سعد جمال الدين بتصوير «رسالة الخلود» نثراً. والشكر أيضاً للصديق أ.د./ حسن الشافعي الذي ترجم «تطور الميتافيزيقا في فارس» والذي أيضاً أخذ على عاتقه تقديم كل المساعدة الممكنة.

كتاب «إقبال، فيلسوف الذاتية» وكتاب «برجسون فيلسوف الحياة» كلاهما تمهيد للمحاولة الرابعة لإعادة بناء العلوم الإسلامية القديمة بعد، «من العقيدة إلى الثورة» لبناء علم أصول الدين، و«من النقل إلى الإبداع» لإعادة بناء علوم الحكمة، و«من النص إلى الواقع» لإعادة بناء علم أصول الفقه وهي «من الفناء إلى البقاء» لإعادة بناء علوم التصوف. فلا يوجد فيلسوفان نظراً للتجربة الصوفية قدر إقبال وبرجسون. الأول من الموروث، والثاني من الوافد.

2 - الموضوع والمنهج

«إقبال فيلسوف الذاتية» دراسة فلسفية محضة وليست أدبية في الشعر الأوربي أو الفارسي. فمؤلفات إقبال شعرية أو نثرية أعمال فلسفية مثل باقي أعمال الفلاسفة. فلا حاجة إلى نظرة أدبية على المنظومة⁽¹⁾. والبحث في اللغات والأشكال الأدبية كل ذلك أدخل في الدراسات الأدبية وليس في الدراسات الفلسفية. المهم هو المضمون الفلسفي وليس الشكل الأدبي للدواوين الشعرية. فالدراسة عن إقبال الفيلسوف وليس إقبال الشاعر، يقوم بها مفكر وليس ناقداً أدبياً.

استعمل منهج العرض وكأن إقبال يتحدث عن نفسه. وذكرت الشواهد الشعرية، على الرغم من طولها، في الهوامش حتي يشارك القارئ في فهم التحليلات الفلسفية وتجاربها الشعرية. فالبارة الشارحة للشعر أقل تأثيراً في القارئ من الشعر نفسه. والفصل بين الشرح والشعر، الشرح في أعلى الصفحة والشعر في أسفلها يحافظ على اتساق الخطاب الشارح، وأصالة الشعر وفطريته. والآية القرآنية أبلغ في فهمها وأصدق في الإحساس بها من كل كتب التفسير مهما زادت المجلدات، وعظمت العبقريات اللغوية والفقهية والتاريخية.

ليس العرض نقداً لأفكار إقبال بل هو في نفس الوقت عرض لأفكار المؤلف على لسان إقبال. وما اختلف معه فيه يكون بعد العرض وداخلاً فيه كنوع من التعليق أو الاستدراك أو التأويل أو الإكمال أو إعادة البناء طبقاً لظروف هذا العصر وتغيراته منذ النصف الأول من القرن الماضي الذي عاش فيه إقبال. في حين أن المؤلف يعيش في النصف الثاني منه.

وبالإضافة إلى منهج العرض يتم استخدام منهج القراءة والتأويل الذي يتمثل في انتقاء أكثر القصائد دلالة على الوضع الراهن وأكثرها مباشرة في التعبير عن الأوضاع. فبعض القصائد أكثر دلالة من القصائد الأخرى. وهي التي تعبر عن حرقه القلب وأزمة الواقع أكثر مما تعبر عن الأفكار الفلسفية والنظرات الميتافيزيقية. فالقصائد كلها ليست على نفس المستوى من حيث الدلالة. بعضها يؤثر في القلب مباشرة، والبعض الآخر في حاجة إلى تأمل وفهم وتدبير. اخترنا الأولى في الهوامش وليس الثانية. فالشاهد الشعري هو الذي يشعر قراءه بمضمونه، ويشارك في نفس التجربة. كلاهما يعبر عن الواقع المعاصر وأزمة العصر بالرغم من انقضاء ثلاثة أرباع القرن تقريباً منذ وفاة إقبال. والمسافة بين جيل إقبال وجيل المؤلف ليست كبيرة. إذ يتنسب كلاهما إلى جيلين متعاقبين⁽¹⁾. كما يعني منهج القراءة والتأويل دفع إقبال خطوة إلى الأمام من أجل توضيح الاشتباه فيه. إذ يمكن تأويله محافظاً أو متحرراً، رجعياً أم تقديمياً، يميناً أو يساراً، وذلك من أجل مزيد من التأصيل للإسلام الثوري أو اليسار الإسلامي في الموروث بعد تأصيله في الوافد «فشته»، فيلسوف المقاومة»، عن طريق اختيار الشخصيات وإعادة رسم صور لهم مثل «الأفغاني» وعبد الله النديم⁽²⁾. فالبداية إقبال، والنهاية الإسلام الثوري.

لم يتم الاستشهاد بالقصائد كلها كاملة حفاظاً على وحدتها بل تم انتقاء أبيات منها تتعلق بالموضوع المدروس، وتجميع كل الأبيات من قصائد أخرى في نفس الموضوع. فالدراسة ليست أدبية تحافظ على وحدة القصيدة بل فلسفية تحافظ على وحدة الموضوع. وهما نفس المنهجين في تفسير القرآن: المنهج الطولي الذي يحافظ على وحدة السورة ويضحي بوحدة الموضوع، والمنهج العرضي الذي يحافظ على وحدة الموضوع ويضحي بوحدة السورة.

وتقوم هذه الدراسة على المصادر الأصلية لإقبال الشعرية أولاً ثم النثرية ثانياً دون الاعتماد على الدراسات الثانوية. وما أكثرها في التراجم والدراسات بالأردية

(1) توفي إقبال عام 1938 وولد المؤلف عام 1935.

(2) جمال الدين الأفغاني، المائتة الأولى (1897 - 1997)، دار فباء، القاهرة 1998.

والفارسية والإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى الرسائل الجامعية التي لم تطبع حتى الآن⁽¹⁾.

وبالرغم من بعض الفوائد من الدراسات الثانوية مثل إعطاء بعض المعلومات التاريخية إلا أنها مجرد تاريخ ورصد، دون تأويل وتطوير. هي أقرب إلى أن تكون موضوع دراسة لمعرفة موقف الباحث ورؤيته لإقبال منها أن تكون دراسة موضوع⁽²⁾.

صحيح أن عدم العلم بالفارسية والأردية نقص كبير، ولكن الترجمة النثرية والشعرية العربية والأصول الإنجليزية سدت هذا النقص. فقد استطاعت الترجمات خاصة الشعرية نقل روح إقبال من لغته الأصلية إلى اللغة العربية حتى إن البعض منها تم تلحينه وغناؤه من سيدة الغناء العربي وكما حدث في رباعيات الخيام. وهو عيب ما زال كبيراً في أقسام الفلسفة في جامعاتنا العربية، وعدم الانتباه إلى اللغات الشرقية الفارسية والأردية والتركية قدر اهتمامنا باللغات الأوروبية القديمة أو الحديثة⁽³⁾.

3 - الترجمات الحالية

أحياناً يفرض النظم العربي منطقته. فتحذف بعض الأبيات الفارسية. فالترجمة نظماً ليست ترجمة حرفية بل ترجمة فنية. التطابق بين النصين المترجم منه والمترجم إليه يجوز في النثر، من النثر إلى النثر، من شكل فني إلى شكل فني مشابه أو على أقصى تقدير، من الشعر إلى النثر ولكن ليس من النثر إلى الشعر أو من الشعر إلى الشعر.

قد يكون المحذوف غير دال وغير شعري، مجرد أبيات للربط. فليست كل

(1) الأسرار والرموز، المقدمة ص 52 - 56.

(2) من العقيدة إلى الثورة ج1، المقدمات النظرية ص 230 - 231.

من النقل إلى الإبداع، المجلد (1)، الجزء (1)، المقدمة ص 71 - 76.

من النص إلى الواقع ج1، تكوين النص ص 36 - 37.

(3) لذلك أدخلت اللغة الفارسية ضمن مقررات الدراسة، مرحلة الليسانس ثم مرحلة الدراسات العليا في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، أثناء رئاستي له 1988 - 1994.

الأبيات على نفس المستوي من الشعرية في الشعر الفلسفي أو في الفلسفة الشعرية. وذلك واضح أيضاً في محاولات القدماء مثل «القصيد العينية» لابن سينا، وخاصة في الشعر التعليمي المتأخر في عصر الشروح والملخصات مثل «السلم المروني» في المنطق⁽¹⁾.

التفصيلات والدقيقات الكثيرة في عدم التطابق بين الشعر المترجم منه والشعر المترجم إليه يقوم على أن الترجمة نظرية في المطابقة. في حين أن الترجمة هي إعادة تأليف طبقاً لمعايير اللغة المترجم إليها ومقاييسها الجمالية. الترجمة الشعرية من الكل إلى الكل، وليس من الجزء إلى الجزء، حرفاً بحرف، ولفظاً بلفظ، وعبارة بعبارة⁽²⁾. ترجمة الشعر الفلسفي من أجل المحافظة على دعواه للأمل والعمل والرفي بالإنسان.

قد يكون السبب في حذف بعض الأبيات سبباً يتعلق بالمضمون العقائدي أو الأخلاقي أو السياسي⁽³⁾. فالشعر ينتقل من بيئة إلى بيئة، من بيئة شيعية إلى بيئة سنية أو من منظومة قيم حرة إلى منظومة قيم محافظة أو من نظام سياسي حر إلى نظام سياسي تسلطي. وقد تصرف القدماء في ترجماتهم عن اليونان بنفس الطريقة،

(1) لذلك فإن الجهد العلمي الدقيق الذي بذله د. سمير عبد المجيد إبراهيم لإكمال ترجمة الأبيات الناقصة (150 بيتاً) «الأسرار والرموز» جهد علمي نصي من حيث الحرف وإن لم يصف جديداً من حيث المضمون خاصة وأن الترجمة للأبيات الناقصة ترجمة ثرية. ديوان الأسرار والرموز للشاعر الفيلسوف محمد إقبال. ترجمه نظماً الدكتور عبد الوهاب عزام، درسه وحققه وأكمل ترجمته نثراً الدكتور عبد الحميد إبراهيم، قسم الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، دار الأنصار، القاهرة ط2، 1401هـ/ 1981م ص 57 - 118. وكان المترجم الأول سفيراً لمصر في باكستان نموذجاً للتفسير العالم. وقد ترجم المثنوي في بحر الرمل في الشعر العربي. وكان الشاعر على علم بطبيعة الشعرين الفارسي والعربي. وساعده أن معظم المصطلحات الفلسفية العربية هي نفسها بالعربية في الفارسية، الأسرار والرموز ص 2 - 4.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص 108 - 118، وأيضاً من النقل إلى الإيداع المجلد (1)، النقل ج2 النص النص 1 - الترجمة وأيضاً شكري عباد. حوار الأجيال، ص 393 - 408.

(3) وضع إقبال للطبعة الأولى لديوان «الأسرار والرموز» مقدمة. ثم أهدي بعض الأشعار إلى السيد علي إمام ثم التمهيد. وفي الطبعة الثانية حذف المقدمة ووضع بدلاً منها ثلاثة أشعار لحافظ. وحذف بعض أشعار الإهداء، وضم الباقي إلى التمهيد. وحذف الأشعار التي ينقد فيها حافظ ووضع مكانها عنواناً جديداً هو «حقيقة الشعر وإصلاح الآداب»، الأسرار والرموز، المقدمة ص 47.

الحذف والإضافة، ولنفس الأسباب، الانتقال من الثقافة الوثنية إلى ثقافة التوحيد⁽¹⁾.

قد لا ينفعل الشاعر المترجم بقصيدة للشاعر المؤلف بالرغم من انفعال مترجم آخر للشعر إلى النثر أو حتى القارئ مثل قصيدة «في معني الحرية الإسلامية» وسر حادثة «كربلاء»⁽²⁾. وليس المقصود هو الحسين وكربلاء بل الفرق بين العقل العشق. وهو موضوع شائع في أشعار إقبال، خاصة في «ضرب الكلیم». يمثل الحسين العشق، ويمثل أعداؤه الهوس بمعنى عقل السلطة أو عقل الحكم أو عقل المصلحة أو عقل الدولة. يتطلب العشق الاتحاد بالله، وقوة الإيمان، والشجاعة، والجهر بالقول، والمقاومة، والمغامرة. في حين أن العقل مصلحة وسفك للدماء. العشق ينال الهدف تلقائياً بالفطرة، والعقل خوف وشك. العشق يعمر، والعقل يخرب. العشق ينجح، والعقل يفشل. العشق تلقائي، والعقل يحسب. العشق تضحية، والعقل أنانية. العشق نعمة وفضل، والعقل كسب ومران. العشق تحرر، والعقل عبودية. العشق راكب، والعقل مركوب. من العشق تتولد النماذج والمثل العليا، ومن العقل تتولد الأرض. العشق غيور للحق، والعقل مساوم مع الباطل. العشق توحيد، والعقل فرقة.

الحسين نموذج سورة الإخلاص وهي تعادل ثلث القرآن. هو موسى في مقابل فرعون، والخلافة في مواجهة الخروج، والشرعية ضد اللاشرعية، والعدل في مواجهة الظلم، والتضحية ضد الأنانية، واليقين ضد الشك، والعزيمة ضد التردد، والحر ضد العبد، ويقظة الضمير الحي في مواجهة قلق الضمير الميت.

والبعض شائع ومكرر. وهو نقص في البلاغة في الشعر والنثر خاصة الشعر لقدرته على التركيز مثل «الأركان التي لا توصف بالأساسية لأن معنى الأساس متضمن في الركن»⁽³⁾.

قد يُقال أن من حق الجيل الجديد أن يراجع الجيل القديم مع احترام كامل

(1) من النقل إلى الإبداع المجلد الأول النقل ج3 الشرح.

(2) وهي حوالي 39 بيتاً، الأسرار والرموز، المقدمة ص97 - 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة ص94.

دون تطاول أو تعالم عليه، ولكن من حق الجيل القديم أن يكون أكثر شاعرية من الجيل الجديد، وأن يفرق بين ترجمة الشعر وترجمة النثر، بين الترجمة المعنوية والترجمة الحرفية، بين ترجمة الصورة الفنية وترجمة اللفظ أو العبارة، بين ترجمة المتذوق وترجمة القاموس. الشعر عند الشاعر صورة ومضمون وتجربة. والترجمة عند المترجم قد تكون عبارة ومعنى دون تجربة شعرية بل ودون تجربة حياتية تتعلق بأحوال المسلمين وحمل همومهم ومعاناة مآسيهم⁽¹⁾.

الأخطر أن يُظن أن المترجم الشاعر أهمل عن قصد أو عن غير قصد الترجمة الكاملة وبالتالي نشأ الحذف نتيجة لهذا الإهمال لأنه يذكر المحذوف تنبيهاً للقارئ⁽²⁾. وإن لم يشر فلمقتضيات الشعر وحموة تجاوز الحرف إلى الصورة الشعرية.

صعوبة الأمر في أن يعوض الجيل الجديد نقصه الشعري بالتعاليم العلمي والزيادة في المعلومات. وقد تكون بديهة وشائعة لدى كل الأجيال⁽³⁾. والبعض منها أخطاء مطبعية شائعة في المطابع العربية⁽⁴⁾.

قد يكون ترجمة التشيع في بيئة سنية مانعاً من نشر شعر إقبال خاصة وقد سادت السلفية عند ابن تيمية شبه الجزيرة العربية موطن الإسلام، مع أن التشيع دين شعبي حتى عند السنة. وحب آل البيت، وفضائل علي وعلمه، واستشهاد الحسين تراث إسلامي مشترك، لا فرق بين شيعة وسنة.

اختيار علي لمُدح فضائله خاصة بعد حديث الرسول «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، ووصفه بأنه «المسلم الأول». وحذف الوصف والصفة قد يكون اعترافاً بفضل باقي الصحابة خاصة الشيخين، وتجنباً لنقاش قديم قد يحدثه الشعر الجديد حول الأفضلية بين الصحابة. فيوظف فتنة نائمة تتجاوزها محاولات التقريب بين المذاهب. وكثير منها صور فنية من الشاعر مثل البستان وزمزم والحن⁽⁵⁾. والبعض

(1) حوار الأجيال ص 9.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص 68 - 70.

(3) السابق ص 74 - 87.

(4) السابق ص 86.

(5) وهذه الأوصاف هي: المسلم الأول، ملك الرجال، العشق أساس إيمانه، حب أهله، التناول =

مغالي فيه مثل المغالاة في وصف الذاتية بانثاق نظام العالم منها وقدرة شروق الشمس من الغرب!

4 - أعمال إقبال

تقع أعمال إقبال في شكلين أدبيين: الشعر والنثر. والشعر بلغتين، الأردية والفارسية⁽¹⁾. والنثر عدة أنواع: الرسائل العلمية، والمحاضرات، والأفكار، والرسائل المتبادلة⁽²⁾.

استطاع إقبال إخضاع الفلسفة للشعر، والفكر للنظم. كما استطاع إخضاع

برؤية وجهه، قوة الدين، توقف نظام الكائنات عليه، أبو تراب، ثورة الحق في سيفه، هزيمة النفس الأمارة بالسوء، ملك العالم بالجهاد، عظيم خبير، باب العلم، قوة الرجولة الحقة، الأسرار والرموز، المقدمة ص 81 - 85.

(1) الأعمال الشعرية تسعة دواوين هي:

- 1 - صلصلة الجرس (بانكادرا).
- 2 - الأسرار والرموز (أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات)، (أسرار خودي ورموز بنجودي).
- 3 - رسالة الشرق (ببام مشرق).
- 4 - زيور العجم.
- 5 - جناح جبريل (بال جبريل).
- 6 - ضرب الكليم.
- 7 - رسالة الخلود (جاويد نامه).
- 8 - والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟
- 9 - هدية الحجاز (أرمغان حجاز).

(2) الرسائل مثل: 1 - رسالته «تطور الميتافيزيقا في فارس» التي حصل بها على درجة الماجستير 1908.

والمحاضرات مثل «تجديد التفكير الديني في الإسلام» 1930. والأفكار مثل «أفكار هائمة» Stray Reflections، وآراء وأفكار. Thoughts and Reflections، والرسائل مثل «رسائل وكتابات إقبال» Letters and Writings of Iqbal. «رسائل إقبال إلى علي جناح» Letters of Iqbal to Jinnah. ولإقبال «علم الاقتصاد» بالأردية عام 1902. ويقسم البعض أعماله إلى فلسفية، وأدبية، وسياسية، ودينية. Thought, p. XI - XII! وقد كتب إقبال عدة كتب أخرى غير متوفرة وهي:

- Islam and Khilafat, Sociological Review of London, 1908.
- Islam as a Social and Political Ideal, address delivered in Alighrah, 1910.
- Inner Synthesis of Life, Indian Review of Madras, 1926.
- Note on 'Qurratul Ain'.

الشعر للفلسفة، والنظم للفكر كما فعل أبو العلاء المعري وابن الفارض وابن عربي.

عظمة عبد الوهاب عزام أنه استطاع ترجمة الشعر شعراً من الفارسية إلى العربية، فشاعرية المترجم على قد شاعرية الشاعر.

لا فرق بين أعمال إقبال وحياته وعصره. أعماله تجربة عمره. وحياته مرآة عصره. ومن ثم كان عرض الأعمال هو في نفس الوقت عرض للحياة والعصر دون ما حاجة إلى عرض مسبق للحياة والعصر قبل عرض الأعمال.

تم عرض الأعمال طبقاً لترتيبها الزمني قدر الإمكان كما تم في عرض «فشته»، فيلسوف المقاومة» من قبل. وفائدة ذلك التعرف على التطور الفكري للشاعر، وتتبع نشأة أعماله، وتكوين فكره. ولحسن الحظ يكون هذا العرض الزمني مطابقاً لعرض الموضوعات وبنيتها الداخلية كما حدث أيضاً في «فشته»، فيلسوف المقاومة». فلا فرق بين التوالي الزمني (الدياكرونيك) والمعنية الزمانية (السينكرونيك) وكما هو الحال في الوحي، لا فرق بين تطوره وبنيته خاصة في العقائد.

لم يكن هناك تبويب مسبق يفرض نفسه على الموضوع بل نتج التبويب من طبيعة الموضوع وتطوره الزمني. وهي طريقة برجسون في رؤية الأشياء حدسياً، وطريقة هوسرل في العود إلى الأشياء ذاتها. فالمضمون يفرض نفسه على الشكل.

5 - التبويب

كان يمكن تبويب أعمال إقبال ومحاور فكره طبقاً للجبهات الثلاث في مشروع «التراث والتجديد»: الموقف من التراث القديم، الموقف من التراث الغربي، الموقف من الواقع أو نظرية التفسير. وبلغه إقبال، الأنا أو الذاتية، والآخر أو الذاتية المضادة، والواقع الذي يتم فيه التفاعل بين الذاتية والذاتية المضادة. وصعوبة ذلك هو تداخل الجبهات الثلاث، وصعوبة الفصل بينها، بالإضافة إلى تضخم الجبهة الأولى على حساب الجبهتين الثانية والثالثة نظراً لأن الذاتية هي المحور الرئيسي في فكر إقبال الساري في الجبهات الثلاث⁽¹⁾.

(1) تضم الجبهة الأولى أعمالاً مثل: الأسرار والرموز، رسالة المشرق، والآن ماذا نصنع يا أمم =

استقر التبويب الموضوعي على سبعة أبواب وفي كل باب فصلان. الأول «الذات وإثباتها»، وتشمل الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة. والثاني جدل الذات. ويشمل التأويل، ونفي الذات (التصوف). والثالث الشكوى والأئين. ويضم الشكوى والجواب، والأئين والحنين. والرابع السقوط والنهوض. ويضم مظاهر السقوط، وعوامل النهوض. والخامس الذات المضادة. وتشمل التغريب، والغرب والشرق. والسادس التراث والتجديد. ويضم الاستشراق، والإصلاح. والسابع الدولة والأمة. ويحتوي على نظام الدولة، وحال الأمة. والتبويب على هذا النحو يشمل الفلسفة النظرية إثبات الذات دون نفيها، وتجلياتها في الأخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ.

تأتي عناوين الأبواب والفصول أحياناً من عناوين الدواوين مثل «الشكوى والجواب». وأحياناً تشير إلى بعض الدواوين مثل الذات إشارة إلى «أسرار خودي». وأحياناً ثالثة يعبر العنوان عن المضمون وليس الاسم مثل السقوط والنهوض وهو الموضوع الرئيسي في «ضرب الكلیم»، والاستشراق وهو موضوع «تطور الميتافيزيقا في فارس»، والإصلاح وهو موضوع «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وأحياناً رابعة يشير العنوان إلى عدة موضوعات متناثرة في ثنايا الدواوين والكتابات النثرية مثل «نظام الدولة» و«حال الأمة».

= الشرق؟، صلصلة الجرس، كتاب العبيد، هدية الحجاز، رسالة الخلود، جناح جبريل. ومن الأعمال النثرية: تطور الميتافيزيقا في فارس، تجديد التفكير الديني في الإسلام. وتضم الجبهة الثانية ضرب الكلیم. وتضم الجبهة الثالثة شكوى وجواب شكوى وبعض الكتابات والرسائل مثل: أفكار هائمة، أفكار وتأملات، خطابات وكتابات، رسائل إلى جناح.

الباب الأول

الذاتية

الفصل الأول

الذات

1 - مقدمة: «أسرار النفس»

عرض إقبال فلسفة الذات في «أسرار النفس». وقد نشر لأول مرة في 1915. واستشار إقبال بعض أصدقائه في أفضل عنوان. وأشاروا «أسرار الحياة». إلا أن إقبال فضل «أسرار الذات» لأن لفظ «الذات» يعبر عن مقصوده، بالرغم من أنه مجهول بين الناس على عكس «شكوى وجواب وشكوى» الذي يعبر عن أوجاع المسلمين وهمومهم⁽¹⁾.

عرف ديوان «أسرار النفس» بأنه ديوان واحد⁽²⁾. وهو في الحقيقة ديوانان أو قسمان: الأول «أسرار النفس» لإثبات الذات، والثاني «رموز النفس» لنفي الذات. والتقابل دال. إثبات الذات في مقابل نفي الذات وهو ما يعادل التقابل بين «من الفناء إلى البقاء». وهو ما يعادل أيضاً المصطلحين في اللغات الأجنبية⁽³⁾. أما من حيث مضمون النص فإن «فناء الذات» ليس نقيض «إثبات الذات» بل التحول من الفرد إلى الجماعة، من الذاتية الفردية إلى الذاتية الجماعية أي الأمة أو بتعبير

(1) الأسرار والرموز، مقدمة المترجم (د. سمير عبد الحميد إبراهيم) ص 1 - 1.

(2) ترجم نيكلسون القسم الأول فقط

Dr. Sir Muhammad Iqbal: The Secrets of the Self; translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D. I.L.. D. SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1 Ed. Macmillan, 1920, 7th E. 1969.

(3) إثبات الذات Self-Affirmation. نفي الذات Self-Negation. البقاء أيضاً Self-Affirmation! أما الفناء فهو Self-Annihilation.

هوسرل الذاتية المشتركة أو العلاقات بين الذوات⁽¹⁾. وقد نقل الشاعر المعنى الشائع «خودي» من المعنى السلبي وهو الأثرة أو الإعجاب بالنفس إلى الذات بالمعنى الإيجابي، وهو تعرف الإنسان على نفسه وتقويتها، وإخراج ما أودع فيها من إمكانيات⁽²⁾.

أضاف إقبال في الطبعة الأولى للديوان مقدمة عن نفي الذات أو إهمالها وأسباب انتشارها عند المسلمين، وسبب تخلي المسلمين عن أهدافهم. كما بين فيها معنى لفظ الذات. ثم حذفها في الطبعة الثانية لأن النثر لا يعبر عن إحساس الشاعر. ويخلو من الصورة الفنية، جوهر الشعر. يتحكم فيها العقل بأحكامه المحتملة للصواب والخطأ على عكس صدق الشعر.

ولفظ «خودي» غير لفظ «شعور». «خودي» هي الوحدة الوجدانية، نقطة استنارة في الشعور الإنساني. أما الوجدان فيوجد حتى عند الطفل قبل أن يبلغ درجة النضج. وإثبات الذات «خودي» نقطة التنوير. وفي ترايبها يكمن سر الحياة. هي أقرب إلى الفطرة الإنسانية، أحوالها وحالاتها مثل الكتاب مجمع صفحاته. لا تعني المعنى العادي في الأردية وهو الأثرة بل تعني الإحساس بالنفس أو تعين الذات. الذات استعداد عقلي، أقرب إلى الطبيعة والجليلة. وجهتها الحق، صامدة كالجبل. وهو أهم ديوان فلسفي عرض فيه إقبال فلسفته في الذات في فصول مرتبة وكأنه عمل فلسفي وليس منظومة شعرية⁽³⁾.

في خلاصة المقدمة التي كتبها إقبال لـ «أسرار خودي» يتساءل: ما هذا الشيء الذي نسميه «أنا» أو «خودي» أو «مين» (الأردية) الذي يتجلي في أعماله ويختفي في حقيقته؟ يخلق كل المشاهدات ولكنه لا يرى. هي حقيقة في الحياة وليست خداعاً أو وهماً. تتجلى بمقاصدها، وتبدو بأهدافها. وهي أساس وجود الفرد والجماعة بالرغم من ميل أمم الشرق إلى اعتبارها مجرد خداع خيال، تريد التخلص منها. في حين تميل أمم الغرب إلى إثباتها. لذلك تكاسل الشرق ونشط

(1) الذاتية المشتركة والعلاقات بين الذوات Intersubjectivité.

(2) الأسرار والرموز ص 10 - 11.

(3) السابق، المقدمة ص 10 - 13/19.

الغرب لأن الذات هي مصدر العمل. ينشط الأفراد والجماعات بإثباتها، وتحمل بنفيتها.

لقد تسرب نفي الأنا إلى المسلمين من الفلسفة الهندوسية التي ترى أن الأنا هو أساس البلاء وأصل المصائب والآلام لأنها تعمل، وأن الذاتية نتيجة للعمل. والعمل والضرورة تعبير عن الأهواء والانفعالات والرغبة التي يجب إماتتها. هذا هو الطريق. وبالتالي تموت الذات. والإسلام على العكس من ذلك دعوة للعمل. ويُنال الخلود بالعمل إلى الخلود. فلا خلود إلا بالعمل. والعمل هو طريق الخلود. ولا فرق بين «الجيتا» الهندية ووحدة الوجود عند ابن عربي بعد أوحده الدين الكرمانى وفخر الدين العراقي. إنما الفرق في المنهج. فقد اتبع فلاسفة الهند طريق العقل. واتبع الشعراء طريقة القلب أو الذوق وهو الأخطر لأنهم أكثر تأثراً في العامة، في حين لا يخاطب العقل إلا الخاصة. فتكاسل الناس، وتخلوا عن العمل. وقد جمع إقبال بين البرهان الفلسفي والخيال الشعري لإثبات الذات والشعر وسيلة للاتصال بالناس والتأثير فيهم⁽¹⁾.

واضح أن جلال الدين الرومي هو الشاعر النموذج. فهو الأكثر ذكراً في «أسرار الذات». وبعده يأتي من الأنبياء موسى والمصطفى. ثم يظهر باقي الصوفية المسلمين مثل جامي والطارق والتبريزي. ومن الفقهاء يظهر الشافعي في مقالته الشهيرة «الوقت سيف»⁽²⁾. ويتداخل أبطال فارس مع أبطال الإسلام، رستم وحيدر (علي بن أبي طالب). كما يظهر أبطال فارس وحدهم مثل شيرين وفرهاد. وتظهر الثقافة الفارسية قبل الإسلام بأساطيرها وأبطالها. فما زالت حية في الوجدان. وتداخلت مع الثقافة الجديدة، الثقافة الإسلامية⁽³⁾. ومع فارس تتداخل الهند. فإقبال هندي يكتب بالفارسية. وتذكر مدن الهند مثل لاهور، ومدن فارس مثل

(1) السابق، مقدمة إقبال ص 13 - 15.

(2) جلال الدين الرومي (8)، موسى، المصطفى (3)، نظيري النيسابوري، جامي، الططار، التبريزي، الشافعي، حيدر (1)، شيرين، فرهاد، رستم (1)، أفلاطون (2)، المشاء، الروم (1). هندي، فارس (2)، فهلوي، لاهور، الهند، نيريز (1).

(3) طيننتسي من جام جم أنور من غيوب الكون عندي خبير جام أي كاس جمشيد. وفي أساطير الفرس كان عند الملك جمشيد كاس يرى فيه الأقاليم السبعة. استعمله إقبال كصورة على رؤية الغيب. الأسرار والرموز، ص 5.

تبريز. ومن اليونان يظهر أفلاطون. والمشاء وهو أرسطو هو الروم.

2 - الذاتية الحقيقة الوجودية الأولى

هي حقيقة بديهية، شعور الإنسان بذاته، وأنه غير العالم وغير الآخرين. هو قانون الهوية الذي طالما تحدث عنه الفلاسفة، الأنا تساوي الأنا، قبل أن تكون الأنا لا تساوي غيرها. وفي صيغة رياضية $A = A$ قبل أن تكون $A \neq B$. قانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. وهو نفس القانون عند فشته⁽¹⁾.

ومع ذلك تحتاج إلى إثبات، ليس للنفس بل للآخر، لمن لا يجدها. لذلك يصدر إقبال «أسرار الذات» بمقطع من جلال الدين الرومي يذكر بديوجين الفيلسوف اليوناني الذي كان يمسك بمصباح في وضوح النهار يبحث عن الإنسان. فالشيخ بالمصباح يسعى في كل ناصية بعد أن ضاق بالأحياء يفتش عن الإنسان، باحثاً عنه حتى ولو كان محالاً⁽²⁾.

الذات تثبت ذاتها ليس ببرهان عقلي ولكن بدمع العين في السَّحَر⁽³⁾. ومن خلال الخوف من البحر دون أمان، وفي أمان الصوفي تكمن الذات، محافظة على نفسها⁽⁴⁾. وعار على البحر ألا تخرج منه درة ذات شان. ومعرفة النفس تجعل العتيق كالصوان⁽⁵⁾. ليست الذات قشة أو شوكة في مرعى. بل هي قلب العالم وجوهره. فلا ينظر إليها باحتقار⁽⁶⁾. تقوم الذات من ذاتها. لا تثبت بفلسفة غربية ولا

(1) فشته فيلسوف المقاومة، الباب الثاني: نظرية العلم، الفصل الثاني، ص 183 - 187.

(2) رأيت الشيخ بالمصباح يسعى
يقول ملئت أتعام وتهما
فقلنا ذا محال قد بحثنا
الأسرار والرموز ص3.

(3) قنوم ذاته سحرا
بدمع العين أواه
ضرب الكلم ص121.

(4) Persian Psalms, p. 47.

(5) إن عارا معيشة البحر إن لم
يا جهولا يقدر نفسك لولا
رسالة الشرق ص311.

(6) Persian Psalms, p. 53.

بفلسفة شرقية، ولا بيت عبادة وتشيد أصنام. تستطيع الذات أن تعبر الصحراء بلا خوف بالتركيز على ذاتها. والعالم كله منها وفيها⁽¹⁾. فإذا كانت الذات مع آخرين فإنها لا تذوب فيهم. هي معهم وليست منهم. أليفة معهم وغريبة عنهم⁽²⁾.

معرفة الذات بديهية. والتبعية للغير في حاجة إلى تساؤل واستغراب. البدهة الذاتية واضحة بالرغم من ماضيها من قلق وحيرة. من البدهة أن الذات من طين. تعرف قدر ذاتها. ليس لديها إلا الذاتية وملكيته لها وليس لغيرها. وامتلاك الذات يمنع من انتهاك عرضها. فلماذا لا تعبر الذات عن نفسها؟ إن كان خطأ في تصميمها فيمكن تصحيحه. قيمة الإنسان خروجه من الفخار⁽³⁾. والغوص في الذات قدر المستطاع. فحياة الإنسان في بحر. والانتساب هو الانتساب إلى الذات⁽⁴⁾. وهي معرفة يغطيها جبريل لأنه لم يأت بها من اللوح المحفوظ بل هي نابعة من القلب⁽⁵⁾.

الفرق بين الإيمان والكفر إثبات الذات⁽⁶⁾. ومن أثبت الذات فإنه يستحق

Ibid., p. 108 - 9.

(1)

Ibid., p. 112.

(2)

(3) واضح قولي وفكري نبر
طبيعتي هذي التي أملكها
ليس عندي غير شيء واحد
أنت لو مكنتني من صوته
كيف لا تُعرب عني صرختي
أنا غنيت كما علمتني
خطأ إن كان في تصحيحنا
ذلك الإنسان ما قيمته

(3)

جناح جبريل ص 419.

(4) اغرق بذاتك ما استطعت فشط بحرك في حيائك
إن كان يزعجك انتسابي فانتسب لجمال ذاتك

(4)

السابق ص 429.

(5) ذاتك، فالذات التي تدعئها

(5)

السابق ص 454.

(6) مؤمنون يشبهون الكافرينا

(6)

السابق، ص 457.

مسلمون ولذات منكرونا

الفداء والهوى⁽¹⁾. رؤية الذات بهجة الإنسان. وثبتت بالإرادة والعصيان. ونقدها وبال⁽²⁾.

لا يستطيع علم النفس أن يسبر غور الذات. فنظرياته قاصرة عن إدراك أعاصير البحار المملوء بالجزر التي لم يصل إليها حتى الآن بخار. ولا يتناولها إلا إعصار موسى القادر على الدخول في لجتها وإلا فالصمت والعجز أمام أي إعصار⁽³⁾.

أ - يقظة الذات

يقظة الذات ليست في الدير ولا المحراب. وسبب نوم شعوب الشرق هو هذا السم. وهو غياب الذات أو سجنها في دور العبادة. إنما الذات هو كفاح في العالم. ومسراها فوق السحاب. لا تهاب الموت لأن الذات خالدة بعد أن يتحول البدن إلى تراب. قد يخفي الدهر أسراه لكن القلب قادر على اختراق الحجب، وكشف الأشياء. تستطيع الذات أن تحيل هشيم آسيا إلى نار، وأن تتحرر من الخشخاش والأفيون وكل أنواع المخدرات من أجل طلب المعالي. وبدلاً من كسر الجناح والذل يمكن للذات أن تطير إلى رحاب الفضاء⁽⁴⁾.

في «وصية السلطان تيبو» الذي جعله إقبال نجلياً للذات يعبر من جديد عن

- | | |
|--------------------------------|------------------------------|
| (1) من رأي ذاتا له إنني فديته | وازن العصر بحلق من هويته |
| السابق، ص 308. | |
| (2) لذة العصيان كانت منعبته | رؤية الذات رآها بهجنه |
| هذه الذات بعصيان تنال | وانعدام الذات معناه الويال |
| السابق، ص 309. | |
| (3) دع عنك فكرك فالإعصار جرار | وليس تجدي ببحر الذات أفكار |
| وأين أنت بهذا البحر من جزر | صغيرة ما أتاها قط بخار |
| إن لم تشق كموسى ثوب لجتها | فحظك الصمت إن وافاك إعصار |
| السابق ص 549. | |
| (4) يقظة «الموت» لا أراها بدير | لا ولا تجتلي لدى المحراب |
| إن روح الشعوب في الشرق غاف | من سموم الترياق، رهن غياب |
| إن تضيق بالجهد في الأرض ذرعا | فحرام مسراك فوق السحاب |
| ليس من خيفة الممات نجاة | إن تر «الذات» هيكلًا من تراب |
| ليس يخفي صروفه الدهر لكن | لك قلب وتناظر في حجاب |

فلسفته في الذات ككفاح وتضحية حتى ولو ضحى قيس بالمحمل في صحبة ليلي⁽¹⁾. فطارق البیداء يستمر في السير دون أن يعزج على نزل. وجدول الماء يتقدم حتى يصبح نهراً. ولا داعي للحيرة في السير دون اختيار طريق. ونور الحقل لا يحرق بل يضيء. والحق حق، والباطل باطل، ولا خلط بينهما⁽²⁾.

الذات أعلى شيء في الوجود. ويضرب إقبال المثل على ذلك بغني كشميري له من ممتلكات الدنيا الأراضي والقصور. يتركها بلا حراس. فلما استدركه الأصدقاء قال: وأنا في البيت، البيت غني بمن فيه وهو الذات. وعندما أغادره يصبح البيت فقيراً. ومن ثم لا يحتاج إلى حراسة⁽³⁾.

الذات يقظة الوعي. والوعي كالحسام البراق. تشرق كالذرات. تدرك الآفاق. تجوب أعماق البحار. ولا تقعد على البر⁽⁴⁾. الذات تضيء الوجود. وبها كفاح الحياة وسرورها. مقامها فوق الثريا. بها تتجلى الصفات. لا تعتمد في وجودها إلا

أن ناري حديدة في السحاب
موني، إلى طلاب المعالي
قد رنا اليوم للفضاء العالي

قد مُنَحْتُ الهشيم في أسيا إذ
هاج أنغامه عكوفاً على الخشخاش
فمهبط الجناح ألف دار

ضرب الكلم ص 5 - 6.

(1) السلطان تيبو قاد كفاح المسلمين ضد الإنجليز في جنوب الهند، وألب عليهم دولا إسلامية أخرى، محاولاً التنسيق مع نابليون. فحشد الإنجليز ما حشدوا، ولما يش من النصر ألقى بنفسه من القلعة ومات عام 1213هـ.

لا تمرّج منزلاً، لا تقبلن
فامض شوقاً، محملاً لا تقبلن
واغد نهراً، ساحلاً لا تقبلن
في البرايا، ضلالاً لا تقبلن
حرق، كن مشعلاً، لا تقبلن
قال ربي أزلّا، لا تقبلن
شوب حق باطلا لا تقبلن

طاوي البیداء شوقاً أقبلن
لا، وإن سار بليلي محملاً
جدول الماء، تقدم مسرعاً
لا تحز في صنم الكون وسر
يا مذهب الحفل، لا تفبل له
كل قلب ذل للعقل فقد
وحد الحق وثني باطل

ضرب الكلم ص 51.

A Message from the East, pp. 95 - 6.

كالحسام المصمّم البراق
ما انطوى في الذرات من إشراق
رجل الله صاحب الآفاق
وهو في البحر محزّم الأعماق

جذُن حق تنبّهت فيه ذات
نظرات لديه تشرق فيها
إيه عبذ الآفاق! كيف تداني
أنت في البر قاعد عن طلاب

ضرب الكلم ص 52.

على ذاتها، وليس على غيرها. فإذا ماتت تحولت إلى وثن مثل اللات والعزى، صنم لا حياة فيه. لا تقلد أحداً ولا تحاكيه يكفيهم الإنسان الموت بعد الحياة، وليس الموت مرتين⁽¹⁾.

نار الذات ونورها للإسلام، روح مستنير. الاقتباس منها في حياة الناس نور وسفور. هي أساس الوجود وأصله للتجلي من وراء الأستار⁽²⁾.

لا تضرب في غيرها. ولا تعيش على ذات أخرى حتى ولو كانت الحياة في القبر تحت الأرض. ومن يعيش على غيره لديه نفس، ولكن ليس لديه روح⁽³⁾. تقلب الذات النظرة من الخارج إلى الداخل كما هو الحال في الظاهريات عند هوسرل. وبالرغم من هذا الظاهر العاري، في الداخل قمر يشرق⁽⁴⁾. وفي قصيدة «سفر الساقى»، من الذات ينطلق الدافع الحيوي، مفهوم برجسون الأثير. والفقير الكشميري غير مدرك لقدراته الذاتية، ولا يثق بنفسه، خجلاً منها⁽⁵⁾.

ب - إمكانية الذات

الذات تفتح كالوردة، حجاباً وراء حجاب⁽⁶⁾. هي إمكانية للتحقق، و طاقة

- (1) تضيء حريم وجودك ذاتك لها فوق أوج الشريا مقام أمن «ذات» غيرك تعمم قلباً فلا تبعثن ولنّها بعد موت كمال المحاكاة أنك تفتنى

السابق، ص 76.

- (2) إن نار «الذات»، والنور لديها إن نار «الذات» فاقبس من لظاها هي تفويم وجود وهي أصل

السابق، ص 19.

- (3) أهاب بمسمعي تراب قبر له نفس وليس لديه روح

رسالة الشرق ص 273.

- (4) A Message from the East, p. 40.

- (5) Ibid., pp. 75 - 9.

- (6) أعن ذات تحجب بالحجاب إليها حبذا يوم الإياب

أرمغان حجاز ص 483.

للتحرك، وليست شيئاً يُعطى أو يؤخذ. الغوص في الذات مثل الغوص في البحار، فقد ووجد دون شاطئ أمان. وسياحتها في الفضاء بصرف النظر عن جنسها. جاءت من الأرض وتخلقت منها وتعيش في الكون إلى ما لا نهاية. تتعثر في متاهة نفسها وكأنها دخيلة عليها. تخاصم ذاتها، وتسهر ليلي طوال⁽¹⁾. تتجلى الذات في ظلال النبوة عندما تأخذ الكتاب بقوة وتصل إلى مقام ﴿قَابَ قَوْمَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾⁽²⁾ القسم: 19 دون العرش والكرسي. كل ذلك تشعر به الذات في قرارة النفس⁽²⁾.

الذات الحية بحر لا شاطئ له يصب فيه النيل والفرات. والذات الميتة عود قش أمام النسيم. الذات الحية سلطان الموجودات. ومقام المؤمن حرم الذات وليس القبر المظلم أو مكان تجلي الصفات. معرفة الذات تحطم طنسم الشمس والفلك والنجوم. فكيف يضع جوهر الإدراك؟ لماذا لا تصل الذات إلى أكباد النجوم؟ إنها خليفة الظاهر والباطن وليست عشياً جافاً أو شعلة منطفئة. تخضع لها الشمس والقمر، وترتجف لها الأفلاك. الدم يجري في العروق ولكنه خال من حمية الأفكار والعجزة. العين لا ترى العالم إذا خلت من النظر الطاهر. وإذا غاب صفاء الضمير يصبح من قبيل السلطنة والملأ والمشيمة⁽³⁾. لماذا لا يجتاح الطوفان عبر الذات وتكون الذات مسلمة؟ أحياناً ترتفع الذات من البحر كالموج، وأحياناً تنزل إلى صدر البحر، وأحياناً تمر على الساحل فما هو مقام الذات؟⁽⁴⁾.

الذات بحر ليس له ساحل كي يغوص الجبان فيه. وليست جدول أنس

(1) أضع النفس في البحار وغامر وأقيم بين ضجة وتلَوَّ هل لمثلي من الفضاء نصيب جئت للأرض؟ أم تخلقت منها كم تعثر في متاهات ذاتي بين نفسي من الخصام وبينني جناح جبريل ص 465.

(2) إنها الذات عندما تتجلى إنها نفسها حجاب إله تصل الذات قاب قوسين لكن السابق ص 466.

(3) أرمغان حجاز ص 526 - 527.

(4) السابق ص 533 - 534.

ثم غص في البحار واعثر عليها ليس من شاطئ يقود إليها من تراني أنا وما هو جنسي قفصي الكون أم نهاية نفسي؟ وكأنني في أرض ذاتي دخيل سهر دائم ولنسبل طويلاً

تنعم الناس في ظلال النبوة عندما تأخذ الكتاب بقوة لا ترى نفسها بعرش وكرسي

ومكاناً يجتمع فيه أهل الذل والهوان. قد يستطيع الإنسان كسر السماء بفأس. فالسما من زجاج. إلا أن البحار تمور بالهيجان. لذلك لا يطبق الجبان هياج ذات، في حين أن الشجاع يغوص فيها ويطفو. ولا تقوم الشجاعة على العلم بل على اللطف أي على قوة الإرادة، وتحقق الإمكانية. وهو ما لا يستطيعه المنجم الناظر دائماً إلى النجوم. العلوم العلوية بهذا المعني زيف. في حين أن الإنسان من طين. جوهرها سر. وهي فردوس على الأرض التي يأتي إليها جبريل. والإنسان عينه الثاقبة، حجرها به ماء ونور⁽¹⁾. وإن قعد الطير عن الطيران فإنه يموت. وإن انكسر جناحه لا يطير⁽²⁾.

الذات كأمواج البحر، يعلوها الإنسان إذا علت أو هي جوهر تحت صخرة. فالذات لا تعطي جاهرة بل تُكتشف⁽³⁾. وشرف الإنسان بالذات وبلوغها الكمال وإلا تحول إلى عبد. وهي ليست متاعاً يباع ويشترى. هي جوهر في البحر راقد إذا غربت يهلك الإنسان⁽⁴⁾. والخطورة على تركيا أنها فتحت ما أوصدته، وعلى مصر

- (1) إنها الذات إن تمعنت بحر ومحال تكون جدول أنس ربما تكسر السماء بفأس والذي يجعل البحار بحارا لا يطبق الجبان لجة ذات وقوام الشجاع ليس علوما كيف يستوعب المنجم هذا أنت من طينة يحك عليها إن فردوسنا على الأرض حبيذا أن تكون ثاقب عين جناح جبريل ص 441.
- (2) إياك يا قبرتي من التلف بعرقل الجناح أن يطير السابق ص 449.
- (3) علوت كموجة من بحر ذاتي أرمغان حجاز، ص 459.
- (4) بتلك الذات شارفت الكمالا إذا ما قلت ذاتي لي متاع وأنت الذات يوماً إن تشاهد وتلك الذات إن غربت عنها لترك فتُحوا ما أوصدوه
- ماله ساحل لخوض جبان ومحلا لجمع أهل الهوان فبناء السماء بك زجاج تنقي أنها محل الهياج ويغوص الشجاع فيها ويطفو ترب العلم فالشجاعة لطف بطريق مكبل بالنجوم سرك الحي زيف كل المعلوم هذي فيه جبريل لا يغيب وحور حجر العين فيه ماء ونور
- فالموت خير لك من هذا العلف وربما بتركه كسيراً
- كمنت كجواهر تحت الصفاء
- وإلا كنت للعبد المثالا فنسيان لها ليس الحلالا نقر كجواهر في البحر راقد فأنت لأجل هلكك من تجمد وفي مصر أساس وطفوه

أنها أُمست بنياناً مع احتمال نسيان الذات. فالتمسك بالذات هو طريق النجاة. وإذا تولى الربيع طار العطر. وإذا نبت الزهر سرعان ما يذبل. تقوم الذات بفعل لا إله كي تُبعث من التراب. طريق الذات ينضج بالماء في بحر لا يرى إلا العباب⁽¹⁾. ولا تباع الذات بالفضة أو الذهب ولا يباع بريقهما اللهب⁽²⁾.

تشتعل الذاتية بنور الكبرياء. ومن نقصها يبدو الكمال. مقامات وصالها فراق. وفراقها وصال. وتبدو الذاتية سيفاً حساماً له حد ولون وريح وسط الجدل. هي جوهر في جوف بحر. وهي طين وروح، جسم وقلب، نوم ويقظة⁽³⁾. الذات نور ونار، تضيء وتحرق⁽⁴⁾. وبالرغم من عظمة الذات إلا أنها في غاية التواضع ﴿وَلَا تَتَّخِذْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37] ففي قصيدة «الغرور»، ادعى الجليلد أنه أفضل من نهر الجبل. فهو أعلى مكاناً، وأثبت وجوداً، وأنصع بياضاً. وهو أصل نهر الجبل، ومصدر وجوده. ورد نهر الجبل بأنه حياة وحركة وتغير. فإذا تجمد ونقصت حرارته تحول إلى جليد. وفي النهاية يذوب الجليد ويصب في النهر⁽⁵⁾.

- = تمسك إن ظفرت بذيل ذات
إذا قوم ربيعهم تولى
وتنبت أرضهم زهرا ولكن
السابق، ص 460.
- (1) لذاتك لا إله فضم مرة
طريق الذات فانضحها بماء
السابق، ص 461.
- (2) لا ترضين فضة بالذات أو ذهباً
جناح جبريل، ص 543.
- (3) بنور الكبرياء لها اشتعال
مقامات الوصال لها فراق
ومن جدل تقوم أن يريحوا
بدت ذاتية سيفاً حساماً
أراها جوهرًا من جوف بحر
وطين حينما يرضاه قلب
ومن نوم بخلق «أنا» سيصحو
أرمغان حجاز، ص 489.
- (4) وتمنح ذاته نوراً وناراً
السابق، ص 469.
- بغير الذات ذا لم يعهدوه
فعطهم التوهم ليس إلا
تشاهد لنذبول عليه ظلا
- نتخرج من تراب مات نظره
ليحر لا يري فيه العباب
- ولا تبع بشرار ذلك اللهيا
- ومن نقص لها كل الكمال
كما أن الفراق لها وصال
ليزهر عندهم أمل نجيع
ويعرف حده لون وريح
سواء بمثله من لن يجودا
يفطره لطيب النوم حب
بجسم حين يحكمها سيخو
- ليصبح ليله الداجي نهرا

ج - وحدانية الذات

الذات عالم بمفرده، عالم الشعور والوجدان. خشوعها عذاب، ووثبها طموح. فكرها بستان، ونفسها مرآة. معاركها في القلب. ودروشتها من معاناتها. تمتاز بالآهات. وتسير من جيل إلى جيل⁽¹⁾.

الطواف حول الذات طواف حر، وليس حول السرير والإيوان طوافاً مجبراً. ولا تتباعد الذات عن مقامها حتى لا تقع في ذل الأسر العاني والانجذاب نحو مركز آخر. لا تسير الذات واهنة الخطى كذليل الطير بين الجدران. تطير كالشاهين في القمم، وليس في مسارب الوديان. تنافس الطيور في الطير دون عش. تغير العالم القديم وتجده. تنشّد الجهاد في رضا الرحمن. وهي القادرة على تحقيق الحق، وتحويل الإمكان إلى واقع⁽²⁾. تظهر الجوهر الكريم من الأصداف حتى يبدو للعيان. وتتححرر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوان. ترشدها الفطرة.

ووثبي في طموحاتي
التي أمحو بها ذاتي
ونفسي وهي مرآتي
وجيش ظنونها العاني
تضج به عراكاتي
نصبي من معاناتي
ونمزجها بأهاتي
بموكب جيلنا الآتي

(1) خشوعي في عذاباتي
ونوع طرقني هذي
وفكري وهو بستان
وحصن يقينها المضني
وقسني وهو ميدان
ودروشتي التي تبدو
سألتك أن تعتقها
وتسقيها لقافلتي
جناح جبريل، ص 514.

لا تطف بالسريّر والإيوان
صرت في ذلة الأسير العاني
الطير بين الطلول والجدران
م السماء لا في مسارب الوديان
ش أعلى الفروع في البستان
دائرة النجم أو ذرى كيوان
لاك فرق الزمان فوق المكان
فيه دنيا جديدة البنيان
في رضا الحق وهو ماضي الجنان
الحق في الممكنات والإمكان

(2) طف إذا شئت حول ذات: حرا
قد تباعدت عن مقامك حتى
لا تسر واهن الخطى كبغاث
كن نظير الشاهين في القمم
تتحري الطيور عند بناء العدم
لست دون النسور بأنا فحاول
من مهاد الثرى إلى التسعة الأف
غير العالم القديم وعمر
والذي ينشد الجهاد فناء
هو سر الأقدار، هو قضاء
يا أمم الشرق، ص 350.

قصد من الثرى إلى الأفلاك. وتتجاوز المكان والزمان⁽¹⁾.

3 - الوعي الذاتي

الذات المستقلة وعي ذاتي. ترى نفسها في مرآة ذاتها. وتهرب الصورة في الغير⁽²⁾. والقرآن هو هذه المرآة التي ترى الذات فيها نفسها كوعي ذاتي مستقل. والذات فردة لا نموذج لها ولا مقياس. وهي أعظم ما يلوح للناظرين. هي المعروف عنها أنها عمق ذاتها، تعرف في العمق لا في السطح⁽³⁾. الذات مع الجمع ومنفردة، أليف وغريب. يبقى في القصر مع الرعية. ويعيش في الصحراء كالنبي بلا قوم⁽⁴⁾.

أ - استقلال الوعي الذاتي

تعتمد الذات على ذاتها. لا تحتاج إلى عصي يتكأ عليها الخطيب ليدعو الناس إلى الحق أو خشب لصليب يُحمل عليه الشهيد⁽⁵⁾. تقوى الذات، وقوتها مقصد الحياة. والقوة حسية ومعنوية، مادية وأخلاقية⁽⁶⁾. والإنسان تحت الشمس كشرار لا يدري ما مقامات الوجود لأنه لا يدري فن بناء الذات أو تصورها أو

(1) أظهر الجوهر الكريم من الأصـ داف واجعله باديا للعيان
وتحرر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوان
واجعل الفطرة النقية تبراسا لعيذك بين قاص ودان
السابق، ص 350.

(2) لك القرآن كالمرآة فانصب ونفسك دع إذا غُبرت واهرب
أرمغان حجاز، ص 464.

(3) هنا يا أنت كل الناس يعرف بعضهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم غريب ينكر الأرض
وكننت بقصر أورئة من الممكن أن أبقى
شريطة تحمّل الصحراء حين أجن ما تلقى
زبور المعجم، ص 390 - 392.

(4) ولك الوجود جميعه أم لي أنا والكون سحرك أم تموج ذاتي.

(5) ليس في أعواد غابي سقط هي للمنبر أو أعواد صلب
الأسرار والرموز، ص 5.

(6) ضرب الكلم، ص ط.

غناها أو نشيدها. إنما خفاء الذات في المكتب أي المهنة والحانة أي اللهو، وحياة الذات دوام وخلود⁽¹⁾.

وفي «نصيحة صقر لفرخه»، يعبر إقبال عن استقلال الذات وقوتها واعتمادها على النفس. فالذات كالصقر. جسم صغير، ولكن قلب ليث. المهم أن يكون الإنسان محكم الرأي شهماً صبوراً، أياً غيوراً على القيم والسجايا. تصاحب الذات مثلها في قوتها لا الضعاف. تطعم من عل لقطاً، وليس زحفاً على الأرض. المخلب أولى من الزحف. والطير في السماء أشرف من الزحف على الأرض. والحياة نشوة وجذل، جرأة وقوة. الحياة جهاد وصبر، محنة واجتهاد. وتجنب القطيع والغنم من أجل التفرد والجهد الفردي وعدم الركون إلى ظل الآخرين. والجمال أولى من الرياض. تتجلى قواه ساعة الخطر. والجناحان بروق وشهب. الاعتماد على الذات وليس على الغير هو طريق النمو⁽²⁾.

لست تدري ما مقامات الوجود
ويل تصوير وشدو وقصيد
درس إفناء به انذات تبید
لحیاة ودوام وخلود

(1) أنت تحت الشمس تمضي كشرار
ليس في فنك للذات بناء
ليس في المكتب والحانة إلا
ليت شعري هل تعلمت وجودا
السابق ص 81.

لها قلب ليث وجسم صغير
علي السجايا أياً غيورا
ودعها إذا لم ترد أن تصيدا
تدس مناقيرها في الرغام
إذا قلد الصيد ما اعتاده
بصحبة لقاط حب هوى
جربنا متينا قوي العضل
وكن مخلبا كالمدى أو أحد
وصبر على محنة واجتهاد
«بريق الدماء يفوق العقيق»
توجد كقومك منذ القدم
بالأ نقيم بظل وساق
فسيح الفيافي لنا والجمال
حبانا الإله عنان السماء
فأشرف منه حمام قريب
يحد مخالبهن الصخر
كانك عنقاء جو مئين

(2) تعلم بُني بأن الصقور
فكن محكم الرأي شهما جسورا
بُغات الطيور اهجرنها بعيدا
فتلك انزعاديد نسل اللنام
أرى الباز صيدا لما اصطاده
فكمم باسق قد أنهى النوى
فنفسك فاحفظ وعش في جذل
ودع للدراريح لين الجسد
متاع الحياة، تعلم، جهاد
نقول لفرخ عقاب عتيق:
ولا تبغ سربا كسرب الغنم
سمعت وصاة الصقور العناق
فليس لنا في رياض مجال
ولقطك حبا بأرض خطاء
فأما خطى في التراب النحيب
فإن بساط البزاة الحجر
نماك الأوابد زرق العيون

لم يكن طيران الأنبياء اعتماداً على الغير ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. وطيران المسلمين اليوم لا يعتمد على طيران الآباء والأجداد. فهو اغتراب في الزمان، وإرجاع الحاضر إلى الماضي. لا يوجد المسلم اليوم قاعداً أو طائراً لأنه لا سلطان له، وبالتالي لا وجود له⁽¹⁾. الذات للقيادة وليس لركوب الهودج. ترشد الركب إلى الطريق⁽²⁾. والمسلم نسيج حياته، وثوب تقواه. هو واحد متوحد مثل الله. هو الموج الذي يحط على الشاطئ كما يشاء ثم يعود إلى ذاته، إلى عمق البحر دون الاستقرار عليه⁽³⁾.

السفر من الذات إلى الذات، من الذات - الإنسان إلى الذات - الإله، من «خودي» إلى «خودا». الإنسان الكامل ليس حقيقة معطاة سلفاً بل هو قصد الإنسان المتعين وغايته⁽⁴⁾. فالإنسان يحصل على الكمال بتجاوز ذاته الدنيا إلى ذاته العليا، والتحول من الشك إلى اليقين⁽⁵⁾. وفي العلاقة المتبادلة بين الذوات تتم الرؤية

= أصيل أبي بيوم الخطر
جناحت من سطوات البروق
فطر في السموات ولا تخش خطيا
ولا تقبلن طعمة من أحد
رسالة الشرق، ص 286.

(1) طيران الأنبياء ليس كهذا
ليس يعني إن كان جدك باز
أه للمسلم الذي يات رسما
سألوني فقلت: بوجد، قالوا:
حتاج جبريل ص 466.

(2) أنا لا أركب الهودج هذي
أرشد الركب للطريق وأمضي
السابق، ص 467.

(3) أيها المسلم المشابر يرجو
كن وحيدا ووحد الله واكشف
كن كما الموج كل حين تراه
انتزع من يديه ثوبك وارجع
السابق ص 467.

(4) وفي حضر بذلك تلك سفره
زبور العجم، ص 393. وأيضا: من العفيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص 600 - 664.

(5) ودوما كن لذاتك في الكمين
ومن شك ففر إلى اليقين

بينهما دون أن تفقد الذات الإنسانية حضورها أمام الذات الإلهية، ودون أن تغنى فيها بل تبقى بها. وبنور العشق المتبادل تضيء الذات. الذات مركب هادئ في عباب النهر والبحر بلا سواحل أو ضفاف. فأين ربانها ودليلها بدلاً من الحيرة والسير بلا هدف؟ أين الربان الموهوب، صاحب الرؤية والكلام أو الروح الملهية وهي متطلبات الربان الماهر؟⁽¹⁾.

وللذات جلوة وخلوة. تذوب في الجلوة. وتجتمع في الخلوة. تجلو الذات في نور الصفات، وتخلو من نور الذات. العقل يدفع نحو الجلوة. والعشق يدفع نحو الخلوة⁽²⁾. ليست الذات غريبة على نفسها. وليست غريبة في ديارها. كل شيء يمثل لها، ويعمل بأمرها. وخارج الذات لا يوجد خير أو شر. وداخل الذات لا يوجد أمن زائف بل مغامرة ومخاطرة وإلا فالقبر أكثر أمناً. وتموت الروح من طول المقام. وتحيا إذا ما تحركت وتقدمت وسعت إلى الأمام حتى تصل إلى النجم دون توقف. وكلما علت إلى السماء رأت الأرض واتساع الفضاء⁽³⁾. النظر هو الطريق

وذلك بالخروج عن الجهات
تري مولاك والمولى يراكا
حذار من الضياع ببحر نوره
وأظهر منك ذاتك في ضياء

كما لا نظرة كانت بذات
بذات الحق نخلو آنذاك
بذاتك كن قويا في حضوره
تحرق حيث يبدو في جلاء

السابق، ص 393.

بمخر في النيل وفي الفرات
من ساحل في هذه الحياة
بأن يدلها المدار الحائر
ينقصها اليوم دليل ماهر
وسحر ألفاظ وروح لاهية
قائد هذه القافلات الذاهية

حتى متى مركب هذي الذات
فُذِر أن يركب بحرا ماله
فكيف عند هؤلاء رغبة
ركابهم بالرغم من نشاطها
الحاظ موهوب وعين ثاقبة
كل الذي يملكه من عدة

جناح جبريل، ص 445.

وتراها جمعت في خلوة
لكن الخلوة من نور لذات
عشقها الماضي بها للخلوة

وللذات ذوبها في جلوة
جلوة للذات في نور الصفات
عقلها الدافع نحو الجلوة

جاويد نامة، ص 149.

لا تخف من غربة مرت ببالك
وبأمر أو ينهي قد عمل
لا ترى خيرا وشرا ينبري
كان هذا القبر خيرا من جنان

لا تسر مثل الغريب في ديارك
إن منك القول كل يمثل
خارج الذات بشط الكوثر
لو بكف الذات عن بحث أمان

إلى عالم الروح. ونور الذات هو نور البصر⁽¹⁾. ومعرفة الذات هو الطريق لمعرفة الخير والشر، الضار والنافع⁽²⁾.

ب - الذات الكونية

الذات أول الكائنات وأصل الحياة. تغفو وتصحو. تتكرر وتتوحد. تضمحل وتنمو، تنقص وتكثر، تفرق، وتجمع وهي عميقة كالبحر، متلاطمة الأمواج، في حركة دائبة. تتستر وتظهر، تخفى وتجلي. هي شرار نار. تقبض وتبسط. الذوات الأخرى أشعة لها. ترابها حجاب. وروحها كشف. تشرق من الصدور. وتير العالم من أجل أن تسير في الطريق. وتكمل السفر، من الزمان على الخلود. توجل وتأمل. مقرها القلب، وموطنها الوجدان. مع الغير تفرق وتجمع، تفصل وتتوحد. تخضع لضرورة العالم. وتتححر بقدرتها على الاستقلال⁽³⁾.

الذات لا تضيق في الكون لأن الكون جزء منها. تجذب الدارين إليها. ولا تنجذب هي إليهما، شرقاً أو غرباً⁽⁴⁾. وعندما انبثقت الذات عن الكون ظهر الضياء

- | | |
|--|--|
| <p>أيها الراحل، فامض للأمام
حبذا من غير وقف رحلتك
ما علا ألقبت تحت نظرتي</p> | <p>=
ونموت الروح من طول المقام
ومع النجم تطيب سفرك
حين كانت في الفضاء وطأني
السابق، ص 159.</p> |
| <p>فينور الذات نور للبصر</p> | <p>(1) عالم للروح خص بالنظر
السابق، ص 284.</p> |
| <p>يخلق النفع لده من ضرر</p> | <p>(2) كل من يدري عن الذات الخير
السابق، ص 289.</p> |
| <p>ونورها أصل الحياة
بكثير بعد واحدتها تراها
نجوم، سائر وله القرار
جواهر أخرجت كانت بقاع
وتبدو الشمس أطلعها السحاب
بجوهرها التراب لنا كنور
بذاتك فلنساfer فلشعير
بإدراك لذاتك كن قمينا</p> | <p>(3) بذات عودة للكائنات
وتصحو من رؤاها في كراها
كنار، والذات لها شرار
ذوات أطلعنها من شعاع
تراب الجسم للذات الحجاب
وتلك الذات تشرق من صدور
ومعنى لأننا كم قلت بين
عليها أنت قد كنت الأمينا
زبور المعجم، ص 387 - 390.</p> |
| <p>=
بذاتك خذ، دع الدنيا لمحوق</p> | <p>(4) وفي دنياك فاحذر من ضياع</p> |

فيه. وتحول من واقع إلى إمكانية، ومن ضرورية إلى حرية. وخجلت الأرض قبل نزول آدم إليها. وتحولت الظلمة إلى ضياء. ومن فوق القمم يجيء النداء. وتتجلى الذات في الصفات. وبعشقها تصبح كل الكائنات⁽¹⁾. ثم ينبثق الكون من الذات، ويخرج من الصلصال، ويصبح الأرض نجماً من أقدارها. وبعد تطويع وخلق، تُصبح الذات الإنسان الكامل. ويتحول من لا شيء إلى شيء، ومن شيء إلى كل شيء، ويكون عند الله مرضياً⁽²⁾. وإذا حقق شعب ذاته من طينه فقد خفقت روحه، وخلق من جديد. ويفرح الخلق الأول بالخلق الثاني⁽³⁾.

الذات خالقة ومبدعة، تبدع الشعر والفن⁽⁴⁾. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة، ليتحدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها⁽⁵⁾.

- = إلى ذات لك الدارين فأجذب
أرمغان حجاز، ص 484.
- (1) فلتعيشي مثلما عاش الجميل
فاعتري الأرض من اللوم الخجل
ومن الظلمة أضواها الأنم
يا أمينا لست تدري ما الخير
تستنير عينه بالكائنات
من تلظي عشقه من حسن ذات
جاويد نامه، ص 143 - 144.
- (2) ويوما تبهر الصلصال نوربا بأنوار
ويوما تصبح الأرض سما من نجم أقدار
ويوما بعد تطويع سيمسي ذلك الأكمل
ويعلو منه شأن لم يكن في أمسه شيا
ويوما أنت لا تلفاه عند الله مرضيا
السابق، ص 145.
- (3) حبذا شعب بروح قد خفق
حامل العرش بأعباد فرح
السابق، ص 164.
- (4) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟
أضرمته الذات أو رب وهب؟
السابق، ص 297.
- (5) إنا الأمواج في نهر الحياة
ما الحياة غير تجديد تجدد
إنما التبديل شأن الكائنات
عالما تطلب في شوق تمهد

السكون موت⁽¹⁾. والدين أيضاً كذلك، موج مسرع لا يهدأ، بل يبحث عن المجرى العميق الواسع⁽²⁾. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع⁽³⁾.

ج - الذات الإلهية :

الإله ذات الكون، وذات الكون الإله⁽⁴⁾. وإذا كان الله خالق الوجود فإن الإنسان خالق ذاته. بل إن الكون كله تجل لهذه الذات. وعشق الذات يهبها الحياة، ويحميها من الموت، ويبعث فيها الحياة من جديد. وإذا كان للذات لحن فلماذا صوت الضفدع؟ وإذا كانت قادرة على الوثوب فوق الزمان والمكان فلماذا الرضى بوضع الراهب ورجل الدين؟ وإذا كان الآذان نداء يُسمع فلماذا لا يُسأل؟ وإذا كانت النظرة تسأل فلماذا نظرة الأسير؟ ولماذا تخاف الذات السماء ووسعة الدنيا، والروح قادرة على السباحة في الزمان والمكان؟ ومصير الحية في جوف الطين الانبثاق إلى الفضاء الأنظم دون أن تدري عن قريب أنها ستمر غصنها إلى السماء. القرب والبعد شعوري وليس مكانيا. وما منع الجسم مرة الروح من أن يطير⁽⁵⁾.

- | | | |
|-----|-----------------------------|-----------------------------|
| = | الذهاب والمجيء ما هما | الكيان للوجود منهما |
| | السابق، ص311. | |
| | خفقت كموجة في موج ذاتي | إلى الطوفان أدت ساقباتي |
| | أرمغان حجاز، ص471 | |
| (1) | السكون في الحياة للثبات | ما أسلته الله طولا في حياتي |
| | السابق، ص312. | |
| (2) | ديننا يشبه موجا أسرع | ما أقام بل أراد المهبعا |
| | السابق، ص314. | |
| (3) | أنت حي؟ حن شوقا واخلى | كل أفق مثلنا فلنطرق |
| | ما تراه لا يواتي فلتحطم | عالمنا منك إليك فلتقدم |
| | كل حر كان مكروبا حزينا | أن حواء عالم لآخرينا |
| | أعلى الإبداع أنت غير قادر؟ | لست في رأي لدينا غير كافر |
| | وعدمت حسنا حتى الأثر | من نخيل العيش ما ذقت الثمر |
| | السابق، ص318. | |
| (4) | من إنه الكون ذاتا يطلب | وله الكون جوادا يركب |
| | عاشق أنت؟ على اللاصوب أقدم | وعلى ذاتك موتا فلتحرم |
| | جاويد نامه، ص150. | |
| (5) | أنت يا من أنت ميت في الحفير | القيام ممكن من غير صور |
| | لك لحن مطرب في المسمع | فلإلام منك صوت الضفدع؟ |

ليس الوقت أياماً تمر والزمان ليس منفعة أو ضرراً بل الزمان إحساس داخلي خالص، توتر وخلق وإبداع⁽¹⁾.

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكشف عنه⁽²⁾. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله⁽³⁾. التجلي يُري غير أن الذات تطويه⁽⁴⁾. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات⁽⁵⁾. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. والإمكان قد يتحول إلى واقع وقد يظل إمكاناً⁽⁶⁾. سر الذات هو سر العظيم⁽⁷⁾. وجود الله يكسب الوجود. فهي مظهر من تجلياته⁽⁸⁾.

- = الممكان والزمان اركبن
اشحذ الأذن واشحذ عينك
تخرق النظرة لي كل الستور
من سموات تخاف! لا تخف
الزمان والمكان فلتشاهد
حبة في جوف طين مظلم
وهي لا تدري قريباً أنها
القريب والبعيد في الضمير
في الشعور ذاك من جذب وشوق
ليس هذا الجسم للروح النظير
السابق، ص 150 - 152.
- (1) لا يُعد الوقت أياماً تمر
السابق، ص 162.
- (2) ليس يُخفي عالم ذات الإله
السابق، ص 165.
- (3) رجل الله رأى بالله ذاته
السابق، ص 175.
- (4) التجلي كان هذا من رآه
السابق، ص 250.
- (5) «لزم الذات» بها الرومي حباني
السابق، ص 250.
- (6) نظرتي أمعنت في ذاتي طويلاً
السابق، ص 251.
- (7) ذاك انظر إن هذا رؤيته
السابق، ص 263.
- (8) وجود الله اكسبها الوجودا
أرمغان حجاز، ص 489.
- ذلك الزنار عنك اطرحن
ما تراه عنه فاسأل عقنكا
في عيون ما لها ذل الأسير
وسعة الدنيا تخاف! لا تخف
فيهما حالاً لروح أنت واجد
لا ترى علو الفضاء الأعظم
قد تمد في السماء غصنها
إنما المعراج تغيير الشعور
خلصن الذات من تحت وفوق
والتراب مانعا من أن نظيرا
والزمان لا يفيد أو يضر
غائصا ما رد رسم في المياه
في دماء خر كي ينهي حياته
غير أن ذاك في ذات طواه
«عش بأنفاس لمن غنى الأغاني»
فتن الدنيا حبيبي ما شهدته!
سره السر العظيم سنته
فكانت مظهراً جاز الحدودا

والذات واحدة، وهي انعكاس للوحدانية الإلهية⁽¹⁾. والذات الإلهية بعيد قريب يمكن مد اليد إليه⁽²⁾. ومن حرر الوجدان بالتوحيد ومعرفة الله تدين له الملوك.

وتستطيع الذات أن ترى عالم الأرواح، وتدرك العوالم العلوية فهي متعالية مثلها. وهنا يوحد إقبال بين الذات والكون والإله كما هو الحال في وحدة الوجود⁽³⁾.

4 - العقل والقلب

أ - حدود العقل

الذات عقل وقلب. العقل محدود، والقلب بلا حدود. العقل يفرق ويحتار بين طرفيه، والقلب يجمع بينهما. يحط العقل مرة على أرسطو، ومرة أخرى على سيكون حكماً بالظاهر. وثالثة مع الطوسي⁽⁴⁾. والقلب قادر على الولوج إلى بواطن الأمور. لا يستطيع العقل التعامل مع وعبر الطريق ومع الدنيا التي بها وهج الشروق⁽⁵⁾. العقل لا يفيد في السعي للتحوّل من الزمان إلى الخلود. لا يتحوّل إلى

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | تبقي على الدهر واحدا بطلا | إن كان في القلب «لا شريك له» |
| | ضرب الكلم، ص116. | |
| (2) | وعن ذات إلهي وهو نار | نمد الكف في طلب العطاء |
| | أرمغان حجاز، ص466. | |
| (3) | وللأرواح أسرار دراهما | بعمق الذات من دنيا رآها |
| | السابق، ص469. | |
| (4) | إلى أبد لعقل ما السبيل؟
وأعرج كان، بغينه السكون
ومزقنا الحقيقة في يدينا
وقلبك ثم عقلك فاصحح
فمن كل جزئ كان أكثر
أرسطو مرة إياه فاعرف
بعقلك وهو يدرك كل كم | فواحدة كثير، والقليل
على الفشر الباب له يكون
مظاهر للفوارق ما رأينا
إلى الأثر فارجل، وانظرون
جنون قولة الطوسي وآخر
ويكون لحنه يوما لتعرف
ويطعن معدن أو قناع يم |
| | السابق ص382 - 384. | |
| (5) | ينغير عقلنا وعبر الطريق | ودنيا كان في وهج الشروق |
| | السابق، ص387. | |

نور إلا بفعل العشق. قد ييأس العقل فيساعده العشق بالأمل⁽¹⁾. فإذا رفع العقل النقاب عن الأشياء يظل خطابه عارياً من الصدق. الصدق يأتي من القلب. يشاهد العقل الكثرة، وبالقلب الوحدة⁽²⁾. داء البصر، البصيرة دواؤه.

العقل مجرد جدل وضمون. أما المعرفة الحقة فهي المعرفة الذوقية. وهي نظر وعمل، إدراك ومصير. ومصير الإنسان حركة نحو المستقبل، وليس وقوفاً في المكان. وسر اللآلئ خلود بريقها وإلا كانت مجرد حجر. وما قيمة دم في العروق إذا كانت مهمته إطفاء نار الفكر؟⁽³⁾. ويتم صقل العقل ليصبح كالسيف. أما الحب فله طريق واحد. لا يتوقف حجاجه. وهو على سفر دائم وإن بدا واقفاً. والسير مشروط بالتخفف من الزاد والمطية. ولو تخفف الإنسان من أحماله لكان كالنسيم عابراً الجبل⁽⁴⁾.

- (1) لك الأيام فاجعلها خلوداً
لهذا العقل من حسن صدور
لعقل جزؤه، للنبوح كل
وذاك العقل ما وسع الخلودا
قصارنا نواح العشق كانا
السابق، ص 391 - 392.
- (2) بدا بالعقل مرفوع النقاب
طريق القلب سري إليها
ومنظور وناظر غور سر
وعالم كثرة بالعقل شاهد
زبور العجم، ص 379.
- (3) دواء البصيرة هذا الدواء
وما العقل إلا جدال العلوم
مصبرك أرفع من وقفة
وسر اللآلئ خلد البريق
وما هي جدوى دم في العروق
جناح جبريل، ص 443.
- (4) ذو العقل مثل نصل سيف عقله
والحب مسكن شريد زاهد
حجاجه تظل في تلهف
مسافرون دائماً وإن هم
ليس بسيراهما هنا انتفالك
- ونح في الفجر، عقلك لن يفيدا
ومن عشق نحيب الفجر نور
ونسوح دام، ما إن دام عسقل
من الأنفاس ما يحصي عديدا
وتحوي برهة منه زمانا
- ولكن قد تعري بالخطاب
ويثني كل مخلوق عليها
تضرع قلب ذرات لأمر
لتدري مظهرها يبدية واحد
- رجاؤك في كشف داء البصر
وحرب الظنون ورجم النظر
وأول معناه ذوق السفر
وإلا فمعدنها من حجر
إذا كان يطفئ نار الفكر
- بألف أسلوب يتم صقله
وماله إلا طريق واحد
لا يعرفون ترف التوقف
بدوا مقيمين لم يراهم
بالزاد والمطية انشغالك

العقل أسير. كلما زاد في التحليق زاد في الأسر. يتحدى البرق. ومنه فر. يسحر العقل، والعشق أدرى بحرقه الأكباد. يسهل تجميع العلم. ويصعب قبول القلب. يسهل نقد العقل من العقلاء والسفهاء. العقل له بداية ونهاية. والعشق له بداية وليس له نهاية. يبدأ العقل السؤال، ولدى العشق الجواب. والسجود للعشق وليس للعقل. والعقل الفسيح الذي يحيط بالعالمين في حاجة إلى نور يضيء، ونار تصهر⁽¹⁾. للعشق عيون، تدرك الحسن. العقل أقل اتساعاً من الطبيعة، والطبيعة أقوى من العقل. مع ذلك تطيع الطبيعة العقل. الطبيعة طيعة، والعقل أمر⁽²⁾. وبالرغم من أن العقل طليق. لا يمنعه قرب أو بعد عن النظر إلا أنه غير مؤهل لمواجهة «الحضور» لأن «عين العقل» تنقصه. وهي أثنى ما يوهب للإنسان. صحيح أن العلم زينة الإنسان، ولكنه فارغ ليس به مجال. والناس في حاجة إلى رحمة من هذا العصر السفه، من عالم يخلو من القلب. العقل سكر، والقلب صحو. العقل منطق، والقلب جنون، العقل راحة كما هو الحال في «راحة العقل» للكرماني، والقلب قلق وعطاء حيوي. والقلب بلا قلق هو عين الشقاء. العقل يواجه

- (1) إنما العقل أسير
يتحدى العشق برقاً
سحر العقل، وكان العشق
تجمع العلم وتلقي الـ
آه ذا نقد ثمين
إنما الحكمة أمر
ليس في كتابها للحد
فهلما نسأل العشق
واقصدوا العشق سجوداً
سلك العقل طريقاً
ملا المعاني هرجاً
في يديه كيمياء
لم يضع إكسير حب
حبذا عقل فسيح
نور أملاك ونيا
شعلة كنا جميعاً
أهل شوق وحنين
- زاده التحليق أسرا
منه هذا العقل فرا
بالأكباد أدرى
قلب لا ترغيب فيه
ضاع في كف سفه
ليس فيه من نهاية
ب والعشق بداية
سدادا ورشاداً
وابلغوا منه مراداً
ذا شعاب حين سارا
وأصار السماء نارا
ردت الرمل نضاراً
في قلوب أو أنارا
قد أحاط العالمين
ر الأنس فيه دون مبن
وانشربنا كالشرر
ورجاء ونظير

رسالة الشرق، ص 325 - 327.

- (2) العقل هذا ليس يقهر وسعه وسع الطبيعة
وجها لوجه صنعهما وانظر لقوتها المطيعة

الموضوع، والقلب الحضور أو «الحضرة» بلغة الصوفية. والحضور سر كما أن القلب سر. سران يتناحيان. القلب والحضور تجليان للحياة. إذا حضر الأول حضر الثاني. لقد طلب موسى الحضرة بقوله ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁽¹⁾.

العقل بمفرده ذو وهن. وليس حرياً بالإمامة. حياته ظن وتخمين، ضعف وسقامة. هو خال من نور الفكر، واستقامة السعي. لا يستطيع تبديد الظلام، ولا أن يدرك الحسن والقبح، ولا أن يستجلي الأسرار. وهو أيضاً حكم برجسون على العقل لصالح الحدس، وعند إقبال لصالح الوحي⁽²⁾. يستطيع العقل أن يكون أمير الكون، يطوي الأرض والأفلاك، ولكنه لا يستطيع أن يخضع الكون له إلا إذا كان بالقلب جسوراً. وما سماه إقبال الوحي أو القلب أو العشق هو ما سماه برجسون

- (1) رغم أن العقل لا يمنعه قرب وبعد
إنه والحق: ما أهل للحضرة بعد
اسأل الله تعالى والتمس عينا لقلبك
إنها أئمن ما تكسبه من فضل ربك
أنا لا أنكر أن العالم للنفس خبور
هو فردوس ولكن فارغ ما فيه حور
ما أحق الناس بالرافة من عصر سفيه
ليس في العالم قلب يجد القبضة فيه
إنه صحو بأن واحد هذا الجنون
ذلك النوع جنون ماله صحو يكون
قلق القاب غداء وعطاء حيوري
إن قلبا ليس فيه قلق، قلب شقي
أنت للحضرة سر ماله سر سواك
إنها إن كنت حيا حيثما كنت هناك
أولا يزعجك قلبي أرني أنظر إليك
جناح جبريل، ص 440 - 441.

- (2) ليس هذا القول ذو الوهن حرياً بالإمامة
فحياة الظن والتخمين ضعف وسقامة
ليس في فكر كنور أو إلى السعي استقامة
كيف يجلو في حياة ذلك الليل ظلامه؟
إن لغز الحسن والقبح ليعبي ذا الفهامة
حين لا تجلو الحياة السر منها مستهامة
ضرب الكلیم، ص 24.

الحدس⁽¹⁾. والعقل في حاجة إلى نار القلب كي تشعله وإلا فهو الموت⁽²⁾. والقلب لا يذل للعقل⁽³⁾.

العقل حبس المكان والزمان. لا ينطلق إلا عن طريق «لا إله إلا الله»⁽⁴⁾. العقل وسيلة للمعرفة، بعيد عن الحياة⁽⁵⁾. والأفكار دون صوت كالنظر دون العمي. إن لم يسر العقل بالوجد فإنه لا نفع منه. وإن نطق العقل بالتوحيد دون التسليم بالقلب فإنه لا نفع فيه⁽⁶⁾. إن لم يكن في الصدر قلب حر لم تنضج الحياة في شجاعة وهمة. وإن لم ينشط الغزال في فراره ما استطاع الصياد صيده. ماء الحياة قريب. طريقه حرارة الإقدام⁽⁷⁾. العقل يقيم الأصنام في الذهن، والعشق يحطمها⁽⁸⁾. العقل يشيد الأصنام، والقلب يحطمها. العقل يكفر بالإله الحق،

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | سيطر العقل على الكون أميرا
ذا جلال يخضع الكون له
السابق، ص 25. | وطوى الأفلاك والأرض مسيرا
غير قلب نار بالعقل جسورا |
| (2) | فلست أرى في بيدك اليوم جنة
إذا حاد عن نار الحياة منغم
السابق، ص 52. | تشب بهذا العقل نار التقدم
فموت شعوب لحن هذا المنغم |
| (3) | كل قلب ذل للعقل فقد
السابق، ص 51. | فما ربي أزلا: لا تقبلان |
| (4) | حبس العقل في مكان ووقت
لا زمان ولا مكان فحطم
السابق، ص 8. | كفره، لا إله إلا الله
غله، لا إله إلا الله |
| (5) | عاقبة العقل إلى شتمات
ونغمة الأفكار دون صوت
السابق، ص 10. | فلسفة بُعد من الحياة
للثة الأعمال حادي الموت |
| (6) | ذلك العقل صاعدا للثريا
ينطق العقل «لا إله» ولكن
السابق، ص 22. | ليس بالوجد ساريا، ليس شيئا
ليس بالقلب مسلما، ليس شيئا |
| (7) | إن لم يكن في الصدر حر قلب
إن ينشط الغزال في ذكاء
ماء الحياة هاهنا قريب
السابق، ص 62. | لم تنضج الحياة في همام
لم يطفّر الصياد بالمرام
طريقه حرارة الإقدام |
| (8) | أقام العقل أصناما برأسي
رسالة انشرق، ص 266. | خليل العشق بادرها بهدم |

والقلب موصول إليه⁽¹⁾. وإذا فضل الآخرون العقل فالأكثر حكمة إيثار القلب⁽²⁾. وهو قادر على خلق الإنسان من الطين كما حدث لآدم⁽³⁾. ونعمة القلب هي التي تعم كل الفضاءات، وشراره لا تحدده حدود. وإذا أضاء القلب من العقل فإن معيار العقل هو الفؤاد⁽⁴⁾. وإذا كان للفنون عقل فإن عشق الشجون يدمي القلب. وفتوى الحكيم أقرب إلى الجنون⁽⁵⁾. العقل الكسول فيه زرع لا يستطيع الرقص⁽⁶⁾.

لا يفهم الآي بتفسير القدماء، الرازي أو غيره بل بالضمير والتجربة الباطنية. لا يأتي التفسير من الكتاب بل من أم الكتاب في التجربة الأولى التي منها خرج الكتاب⁽⁷⁾. مصدر التفسير الخليل وليس كتب المفسرين، فالإسلام سر في الضمير. يضيء من ضوء جبريل ليقاوم الآزري نسبة لأزر أبي إبراهيم. وهذا هو سر الخليل⁽⁸⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | دماغي بعشق الأصنام كفرا
فأبصر في فؤادي نار عشق
السابق، ص 273. | بربها ويعبد كل حين
بعيد أنت من سنني وديني |
| (2) | وهب لآخرين متاع عقل
السابق، ص 268. | ونار العشق فاحفظها بديلا |
| (3) | ألا يا عشق! يا رمز الفؤاد!
تقادم أهل هذا الترب فاخرج
السابق، ص 268. | ويا زرع النضير! وب حصادي!
بأدم محبث من ذا الرماد |
| (4) | أثرت بنفمتي كل النوادي
أضاء القلب من عقلي ولكن
السابق، ص 271. | ومن شر الحياة جعلت زادي
جعلت عيار عقلي في فؤادي |
| (5) | تولي بعد عن عقل الفنون
فلا تسنفت إقبالا لشيء
السابق، ص 273. | وأدمى قلبه عشق الشجون
فإن حكيمنا رهن الجنون |
| (6) | St. Ref., p. 114. | |
| (7) | دع الرازي في تفسير آي
يضرّم عقلنا والقلب بصلّي
السابق، ص 266. | فإن ضميرنا نعم الدليل
بذا نمرود فسر والخليل |
| (8) | بني الإسلام! سر في ضميري
أخادع أزري الطبع عنه
السابق، ص 265. | بضيء كروح جبريل الرسول
فهذا السر من سر الخليل |

العقل تردد وشك وحيرة، والعشق يقين وإثبات وعزم⁽¹⁾. العقل يسالم، والعشق يصارع⁽²⁾. في العقل محبة، وفي العشق غيرة⁽³⁾. العقل يحشر الجنود، والعشق ينتصر⁽⁴⁾. وإبراهيم نموذج حياة السكر والهيام. فجعل النار برداً وسلاماً عليه. وكسر الأصنام القديمة. واندلعت الثورة من ضمير الشعب ومن إيمانه في وجدانه. هو النور الذي يقتفي أثره الصالحون. ويسميه قاصر العقل الجنون. أما الهوى بمعنى الأهواء فإنه ليس جنوناً ولا فنوناً. ولا يقيم نهضة تمحو الهوان. ولا يؤدي إلى ساحة المجد. وكل إنسان لم يجاهد تحت القبة الزرقاء فإنه لم يخلق بعد. فالجهاد هو خلق الذات بالذات، والروح بالروح، بعد الخلق الجسدي الأول⁽⁵⁾.

إن لذعات نار العجم ليست كفؤاً لنار الذات الحامية. والتوحيد محيط بها من كل جانب. والعقل محصور في عقد متتالية هي قواعد الاستدلال. ونظرات العين هي التي تحل الطلاسم. ولا تقوى حيل العقول الآلية على الصمود أمام خفقات القلب الدامية. فكنيسة التفلسف لا تصمد أمام النار الحامية⁽⁶⁾. وإذا كان

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | يحير عقلي نهار وليل | وما قبل عن مولد أو ممات |
| | السابق، ص 277. | |
| (2) | خدع العفص ومزج | العشوق صارح لا تفر |
| | السابق، ص 315. | |
| (3) | غيرة العشوق فانظرن | أيئنا شوقه احتدم |
| | السابق، ص 316. | |
| (4) | ساحر العقل يعنني جنده | لا تُرع للعشوق جند ينصر |
| | السابق، ص 316. | |
| (5) | كن كإبراهيم سُكراً وهياماً
اجعل الأصنام في الأرض هشماً
من ضمير الشعب من إيمانه
هي نور يجتليه المصلحون
إن قوماً للهوى يستسلمون
لن يقيموا نهضة تمحو الهوان
كل من تحت الفضاء الأزرق | لتصير النار برداً وسلاماً
لا تغادر هيكلاً منها قديماً
تنبت الثورة في وجدانه
قاصر العقل يسميها جنوناً
لم يقم فيهم جنون ذو فنون
ما لهم في ساحة المجد مكان
لم يجاهد فكأن لم يخلق |
| | يا أمم الشرق، ص 343 - 344. | |
| (6) | لذعات حان العجم ليست
ذا أحمد العربي نسطر | كسفه ناري الحامية
ته تحيط جهاتيه |

العقل قادراً على الطير في السماء فإن العشق زهرة في نسيم تقدم ناراً بكد الحياة⁽¹⁾.

العقل قادر على إدراك العالم بنوره ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك، والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق تتراح القلوب. وليس كل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادراً على إحداث ثورة. والإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد⁽²⁾. يتحدث العقل رباً كل حين. ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب، وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحنين والشوق إليه. فلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله يتحدد كل حين في القلب⁽³⁾. العقل محرقه بنار الراح العتيق⁽⁴⁾.

- | | |
|---|--|
| <p>عقد له متواليه
حلت طلسم مجازيه
خفقات قلبي الداميه
لحرير ناري الحماميه</p> | <p>= ما حيلتي والعقل في
نظرات عينك، فانظرون
حيل المعقون تفوقها
فاهجر كنيس تفلسف
رسالة الشرق، ص 318.</p> |
| <p>نال بالعقل في السماء مضارا
وبكد الحياه تقدح نارا</p> | <p>(1) قل لأهل السماء إن ترابا
نحن في العشق زهرة في نسيم
السابق، ص 319.</p> |
| <p>في جلوة منه تغير
كيف في الدنيا ينير
كل لون أو يثير
ذا الحرف أو هو بي يدور
وإنه فيها سمير
في اللفظ، كم معنى يشور
فلعلما يدنو العسير</p> | <p>(2) العقل يحرق عالما
لكنه بالعشق يعرف
العشق في الأرواح يخلق
إنني لأذكر راقصا
بالعشق تتراح القلوب
ما كل معنى ينطوي
أنصت لقلبك ساعة
رسالة الشرق، ص 300.</p> |
| <p>فهو من قيد إلى قيد رهين
ليس في حيك غيري ذو حنين
ليس في الحب سواها من يعين
زاد باللوعة عهد لا يمين
فلإقبال إله كل حين</p> | <p>(3) عقلنا ينحت ربا كل حين
ارفع البرقع جهرا لا تُبل
بسمة خلص ودمع ورنّا
حبذا العشق ففي يوم النوى
سادن الكعبة لا تأذن له
السابق، ص 308.</p> |
| <p>بنار راح عتيق</p> | <p>(4) طوي لمحرق عقل
السابق، ص 311.</p> |

ومن يجمع بين الوجد والعقل يجعلهما درياً تحيط به المواجد حتى تتركه في ساحة الحب نهبا. فالوجد أقوى من العقل⁽¹⁾. ولا تتم الأفعال مصادفة عن طريق النرد، ولا عن طريق البحث، ولا عن طريق الوهم، بل عن طريق الوجد. فقد نجح الرومي وأخفق الرازي. ومملكة جمشيد مجرد صورة منعكسة في كأس طبقاً لأساطير السحر والشعوذة والخرافات. إنه طريق القلب في الصدر⁽²⁾. علم الرازي تهور وانحدر. أما علم القلوب فهو علم القلندر. وقمة السكر والمحبة في سلوك حيدر، وهو علي⁽³⁾. يلحق الفيلسوف العار عندما يعلم أن غيره يطوف بالسر دونه⁽⁴⁾.

وفي حوار بين العقل والقلب يقول القلب: قطعاً الله موجود. فيرد العقل: ولكن يا صغيري الوجود من مقولاتي، وليس لك الحق في استعماله. فيجيب القلب: هذا أفضل يا عزيزي أرسطو. فالصفات مشتركة بين الذات الإنسانية والذات الإلهية⁽⁵⁾.

التزمت والشكلية والنصية دون إيمان بعقيدة ضد التسامح ولا يمكن للعقل البسيط أن يقبله⁽⁶⁾. ومع ذلك العقل الإنساني هو محاولة للطبيعة للنقد الذاتي.

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | عجبا من مفامرات ذكي
لم تنزل حوله المواجد حتى
جناح جبريل، ص 465. | جعل الوجد والتعقل درياً
تركته في ساحة الحب نهبا |
| (2) | لعبة النرد لم تكن دون نرد
خمرة القوم لا تُنال ببحث
كأس جمشيد لمعها في دوام
السابق، ص 460. | أرني مظهراً لتلك المفازي
فاز رومي بها وأخفق رازي
أي ملكية بلا شعوذات |
| (3) | عسلم رازي تهور وانحدر
قمة السكر والمحبة تبدو
السابق، ص 467. | وحياة القلوب علم القلندر
في السلوك الذي يحث لحيدر |
| (4) | ما هو العار الذي يلحق الفيلسوف
وهو بالسر الذي خبأته أنت تطوف
السابق، ص 476. | |

St. Ref., p. 4.

(5)

Ibid., p. 130.

(6)

وظيفة العقل النقد. والنقد حركة طبيعية. فالإنسان يتجاوز نفسه باستمرار، ويتعالى على ذاته⁽¹⁾.

ب - رحابة القلب

إثبات الذات مفتاحه القلب⁽²⁾. وطريقه النظر إلى الداخل⁽³⁾. الذات أليفة لذاتها. لا تنظر إلى غيرها. فالذات هي الذات، وليست الغير. وقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. بل إن الشكوى لا تكون إلا للذات أيضاً⁽⁴⁾. العكوف على الذات هو دخول إلى الدبر الحقيقي. وهو حياة القلب. وهو أحد المقامات⁽⁵⁾. يستطيع القلب أن يرى في عمق الذات حب الذرى⁽⁶⁾. والذات عمقها⁽⁷⁾، وانطواؤها على ذاتها. وبالظفر حفر الصدر⁽⁸⁾. وأهم ما يميز القلب هو الصدق مع النفس ومع الآخرين. وبلا صدق يكون القلب زيفاً بلا قيمة. ويكون عبده عبد موت ولا حظ له إلا في الوليمة ومغانم الدنيا⁽⁹⁾.

Ibid., p. 3.

- | | | |
|-----|---------------------------|----------------------------|
| (1) | | |
| (2) | له بالقلب باباً ما فتحنا | وذا في ثراه ما رأينا |
| | أرمغان حجاز، ص 440. | |
| | بقلبك أمسكن وعد لنفسك | وصدرك فليكن داراً لحبك |
| | السابق، ص 480 | |
| (3) | وإن نظروا فقد ظهروا بذات | لهم في الخفق أثبتت الوثبات |
| | السابق، ص 441. | |
| (4) | منحت الذات من ذاتي غريباً | وزمزم بين صلصال قليباً |
| | لمن أشكو غموماً في فزادي | علي من غير ذاتك ما طواه |
| | السابق، ص 446. | |
| (5) | وفي يوم جذبت إلي ذاتي | بأنوار مقاممي مشرقبات |
| | بهذا الدبر عن نغمات فجر | خلقت وفي القلوب الوالهات |
| | السابق، ص 450. | |
| (6) | لنا دينا بعمق الذات شاهد | بهذا القلب حبا من دُرانا |
| (7) | وسر مثلي بصحراء الحمى سر | لأنك عمق ذاتك قد تقدر |
| | أرمغان حجاز، ص 469. | |
| (8) | على الذات انطواء، فلتعلم | بظفرك حفر صدرك، فلتعلم |
| | ترجي رؤية المولى عياناً | فروية عمق ذاتك، فلتعلم |
| | السابق، ص 482. | |
| (9) | فلا تفخر بقلبك دون زيف | وجرب مثلما جربت قلبي |

الجهاد بالقلب هو الجهاد الحر . وللصعلوك جهاد البطون. للأول الخلود، وللثاني الفناء، والقلب هو خير مرشد وليس الشيخ والفقيه. وإذا كان الحرم قد خلا من الأوفياء فالمسلم الحر يملؤه مكانه⁽¹⁾. والآن ينقص قلب المسلم الهوى. وتنقص عينه الصفا. والمغامرة تكمل ما ينقصه وإلا اندمى من كل شيء. هذا هو سر إقبال الذي يتجلى ذوقه. وكيف يضيع في وهم الحياة وقلبه على عرشها؟⁽²⁾.

كل ما في السموات مدارات للقلوب. ومصير القلوب أعظم من الغبار المتناثر بين الكواكب وفي السموات والأرضين⁽³⁾. القلب هو الذي يطلق عقل العقل وإلا باد الحصاد واندر. القلب في الفؤاد. والسؤال المبدئي: أين الفؤاد؟⁽⁴⁾. شعلة العقل عون للمسافر. ومراده يلهب الطريق. ليس العقل إلا مصباحاً بنير. أما

= فإن هو كان زيفك مثل زيفي ولم بك لي ولا لك أي قيمة فعيدك مثل عيدي عيد موت وحظك مثل حظي في الوليمة جناح جريل، ص 477.

(1) إذا المرء لم يدر ما ربه
ومن طلب الله لا من سواه
تحول داراً له طالباً
يجاهد للقلب حر الجهاد
وذاك يحصل سر الخلود
تمتئ بقلبك واستفته
خلا حرم الله من أهله
السابق، ص 430.

(2) القلب ينقصه الهوى والعين ينقصها الصفاء
من لم يغامر مثلما غامرت تدهشه السماء
ما سر طينتك التي ذوق التجلي نقشها
أنضيع في وهم الحياة وأنت قلبك عرشها؟
السابق، ص 431 - 432.

(3) كل ما في سمائنا من مدار لا يساوي مدار هذي القلوب
ومصير القلوب أبعد شأواً من غبار مشرد في الدروب
السابق، ص 458.

(4) أين من أطلق الحياة بعقلي؟ أين ذاك الذي أباد حصادي
هو في عزلة الفؤاد مقيم وسؤالي الوحيد أين فؤادي؟
السابق، ص 467.

ضجيج الطريق فلا يشعر به إلا القلب. لا يدرك العقل إلا بريقه⁽¹⁾.

التقابل بين النفس والبدن هو التقابل بين القلب والجسد. عالم القلب هو عالم المحبة والمروءة والحماسة. وعالم الجسد هو عالم التجارة والتملق والسياسة. والغنى هو غنى الفؤاد أي القلب. أما غنى الجسد فضائع. والقلب هو ما يتمسك به من حق. ومن أضاع الحق فلا قلب له. والإنسان ضائع الخطوات إذا ما توهم أن ظنونه حق⁽²⁾. القلب نار للاحتراق. حطب الموقد الغليظ ممل. إنما حرق الدقيقات أمتع. مهمة الذات ليس جمع الحصاد بل الاحتراق. والنفس الباردة يهيج الرماد ولا يحرق. وشعلة الفكر تضيء الطريق، دليل وليس غاية⁽³⁾.

5 - العلم والعشق

في حوار بين «العلم والعشق» يدلي كل طرف بمميزاته وعيوب الطرف الآخر. ويدراً عن نفسه اتهام الطرف الآخر له. يتقد العلم العشق مغروراً بنفسه بأن العشق جنون. ويرد الجنون بأن العلم ظنون. العشق شهود، والعلم حجاب. العشق

(1) شعلة العقل للمسافر عون
ما هو العقل؟ إنه ليس إلا
وضجيج الطريق من فعل قلب
والذي يلهب الطريق مراده
نار مصباحنا بهذا الطريق
ليس للعقل منه غير بريق
السابق، ص 468.

(2) ما عالم القلب؟ المحبة والمروءة والحماسة
ما عالم الجسد؟ التجارة والتملق والسياسة
يا أنت أنت إذا وجدت غنى الفؤاد فلن تُراع
أما غنى الأجساد فهو وكل ما فيه ضياع
وإذا وجدت القلب ثم أضعته فالحق أنك ما وجدته
والحق: أنك ضائع الخطوات من وهم تصدق ما ظننته
السابق، ص 429.

(3) حطب الموقد الغليظ ممل
أنا لا أمنح الحصاد لعقل
قد تنفست ليس من نار قلب
شعلة الفكر للطريق ضياء
وأنا رغبتني بحرق الدقائق
عملي الفرد والوحيد احتراقي
نفساً بارداً أهاج رمادا
ودليلى له وليس مرادا
السابق، ص 467.

رؤية، والعلم كتاب. العشق لهيب في الكائنات وثورة فيها، شهود للذات، في حين أن العلم يكتفي بالصفات. بالعشق تحيا الكائنات وتموت. العشق خافي الجواب، والعلم مجرد تساؤل. العشق يجري المعجزات، مثل الفقر والدين. وأدنى العشاق له أرفع العروش. العشق تمكين ويقين، وبه تفتح الأبواب. العشق حلال، والرتابة حرام. العشق لهيب، والألفة حرام. خطر البحر حلال، وراحة السرب حرام. خفقة البرق حلال، وتواصل الضوء حرام. العلم نسك الكتاب، والعشق أم الكتاب⁽¹⁾.

وفي حوار آخر يزهو العلم بأنه استطاع معرفة أسرار الكون وقوانينه. وأمكنه السيطرة على ظواهره. اعتمد على النظر والتجربة على الاستدلال والملاحظة. وعرض نتائجه لكل من يرغب الاستفادة منه. ويعرف العشق بفضل العلم ولكنه

(1) قال لي العلم غرورا إنما العشق جنون
قال لي انعشق مجيبا إنما العلم ظنين
لا تكن سوى كتاب يا أسيرا للظنون

فمن العشق شهود

ومن العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت ثورة في الكائنات
وشهود «الذات» للعشق، وللعلم صفات
ومن العشق ثبات وحياة وممات

علمنا سؤل جلي

عشقنا خافي الجواب

معجزات العشق فلك زانه فقر ودين
وعبيد العشق أدنا هم، له عرش مكين
ومن العشق زمان ومكان ومكين

إنما العشق يقين

وبه يُفتح باب

ألفة المنزل في شرع من الحب حرام
خطر البحر حلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام

علمنا نسل كتاب

عشقنا أم الكتاب

مجرد عامل مساعد لمعرفة حقيقية أعظم، يتم اكتشافها بنور القلب. فالعلم دون العشق سجين في الرحم الذي خرج منه. ويقيد بالقانون الذي اكتشفه. ودور العلم الآن تحويل الصحراء إلى روض، والشيب إلى شباب، والأرض إلى فردوس. وهذا لا يتم إلا بالتعاون مع العشق. كلاهما لحنان لا تغني الحياة دونهما⁽¹⁾.

أ - العلم الحي والعلم المدون

تحصل الذات على علمها بالرؤية والمشاهدة وليس بالخبر. وإذا سمع الخبر فإن تصديقه في العيان. وليس من سمع كمن شاهد. يشير الكلام إلى العالم، ويحيل القول إلى الأشياء. والأشياء تخضع لقانون الهوية. الأرض أرض، والسماء سماء، والماء ماء، والهواء هواء، بدلاً من أن يدخل العقل بين طرفي الهوية فيعقد الأمور بالمفاهيم والتصورات وعالم المعاني المتوسط بين الألفاظ والأشياء كما حذر برجسون. ومن ثم تكتشف الذات وجودها، والعالم منبثق عنها كما هو الحال عند فشته. الذات ليست موضوعاً يُرى بالبصر بل هي وجود. والوجود هو وعي بالذات، إحساس باطني، تجربة ذاتية. يشعر بها الإنسان ولا يراها⁽²⁾.

العلم موهبة من الخلاق اكتساباً من التراث، بدهة الذكر على الزمان وليس

(1) العلم: أنا سر الكواكب والجهات
وعيني حذقت فيما أمامي
وكم حذقت فيما أمامي
العشق: بسحرك سُجرت هذي البحار
ولدت الأس في حرم الرحيم
هلم فُرِّد روضاً ذا اليبابا
هلم بذرة من نار قلبي
كلانا الدهر جل لا يجور
رسالة الشرق، ص 283.

(2) وعين البصيرة أعملتها
فهذا تراب، وتلك سماء
ولا أكنم الحق: أنت وجود
ضرب الكلم، ص 24.

تحصيل المعارف عبر السنين⁽¹⁾. ضوء العقل مصدر العلم وليس كتاب ابن سينا أو الرازي⁽²⁾. ولا يمكن استبدال قوة حيدر (علي بن أبي طالب) بعقل الرازي⁽³⁾. العشق هو قدرة على الرؤية أي البصيرة. فضمير الكائنات يتوق للتجلي والظهور. البصيرة جنون نائر عرفت به ذراتها فضاءها. إن لم تتوافر يتحول الإنسان إلى جسد أصم⁽⁴⁾.

العلم في كتاب، والعشق أم الكتاب. العلم بواسطة، والعشق بلا واسطة. لا يأتي العلم من الرازي بل من الخليل عندما قذف به نمرود إلى النار⁽⁵⁾. للعشق تعريف مجيب. يقلب القلوب كما يشاء. يرمي بالأدمع، ويسبك النفس ويجعلها قريبة لنفسها⁽⁶⁾. ولو كان لدى الإنسان مكتبة كبيرة ويعلم كل الكتب فيها فإن هذا يدل فقط على أنه غني وليس بالضرورة مفكراً. تعني المكتبة الكبيرة فقط أن المحفظة منتفخة من أجل تعيين كثير من الناس للتفكير بدلاً عنه⁽⁷⁾.

العلم من الحياة وليس من الكتاب. السوس يأكل الكتاب، كتب ابن سينا والفارابي. وما زال في ظلمة وحجاب. أما الفراسة فترى الحقيقة في النور الذي يجذبها وليس في كتاب. الحياة كفاح ومخاطرة كما تخاطر الفراشة بالاحتراق في

- | | | |
|-----|---------------------------------|---------------------------|
| (1) | موهبة الاخلاق لا تراث | نباهة الذكر على الأيام |
| | السابق، ص 63. | |
| (2) | نضيء عيني العقل من سناه | ما ابن سينا كُحلت والرازي |
| | السابق، ص 63. | |
| (3) | | Persian Psalms, p. 95. |
| (4) | لم تُخف هذي الكائنات ضميرها | شوق الظهور يشور في ذراتها |
| | إن صاحب النظرات شوق بصيرة | تبدل الأيام في جلواتها |
| | من ذي البصيرة لي جنون نائر | عرفت به الذرات طي فلانها |
| | من ذي البصيرة في الليالي قد غدا | آناء من حضعو لها ساداتها |
| | هذي البصيرة لا تيسر لامرئ | تخزي القلوب بنفسه وسماتها |
| | ضرب الكلبي، ص 79. | |
| (5) | دع الرازي في تفسير آي | فإن ضميرنا نعم الدليل |
| | يضم عقلنا والقلب يصلي | بذا نمرود نسر والخليل |
| (6) | أرى للعشق تصريفاً عجيباً | يقلب كيف ما يهوى القلوبا |
| | رماك بأدمع وسباك نفساً | وصيرني إلى نفسي قريباً |
| | رسالة الشرق، ص 273. | |
| (7) | | St. Ref., p. 117. |

الضياء⁽¹⁾. وكيف يُغتر بعلم الكأس فيها خمر شهيد. والفقه مريب، فكيف يكون مريداً؟ في كل دهر خليل، والنار خير خليل. واللحن لا يخرج من الدير لأن العشق عنيد. والأوثان ليست في الدير بل في القلب. تنساب الحياة من أيدي الهنود. والميت لا حياة له حتى بنفخ نار نمرود⁽²⁾. يرثي القلب للفقيه المجاور بالبيت العتيق. وأتباعه ليس العالسين حوله بل حامللي كأس الرحيق⁽³⁾.

والذوق مصدر للعلم اليقيني، وليس الكبت. والقلب مهبط الوحي الأبدي، وليس سفن كتب التصوف واللاهوت والأدب التي تغرق في البحار. الرؤية والمشاهدة تتطلب العين الثاقبة⁽⁴⁾. قد يتأمل فيلسوف ويعطي كل ما لديه من فكر ولكن دون حب لا يضمن السكر والنشوة، ولا تشع نظرتة كالشرر الصادر من القلب الذي يكتشف الأشياء ويبدد الحجب⁽⁵⁾.

- (1) سمعت: بمكنتي ليلة
يقول مررت بكتب ابن سينا
ولم أدر حكمة هذي الحياة
تجيب الفراشة في حرقة:
رأيت الكفاح يُعد الحياة
السابق، ص 287.
- (2) ... لا تغتر بعلم
إن الفقيه مريب
في كل دهر خليل
لا تلحين أهل دير
أقام أوثان حجب
يضيع شدة حياة
فالميت ليس بحي
السابق، ص 307.
- (3) قلبي رثى لفقيه
ما أتباعه شيخ خان
السابق، ص 311.
- (4) نسيب جبريل معصوم من الريب
كم كان من سفن للقوم أغرقها
كن ثاقب العين في فب الأسود لها
جناح جبريل، ص 428.
- (5) تأمل فيلسوف كل ما أعطاني الفكر

العلم مشاهدة وحضور وتجربة ذاتية⁽¹⁾. ليس من كتب الرازي والغزالي أو من صحائف الرومي والطار بل من معاناتهم وصراخهم وتجاربهم⁽²⁾.

العلم من الكلیم أي من الواجهة المباشرة مع الحق. وهو علم قلبي في الصدر. سماه الصوفية العلم اللدني. هو العلم الفطري الذي لا يحتاج إلى تعلم عن طريق الكتب والمدارس⁽³⁾. صحيح أن العلم يحرك الحياة الراكدة، شعوزات العصور القديمة. فالعصر عصر السحر، وليس عصر الكلیم⁽⁴⁾. العلم هو العرفان ضد الجهل الذي يحول الإنسان إلى قطعة من الفخار معرضة للكسر، مجرد فراغ أو إناء يملؤه هواء⁽⁵⁾. ولولا الذات لما تم الإدراك والعرفان⁽⁶⁾.

= ولولا الحب ما أدركت ما يظن الشكر

ونظرت به الشرر المشع بمحفل القلب

بلا دن ولا خمير تدور كزوسها جنبي

تظن تنافر الكلمات من شعري ومن أدبي

فجانتا على علم بما مزقت من حجابي

السابق، ص 446.

(1) غياب أم حضور ليست أدري ما أكابله

فهل من بينهم أحد يشاهد ما أشاهده

السابق، ص 446.

(2) ما كان للرازي والغزالي والرومي والمطيار من نوال

لو لم يعانون رغبة الصباح وصرخة الحيرة في الصباح

السابق، ص 449.

(3) أين ذاك الكلیم الطيب والطبيع المسيطر

كم قلوب في صدور دُعرت من نظرتك

درس المعلم اللدني وذوى في فطرتك

السابق، ص 449.

(4) العلم أطلق الحياة الراكدة في شعوزات من عصور بائنة

من كل سحر عصرنا محاش بلا عصا الكلیم لا يعاش

السابق، ص 452.

(5) جهلك هذا ما به من عار قد صير الجهل من الفخار

كم عالم فاضل ماري متاجر بالدين والإيمان

ضرب الكلیم، ص 119.

(6) وعرفان وإدراك لمسلم وعينيه بلولا الذات يفهم

أرمغان حجاز، ص 499.

تدرك الذات بالعرفان أي بالوعي المباشر⁽¹⁾. وتذكر لازمة «ذاتك بالعرفان يا غافل الأفغان» في قصيدة «أفكار محراب جبل الأفغاني» التي عبر فيها إقبال عن إعجابه بالشعب الأفغاني وقوته وبسالته واعتزازه بجباله وإسلامه. ووضع إقبال أفكاره على لسان الشاعر الأفغاني المتخيل.

الذات هو الإنسان الكامل عند الصوفية أو ما يسميه إقبال «الرجل العظيم». هو في الحب والبغض صادق وعميق، قاهر وشفيق. خرج ضد التقليد المسيطر على الناس، ولكن الطبع خليق بالإبداع. وهو متفرد في الجمع، وطيّيق من الحشد، مثل شمع الحفل قائم بمفرده، وينير مع باقي الشموع. وهو مثل شمس الصبح فيه نور وبريق. لغته يسيرة ومعناها دقيق. ونظره للعصر سديد. وهي ذات فريدة لا شأن لها بأحوال الصوفية⁽²⁾.

ب - العشق والشوق

أحياناً يستعمل إقبال العشق والشوق والطاقة والحياة كتعبيرات حديثة عن لفظ الإيمان التقليدي طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب مع الفلسفة الغربية الحديثة. فالمؤمن في الدين لا يُن مع الصحاب كمس الحرير، بعيد عن المحك أي الضوضاء

(1) تبدل الأقوام في البلدان في الروم والشام وهندستان
يا ابن الجبل هب للزمان وأدركن ذاك بالعرفان

ذاتك بالعرفان

يا غافل الأفغان

ص 118 - 119.

(2) هو في الحب عميق وهو في البغض عميق
قهرة فروق عباد بر وشفيق
نشأته ظلمة التقليد بالناس تحيق
غير أن الطبع بسال بداع والخلق خاليق
هو في المجمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل؛ في الحفل وحيد ورفيق
مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق
نظر فيه سديد عن بني العصر سحيق
ليس يسدي أي حال فيه أتيخ الطريق

ضرب التكليم، ص 93 - 94.

والصخب والعراك الذي لا يفيد ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [١].
 عمران: ٢١٥٩. وهو كالحديد إذا ما طغى الباطل، جريء إذا ما دخل المعركة.
 مخلوق من الطين ولكنه يسمو على الأفلاك. لا يصيد الطيور بل يرقى إلى مصاف
 الملائكة. وفي الجنة تستقبله الملائكة حبيبات لها. وتشكو الحور العين منه أنه سريع
 الهجران لهن^(١).

الشوق إلى دار الحبيب في القلب. يذيه الوجد^(٢). والعاشق ليس من هذا التراب
 ما دام القلب لا يشقى بأسر. القلب ينير الطريق، وهاج السعير، أشد نوراً من مصباح
 العقل. زيتة العشق^(٣). وحال القلب بين في كلامه. يجلو للتجلي والشكوى^(٤).

عين العشق تضيء دون بيان. ووظيفة العقول إظهار سحر العيان. والعشق
 غوص فيها وتفاعل معها فالعشق جوهر العرفان^(٥). العشق يحطم الأصنام، سيل

- | | | |
|-----|---|--|
| (١) | مع الصخب لئن كمر الحرير
حديد إذا ما طغى باطل
من الطين، لكن على الطين يسمو
وما منه صيد طير ولكن
تقول الملائك في غبطة
وللحور شكوى إلى ربها
السابق، ص 29 - 30. | بعيد من المحك، المؤمن
جريء لدى المعتكز، المؤمن
ويأبى على الفلك، المؤمن
بعيد من الملك، المؤمن
حبيب إلى قلبنا المؤمن
سريع إلى هجرنا، المؤمن |
| (٢) | فما أشتاق دارا للحبيب
نرابي ليس من هذا الممر
زبور العجم، ص 374. | وما في القلب من وجد مذب
وفيه القلب لا يشقى بأسر |
| (٣) | ولي في القلب وهاج السعير
وذاك القلب حسب في ثراه
السابق، ص 375. | دجلك أتر بمصباحي المنير
كلوح خطه ما في سواء |
| (٤) | لربي ظل يشكو من مقامه
جلاء للتجلي لا أريد
كففت عن الوصال السرمدى
السابق، ص 375. | وحال القلب بين في كلامه
ولكن ما حوى القلب العميد
لذت شكاة قلب لي شجي |
| (٥) | فتأمل بعين عشق وأبصر
فعيون العقول نظهر فيها
وعن عشق خذ دروس جهاد
إنما العشق جوهر لشعور
السابق، ص 310. | منه أيا تضيء دون بيان
هذه الكائنات سحر العيان
وافعلن ما نشاء في كل آن
وهو روح الإدراك والعرفان |

يهدم كل السدود. وإذا بين العقل الوجود فإن العشق يُجلي الكيان. وصلاة العشق بكعبة التوحيد. والسبحة باليمين إشارة إلى الذكر. والدمع على الخد علامة على لوعة القلب⁽¹⁾. العشق يكشف البدر التمام. يد على الصدر، وعين على الاقتحام. والحسن لا يغشاه ظلام. والعشق ليس يخبو في الهيام⁽²⁾.

المؤمن تتجدد حياته كل حين وأن. وواضح في أقواله وأفعاله أنه يجمع بين القدسية والجبروت، بين القهر والغفران. في السماء يجاور جبريل، ولا يحل في الأركان. يعشق الفضاء الرحب، ويضيق بالمكان المحصور. سره قراءة القرآن. عزمه يحتوي القضاء. وهو في العالمين ميزان. هو شفق كالندي، غضوب يقلب البحار طوفانا. حياته ليلاً ونهاراً في تألف مثل سورة الرحمن⁽³⁾.

العقل قادر على إدراك العالم بنور العقل ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة

(1) قد هدمت الأصنام لم أرض شكلاً
ومن العشق قد رأيت كياني
وبدبر ضراعتي وهو أنني
ومن الذكر سبحتي بيميني
منيع الحزن فيك غير نضوب
راق فولي، وسيرني لجنون:
السابق، ص311.

(2) ميمني أن يتجلي
فيدي تمسك صدري
ويقول الحسن: صبحي
فيقول العشق: وجدي
السابق، ص312.

(3) إن للمؤمن الشان
هو في قوله السيد وفي الفعل
فيه قدسية إلى جبروت
إن تؤلف هذي العناصر كان
هو ترب سما يجاور جبريل
لست تدري بسره فتراه
فيه عزم على القضاء دليل
هو يرد الندي بقلب شقيق
ليله والنهار لحن حياة
السابق، ص41.

أنا سيل هدمت كل سدودي
كان عقلي يريني وجودي
وصلاتي بكعبة التوحيد
فاعجب من زناري المعقود
دمع قلبي حبسته عن خدودي
خمر شوق لسكرتي وشهودي

ذلك البدر التمام
ويعينني اقتحام
ليس يغشاه ظلام
ليس يخبو والهيام

كل حين جديد شان وأن
على الله واضح البرهان
ومن القهر فيه والغفران
المسلم المستعلي على الحدان
وبأبى الحلول في الأوطان
قارناً وهو صورة القرآن
وهو في العالمين كالميزان
وبقلب البحار كالطرفان
في انسجام كسورة الرحمن

من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق ترتاح القلوب. وليس لكل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادر على إحداث ثورة. وبالإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد⁽¹⁾. ينحت العقل ربا كل حين، ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحزين والشوق إليه. قلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله متجدد كل حين في القلب⁽²⁾. العقل محرقة بنار الراح العتيق⁽³⁾.

قوة الذات بالمحبة والعشق، وبالتالي يصبح لها القدرة على تسخير الكائنات. ويتطلب ذلك تسخير النفس أولاً، ثم تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة. تستحكم الذات بالعشق. وهو إرادة الجذب والتسخير. وأعلى أشكاله خلق مقاصده والجد في نيلها. والعشق أفراد العاشق والمعشوق أي الفردية والاستقلال، توحد الأنا في الأنا. ومن مجموع نقاط النور يتكون الضياء. ومن مجموع الشرر تندلع النار في الطين. العشق كالسيف الناصع، دون هواء وتراب وماء. يشق العشق الصخر. وهو عشق الحق. سيفه آمين على الظالمين. فيجلب الحق المبين⁽⁴⁾. هو سر في القلب، يصدق به الحق، ويسطع من الكتاب، وتملئ آياته به. العشق يخلو إلى غار حراء

(1) انعقل يُحرق عالما لكنه بالعشق يعرف العشق في الأرواح يخلق إنني لأذكر راقصا بالعشق ترتاح القلوب ما كل معنى ينطوي أنصت لقلبك ساعة السابق، ص 41.

(2) عقلنا ينحت ربا كل حين ارفع البرقع جهرا لا تُبل بسمه بخلي ودمع دنا حبذا العشق ففي يوم النوى سادن الكعبة لا تأذن له السابق، ص 308.

(3) طوبى لمحرق عقل السابق، ص 311.

(4) نقط النور الني تدعى الذوات شرر في طيننا للحيات

حتى ينطلق بعد ذلك إلى الحق. فيحطم اللات والعزى والأوثان⁽¹⁾. تقوى الذات بعشق ما تؤمل. وهي بالمحبة أقوى وأحيا وأضوأ⁽²⁾.

العشق ليس تقليداً بل إبداعاً. وهنا يبدو جانب التقليد والمحافظة في فكر إقبال. فالتقليد ليس من أسماء العشق، بل العشق إبداع. لذلك عشق كبار الشعراء. وكان كبار الشعراء والأدباء من العاشقين. لا يكون العشق بتقليد الحبيب، بل بإبداعه كل يوم في ثوب جديد. التقليد موت للعشق⁽³⁾. وإذا استحكمت الذات بالمحبة والعشق فإنها تقدر على تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة⁽⁴⁾. العشق يسمو ولا يهبط، يعلو ولا يسف⁽⁵⁾. العشق تقدم. وكل عشق دون إقدام يسقط. العشق مخاطرة ومغامرة تحرسه «يد الله». ومع ذلك تظل النفس كالطود. فالعشق توتر ورغبة دفينة في الانتصاب دون الخروج من المكان⁽⁶⁾. والعشق روح يسري

- = فطرة بالعشق نوعي ضمرا
لا يهاب العشق في السيف المضاء
نظرة العشق بها شق الصخور
سيفه أمين تمحو الظالمين
نحن كنا سره في قلبه
هو عنوان كتاب العالمين
الأسرار والرموز، ص 18 - 22.
- (1) في حراء القلب فاقعد خاليا
أقوين بالحق ثم ارجع إليك
السابق، ص 22.
- (2) السابق، ص 18 - 23، المقدمة ص 48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون ص 18 - 19.
ضرب الكلیم، المدخل، ص ط.
- (3) كم يُربك العشق من صهبائه
أحكيم العشق بتقليد الحبيب
السابق، ص 22.
- (4) أمرها في الكون طرأ يحكم
بدها من قوة الحق أثر
لا يسف العشق دأب الهوس
ضرب الكلیم، ص 120.
- (5) كل عشق دون إقدام هوى
ويلتا من ترف! أين فتى
خلوة الأطوار ليست وحشة
السابق، ص 122.
- وهي بالعشق تنير العالمها
ليس من ماء وترب وهواء...
هو عشق الحق، والحق بصير
حين يدعو الحق بالنصر المبين
فأذاعت صيحة الحق به
سيد الكونين، مولى الثقلين
وإلى الحق فهاجر راضيا
واحطمم اللات والعزى لديك

في الحياة. نسيم في الجنة، ينمي الأزهار البرية، ويخترق البحار ليهدي الحيتان⁽¹⁾. له رموزه في الحياة في الأزهار والورد، وهمه في روح الخلائق. وفي دم كل عاشق⁽²⁾.

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكتشف عنه⁽³⁾. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله⁽⁴⁾. التجلي يُري غير أن الذات تطويه⁽⁵⁾. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات⁽⁶⁾. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. قد يتحول الإمكان إلى واقع وقد يظل إمكاناً⁽⁷⁾. سر الذات هو السر العظيم⁽⁸⁾. وجود الله يكسبها الوجود فهي مظهر من تجلياته⁽⁹⁾.

ومحرك العشق هو الفراق من أجل الوفاق⁽¹⁰⁾. قفزة واحدة من عاشق تبدد

- | | | |
|------|--|---|
| (1) | نسيم العشق في الجنات جار
ويخترق البحار له شعاع
رسالة الشرق، ص 263. | وينمي العشق أزهار البراري
فيهدي العشق حيتان البحار |
| (2) | رموز العشق في ورق الشقائق
وإن تصدع طباق الأرض تبصر
السابق، ص 263. | ورغم العشق في روح الخلائق
نصيب العشق من دم كل عاشق |
| (3) | ليس يُخفي عالم ذات الإله
السابق، ص 165. | غاصنا وارد رسم في الحياة |
| (4) | رجل الله رأى بالله ذاته
السابق، ص 175. | في دماء خُرُكي يُنهي حياته |
| (5) | التجلي كان هذا من رآه
السابق، ص 250. | غير أن ذلك في ذات طواه |
| (6) | «إنزم الذات» بها الرومي حياته
السابق، ص 250. | عش بأنفاس لمن غنى الأغاني |
| (7) | نظرتني أمعنت في ذاتي طويلا
السابق، ص 251. | فتن الدنيا، حبيبي، ما رأيته |
| (8) | ذاتك وانظر إن هذا رؤيته
السابق، ص 263. | سره السر العظيم سننه |
| (9) | وجود الله أكسبها الوجودا
السابق، ص 489. | فكانت مظهرها جاز الحدودا |
| (10) | وهذا العشق يزكو بالفراق
زبور العجم، ص 385. | مع العشاق كان على وفاق |

الأسرار. ولا يمكن كتمان الهوى الذي تفضحه الصرخات. فلا سر في الحب. الحب طريق يعلن عن قرب الوصال⁽¹⁾. وعيون الذات دافقة من خلال الدر والصدف دون تصنع أو تكلف. لها أسلوبها في البحر والشوق، في الفراق والوصال. وذلك من تواضعها وحسن سجيته⁽²⁾.

ج - الجنون

والجنون درجة من درجات العشق في مقابل العقل. هو الحماس والإقدام والحزم دون حساب المكسب والخسارة. وما يعده الناس جنوناً هو عين العقل. وما يعدونه عقلاً هو عين الجنون⁽³⁾. القلب من تحرّقه ضياء. والعين تكشف عن البكاء في انعكاس النور عليها. ثم زاد صوت الحياة. يعتبر العشق مساً أو جنوناً⁽⁴⁾. ليس الجنون سداً في البیداء. فالهيام في الطبيعة طريق إلى إصلاح المجتمع كما هو

(1) ففزة واحدة من عاشق
أنت إن حاولت كتمان الهوى
صرخة الحب التي تملكني
رغم ما تطلقه من حيرة
هي عندي وكما أعرفها
جناح جبريل، ص 418.

(2) عيون الذات دافقة
بغير تصلّع منها
إذا كانت لها أسلوبها
فذلك من تواضعها
السابق، ص 435.

(3) فلست أرى في بيدك اليوم جنة
ومزق الجيوب وأنت خال
في جنوني لك أسرار بدت
أبعد الدرس عن حماك جنونا
إن في حلقة المجانين عقلا
ضرب الكلیم، المدخل ص ع - ف.

(4) بقلبي من تحرّقه ضياء
فزاد من الحياة نوى غبي
رسالة الشرق، ص 263.

الحال عند الفارابي في «المدينة الفاضلة»، وابن باجه في «تدبير المتوحد»، وروسو في «نزهة متوحد»⁽¹⁾.

لا يفهم العصر ولا يتحمل حوادثه إلا الجنون. والجنون عطاء مثل الطبيعة سخاء. الجنون درع وليس ثوباً مرقعاً. والعقل شح، والطبيعة لا تشح⁽²⁾. وهناك آلاف من الطرق يحزن الإنسان على حيرته في اختيار أحدها. وسكرة القرب وصراخ الوجد تجعله في دهشة. حالة الحب والسكر تجاوز إدراك الحقيقة. فالقلب يدرك كل جمال إذا وصل هواه إلى درجة الجنون⁽³⁾. وهذا هو الفرق بين بني تيمور الذين ضاعوا في تراب السند وآل عثمان الذي ارتفعت هاماتهم فوق الصخور. بل لا يليق الجنون. فالعصر لم يعد يتحمل عصر الوجد والجنون⁽⁴⁾.

وقد لا يبلغ العلماء درجة تأسيس العلم على الإيمان. يتذوقون حلاوته وعمق تأمله. فأسرار الإيمان تتجاوز حدود العلم. وجماله وراء تجملته⁽⁵⁾. فلا يجدون أمامهم إلا الجنون. العقل حجة على الجميع، مصباح منير لكل. ثم يصيب العقل الجنون. فيتحول الإنسان العاقل إلى الإنسان المجنون، وتعبير نيسته

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | ما جنون العشق في البيداء سدى
السابق، ص 317. | في فرى الحسن تعالوا نجار |
| (2) | بجنوني فهمت عصري تماما
أليس الدرع من نسيج جنوني
إن شح الطبيعة يوم هذا | وتحملتُ وقعة بعد وقعة
لبس ثوبا مرقعا ألف رقعة
وهي من طبعها السخاء |
| (3) | أنا حزني على هجري تبنى
بسكرة قربه، بصراخ وجد
ومن يك شأنه حبا وسكرا
جرى قدر الجمال بكل قلب
أما كانت بنو تيمور تركا
أولئك في تراب السند ضاعوا
جناح جبريل، ص 452. | بآلاف من الطرق الدقيقة
رجعت به، بدهشته السحيقة
تجاوز حد إدراك الحقيقة
إذا كان الهوى كان الجنون
بنو عثمان أترك كذاكا
وصخر أولاء مرتفع هناك |
| (4) | في روائي الذي تمزق سر
لا يليق الجنون فالعصر هذا
السابق، ص 465. | من بقايا الأسرار يكشف بعدي
ليس عصرا لدي جنون ووجد |
| (5) | لا تبلغ العلماء باطن مؤمن
أسراره فيما وراء حدودهم
السابق، ص 455. | ومذاق رغبته ولطف تأمله
وجماله فيما وراء تجملته |

يتحول أبولو إلى ديونيزيوس. ثم يتحول الجنون إلى إيمان. والمؤمن الحق ميراثه الكون⁽¹⁾. فالجنون نهاية مطاف العلم والعقل والشوق.

د - الحب

الحب جوهر الحياة. يغني نشيد ألحانه. يحيي بها التراب. ويعطيها بعض ألوانه. يعزف على أوتار الأرض. ويملاً جوهر الإنسان⁽²⁾. تطلع العقل ووجد القلب شرارتان من الحب⁽³⁾. وإذا قام السلوك الإنساني على الحب فإنه يكشف للعبيد أسرار الملوك⁽⁴⁾. الحب هو الذي يروي العطش للجميع⁽⁵⁾. هو الذي يجعل الذات تتجلى، وتعلن عن نفسها كإسرافيل⁽⁶⁾.

الحب هو الذي يعطي اليقين، يقين إبراهيم وهو في نار نمرود. سره الشكر. وقصاره اللوذ بالنفس والعكوف عليها⁽⁷⁾. الحب لغة الناس أجمعين، وليس لغة

- | | |
|---|---|
| (1) العقل حُبنا طرا فما أحد هذا الجنون؟ ومن يدري حقيقته؟ العقل عند جميع الناس منهجه والمؤمن الحق هذا الكون أجمعه السابق، ص 457. | إلا وللعقل مصباح بمذهب لعله هو أيضا أن يُصاب به ولم يكن من خصوصيات إنسان ميراثه وأنا لولاك برهاني |
| (2) هو الحب يمضي جبال الحياة ويرسلها في وجوه التراب يغلغل في الأرض أوتاره كما يتغلغل لين النسيم السابق، ص 430. | يغني نشيدة ألحانه ويمنحها بعض ألوانه ويملاً هيكل إنسانه بسيفان زهر وقنطاته |
| (3) تطلع العقل ووجد القلب السابق، ص 445. | شرارتان من لهب الحب |
| (4) تدخل الحب بأطوار السلوك السابق، ص 449. | يكشف للعبيد أسرار الملوك |
| (5) أنا لم أزل عطشا ما ارتويت هو الحب أسمى صعود لنا السابق، ص 454. | كمثللك عطشان لم ترثر ولكنا فيه لم ننضر |
| (6) وإن أضاف الحب عوناً أطلقت السابق، ص 454. | في الناس ما يطلق إسرافيل |
| (7) اليقين اليقين جلسة حب | من خليل بنار نمرود يمسك |

الترك والعرب المملوءة بالطرب. بل إن الابتعاد عن لغة الحب الخاصة تكشف لغة الحب الدفين⁽¹⁾.

الموت لا يمحو رجال «الله» من الوجود. فقد تلون الحب في دمهم بالثبات والخلود. ومهما كان عنف العصر وجبروته فالحب أقوى منه، بالرغم من لطف سبله، وقوة ما يجرفه. لا يستقر الحب في الأمس والغد بل في كل الزمان. ومع ذلك الحب وثبات في أوقات الصفا، لحظات الإلهام والوحي على القلب، قلب الشاعر وقلب النبي. وكان الفيلسوف قد ادعى ذلك من قبل. الحب يخلع إزار الجمال والنسيم بفك أزراره. هو قائد الجيش في ساحة الوغى. هو المشرع والفقيه في المسجد. ليس متسكعاً خلف الهودج والقوافل، بين المنازل والمراحل. الحب ليس مغنياً بل هو مبدع الأغاني. أوتاره نور الحياة. وقوسه نار المعاني⁽²⁾.

- سره أن تقوم لله شكرا
السابق، ص 466.

(1) لغة الترك والعرب
لكن الحب لم يكن
حيه البعد عنهما
حيه الحب إنه
عذبة مملؤها الطرب
ملك ترك ولا عرب
حيه كنهه الدفين
نهجة الناس أجمعين

السابق، ص 461.

(2) الموت لا يمحو رجال الله من هذا الوجود
الحب في دمهم تلون بالثبات وبالخلود
مهما يكن حريان هذا العصر جبارا عنيفا
فالحب يجرفه ولكن سبله يبدو لطيفا
الأمس والغد ليس وجهتنا النبي تسعى إليها
الحب أزمنة بلا أسماء نطلقه عليها
ما الحب؟ ما هو؟ إنه وثبات أوقات الصفا
لعب النسيم بيها علبه فقطعت أزرارها
الحب في ساح الجيوش هو المقدم والنبية
والحب في الحرم الشريف هو المشرع والفقيه
أسأل به متسكعاً خلف الهودج والقوافل
بين الألف من المنازل والألف من المراحل
الحب ليس مغنيا الحب إبداع الأغاني
أوتاره نور الحياة وقوسه نار المعاني

السابق، ص 478.

الحب طفل لعبوب. يصفع الشخصية بهمس في الآذان ابتعد⁽¹⁾. أما حب الأعداء فأكثر من إكسير. مهمته تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، في حين أن الحب يحيل الانفعالات الدنيا إلى نفسها. وقد أصاب المسيح وبودا في إدراكهما طبيعة الحب، ولكن في حرصهما على المثالية الأخلاقية نسوا حقائق الحياة. فمن الصعب على أحد حب أعدائه باستثناء الصفوة، بعض الأفراد المتميزين، ولكنه ليس مبدءاً للأخلاق القومية. وإلا كان يمكن أن تتغير نتائج الحرب اليابانية الروسية لو سلك اليابانيون طبقاً للمبادئ الأخلاقية المستمدة من دينهم⁽²⁾.

6 - حرية الاختيار

أ - الإنسان حر

الإنسان حر غير مجبر، ومخير وليس مسير. لذلك ينقد إقبال مثل الأفغاني من قبل عقيدة القضاء والقدر التي عمت الكلام والفلسفة والتصوف. المؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد، والبقاء والفناء في الدنيا والآخرة⁽³⁾. الثبات والجماد يخضعان لقوانين الطبيعة، ولكن المؤمن الحر لا يقيد إلا الالتزام بالشرعية أي بالفطرة⁽⁴⁾.

ويقدم إقبال «ضرب الكلیم» ببيتين عن الحرية. فالحرية هي فطرة الحر التي لا تطبق القيد. هي مثل العين التي تشق الصخر بعد غوص في الذات كما فعل موسى الكلیم عندما ضرب الصخر فانشقت منه العيون⁽⁵⁾.

St. Ref., p. 153.

(1)

Ibid., pp. 67 - 8.

(2)

(3) فيه عزم على القضاء مشير وهو في العالمين كالميزان ضرب الكلیم، المدخل ص ك.

(4) إن النبات وإن الجامدات لها والمؤمن الحر لا شئ يقيد السابق، ص ك.

(5) فطرة الحر لا تطبق مقاماً ألف عين تشق صخر فاضرب السابق، ص 2.

شرط الحرية عدم ربط القلب وفك علاقته حتى تتحرر الذات من كل القيود. فتصبح كريح الصبح تطوف وتمضي وتلقح الزهور⁽¹⁾. وإذا كانت رجل في الأرض فالأخرى طليقة للحركة في الدنيا. فالإنسان على الأرض ويرنو إلى السماء في آن واحد⁽²⁾. الإنسان نحات يصنع الوجود بيده، بأزميله في صخر، وبإلهام وبمصادفة ليست من صنعه. الإنسان حر في عالم ضروري⁽³⁾. وفي حوار بين النسر والسمكة، تشكو السمكة من حبسها في الماء وعدم قدرتها على الطيران حتى ولو كان الماء مملوءاً بالجواهر. الماء في كل مكان، ولا يوجد إلا الماء تسبح فيه. وهي مضطرة. ولا يمكنها الهرب حتى في أوقات المد. ويزهو النسر بوضعه في السماء وبأنه ينظر إلى الأرض من عل، ولكن للأرض سحرها وجمالها وتنوعها. فكل منهما يبحث عما يفقده عند الآخر⁽⁴⁾.

ويسأل إقبال معلمه ومرشده الأكثر علماً بأنه ضاع من قلة علمه لأنه لا يعرف هل هو مجبر أم مختار. ويجيب الرومي بأن الشاهين يبدو كالغراب، ولكن ريشه يصبح تاجاً. في حين يتحول ريش الغراب إلى تراب. يبحث الغراب عن المعنى لأن ظفروه يدفعه إلى ذلك، في حين أن الشاهين لا يأكل الجيفة. لا يطعم إلا مما تصنعه يده. فالإنسان مخير لا مسير⁽⁵⁾. يدأب الحر نهائراً وليلاً. ويبنى ذاته صرحاً علياً. فالذاتية تساهم في بناء الحرية. كما أن الحرية تساهم في خلق

(1) بهذا المرج ما علقْتُ قلبي
كريح الصبح طفت به قليلاً
رسالة الشرق، ص 266.

(2) بسلسلة القضاء ربطت رجلاً
فقم إن كنت في ريب وحاول
السابق، ص 268.

(3) لنا كون لأزميل ونحت
مثال من تُراب لم يكتمل
السابق، ص 269.

(4) A message from the East, pp. 79 - 80.

(5) قال: يا هذا الذي يساهم في وجد الكبير
ضعت من قلة علمي بين جبر واختيار
قال: يا إقبال! ما الشاهين؟ يبدو كالغراب
ريشه يصبح تاجاً ويش هذا للغراب

الذاتية⁽¹⁾. وتجربة المصطفى شاهدة على ذلك⁽²⁾.

الطين والروح رمزان للجبر والحرية، لفرعون وموسى. والتحرر ورمزه رستم أو علي بن أبي طالب تحول من الجبر إلى الحرية⁽³⁾. وتستطيع الذات أن تولد بعيداً عن القيود. لا تولد من ماء وطين بل من الفؤاد. الأول جبر، والثاني اختيار. هذا ظاهر وذلك باطن. أحدهما بكاء، والآخر ابتسام. الأول وسيلة، والثاني غاية. الأول سكون في المكان، والثاني حركة في الكون في كل الجهات. الأول باللسان. والثاني بالروح⁽⁴⁾. والجبر بمعنى قوة العزيمة وحسن التقدير والهمة والقوة التي تهد العالم وتبنيه من جديد. يدفع إلى البطولة والخلود، وليس إلى الموت والفناء. وهذا هو معنى الحرية، وكما قال الأفغاني من قبل في رسالة «القضاء والقدر»⁽⁵⁾. ويعتذر

ظفـره عـبـ، عـلـيـه
أكلـه صـنـع يـديـه

يـطـالب المـوتـى غـراب
وتـرى الشـاهـيـن يـمـضي

جناح جبريل، ص 526.

ثم يـبـني ذـاتـه صـرحـا عـلـيا
وسـجـايـا المـصـطـفـى مـيزـانـه

يـدأب الـحـر غـدوا وعـشـيا
وجـهـاد المـصـطـفـى بـرهـانـه

يا أمم الشرق، ص 361.

مـر يـوما ما عـلـى وادي النـحـل
وأنا في شـقـوة العـيـش المـمـذـل
قـوني مـثـلك في هـذا التـراب
لـلـسـمـوات الـتي فـوق السـحاب

قـالـت النـحـلة لـلـنـسر الـذي
أنت تـرعـى في بـساتـين النـجـوم
قـالـ: لـكن أنا لا أـبـحـث عـن
لـست ألقـي نـظـرة حـتى ولا

السابق، ص 550.

نـور مـوسـى بـلـيلة البـرد اطلـب
رستمـا لي وسـيد الأـسد اطلـب

ذاك فـرعـون أرمـض النـفس جـورا
ورفـاق كـرهـت مـنـهم خـصـالا

جاويد ناعم، ص 146.

وتفـك عـنـك هـاتـيك القـيـودا
ما دراه قـط إلا ذو فـؤاد
طـاهر هـذا وذـا خـلف السـتار
بـاحـت هـذا ولـلـثـاني المـرام
ذاك قـط لا يـسـير في الجـهـات
ذاك بـالـروح وهـذا بـالـلسـان

يـولـاذا أنت قـد تـمـضي بـعـيدا
لـيس مـن مـاء وطين ذا الـولـاذا
ذاك مـن جـبر وذـا بـالاخـتـيار
بـالـبـكـا ذاك وذـا بـالـابـتـسام
ذا سـكـون، سـيره في الكـائـنات
ودلـيل العـالـمـيـن في الآذان

السابق، ص 149.

يـفـزع الشـيـطـان مـنـه والـردى
والقـوي عـند رجاـل في القـمم
والغـريـر مـنـه في أعـماق قـبر

مـن لـه التـقـدير سـهم سـددا
كـان جـبرا دـين أصـحاب الـهمـم
الحـصـيف زاد في عـقل بـجـبر

الحلاج عن المعني السلبي للقضاء والقدر. وهو أنه قيد. قد يؤدي العلم إلى الجبر، ولكن العشق يقود إلى الحرية. ولو صبر العلم وتحول من الظاهر إلى الباطن لأدرك الحرية. فالضرورة والحرية بيد الذات وقواها الإدراكية، العقل أم القلب⁽¹⁾.

وبعنوان «عبودية» يرى إقبال أن العبودية قصر نظر. هي تخل عن شيء دفين في الإنسان وتسليمها إلى الملوك. وبسبب هذه العبودية والتخلي عن الحرية أصبح أسوء من الكلب. ولن يدعو كلب بولته كلباً آخر باسم يا إلهي أو يا سيدي⁽²⁾. الإنسان عبد مقيد بسلاسل. ينال حريته. وهذه القيود الحديدية حول عنقه ليست قيوداً أبدية. فالإنسان في عالم الضرورة الاجتماعية، وقادر على أن يعيش في عالم الحرية⁽³⁾. الإنسان آلة في يد القدر ولكنه يقابل ذلك بالحرية الباطنية. ويكونا للحنان نغم الوجود⁽⁴⁾. يستطيع الإنسان أن يكون حراً في الحياة وشعابها المتشعبة. يستطيع داخل الرضا أن يكون حراً. فالحرية في القبول والرفض⁽⁵⁾. وانفعالات العبد لا تخطئ. فالحياة لا تسمع صوت القش بل صوت النار الذي تحرقه. الحرية نار في قلب العبد، تحرق عبوديته⁽⁶⁾. والعبد الذي يطلق سراحه مازال في حاجة إلى العشق كي ينير له الطريق وحتى يطيع العقل الإرادة⁽⁷⁾.

كل ما في العالم من كائنات حية عبيد أسرى أو أسرى عبيد. وطالما أن الإنسان كائن في هذا العالم فكيف يتحرر؟ وقد تقرر من الأول أن تطيع الشمس

أسنا جبر لنا قد هدمنا وهو ثوب فيه فصل ما رفل	خاند بالجبر هد عالما انرضا من شأن ذباك البطل	=
ما لديه كل جبر وصبر ليس من أحضان حور سهمنا	مذهب للعالم كان وهو جبر كان مجبوراً وحراً قلبنا	(1)

السابق، ص 255.

A Message from the East, p. 95.

(2)

Persian Psalms, p. 4.

(3)

Ibid., p. 11.

(4)

Ibid., p. 13.

(5)

Ibid., p. 38.

(6)

Ibid., p. 123.

(7)

والقمر الإنسان، ولكن الإنسان لا يعرف ماذا يفعل؟ يستطيع أن يأخذ قنينة خمر من الحان يعطيه فقيراً بارداً فينشأ العالم من جديد⁽¹⁾. رسالة الإنسان الاجتماعية طريق التحرر. هناك عبودية في الظاهر، العبودية للملوك وللإقطاعيين والأياد، ولكن هناك حرية في الباطن، العبودية لله وحده. فالعبودية لله تعني التحرر من عبودية البشر⁽²⁾. وعندما يأتي الإنسان ليحرر العبيد من القيود فإنه يرى من نافذة حائط السجن العالم كله. فحرية الفردية رؤية للعالم⁽³⁾. كل إنسان ينير مصباحه من ذاته بعد أن أخفاها أتباع موسى تحت الجماعة الإثنية المخلفة⁽⁴⁾.

المستعبد ليس حياً. ولا يدين إلا لمن بيده رزقه. لا يوجد إنسان سيد لإنسان، بل الكل عبيد الإله. في ضمير الحر تكبير الإله، وفي جبينه تقدير الأمم. موته أعلي مقام ترفع الدنيا لذكراه العلم. في نهضته مسالم، وفي إصلاحه يبني العصر. يذيع الخير في الأمة كما ينشر الروض عطره. ويوم الحرب في الساحة يحفر قبره بسيفه. يتحدى الموت في وثبته. ويتم له النصر بعزيمته. غرس الحق في القلوب غير الغرس في ماء وطن. في الغرس الأول المجد لأحرار الشعوب. وهم في الدهر أعلام اليقين⁽⁵⁾.

شريان الحر صلب كشريان الحجر. وشريان العبد رقيق كشريان الكرم. قلب

Ibid, p. 56.

Ibid., p. 82.

Ibid., p. 114.

Ibid., p. 115.

نسوى من في يديه رزقه
ما خلا ربي فكل عبيده
في جبين الحر تقدير الأمم
ترفع الدنيا لذكراه العلم
بيد الإصلاح يبني عصره
مثلما ينشر روض عطره
سيفه يحفر فيها قبره
أو يتم العزم فيها نصره
غير شأن الزرع في ماء وطن
إنهم في الدهر أعلام اليقين

ليس حياً من يرى مستعبدا
سيد من ليس يرضى سيده
في ضمير الحر تكبير الإله
موته أعلى مقامات الحياة
هو يوم الشلم في نهضته
ويذيع الخير في أمنه
وهو يوم الحرب في ساحته
يتحدى الموت في وثبته
إن عرس الحق في نور القلوب
فالتمس للمجد أحرار الشعوب

يا أمم الشرق، ص 366.

الحر مملوء بالحرارة، ويبعث على الطرب. وقلب العبد ميت بائس. ثروة الحر قلب مضىء، وهي حامية. وثروة العبد عين دامية. الحر شهيم وصاحب مروءة. والعبد غريب عنهما حتى ولو كان بارعاً في البراهين المنطقية. فالعبد ليس ندأ للحر. هو عبد للأفلاك، والحر سيدها⁽¹⁾. يجعل الحر الحق مصيره. ولا يبيع ضميره لمخلوق. ومن جعل الروح وفيأ لله صان قومه من القيد، ويده من الأغلال⁽²⁾.

للأمة متعة الدنيا كل المرام. وتنتهي إلى اليأس والموت والظلام. أما الحر فهو جهاد وثبات في الحق. والموت أحد المقامات. تبني الأمة قصوراً في الخيال. وترى الممكن مستحيلاً. أما الحر فهو يعمل في كل مكان. ولا يضيع العمر في وهم الخيال. يحول الصخر بحاراً جارية⁽³⁾. والخير في صحبته. والشّر في صحبة أهل البور. صحبة الحر خير من ألف كتاب. تنير العالم. منه تخلق آدم. هو البحر الذي يغني عن الجدول. سلام في أوطانه، يغير في عمرانه. يحيي عصره بجديد الفكر كما ينشر الروض العطر. وهو بركان في ساعة الوغى. يحفر قبره بسيفه حتى ينصره الله. زرع القلب في ماء وطن لأصحاب اليقين. والحر هو هادي الأحرار⁽⁴⁾.

(1) أرمغان حجاز، ص 539.

(2) فاز حر جعل الحق مصيره
من وفى لله روحاً ودماً
يا أعم الشرق، ص 345.

(3) متعة الدنيا لنا كل المرام
هو في الحق جهاد وثبات
إننا نبني قصوراً في الخيال
وهو بالأعمال في كل مجال
لو رمى شمس الجبال العاتية
اجتنب صحبتنا وأسعد به
السابق، ص 364.

(4) انزم الحر ودع أهل البوار
صحبة الحر إلى العلياء باب
صحبة الحر تنير العالم
قربه للعرز أصفى منه
هو يوم السلم في أوطانه
بجديد الفكر يحيي عصره
أهدم الدار وكمن صاحب دار
هي خير لك من ألف كتاب
ولقد تخلق منه آدم
لك في البحر غني عن جدول
آية التغيير في عمرانه
مثلما ينشر روض عطره

والاختيار هو مقياس الحساب، وليس الجبر. فالاختيار مسؤولية، والجبر إعفاء للمسؤولية. والاعتذار بالقدر غير مقبول يوم الحساب. أما المشايخ فهم الذين يروجون للقدر لأنهم عاجزون عن الفعل، وتبرير الكسل⁽¹⁾.

ب - وهم القضاء والقدر

الوقوع في أسر القدر يؤدي إلى الموت. ولا يعتذر بالقدر إلا الجاهل. ولقد ثار الروس والألمان بحرية الإسلام. وتحرر الشرق من استعمار الغرب. ولم يكن كلاهما مقدر⁽²⁾. أصبح المسلم غريباً عن كل دار. يعافي الدنيا من الغبار. ويحيل عجزه على الأقدار⁽³⁾. أصبح المسلم خالياً من العمل بعد أن اختلق القدر واعتذر به⁽⁴⁾. التقدير اسم للاعتذار عن الأعمال. والذات هي التي تحدد أقدارها⁽⁵⁾. ولا تنسب أفعالها إلى الأقدار⁽⁶⁾. الذات خارج التقدير وإلا تحولت

ثورة البركان في نيرانها
هينا إلا لأصحاب اليقين
فالتزم في الدهر حرا هاديا

لدى الإنسان من جحر وقصر
أيرضى الله عما سوف يجري
كلامي ذاك ألق إليه بالا
سُقتل نحن بالتدبير طالا

لا تموت وأموت ما الخبر؟
والتقاب ارفعه عن وجه القدر
خفقة الأرواح في الإسلام بانت
قل أجنبي ما الذي كان المقدر

ولي دنيا أعاف، من الغبار
لغير الله أبديت اقتداري

لنفسك هذه الأقدار حيد

وكان الله وهابا غفورا

= وهو يوم الحرب في ميدانها
ليس زرع القلب في ماء وطن
إن أردت العيش حرا صافيا

السابق، ص 364.

(1) سيوزن كل شيء يوم حشر
فماذا في غد يا ليت شعري
ولي شيخ من الرهبان قالا
بتقدير لكم عمر سيفنى

أرمغان حجاز، ص 490.

(2) قل لماذا كنت في أسر القدر
أعذر الجاهل بالجهل اعتذر
ثورة للروس والألمان كانت
دبر الشرق وهذا الغرب دبر

جاويد نام، ص 320 - 321.

(3) غريب، مسلم، عن كل دار
وهذي لوعتي من فرط عجزى

أرمغان حجاز، ص 444.

(4) السابق، ص 542 - 543.

(5) وذاتك فاملكنْ تعش سعيدا

السابق، ص 459.

(6) إلى الأقدار لا تنسب أمورا

السابق، ص 486.

إلى عدم⁽¹⁾. ولماذا تكون الشكوى من تقدير الله ولا تكون الذات نفسها قدر الله؟⁽²⁾.

وفي حوار بين الخالق وإبليس حول القدر، يرد الخالق على إبليس. ويفند احتجاجه بالقدر لتبرير فعله في عصيان الخالق ورفض السجود لآدم. علم الله المسبق بعصيان إبليس وإرادة الله الشاملة لإرادات البشر يجعله غير مسؤول عن أفعاله. ويرد الخالق بأنه حر مختار مسؤول، أن يسجد أو لا يسجد. فهو مختار لا مجبر، مخير لا مسير. اعتبر الحجر والشعلة فيه مجرد رماد⁽³⁾. وفي قصيدة «قهر الطبيعة»، يصور إقبال قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له. فقد خلق آدم. ورفض الشيطان السجود له. فلم يسجد طاعة العبد الذين يصلون دائما. ويحكم العالم دون تخويف بنار أو بيوم آخر. وكان لآدم بعض العلامات وقت خروجه من الجنة، وهي أن الحياة لهيب، ورد محاط بالأشواك، وضرورة فتح النوافذ والأبواب حتى تخرج الطيور إلى الحدائق والرياض. وتمرح في السماء بين السحب. فزهرة واحدة في الحديقة خارج القصر تساوي القصر كله. وفي اليوم الآخر، يقف آدم أمام الله مطيعاً كظواهر الطبيعة. أما الإنسان فإنه لا يطيع إلا بفعل المحبة كما قال الشاعر «إن المحب لمن يحب يطيع». فالإنسان طين وروح، بدن

(1) وفي عدم تعلم كيف تحيا وزد ذاتا من التقدير هيا

السابق، ص 495.

(2) السابق، ص 533.

(3) إبليس: يا إليها أمره كن

لم يصب آدم مني

ويل غمر، من زمان

كيف أستكبر عن

كان في علمك أني

الخالق: هل عرفت السر هذا

إبليس: بعداً يا من من تجلبه

الخالق (ناظراً إلى الملائكة)

خسة الفطيرة فيه

قال: ما شئت سجودي

ذلك انظالم سمي

إنه سمي رمادا

ضرب الكلم، ص 31.

ونفس، جسم وقلب⁽¹⁾. وإذا كان القضاء والقدر سيحولان الإنسان إلى مجرد بكاء شاكي للقمر فعليه أن يترك ما هو فيه، ويضع جبيرة في عظمه حتى يقوى عودها وتشتد⁽²⁾.

لقد قام إبليس بعمله، وهو أنه نصب شباكه كصياد. ولم يقم الإنسان بعمله في الهروب من شبكة الصياد⁽³⁾. فلماذا لم يصعد الإنسان إلى السماء حتى لا يصطاده الصياد في الأرض؟ فمن المخطئ ومن المصيب، إبليس أم آدم؟ كانت صلبة آدم لإبليس وبالأعلى عليه. وكانت صلبة إبليس لآدم وبالأعلى عليه أيضاً. طين آدم لم يعطه الكبرياء أو الإباء. فأضاع نفسه وانتهى إلى الفناء⁽⁴⁾. أثبت ذاته، ونفاها آدم. كان إبليس صاحب العزيمة، وآدم خارت قواه. أنكر الإنسان ذاته فأفنى نفسه. وفي النهاية، إبليس هو الذي مارس حرته. وآدم هو الذي اعتذر بقضائه وقدره⁽⁵⁾.

كان إبليس مختاراً لا مجبراً في اعتراضه على السجود لآدم⁽⁶⁾. لقد استعمل إبليس حرته وفقدتها ابن آدم لأنه طاع غواية إبليس. فإبليس أعظم من آدم⁽⁷⁾. من القضاء

A message from the East, pp. 41 - 8.

(1)

Persian Psalms, p. 105.

(2)

(3) يرصد الصياد ما يرميه حتما
ما هوى من طار في أوج السماء
جاويد نامه، ص 269.

(4) ربّ من أخطأ وربّ من أصابا
ذلك الإنسان حكيم لم يخالف
طبيته لم يذوق ذوق للإباء
وضعيف العزم فج الفطرة
ما هو الإنسان؟ ضفت من غشاء
منكر الذات أريد منك فامنع
السابق، ص 270.

(5) يا إلهي فلتهب حراً أبيا
في انهزامي متعة كانت لذي
السابق، ص 270.

(6) من مروجي نبت نار و نار
بعد جبر قد هداه الاختيار
السابق، ص 268.

(7) إنني أظهرت قبحي، قم بشأنك
تلك ناري ضدّ عني حرّها
أنت يا إنسان في أسري دفعت
ثم قلت: أنت فلتختر لنفسك
عقدتي خلّ ودبر أمرها
أنت عصياناً لشيطان أبحت

والقدر تنشأ الحرية⁽¹⁾. ومن عالم التقدير يتحقق المرام. ورجل الله هو الحسام⁽²⁾.

ويعطي الله والشیطان الإنسان الفرص من أجل الاستفادة منها بأي طريقة يشاء. والتفكير في الشيطان يؤدي إلى ظهوره. وهذا أيضاً يصدق على الله. وهذا هو معنى المثل الشعبي «اللي يخاف من عفريت يطلع له»⁽³⁾.

واعتماداً على الشخصية والخيال الخصب الخلاق، يمكن إعادة بناء عالم الخطيئة والشقاء كجنة فعلية. من وجهة نظر الخطيئة، الخطيئة أفضل من التقوى. ففي الأولى عنصر خيالي أكثر من الثانية. والألم هبة من الآلهة حتى يدرك الإنسان الحياة في كليتها. ولا يوجد نسق ديني ينكر القيمة الخلقية للألم. وخطأ مؤسسي المسيحية أنهم أسسوا دينهم على واقعة الألم بمفردها. وجعلوا القيم الأخلاقية للعوامل الأخرى. ومع ذلك كان هذا النسق الديني ضرورياً للعقل الأوربي من أجل إكمال المثل الأعلى اليوناني كما قال جوته، ولكنه كان يكشف عن الجانب المنهجي في الألم الذي قدمته المسيحية⁽⁴⁾.

وفي فلك المريخ في «جاويد نامه» موضوعان رئيسيان: القضاء والقدر، والمرأة. الأول خاص بالشرق والثاني بالغرب. ويبدأ زندروود بالدفاع عن القضاء والقدر الذي يرفضه حكيم المريخ⁽⁵⁾. فإن كان القضاء شراً فليطلب الإنسان خيره من غيره. والذات قادرة على أن تستعيد قدرتها بنفسها. هي تراب يطير في الهواء

= وهما ما كن ولا تخش الخطوب
ولتعش يا مسعدي عني غربا
السابق، ص 268.

(1) أنت قلت: كل شيء بالقدر
قد أسأت الفهم يا هذا كثيراً
وقضاء الله كان عزمه
السابق، ص 257.

(2) من رجال الله، كن سيفاً حساماً
عالم التقدير فاخلق، والمراما
السابق، ص 318.

(3) St. Ref., pp. 134 - 45.

(4) Ibid., pp. 102 - 3/108/115 - 6.

(5) القضاء إن عذمت خيره
بسؤال الله كن أنت الجديراً
كل مال الذات في قوم هدر
رمزه حرفان، هل أدركته
من إله الكون فاطلب خيره
يملكك الله الكثير والكثيرا
إنهم لم يدركوا معنى القدر
«إن تغيرت فقد غيرته»

أو حجر يكسر الإناء. هو ظل فوق زهر، وبحر دائم الخلود. هي ذات - إله. تجمع بين العقل والإيمان. قد ينال المال بالجهد وبدونه. والفقير لا يحتاج لكليهما. الجبر والصبر قرينان. الجبر يجعل الإنسان يصبر على ما يصيبه من شرور. وهو سم قد بدر. يجعله يقبل الظلم⁽¹⁾.

لذلك يرفض إقبال عقيدة القضاء والقدر باستمرار كما فعل الأفغاني من قبل. يستنبطها القاعدون من القرآن فتخلفوا. والأحرار استنبطوا الحرية أيضاً من القرآن فسادوا العالم. ورضي القاديون بما يكرهونه استسلاماً لها⁽²⁾.

وحرية الفكر أمر إلهي وليست فقط من مكتسبات الحضارة الغربية. وإذا كان القرآن يحتمل الوجهين فالأولى أخذ الوجه الذي يؤكد حرية الفكر. فهي أحد مطالب العصر⁽³⁾. وحرية الذات نتيجة تحررها بفعل التوحيد. وأتعتاق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة⁽⁴⁾.

حجرا كن بك تحطيم الإناء!
أنت بحر، فالخلود كل دهر
ما نبت، فلنعلمك الثباتا
عالم الأفكار فيه كان حبسك
وعديم الأبن موفر النشب
فيزد في فقره هذا الفقير

كن ترابا لتطير في الهواء
أنت ظل، فالسقوط فوق زهر
قد صنعت لك دوما أنت لانا
أنت مالم ترفض الإيمان نفسك
قد ينال النحال من يلقي التعب
كان هذا أصل دين يا غرير

السابق، ص 241.

حبذا الفقر إذا ملكا وهب
ذاك من يرضى وبهوى جبره
ليت قومي يعلمون، ويح نفسي

دعك من فقر به عري وجب
إن هذا من يديم صبره
يألفان الظلم مرا في التحسي

السابق، ص 276.

وبالقرآن قد ملكوا انشربا
وكان زمامهم قدرا خفيا
فما كرهوه صار لهم رزيا

من القرآن قد تركوا المساعي
إلى التقدير ردوا كل سعي
تبدلت الضمان في إसार

ضرب الكلم، ص 9.

وحرية الأفكار من ربه أمر
فجدد لنا شرعا يلائمه العصر
فإسلامها عبد ومسلمها حر

ألا من يطيق اليوم نصحا لمسلم
وإن شئت فالقرآن تأويل لآعب
رأيت بأرض الهند أي عجيبة

السابق، ص 42.

رحمة الرحمن بالعبد استحق

وإن العبد من الدنيا انعتق

جاويد نامه، ص 163.

لا تقتل الذات ذاتها بذاتها. بل هي حرة في أفعالها بالرغم من خلقها من طين. وإثبات الذات أرضى الجميع لأن فيه إثبات للآخر. وقيمة أشعار إقبال أنها تعبر أيضاً عما في قلوب الأمم من خاطرات وهواجس⁽¹⁾. هل الإنسان في رحاب الفضاء سجيناً، دمه على وجنتيه؟ إنه إنسان حر يشهد بسر التجلي لطيبته⁽²⁾. الذات حرة بالرغم من إطلاق «عبد الله» عليها. فالعبودية لله حرية من عبودية البشر⁽³⁾. الحر ينمو بذاته، ويختار أمره، ويقرر مصيره⁽⁴⁾.

كل إنسان يصنع مستقبله، ويخطه بيده. ولم يخط الله شيئاً على جبين كل إنسان. نفخ الله فقط النار في البشر، شباباً وشيوخاً. وقد يخرج من الصحراء فقير يحول الحصى إلى در. والفضاء فوق الرؤوس يسمى سماء، ولكنه تحت أجنحة العقاب أرض⁽⁵⁾.

والقدر يقضي على مساعي الأمم حتى ولو كان له منطق خفي⁽⁶⁾. بل إن

(1) أنا من أجل هذا كنه
أنا لا أجهل ما تقصده
السابق، ص 444.

(2) لست يا أنت في الفضاء سجيناً
يشهد الحر أن سر التجلي
السابق، ص 445.

(3) أنت عبد الله فالزم
ما عدا عز العبودية لله تسول
سيد الأحرار عبد
فاحفظ الذات وصنها
السابق، ص 448.

(4) الحر يسمو في الحياة بذاته
بلهب أنفاسي التي أطلقتها
السابق، ص 449.

(5) إن يكن في الألف رب يقين
وبما تنشئ الصحاري فقيرا
بيراع لك اكتبن لك حظا
ذا الفضاء الذي يسمى سماء
هو فوق الرؤوس يدعى سماء
السابق، ص 124.

(6) ربما يبلغ اللثيم مناه
وينال الكريم ضيم الزمان =

الفرض في الذات يكشف عن الحرية وراء القضاء الذي قد يفسر تنافر الناس. الغوص في الذات هو الذي يعطي الأمل⁽¹⁾. ولا تتبدل الذات بدعوى أن القضاء يبدل. الذات هي نفسها، والقضاء يتبدل. الشراب باق، وتتبدل الأواني والسقاة. والغناء باق، ويتبدل المغنون والقيان. والرجاء باق، والمرجو يتبدل⁽²⁾.

وتفرد الحدوث من القدم على رأي الفلاسفة يتجلى في صفاء الشعور. والأفلاك لا حظ في دورانها. إذ يظهر السر في قوة الصرخة. وشرارة الذات تنبعث من الروح وإلا كان العشب ما زال ندياً لم يجف بعد. والقلب وهو في صلصاله ليل ونهار. ولن يخمّد نار اللهب حتي يتحرر كل شيء فيها بالرغم مما يقوله مشايخ السكر أي الصوفية عن تدخل القدر وإرباكه خطط الإنسان. عظمة الإنسان أنه يحول الطين والصلصال الذي خلق منه إلى ذات حرة⁽³⁾.

- | | |
|---|--|
| <p>ويرى دون منطق في العيان
وجلاها التاريخ كل أوان
نظرة كالحسام فيها مضاء</p> | <p>= علّ في منطق القضاء خفاء
علم الناس ذي الحقيقة طرا
نحو معي الأرقام يرتو القضاء
السابق، ص15.</p> |
| <p>لست ولا أنت القضاء فصله
دواؤه في الجروح أرسله</p> | <p>(1) تنافر الناس دائم أبدا
في الذات عُضْن، للزمان ذا أمل
السابق، ص116.</p> |
| <p>بدعوة أن القضاء يبدل
فجائز أن القضاء يُبدل
رسم السُقاة والإناء يبدل
ودعوتي أن الرجاء يبدل</p> | <p>(2) يجوز أن تبدل أنت، لا تخل
إذا سرى في ذاتك انقلابها
يغني الشراب والغناء إذ ترى
تدعو بتحقيق الرجاء جاهدا
السابق، ص116.</p> |
| <p>للناس تعلنه نقاوة مهجتي
فالسر مظهره جسارة صرختي
أم أن عشبك ما يزال نديا
تُذكي لهيبك بكرة وعشبا
حتى يحمر كل شيء فيها
فُضحت شيوخ السكر في نادبها</p> | <p>(3) انحداث المحجوب قبل ظهوره
لا حظ للأفلاك من دورانها
أترى بلا روح شرارة أتني
صرخات هذا القلب في صلصاله
لن يخمّد اللهب الذي في طينتي
بالرغم من قدر قد ارتبكت به
جناح جبريل، ص456.</p> |

ج - الحرية الذاتية

والأقدار في يد الذات وبمحض أمرها. الأقدار قوة مستورة خلف الذات الظاهرة. فإذا ما خلت الذات إلى نفسها تصل إلى الخلود⁽¹⁾. الجبر وهم وظن. فلا روح بلا إرادة. مسار الذات من الجبر إلى الاختيار، ومن الأرض إلى السماء، ومن الطين إلى الروح. بهذا التحول تمتلك الدنيا كما يمتلك البطل النوق⁽²⁾. لا يسيطر القضاء على أفعال البشر. وأين قضاء الإنسان الذي تحت سيطرته؟⁽³⁾. كيف لا يستطيع المسلم وهو نور السماء أن يشرق في الأرض وهو سلطان الليالي متعذراً بالقضاء؟⁽⁴⁾.

الحكمة كلها في أن يعيش الإنسان حراً⁽⁵⁾. والحرية هي الحرية الذاتية، التخفف من علائق الدنيا وليس حمل همومها، وتحويل الحياة إلى تجارة، رأس مال وضرائب. يحقق الحر وجوده بكفاحه. ويعتبر تدخل الناس عاراً. فالذات ليست أجيرة في قصر غريب. وليست في واقع الحياة غباراً⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | هي الأقدار تكمن خلف ستري بذاتي برهة ها قد خلوت زبور العجم، ص 374. | قيامات أقمْتُ بمحض أمري بدنيا الخلد أخلقها بدوت |
| (2) | وهذا الجبر وهم أو ظنون تصول بعالم للكيف والكم وذلك الجبر منه إن أفاقت السابق، ص 391. | بغير إرادة روح تكون وعن جبر إلى المختار نقدم لها الدنيا كتلك النوق ساقط |
| (3) | رباه أين أنا وأنت وإن يكن جناح جبريل، ص 417. | هذا قضاؤك أنت أين قضائي؟ |
| (4) | أيها المسلم يا نور السماء أنت سلطان الليالي لا كما السابق، ص 419. | كيف لا تشرق في أرض البشر؟ قالت الحمقي أسير للقدر |
| (5) | يا أنت! ثروة الحكيم طرّاً والآخرين جهدهم منتهب أرواحهم تبرز في المصائب السابق، ص 453. | في أن يعيش ويموت خراً نفوسهم كما يريد الذهب ورأسمائلهم من الضرائب |
| (6) | يصنع الحر كونه بجهاد لست أجرة لقصر غريب السابق، ص 458. | ويرى في تدخل الناس عارا لست في وقعة الحياة غبارا |

ولا تعتمد الذات إلا على ذاتها. ولا تسأل غيرها. بل تجتهد، تخطئ أو تصيب⁽¹⁾. وكل نور يُؤخذ من غريب يخبو تدريجياً. الذات شمس تستمد نورها من ذاتها، وليست قمراً يعكس نور غيره. كل شيء سوى الذات سراب⁽²⁾.

ويسمى إقبال «الجبر الذاتي» المعروف عن برجسون التسليم والرضا. ويعني الحرية الداخلية، الضرورة الباطنية⁽³⁾. فالإنسان حر بضرورة داخلية كشوق النبات لرحب الفضاء، وخروج الحب من ظلمة التربة كأن به جنون النشوء والنماء. حرية الإنسان من ضرورة فطرته. ومن ثم لا يترك السعي بحجة القضاء والقدر. لأهل النماء فضاء فسيح، في عالم واسع⁽⁴⁾. فالقضاء ليس قيداً بل الأحكام التي يضعها البشر. فالتقدير يوضع في غير محله لتبرير الكسل والعجز والإحباط والهزيمة. الكائنات الطبيعية تخضع لقوانين الطبيعة. والمؤمن الحر لا شيء يقيد ولا يخضع إلا لذاته وفطرته⁽⁵⁾. حرية الذات تحطم القيود⁽⁶⁾. والذات قادرة على مواجهة

(1) لا تغل للدليل دعني لوحدي
لا يطيق الكريم ذل سؤال
السابق، ص 446.

(2) كل نور أخذته من غريب
قلبك الشمس فأقبس النور منه
كل نئى سواك أنت سراب
السابق، ص 448.

(3) وهي أيضاً رسالة زكي نجيب محمود للدكتوراه بعنوان «الجبر الذاتي».

(4) على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قر في ظلمة التراب حب
جنون النشوء به والنماء
فلا تبغ في فطرة ترك سعي
قما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النماء قضاء فسيح
وما ضاق ملك الإله، فسيحوا
ضرب الكلم، ص 35.

(5) قيد القضاء نرى أم قيد أحكام
في كل حين ترى التقدير في غير
ما أعجزت هذه أرباب أفهام
رهيبتها بين لذات وآلام
السابق، ص 44.

(6) قوى للذات يوماً ما بلونا
أرمان حجاز، ص 487.

الفرعونية، والالتفاف حول نفسها كأفعى ترقص بانتظار من يواجهه. وتصبر وهي تعمل⁽¹⁾.

وحرية الذات نتيجة تحريرها بفعل التوحيد. اعتناق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة⁽²⁾.

ولا تعني حرية الفكر الفوضى بل تدبر العالم. فلو كانت في رأس جاهل لرد الناس بهائم⁽³⁾.

والحرية تنتهي بالشهادة لأن العبد هو الذي يعيش خائفاً من الحرام. والحر وحده هو الذي يقدم روحه ويموت بغتة دون أن يحمل هم الموت. موت العبد موت القبور، موت التراب. وموت الحر حياة في السماء، تبعثه من تربته. يخشاه العبد، ويتوق إليه الحر. يموت العبد وهو يرتعد ويستشهد الحر وهو يكبر في معاركه. موت المؤمن هو موت النبي وليس كموت الملوك من أجل السلب والنهب. يموت الشهيد من أجل الحبيب للوصال القريب. راهب الإسلام هو المجاهد. وهو ما عرفه الشهيد وحققه بدمه⁽⁴⁾. وحرام على من علمته معرفة الذات

(1) لشط قال موج وهو يهدر على ذاتي التنافي مثل أفعى السابق، ص 498.

(2) وإن العبد من الدنيا اعتنق جاويد نامة، ص 163.

(3) بحرية الأفكار هلك جماعة فحرية الأفكار في رأس جاهل ضرب الكلم، ص 53.

(4) ويموت العبد خوفاً من حمام لكن البحر هذا شأنه ليس يُجري ذكر موت بغتة دعك من موت القبور والتراب ما يُرتجى مؤمن من ربه لطريق الشوق هذا الموت غابة ليس للمؤمن غير الأطيب الملوك حاربوا من أجل سلب وبها يمضي إلى دار الحبيب لم يكن يعيش له غير الحرام روحه الأخرى لديه حينه ويموت الحر لكن بغتة إنه الموت ولكن في التراب موت إطلاق له من تربته وهو للتكبير في حرب نهاية أي موت مثل موت النبي كالنبي مؤمن في خوض حرب بهجر الدنيا لوصول من قريب

نسيان الجسد أن يلبس الدرع⁽¹⁾.

7 - الإبداع

والحرية شرط الإبداع وهو ما يسميه إقبال الإلهام. فللحر إلهام يُحفّزه إلى القول والفعل. نفس الحر يشيع في الروض فيزدهر من شراره⁽²⁾. والذات خالقة ومبدعة، تبدع الشعر والفن⁽³⁾. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة. فالتجدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها⁽⁴⁾. والسكون موت⁽⁵⁾. والدين أيضاً كذلك موج مسرع لا يهدأ بل يبحث عن المجرى العميق الواسع⁽⁶⁾. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع⁽⁷⁾.

= قال قوم للنبي ذو المحامد الشهيد وحده هذا دراه جاويد نام، ص 212 - 213.	راهب الإسلام من كان المجاهد بدم أجراه في الحرب اشتراه
(1) أرمان حجاز، ص 543.	
(2) إن للحر ملهما نظرات حر أنفاسه يشيع بروض السابق، ص 36.	تحفز القول والفعال بنار فتري الروض مزهرا من شرار
(3) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟ السابق، ص 297.	أضرمته الذات أو رب وهب
(4) إنما الأمواج في نهر الحياة ما الحياة غير تجديد تجدد الذهاب والمجيء، ما هما السابق، ص 311.	إنما التبديل شأن الكائنات طالما تطلب في شوق تمهد الكيان للوجود منهما
(5) خفقت كموجة في موج ذاتي أرمان حجاز، ص 471	إني الطوفان أذت مسافيتي
(6) السكون في الحياة للثبات السابق، ص 312.	ما سألت الله طولا في حياتي
(7) ديننا يشبه موجا أسرع السابق، ص 314.	ما أقام بل أراد المهيعا
(7) أنت حي؟ من شوقا وخلق ما تراه لا يوانني فلتحطم كل حر كان مكروبا حزينا	كل أفق مثلنا فلتطرق عالمنا منك إليك فلتقدم أن حواه عالم للأخرينا

الإبداع هو جوهر الذات في القول والعمل. فلا توجد أوامر مسبقة للذات، تدفعها آلياً نحو التفكير أو الفعل. بل تعبر الذات عن نفسها تلقائياً كما يفعل الشاعر. وتفعل كما يفعل البطل⁽¹⁾. ويصدر كلاهما من حرقه الوجود المشتق من الوجد، من الدموع والضحكات، من الأفراح والأحزان. يستخرج الإنسان كل ما في فطرته من مواهب، ويعتمد على ذاته. فتظهر قوته وفعله. ويرفض التقليد والاعتماد على الغير⁽²⁾.

الإبداع تخليق وجدة إذ تتجدد الدنيا بتجديد الفكر. فالدنيا ليست صخراً أو حجارة. الغوص في الذات مثل الغوص في غدير الماء أو في البحر المتلاطم الأمواج أو هبوب آفاق الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية⁽³⁾. والنظر في الأشياء يكشف عن عالم ما بين السطور. ويكتشف أشياء جديدة تسري بينها مثل الذات⁽⁴⁾. بل إن الضحية تلتذ بالنظر إلى انعكاس النور في حد السيف قبل أن يقطع الرأس⁽⁵⁾.

والرجل العظيم يرى في خياله عالماً جديداً يحققه في الواقع بالفعل. ومن

- | | | |
|---|--|-----|
| لست في رأي لدينا غير كافر
من نخيل العيش ما ذقت التمر | أعلى الإبداع أنت غير قادر؟
وعدمت حسنا حتى الأثر
السابق، ص 317 - 318. | = |
| مازجا فيه غزير الأدمع | معلبا قدر الكلام المبدع
الأسرار والرموز، ص 9. | (1) |
| ليست الدنيا بصخر ومدر | ضرب الكلیم، المدخل ص ط. | (2) |
| من غدير الماء بحر قد زخر
لا عجيب إن بدا جذن سفر | جدة الدنيا بتجديد الفكر
همة الغائص في الذات لها
ريح أصحاب من البيد أنت
السابق، ص 72 - 73. | (3) |
| تنور الأفلاك منك في البكر
وينجلي قدرك في سيما القمر
وتستحي إعجاز صنعك النطر
فكيف لا تبلغ حتى ذاتك؟ | إن صدقت نفسك في الدهر النظر
وتستضيئ الشمس منك بالشرر
والبحر يلقي منك ذا درر
تخذت أفكار الوري مرأتك
السابق، ص 88. | (4) |
| ل لجلاده أمام الحمام
لأري لحظة وميض الحسام | أي ذات حوى فني النصين من قا
منظر رائق، تمهل، تمهل
ضرب الكلیم، ص 95. | (5) |

كان قلبه حياً في الدنيا لا يخفى عليه القضاء، إن كان محدود البدن فروحه لا نهائية⁽¹⁾. خلق المعاني موهبة من الله واجتهاداً في الفن. يخلق الفنان بحرقه الدم. فلا يتجلى جوهر دون جهد⁽²⁾. والذات تدرك الجمال كما يدرك الضحية وميض السيف قبل أن يقطع الرأس.

والذات فياضة بطبعها، كريمة وهابة. ليس من عاداتها تخبة الكؤوس. الطريق متعرج وعسير. لا يخشاها الشجاع. ولا يزهر بها المغرور. ولا يسير فيها من هانت عليه نفسه. والذات خبيرة بقواها. لا تحتاج إلى ما تستند عليه. تعرف أن حمرة الشفق في الأفق حمرة دماء الشهادة. وتعرف أن حمرة الغسق هي نور الصباح⁽³⁾.

والفكرة التي تنبعث من الذات في نفس جراتها تقف في مواجهة استبداد الطبيعة. هي كالصاعقة المتحركة التي تهدم العش الثابت. هي الريح في الفضاء والبحر القادر على ابتلاع السفينة. ويستطيع الجند مواجهة القضاء. كما يستطيع الطفل مسك السيف. العالم القديم يذهب، والعالم الجديد يأتي، بفضل المقاتل الذي لا يستسلم⁽⁴⁾.

(1) من كان حي القلب في الدنيا فما تجلو له رؤياه كوناً محدثاً فإذا جلا صوت الأذان منامه ولهيكل الدنيا الجديدة طينه السابق، ص 94.

(2) خلق المعاني من الخلاق موهبة من حرقه في دم الباني، مشيدة ما جوهر يتجلى دون مجهدة السابق، ص 94.

(3) ليس من عاداتي أخبئ كأنا بدء هذي التعرجات عسير وهي ليست لراصد في غرور إن عينا خبيرة بقواها شفق الأفق ذاك نهر دماء وانتظر مطلع الصباح وفهقه جناح جريل، ص 520.

(4) هذه الفكرة الجريئة عزت

بخفى عليه من القضاء ضميره بدع المثال بروقه تصويره شاد الذي في حلمه تعبيره هذا الضئيل وروحها تكبيره

لكن للفن في الفنان إجهاداً حانت حافظ أوزونات بهزاداً من ومضة الفأس نارت دار فرهاداً

لنديم على كرامة حاني وهي ليست تعرجات جيان وهي ليست لمقتف في هوان غير محتاجة لحمل سنان فتحتل نهر الدماء وعان حاكت اللغز ذاك أسطورتان

سلطات الطبيعة المستبدة

والتجديد أيضاً هو جوهر الذات ضد التقليد. هو علامة من علامات الحرية. التجديد ضد الذين ما زالوا عاكفين على الأمس. الخطورة أن ينتهي تقليد القدماء إلى تقليد الغرب، تقليداً بتقليد، وإن تغير المقلد⁽¹⁾.

والجهر بالحق طريق الذات دون تسر أو مواراة أو مواربة أو مDAHنة أو خوف. «الساكت عن الحق شيطان أخرس». ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [ان عمران: 173]. لذلك أمر النبي ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: 94]. والدين النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دور العالم. وأعظم شهادة قوله حق في وجه إمام جائر⁽²⁾. لذلك لا مجال للباطنية ولا للتقية. الذات لا أسرار لها. ليلها كنهارها. وهذا سر إعجابها⁽³⁾. الذات ملك متوج. تعبر عن رأيها بحرية دون خوف أو وجل. وهي جوهر الحياة. والحياة بلا ذات لا معنى ولا قيمة لها⁽⁴⁾. وكل بناء بينه الإنسان له

- = إن عشنا في الصواعق فيه
إنها الريح والفضاء جميعا
كان جند الفضاء للموت ذعرا
وإذا أنت جئت بالسيف طفلا
ذهب العالم القديم قتيلًا
السابق، ص 520.
- (1) عالم التجديد إن يظفر بحر
لا تدخ ذاتك بالتقليد لغوا
بارك التجديد قوما ليس فيهم
خشي أن يغى التجديد في الشرق
ضرب الكلیم، ص 118.
- (2) وكن الفهر لمرآة الفکر
الأسرار والرموز، ص 10.
- (3) فرفعت السنن عن سر خودي
فبدا الإعجاز من أمر خودي
السابق، ص 11.
- (4) جاء من نسمة الصباح كتاب
فإذا فيه: مبصر الذات أقبل
شرف الرأي ذاك جاءك منها
وحياة تكون من غير ذات
جناح جبريل، ص 441.
- ليس صعبا لمثلها أن تهده
إنها البحر والسفينة عنده
فإذا بالفضاء يقتل جنده
أمسك الطفل للجمال فرنده
أترى يسلم المقاتل بعده؟
موجد من حوله طاف الزمان
جوهر فرد فحطه بصوان
غير حفل الأمس، ذكرى وعبان
على التقليد للغرب رهان
واصدعن جهرا وأعلن ما استتر

ذات تعطيه الحياة وتجلياتها بالصوت إلى الكلام والضوء أي البريق⁽¹⁾.

8 - المقاصد والآمال

حياة الذات بتخليق المقاصد وتحقيق الأهداف⁽²⁾. والإنسان هو الوحيد صاحب الهدف المقصود، وليس الحيوان أو الجماد. ويكون ذلك بالعلم⁽³⁾. تحقيق القصد هو الذي يجعل الذات في نشوة السكر من العمل والإبداع. القصد هو النور الذي يضيء، والنار التي تحرق كل ما سواه. هو الذي يجعل الذات ترتاد السماء، ويشد القلب إلى غايته. هو الذي يفجر الذات ثورة ضد الباطل والسكون والعشوائية. تحيا الذاتية من تخليق المقاصد وتوليد الآمال⁽⁴⁾. فنحن أحياء بتخليق المقاصد. ونحن منيرون من شعاع الأمل⁽⁵⁾. وتتولد المقاصد. بالآمال كما تتولد الآمال بالمقاصد⁽⁶⁾. والأمل يقهر الموت. ويوصل إلى الخلود. وهو الباعث على الحياة. ولا يموت إلا من لا أمل له. الأمل هو الذي يبعث في الإنسان الحرارة

(1) عندما أنهيت عشي
صرخات العشب برق
السابق، ص 448.

(2) ضرب الكلم، المدخل ص ح.
(3) الأسرار والرموز، ص 16 - 18، المقدمة، ص 47 - 48.

نحن أحياء بتخليق المقاصد، ونحن منيرون من شعاع الأمل، ضرب الكلم، المدخل.
(4) إنما العلم وقار للحياة
إن للذات تقويم النجاة
الأسرار والرموز، ص 18.

(5) جاهلا سر الحياة! اجتهد
مقصد كالصبح في أنواره
مقصد يجتاز أفاق السماء
ثورة فيه وفيه محشر
السابق، ص 18.

(6) أخي في قلبك هذا الأمل
إنما يحيا الفؤاد الأمل
أمل الذات لهيب يستمر
وهق المقصود جبل الأمل
وممات الحي فقدان الرجاء
إنما أصل الحياة الأمل
لا تحل طينك قبراً مهما
وإذا حي بموت الباطل
أو هو الموج الذي لا يستقر
إنه خيط كتاب العمل
يطفن العلة فقدان الهواء
فكذلك العقل منه ينسل =

والحركة. وهو الذي نص عليه الكتاب ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]. غياب الأمل يدفع للموت. الأمل هو سبب الحياة والبقاء.

الأمل مبعثه القلب، وليس العقل. بل إن العقل تعبير عنه وصور له. إن عقل موسى كان له خضر يرشده⁽¹⁾. الأمل هو الذي يعطي العمل. فبلا أمل لا يكون عمل. وبلا عمل لا يكون أمل⁽²⁾. والدعاء الذي ينهي به إقبال «أسرار الذات» أقرب إلى السؤال. الدعاء نقيض العمل. الدعاء قول، والعمل فعل. الدعاء عجز، والعمل قوة. الدعاء عود إلى التصوف التقليدي والانعراج إلى السماء، والعمل العودة إلى الأرض. ومع ذلك يتضمن الدعاء دعوة للعمل والأمل دون العجز واليأس. والاحتجاج بالقضاء ذريعة لأن الأيدي خاوية، والتمن غال⁽³⁾. العمل فردي وجماعي، ذاتي وذاتي مشترك. الأمة حبل واحد ولكن مملوء بالعقد. والنجوم في السماء تتكاتف في الضياء ولا ينفر بعضها من بعض. الفرد للجماعة، ينير لها الطريق ويحترق. وحيد في الجماعة لإثبات الذات. لا يفنى فيها لأن سره ما زال في الضمير. وهو ما سماه القدماء «تدبير المتوحد». هو مثل الكليم في سيناء. ينجي ويقود. ينظر إلى السماء كما يعود إلى الأرض. لا تسير الموجه وحدها إلا بصحبة موجه، ولا السحابة وحدها إلا بصحبة سحابة، ولا كوكباً إلا مع كوكب، ولا ليلاً دون نهار، ولا نهراً دون نهر. وحدة الذات مثل أحادية الله. كلاهما ذات أوجد. والذات غزال مع باقي الغزلان، فرد وجماعة⁽⁴⁾. ومع ذلك تحتاج الذات

= أمل من قوة فيه ظهر
نحن أحياء بخلق الأمل
نحن في نور بهذي العمل

السابق، ص 16 - 18.

(1) يهبّ الترب جناحا يصعد ولموسى العقل خضرا يرشد

السابق، ص 16.

(2) رائباً وجه جديد الأمل ساعياً إثر جديد العمل

السابق، ص 9.

(3) عُذ فسكن ذي القلوب البائسة عُذ فعمر ذي الصدور البائسة

إننا نشكو تصاريق القضاء أنت تُغلي السحر والأيدي خلاء

أظهر المبركان من أعوادنا وامح غير الله في نيراننا

السابق، ص 68.

(4) كفنا ألقت بخيط الوحدة كم ترى في أمرنا من عقدة

=

إلى أنيس. ويحتاج الأنا إلى رفيق كما احتاج آدم إلى حواء، وكما يناجي الإنسان. فلكل ذات نَجِي، شقيق روح. يدرك ما في الفطرة، وحيداً مثل الذات، مرآة مزدوجة تكشف صورة كل ذات في ذات أخرى. الذات طين محكم، وليست صنماً يُعبد⁽¹⁾.

بكى سحاب الربيع ليلة واشتكى لأن الحياة بكاء مستمر. فقال له البرق في ومضة والضحك أيضاً لحظة لا تزيد. وهو حوار بين الندى والورود. بدون الندى لا تنمو ورود. وإذا كان السحاب بكاء فالورود ضحك⁽²⁾. الحياة تفاؤل وأمل. وقد سئل حكيم يوماً عن الحياة فقال: خمر يطيب فيها الأمر. قيل: بل دودة نمت في تراب. قال: لا بل سمندر (حيوان خرافي يعيش في النار لا يهدأ له بال). قيل: والشر فيها. قال: بل فيها الخير. والشر جهل ذلك. قيل شوقها لا يسير إلى نزل. قال: الشوق نزل مستمر قبل خلقها في الطين. قيل: شقت الطين حبة فهي زهر⁽³⁾.

إخوة لكن وجوه نافرة
وبدمعي كل حفل يشرق
أنا في الجمع فريد موحد
ليس يلزي نبي سر في الضمير

نخل سناء أنا، أين الكلام
أرجعن نارك من روحي الكبير
عطلن من نورها مرأتها
هو مرآة لعشيق محرق
محترماً يدرك ما في فطرتي
ليس بالدنيا له من حيلة
وأري في قلبه مرآتيه
وأرى آزره والصنما

فقال: الحياة بكاء مديد
هل الضحك في لحمة لا تزيد؟
فصار حوار الندى والورود

قال: خمر يطيب فيها الأمر
قال: لا! بل سمندر لا يقر
خيرها قد جهلت والجهل شر

قد مضينا كنجوم حائرة
أنا كالشمع لغيري أحرق
أمس في قلبي، وعيناي الغد
ظن كل أنني نعم السمر

السابق، ص 68 - 69.

(1) أين يا رباه في الدنيا النديم
يا من الأنجم منه تستنير
اسألين نفسي ما أودعتهما
أو فهب لي وجه خل لبس
هب نجياً يا ولي النعمة
هب نجياً لئلا ذا جنة
روحه أودع من ألتاتيه
وأسويه بطيني محكما

السابق، ص 69 - 70.

(2) بكى في الظلام سحاب الربيع
فقال له البرق في ومضة
فمن أبلغ الروض هذا الحديث

رسالة الشرق، ص 282.

(3) قد سألنا عن الحياة حكيماً
قلت: بل دودة نمت في تراب
قلت: والشر طبعها. قال: لا بل

خمر الذات لهيب يشعلها دائماً⁽¹⁾. ومن شعلة الحياة تخرج الذوات منفردة كالشرر⁽²⁾.

لا تحتاج الذات إلى تاج تزهو به، ولا إلى بريق الزينات. تعيش فقيرة في الحي، ولكنها ملك أبي في الكون. تعيد إلى الشيب الشباب. وتوقظ الشباب من السبات. وتصدر الآهات في الأسحار. تسعى في الفضاء الواسع في هذا العصر التائه الذي لا يشعر أهله بزمانهم خارج السنين والحساب، بل زمانهم الشعوري ووعيمهم التاريخي. فالذات حاضرة عند القدماء. لم تغفل عن سر العيش ولا عن حياة الجهاد، دون تدوين للهفوات لأصحاب الهمم. فالحياة رؤية. وإقبال مفكر ومصالح وقائد. يرى الحياة رباطاً عندما ينظر إلى بائع الخرقات⁽³⁾.

والأمل في المستقبل، وإمكانيات التحقق والفعل. يمنع من اليأس والقنوط.

- | | | |
|---|---|---------------------------|
| <p>قال: في الشوق منزل مستبر
شقت الطين حبة فهي زهر</p> | <p>قلت: ما شوقها يسير لنزل
قلت: في الطين خلقها قال فانظر:</p> | <p>= السابق، ص 296.</p> |
| <p>بخمر «الذات» لهاب</p> | <p>فيا إقبال خذ كأسا</p> | <p>(1) السابق، ص 317.</p> |
| <p>لذة «الذات» فرقتنا شرارا</p> | <p>نحن من شعلة الحياة جميعا</p> | <p>(2) السابق، ص 319.</p> |
| <p>ولا سنا الزينات
من المملوك الأباة
وفتية في سبات
في الفجر من أهات
في واسع الفلوات
هاد إلى الطرقات
أضعته في شبات
بالشهر والسنوات
ما فيه عيش مواتي
وعن جهده الحياة
كاتبها الهفوات
فيها سوى نظرات
بذيله في ثبات
من بائعي الخرقات</p> | <p>لا التاج يزهو عليه
ففير حيك، لكن
في الشيب ماتت قلوب
فما تصدر نصيب
لا تقعدن عن طلاب
فما بعصرك هذا
غفلت عن سر وقت
وقت عداه حساب
هذا الرباط قديم
غفلت عن سر عيش
ماذا يخط من الذنب
دنياك ما قد أضبنا
إقبالاً الحز أمسك
فما يرى في رباط</p> | <p>(3) السابق، ص 320.</p> |

وكيف الأمل في أصنام العصر، واليأس من روح الله؟ إن اليأس كفر، وإنكار للرحمة الإلهية ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] ⁽¹⁾. ولا ييأس قائد الركب ولا قتله. وإن نقصت شجاعة الرسول فلا تنقص رغبة الوصول ⁽²⁾. وشريعة الشجعان الجهر بالحق بلا رياء. ولا يُغلبون لأنهم أسد الله ⁽³⁾. وكل الألقاب التي تُعطى للإنسان مثل الغني أو العبد أو الأمير لا يمكن الوصول إليها دون الشجاعة. فالشجاعة هي الطريق لجلب صفات الذات ⁽⁴⁾. ولقد عبّر الشاعر سلمان من قبل عن أن هذا العالم بالرغم من صعباته سيظل مفتوحاً على العالمين لصاحب الشجاعة والإقدام مما يتطلب موهبة عالية وفؤاداً لا يهاب الجروح. والشجاعة غير مرتبطة بمحو الأمية لأنها مرتبطة بالعزيمة وليس بالعقل، بالإرادة وليست بالذهن. ليس السر في الطاووس الذي يتيه غروراً ولا في البلبل الذي يتيه إنشادا. بل السر في السمع ورقة العين، في السمع والبصر، في الإدراك والرؤية، في المعرفة الطبيعية ⁽⁵⁾.

وأهم ما يميز الذات الطموح وطلب المعالي. ففي قصيدة بعنوان «نصيحة».

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | كيف لا تيأس ترجو صنما
أنت هل تعرف كفرا آخر
جناح جبريل، ص 444. | ومن الله تعالى تيأس؟
غير هذا أيها المنتكس؟ |
| (2) | فيا رئيس الرتل كن حليماً
تنقصنا شجاعة الرسول
السابق، ص 449. | لا يقتل اليأس فتى حكيماً
لا تنقص الرغبة في الوصول |
| (3) | شريعة الشجعان هؤلاء
وما لهؤلاء قط غالب
السابق، ص 450. | الجهر بالحق بلا رياء
هذه أسود الله لا ثعالب |
| (4) | كن غنيا وكن إذا شئت عبدا
كل هذي الألقاب وهم
السابق، ص 458. | أو أميراً ما بين سميع وطاعة
لا يكون الوصول دون شجاعة |
| (5) | سيظل عالمنا برغم صعباته
البحث يلزمه مواهب بائق
من غير معرفة وغير قراءة
دع عنك طاووساً يتيه ويلبلا
السر ليس بنغمة وبصورة
السابق، ص 463 - 464. | سيظل مفتوحاً أمام العالمين
وفؤاد ليث لا يخاف جروحا
يجد الشجاع طريقه مفتوحاً
يشدو فليس السر في الاثنين
السر في سميع ورقة عين |

قال الفتى للباذ يوماً إنه نسر عجوز. يطير في الجو كما شاء. وهو رمز للشباب. والحقيقة أن القيمة ليست في الأصل والفصل بل في الأخلاق، أخلاق الشاهين الذي يرتفع إلى أعلى دائماً، لا يرضى بحش. يطلب القليل، ويتجرد عن مطالب الدنيا. يتدرب على الطيران دون كلام. تعرف قيمته حين الانقضاض على فرخ الحمام. وما أعظمها من فرحة مثل الانقضاض من أعلى السماء. وهي فرحة أعلى من سفك الدماء⁽¹⁾. وهي نفس العلاقة بين الزوبعة والموجة. الزوبعة أعلى من الموجة وأكثر قرباً من السماء في حين أن الموجة تتكسر على حبات الرمال على الشاطئ⁽²⁾. والطموح أهم ما يميز الذات. فهي برهان الأرض، تهفو إليها. القلب مطمئن، والعين تهفو إلى السماء. تتجه إليها بالفطرة كالشاهين يصطاد الحور والملائكة، حقيقة وليس خيالاً⁽³⁾.

تطلب الذات العلا باستمرار. وترنو إلى المثل الأعلى. وأفضل أن يأكل الذئب يوسف من أن يُباع في سوق النخاسة، فالشهادة مثل أعلى وليس العبودية

(1) قال للباذ الفتى نسر عجوز

لي رموز كنت قد حصلتها
لا تقل أصلي وفصلي أبداً
إنما الشاهين من يخرقه
فسوة التدريب روح السؤدد
سترى قيمته يا ولدي
ما أرىنا فرحة أمتع من
فرح والله لا يعدله

السابق، ص 508.

(2) شاهدت زوبعة تنن لموجة

قالت: ألا تبكي لشورة موجة
أنعيقها تلك الرمال أمامها

السابق، ص 509.

(3) أرضنا هذه لطهر ك تهفو

قلبك المطمئن قبضة نور
عن يد الله طرت لا عن غياب
ولك الحور والملائك صيد

السابق، ص 467.

(4) والذئب يأكل يوسف خير له

مرشد الأرواح مولانا جلال
مشرق الإيمان قدسي الضمير

أنت في الجو كما شئت نجوز
من شبابي فاغنم هذي الرموز
قيمة الشاهين في أخلاقه
دمه الشخصي في أعماقه
لا تضيعه سدى هذا الكلام
حين تنقض على فرخ الحمام
فرحة المنقض من أفق السماء
فرح، حتى ولا سفك الدماء

فسألتها فاستغربت لسؤالي
لم تنظم الشط الغبي السالي؟
وأنا أجز إلى السماء رمالي؟

أنت برهانيها وأنت هداها
منحت أعين السماء مداها
أنت شاهينها وأنت رسوله
ذاك دين وليس شعرا أقوله

من أن يباع لتاجر العبدان
شيخنا الرومي علوي المثل
وهو في قافلة العشق أمير

والذل⁽¹⁾. وهذا أيضاً ما يريده الرومي، مرشد الأرواح، العلوي المثال، مشرق الإيمان، قدسي الضمير، الأمير في القافلة. وصل مقامه إلى الشمس، وضرب خيامه في النجوم. صفا قلبه بالذكر، وأصبح مصحفاً. رأيه مفعم بالعشق. لذلك يشعل القلوب ثورة. تسمعه الفطرة، وينير الفكرة⁽²⁾. ويتوق ابن آدم بطبعه إلى العلى والطموح، والبحث عن الأفضل. وشرط ذلك التخلق بالقرآن حتى تصبح نفس الناس قرآنا⁽³⁾.

موجة الأنفاس جعلت الذات حداً. وإذا طلبت الذات شيئاً فإنها تسعى إليه عن قصد. لا تشرد ولا تسكن. يقظتها وعزلتها واستقلالها يثبت وجودها لمن شاء السؤال أو الاستدلال. هي قطرة ماء تحمل بحراً، تغمر في بحر الحياة. ولدت من ذاتها وأضاعها الإنسان نفسه⁽⁴⁾. الأزل وراءها، والأبد أمامها. والإنسان طامع إلى الاثنين، إلى القدم والبقاء. تدفع الشباب إلى الأمل. وتتخفى تحت النقاب. ترى

- قد علا منزلة الشمس مقاماً
قلبه في محكم الذكر صفاء
رأيه المرسل بالعشق نداءه
قال شيئاً سمعته فطرني
يا أعم الشرق، ص 343.
- (1) لو غدا يوسفت يوماً طعاماً
فهو خير من خيس يحتويه
السابق، ص 345.
- (2) على ابن آدم أن يرعى العلوي أنفاً
ومن تخلق بالقرآن مجده
جناح جبريل، ص 535.
- (3) موجة الأنفاس سيف
طابث ذاتك شيئاً
هذه ذات شريد
إنها اليقظة والعزلة والسر الحميم
إنسها الذات سؤال
مثلما الشوق إلى العزلة في وقت التجلي
إنه البحر الذي تحمله قطرة ماء
وهي في الظلمة والسنور على حد سواء
ولدت منك ومنني
فأضعناها كلانا
السابق، ص 516.
- (4) أزليناتي ورائني
أبديتاتي أمام

الصخر تراباً، والعالم وحيداً⁽¹⁾. ترى الذات الصخر تراباً، صعباً من إرادتها. وترى العالم وجداً تمنى أن يطير. هي البداية والنهاية. هي في البدر نور، وفي الصخر شرار. وهي في الظلمة ضوء، ليس لها حدود في المكان أو الجهة. جوهرها الكفاح والثورة والنصر⁽²⁾. والإنسان الناجح هو الذي يعترف بالحدود، ويقدر القدرات. فهذا هو ضمان النجاح في الحياة⁽³⁾.

9 - ضعف الذات ونفيها

أ - ضعف الذات

تضعف الذات بالسؤال⁽⁴⁾، ومن يعتمد في حياته على حياة الآخرين يضعف ذاته. وكما تستحكم الذات بالعشق فإنها تضعف بالسؤال. وكل ما يتم الحصول عليه بغير جهد هو سؤال. والميراث سؤال. والناقل من غيره سؤال. ولأجل إحكام الذات يخلق في أنفسنا العشق، ويُجنب كل أشكال الاستجداء⁽⁵⁾.

= وأنا رغم غيائي طامح نحو التمام
إنها الذات التي تمخر في سحر الحياة
فتناغي لطومات ونقاسي لطومات
عندما تطمح أن تقلب أمثال الشجباب
نتخفي وتدير اللحظ من تحت النفاث
السابق، ص 517.

(1) فنرى الصخر تراباً صعباً ممماً تدير
وترى العالم وجداً يتمني لو يطير
بها البدء جميعاً إنها ذاك الغبار
بها من البدر أضواء وفي الصخر شرار
بها في ظلمة النور إذا شمع النهار
مالها أعلى وأدنى مالها جوار ودار
من قليل وكثير ويسمين ويسسار
لم تزل جلف كفاح وانقلاب واننصار

السابق، ص 517.

(2) St. Ref., pp. 97.

(3) الأسرار والرموز، ص 23 - 24، المقدمة ص 48، خلاصة مقالة الشاعر إني الأستاذ نكلسون، ص 19.

(4) أفمن غير ذاك تعمر قلباً معاذ الله ترى أين ذاك؟

وقد تم التحذير من قبل من «كثرة السؤال». فالسؤال خزي وإقلال من النفس. يطفئ نور الذات كسيناء جرداء بلا نار. والرزق بالرغم ما به من عناء أفضل من السؤال وإذلال النفس. الرزق عن طريق البكاء إذلال. والأكثر احتراماً للنفس عدم استجداء الماء حتى ولو كان من عين الشمس. وما الفائدة من حل نعمة مع خفض الرأس وكسر العين⁽¹⁾.

ومحال أن يعيق الظلام شعلة الذات. الذات كالنجم، مسافر ذو لهيب. ينير ليل الحياة⁽²⁾. ويستفسر إقبال عن أن الذات تتجه نحو السماء. تحمل الظلمة والنور على حد سواء. ومع ذلك غاب عنها ما يظهره الفراق. وهي في جحيم لا يطاق لأنها فقدت تجليها. وهي في نهوض وسقوط مثل أرباب الوصول، في جراح لا تزول. ويجيب الرومي أنه الحب وحده الجدير بالعراك، ولكن السؤال هو من يوقعه في الشباك؟ الحب يجيب على كل سؤال. ويبدد كل حيرة⁽³⁾. ونموذج الذات الشاهين الذي يطير إلى أعالي السماء ولا يبني عشا.

(1) تجدد الإفلاس بالسؤال أذل
فترق الذات سؤال واجتداء
إن يكن في الرزق والجهد عناء
لا ترم في الأرض رزقا بالبكاء
ويح من يحمل ذل النعمة
الأسرار والرموز، ص 23 - 24.

(2) بعث النجم لي يقول: محال
أنت مثلي مسافر ذو لهيب
جناح جبريل، ص 533.

(3) قال: يا أستاذ! ما الحرب التي تملاً جنبك؟
تحمل الظلمة والنور على حد سواء
مع هذا غاب عنها ما يجلبه الفراق
هي من فقد التجلي في جحيم لا يطاق
في ازدهار وانهدار شأن أرباب الوصول
هي مما أفسرته في جراح لا تزول
قال رومسي ليس إلا الحب أهلاً للعراك
لكن الموضوع من يوقعه بين الشباك
السابق، ص 527.

يرضى بالقليل. ولا يأكل جيفة⁽¹⁾.

الذات كالنسر يطير في السماء، وليس كالتملة تزحف فوق التراب. الشاهين لا يبقى في الأرض، بل يطير إلى عنان السماء. لا ينتابه اليأس. ولا يقص جناحه. ولا يخشى الوثب في الريح. إنما يخشى النسر مخلبه، وبهايه الطير في الفلا. يصل إلى قمم الجبال. ويجوب الآفاق. ولا يهرب من أوج الفلك. يطير إلى النجم. ويخلق في فضائه البعيد⁽²⁾. نزل الشاهين في أوج السحاب. لا يسكن في وكر الغراب. عشه في أعلى الشجر. المسلم كحدّ السيف في المضاء. وروحه سيل كالعباب. ينسف القمم، ويهوي بالهضاب⁽³⁾.

الذات إمكانية وتحقق من اللاوجود إلى الوجود إثباتاً أو من الوجود إلى اللاوجود نفياً. وهو التعارض بين الأصيل والأجنبي، بين الأليف والغريب، بين العودة إلى الذات والاعتراب في الآخر. الإنية إذن جوهر الوجود وزينته، شهود على النفس منذ عهد ﴿أأست﴾. وهو الفرق بين الحياة والموت، بين المادة والروح. وهي شهادة على الذات قبل أن تكون شهادة على الآخر أو شهادة الآخر عليها. والإله شاهد باعتباره ذاتاً كلياً. الحياة ذات الكل، والذات كل الحياة. ولا

(1) أنا نجل الصحراء والزهد ديني
أين مجدي إذا شقيت لجوع
بافتراسي أصون عزة وجهي
كل طير له من الأرض عش
كيف بيني قلندر الطير عشا

السابق، ص 547.

(2) أيها الشاهين ما هذا الجمود
يأس أم أنت مقصوص الجناح
ما شكا مخلبك النسر ولا
الجبال الشم والآفاق لك
طر إلى النجم وخلق من جديد

يا أعم الشرق، ص 360.

(3) منزل الشاهين في أوج السحاب
لم يزل في الروض ظل وثمر
كن كحد السيف في صدق المضاء
إن في روحك سيلا كالعباب

السابق، ص 362.

وهما في سجيدي ودمائي
وأذلت حمامة كبريائي
وأروي حماماتي وإسائي
وأنا هاهنا حليف مضائي
وهو الفرد في رحاب السماء

أين منك البأس أو أين الصمود
أم خشيت الوثب في هوج الرياح
فر من عزمك طير في الفلا
أيها الهارب من أوج الفلك
في الفضاء اللازوردي البعيد

ماله يسكن في وكر الغراب
فالشمس عشتك في أعلى الشجر
واحتسب نفسك في كف القضاء
ينسف الشم ويهوي بالهضاب

تكفي الصفات لأن الصفات هي عين الذات⁽¹⁾. الذات تُذكر كي تمضي وتعبر. والعالم، وهو من صنعها ليس شيئاً⁽²⁾. الذات تتسع للعالم كله كما اتسع القلب لفعل النفي «لا إله»⁽³⁾. الذات إمكانية، تحضر وتغيّب، تقرب وتبعد⁽⁴⁾. الذات اختبار. تخلق السماء من الغبار⁽⁵⁾. وتعلو إليه كالشاهين⁽⁶⁾.

الذات سر الحياة، والحياة سرها. ومعرفة الذات معرفة الحياة⁽⁷⁾. تُشعل الحياة من نار الذات، وتبعث من الموت الحياة. فماذا يصنع الأحياء بذواتهم وهم يمزجون الرقة بالعنف. الذات بين حضور واختفاء، بين تجلٍ وانطواء. نورها يكشف عنها. هي شعور خالص في القلب. من تخلى عنها مات⁽⁸⁾. إن فقدت

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | غير موجود وموجود؟ أجيني
قال لي الموجود ما ينبغي الظهور
لوجود زينة تُدعى «أنا»
ألفوا يوم «ألسنت» مجعما
إن تكن حيا أو الميت اندفين
شاهدا فلننتخذه من شعور
واجعل الثاني شعور الآخرين
ولتكن ذات الإله خير شاهد
الحياة هي للذات الوصول
لم تلائم مؤننا قط الصفات
جاويد نام، ص 147 - 148. | غير محمود ومحمود؟ أجيني
فالوجود يقتضي هذا الظهور
رغبة في الذات برهان لنا
«أين من يشهد؟» فالوها معا
أو تجد بالروح سل عن ذا الأمين
أو عيون ما لها إلاك نور
شاهد الذات بعين الآخرين
ولها نور به ذاتا فشاهد
وهي ذات ليس يخفيها سدول
ما اختبار المصطفى إلا لذات |
| (2) | ذاتك اذكر وامض واعبر
السابق، ص 172. | أنت هذا؟ العالمان ليس شيئا |
| (3) | لا إله ولها القلب اتسع
السابق، ص 206. | عالمنا في الذات إنسان جمع |
| (4) | تحت هذا الماء عيني أطيقت
السابق، ص 235. | ثم عني الذات عني أبعدت؟ |
| (5) | وإذا عرضت ذلك للاختبار
أرمغان حجاز، ص 468. | خلقت لك السماء من الغبار |
| (6) | وشاهينا أراك تصيد ذاتا
للك البشري فذاتك تسترد
السابق، ص 483. | ولكن في شباكك بارتماه
ومن فقر غنى ما تستمد |
| (7) | الحياة هكذا، تقدير ذاتك
السابق، ص 255، ص 525. | وهو تعمير لها، سر في حياتك |
| (8) | الحياة أشعلت من نار ذاتي | ميتا بصرت أسرار الحياة |

الذات تحقق الفناء، وإن وجدت الذات تحقق البقاء. ومن لم ير ذاته فقد أفرغ السجن من محتواه⁽¹⁾. والمسلم الذي ينعزل عن ذاته فإنه يغرق في المحيط. ولا ينجده إلا مدد من السماء⁽²⁾.

وفي قصيدة «أبو العلاء المعري» يدافع إقبال عن موقفه النباتي ضد من أراد إحراجه بالشواء. وقد وعظت الأديان والطبيعة بأن البقاء للأصلح، حياة الأقوى وموت الأضعف⁽³⁾.

ب - نفي الذات

نفي الذات من الغالب لإضعاف المغلوب⁽⁴⁾. ومهما استطاعت حكمة العقل

- | | |
|---|---|
| <p>- عالم من ذاتهم ما يصنعوها
أين تبدو الذات أو أين اختفت
يسمر النيران ستمرا نورها
قلينا بالذات كم كن الحفيا
من لظاها كل معذوم النصيب</p> <p>السابق، ص 258.</p> | <p>(1) إن فقدت الذات حققت الفناء
من رأى الذات، وشيئا ما رآه</p> <p>السابق، ص 291.</p> |
| <p>رقة بالعنف كانوا يمزجوها
العيون قط هذا ما رأت
بالتجلي الكون يبدي طورها
ما ونى عن ذكرها ذكرا خفيا
مات عن نفس له مثل الغريب</p> | <p>(2) مسلم عن ذاته تلك انفراد</p> <p>السابق، ص 327.</p> |
| <p>والوجود كان للذات العطاء
سجنه أخلاه مما قد حواه</p> | <p>(3) لم تُلَقْ بالك للأديان إذا وعظت
الله سخر للأقوى خلانقه</p> <p>جناح جبريل، ص 541.</p> |
| <p>قد طغى الماء فبا خضر مدد</p> | <p>(4) باحتيال العقل يحمي نفسه
قوة التنبير في دفع الضرر</p> |
| <p>ولنطبيعة إذ قالت لظالبها
وقدر الموت للمستضعفين بها</p> | <p>فلذا ما نار للشار الجنون
ويح تجلد أحكمت فيه قواه</p> |
| <p>كل رخو ليس يرجو بأسه
في زمان الضعف أقوى وأمر</p> | <p>قل نمن يزهي بذبح الغنم
أغفلين نفسك إما تعقل</p> |
| <p>صار عقل العبد خلاق الفتون
«نفي الذات» هو إحكام الحياة</p> | <p>هذه الدنيا فناء في فناء
كل داء في سقوط الهمم</p> |
| <p>اذبح النفس بحق تغنم
إنما المجنون من لم يعقل</p> | <p>نامت الأسد بسحر الغنم</p> |
| <p>إنها وهم فما قبيها رجاء
يجعل الأحياء مثل الرمم</p> | |
| <p>سمت المعجز ارتقاء الأمم</p> | |
- الأسرار والرموز، ص 27 - 30، المقدمة، ص 48.

الاحتيايل فإنه لا يغني عن انتفاضة الجنون. قد يغفل العقل، ولكن الجنون لا يغفل. ونفي الذات قضاء على الحياة. ومن يقضي على الآخرين فقد قضى على ذاته أولاً. نفي الآخر هو نفي للذات. إثبات الذات هو إثبات الهممة. ونفي الذات يجعل الحي كالرمة. إثبات الذات رقي الأمم. ونفي الذات تأخر الأمم.

وفي حكاية رمزية بين «الفراشة واليراعة» أيهما أقرب إلى إثبات الذات، وأيهما أقرب إلى نفيها، قالت الفراشة لما رأت رقص اليراعة على المداد الأسود أنها لم تذق تصلية النار الموقدة. وردت اليراعة بأنها لا تقتدي بمثل الفراشة التي على جناحها وسم العبيد، تستجدي تسولاً من ضوء خارجي، في حين أن اليراعة تعتمد على جذوتها وتوقدها الذاتي⁽¹⁾.

ووصية إقبال لولده «جاويد» عن إثبات الذات. فلحن الذات في أعماق النفس باق. يدل على خلود الحياة. ولا يضيء ليل الشعب إلا شعلة ذاته. وامتلأ آدم هذه الأرض بفعل الذات. ولم يصل الغراب لعش الذات مهما بلغت قواه. فالذات كالشاهين تصعد إلى السماء صافية، وتعود إلى الأرض من جديد. الذات صون الحياء الذي نور في هذا الزمان. ولا يريد إقبال أن يأتي زائر قمر يتسول ماء. فلم يتسول إقبال ولم يترهب. ومصير فلسفته أن تعم أرجاء البلاد⁽²⁾.

(1) قال الفراش لنفسه لما رأى
كم في حيائك من غبي أحرق
سمع اليراع كلامه فأجابه
حمداً لربي ما خلقت فراشة
أنا لست استجدي سواي تسولاً
جناح جبريل، ص 503.

(2) أبني! لحن الذات في أعماقنا
أبني! ليل الشعب ليس بضيقه
أبني! قولك: كان آدم جدنا
أبني! لن يصل الغراب لعشنا
هذي الشواهد التي يلهو بها
أبني! صان الله وجهك عالياً
إياك أن تأتي لقبري زائر
إقبال ما رضي الترهيب سيرة
أبني! ليس بُني إلا من روي
السابق، ص 504.

رقص اليراع على المداد الأسود
ما ذاق تصلية بنار المؤقد
حاشاً لأمتالي بمثلك تقتدي
بجناحها وسم العبيد الرقد
أنا في فؤادي جذوتي وتوقدي

باق يدل على خلود حياته
إلا تصليته بشعلة ذاته
ملكاً لهذي الأرض قول نبيه
مهما استطالت في السماء قواه
أبناء سيده الذي رباه
ما في زمانك من يصون حياته
ويقول لي جاويد ببذل ماءه
لنقاء فكرته وخصب فؤاده
بوصيتي هذي جميع بلاده

10 - مراحل تربية الذات

مراحل تربية الذات ثلاث: الطاعة، وضبط النفس، والنيابة الإلهية⁽¹⁾.

أ - الطاعة

رمز الطاعة والتحمل والرضا والصبر جمل الصحراء. والإنسان كذلك يعمل الفرض ولا يخاف، راجياً من الله حسن المآب. والطاعة تبدو جبراً. ومنها يتخلق الاختيار. امتثال الأمر يعلي، وعصيانه يهوي. ويصل إلى الأفلاك من كبل نفسه بالقيد. النجم يسير في فلكه طبقاً لقانون. والعشب ينمو طبقاً لقانون. واللهيب الدائم يسري في العروق. ويربط الذرات قانون. والشدة في الشرع ليست ستار شكوى لأنها الحدود التي لا يمكن تعديها⁽²⁾.

والحقيقة أن إقبال يصف الطاعة من حيث المبدأ ولكنها من حيث الواقع تجربة مؤلمة في العصر الحاضر. فما أكثر ما يطيع الناس، لا فرق بين الله والسلطان، والأب والشيخ، والرئيس والشرطي. أصبحت الطاعة تجربة سلبية في الحياة اليومية. تعادل القهر والكتب ومحو الإرادة والقضاء على الحرية. لذلك يعصي الناس القانون، ويخترعون فنوناً لخرقه والتحايل عليه.

شيمة الصبر وقار الجمل
وارجون من عنده حسن المآب
فمن الجبر سيبدو الاختيار
وهوى الطاغى ولو كان اللهيب
من ثوى في القيد من شرعته
طوع قانون له قد ذللاً
فلذا ما حاد يحفى بالعراء
دمه من ذلك يسري في العروق
فهى بحر وهى بر باتصال
كيف فى هذى المعانى يمتري؟
رَئِئْسَ رَجُلِكَ بالقيد الوسيم
وحدود المصطفى لا تعدون

ألفة الكد شعار الجمل
فاحمل القرض قويا لا تهاب
اجهدن فى طاعة يا ذا الخسار
بامثال الأمر يعلو من راسب
سخر الأفلاك فى همته
قد سرى النجم يؤم المنزل
وإنما العشب بقانون النماء
وللهيب دائم دين الشقيق
يربط الذرات قانون الوصال
كل شئ فيه قانون سري
ارجعن يا حر دستور قديم
شدة فى شرعنا لا تشكون

(1)

الأسرار والرموز، ص 37 - 46، المقدمة، ص 48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون،

ص 19 - 20.

(2) السابق، ص 37 - 38.

ولماذا يكون الجمل هو النموذج وليس النمر أو الأسد أو الطائر مما يستحيل وضعه في قفص وإلا مات. لقد تحمل الفرد وصبرت الجماعة أكثر مما يجب. وكيف يظهر الاختيار من الجبر إن كان صحيحاً فلسفياً؟ إلا أن الشعب سئم الجبر ويريد الاختيار. ويمكن القول أن كثرة القهر والكبت والجبر يولد في الإنسان الحاجة إلى الحرية. وإذا كانت الشريعة شريعة الفطرة، فالفطرة حرة من كل قيد. ويستطيع الإنسان العيش على الفكرة حراً. ويكون بذلك ممارساً للشريعة. الشريعة ازدهار وكمال، وليست قيداً وقهراً. والحرية قانون مثل القانون. القانون يحرر. وفي الحرية نظامه. والمقيد بالقيد في الرجلين والمعضمين كيف ينطلق؟ كيف يكون القيد زينة ولو كان خلخال النساء أو عقد الرقبة أو إسوارة اليد؟ إن الطبيعة تنحو نحو الكمال. والحد انحراف بها وليس قهراً لها.

الناس الآن يعيشون تجربة العصيان والتمرد والغضب، ويريدون التحرر من كل قيد. الناس في حاجة إلى عصيان الأمر، وليس إلى امتثاله، في حاجة إلى الرفض والغضب والتمرد والاعتراض والثورة.

ب - ضبط النفس

أما ضبط النفس فهو أفضل من ضبط الآخرين لها. والجبر الذاتي أفضل من الجبر الخارجي. ويعني التطهر من أطماع الدنيا وغرورها ومباهجها من زوج أو ولد، من مال أو جاه، تمسكاً بشعار التوحيد «لا إله» الذي يبدأ بالنفي قبل «إلا الله» وهو الإثبات. ويعني أيضاً إثارة الخير للآخرين عن طريق الزكاة، مقاومة حب المال. والصلاة مقاومة الكسل. والصيام ضبط لحاجات النفس. والحج تجمع للناس، ومقاومة للعزلة والانطواء⁽¹⁾. ضبط النفس شيمة الحر. وكظم النواحي شيمة

(1) فكان الحر وقدها بزمائم

كل من في نفسه لا يحكم
من يمسك بعضاً من «لا إله»
كل من بالحق أحيا نفسه
ليس يدنو الخوف منه أبداً
كل من موطنه إقليم «لا»
درة التوحيد، فاحفظها الصلاة

تبلغن من ضبطها أعلى مقام
هو في حكم سواء مرغم
فلتخطم طلسم الخوف بداه
لا ترى الباطل يحني رأسه
ليس، غير الله، يخشى أحداً
من قيود الزوج والولد خلا
حجك الأصغر، فاعرفها الصلاة

الليث. في حين أن النوح شيمة الثعلبان⁽¹⁾.

والحقيقة أن ضبط النفس فضيلة هندوسية، السيطرة على الأهواء والانفعالات من أجل إماتة النفس وغرائزها وحاجاتها حتى تتحرر الروح. وهو ما يرفضه إقبال. ويسميه نفي الذات أو الفناء. الحرية أقرب إلى إطلاق قوى النفس، وازدهار طبيعتها. والطبيعة خيرة. وقد كانت التربية تقوم باستمرار على ازدهار الفطرة وإذكاء الطبيعة عند بستانوتزي وتولستوي. ومن لا يحكم نفسه لا يقع في حكم غيره لأن الذات حرة تحميه من القيد الداخلي والقيد الخارجي. وفعل النفي في «لا إله» يساعد على تحرر النفس، وليس ضبط النفس. أما أركان الإسلام الخمس فإنها لا تقوم على ضبط النفس بل على تحرر النفس. فعل النفي في التوحيد يحرر الوجدان الإنساني من كل قيود الزيف والجهل، والمال والسلطة حتي يأتي فعل الإثبات «إلا الله» للمبدأ الواحد العام الشامل الذي ينعكس على الضمير الإنساني في الحرية والمساواة والإخاء الاجتماعي كما عبر عن ذلك سيد قطب في مقدمة «العدالة الاجتماعية في الإسلام»⁽²⁾. والصلاة تمرين على أداء الأفعال في أوقاتها، فالوقت سيف، بتعبير الشافعي وإقبال، على الفور وليس على التراخي، أداء وليس قضاء، بتعبير الأصوليين. والصيام إحساس بجوع الفقراء وتربية للنفس، وتقوية للإرادة. والزكاة حق الفقراء في أموال الأغنياء تحقيقاً لمبدأ العدالة الاجتماعية. والحج

يُقتل الفحش به والمنكر
ضابطاً بالقسط هذا الجسد
هجرة الأهل به والوطن
إنها خبط كتاب الملة
علّمت حبّ المساواة البشر
لن تنالوا البر حتى تنفقوا
إن يكن في القلب دين محكم
تحكّم في ذلك البكر الأبى

في يد المسلم هذا الخنجر
يفتث الصوم بجوع وصدى
وينير الحج قلب المؤمن
إنما الطاعة أس الأمة
بالزكاة العابد المال اذكر
تكثر المال، وشحا تمحق
تلك أسباب بها تستحكم
أقو يا مؤمن بالله القوي

السابق، ص 39 - 40.

ليس للحرز آفة في طعان
من شيوخ القلوب والعراف
ومن النوح شيمة الثعلبان

(1) دأب أهل الزمان شكوى الزمان
قد أسر النجوى إليّ عليم
إن كظم النواح شيمة ليث

ضرب الكلبي، ص 96.

(2) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص 33 - 71.

مؤتمر سنوي للأمم لبحث مشاكلها والدخول في تحدياتها ولتحديد أصدقائها وأعدائها طبقاً للبراءة ﴿بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١٠].

ضبط النفس هو استحكام النفس لذاتها، وسيطرتها على قواها. فلا تنظر إلا لذاتها، ولا تنظر إلى غيرها^(١). وبعد إثبات الذات يأتي استحكام الذات. ويعني تقويتها وإحكامها ثم بعد ذلك الطير على ما تشاء من أغصان. الذات بحر في كل قطرة منها طوفان. من حبة يخرج منها الألف^(٢). قوة الذات من ذاتها وليست من نسبها. تعتمد على ذاتها في الرقي وطلب المعالي^(٣). واستحكام الذات قادر على قهر الموت. ويجعلها قادرة على نيل الخلود^(٤). وضبط النفس، تربية الذات بالرعاية، تجعلها أكثر قدرة على الإبصار، وناراً أكثر إشعاعاً^(٥).

السيطرة على الذات في الأفراد تبني عائلات، وفي الجماعات تبني إمبراطوريات^(٦).

ج - النيابة الإلهية

النيابة الإلهية أعلي درجات الرقي الإنساني. وهي خلافة الله في الأرض. هي

- | | | |
|-----|---|--|
| (١) | نظري في النفس أحكمت فلم
فتجلى الحب في كل الدنى
رسالة الشرق، ص 316. | يتوجه لسواها النظر
وأنا في شغل لا أنظر |
| (٢) | عشك فوق الذات أحكمته
الآدمي يا بني بحر
من حبة ترى ألوف حب
ضرب الكلم، ص 61. | ثم اطرئين ما شئت الأغصان
في كل قطرة به طوفان
إما جفا راحته الدهقان |
| (٣) | أبوتني ليست بذات سال
السابق، ص 63. | في حلبة السبق إلى المعالي |
| (٤) | لخوف الموت قلبك في ارتعاد
ففسك أحكمين وازدد نضوجا
رسالة الشرق، ص 266. | ولوئك حال من خوف الشتات
فإن تفعل تعثر بعد الممات |
| (٥) | ربّ «الذات» بالرعاية تبصر
إن سر الكلم في الدهر بيد
ضرب الكلم، ص 53. | كفّ ثرب يشيع في الكون نارا
وشعيب والرعي ليل نهار |

كل ما يطمح إليه الإنسان، معراج الروح. الرقي الروحي شرطها حتى تتحقق الأمة المثالية، ويتوحد فيها الأفراد. فيظهر فيها نائب الحق، سلطان الله على الأرض. تحققه جماعة ثورية يتوحد فيها الأفراد ويظهر فيها الإنسان الكامل. النيابة الإلهية هو الخلافة في الأرض. يسعد بها الإنسان لأنها طريق الخلود، تحقيق كلمة الله في الأرض كنظام مثالي للعالم. هي معرفة حقائق الحياة ثم تحقيقها على الأرض. هي بشارة ونذير. والنائب جندي وراع وأمير. ذاته تتبع ذات العالم للسيطرة عليه بالعمل. ليس مجرد آلة بل هو مبدع في الفهم والتحقيق، في الفعل والتفنيذ. والفترة تمده بطاقات لا حدود لها للإبداع. النيابة كامنة في الوجود. هي الرسالة التي حملها الإنسان طوعاً واختياراً بعد أن خشيت من حملها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها. النيابة إعلان وخروج، وإصلاح بالحق بأن الأرض ستملأ عدلاً كما ملئت جوراً كما يقول الشيعة في دور الإمام. هي رسالة عدل وسلام وأمل. هو الري بعد الجفاف، والربيع بعد الخريف⁽¹⁾. المسلم خليفة الله في الأرض. يبدو تكبيره صغيراً وهو يضم كل الفضاء. يدعو إلى الإسلام ويوقظ الصديق بالوفاء. يرتفع قدره فوق الأقدار، وتهب الأقدار لمساعدته. لا يحتكم فقط في الدنيا ولكنه يرنو أيضاً إلى الخلود⁽²⁾.

حكمه في الكون خلد لا يُبدي
وبأمر الله في الأرض أمير
وهو جندي وراع وأمير
سطوة فيه نجاة العالم
قيم الأعمال منه في بدل
عبر الرؤيا بتعبير جديد
لبيقيم الوزن إذ أبدعه
شعلة يرمي به الكون الغد
واملاً الأذان زهر النغم
وأدراها كأس حب وصفاء
وأعد في الأرض أيام الوثام
أنت من ركب الحياة المنزل
فاغد في الروض ربيعاً نضراً
في جهاد الكون نمضي كالشعل

(1) نائب الحق على الأرض سعيد
هو بالجزء وبالكل خبير
هو في الناس بشير ونذير
ذاته تتبع ذات العالم
يبعث المبيت بإعجاز العمل
جدد الدنيا بتفسير جديد
شاعر الفترة غني طبعه
في رماذ اليوم منا ترقد
قم فكن من ضحيج الأمم
جدين في الناس قاتون الإخاء
أبلغ الناس رسالات السلام
من بني الإنسان أنت الأمل
أذبلت كف الخريف الشجرا
نحن من فيضك نسمو للقلل
الأسرار والرموز، ص 41 - 43.

بمجدك وهو للدنيا سماء

(2) خلافة هذه الأرض استقرت

لا مكان إذن للنوح والبكاء والمآتم والآلام واليأس والندم. ففي الحياة نشوة وأمل وفرح وتحقق وسرور. فلم الشكاية من غدر الزمان وجور الدهر، والزجاج لا يشتكي من جور الحجر وهو أكرم منه وأنقى وأشف؟. السعي جوهر الحياة، والتعمير أداته. وركوب المخاطر وسيلته كما وضع إبراهيم في النار. الحياة نضال، هجوم ودفاع. بل يستطيع الإنسان أن يجاهد الزمن وأن يعيد تشكيل ذرات الوجود، ويقاوم الزمان ودوران الأفلاك. وبقوة القلب يستطيع أن يواجه تحديات العصر. وما أعظمها من شهادة إذا ما سقط المجاهد في حومة الوغى. إنها شهادة البطل التي تحيا بها الأمم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]. وإمكانات البطل في الحياة وفي الممات لا حدود لها⁽¹⁾.

ويعلن إقبال أن «الأرض لله» وهو مبدأ الحاكمية في «الحاكمية لله». وهو موجه ضد السلاطين والملوك ليعيد إليهم وعيهم بأنه من طين البشر. والفرق بين الملك والمسكين هو الضجيج الذي يحوط بالملك عندما يوارى التراب. والأرض

صغيرا كل ما ضم القضاء
وأبقت صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك الفضاء
وشأنك والخلود كما تشاء

وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيا من هب للإسلام يدعو
سترفع قدرك الأقدار حتى
وقيل لك احنكم دنيا وأخرى

السابق، ص 109 - 110.

يا زجاجا يشتكي جور الحجر
ولام الصدر حزنا تلدم؟
لذة التخليق قانون الحياة
وخض النار واقدم كالخليل
هو رمي الترس في وقت انطعان
من قفا الآثار منه الزمن
حارب الدهر، ولم يعبا به
يمنح الذرات شكلا آخر
يمنح الأفلاك من دوراتها
ذلك العصر الذي يرضي به
فالحياة الموت موت البطل
وجنى في النار وردا كالخليل
قوة كامنة في البطل

أيها الصارخ من جور الدهر
قيم هذا النوح؟ ماذا المآتم؟
مضمهر في السعي مضمون الحياة
قم فشيء عالما دون مثيل
إنما السير على حكم الزمان
إنما الحر الشجاع الفطن
وإذا الدنيا عنت عن أمره
يهدم الموجود فيما آثرا
بصرف الأيام عن كراتها
خالقا من قوة في قلبه
فيذا أعوز عيش الرجل
حبذا عشق بغى الأمر الجليل
تتجلى في مراس المعضل

السابق، ص 43 - 44.

(1)

يورثها الله لمن يشاء من عباده الصالحين⁽¹⁾. والحكم الإلهي أحد مكونات الذات المشتركة. فالحكم لله. وهو مبدأ «الحاكمية» الشهير الذي صاغه المودودي بعد ذلك واستقر عند سيد قطب⁽²⁾.

الأرض ملك لله. فالله وحده هو المالك والوارث. والناس يقتتلون عليها كعروس يقتتل عليها الرجال. ولا يعني ذلك تركها بل العمل فيها، والسعي والكد والكدح داخلها، ورفع التراب عن جوهرها، والتقاط حب النجوم منها، والطيران فوقها كالعقاب. يُضرب الفأس في صخرها، وبشرارة الذات تُوقد نارها، والابتعاد عن طريق آزر وبناء الأصنام بل تحطيمها، وإعادة بنائها كما تريد الذات وإعطائها، القلب السليم حتى يتم الخلود فيها مع الأهل والأصحاب⁽³⁾.

والخلافة بين ضمن محكمات العالم القرآني ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]⁽⁴⁾. فالإنسان سيف الإله، خليفته على الأرض، أداؤه وعده. والكون ما هو إلا المسن لحد الذات وسن سيفها. رؤية الذات رؤية للإله، ورؤية الإله رؤية للذات⁽⁵⁾. الذات هو الإنسان، الإنسان من حيث هو إنسان، آدم قبل أن يصبح

(1) فقبل لمصاحب تاج يدعيه له مالي ومالك من هذا التراب سوى الأرض لله يعطيها أحبته جناح جبريل، ص 507.

(2) ومن القهر صدور أي أمر أمر بالأمر زكى عقله حاوید نامه، ص 203.

(3) إنما الإنسان في شرق وغرب كعروس ولها كنا الرجالا إنما الأرض لربي، ذاك ظاهر لم أقل دع عنك هاتيك الديارا ارفعن عن جوهرا الأرض الترابا في الجبال اضرب بفأس صخرها وطريق آزر فلتسجنن بها بالجمال لا تصل قلبا سقيما أنموت؟ ما لنا مال وقبر السابق، ص 205 - 206.

(4) قول إني جاعل تقديره بين أرض وسما تفسيره.

(5) إنما الإنسان سيف للإله ذلك الكون من قد تراه

هندياً أو فارسياً أو عربياً⁽¹⁾. والذات لا تعبر عن نفسها بالكلام بل بالسكر والشراب والعشق⁽²⁾. تظهر الذات في الحياة بما تقدم بالفعل⁽³⁾. وتنضح بقدر ما تغامر وتواجه المحن. لها مقامان «لا» و«إلا». وهما فعلاً النفي والإثبات في التوحيد⁽⁴⁾. المسلم حنيف ينسب إلى الإله في الصفات. ويحتوي قلبه أسرار الذات⁽⁵⁾. الذات كمدار الفرجار. وكما يكفر الشيخ من ينكر الإله كذلك يكفر إقبال من ينكر الذات⁽⁶⁾. وعلى النقيض من ذلك عيشة الأنذاال الذين يساومون على الحق، ويرضون بالدين في الدين وفي الدنيا. دافعهم على ذلك الحقد وأهواء البشر، وليس الدخول في صراع الحياة من أجل السيطرة عليها. ولا يكون النكوص عنها بذريعة العفو عندما يوضع في غير موضعه. فالعفو عند المقدرة، وليس حين الضعف. ولا تكون الذريعة القنوع. ففرق بين القنوع والخنوع. إنما السبب الحقيقي للقعود هو الخور الحال في القلب، والخوف والكذب، وغياب الخير، وحضور الخبث. بل يتحول القعود إلى خبث ودعوة للنكوص. يحذر منها صاحب العقل السليم. يتزين كالحرباء. ويلبس الحق بالباطل عند أهل النظر. يبدو ليناً في الظاهر. وهو يلدغ

- | | | |
|-----|---|---|
| = | أن نرى الله بعينك الثقاء | أن ترى الذات ولا يشر الحياة |
| | جاويد نامه، ص 163. | |
| (1) | «عبده» فهما لديك تبهر
ليس من غرب وليس الأعجم | إنه الإنسان وهو الجوهر
آدم بل كان منه الأقدم |
| | السابق، ص 262. | |
| (2) | أوصد العارف باباً للكلام
إنه بالشوق والذوق انجذب | أسكرته الذات لا تلك المدام
في وجود من شهود قد وقب |
| | السابق، ص 167. | |
| (3) | أظهر الذات فهاتيك الحياة
ينضح الذات انتردي في البلاء | واختبار المرء ما أدت يده
عن قضاء الله قد تمحو الخفاء |
| | السابق، ص 175. | |
| (4) | إن تلك الذات شرح لنحياة | «لا» و«إلا» من مقامات الذات |
| | السابق، ص 283. | |
| (5) | حنيف شبه ربي في الصفات | ويحوي قلبه أسرار ذات |
| | أرمغان حجاز، ص 469. | |
| (6) | لا تطل في القول واقنع بالغرار
منكر الله لدي شيخ كفر | حول ذاتي كن كفرجار مدار
منكر الذات لدي منه شر |
| | جاويد نامه، ص 329. | |

كالعقرب في الباطن. يحتج بالقدر على أفعاله ليبرهن ويزهو في الدنيا بالجاه والمال والصحة والنعمة التي وهب إياها⁽¹⁾.

أما البطل فهو الذي لا يرى إلا في القوة حلاً، قوة الصدق. هو تعبير عن الحياة، تستعمل أحياناً دفاعاً عن الحق أو إقراراً للباطل. وهي قادرة على أن تلبس الباطل ثوب الحق، وأن تجعل المر حلواً، والشر خيراً. أما الحصيف الفطن فإنه قادر على أن تستحكم ذاته. فهو أعلى من في الكون. بشرط الوعي والصدق، تفتح الأعين والأذن والأفواه حتى يصبح الحق نبراسه وطريقه⁽²⁾.

وتسمي النيابة الإلهية أحياناً «الملك لله». أحرق طارق السفينة واحترق الناس، كيف العودة؟ فأمسك طارق بالسيف مبتسماً قائلاً في عزمه الشديد الملك اليوم لله الواحد القهار⁽³⁾.

- (1) عدة الأنذال حشد لا سواء
الحياة الحق بأس يظهر
رب عفو كان من آفاتهما
بحسب العجز فتوعا، خانع
فاقطع سبل الحياة الخور
قلبه من كل خير فارغ
في كمين راصد هذا اللثيم
احذرن يا صاح من تزيينه
إنه يخفي على أهل النظر
في ثياب اللين حيناً يظهر
وهو طوراً في ثياب المجبر
وهو حيناً في لباس الترف
الأسرار والرموز، ص 44 - 45.

- (2) ما سوى القوة للصدق دعم
هي من حقل الحياة الحاصل
مدعاة في غني عن حدة
تجل الباطل حقاً مائلاً
سطوة القوة تحيي ما أمر
أيها الغافل عما خُملاً
افنحن عينا وأذننا وفما
السابق، ص 45 - 46.

- (3) طارق أحرق السفين فقالوا:

ليس هذا من فعله برشيد

11 - الذات بين المثال والواقع

الذات بين المثال والواقع⁽¹⁾. وهو ما يسمى «إعلاء كلمة الله»، ونشر الحق بالعمل، والكد والكدح والسعي في الأرض دون عدوان على أحد. وهو عمل يقوم على الحب. وينتج عن تأكيد الذات لا فنائها. يتجاوز القيل والقال إلى الفعل والفعال. لا يهم زي الدراويش بل فعل الأمراء ويقتضة الضمير. والفعل مبادرة وتديبر، وليس قضاء وقدراً وتقديراً. الحياة ركوب المخاطر. فبحار العجم ليس لها قرار. وفي أحشائها درر مكنونة. وعظمة ركوب البحر في الصراع مع أمواجه، وليس فقط الإبحار على سطحه⁽²⁾.

ولا فرق بين أن يكون الباعث لإعلاء كلمة الله الجهاد في سبيل الله أو ضد جوع الأرض دفاعاً عن الفقراء. فللفقراء حق في أموال الأغنياء. والجوع مانع من تطبيق حد السرقة. ومن مقاصد الشريعة الخمس الضرورية الحفاظ على المال. والعدالة الاجتماعية ركن من أركان الشريعة. فلماذا يكون الجهاد في سبيل جوع الأرض حراماً في الشريعة؟⁽³⁾.

ذا خطر في الشرع غير شديد
فانثلا واثقا بعزم شديد
إنه ملك ربنا المعبود

= غرباء ومن لنا برجوع
أمسك السيف طارق في إيتام
ملكنا اليوم خالصا كل ملك
رسالة الشرق، ص 298.

مسلم لا حب فيه قد كفر
كيف يرضي الناس هذا الادعاء؟
وأضئ بالحق ليل العمل
ذاكرا لله يقظان الضمير
شر المسلم إذا رمت سواء
اكتسى في الحرب عارا صفنا
راجيا منه دعاء الظفر
سيفه في صدره قد أغمدنا

(1) إنما المسلم بالحب قهر
فسي رضاه الحق فناء
فدع القال إلى الحال الجلي
وكن الدراويش في زي الأمير
خير الحرب إذا رمت الإله
نحن إن لم يُعمل حقا سيفنا
قصده الشيخ العلوي القدر
من لغير الله سل المغمدا

الأسرار والرموز، ص 55 - 57، المقدمة، ص 49.

وفي أحشائها درر كبار
إذا لم يخش في موج خطر

(2) بحار العجم ليس لها قرار
ولكن لا أحب ركوب بحر
رسالة الشرق، ص 272.

بسيوف الجوع منه شذر
وخراب الملك جوع الدائل

(3) عسكر الملك وما قد أسروا
غصة السائل جوع السائل
الأسرار والرموز، ص 57.

ويرمز إقبال للمثال والواقع بالسماء والأرض. فما قد يُرى خريفاً قد يكون ربيعاً. وما يُظن أنه ربح وخسران هو دافع حيوي طبيعي تلقائي. وما قد يُظن أنه ذروة في الأرض قد يكون مؤشراً لعالم آخر⁽¹⁾. تحقق المثال في الواقع عملية فرح وسرور، وأمل وصبور. فالمؤمن جزل فرح⁽²⁾.

أ - الحياة كفاح

شكى يوماً كوكب لأخيه أنه في بحر دون ساحل. يسير بلا توقف. وليس له منازل. فإذا كانت النجوم تسير وفقاً لقانون فما جدوى العناء والحياة والزمان والكفاح؟ ويحجب الشاعر أن النجوم ملت زرقة السماء. وحتت إلى سماء الأرض. وللإنسان ميزة على النجوم لأنه يعيش فيما تشكو منه. يعيش في طعان وصراع كل لحظة. فحياة الأرض أولى من حياة السماء⁽³⁾. لذلك تبدو الحياة في الجنة حياة هدوء وسلام وصفاء. تخلو من المعارك والصراعات والهموم. ليس بها هم يوسف وزليخة. ليس بها من يصلى بنار، ولا من يصارع شراً. ليس فيها ربح يهب. فزورها في أمان. ويقينها خال من الاحتمال. وليس بها ضلال عقل أو تردد شعور. فالنقص كماله في عالم مخلوق. إنما الشر هو الغرور له⁽⁴⁾. والحياة مخاطر.

(1) صاح عُلّ الذي رأيت ربيعاً
سالك النهج! كل حين شؤون
رُبّ ما خنته بدنياك أوجاً
ضرب الكلیم، ص 11.

(2) وكم في الوجود من الحبور
ويصدغ غصنه برعوم زهر
رسالة الشرق، ص 264.

(3) سمعت بكوكب لأخيه بشكو
خُلِقنا للمسير بلا وقوف
فإن تمض النجوم كما نراها
بأشراك الزمان لنا إسار
لهذا العبء محمله شديد
كرمك القبة الزرقاء أوجاً
فطوبى لابن آدم في طعان
خسبى بالحياة له قوام
السابق، ص 282.

(4) وأبى بجنة لعب الليالي
وليس هناك من فلك يدور

والسعي فيها مجابهة لها. فقد شكى غزال لغزال آخر أنه بعد العيش في البلد الحرام نظراً لأن الصيد حوله في كل مكان ولا يطيب له المقام. ويريد تبديل خوفه أمناً. ويزيل هم الموت عن كاهله. فأجابه رفيقه بأن الحياة في الخطر الجليل. عليه أن يشحذ النفس. ويعيش أمضى من السيف اليماني⁽¹⁾.

يحمل المسلم على كتفيه عبء الدين والدنيا. ويكدح في نشوى، معتمداً على ذاته⁽²⁾. لم يبرز المؤمن اليوم لأنه لم يعد مجاهداً، لأنه لم يعد يدرك لذة الجهاد، ولا حرارة الجمر. الإيمان هو الذي يجعل الجبال تشرق عليها الشمس وتكسوها اللون القرمزي⁽³⁾. وفي منظومة باسم «الإنسانية» يصور إقبال أنه في جماعة شرب. وفي نشوة السكر، سأل أحدهم عن الله فقيل له: سبحانه وتعالى، ولكن أقول لكم

= ولا فيها ليوسف غم سجن
وليس خليلها يصلح بنار
وليس لصرصر فيها هبوب
ولا ليقينها «هل» أو «عسى أن»
وكيف يلد عقل ذو ضلال
فلا تحفل بكون فيه نقص
السابق، ص 299.

(1) غزال بث شكواه غزالا
أري الصيد حولي كل حين
أبذل خبفة الصيد أمناً
أجاب رفيقه أن يا خليلي
ونفسك فاشحذ في كل أن
ففي الأخطار اللهم اختبار
السابق، ص 295.

(2) عبء على المؤمن ذي الليالي
ولا أرى نشوان في كفاح
الآدمي منه في صفات
ضرب الكلام، ص 63.

(3) فأين يا مؤمن أنت
ما في جهاد لبدة

يا شمس من سراقق المشرق هيا فابري
واكسي جبالي حلة
نزهي بلون القرمز
السابق، ص 123 - 124.

بأننا صحيح من تراب إلا أن الكفاح هو ما يميزنا ولا أبادله مع قصد الله⁽¹⁾.

هذه هي النظرة الثاقبة إلى الحياة والتي يكافئ فيها زجاج الذات الحجر الصلب. وهي النظرة إلى الحياة. كفاح الحرب له وقته. والغناء له وقته. الطعان في حينه، وعزف الوتر حين يحين⁽²⁾. تقوي الذات بالجهاد الدائم والكفاح المتصل. ويؤدي التردد والسكون إلى الدعة والخضوع والخوف. فمعين الحياة دماء القلوب وليس المياه. هذا هو الإهداء «إلى القارئ» الذي يقدمه إقبال في بداية «ضرب الكلیم»⁽³⁾. الحياة كالنهر المتدفق تقذف أمامها الصخور. فالسيلان أقوى من الثبات. والحياة أعتى من الحجر. الأقدام كالنهر. يتخطى كل العقبات⁽⁴⁾. الحجر للأقدام والاصطدام والحوادث. والنهر يشتاقه البر والبحر. والحجر يختلط على الناس وهو ثابت في الجدار، زجاجاً أم حجر. والنهر صاف واضح لا لبس فيه. الحياة فورة بورودها وأشواكها، بأفراحها وأحزانها، بنجاحاتها وإخفاقاتها. تمضي الذات كالنهر في الجبل. تعرف الأغوار والنجود. وتسير مثل السيل. تجرف كل شيء. لا تبالي هبوطاً أو صعوداً. لا تهتم بالمظهر والشكل، بل بالمضمون والجوهر. لن يعود الكهل شاباً بصباغ شعره. الحياة تنطلق مع الصقر. والصقر يأبى أكل الجيف. ويعبر الشعر عن الحياة. ولا يباع نقداً في الأسواق⁽⁵⁾.

A Message from the East., pp. 94 - 5.

(1)

(2) إذا لم تصب في الحياة النظر
كفاح شديد وضرب شديد
فمعين الحياة دماء القلوب
ضرب الكلیم، ص ز/ط.

(3)

السابق، ص3.

(4) قال نهر الطود يوماً للحجر
أنت للأقدام والغم لقي
لم تُذهبه من جدار مرة
السابق، ص58.

(5)

امض في الدنيا كنهر في جبال
أو مثال السيل فاجرف كل شيء
قطوف الورد! لا تجزع لشوك
لا تبغ الخضاب والتكويننا
رأيت العشق بأبى كل وغد
واعرف الأغوار فيها والنجودا
لا تباليه هبوطاً أو صعودا
كذاك الشوك من نفس الربيع
لبس الشباب سرقة المنينا
كميت الطير نأبه الصقور

حياة الذات كفاح وجهاد عن طريق تصوير الطبيعة والإسقاط عليها. فلا فرق بين حياة الذات وحياة الطبيعة النباتية أو الحيوانية. فالجدول الصغير محزون يسقط في الوهاد. لا يشتكي ضيق الحياة، ولا يمل من الجهاد. ينساب ويتوقف، ويهيج ويسكن، يستقيم ويتلوى. يروي ساكني الضفاف بينما يرتوي هو بالتمزق، كما تنير الشمعة وتحترق. وإذا تجمعت الصخور عليه تشتت وحزن من وجد الفراق. ثم يختار من ثغراتها درباً. ويمزق قلبها من أجل الجمع والوصال⁽¹⁾.

كل شيء ينمو. وهذا هو سر التجسد، حلول الروح في المادة. ويحدث النمو نتيجة للجهاد والكد، وليس طبقاً لقوانين آلية. فالحياة حياة الوعي والتذوق وإلا كانت موتاً. قوة الذات تهب النصر. وخور الذات يرى في اليد التي تحمل السيف عبثاً. والجبل حبة خردل. لقد تناثرت النجوم، واندثرت الكواكب دون أن يعني ذلك العبث والفوضى. وينتهي الوجود كله إلى فراق. وأخيراً يظهر البدر آخر الليل وحيداً⁽²⁾. البحر دائم الحركات، موجة بعد موجة، وثبة في الحياة. هو تجل من تجليات الذات. واللهيب الذي منه يصعد الدخان هو لهيب الذات. يرفض السكون بين الماء والشطين كما ترفض الذات. ينطلق من الأرض إلى السماء كالذات. من الوحدة يخرج التعدد، ومن التعدد تعود الوحدة، لا فرق بين الذات والكون⁽³⁾.

(1) آه لهذا الجدول المحزون يقفز في الوهاد
لا يشتكي ضيق الحياة ولا يمل من الجهاد
ينساب، يرقد، يستقر، يهيج، يصخب، يتلوى
بروي الجبل على الضفاف وبالتمزق يرتوي
وإذا تجمعت الصخور عليه تشتت حزنها
واختار من ثغراتها درباً ومزق قلبها
جناح جبريل، ص 510.

(2) كل شيء إلى التجسد يسعى
وحياة بغير ذوق ظهور
قوة الذات قوة الذات سر
خور الذات يجعل السيف عبثاً
شردت نفسها النجوم ولكن
لفراق يؤول كل وجود
يظهر البدر آخر الليل فرداً
السابق، ص 448.

(3) إنه البحر دائم الحركات
وثبة بعد وثبة في الحياة =

وقد خلقت الحادثات من لهيب الذات، وإشعاعات الكون من حرارتها. كل ما فاض منها فاض عنها. وكل زهر يتفتح من تجليها. الراحة والسكينة في القلب خدعتان. فالكون ذرات يهيجها الزمان. والقوافل تضرب بالدفوف. ولا تفكر بالوقوف. وتتجدد باستمرار. في السير تصول وتجول. والمهم السير وليس الوصول، السعي وليس النجاح. التوق إلى الطيران يفجر سرها وراحتها في وثبتها. تحل وتعقد، تعقد وتحل. جوهرها الاستمرار في السير ومواصلة الكفاح. وتمضي في الثبات إلى الموت، طمعاً في الخلود⁽¹⁾.

تحتاج الدنيا إلى شهر الحسام. ولا يطيب المقام وهو في الغمد⁽²⁾. وللإنسان قدرة على رفع النقاب، والوصول إلى الشمس والبدر والسحاب. والخوف ليس حالاً للذات ولا مقاماً لها. وكيف يخاف البستان شهر الخريف؟ يرقص عش الطير

=
 ذاك بحر من الحياة تجلي
 اللهيب الذي تأجج فينا
 يرفض المكث بين ماء وطن
 إنها الوحدة التي كبلتها
 زغم كل التعددية تبقي
 واللهيب الذي تأجج فينا
 السابق، ص 514 - 515.

(1)
 الراحة الكبرى بقالبك والسكينة خدعتان
 فالكون ذرات يهيجها برفصته الزمان
 وقوافل الأشياء في الأفاق تضرب الدفوف
 وتروح تمنع في التجدد لا تفكر بالدفوف
 السير معنائها العميق به تجول به تصول
 فدع الوصول لمن يريد فليس مطلبنا الوصول
 ترق إلى الطيران يترك سرها يستفطر
 وتحس راحة صدرها في وثبة لا تفتسر
 وتحل، تعقد ما تحل، تقيم تهدم ما تقيم
 فردوسها أن تستمر وروحها السير المقيم
 وإذا ابتدأها الموت وهو الهند في وجه الحياة
 ومن العسير كفاحه تمضي إليه في ثبات
 السابق، ص 516.

(2)
 لي شهر منك ذاك الحسام
 وتملك قدرة فارفع نقابا
 بغمذك لا يطيب لك المقام
 تنل شمساً وبدرًا والسحاب
 زبور العجم، ص 401.

من الصواعق فما الخوف إذا ما أحرقت عش الإنسان؟ الحياة سر تملأ حياة الإنسان طيباً، وسهم يُقذف بعيداً كلما كان القوس شديداً. ولا يعيق ارتفاع النجوم من الوصول إليها. وزرقة السماء مختلطة بالماء الذي يشربه الإنسان⁽¹⁾. تتوق النفس إلى أن تتحكم في الآفاق إذا ما اتصفت الأبصار بالمضاء. واتسمت الإرادة بقوة العزيمة⁽²⁾.

ويعترف إقبال بأن إجابة الرومي على سؤال شرحت نظرتة، ووسعت أفقه. وعاد وسأل عن الجهاد. ويجب الرومي بأن من سوى الأصنام سوى الفأس؟ وأحجار الحبيب تستطيع كسر الكأس. ولا يُزرع بلو وليت فإن ذلك يكشف عن ضعف الهمّة. والإنسان قادر على أن يجرح الدهر ويأسو به⁽³⁾. لقد تفتحت عين المسلم على الجهاد. وكُشفت له أسرار الروح. ليس له جيش عرمرم، ولكن له ذات أكرم من ملوك الأرض. ولو استردت الذات حقها لكان جلالها أكرم⁽⁴⁾.

- (1) لا يخاف البستان شهر خريف
يرقص العرش في السماء لهيباً
الحياة الحياة لفظة سر
إنها السهم منذ كانت رمنه
لا تعيق النجوم سرك هذا
أخط في الموقع الذي أنت فيه
جناح جبريل، ص 445 - 446.

- (2) لا تتوق النفس أن تحكم آفاق الفضاء
حين لا تنصف الأبصار حقاً بالمضاء
السابق، ص 451.

- (3) قال يا من شرحت نظرتة ضيق فؤادي
أملني أفهم ما تفهم من أمر الجهاد
قال: من سوى لك الأصنام سوى لك فأسه
ويأحجار الحبيب يضرب الحاذق كأسه
لا تنفل ليت ولولا ما على منك بأس
أنت يا هذا الذي يجرح في الدهر ويأسو
السابق، ص 524.

- (4) لعينيه الحياة أنا فتحت
كشفت الروح أسراراً فهلا
وليس للمسلم جيش عرمرم
فلو ردوا إلينا اليوم حفا
وما في الأمس والغد كم شرحت
بلاغة يعرب يوماً منحت
بذات من ملوك الأرض أكرم
لكان جلاله لا ريب أعظم
أرمغان حجاز، ص 442.

يأذن إقبال جهاراً بحمل السيف. ويصرح علناً بضرورة الجهاد. فتجربة الشاعر أن السيف أصدق أنباء من الكتب ضد فتوى الشيخ، إن العصر هو عصر القلم. والسيف ليس حاكماً بين الأمم وإلا تحول الإسلام إلى مجرد وعظ داخل مسجد، مجرد لغو كلام. السلاح دائماً في كف المسلم، وروحه في الكف الآخر. لا يحرم لذة الشهادة. لا يخاف الموت بل يعشق الشهادة. تعليم المسلمين الجهاد اليوم لمواجهة الطغاة، خاصة وأن الغرب مدجج بالسلاح، يعتدي على المسلمين. يغزو بلادهم، ويحتل أراضيهم⁽¹⁾. الجهاد مستمر اليوم وغداً كما بدأ في الماضي كنور مستمر، وشعلة متقدة. فالحق يضاده الباطل على مدى التاريخ. ومن ثم لزم الجهاد دائماً. ومن لم يبدؤه اليوم لن يقوم به في الغد⁽²⁾.

ويدعو إقبال بوضوح إلى الثورة في مقطع يتكرر تسع مرات «أصبح، ثر. أتحدى، ثر. ثر أو مت». ويوجه النداء أولاً إلى المأجورين المرتزقة الذين يبيعون دمائهم بحقنة من الروبيات، وخدم الطغاة الذين يساعدون على زيادة ثرواتهم، والفلاحين والعمال والمحيطين. وثانياً، إلى مشايخ المدن الذين يقبضون على مسابحهم ويضلون كثيرين عن الطريق، والبراهمة الذي يضل الناس بخيوطهم وإلى موتاهم. وثالثاً، إلى الأمراء والسلاطين المقامرين الذين يلعبون بالنرد، وأرواح رعاياهم تخرج من أجسادهم وهم نيام. ورابعاً إلى الوعاظ في المساجد والأطفال في رياض الأطفال حتى يقولوا الحق الذي يعرفه الناس بفطرتهم، ويكتشفون كذب الوعاظ ورجال الدين. وخامساً، إلى الأخوة المسلمين الذين جهلوا العلوم مع أن الدعوة إلى الله لا تكلف شيئاً. وسادساً، إلى كل من يحول الحق إلى باطل

(1) الشيخ أفتى أنه عصر القلم أما درى الشيخ بأن وعظه فما ترى السلاح كف مسلم من قلبه يهاب موت كافر فعلمن ترك الجهاد طاغياً ضرب الكلیم، ص 17.

(2) من عدها ليوهمه في جهاد ماله الحق في متاع وهم ليس أهلاً لمعرك الغد من في سيره (اليوم) ليس بالمعدود

والصواب إلى خطأ، إلى من يحاول منع الشمس عن الشروق وهو مغمض العينين. وسابعاً، إلى الكنائس بعد صلب يسوع المسيح وأيضاً إلى المسلمين الذين يحملون القرآن ويهربون من الكعبة. وثامناً، إلى كل من يتقن سموم الحيات في الأوعية وإلى كل من يتلوى بسببها. وتاسعاً، إلى كل المستضعفين الذين مازالت لديهم قلوب الأسود وقوة النمر والذين ما زال في مصابيحهم بقايا ضوء⁽¹⁾.

ويخص إقبال «الإنسان الآسيوي» بالنداء. فقد خلق فضاء جديداً ليس الهدف منه الحج إلى الأصنام بل تحطيم كل الأصنام⁽²⁾. فالإسلام الآسيوي قادم. والإنسان الآسيوي هو الذي سيكمل الرسالة التي حملها الإنسان العربي.

ب - الذات عمل

والذات كوعي مقدمة للذات كفعل، في الحاضر والمستقبل⁽³⁾. وتسعد الأمة بالعمل. لم يطلب الدين من الإنسان أن ينام ويطلق النوم دون حراك. فالدين ليس سحراً ولا أفيوناً. ولا يعتذر الإنسان عن نومه بأنه لا يملك شيئاً لأن الإله هو المالك لكل شيء، والإنسان عامل فيها، مصلح دون مفسد. التأمل دون فعل موت⁽⁴⁾.

إذا سلم قياده لإبليس فإنه يفسد في الأرض. فإن لم يكن الإنسان أميناً ينجز أعماله فليرد إلى الإله ماله وإلا أخذ ما لا يملك. العمل مصدر الملكية. فإذا فعل فإنه يشكو الفقر وهو سببه⁽⁵⁾. والسعي في الرزق أحد تحقيقات الذات. ويكون

Persian Psalms, p. 86 - 8.

(1)

Ibid, p. 99.

(2)

يقم في الغد للدنيا القواعد
بخلوته بذات، وهو قاعد
وفي عمل وفي نصب تمادت
إذا بسيوفها ضرباً أرادت

وتلك الذات يوماً من يشاهد
وها قد طاف في خلق كثير
وتسعد أمة للذات عادت
سيلمع نورها في الأفق شرقاً

أرمغان حجاز، ص 467.

(3)

St. Ref., p. 110.

(4)

فأطلت النوم لا تبدي حراكها
نشوة الأفيون تمحو وعيها؟
يملك الملك جميعاً رينا

أي دين! وإلى نوم دعاها
أفسح ذاك أم دين لكها
أتقول ما لدينا ملكنا؟!

السعي في أقصى الأرض دون الاكتفاء بالسعي القريب. ويكون بالاعتماد على الذات، والنظر في كل أمر من أجل العلو المستمر. والتمساح لا يلزم الشط بل يغوص في عمق البحر. يحمله ب صدره، ويغلبه في طوفانه. ولئن غفل لحظة اصطاده الصياد⁽¹⁾.

تسير الذات في صحراء مملوءة بالأشواك حتى تدمي قدميها فتتقرح. ومع ذلك تسير في جنون وحزم. وهو ما لا يفهمه العلم. شوك الصحراء قادر على حل الأمر بنفسه⁽²⁾. الحياة تمزق صدر الفضاء، معارك مستمرة، واحدة تلو الأخرى. كذلك الحب لا ينتهي ولا يستقر، تجربة وراء أخرى. لو قضى على عش يُبنى ألف عش. فلا مكان لليأس، بل الأمل متجدد باستمرار. ولا بكاء على بستان، فالبساتين كثيرة. الإنسان كالنسر دائماً في الهواء. لا يستريح دون بكاء على عش رماه القضاء. فهناك آلاف الجرحى، وآلاف المناسبات للبكاء. السماوات فسيحة،

في الكتاب قوله لا تفسدوا
إنما إيليس من يسعى فسادا
ليته لله رد مائه
يا لعمري ليس هذا شأن مثلك!
أو فخطاب منك نفسا عاتبا
كي تحل أنت في الأعمال عقده
ما لرب الكون قلتم: ذا لنا!

فخير منه موت في الوكوز
لنا من نظرة سوط لنجري
لكي نعلو ونعلو مثل طير
لنؤم الشط في ديني حرام
فعش بحرنا وبه ننام
وذا الطوفان في حرب غلبته
لكان مقاتلا ما إن قتلته

عقد السالكين من حيث يدمي
لست تنجو بلا جنون وحزم
يستطع أن يفك العلم كله
ويأسلوبه اللطيف يحنه

كل أرض أرض ربي فاشهدوا
سلم المرء لإيليس القيادا
من أمين منجز أعماله؟
قد أخذت أنت شيئا غير ملكك
املكن الشيء فيه راغبا
إن ملكك الله هذا فشرده
ولماذا اليوم نشكو فقرنا؟

جاويد نام، ص 242 - 243.

(1) إذا ما كان صيدك بعض ريش
لذاتك نظرة في كل أمر
وما نسعي وراء الذكر إلا
وللتمساح هذا الكلام
عن الشط ابتعد موجا تعلق
وهذا البحر في صدر حملته
ولو في برهة أعيا وأعضى

أرمغان حجاز، ص 479 - 480.

(2) شوك صحرائنا يحل بلطف
فامض في الشوك حافيا وتفرح
لغز هذي التداخلات وإن لم
شوك صحرائنا يغور برفق

جناح جبريل، ص 448.

والطير لا نهاية له دون أغلال⁽¹⁾.

الذات من طين، ولكنه نفخ فيه من روح الحياة، فاشتعلت ناراً، وأضاءت الكون. وإذا لم تهب الطبيعة الشاعر فكراً ثاقباً فإنه لا يبالي لأن من طيته يستطيع أن يطير. فهي طينة معجونة بالجنون. تصقل الحس. وتجعل الغبي ذكياً. وهو ما تجلى في عهد «ألست»، واختبار الإنسان خليفة الله في الأرض بالرغم من اعتراض الملائكة على الخلافة مع سفك الدماء والإفساد في الأرض. لا يهمها صنع عش من أغصان الشجر في البستان بل الارتفاع إلى السماء، والسباحة في الفضاء. والنجوم تأسى على الدموع في الأجفان⁽²⁾.

تودع الملائكة آدم وهو يغادر جنة عدن أسفين على تغلب الطين على الروح. ويخبرونه أن الدنيا كذلك بكاء وغناء⁽³⁾. وتستقبل الأرض روح آدم وتنصحه بكيفية التعامل مع الأرض. فهو من طين وماء مثلها. فهو في مكان أليف وسط العالم. الصبر على الشقاء فضيلة. والعالم ضجة حرب، خوف ورجاء. وهما حالتان

(1) حياة تمزق صدر الفضاء
مغامرة خلف أخرى تخوض
كذلك حبك لا ينتهي
هناك تجارب أخرى له
إذا ضاع عش فلا تكتئب
ولولا بسائين أخرى هناك
فطر ليس للباذ أن يستريح
ففي درينا ألف قلب جريح
سمواتنا تلك لا تنتهي
فإياك أغلالهم إنها
السابق، ص 453.

(2) لم تهب لي الطبيعة اليوم فكراً
عدتي طينتي التي وهبني
طينة بالجنون تضفّل حسي
ربما مزقّت لجبريل سرا
طينتي لا يهمها صنع عش
وجبين النجوم يرشح عارا
السابق، ص 458 - 459.

(3) إنهما الدنيا بكاء
وغمنا لليس إلا
السابق، ص 521.

صوفيتان. كل ما في الكون من بحار وفضاء وسحب وييد ملك الإنسان⁽¹⁾. كان آدم ملاكاً ولكن غلبت عليه الدهشة والفناء. وإذا نظر في مرآة ذاته عرف القضاء. وإذا حدّق عرف سر البقاء، وصراخ كشررات تتعالى إلى السماء⁽²⁾. لقد أضاء ضوء الشمس من شرارة آدم. يعيش في عالم جديد. فردوسه ذاته، ليس لها نهاية، جوهره الروح وليس الجسد المتناهي. هو كالزهرة في العطاء⁽³⁾. ومع ذلك كل أوتار آدم تبكي كالعود الشريد. مع أن كل ميراثه حب يتخير منه ما يريد. وهو سيد الأسرار في المعبد منذ وقت طويل. تبلى الذات فيه ثم تستيقظ من جديد. وتمتطي كل جديد بسهولة ويسر⁽⁴⁾. واشتكى إبليس لله يوماً لماذا يتعالى ابن الطين عليه

(1) فأتني الأرض فقالت
أنت يا آدم فاعلم
حولك العالم فانظر
ووراء الحجب حسن
لا تكن نافذ صبر
ضجة العالم هذا
لك ما في الكون ملك
هذه السحب جميعا
السابق، ص 521.

(2) كنت من وجه ملاك
فخذ المرأة وانظر
نظرات ذات مغزي
وشرارات صراخ
السابق، ص 522.

(3) إن ضوء الشمس هذا
عالم أنت جديد
أنت فردوسك ذات
جسد؟ لا ليس هذا
أيها الزهرة فانظر
السابق، ص 522.

(4) كل أوتارك تبكي
كل ميراثك حب
سيد الأسرار في المعبد من وقت بعيد
ثم تبدي وتعيد
تمتطي كل جديد
السابق، ص 522.

وهو من نار وابن آدم يتحول إلى تراب؟ روحه واهنة، وكرشه كبير، وثيابه موفورة. عقله في الذروة وقلبه يلفظ روحه. ويطلب إبليس من الله أن يداوي جروحه⁽¹⁾.

وفي حوار بين جبريل والشیطان أي بين الخير والشر سأله جبريل عما شاهد في عالم الألوان والعطر الجديد، عالم الغواية والعجدة والإغراء؟ فرد الشيطان بأنه شاهد الشوق والطموح. وسمع البكاء والنشيد. ثم سأل إقبال من جديد أن حديث الناس في الحضرة الإلهية من صنعه، وأن جلاليب الناس مرقعة من خرقه. ويدافع الشيطان عن نفسه بأن كلامه في الظاهر يشقي. وفي الباطن يسر. تكسر قلدح سره. ولم يعد قادراً على الصعود إلى الملاء الأعلى. بل إنه لا يطيق العيش فيه. والفرق بين جبريل وبينه هو الفرق بين اللعنة والرحمة، بين الموت والحياة، بين اللاعودة والعودة، بين القنوط والأمل⁽²⁾.

واستدرك جبريل قائلاً للشيطان إنه عندما استنكف طاعة لله للسجود لآدم ناله

- (1) قال إبليس الرجيم
ما لنجبل الطين هذا
هو ذا آدم بعمدي
واهت الروح كبير الك
عقله في الأوج لكن
ما لقلبي غيرك اللهم لو تأسر جروحه
الباقي، ص 544.

- (2) التقى سيدنا جبريل إبليس الرجيم
قال: ما شاهدت قل لي أيها النخل القديم؟!
ما جرى في عالم الألوان والعطر الجديد
قال: شوق وطموح وبكاء ونشيد
قال: ما زال حديث القوم في الحضرة خالفك
أولا يمكن أن يرفع في الجلباب خرقك
قال: هيهات ولكن لست تدري ما أسر
هو في الظاهر يشقي وهو في الحق يسر
قدح السر الذي أسكرني منه تكسر
ورجوعي للأعاني بعد سكري بنعسر
أنما حتى لا أطيع العيش في تلك الأعالي
أنت للرحمة حاك وأنا للعنة حالي
ذلك العالم ما معناه من غير أوابد؟
إنه الموت الذي تعرف لولا ما أكابد

العار، ونال الوجود كله. وارتعد المملأ الأعلى من عصيان الشيطان. ملأه الذعر، وتملكته الرجفة. فأجاب الشيطان بأن جرأته هذه سر البقاء، وأن النار سر النماء، وليه الجديد. جبريل على الشاطئ ينظر إلى صراعات المواقف. أما الشيطان فإنه يواجه العواصف. وعندما تعصف ريحه أمواج البحر لا يرى إلياس والخضر أي حيلة. فإذا أمكن يوماً سؤال الله: من الذي خضّب تاريخ ابن آدم بالدم؟ دم الشيطان أم دم ابن آدم؟ لأجاب إنه جعل الشيطان شوكة تجرح قلب بني آدم ولكنه لم يجعله سفاحاً. وليس أمام ابن آدم إلا إثبات الذات أو نفيها قرينة إلى الله⁽¹⁾.

ج - العالم ميدان للفعل

خلق الله العالم لصالح الإنسان. خلق الأنعام من طين وماء. وخلق الشعوب والأقوام. وخلق الحديد من التراب. أما الإنسان فصنع الفاس للجدع والغصن. وصنع القفص لطير طليق يغني. ويجيب الإنسان بأن الله خلق الظلام فصنع

= فإذا كنت حيلة ببقننوطي للوجود
أترى الواجب أبقي في قننوطي أم أعود؟
السابق، ص 529.

(1) قال: لكن عندما استنكفت كبراً أن تطيعه
نالك العار ونال المملأ الأعلى جميعه
صار شغل المملأ الأعلى أمام الله خوفه
بهذر الذعر عليه تملأ الرعدة جوفه
قال: يا جبريل لكن جرأتي سر البقاء
وهبت لعمم الممنون شوقاً للنماء
أنت في الشاطئ ترتو لصراعات المواقف
أنا أم أنت الذي تصفعه تلك العواصف؟
عندما تعصف ريحي لسبح البحر الجليله
لا يرى إلياس والخضر من الواقع حيلة
فإذا أمكن يوماً تسأل الله تعالى
فإننا أرجوك أن تسأله هذا السؤال
دم من ذاك الذي خضّب تاريخ ابن آدم
دم من هذا (دمي أم دمه أم دم آدم)
صاغني الله تعالى شوكة تجرح قلبه
أنت لا تتقن إلا النفي والإثبات قرينة

السابق، ص 530.

الإنسان السراج. وخلق الماء فصنع الكؤوس. وخلق الصحراء فزرعها خضراء. وخلق الحجارة فصنع المرايا، وخلق الداء فصنع الدواء⁽¹⁾. هناك إذن تبادل في الخلق والصنع بين الإنسان والله. والبراعة بالرغم مما يبدو عليها من ضعف فهي قوية. هي ليست كالنمل تدب على الأرض ويدهسها الناس كما دهسها سليمان بجنوده. ولا تنجذب إلى نيران غيرها كالفراشة. إذا حلك الظلام أنارت بنور أضلاعها طريقها كعين ظبي⁽²⁾.

العالم مبسوط أمام الذات لتكد فيه كالهلال الذي يكد ويفر في السماء. ولو لم تغير وجوهه وتبدل لما كان إماماً في السماء. والنسيم لا يفتح برعم وردة بلهاء عن شمس الصباح. المهم ظهر العيون، والقلب في حضنها⁽³⁾. درب الإنسان في السماء فعليه اليقظة. مكانها ليس خلق الزمان صباحاً أم مساء بل أمامه. فالدرب في الزمان، لا نهاية له ولا بداية حتى لا يأسف الراكب. ولا يعلم أحد أين تنشب الحرية، ويسد الرمح؟ المعروف فقط أنه لا سر في التسكع والتردد والخنوع والعودة في المساجد والكنائس. واللؤلؤ البازخ من المحارة يتجلي في دمع الصباح وليس في خدع الحضارة. والقرمزي الخد لا يحتاج إلى مسحوق من السوق.

(1) الله: خلقت الأنام لطين وماء
خلقت من التراب هذا الحديد
وفأساً خلقت لجذع وغصن
الإنسان: خلقت الظلام فصغت السراج
خلقت جبلاً وبيدا ومرجاً
أنا من حجار صنعت مرايا
رسالة الشرق، ص 291.

(2) تقول براعة: لا تحسبني
ولا أعشواً إلى نيران غيري
إذا حلك الظلام كعين ظبي
السابق، ص 291.

(3) هذا الهلال بصدقه يتسامي
لولا تجاوزه لكل وجوهه
لا تفتح الأنسام برعم وردة
ظهر العيون هو الحقيقة كلها
جناح جبريل، ص 462.

خلقت تتاراً وزنجاً وفرساً
وسهما خلقت وسيفاً وترساً
وسجناً صنعت لطير مغني
وطينا خلقت فصغت الكؤوسا
خلقت حدائقها والغروسا
أنا من سموم صنعت دوايا

كنمل السوء بألمني رفيقي
كما يهفو الفراش على الحريق
أنرت بنور أضلاعي طريقني

أبدا يريد الكبر والإقداما
ما كان في فلك السماء إماما
بلهاء عن شمس الصباح تحيد
والقلب في حضن العيون مريد

والعازف الموهوب لا يرضى بألحان السوقة مثل ألحان هذا العصر طالما أن الصوت الذي في القلب يخطئ في الغناء⁽¹⁾.

12 - الزمان والخلود⁽²⁾

أ - الزمان الشعوري

الوقت سيف، حاد قاطع. لذلك كانت الأفعال في الأوقات أداء على الفور وإلا كانت قضاء أو على التراخي. وهي تسمية الشافعي واضع علم الأصول. الزمن يشق الصخر ويشق البحر كما فعل موسى بعزيمته. وينادي إقبال على أسير اليوم والأمس للتأمل في الكون الكامن في القلب وإلى النظر في حقيقة الزمان. فهو ليس خطأ مستقيماً يرفضه برجسون، يذرعه ذهاباً وإياباً، صباحاً ومساءً، ليشقى عليه أو يلف به رجل الدين وشاحه. بل هو شمعة تقطع الزنار بنارها. الزمان هو الخلود وليس المكان. الزمان هو الله. لذلك جاء في الحديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو

(1) يا أيها الإنسان كن يقظاً فدريك في السماء
لا ترم نفسك خلف هذا الصبح أو ذاك المساء
الدرج ذلك ماله زمن ليسألف ركبته
ومن الذي يدري ويعرف أين تنشأ حربه
لا سر ينبض في التنكيع والتمهل واليقين
فوق المواخر والمساجد والكنائس أجمعين
للؤلؤ الفرد الذي قد ند عن صدر المحارة
مجلأ في دمع الصباح ونيس في خدع الحضارة
القرمزي الخد لا يحتاج مسحوقاً يباع
والعازف الموهوب لا يرضى بألحان الرعاع
ألحان هذا العصر يلزمها الكثير من الذكاء
إذ ضالما الصوت الذي في السر يخطئ في الغناء
السابق، ص 467.

(2) تغدق الصخرة من ضربته
كان هذا السيف في كف الكلیم
يا أسير اليوم والأمس انظرا
أنت في النفس بذرت الباطلا
ويفيض البحر من صولته
فشأى التدبير بالعزم الصميم
انظرون في القلب كونا ستر
وحسبت الوقت خطا طائلا
حيرة العبد مسير الزمن
حيرة الأزمان قلب المؤمن

الأسرار والرموز، ص 63 - 65، المقدمة ص 49.

الدهر». وهو ما حوله نجيب محفوظ على لسان أحد أبطاله «لا تسبوا الله فإن الله هو الدولة» نظراً لتسلط الدولة القاهرة على رقاب الناس. يحتار العبد في مسار الزمن، وتحار الأزمان في قلب المؤمن⁽¹⁾.

العبد ينسج على الزمان كفتاً ويذعن له، والحر تنسج منه الأيام والليالي. العبد يضع نفسه في قفص الزمان، والحر يطلق نفسه في سماء الزمان. العبد تتكرر أيامه ولياليه، والحر كل يوم جديد الخلق. ويعتذر العبد بالقضاء. والحر تصور يده كف القدر، ويسيطر على أحداث الدهر. العبد يغلبه القدر، والحر يمسك بالقدر. إن كل ما في الكون من آثار الذات، وكل ما في الأرض من ربه. العبد يحمل التاج ويطيع الأمر، والحر يلبس التاج ويده الخاتم الذي به ينقش الأمر. إن الذات هي مرآة الحق، ووجود المسلم آية الحق.

الزمان شعوري، زمان الضمير، توتر باطني. لا يقسم بالشهور والسنين كما هو الحال في أهل الكهف، وإحساسهم بأنهم كانوا نياماً يوماً أو بعض يوم وقد تجاوزوا ثلاثمائة وتسعة أعوام⁽²⁾. الزمان ليس قيداً على القلب. ولا يقيد الزمان قلب الهمام⁽³⁾.

(1) ومن الحر جديد الخلق
قيد العبد صباح ومساء
وأرى الحر مشيراً للقدر
سر غيب وحضور في القلوب
إن نلوقت للحن صامنا
أين أيام بها سيف الدهر
إن هذا العصر من آثارنا
روضة الحق ارتوت من دمنا
لا نهون قدر حر أعدا
ذاتنا المرأة للحق، اعلم
السابق، ص 66 - 67.

(2) وفي غير المكان رأى مكانا
زمان ما بدا لي في الضمير
زبور العجم، ص 382.

(3) رُغم أن الزمان للقلب غل
لا يذل الزمان قلب همام
جناح جبريل، ص 466.

ب - خلود الزمان

الزمان متصل من الأمس إلى اليوم إلى الغد، من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى ما بعد الممات من خلال الأثر في الدنيا عن طريق العمل والسنة التي يفتدي بها الناس. الأمس خبرة واسترجاع، واليوم توتر وشحذ همة، والغد استباق وأمل⁽¹⁾. وصحبة الذات مدة طويلة تؤدي إلى الخلود. وهو ما عناه الفلاسفة بالاستمرار بين الأمس واليوم والغد⁽²⁾. تستطيع الذات أن تحول أيامها إلى خلود⁽³⁾. وتخليد الذات بالوصال⁽⁴⁾.

الزمن لحظات متعددة كما أن العمر من لهيب الثواني يشعلها الزمان، وكما يسقط الجديد بالكأس قطرة قطرة، وكما يستبح العابد في حبات سبخته، يستبح إقبال بزمانه الأيام والليالي. حباتها كلها معروفة لكنها لا تتساوى. فلحظات الزمان كل منها فريدة. كل منها طريقة وسلوك. الزمان وحدة واحدة ولحظاته مرتبة أو مجمعة. مرة تكون سوطاً ومرة تكون عناناً⁽⁵⁾. لا تكثر الذات للسنين، وتسير إلى الأمام وقيمة الأيام والشهور والسنوات وما فيها من تجارب وقد تكون لحظة واحدة

- | | |
|---|---|
| (1) أمسي قلبي، وعبرة اليوم عيني،
السابق، ص 277. | وغدي منيتي وكل يديع |
| (2) وذاتك أن تعانقها طويلا
ذكرنا الأمس والغد في دوام
وفطرنا انقطاع عنه كنا
زبور العجم، ص 386. | تجد في الخلد من موت بديلا
«فكان» و«سوف» أمس الكلام
سبيلا قد ضللنا في سراب |
| (3) نك الأيام فاجعلها خلودا
السابق، ص 391. | ونح في الفجر عقلك لن يفيدا |
| (4) وفي الإمكان تخليد لذات
السابق، ص 399. | وجعل الوصل من هذا الشتات |
| (5) شعلة العمر من لهيب الثواني
يسقط العالم الجديد بكأس
سبح القوم لعبة في يديهم
كل حباتها عرفت ولكن
ولكل طريقة وسلوك
مرة أجعل الأعنة سوطا
جناح جبريل، ص 419 - 420. | أشعلتها تغيرات الزمان
قطرة قطرة كرشح الدنان
أن سبحتي ليالي زماني
لا أسوي بين الجميع بشاني
بعضها فارسي، وأخرى حصاني
مرة أجعل السياط عناني |

أقيم من عام بأكمله⁽¹⁾. ولا تصغي لأقوال القائلين من هنا أو هناك. فجهاد الذات يتعالى على الغيرة والتحطيم. وجائزة الحر ليس من الخمر أو الغواني أو الخيام. والطعام لا يأتي إلا لمن يطير فوق الغمام⁽²⁾.

الذات ليست الفرد بل الكون، وليس الشخص بل العالم وهو ما يسميه إقبال توسيع الذات. الذات زمان متجه نحو الخلود، أنفاس أيام تصب في الدهر⁽³⁾. فلماذا يقضي على الدنيا بالهوان وستر المغيب؟ لماذا عدم البدء بالحاضر فالغد في ضمير الزمان؟⁽⁴⁾. هذا يتطلب طموحاً ورفض الحاضر. وإذا كان الإنسان قادراً على أن يخلق كالصقر فلماذا السير في الصحراء أو كالنمل في التراب؟⁽⁵⁾. الذات من الطين وينسب إلى قوم. والإنسان إنسان بلا لون ولا ربح ولا قوم. الإنسان إنسان⁽⁶⁾.

الذات باقية بعد أن يرحل كل شيء. الذات جوهر ومظاهرها أعراض. الذات مركز الكون، وقائد الميدان. سيدة الجبال والصحراء. جندتها في الأرض وفي السماء. لذلك لا يمكن إهدارها وإلا أهدر الفرد وعمت البصيرة، وقصر النظر. ولا

St. Ref., p. 145.

(1)

(2) كما أنت لا تكثرث للسنين
كما أنت لا تصغ للقاتلين
تعالى جهاد النزيه الغيور
وجائزة الحر غير الخمر
على الطعم يسقط من لا يطير
السابق، ص 427.

(3) فاهر الأيام من أنفاسه
هي أعمار خلود في الدهر
ضرب الكلام، ص 73.

(4) على دنياك تقضي بالهوان
فاحكم يومك المشهود واعلم
رسالة الشرق، ص 272.

(5) إلام تعيش في رث الإهاب؟
فطر كالصقر معتزما وحلق
السابق، ص 272.

(6) رأيتك لا تزال أمير طبيّن
أنا بشر بلا لون وريح
السابق، ص 273.

وسر في طريقك نحو الأمام
فلمست لنجد ومصر وشام
تعالى يكون لنيل الحطام
وغير الغواني وغير الخيام
ومن لا يخلق فوق الغمام

هي أعمار خلود في الدهر

وسر للمغيب كل آن
بأن غدا ضمير في الزمان

إلام تعيش نملاً في تراب؟
إلام أسير حب في اليباب؟

إلى ترك وأفغان تُرد
وللتوران أو للهند بعد

يمكن عبادة الأرض لأنها للذات. فالذات إما راهب يمتلك نفسه أو ملك يمتلك الغير⁽¹⁾. والذات تتوالى عبر الأجيال وتتحول إلى وعي تاريخي مستمر. وتتصل ذات المحدثين بذات القدماء⁽²⁾. تتمثل نضال الأجداد نحو العلا، وتتأسى ببذل الروح من أجل رضا الرحمن⁽³⁾.

ويسأل إقبال عن البعث والمصير. وهل السؤال ناشئ عن ضعف اليقين أو من جهله بأسرار الدين؟ ويجيب الرومي بأن السؤال مغلوط. فليس المقصود السؤال الفلسفي الخالص، ماذا يحدث بعد الموت؟ بل سؤال البعث في الدنيا ويقظة الذات، وأنها درب الحياة⁽⁴⁾. ويوصي هارون الرشيد ابنه وهو يحتضر أنه سيمر من نفس الطريق. الموت نور في عيون المؤمنين. لا تشاهده عيون الكافرين⁽⁵⁾.

(1) يرحل كل كائن ويذهب
وأنت أنت فارس الميدان
يا سيد الجبال والصحراء
أهكذا قيمتك الذاتية
فبالها بصيرة في كدر
لا تعبد الأرض فإنها لك
السابق، ص 447.

(2) تهب الذات لهيباً آخر
أنا حطمت بهذين الجيوش
السابق، ص 540.

(3) فتمثل نضال أسلافك الأمجاد نحو العلوي بغير تواني
وتدبر كيف استهانوا ببذل الروح والنال في رضا الرحمن
(4) قال: يا أسناده! أين البعث من ضعف يقيني
وأنا أجهل ما أجهل من أسرار ديني
قال: ما أنت وهذا ابعث النفس بذاتك
ثم سل نفسك ماذا إنها درب حياتك
السابق، ص 526.

(5) قال الرشيد لابنه يوصيه: ها أنذا احتضرت
ستممر بعدي أنت من هذا الطريق كما مررت
ابني إن الموت نور في عيون المؤمنين
والنور هذا لا تشاهده عيون الكافرين
السابق، ص 448 - 449.

وتتحقق الذاتية في البطولة، والبطولة في الشهادة. وإن تعود الصدر على جرح الصدر فإن الذات تعيش كالصقر أو تموت كالصقر. والدين والعرف يقضيان أن تكون الذات كالليث وليس كالشاة⁽¹⁾. ويموت العبد خوفاً من الحياة التي وضعها كلها في إطار الحرام. للمسلم جناح يطير به وألحان يشعل بها السعير، ولكنه لا يخشى الموت⁽²⁾.

والخلود الشخصي ليس حالة بل عملية. وقد انتهى كل النقاش حول النفس والبدن إلى طريق مسدود. وكانت له عواقب وخيمة. وقامت مذاهب فلسفية عديدة على هذا التمييز الخاطيء. فالإنسان طاقة أو قوة أو علاقات قوى تخضع لنظم معينة. والشخصية أحد هذه العلاقات بصرف النظر عن كونها مقصودة أو مصادفة. هي واقعة ضمن وقائع طبيعية أخرى، باقية أم غير باقية. ويبدو أنها مستمرة وفعالة كشخصية إنسانية ناجحة. هي أشبه بدائرة تتقاطع فيها خطوط أخرى تضمن استمرار هذه الدائرة بتحويلها إلى طاقة، وتجنب ما يقضي عليها مثل: التواضع، الرضا، الطاعة العمياء، وأنماط سلوك أخرى تسمى الفضائل. في حين أن الطموح الكبير والكرم والإحسان والاعتزاز بالتراث والقوة تحافظ على الشخصية. والشخصية هي الخير الأقصى، وهي معيار السلوك. وهو الذي يحافظ على الشخصية. وللحفاظ عليها تصارع ضد الموت الذي يقضي عليها كلية. الخلود الشخصي إذن بين أيدينا. هو جهد للحفاظ على الشخصية. ولذلك تتأجج خطيرة إذا ما تمت مقارنة الإسلام بالبوذية والمسيحية⁽³⁾.

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | وإن عودت جرح السهم صدرا
ديننا والعرق في تلك الحياة
ويموت العبد خوفاً من حرام | فلتتش صقرا وكن في الموت صقرا
برهة كالليث لا عما كشاة
لم يكن عيش له غير الحرام |
| (2) | وتمنحني جناحا كي أطيرا
فهل من مسلم يخشاه موت؟ | وألمحني خفقت بها سعيرا
أطلت، وما وجدت، أنا المسيرا |

أرمغان حجاز، ص 444.

الفصل الثاني

الذات المشتركة (الأمة)

1 - انبثاق العالم من الذاتية

ينبثق العالم من الذاتية، ويرتبط بنسقتها. فالعالم ينشأ في الذات حين الشعور به. العالم الأكبر انبثاق من العالم الأصغر، ولا يتطابق معه فقط كما هو الحال عند إخوان الصفا. كل ما في الكون، وكل ما تبصر من آثارها. إذا استيقظت تجلي عالم الأفكار. اختفت الأكوان فيها. وهي شرط وجودها. تثبت الأكوان بشبوت الذات. الأضداد منها لقوتها على السيطرة عليها. تُبلي الذات في قوتها لتعرف قدرتها. إذا أسرفت أو قست فإنها تبني جمال الخلقة. فلا ولادة بلا مخاض⁽¹⁾.

هي الفاعل والعلة والمؤثر. تثور وتكمن، تقوم وتحجم، تظهر وتختفي. عمرها التاريخ كله. وميدانها الأرض والسماء. تعمل بيد في الأرض، والأخرى في عنان السماء. العقل من شعلتها. إذا ضاقت الأرض فيضيقتها. وإذا انتشرت الصحراء فباننتشارها⁽²⁾. شيمتها التجلي والانطلاق. وإذا صمتت فلجهر قريب كالأسد قبل أن

(1) الأسرار والرموز ص 13 - 16، المقدمة ص 47.

(2)	هيكل الأكوان من آثارها	كل ما تبصر من أسرارها
	ألف كون مختلف في ذاتها	غيرها يثبت من إثباتها
	خلقت أصفادها من نفسها	لترى لذتها في بأسها
	تبتلي في نفسها قوتها	لترى من نفسها قوتها
	عذرها في شرف أو قسوة	أنها تبني جمال الخلقة
	همها الأعمال فهي الفاعل	وهي السعلة وهي القابل
	ثورة فيها وإجفال ونور	واحتراق واختفاء وظهور

يقفز، خطوة إلى الوراء. أفعالها قطرات تتراكم في محيط. وكل ما قاله الصوفية في الحقيقة المحمدية هو في الحقيقة للذات الإنسانية قبل تشخيصها وتمجيدها وتكليسها في نموذج خارج الزمان والمكان⁽¹⁾.

فإذا ما جمعت الذات أسر الحياة، واستطاعت السيطرة عليها فمن غديرها تمتلأ البحار. فالذات البداية، والعالم النهاية⁽²⁾.

الذاتية جوهر الكون، وأساس نظامه، وسر الحياة فيه⁽³⁾. الذات كاليراعة تضيء الوجود، وكدودة القز تنسج حولها الحرير كالشرنقة، كرة مضيفة أو ملتهبة، قمر مضىء في الليل البهيم. تعبر عن نفسها من بين الضلوع⁽⁴⁾. الذات قطرة منها تموج البحار⁽⁵⁾.

الذات بها كل شيء في الطبيعة. وما يقوله الصوفية عن الحقيقة المحمدية خاصة عممه إقبال على الذات. هي أيضاً فرد. الشمس في حجرها. والنجوم في صدرها. وروح الذات تسري فيها. الذات في دار فقير وفي قصر ملك في آن واحد، فقر الدنيا وملك الآخرة. هي داء ودواء. هي أعمال الأبطال مثل جنكيز وتيمور. وهي ثورة الغرب لوضع أسس حضارة جديدة. الدنيا من نقوشها

= سعة الأيام مسجدان لها
يدها في الطين لتكون ازدهار
تخلق الأجزاء إما تنقطر
والسماء النقع يعلو سيلها
نومها الليل، وفي الصبح النهار
تنشئ الصحراء إما تنتشر
السابق، ص 13 - 14. الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه وسر الحياة فيه، ضرب الكلم، المدخل ص ح.

(1) شيمة الذات التجلي لا الخفاء
قوة صامنة حلف عمل
قوة الذات من الكون النواء
كلمة الذات نعبها قطرة
وهي في الذرات بأس وضياء
عمل اليوم لآتيها علل
فعلى قدر القوى قدر الحياة
فإذا الفطرة يوماً درة

السابق، ص 15.

(2) إن ذاتا جمعت أسر الحياة
من غدير أزخرت بحر الحياة

السابق، ص 16.

(3) قرب الكلمة المدخل ص ح.

(4) A Message from the East, pp. 68 - 9.

(5) Ibid., pp. 72 - 4.

وابتكارها. هي لفتح النيران وروض الرضوان. آلاف الأكوان فيها. هي ثوب الإنسان وسر الرحمن⁽¹⁾. التقدير والتدبير من سحر فنونها. هي الصحراء التي يهيم فيها قيس متيماً في حب ليلي. هي السر في أسرار الناس. هي الحادي في النزول والحقل حين الحصاد. هي نار في المحافل عندما تشدو الألحان. الذات من طين ولكن يغفل الناس عما وراء الطين. يظنها الناس كأساً وهي بحر دون ساحل. يظنونها موجاً وهي الطوفان⁽²⁾.

العالم حبة فيها⁽³⁾. عالم الماء بين التراب والهواء تجل للذات. والليل

وحوى الأنجم صديري
فيكم روحي تسري
أنا في كوخ وقصر
وأنا عيشة يسر
أنا عين الحيوان
قاييل من غباري
نفثات من شراري
نقوشني وابتكاري
في ربيعي كالبحار
أنا روض الرضوان
إن هذا الأمر أمر
من غد يظهر يسر
في ضمير تستنر
وقباب في خضر
أنا سر الرحمن

بسر من سحر فنونك
أنا صحراء جنونك
من خيالات ظنونك
وأنا سر شؤونك
أنا حقل، أنت حاصل
أنت نار في المحافل
أنت عن قلبك غافل
وهو بحر دون ساحل
منه يبدو طوفاني

له قد ضنت لا لسواه ذاتي

(1) قد أحاط الشمس حجري
أنا لا شيء ولكن
أنا في در وفقر
أنا داء ودواء
أنا سيف الدوران
إن جنكيز وتيمور
ثورة الإفرنج فسيها
إنما الإنسان والدنيا
ودماء من قلوب
أنا لفتح النيران
أنا سيار مقيم
إن في خمرة يومي
ألف كون، فانظرنها
ونجوم في حبالك
أنا ثوب الإنسان

رسالة الشرق ص278.

(2) سر التقدير والتد
أنت مجنون ليلي
أنا كالسروح بزي
أنت في جوفي سر
أنا حاد، أنت نزل
أنت فياض بلحن
يا أسير الطين فكر
انظرئه ملاً كأس
إن مروجاً فيك يعملو

السابق ص279.

(3) وأنشر حبة في الأرض ذاتي

السابق ص40.

والنهار هي التي تعطيها. والذهر والتاريخ من تحقيقاتها. والمسؤولية والواجب من عبء الذات. الذات ليست مجرد غبار بل هي التي تروي حقل الكون⁽¹⁾.

الذات تأمر العالم فهو جزء منها. لا يند عنها. وبمزيد من الوعي تدرك الذات أن العالم يصدر عنها. تعرف الذات طريقها. ولا تربط نفسها بمن يتجلى منها. تلهث من سرعة ما تبصر حولها⁽²⁾. ظاهر العالم سحر، ولكن الذات ثابتة بعضى موسى. أسد الله الذي يقتنص العالم هو الذات. وإذا كان جوهر الكون قديماً فالفكر هو الكشف الجديد. وإذا كان العالم من الذات فإن الذات مسؤولة عن العالم كمسؤولية الأم عن طفلها. فالذات تتقرب نظرة العالم إليها. تعقد العزم عليها. ويضع رجاءه فيها. وبعد الكشف عن الذات، تدعى للسجود تقديراً لعظمتها. قدرها في العالم لا يحتاج إلى شرح. عليها فقط فتح صدرها. تفهم معاني الوجود. زفرتها تخدم النار فيها وهي بين السيوف. ويتوقف القول ويخشى. ومن كثرة القول ألهمت الجوانح. ولو زاد لأحرقها النور⁽³⁾.

- (1) ألا يا عالماً في الماء
ظاهر ذلك السر
وهذا الليل في حزن
ولحن مؤذن الفجر
نشاط الدهر يطلبه
ويحمل عبئه بجري
غبار غني يا أعمى
فحقل الكون لا أدري
جناح جبريل ص 427.

- (2) عبك العالم فأمر
غير الموقف وانظر
أمض لا تركز لشيئ
نهفة الراكب من
ظاهر العالم سحر
أسد الله الذي
جوهر الكون قديم
فهو لا يهرب منك
إنه يصدر عنك
وانض عن كونك حوله
سرعة ما يبصر حوله
وعصا موسى ثباتك
يقتنص العالم ذاتك
فكرك الكشف الجديد
أين كف تنظم الجوهر في سلك فريد؟

السابق ص 518 - 519.

- (3) أيها المسلم فارق
في ملاء من رجاء
نظرة الدنيا إليك
يعقد العزم عليك

العالم مخلوق من أجل الذات بعد خلق الذات أولاً. فالعالم خلق للنظر. والدنيا خلقت للنفس⁽¹⁾. وتعتمد الذات على الذوق. وكل ما فيها واردات لها⁽²⁾. والبحث لا يكون في الخواء بل بالدخول في العالم. ويأخذ من الذات القوة ليكمل ضعفه. والذات تدفع نحو قصدها ويتقرب إليها. ويؤدي استحكام الذات إلى فتح آفاق الدنيا⁽³⁾. الذات تعلّم وتعين مثل جبريل الأمين. وهي النار التي تضرّم الباطل وتحطّمه⁽⁴⁾. والعود إلى الذات شعار إقبال وعلي شريعتي للتخلص من هدير الموج والاجتماع بقاع الضمير⁽⁵⁾. فالحقيقة، رياضية أو طبيعية، في الداخل وليست في

= إن لآلاماً شغلاً حول أفطار الوجود
عندما تكشف عن ذاتك تدعى للوجود
لست فيهما قلبي أشرح للعالم قدرك
فأنا حاولت حنني الآن أن تفتح صدرك
مزق الكلمة ضيف عن معاني نفسيها
نحن مرآة مبعان كدر الكلمة فيها
زفرتي تضرّم صدري وأنا بين السيف
غير أن القول من خشيتك يرجو الوقوف
أنا من كثرة ما خلقت ألهبت النواحي
فلو اجتزت قليلاً أحرق النور جناحي

السابق، ص 519.

(1) لك عين، نظر فيها خلقت لك نفس ولها دنيا خلقت
زبور العجم، ص 373.

آلام آدم شمس كل حقيقة والشمس تشهد لي بصدق مغالي
هذا الوجود بصمته وحماسه لك يا ابن آدم يا كبير الآل
السابق، ص 509.

(2) وذوق الذات شهد في لهاتي وهذا كله من وارداتي
السابق، ص 375.

(3) وهذا البحث في القفر أحذرته عليك بعالم فيك أدخلته
ضعيف، خذ من الذات قوى تريد الله؟ قزبها لذاكا
بخزوا الذات إن يوما ظفرتنا لك الآفاق في ملك وجدنا
السابق، ص 377.

(4) تعينك، أنت تلك الذات فاعرف كجبريل الأمين إذا فرفرف
وتلك الذات في دنياك أضرم بخزوك ما ترى أو غاب خطم
السابق ص 380 - 381.

(5) لذاتك عد، تخلص من هدير ونفسك ألق في قاع الضمير =

الخارج. والمعرفة، الرياضية أو الطبيعية، تأتي بالتأمل في الذات، وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل، ومن الموضوعي إلى الذاتي، ومن المجرد إلى المعيش، ومن العقلي إلى القلبي⁽¹⁾. الذات محلها القلب⁽²⁾.

وعيد الشكر هو شكر الله على أن الإنسان ولد في هذا العالم في الفجر المزهري وفي الغروب. الشفق والغابات السوداء التي تمر فيها الليالي في سلام أبدي. فالعالم صورة، والذات شاعر يعبر عنها⁽³⁾. لقد خلق الله الأشياء، وأعطاه الإنسان قيمتها. ويتوقف خلود شعب على خلقه المستمر للقيم كما لاحظ نيتشه. تحمل الأشياء حتماً طابع الصناعة الإلهية ولكن الإنسان هو الذي يعطيها معناها⁽⁴⁾.

إن حَيْثُ الذات يصبح الفقير ملكاً لا يعادله ملك من الملوك الأقدمين طغرل أو سنجر. وتصبح البحار بالنسبة لها ضحلة الأعماق. وتضحى الوحوش، وإن ماتت تقيد أمواج السراب⁽⁵⁾. وما أضيع الإنسان إن أضاع ذاته! ولم يستطع السيطرة على العالم، عالم الطبيعة والألوان. ومقام القبة الزرقاء أي السماء ليس له حدود. ومقام الذات مثلها في العلوم. وإذا لم تستطع الطبيعة أن تؤكد وسعها فإن الذات تقدر على صنعه⁽⁶⁾.

=	وبعض الوقت في ذات تأمل وذاك نوح عن يوم لنسلم	دع الأعداد واطرحها، لتهمل ولكن حكمة أخرى تعلم السابق ص 383 - 384.
(1)	وبعض الوقت في ذات تأمل	دع الأعداد واطرحها، لتهمل زبور العجم ص 383.
(2)	وكوكبها سراج للمساء	شغاف القلب فاضغط فيه ذاتا السابق ص 399.
(3)	St. Ref., p. 136.	
(4)	Ibid., p. 88.	
(5)	ترى طغراً أو سنجر لا يشاكل إن الذات حيت فالحزون مخامل وفي موته موج السراب سلاسل	إن الذات فالفقير مملك إن الذات حيت فالبحار ضاحك ترى في الحياة وحش قاهر لجه ضرب الكلیم ص 53.
(6)	الحق أنك قد أضعت الذات فاطلب ما أضعت وعلى العطور وعالم الألوان سيطر ما استطعت وانظر مقام القبة الزرقاء ليس له حدود	=

2 - إثبات الذات سابق على إثبات الآخر

ينبثق الآخر من الذات تلقائياً. ولا يحتاج إلى إثبات. فالآخر داخل الذات ومضمونها. وبلغة الظاهريات كل شعور هو شعور بشيء. ولا توجد ذات بلا موضوع، ولا يوجد موضوع إلا في ذات. وكما قال الصوفية، التركيز على الذات يخلق موضوعها. فقبل أن تجول الذات في سر الأفلاك تجول في ذاتها. تكتشف الأفلاك داخلها⁽¹⁾. ليس السؤال إذن من أين جاءت الذات بل من أين جاء العالم. الذات موجودة لا تحتاج إلى إثبات. في حين أن وجود غير الذات هو موضوع السؤال⁽²⁾. الذات جثمان وروح. لا تنزعج إذا ما أتاها الأجل. فإن غاب كون عنها فإن ألف فيها⁽³⁾.

الذات قصد أي انطلاق نحو الخارج. الذات حياة، والحياة قصد. قصد الذات وقصد الحياة قصد واحد. الأول قصد فردي، والثاني قصد جماعي. وتحقيق القصد الفردي تحقيق جزئي للقصد الجماعي. تحقيق القصد الفردي كالسيف. يخرج من غمده. ثم يضيع الغمد في وسط المعارك. ويبقى القصد كالسيف المشهور فيخرجه الكسول أو الغيور⁽⁴⁾. وهذه المقاصد إمكانيات للتحقق وليست

= واختار مقاماً مثله يسمو بذاتك في الوجود
نم يستطع ذوق الطيبة أن يؤكد وسعه
اصنع بذوقك أنت مالم تستطع هي صنعه
جناح جبريل ص451.

(1) أراك بسر أفلاك تجوؤ وتجهل سر نفسك يا جهول
فوجه كالنواة إليك عيناً لينبت من قرارتك التخييل
رسالة الشرق ص268.

ألا يا زهر واطلب العزاء بذاتك فالتزم خل الوفاء
أرمغان حجاز ص498
(2) أتساءل من أنا من أين جيت حبيبت بما على نفسي طويت
بهذا البحر مثل الموج سري إذا لم أطو في نفسي فنبت
رسالة الشرق ص268.

(3) بقلبي سر جثمان وروح فلا فزع إذ أجلي أتاني
فلما غاب عن عيني كون خاف ألف كون في جناني
السابق ص270.

(4) غص طويلاً فأنت أيضاً عميق وافهم القصد فالحياة قصيرة =

أوهاماً⁽¹⁾. لدى الذات القدرة على اختيار نمط حياتها. وفي كل فجر تبدع كوناً جديداً تعبر عن صرخة الوجود في عالم الذات⁽²⁾. وذاكرة الإنسان رديئة عادة باستثناء الإهانات التي يتلقاها من الآخرين⁽³⁾. فالقيمة هي الرباط المتبادل بين الأنا والآخر.

الحياة رغبة، والرغبة قصد. الحياة مجموعة من الرغبات والإمكانات للتحقق. وتعبير الرغبة عن أعماق الذات. الرغبة وجود. ومن ثم، تنطلق الذات في عالم المقاصد والرغبات والمواجد. والوجد ممتد كالنار إلى الآخرين. ويمكن للنار أن تحرق العش. وهو أمر طبيعي. فتعطش الذات من اللهب⁽⁴⁾.

وحياة الذات إيجاد للغير. والبعد بينهما مصدر الحركة والنماء. وهي في تجل دائم للتحول من الفرق إلى الجمع، ومن الفراق إلى الوصال. الذات فردية، لا توجد في ذات غيرها. ومع ذلك نتوق إليها ونتواعد معها في النسق. والتوحد كمال. ليست الذات للأرض والسما بل الأرض والسما للذات، ثورة كوبرنيكس مشابهة لثورة كانط. ليست الأرض المركز والذات تدور حولها بل الذات هو

أنا سيف خرجت من غير غمد
يجرح الناس منظرني من بعيد
ضاع في غمرة المعارك غمدي
ويخوضون في مرامي وقصدي
جناح جبريل ص 450.

(1) عن فريب تسقلب النيت أقدار الخلائق
ليس أوهام غيبي إنها جد حقائق
السابق ص 451.

(2) فف قليلاً فأنت أيضاً قدير
كل فجر يطل تبدع كونا
ولك الحق في اختيار الحياة
صرخة الوجد في عوالم ذاتي
السابق ص 458.

(3) St. Ref., p. 76.

(4) أنا لولا موجة الرغبة لم توجد حيائي
فحياتي موجة الرغبة في أعماق ذاتي
كل حين عالمي يضطرنني أطلق وجدي
عل إنساناً جديداً يحمل اللوعة بعدي
مممكن للنار أن تحرقه عشك هذا
تسأل الساقبي إذا لم تك ظمناً لماذا
السابق ص 450 - 451.

المركز والأرض تدور حولها⁽¹⁾. وهما ليسا موضوعين مستقلين عن الذات بل هما تصوران فيها وموضوعان بها⁽²⁾.

الذات فرد وأمة، في عزلة وصحبة، في الداخل والخارج، تنزل القصر وتملكه. ومعرفة الناس تسبق معرفة الآخر كما أن وجود الذات يسبق وجود الآخر⁽³⁾. الذات المشتركة هي ذات الشعب. والشعب الذي لا يقي على ذاته يهوي إلى القاع⁽⁴⁾. وحياة الشعب من حياة الجندي، ذاته من ذاته. إلا أنه غفل عن قلبه. وفصل بين قلبه وجسده⁽⁵⁾. والوطن الذي لا يرى ذاته ينسى رستم وعلي، ويقطع جذوره من التاريخ⁽⁶⁾.

3 - الفرد والأمة⁽⁷⁾

تنشأ الأمة من اجتماع الأفراد. وإنه من مظاهر الرحمة أن ينتمي الفرد إلى أمة. فيتألق جوهره في الجماعة. وكل شعاع من نور يكون طاقة من ضياء. كل

- | | |
|---|---|
| (1) حياة الذات إيجاد لغير يدوم له الشجلي نور ذات وجود الذات في ذات محال زبور العجم ص 384 - 387. | وللمعروف بعد كل خير وبين الجمع معنى للحياة لتصبح نفسها، هذا كمال |
| (2) لست لهذي الأرض والسماء ولست موضوعهما وإنما جناح جبريل ص 445. | وإنما السماء والأرض لك هذان جانبان من موضوعك |
| (3) وأنا من أجل هذا كله أنا لا أجهل ما تقصده السابق ص 444. | باعترال القصر محكوم علي ومصير الكل معلوم لدي |
| (4) نظرت إيران في ذات مليا جاويد نامه ص 301. | وهوت في قاع أشراك هوبا |
| (5) وطننا رامت وذاتنا لا ترى السابق ص 302. | وتناسست رستم بل حيدرا |
| (6) وحياة الشرق كانت من حياته ذاته من ذاته جهلا سلب وله قلب وعنه غافل السابق ص 304. | ابنه الجندي أمسي من حُماته! ماله من مكنات ما حُسب للجسوم والقلوب من فراق فاصل |
| (7) رحمة للفرد حجر الأمة فالزَمَنُ الجمع جهد المستطاع | كامل جوهره في الملة في ذرا الأحرار كن مثل الشعاع |

منهما يعكس مرآة الآخر. قيمة الفرد في أمته، وقيمة الأمة في أفرادها. ينمو الفرد في الجماعة، وتنمو الجماعة من خلال الأفراد. الفرد ليس فقط هو الحاضر بل يصب في الماضي، وينطلق منه المستقبل. وكذلك الأمة تعيش في التاريخ، وتتطور في الزمان، من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل⁽¹⁾. وتظل الذات مركز الأمة. وتموت الشعوب لبعدها عن المركز. ومركز الذات المعالي⁽²⁾.

انتماء الفرد إلى الأمة قدرة أعظم على الفعل وعلى الطموح. فتصبح أهدافه أهداف أمته. وتتحد روحه بروح أمته، وبدنه بيدن أمته. قوله وفعله، سره وعلنه من أمته. لغته لغة أمته. صحبته صحبة أمته. يمثل الوحدة، وأمته الكثرة. ولا وحدة دون كثرة، ولا كثرة دون وحدة. لا يمكن فصل الفرد عن الأمة كما لا يفصل اللفظ عن بيت الشعر، ولا الورقة عن غصنها وإلا جف ومات وذره الريح. مقاصد الفرد دون أن تتحدد مع مقاصد الأمة تتبدد. فالأمة هي مجموع المقاصد لهمم الأفراد. يلتزم الفرد بالأمة، ولا يفقد حريته. فحرية الفرد في التزام الجماعة⁽³⁾. وتفرد الذات في الأمة كما تفرد الأزهار في الروضة.

كل شيطان من الجمع فقر
وكذا مرآتها صورته
ومن الأفراد نظم الأمة
كان كالقطرة صارت خضرا
والشفق الغابر والآتي به
وقته لا ينتهي كالأبد

عن جذبات المركز
فللمعالي تركيز

وهو بالأمة سعي رابح
سره من قومه والعلس
ومن الأسلاف يقفوا طرقا
فتراه الفرد وهو الأمة
وهي، بالوحدة فيه، وحدة
جوهر المعنى لديه انكسرا
فترى محرومة وصل الربيع
فترى نظم قواه بددا
فيه تحبوه عظيم الهمة

واحفظن ما قاله خير البشر
فرؤنا مرآته أمته
قيمة الأفراد جدوى الملة
وإذا الواحد في الجمع نما
جمع الماضي له في لبه
صلة الأمن تراه والعقد

(1) الأسرار والرموز ص 81 - 82، المقدمة ص 49.

(2) موت الشعوب بعدها
والذات إما زكزت

ضرب الكلم ص 123.

(3) هو بالأمة قلب طامح
روحه من قومه، والبدن
بلسان القوم يشدو منطقيا
تنضج الفطرة فيه الصحة
تحكم الوحدة فيه الكثرة
أفرد اللفظ من البيت ترى
تسقط الأوراق من غصن ينيع
يحرم الفرد الوحيد المقصدا
تجتمع الأمة شمل المنة

وتعود الحياة إلى العضو الحي المائت. ففي العضو الحي الاجتماعي المريض توجد بعض القوى للحفاظ على صحته مثل ظهور شخصية عظيمة تحييه بإبداع مثل أعلى جديد⁽¹⁾.

إن إثبات الذات لا يُعرف من نفي الذات بل نفي الذات يُعرف بعد إثبات الذات. فقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف كما هو الحال في نظرية العلم عند فشته. فيقين إثبات الذات لا يثبت من شك نفي الذات. بالذات نور يساعد على الإبصار. الذات كفاح وحياة⁽²⁾.

وتتأكد ذاتية المؤمن في أمته. يدرك المعالي وهو يسعى إليها. ويهدي سراحه في الليل البهيم⁽³⁾. والذات القوية عضو في جماعة دون أن تفنى فيها⁽⁴⁾. والرجل العظيم مع الناس، ولكن لا يفقد فرديته مثل شمع الحفل ينير الجمع، ومع ذلك له فرديته⁽⁵⁾.

وتنشأ الملة من اختلاط الأفراد. وهو تكرار لنفس المعنى، الفرد للأمة، والأمة للفرد. الفرد من الأمة، والأمة من الفرد. الفرد بالأمة، والأمة بالفرد. الفرد زهرة في بستان. وحيدة تزدهر وسط الروضة. ومع ذلك، يألف الفرد فرداً آخر في

نشأت بالقيء حراً مطلقاً	أثبتت في الأرض سرواً بسقا
تتشظى الذات في أمتها	لثرى الروضة من زهرتها

الأسرار والرموز ص 82.

St. Ref., p. 97.

(1)

(2) أنت لم تعرف «خودي» من بيخودي	أنت لا ريب من الشك زدي
الكفاح دائم تنزرو قواه	هو يسمي «الذات» أو يسمي الحياة

السابق ص 83.

(3) ونرى المؤمن في أمته	ينشد الحق بذاتيته
نحو إدراك المعالي ساعياً	وسراجاً في الليالي هادياً

يا أمم الشرق ص 361.

(4) يا من في القافلة سر رفيقاً وكن وحيداً	
ضرب الكلیم، المدخل ص ي.	

(5) هو في انمجمع خال	ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل في الحفل وحيد ورفيق	

السابق ص ي.

معركة جماعية. ينجذب كل منهما للآخر كما تنجذب الكواكب⁽¹⁾. وحياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد، وأن تولد الشعور بالأمة وتكمله من الاحتفاظ بسننها ورواياتها⁽²⁾. الأمة كالفرد، يولد وينمو. ولا يعرف من العالم سوى أمه التي يرتبط وجوده بها. فهي مصدره في الضحك والبكاء، في الجوع والعطش، في النوم واليقظة. هي مصدر العلم والمعرفة. هي وجوده وتاريخه، ماضيه وحاضره ومستقبله. الأمة تاريخها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. والتاريخ تدوين، ذاكرة تُحفظ. وأمة تنسى تاريخها يمحو الدهر آياتها. تاريخ الفرد وتاريخ الأمة شيء واحد. والنوعي التاريخي يتجلى عند الفرد وفي الأمة. الفرد سفر تكتبه السيرة. وحفظ التاريخ هو حفظ للأمة. فتاريخ الأمة ليس قصة أو أسطورة، لهو أو سمرًا. هو العصب في جسم الأمة، والشعلة في روحها. حياة الأفراد وحياة الجماعات وحياة الأمم ينتظمها قانون واحد هو قانون الحياة، النهضة والسقوط، القيام والقعود، الحياة والموت، إثبات الذات ونفي الذات⁽³⁾.

(1) إننا نبصر فردا في الجميع
فطرة تنهج نهج الوحدة
كل فرد بأخيه أثلنا
لفهم في عيشهم معترك
من جذاب تنوالى الأنجم
الأسرار والرموز ص 84.

(2) ما سوى الأمم يرى منه الجفاء
ومن الذكري ينمي نفسه
مثل الأمة حين النشأة
أسطرا، تمحو، وأخرى تسطر
أمة قد نسيت سيرتها
أنت سفر كتبت السيرة
ثوبنا أيا منا في الزمن
ما ترى با غر تاريخ البشر؟
صاح! من ماضيك يبدو حالكا
إن تُرد خلد حياة فصل
السابق ص 132 - 135، المقدمة ص 51.

(3) وبكيت الناس جنح الظلم
فبدا سر حياة الأمم
السابق ص 11.

4 - تربية الأمة بالنبوة

بعد تكوين الأمة يظهر فيها نبي. اهتدى قلبه. وكتب الأسفار بحروف يسيرة. وعزف الألحان في كل نفس ميتة فأحيائها⁽¹⁾. طاقة الذرات من نوره. يعطي جديد النظر. ويستعمل قلب الأمة. ويحرر الناس من الأغلال، والقن من الأقيال. ويوجه الإنسان نحو مقاصده، مسلحاً إياه بالشرع. يوحى إليه بالتوحيد. ويتطلب طاعة الناس له. وهو تصور تقليدي للنبوة. تقلب الناس من الظلمات إلى النور. تهدي الضال، وتنير الظلام كما هو الحال في الخطابة المدرسية والبرامج الإعلامية. ويقترب أحياناً من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، محمد الخالد الذي منه انشق الكون. وهو ما يقال أيضاً في المسيح القديم⁽²⁾. النبي هو مجرد شاعر عملي⁽³⁾.

ليست القضية لإثبات النبوة المعجزات، إثباتها أو نفيها. إذ يمكن تفسير الأدلة بطرق عدة. إنما القضية هي إذا كان الإيمان بالمعجزات مقيداً للجماعة. وهي كذلك. إذ إن مثل هذا الاعتقاد يقوي الإحساس بالخارق للعادة الذي يقوى من التضامن الاجتماعي لدى بعض الجماعات خاصة أصحاب الهويات الفعلية وليست الجغرافية مثل الإسلام. ومن وجهة نظر التطور الاجتماعي، يبدو الإيمان بالمعجزات ضرورياً⁽⁴⁾.

ولكي يصبح الإنسان قائداً عاماً عليه أن يعرف كيفية التعامل مع الجمهور

يكتب الأسفار من حرف يسير
وحية في سوات يبعث
كل قدر حال في معياره
يجعل البید كروفر نضر
بلهيب منه حزى ثائره
فأحبال الطين فيها شعللا
ويجير القن من أقياله
أترى قدرك دون الصنم
جاعل الشرع زماما في اليد
أدب الطاعة يملبه عليه

ثم يهدي الله ذا قلب بصير
عارف في كل نفس ينفث
تقبس النيرة من أنواره
يهب الناس جديد النظر
فشرى الأمة منه سائره
شررا في قلبها قد أشعللا
ويضك العبد من أغلاله
قائلا أن لست عبدا فاعلم
يجذب الإنسان شطر المقصد
نكتة التوحيد يوحىها إليه

(1) السابق ص 85 - 86.

St. Ref., p. 124.

Ibid., pp. 118 - 9.

(3)

(4)

الملعون، التعامل معه بسذاجة أحياناً وحين الضرورة بأكاذيب⁽¹⁾.

وتأتي الناس الداعية لينالوا الخلود. والخلود يمر عن طريق السيطرة على العالم والملك فيه⁽²⁾. إذا قويت الذات، مقصد الحياة، واستحكمت لم تمت، ونالت الخلود. فالذات كالقشرة في صدف الحياة. تتحول إلى درة أو لؤلؤة فتخلد⁽³⁾. والقلب الحي لا يموت قبل الموت بل بعده. حياة الذات مستمرة إلى الأبد. والموت يسري على الجسم، وليس على الذات⁽⁴⁾.

5 - أركان الأمة: التوحيد والرسالة

أ - التوحيد: التوحيد يبثه العقل بعد أن يطوف بأرجاء العالم⁽⁵⁾. وهو قادر على خلق الفرد من جديد، وتحويله من حال إلى حال. يجعله باحثاً عن الحق،

Ibid., p. 112.

(1)

أقبلن إن تبغ عيش الخالدين
أقبلن إن تبغ ملك العالمين

(2)

السابق ص8.

كالقطر من نيسان في الصدفات
يحيل قطرات إلى درات
أعيت على الأيام كل ممات

صدف لنا هذه الحياة وذاتنا
ما قيمة الصدف الذي لا يستطيع
إن صانت الذات المتينة نفسها

(3)

ضرب الكلم ص20.

الغيباب والحضور
فالقلب لا صبور
كثرت يظير
ففي أبعد سرور
واحتجب الظهور
مناله عسير

في التلحد أيضا يبقي
إن يك قلب حيا
هذي النجوم تمضي
والذات فيها راح
إن مس جسما موت
فالوجود قطب

(4)

السابق ص45.

قاده التوحيد شطر المنزل
فيرد العبد خلقا آخر
عينه في الكون يقظي تعمل
وهذه الكأس بها حاج الفؤاد
هذه الفكر بها والأمل
فعيار الحسن والقبح بها
دون نار الحق في أوتاره
كسهم جمعتها جمعة

طوف العقل بدنيا العلل
يجتبي التوحيد عبدا تابرا
ربه يقظي ويحيى العمل
وحدة القلب قرب وابتعاد
قد هدى الأمة سبل العمل
نزعة واحدة في قلبها
لا يجيد الفكر في قبضاره
وخذ الرأي لنا والفكرة

(5)

ويدفعه إلى العمل. ينعكس في وحدة الفرد وطاقته، قوله وعمله، فكره ووجدانه، وفي وحدة الأمة. وبوحدة الأفكار تحيا الأمة. وهي وحدة الإلهام. وبدونها لا يتحقق⁽¹⁾.

التوحيد قوة في الحياة على الأرض قبل أن يتحول إلى علم مثل علم الكلام. لم يعد ينعكس في أفعال الناس ظناً أنه مجرد عقائد. التوحيد كالسيف في غمده. التوحيد النظري دون التوحيد العملي مجرد لغو. والإمامة ليست في المسجد بل في العالم. ليست في الداخل بل في الخارج. ليست للمصلين بل للعالمين⁽²⁾. وإن علم الكلام إن لم يصلح للدين فلا نفع منه. والتوحيد الذي لا يحفظ الذات مجرد قول⁽³⁾. والقول إن لم يتجل منه الكون، فالكلمة هي العالم، مجرد لغو.

لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوة وليس بالعقل⁽⁴⁾. والقوة بلا دين قوة غاشمة، عدوان مطلق. تنتهي كما تبدأ مثل قوة الإسكندر الأكبر وجنكيز خان. والدين بلا قوة عاجز وكلام وخنوع مثل حياة الرهينة والعزلة عن العالم. وأفضل قوة ما قامت على الدين. وأكمل دين ما اعتمد على القوة. أقصى ما تستطيع القوة من إبداع هو الفن والعلم. وهي سم بغير دين. والدين دواء لكل سم زعاف⁽⁵⁾.

-
- نحن فكر وخيال واحد
نحن من نعمائه حليف إخاء
الأسرار والرموز ص 87 - 89، المقدمة ص 49.
- (1) بوحدة الأفكار تحيا أمة
ضرب الكلم ص 22.
- (2) قوة كان في الحياة على الأرض
رده في النفع غير مضيء
قائد الجيش! قد رأيت غموذا
ما درى الشيخ أن توحيد فكر
يا إماما لركعة كيف تدري
السابق ص 15.
- (3) إن علم اللاهوت في ملكوت
كلماتي خوافق وسنا الإصباح
السابق ص 22.
- (4) لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوى
السابق ص 22.
- (5) كما أصاب الإنسان في هذه الأر
ض من اسكندر ومن جنكيز

وقوة الدين في اليقين بالنصر القريب. والقوة مسعى إلى الآجلة وليس في العاجلة التي تقطع عمداً المسار الطويل. ولا يستطيع الشيطان ولا اللص إيقافه لأن المال يضيع في حين يبقى الدين منيراً للطريق⁽¹⁾. ويقوي الدين حدة البصر. ويقضي على قصر النظر. ويوضح ما يعرض للزمن من مشكلات⁽²⁾.

والاعتقاد قوة كبيرة. وعندما يؤمن آخر بنفس القضية يكون لها يقين أكثر⁽³⁾. وهي التجربة المشتركة في الظاهريات. في المسيحية الله محبة. وفي الإسلام الله قوة. فكيف الاختيار؟ هل يساعد تاريخ الإنسانية وتاريخ العالم في الاختيار؟ الواقع أن الله يكشف عن نفسه في التاريخ كقوة وليس كمحبة. وهذا لا يعني إنكار محبة الله⁽⁴⁾. الله قوة. والقوة الإلهية أكثر من الحقيقة. فليكن الإنسان إذن مثل أبيه الذي في السموات⁽⁵⁾. القوة لها أثر. تلمس الخطأ فتحوله إلى حقيقة⁽⁶⁾. لذلك إذا سأل أحد الأصدقاء: هل تؤمن بالله؟ فمن حق المجيب أن يسأل عن معني ألفاظ السؤال: الإيمان، الله. والحقيقة أنه من الصعب تحديد معنييهما عند المسؤول وعند السائل على حد سواء لأن الله ليس مفهوماً نظرياً بل هو عملية تحقق⁽⁷⁾.

خسّطر فُزط قوة لعزير
وما أثّل الوري من كنوز
دواء لكل سم نجيز

ويقول التاريخ في كل عصر
هي سبل غناؤه الفن والعلم
وهي سم بغير دين. وبالدين

السابق ص 18.

فكأن القوم في شك مريب
قطعوا عمداً طريق القافلة
لا ولا لنص منا مطنب
وتراث المال قد ولى ضياعاً

قوة الدين في النصر القريب
أين مساعهم وهم في العاجلة
ليس للشيطان فينا مأرب
فترات الدين قد طار شعاعاً

يا أمم الشرق، ص 361.

رغم ما بي من قصور النظر
بعد لأي من ألوف المشكلات

كنت في الدين حديد البصر
وانجلت واحدة بين مئات

السابق، ص 362.

St. Ref., p. 9.

Ibid., p. 10.

Ibid., p. 90.

Ibid., p. 92.

Ibid., p. 5.

(3)

(4)

(5)

(6)

(7)

وشعار التوحيد «لا إله إلا الله». وهو معنى حال في الذات، وسبب سرورها⁽¹⁾. وسيف الذات قاطع بشحد «لا إله إلا الله». وهما فعلا نفي «لا إله»، وإثبات «إلا الله»، هدم وبناء، محو وإثبات، موت وحياة⁽²⁾. «لا» ضد الكفر. و«إلا» للإيمان. التوحيد هو الذي يعيد حياة الأمس انطلاقاً إلى الغد. هو نور سيناء ونارها الذي تجلى الله من خلالها إلى الجبل. فإذا كان الله وراء حجاب فإن صوت منطق العقل جهير، والرسول في ظهور⁽³⁾. «لا» و«إلا» في الشهادة الأولى للنفي، والثانية للإثبات. هما حالان من أحوال الشعور، وليسا مجرد متممة بالشفتين. فالقلوب تدرك هداها بالأحوال والأقوال. «لا» فعل تطهير، يهدد الجور بالزوال. وبعد نفي الظلم يشرق حال «إلا» في الصباح. «لا» و«إلا» حالان يفتحان باب الحياة لتدخل الذات في عالم الوجد والكائنات، يكشفان عن المهانة والضميم، وما يحدث في العالم من ظلم وعدوان. عندما يقوى الرجاء مع اليقين تستطيع الذات أن تقول ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. يدفع النفي إلى التحرك، والإثبات ينتهي إلى سكون⁽⁴⁾.

- (1) مُسْتَبِيرٌ في الذات معني بعيد سيف الذات قاطع غير ناب
 (2) لو لم تسر في الظلام الترب نابتة تقضي الحياة بـ«لا» في البدء نافية إن لم تجئ بعدها «إلا» مثبتة إن أمة روحها لم يعض معتزما ضرب الكلیم، ص 43.
 (3) هب سيفك «لا» لكافري وأبصر لابد من دور بعيد أمسي نورك فيه للذني نصيب أحدث الرحمن في حجاب أيا رسول الله! إن ربي رسالة الشرق، ص 321.
 (4) في مقام التوحيد يشدو خيالي إنما تدرك القلوب هداها حرف «لا» مظهر لسر الجلال بعد نفي الظلام والظلم يبدو «لا» و«إلا» فتع لباب الحياة
- سره لا إله إلا الله
 شحذه لا إله إلا الله
 ما نشرت في فضاء النور أغصانا
 وفي النهاية «إلا» تكمل الشانا
 كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
 عن «لا» فقد أدنت بالهلك إيذانا
- «إلا» ي في كيف في الدني ثور
 في جلوات من غدي يسير
 «سينا» ي كيف فاتها تنوير
 وفي حماك منطقتي جهير
 محجّب وأنت لي ظهور
- بصدى الحق من رجال الحال
 بصفاء الأحوال لا الأقوال
 وهو للجرور منذر بالزوال
 عند «إلا» إشراق صبح الجمال
 واحتماب الوجود والكائنات

وكل من آمن بالله الأحد لا تُذل نفسه يوماً لأحد. ولقد استطاع حتى النمل أن يحمي نفسه من جند سليمان⁽¹⁾. كل شعب يرمي إلى الدفاع عن نفسه بنور التوحيد. فلا يحمي البلاد غير حر سيفه «لا إله إلا الله». حرف النفي «لا» بداية السير في طريق الجهاد نحو المصير. وهو أول المقامات نحو العلي القدير. كل شعب يسير إلى العلا بحرارة التوحيد. يبنى من ترابه صرح دنياه. ويحيا فيه بخلق جديد. «لا» ثورة ضد الطغاة دفاعاً عن الحياة عند الأحرار، ثورة منها يصنع المجدد وتتجدد الكائنات⁽²⁾. ولا يتخلى المسلم عن سيف «لا». ولا يخلو منه غمده. ولا يضعف إيمانه في دنيا المحن بسبب الفتن⁽³⁾. ويناشد إقبال شباب المسلمين، وهم شباب الحق، بتحرير الوجدان من كل شئ سوى الله. وهو استحقاق فعل النفي «إلا». وإذا كانت الدنيا اليوم قد أبلأها القديم فهم قادرون على خلق دنيا سواها في الاسم. ماضيهم يجعلهم غيورين على الدين القويم. وحياة النوع هو الموت⁽⁴⁾. ومن نسي الحق ضاع حظه. ولم ينل غير الإبعاد

وتمضي الأمور في الحادثات
فجواب الأقدار كن فيكون
وعند الإثبات يأتي السكون

لا يُذل النفس يوماً لأحد
ليس يرجو من سليمان عطاء

فبنور التوحيد لا بسواه
سيفه «لا إله إلا الله»
في طريق الجهاد نحو المصير
لرجال الله العلي القدير
للعلى في حرارة التوحيد
ويحيا فيها بخلق جديد
هو عند الأحرار معني الحياة
ويبدو تجدد الكائنات

وأرى غمذك منه قد خلا
زلزلت إيمانه فيها المحن

حرروا ممّا سوى الله القلوب
فاخلقوا دنيا سواهم في الأمم

بهما تفهر المهانة والضمير
حين يقوى مع الرجاء اليقين
يدفع النفي للتحرك والجد
يا أمم الشرق، ص355.

كل من آمن بالله الأحد
إن يكن في صورة النمل خفاء
السابق، ص359.

كل شعب يروم عز حماء
ليس يحمي بلاده غير حر
حرف «لا» آية لبده المسير
إنها أول المنازل طرا
كل شعب يمضي بخطو سديد
يبنى من ترابه صرح دنياه
قول «لا» ثورة أمام الطغاة
ثورة من نضالها يصنع المجد
السابق، ص355.

أسفا لم يبق عندي سيف «لا»
أسفا، إنني أرى دنيا الفتن
السابق، ص361.

يا شباب الحق يا دخر الشعوب
إن دنيا اليوم أبلأها القدم

والحرمان⁽¹⁾. الوجود الأسمى هو وجود المؤمن الحر الأبى الوفي في كل آن. وكل ما سواه مظهر حائر وفعل فان. وحين يشهد أنه لا إله إلا الله يذعن الكون كله ويشرق القمران⁽²⁾.

لو يمس التوحيد فكراً نقياً وضميراً حياً وقلباً أبيعاً لأحال الخمول والضعف إلى إيمان وعزم. يغزو النجوم والكواكب. صيحة «لا» صرخة يطلقها العبيد لكسر القيود، ولإقامة عصر جديد خال من السيد والمسود. لو سرى التوحيد في الصدور ومشى في الضمير لأقدم الأحرار على الهول الذي يتحدى هول أيام النشور. صوت «لا» رعد ليس شكوى أو لحناً. ولو ضاق الفضاء يوماً على الحر لتخطاه إلى الوجود كله⁽³⁾. وما يُبصر حول الفضاء لا يساوي قدره وزن التراب إن لم يصعد إليه الإنسان الحر وفي يده سيف «إلا». لا يحيد عنه، ويحوّله إلى أمر نافذ⁽⁴⁾.

= أين منكم يا ذوي الماضي الكريم
غيرة الأحرار للدين القويم
طال هذا النوم عن صدق حماه
ما أرى الموت سوى هذه الحياة
(1) كل من ضاع حظه من جلال الحق بين الجحود والنسيان
لم ينل طول عمره من جمال الحق غير الإبعاد والحرمان
السابق، ص 351.

(2) الوجود الأسمى هو المؤمن الحر الأبى الوفي في كل آن
وبقايها الوجود فيما سواه مظهر حائل وظل فان
حين يدعو أن لا إله سوى الله القدير المهيمن الديان
يذعن الكون والمكان ولا يشرق إلا بفوزه القمران
السابق، ص 351.

(3) لو يمس التوحيد فكراً نقياً
لأحال الخمول والضعف إيماناً
حرف «لا» صيحة تثير العبيد
ويقوموا في الدهر عصراً مجيداً
لو سرت شعلة الهدى في الصدور
لأقام الأحرار لسهول يوم
صوت «لا» من ذوي صوت الرعود
لو يضيق الفضاء يوماً على الحر
السابق، ص 356.

(4) والذي تبصره حول الفضاء
كل حر في يديه سيف «لا»
فهو للعلياء دوماً في صعود
ثم لا يقبل عنه حولا
أمره النافذ في كل الوجود
السابق، ص 358.

وتتأكد الذات بضياء التوحيد. وثبتت بفعل النفس في شهادة «لا إله». فإذا ما تركت طريق الخليل فإنها تقع في وهم عبادة الأصنام⁽¹⁾. ويوم الفداء يرمي الحر على النجم الهدف. ويناديه الوحي من السماء: أقدم لا تخف. أشرق التوحيد فيه. فسرى التحرير في الضمير. فمن لم يخف إلا الإله لا يرهب السلطان أو يخشى الأسر. تكشف روحه أسرار الخلود عن حياة لا تموت. يرسل التكبير من قلب الوجود، غناء يحيي الروح. ينعم ملوك الأرض في دنيا الغرور، في الملاهي خلف أستار الحرير. ويستطيع العريان الفقير بضربة من سهم أن يزلزل أبراج القصور. يضرب البحر كموسى بعصاه. ويحول الصخر حطاماً كالزجاج. وقد ألزم هذا الفقير في ثوب الفقراء التيجان بالطاعة وتقديم الخراج. الأنهار من بحره. والنار من خمره. وشذا الورد من عطره. وشعلة المجد من فكره⁽²⁾.

التوحيد قادر على شفاء الأمة من الخوف والحزن والبأس، أمهات الرذائل وموانع الحياة. فالوحي يدعو إلى عدم القنوط من الرحمة، وعدم الخوف، وعدم الحزن. والقنوط يؤدي إلى الإحباط والموت. والحياة أمل وعمل. والغم والههم يقتلان. والفرح والمرح يعثان. المسلم يتسم، منير مثل الكوكب، وليس عبوساً متجهماً. لذلك يبشر الوحي المؤمنين بأنهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. لم

(1) لم تحصل من «لا إله» ضياء أصبحت معبدا لأصنام وهم جناح جبريل، ص 458.

(2) أقبل الحر على يوم الفداء وكان الوحي نقاء الشداء أشرق التوحيد نورا في هداه أثرى من لم يخف غير الإله روحه تكشف أسرار الخلود يرسل التكبير من قلب الوجود سل ملوك الأرض عن دنيا الغرور زلزلتهم بين أبراج القصور ضرب البحر كموسى بعصاه ذلك الأبواب في ثوب فقراء قد جرت أنهارنا من بحره بسمة الورد شذا من عطره

يا أمم الشرق، ص 364 - 365.

هذه الذات للطريق الطويل عندما ضيعت حواء الخليل

ومضى يرمي على النجم الهدف من سماء الله أقدم لا تخف وسرى التحرير منه في الضمير يرهب السلطان أو يخشى الأمير؟ عن حياة ما لها في الدهر موت لغة تغنيه عن حرف وصوت في الملاهي خلف أستار الحرير ضربة من سهم عريان فقير ورمى الصخر حطاما من زجاج ألزم التيجان تقديم الخراج وأضاء نارنا من خمره شعلة المجد سنا من فكره

يخف موسى أمام فرعون ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. الخوف يقتل العمل، ويقطع السبل. وإن تكشف للعدو الخوف فإنه يسهل عليه قطع الخائف، ويزداد فتكه. الخوف قيد. وهو أصل كل شر، حليف الذل؟ والمؤمن لا يخاف⁽¹⁾.

لا يوجد مسلم يسأل التوحيد أن يصقل فأسه ليحطم الأصنام كلها ويترك نفسه التي أقام من أجلها الأصنام. ويجعل نفسه طريقاً إلى إسلامه. وأهم صنم الذي شيطانه العقل العليم. خدامه أهل الطريقة، وكتابه العلم الأليم⁽²⁾. لقد ترك الحق الطاغوت ليشيد صروحه. ويكاد الفقير في خضم الجهل يلفظ روحه. وكلمات المبشر تجذب القلب الغرير. ينقصها ذوق الحب. وينقصها الصدق. في حين أن الموعظة تخضع لمنطق دقيق. سرعان ما تخفي رونقه بالعقد والعقائد.

- (1) عدة الموت قنوط مُحيط
إنما العيش رجاء يُوصل
يا سجين الغم أبصر واسمع
إنما المسلم مثل الكوكب
حزز النفس من الغم ودع
قوة الإيمان تحيي فاعلمن
قلبه من «لا تخف» قلب سليم
خوف غير الله قتل العمل
إن تجلس لعدو خوفاً
سيفه يزداد فتكاً في اليد
غلنا الخوف، وكم في بحرنا
كل شر في فؤاد يضر
حرم الخوف طموح الهمة
كل من يفقد سر المصطفى

الأسرار والرموز، ص 89 - 92، المقدمة، ص 49.

- (2) يا مسلماً من يسأل التوحيد يصقل فأسه
ليحطم الأصنام أجمعها، ويترك نفسه
نفس أقام لأجلها ما شاء من أصنامه
ويريدها صنماً يرافقه إلى إسلامه
هذا هو الصنم الذي شيطانه عقل العليم
خدامه أهل الطريق كتابه العلم الأليم

جناح جبريل، ص 512.

والمريد بسبحته أسير. وقع في حبات فخها⁽¹⁾. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء. خمدت حقيقته. وناهت نار الحب في فؤاده. وتحول المتحرق المجنون إلى رماد⁽²⁾.

ويؤول إقبال حكمة «الكليم» أو سياسة الأنبياء في العصر الحاضر على أنها مناهضة الاستعمار، والدفاع عن الاستقلال. فالتوحيد والاستعمار لا يجتمعان. الأول تحرر، والثاني عبودية. فالنبي يصدع بالأمر جهراً على مسمع العالمين. يتحدى بالوحي كل أمير أو سلطان تكبر وتجبر على رؤوس الناس. يرى قصره خليفة دير يعبد الأوثان. فلا فرق بين القصر ودار العبادة، بين السلطان والإله، بين السلطة السياسية والسلطة الدينية. والدين ثورة على السلطين معا. إذ إن كلا منهما يغذي الآخر ويدعمه. فالتوحيد نفى في شعاره الأول «لا إله» قبل أن يكون إثباتاً في شعاره الثاني «إلا الله». يرفض استعباد عبد لعبد أو إذلال إنسان لإنسان⁽³⁾.

التوحيد يشعل الفطرة ناراً. ويجلي الروح. ويحررها من أسر التراث. وتشمل

(1) أسفا لحق بترك الطاغوت يودعه صروحه
ويري الفقير يكاد يلفظ في خضم الجهل روحه
كلماته هذا المبشر تجذب انقلب الغرير
لكن فوق الحب ينقصها، وينقصه الكثير
وله مواءمته ينظمها بدقة منطوقه
ليكنها سرعان ما تخفى بعقدة رونقه
حتى المريد فؤاده بعبود سبوحته أسير
حبات فسخ أوقعته وكان شاهيناً يظهير
السابق، ص 512.

(2) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟
خمدت حقيقته ونار الحب تاهت في فؤاده
فإذا هو المتحرق المجنون يشحط في رماده
السابق، ص 512.

(3) عندما يصدع النبي بأمر الله جهراً في مسمع الأكوان
يتحدى بوحيه كل حكم لأمبر في الأرض أو سلطان
لا يرى قصره سوى رسم دير من بقايا هياكل الأوثان
لا يبيع المقام في موطن الذل ولا يرتضي بيعش الهوان
معلنا في الوجود لا رب غير الله، يُخشى ويُرتجى كل آن
كيف يرضى إذلال عبد لعبد وامتهان الإنسان للإنسان
يا أُمم الشرق، ص 348.

هذه الفطرة العقل والموهبة. ترتبط بالفرد وقدراته دون ما حاجة إلى الجمع والحشد والعروش والتهيجان. توقف ابتهالات الصباح الوسنان. ويعلن الحق الذي به ينقلب الزمن. لا تخاف شيئاً. الوحي يعمر الصدور الخوالي بالإيمان. ويعطي العزم والإرادة في السر والعلن. يملأ فراغ النفس. ويقهر المستحيل بالإمكان. ويوقظ العبد المصنف بالأغلال. فلا تحاك القيود للإنسان وإلا فني مع الفانين. ومن يحارب والإيمان في قلبه يحطم قواعد الأوثان⁽¹⁾.

العمل تحقق للتوحيد في عالم يتحقق فيه العدل. لذلك سمي المعتزلة أهل التوحيد والعدل. والتوحيد دون عدل ظلم. والعدل دون توحيد قد يتغير ويتبدل ويتعارض⁽²⁾. التوحيد إذن تحقيق العدل. هو فعل وليس صنماً للعبادة من صنع النحات أو من وهم العابد، الصنم الحسي أو الصنم المعنوي. التوحيد ليس الصنمية التي يذبح عليها الإنسان تضحية للإله. وباسمها تراق الدماء في النزاعات بين الشعوب. هذا التوحيد ينتشر بالطبيعة. ويبلغ للناس كحركة تحرر في العالم، وتحرير البشر من الجاه والسلطة والمال والقوة، أصنام البشر⁽³⁾.

(1) قطرة من نداء تُشعل نارا في عروق الكروم والأغصان
وُجِئني في قبضة من تراث بعث روح اليقين والإيمان
حارس الفطرة التي فطر الله عليها الأرواح في الأبدان
لا بسامي جلال حكمته العقل ولا عبقرية الفنان
حكمة في غنى عن الحشد والجمع زهور العروش والتهيجان
ابتهالات صبحه توقف انكون فيصحو من ليله الوسنان
وله نظرة من الحق فيها نبأ يعلن انقلاب الزمان
وحيه يعمر الصدور الخوالي بقلوب جديدة الإيمان
درسه العزم والرضا المحض والتسليم منه في السر والإعلان
يتولى ملء الفراغ يحزم يقهر المستحيل بالإمكان
وينادي العبد المصنف هيا لا تحاك القيود للإنسان
فإلى المحو والنبلى كل معبود قديم مع الحطام الغاني
من يحارب وسيفه ربي الأعلى يدمر قواعد الأوثان
السابق، ص349.

(2) من العقيدة إلى الثورة، ج3، العدل، ص5 - 17.

(3) أنت لا تدري بآيات الكتاب أمة العدل يسمينا الخطاب
أنت في الأيام نور وبصر شاهد أنت على كل البشر
أيها التالي الكتاب المنزل شقرون، لا تقعدن عن عمل
يعشق الأصنام عقل الأمم ناحت أو عابد للصنم

مقصد الأمة والداعي إلى الاجتماع حفظ التوحيد ونشره⁽¹⁾. والموضوع يعود ويتكرر من جديد في بداية الركن الأول للرسالة وفي آخره. التوحيد هو الذي يعطي الحياة قصدها. تؤكد مقاصد الشريعة. التوحيد قصد، اتجاه من الله إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى العالم. القصد هو الذي يجمع شتات القوى. ويوجه الطاقة نحو غاية واحدة. وعندما يتحدد القصد يكون الكون كله سبباً لتحقيقه، ووسيلة له. والقصد الأكبر هو العمل. فالتوحيد نظر وعمل، طاقة وحركة. وهو عهد التزم به الإنسان منذ عهد النور الأول⁽²⁾.

وينعكس التوحيد في الإنسان ذي الفكرة الواحدة. لو أراد الإنسان أن يسمعه العالم فليترك فكرة واحدة تسود روحه. إنه الإنسان ذو الفكرة الواحدة الذي يقوم بالثورات السياسية والاجتماعية. ويقيم الإمبراطوريات، ويسن قوانين العالم⁽³⁾.

ب - الرسالة: الرسالة جوهر الدين، وأساس التكوين. والرحمة تجمع الأمة، موجة فوق موجة لا تنفصل. والنبي روح الأمة وعصبها. هو قلب الجسد، ووريد القلب. إذا قطع ذبلت الأوراق. تصحو الأمة بصحوه، وتموت بموته. الرسالة هي

- هو أحيا سنة من آزرا
اسمه لون ودار، ونسب
وعلى أقدام هذا الصنم
قد أخذت الحق عني ما دهاك
الأسرار والرموز، ص 128 - 129.

- (1) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص 604 - 614.
- (2) ينظم المقصد أشتات الحياة
إنما يبقى الحياة المقصد
حينما تدري الحياة المطلبا
إنما المقصود روح العمل
دوران الدم في أعراقنا
ثم في طينك إيماننا بذر
نقطة دار عليها العالم
قوة فيها تدبير الفلكا
كلمة التوحيد منك المقصد
الجهاد المر حلف المسلم

الأسرار والرموز، ص 125 - 127، المقدمة، ص 50.

انتي توحد الأمة. ومن الوحدة تنشأ الكثرة. والوحدة وحدة القصد والهدف، وحدة الفطرة والطبيعة. وواضح أن إقبال يتعامل مع الرسالة بمعنى الرسول، والرسول بمعنى الرسالة، دون تمييز بين الشخص والقضية، بين الوسيلة والهدف⁽¹⁾.

وفي إطار اللغو والكلام، والجدل غير المفيد بين الكائنات، بين النهار والليل، والنور والكلام، وأي الكواكب أكبر وأنور، وأيهما يصارع الأفقار، صدح صوت الأذان صرخة وعظ تصدعت لها الجبال⁽²⁾. وهو إعلان للرسالة والأداء والمبادرة والعمل: حي على الكفاح، حي على العمل.

قصد الرسالة تمكين الحرية والمساواة والأخوة بين البشر. والرسالة لا تنسب لمبلغها وهو الرسول فتكون الرسالة المحمدية بل لمضمونها وغايتها وهو الإسلام. ولا يشتق اسم الإسلام من اسم مؤسسه كما هو الحال في المسيحية المشتقة من المسيح أو الموسوية المشتقة من موسى أو الكونفوشيوسية المشتقة من كونفوشيوس. وتذكر الحرية والإخاء والمساواة بالمبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية،

(1) بالرسالات بدا تكويتنا
نحن مما جفعتنا أمة
موجنا في بحرهما متصل
فالنبي الروح فينا والعصب
سفره في القلب تبع القوة
قطع جبل منه للموت رديف
حيث الأمة من تزيافه
وحد المرسل فينا النغما
كثرة الألف عين الوحدة
وحدة القصد حياة الكثرة
علم الفطرة خير الرسل
بحره أخرج هذا الجوهر
هذه الوحدة مالم تفقد
ختم الله علينا شرعه
محفل الأيام منا باسم
إنه قوة هذه الملة

السابق، ص 95 - 97، المقدمة، ص 49.

(2) فعلا صوت أذان
يا لها من صرخة وعظ
جناح جبريل، ص 531.

شرعنا منها ومنها ديننا
أرسلت للناس فيها الرحمة
موجة من موجة لا تفصل
وإلى القلب من الرب أحب
شرعه جبل وريد الأمة
كذبول الورد في ربح الخريف
صباحها نور من إشراقه
والطوايف والمنى والألما
ومن الوحدة نشأ الأمة
مقصد المسلم دين الفطرة
فمضينا للهدى كالشعل
نحن روح واحد منه سرى
تحفظ المسلم حتى الأبد
وعلى المرسل فينا بعثته
ختم الرسل بنا والأمم
إنه سر اتحاد الأمة

بينما هم في جدال
صدعت قلب الجبال

وهي مضمون الرسالة الإسلامية. أما الديانات الأخرى فقد قامت على عكسها، القهر والغلبة ونظام الطوائف. وهو موقف دفاعي وعظمي يقوم به أنصار كل دين. فقد عبدت الإنسانية الأصنام. وعبد الناس قيصر وكسرى. ونهب القساوسة والملوك الحقوق وأرزاق الناس. وباعوا الجنة بصكوك الغفران. ومارسوا الرق باسم الدين⁽¹⁾. أما الرسالة الإسلامية فهي رسالة حق وتحرير للبشر، والرقابة على الحكام. وهي رسالة الفتح، وتبليغ الرسالة. تصدق الرسالات السابقة. وتوحد بين البشر في أخوة الإيمان. وتساوي بين الناس. فالمساواة أمر فطري⁽²⁾.

لقد حول التوحيد العرب إلى أمة مبدعة، ذات حضارة ومجد، آية كبرى في التاريخ. حرروا أقدامهم بالعزيمة والإرادة في كل أرجاء الكون. وتحطمت الأصنام، اللات والعزى. وبفعل «الله أكبر»، زالت أعلام كسرى وقيصر. وحدوا الخلقة في أمة واحدة، ينعكس فيها التوحيد. من تحدى نارها فني. وقضت على كل جبار عنيد. أعادوا بناء الدنيا، وأعادوا خلقها من جديد، وأيقظوا الناس بالآذان، فجرى الحق على كل لسان. أزال العرب من كل القلوب نقش غير «الله». فأقاموا ثورة الإيمان في كل الأرض، شرقاً وغرباً. فحطم العبيد القيود. وثاروا على ساداتهم. واستردوا حرياتهم⁽³⁾.

- (1) عبد الإنسان أصنام البشر
قيصر العسف وكسرى قيّدا
ومن القميس والمثلث طلاب
نصب الأشراك للصيد الضرع
حقله قد عاث فيه الهرممن
أضعف الرق لديه الهمما
- الأسرار والرموز، ص 97 - 98، المقدمة، ص 50.

- (2) خط في العالم سطرأ مبدعا
إخوة فيها جميع المؤمنين
المساواة لديها فطرة
- السابق، ص 99.

- (3) يا لها ذكرى لأمجاد العرب
حرروا أقدارهم بالعزمات
لم تذم عَزَى ولم تبق مناة
حين نادى المؤمنين «الله أكبر»
هؤلاء العرب الصّيد الأبناء
- أية كبرى وتاريخ عجب
في جميع الكون من كل الجهات
هوت الأصنام تحت الضربات
زال كسرى وانطوت أعلام قيصر
وحدوا الخلق بتوحيد الإله

6 - انتظام الأمة بالشرعية

شرعية الأمة القرآن. الأمة دون شريعة مثل كتيب من الرمال، لا قوام لها. بسرعة تنهار. لذلك وُضعت الشريعة للحفاظ على وجود الأمة وشريعتها القرآن، مع أن الشريعة وضعية تقوم على أحكام الوضع أي على وجود الفعل في ظروفه مثل السبب والشرط والمانع كما حدده الأصوليون القدماء خاصة الشاطبي. والقرآن كتاب مسطور لا ينطق. إنما ينطق به الرجال. له تأويلات طبقاً لظروف كل عصر. به حقيقة ومجاز، وظاهر ومؤول، ومحكم ومتشابه، ومجمل ومبين، وخاص وعام، وأمر ونهي. زجاجة يكسر الحجر. يصدع منه الجبل. تخشى منه الأفلاك، ويُسترق إلى سمعه. قراءة القرآن تحرر. والكفر يقيد، مما يستدعي تحديداً دقيقاً، لو كان ممكناً، للإيمان والكفر بمفاهيم جديدة من شاعر مصلح. والكتاب به كل شيء «الكتاب هو الحل». وهو إحدى المقولات الحالية للحركة الإسلامية المحافظة⁽¹⁾. ويقترب فهم القرآن من الطريقة الصوفية، الفهم بالقلب في حالة الفقر⁽²⁾.

من تحدى نارها أضحى هباء
وأزألوا كل جبار عنيد
وأقاموها على النهج الرشيد
فجرى الحق على كل لسان
نقش غير «الله» علام الغيوب
ثورة الإيمان في كل الشعوب
حظمو القيد بعزم من حديد
واستردوا أمن حرياتهم

ككتيب من رمال وهنا
ذلكم باطن دين المصطفى
حكمة في الدهر تبقى لا تريم
يستمد النكس أئدا من قواه
آية لا لبس أو تأويل فيه
وبها يرمي الزجاج الحجرا
وعلى الأفلاك منه وجل
فغدا بالحق حرا لا يمين
سنن الكفر لك المسجن المقيم

الأمراء والرموز، ص 111 - 113، المقدمة، ص 50.

شعلة من نورها الحق أضواء
قد أبادوا كل شيطان مريد
انشؤوا دنياه في خلق جديد
أيقظوا الدنيا بتكبير الأذان
قد أزال الغرْب من لوح القلوب
فأقاموا في شمال وجنوب
فترى في أمم الغرب العبيد
أعلنوا الحرب على ساداتهم

يا أمم الشرق، ص 357.

أمة خلت يدها السنننا
سيرة المسلم شرع وكفى
الكتاب الحي والذكر الحكيم
إن فيه سر تكوين الحياة
لفظه لا ريب أو تبديل فيه
قوة فيه تشد الخورا
الذي يصدع منه الجبل
قرأ الدرس من الآي المبين
إن إيمانك في قيد الرسوم

سكر الصوفي من أحواله

وانتشي باللحن من قواله

=

(2)

وكمال سيرة الأمة إتباع الشرع الإلهي. والشرع الإلهي ليس به ظاهر وباطن بل هو على الواضحة، ليلها كنهها. فإقبال ضد الباطنية. الشريعة هو العلم الحق، وهي السنة. وهي نظام الأمة، وقوام الإسلام. وضعها الشارع، وكتبها في اللوح، لوح القدرة. وهو أقرب إلى صورة موسى حامل الألواح. وهو التصور الشيني للشرعة. هدف الشريعة شحذ العزم، والحث على العمل، وورقي البشر. تتأسس في الحياة لأن الإسلام دين الحياة⁽¹⁾. تفهم طبقاً للسان العرب وليس لسان العجم. ثم ينتقل إقبال من اللغة إلى الفكر ثم من الفكر إلى القوم. فمهما ارتقى العجم فإن رقيهم يهوى دون الشرع. ونصيحة الإمام المرشد، وهو تصور أقرب إلى الشيعة، تقوية القلب بالشرع وإتباع فهم العرب له⁽²⁾.

الشرعية الحقة تنبع من الفطرة، من القلب، من الضمير. إذ يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق الضحى بالنور. فلو تبدل الحلال حراماً والحرام حلالاً لغاب الضمير. والعدل شامل، يعم كل الدنيا ليوم النشور. حكمة الدين الالتزام بالشرع أي بالضمير. والعيش بها هو عيش الصفو والرخاء والنصرة والنعيم. طاعتها

ومن القرآن أقوى وخلأ
مقره يجبي رباطاً للفقير
كل ما تبغيه منه فاطلبين

ليس إلا النور تحوي الدرر
جوهر باطنه والظاهر
ليس غير الحب أصل السنة
ترتقي منه مقامات اليقين
ومن التنظيم دوام الأمم
بدؤه الشرع وبالشرع الختام
نك هذا اللوح، لوح القدرة
ويرقيك لأعلى منزل
شرعه للناس قانون الحياة

احذرن يا صاح فكر العجم
فهو من سنننا قد مرفأ
استمع نصيح الإمام المرشد
واتبع العرب تُصب شرعنا

قلبه شعر العراقي تلا
تاجه والعرش صوف وحصير
لكناب الله حق فاقرآن

السابق، ص 112 - 113.

(1) لا تقل في الشرع معنى مُضمّر
جوهر أبدع فيه القادر
ليس علم الحق غير الشرعة
شرعنا للفرد مراقبة اليقين
شرعة الحق نظام الأمم
قام للإسلام بالشرع قوام
كتب الشارع رب الحكمة
يشحذ المعزم بنار العمل
إن دين المصطفى دين الحياة
السابق، ص 115 - 118، المقدمة، ص 50.

(2) قال يوماً لمريد فهم
فكرهم إن كان للنجم ارتقى
يا أخي فاسمع لهذا الرشد
وبهذا الحق فاشدد قلبك
السابق، ص 117 - 118.

تجعل الكون مطيعاً والأمن عاماً، والحياة كريمة. لا تأتي أوامر الدين غصباً وقهراً بل من رغبة وشوق ورضا. فالإيمان حرية ونشوة، وليس قهراً وحزناً. حكمة الدين في العدل والحب، وليس في الطغيان والبغض، وألا يحتاج على الأرض إنسان الرزق من إنسان⁽¹⁾.

حسن سيرة الأمة التخلق بالآداب المحمدية. ويعرض إقبال القضية عن طريق حوار بين والد وولده، واعتراف الابن بأن العقل أيام الشباب لا يبالي بضلال أو صواب. وعرض الوالد لإقناع ابنه بضرورة التخلق بالآداب الإسلامية التي يسميها إقبال «المحمدية» على عادة المستشرقين بتخيل يوم الحشر، ووضع الغزاة في سبيل الله والشهداء والعلماء. فماذا يقول الأب تجاه الطفل المسلم الذي لم يترب بآداب الكتاب؟ التربية على الفطرة هي التربية على الكتاب من أجل خلق ذات كاملة أو بطل كالصقر يغشى البحار دون القبوع في خلوة الصحراء. هذه هي أخلاق النبوة⁽²⁾.

(1) من صميم الحياة. من فطرة الله، من القلب، من لقاء الضمير يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق النضحي بالنور فلو أن الحرام يبدو حراماً يحجز الناس عنه وعي الضمير يصبح العدل شاملاً كل أرض في الحياة الدنيا ليوم النشور من ضمير الرسول أينع هذا الدين في غرسه وطاب جناح عش بأحكامه تر العيش صفوا ورحاء أو نصرة ونعيم ما وأطع أمره تطعك البرايا وترى الأمن حيث كنت مفبما قد حباك الإله أحسن تقويم لتحيا خلقا سويا كريما وتقبل أوامر الدين بالرغبة والشوق والرضا كل وقت وأن كل فرض تفطيه جبرا وقهرا لا ترى فيه نشوة الإيمان حكمة الدين في العدالة والحب ليست في البغض والطغيان وبأن لا يحتاج في الأرض إنسان ليحظى بالرزق من إنسان يا أُمم الشرق، ص 368 - 369.

(2) إن هذا العقل في شرح الشباب قال لي الوالد: يوم المحشر الغزاة الغر من أمته وانجوم الزهر أرباب الصفاء وأولو العلم وأرباب القلوب قد حباك الحق طفلا مسلما لا يبالي بضلال وصواب تلنقي أمة خير البشر وأولو الميراث من حكمتهم حجة الدين فريق الشهداء وأولو الزهد وأصحاب الذنوب لم ننله من كتابي مغنما

وفي قصيدة بعنوان «في أسرار الشريعة» يعبر إقبال عن مقاصد الشريعة أي المصالح العامة بداية بالأموال. فحفظ الأموال حفاظ على الدين. وعدة النضال. إذ يزكو صلاح الرجال بصلاح الأموال. والغنى في ذاته عبودية للمال، وليس عبودية للإله. وكثيراً ما أتى الإصلاح على يد المعدمين. وكثيراً ما عم الكساد خزائن مال المترفين وأهل الأهواء. يضحون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين. لا يخافون حساباً من المصير بل من غضبة الثائرين. يأكلون التراث نهياً، ويجمعونه بخلا. يأكلون خبز الأجير، ويسرقون حق الفقير. ينهبون حق العامل المسن الخاشع الطرف الخافض الجناح والذي يواصل الليل والنهار أنينا وفي بؤس وشقاء. ليس في بيئته رغيف ولا تستر جسده إلا أسمال. يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال. والغنى يبني القصور. أما من يجعل المال سبيلاً إلى كريم الفعال فإنه يربح الدارين. أما الأغنياء فإنهم حيارى. لا ينظرون إلى الإله بل إلى رأس المال⁽¹⁾.

هين الأشياء قد شق عليك
فطرة المسلم طمراً رافة
إن تكن صقراً فلا تغش البحار
طينة المسلم در يا بني
صاح! من تمس الضحى كن أنورا
لم يصر ذا الطين إنساناً لديك
قوله والفعل كل رحمة
ليس إلا خسوة الصحراء دار
ماؤها والنور بحر للنبي
كن ضياء ليس يخبو الدهرا

الأسرار والرموز، ص 118 - 121، المقدمة، ص 50.

(1) إن حفظ الأموال من أجل حفظ الدين زاد وعدة للنضال
قد أبان الرسول أن صلاح المال يزكو به صلاح الرجال
إن يكن همك الغنى لم تكن له عبداً بل أنت عبد المال
كم شهدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهل الخصاصة المعدمين
كم وجدنا الكساد من خازن المال وأهل الأهواء والمترفين
هم يضيّقون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين
لا يخافون في المصير حساباً بل يخافون غضبة الثائرين
يأكلون التراث جمعاً وبخلاً ثم هم يأكلون خبز الأجير
وتزيد المأساة رعباً وهولاً عندما يسرقون حق الفقير
يقف العامل المسن لديهم خاشع الطرف خافض التعبير
يصل الليل بالنهار أنينا دون جدوى في بؤس عيش مرير
ليس في بيئته الرغيف ولا يستتر من عريه سوى الأسمال
يبني القصر وهو يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال
نال ربح الدارين من جعل المال سبيلاً إلى كريم الفعال
هم حيارى لا ينظرون بنور الله بل ينظرون رأس المال
يا أمم الشرق، ص 367 - 368.

ويتحول رأس المال إلى دافع للعدوان كما قيل من قبل «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية». إذ يستوي عند الرأسماليين الحلال والحرام. يتبعون أساليب الخداع. ويخربون الديار باسم التعمير. تعتدي دولة على دولة أخرى ظلماً. ويبغي قطر على قطر عدواناً. يزرع الكادح الحقول. ويأتي غيره لجني الثمار⁽¹⁾.

7 - التقليد والاجتهاد

التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد. وهي قضية متشابهة. إذ يرى إقبال التقليد أولى من الاجتهاد في زمن الانحطاط، حفاظاً على التقليد، وتمسكاً بالسنن مثل عصره المملوء بالفتن والشُرور. فاللجوء إلى الماضي خير سبيل لمقاومة الحاضر. والتقليد هو سبيل النجاة، وجمع الأمة، والحفاظ على السنن. هكذا فعل بنو إسرائيل زمن الأسر البابلي بالتمسك بالتراث والتقليد. فجمعوا التوراة. وظهرت لديهم الطقوس كمؤشرات على التماسك الاجتماعي. كما ظهرت لأول مرة أمور المعاد كنوع من الأمل في المستقبل وكما لاحظ إسبينوزا من قبل⁽²⁾. وحال المسلمين اليوم يقتضي التقليد تمسكاً بالتوحيد. والاجتهاد قد يؤدي إلى الفرقة. والافتداء برسوم الأولين خير من اجتهاد الفاضلين. فقد أجاد الآباء. وتمسكوا بالشرع، على عكس جهل اليوم، والانحراف عن الدين. فالتمسك بحل الله طريق النجاة، خوفاً من الاندثار من هبوب الرياح⁽³⁾.

قد يتناقض القول بالتقليد والقول بالاجتهاد في نفس الوقت وفي نفس

(1) يسنوي الحل والحرام ندي القوم وأين الدجي من الأنوار
فأساليبهم مخادعة الخلق وتعميرهم خراب الديار
دولة تعتدي على دولة ظلماً وقطر يبغي على أقطار
كادح يزرع الحقول فيأتي غيره عاجلاً لجني الثمار
السابق، ص 368.

(2) إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ط3، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص 205 - 206.

(3) عصرنا هذا مليء بالفتن
محفل الماضي فيه مقفر
شعلة التوحيد فينا سلباً
وإذا ما اعتل تقويم الحياة
سنن الآباء حبل الملة
حال إسرائيل فيها تبصرة
طبعه خلق شرور ومحن
صوحت فيه حياة تنضّر
ناره والنور منا سلباً
فمن التقليد للقوم نجاة
ومن التقليد جمع الأمة
إن تكن روحك روحاً مبصرة

العصر. وإلا فقيم «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وفيه الدعوة إلى الاجتهاد في العصر الحاضر؟ إن الاجتهاد ساعة الخطر قد يكون أقل ضرراً وأكثر نفعاً من التقليد. وقد لا يكون في تقليد القدماء حل لقضايا العصر التي تتطلب اجتهاداً جديداً. وقد تكون مآسي العصر مدعاة إلى الاجتهاد وأكثر التحاماً بالواقع من الهروب إلى تقليد القدماء. وتعدد الاجتهاد ليس اختلافاً بل هو تعدد في الرؤى، وكلها صحيحة. فالصواب متعدد، وليس واحداً. هنا يبدو الجانب المحافظ لدى إقبال. وقد دعا كل المصلحين قبل إقبال مثل الشوكاني والأفغاني ومحمد عبده للاجتهاد في نفس الظروف، ظروف الاحتلال والقهر والتخلف والتجزأة⁽¹⁾.

وفي نفس الوقت، ينقد إقبال الفلسفة الهندية التي تقوم على التقليد. ويدافع عن الإسلام الذي يقوم على الاجتهاد. فكيف تكون الهند مصدر حكمة وفلسفتها تقوم على التقليد؟ تخلص من لذة السعي والبحث عن الحقيقة. لا تعرف جرأة العقل ولا الشوق إلى الفكر. التقليد أسر، والاجتهاد تحرر. بل إن الإسلام الهندي وقع في التقليد الأثير في الفلسفة الهندية. فطبع الفقه في الهند بطابع التقليد. إن عظمة القرآن أنه ترك للناس حرية الإبداع، وليس منهج العبيد⁽²⁾.

= انظرون كيف ابتلاها الزمن
عصرت عنفودها كف الخطوب
الأسرار والرموز، ص 113 - 114، المقدمة، ص 50.

(1) يا من انفض له جمع وجاه
آية التوحيد في القلب اسطرا
اجتهاد في زمان القهقري
اقتداء برسوم الأوّلين
لم يُصب أباًؤنا بالهوس
فكرهم كان رقيقاً مرهفاً
فكر الرازي ونجوى جعفر
ضيق الدين علينا يسره
قد جهلت الدين عنه حائداً
باح لي بالسر ناض الحياة
وحدة الشرع حياة الأمة
نحن طين وهو قلب لا جرم
فانتظم في سلكه كالدرر
السابق، ص 114 - 115.

(2) حكمة الدين كما قد زعموا
عُلمت في الهند من أي طريق؟ =

8 - حاجة الأمة إلى مركز محسوس (البيت الحرام)

وقد يتناقض ذلك مع رفض ربط الأمة بالمكان. فالبيت الحرام مكانه في مدينة وعلى أرض وفي خطر. إنما هو رمز الوحدة. والوحدة قد لا تكون في المكان بل في الزمان. قد تكون وحدة النضال ووحدة الشعوب المقهورة كما حدث في عصرنا من وحدة شعوب باندونج، آسيا وأفريقيا والعالم الثالث. فالمركز ليس مكاناً بالضرورة بل قد يكون الإقليم القاعدة أو البؤرة الثورية. الخوف من المركز المكاني التسلط على الأطراف. ويلجأ إقبال كالعادة إلى تجربة بني إسرائيل في عدم الاحتفاظ بالمركز. فتشتوا في البرية. وقد يعطي ذلك حجة لإسرائيل حالياً لشرعية تأسيس الدولة، واحتلال القدس، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان باعتباره مركز اليهود في العالم⁽¹⁾. ووحدة المركز في المؤتمر السنوي العام أثناء الحج للمسلمين لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة. وتنتهي المنظومة بشكوى للرسول، وتمنيه أن يموت بالحجاز⁽²⁾. انطلقت جميع الألحان من بلاد العرب.

لا ولا فيها من الفكر العميق
محفل يهفو إلى الفكر مشوق
أنفوه وزوال التحقيب
كم فقيه مُبعد من توفيق
ما هدي المؤمن منهج الرقيق

مركز فيه حياة تنتظم
نقطة، فيها محيط، ضامرة
ومن المركز للقوم دوام
لحننا والوجد فينا انحرام
روحنا الغالي، ونحن الجسد
واصلنا محدثنا بالقدم
فهو صبح قد حوى صدر له
أحكمت من وحدة قوتنا
إن هذا الجمع سر الحرم
قوم موسى عبدة فدعبر
فتراهم في البرايا قطعنا
سيظروا بالحق بين العالمين

= ما بها لذة سعي دائب
أين منهم جراءة العقل لدى
أه للتحليل والأسر بما
بذلوا القرآن لا أنفسهم
وكفى القرآن نقصاً أنه
ضرب الكلم، ص132.

(1) هكذا سنة ميلاد الأمم
إنما المركز روح الدائرة
ومن المركز للقوم نظام
نقطة المركز منا الحرم
نفس في صدرنا يتفقد
صوتنا يندى به في الأمم
وحد الملة طوف حوله
وحدث في حسبه كثرتنا
إن في الجمع حياة الأمم
أيها المسلم يا ذا البصر!
زهدوا في مركز قد جمعا
من خشوع المسلمين الأولين

الأسرار والرموز، ص122 - 125، المقدمة، ص50.

(2) السابق، ص المقدمة، ص51.

وسمعتة الفرس والمغول. وتسمو الحضارة إذا كان لها مركز يجمعها كالحرَم. وقيثارة إقبال أعجمية لكن لحنها حجازي⁽¹⁾.

9 - بقاء النوع الإنساني بالأمومة

المرأة أصل النعمات ومع ذلك عزف الرجل من محنتها. ربت في حجرها على العشق والجمال من ألحان صدرها. قرنها الرسول بالطيب والصلاة في حديثه المشهور: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة». فمن الجهل عدم تعظيم الأم. فهي رحمة للعالمين. ينتسب إليها الرسول. تصل الرحم. والجنة تحت أقدامها. تعليمها واجب كما قال شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق⁽²⁾

وتضل الأمة عندما تفضل الأم، وتنهر بالغرب، وتثور على الأوضاع. حربتها أصل البلاء، وفقدان الحياء. علمها ينسها واجباتها، تربية الأولاد والحفاظ على الأمة والملة. وهنا يبدو إقبال المحافظ مرة أخرى في تصوره التقليدي لدورها حماية لها من الانبهار بالغرب⁽³⁾. وهو ما يحدث لفتاة القرية الغرة الخالية من التعليم.

(1) كعبة الغرب أطلقت كل لحن
كيف تسمو حضارة ليس فيها
صوت قيثارتني التي سمعوها
جناح جبريل، ص 466.

(2) نعمات المرء عزف المرأة
عشق الحق رباه حجزها
الذي قد بهر لكون سنه
إنما الأم علينا رحمة
رأفة المرسل في رأفتها
ومن الأم علت أقدارنا
إنما الأمة من وصل الرحم
قال خير الخلق، وهو الحجة
الأسرار والرموز، ص 135 - 136، المقدمة، ص 51.

(3) هذه الغرة بنت القرية
حية العين، كهام المغول
ألم الأم عليها بثقل
عيلة الجسم وغفل الشحنة
دون تعليم وصفل الصيقل
وجهها بعرب عما تحمل

ونموذج السيدات فاطمة الزهراء وكأن عند إقبال بقايا تشيع. ويسترسل إقبال في مدح فاطمة. فهي أفضل من أم عيسى ذات النسبة الواحدة. وفاطمة لها ثلاثة أنساب: بنت الرسول، وزوج علي، وأم الحسين. ويصل الأمر بإقبال إلى حد التعظيم والتبجيل أنه يطوف حول قبرها إجلالاً لها، وينثر سجداته حولها⁽¹⁾. الأولاد من صنع الأمهات. وما فيهم من خير من طبعهن وغرزن. تطيعها الأرض والسما إذا أطاعت بعلها.

بل إن التعلم عن طريق تلقين الأم ويكل ما لديها من عواطف الأمومة هو بداية الوعي الذاتي، والتربية الوطنية، وحمل الرسالة، وفعلاً النفي «لا إله» والإثبات «إلا الله»⁽²⁾.

صبحنا يشرق من إظلامها
مسلماً حقاً عظيم النجدة
باطن المرأة فيه عطلا
وترى الثورة في مقتلها
حين طاشت عينها بالنظرة
إن حريتها فقد الحياة
لم يطق أعياء أم علمها
ليتها تغسل من حلتها
في ذكاء ونشاط وعمل
وقوى قرآننا والملكة

بشلات تزدهي فاطمة
خاتم الرسل وخير الآخرين
أسد الله الحكيم الفيصل
حسن خير حليم وحسين
في الفم القرآن، والكف الرحي
في مصلاها يفوق الجوهرا
والتي شرع الرسول المنتهي
ناثراً من سجداتي حولها

بالنسبم بُرعما قد فتحت
فَعَزَزْتُ وبِحسمن صَوَّرَك
علمتك «لا إله» في الشرر
ليكون الجسم كالمسك الفتيق
شعلة في القش والأطواد صارت

أمرنا يحكم من آلامها
إن تهب من حجرها للأمة
والتي رقت وخفت حملا
شع نور الغرب في فكرتها
قطعت أوصال هذي الأمة
إن حريتها أصل البلاء
ليلها ما ضاء فيه نجمها
ليتها لم تنم في روضتنا
إنه أولادها ملء الأمن
تحفظ الأم إخاء الأمة

السابق، ص 136 - 137.

أم عيسى نسبة واحدة
قرة العين لخير الأولين
وهي زوج المرتضى ذا البطل
وهي أم السيدين الأكرمين
نشئت ما بين صبر ورضى
معها من خشية الله جرى
أنا لولا الشرع عن هذا نهى
طفت حول القبر إجلالاً لها

السابق، ص 138 - 139.

درسك الأول أم لَقْنَت
ونسيم الأم هذا عَطَّرَك
دولة للخلد منها بلدتها
«لا إله» قل ومن روح عميق
إنها شمسا وبدرا قد أدارت

يخاطب إقبال المرأة المسلمة أينما كانت. فالنور من نارها، والحصون من أستارها. في طهارتها الدين، وفي دينها الرحمة. تعلم الأطفال التوحيد. ومن حبها تنشأ الأقوال والأفعال. بها تتوحد الأمة. وينصحها إقبال بالتمسك بنهج السلف. ويحذرنا من فتنة العصر. ويطلبها بضم ولدها إلى صدرها حماية له من غوائل الزمن. تكون في خطر إذا ابتعدت عن عشها، فتطير فراخها. نموذجها فاطمة. فقد تنجب الحسين⁽¹⁾.

10 - توسيع حياة الأمة لتسخير قوى العالم

كل شيء سوى الله من أجل تسخير العمل، وتعرض الصدر للرمي دون خوف. والتسخير لعالم الحس للسمو به. وكل ما في الكون للتأمل فيه ثم لتسخيره. فالنائم الذي طالت غفلته وارتبط بالحس فجفته همته عليه النهوض وفتح البصر والنظر إلى العالم دون احتقاره⁽²⁾. فالذات بطبيعتها في العالم، يصارع الزمن بسيفه

بل هما في كف مضارب حسام
إنها ضرب أقد من ضربها

عرُضنا في الصون من أشارك
قوى الدين به والأمة
كلمة التوحيد من قبل الكلام
فعلنا، أقوالنا، أفكارنا
ونما التوحيد في أحجارك
بك ينمو رأس مال الملة
لا تبالي بجديد أو تلف
وإني صدرك ضمي ولذلك
هذه الأفراخ، لما تطر
فاتبعي الزهراء، نعم الأسوة
فتري النظرة روضات ذوين

صدره للرمي، فاقذف لا تبلى
لترى سهمك فيه يمرق
ومن الذرة يخرج عالما
لوح تعليم لأرباب النظر
عالم انحس جفته همته

يا لها حرفين ليسا في الكلام
نارها نصر مبين عشى بها
جاويد نامه، ص 326.

(1) مُشعل مصباحنا من نارك
خلقك الطاهر فينا رحمة
طفلنا علمته حين الفطام
صيغ من حبك أطوار لنا
ضاء دين الحق من أنفاسك
بك يخضر غراس الوحدة
لا تسيري غير نهج السلف
احذري فتنة عصر مهلك
بعدت عن عشها في خطر
فيك سمو للمعالي فطرة
عل غصنا منك يأتي بحسين
الأسرار والرموز، ص 139 - 140.

(2) ما سوى الله لتسخير العمل
ما سوى الله تراه يخلق
من يسخر عالم الحس سما
كل ما في الكون من بحر وير
أيها النائم طالت غفلته

لاختبار قوته وعظمته. فالحق في تناول الخيرين المؤمنين. والدنيا ميدان للطعان، ومحك للمؤمنين. إن لم يأسرها الإنسان تأسره. وإن لم يسيطر عليها تسيطر عليه. وإن كان الإنسان يسير على الأرض بقدميه فخطاه تصل إلى أعالي السماء. والإنسان خليفة الله في الأرض ونائبه. يحقق كلمته في الأرض كنظام مثالي للعالم. يحول الضيق إلى سعة. وقد علمه الله الأسماء وانحنت له الملائكة⁽¹⁾. هو أعظم الكائنات. كل شيء في العالم مسخر له⁽²⁾.

لا تُحْفَر عاتما قد حُفِّرا

وامتحان لصفات المسلم
لترى أن دما في الابدن
اختبر عظمك في ذي الصدمة
وجلاها لعيون المؤمنين
هذه الدنيا محك المؤمن
لا تضع في جوفها جوهركا
والذي يجتاز آفاق السماء
فهو في الأرض وفي النجم خطاه
لترى فيه بأعلى مستوى
حكمه في الأرض ماض حاكم
ولأعمالك فيها فسحة
ابصروا في الراح معنى مضمرا
حين في الكون أجال البصرا
كيف في آفاقها لا ننظر؟
حكمة الأشياء نصر الآدمي

= قم وفتح بصرا قد نكرا
السابق، ص 129 - 130، المقدمة، ص 51.

(1) إنه توسيع ذات المسلم
هو يبلوك بسيف الزمن
اضرب الصدر بفهر القوة
جعل الحق الدنئ للخيرين
هذه الدنيا طريق الضمّن
فأسرّها قبل أن تأسركا
أدهم الفكر الذي يطوي الفضاء
ساقه في الكون حاجات الحياة
يبغني في الكون تسخير القوى
نائب الحق، بحق آدم
لك من ضيفك، منها سعة
افتتح المعين وأنعم نظرا
كم ضعيف في قوي أمرا
أبها المقصود من أمر انظروا
علم الأسماء فخر الآدمي

السابق، ص 130 - 131.

(2) ضرب الكلیم، المدخل، ص ك.

الباب الثاني

جدل الذات

الفصل الأول

إثبات الذات (التأويل)

1 - التجربة والنص

يعني جدل الذات، إثباتها ونفيها. إثباتها عن طريق التجربة الحية وقراءة النص القرآني استنباطاً منه أو استقراء من الحياة، ونفيها في التصوف. إثبات الذات تأويل، ونفي الذات فناء. فالقرآن والتصوف نقيضان.

كان إقبال يعيش التجربة أولاً ويفكر فيها. ثم يحاول التعرف على أسبابها إما برؤية الأنا في مرآة الغرب إجابة على سؤال لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ أو في أصلها ومنبعها الفكري وهو القرآن الكريم. لم يبدأ التفسير عنده من النص استنباطاً لمعانيه طبقاً لقواعد اللغة العربية بل بالواقع الذي يصوره الناس، سبب النزول، الواقع الحالي، وليس سبب النزول الأول كواقعة مثالية أولى تتكرر في كل زمان ومكان⁽¹⁾.

التأويل هو الذي يحيل الواقعة إلى تجربة ذاتية. فالمعراج لا هو واقعة حسية مادية ولا هو محض خيال، بل هي تجربة ذاتية للشوق والصعود وطلب المعالي، والذهاب إلى ما وراء الحجب، والرغبة في كشف الأسرار ورفع الأشياء والطموح⁽²⁾.

(1) كان يقرأ القرآن بعد صلاة التهجد، ويتدبر في آياته، ويتفكر فيها، وتنهل دموعه على المصحف فتبله. ويأخذه الخادم لتجفيفه في الشمس. وهي نفس الحكايات حول الحسن البصري الذي كان يترك وراءه بركة من الدموع وهو ساجد من خشية الله. سمير عبد المجيد: مقدمة الأسرار والرموز، ص 6 - 7.

(2) وفرة طار فيها الشوق صاعدة تغير في عَرَصات الشمس والقمر =

واستشهاد إقبال بالآيات القرآنية استشهاد بعدي وليس استشهاداً قليلاً. وكل استشهاد هو بعدي بالضرورة كنوع من البرهان الخارجي عن طريق سلطة النص. يعرف المفكر أولاً شيئاً بالعقل والمشاهدة ثم ينتقي النصوص المؤيدة له. وقد اعترف شهاب الدين السهروردي صاحب «حكمة الإشراق» بذلك. فقد عرف ما عرف عن طريق الحدس أو الكشف أو الإلهام ثم وجد البرهان عليه بعد ذلك. هذا هو طريق الحكيم المتأله، الموغل في التأله والموغل في البحث. وتدعيماً لإنسانية الإسلام وكرامته الجامعة وعدم تفرقه بين الطوائف والأقوام يستعمل إقبال «النص»⁽¹⁾.

ويصرح إقبال بأن منظومة «الأسرار والرموز» لها أسس قرآنية. فقد جاءه الكشف وهو يقرأ آية بعد أن عاش تجربة المسلمين في الهند، تجربة الضياع⁽²⁾. وتدخل بعض التعبيرات القرآنية من بعض الآيات في النسيج الشعري. وهو أكثر من الحديث لشعرية القرآن⁽³⁾. يستعمل الحديث بطريقة أقل مثل «من رأيي فقد رأي

= يا رفقة المرح تلقى الصقر مقدمة
المسلم السهم، والأفلاك غايته
جهلت والنجم أسراراً فلا عجب
ما زال مدك محتاجاً إلى القمر

ضرب الكليم، ص 9.

- (1) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَقَالَوْا۟ إِلَىٰ صَٰلِحِ ٱلرَّسُولِ سَوَٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَقْبُدَ ٱلَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِۦ، شَيْئًا﴾ (آل عمران: ٦٤)، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 26.
- (2) هي آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يُمْرُكُمْ مَن حَلَّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ﴾ [النساء: 103] السابق، المقدمة ص 48 - 43.
- (3) القرآن (5)، الحديث (1).

وبيوم الفتح هذا الغافر قال: «لا تشريب» وهو الفادر.

حديث الرسول يوم فتح مكة ﴿لَا تُغْرِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ٱلْيَوْمُ يَقُومُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [تفسير: 92] السابق، ص 21. مقصد من «علم الأسماء» هو سر «سبحان الذي أسرى» هو من آيتي و ﴿وَعَلَّمَ نَادِمَ ٱلْأَسْمَآءِ كُلَّهَا﴾ [يسرة: 31]، «شَبَحْنَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِهَبُونِ، لَيْلًا مِّنَ ٱلسَّجْدِ ٱلْحَكْرِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَفْصَىٰ ٱلَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُۥ» [الإسراء: 1]، السابق، ص 41.

بالهسوي أضرم نارا قلبه مقررنا «هل من مزيد» غضبه

استدعاء لآية ﴿قُلْ مَن مَّرِيرٌ﴾ [ق: 30] مع تغيير المجال الدلالي من طلب النار مزيداً من الكفار لتحرقهم والبطل الذي يقتل بسيفه الذي يقول هل من مزيد، السابق، ص 56.

الحياة الدهر يا من عرفنا «لا تسبوا الدهر» قول المصطفى

حديث الرسول «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» والذي نسج نجيب محفوظ على منواله على لسان أحد أبطاله «لا تسبوا الدولة فإن الله هو الدولة». انظر الدين والرواية في أدب نجيب محفوظ، هموم الفكر والوطن، ج1 التراث والعصر والحداثة، ص 559 - 588.

الله»⁽¹⁾، وبصيرة المؤمن خالية من نور الفراسة إشارة إلى حديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»⁽²⁾. ومع ذلك، يدخل الحديث أيضاً جزءاً من النسيج الشعري⁽³⁾. فقد نقل الحديث الصوفي الشهير «حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، و«الجنة تحت أقدام الأمهات»⁽⁴⁾.

قد يكون استعمال الحديث بنبرته وليس بمعناه، بصوته وليس بمضمونه مثل «لا قوم بعدي» منسوج على حديث «لا نبي بعدي»⁽⁵⁾.

2 - الذات والنص

بتتبع دوواين إقبال من أولها إلى آخرها، من «الأسرار والرموز» إلى «أرمغان حجاز» يمكن إجمال منظومة الذاتية في ستة عناصر، كلها مستمدة من النص⁽⁶⁾.

وقد يكون علم النفس قاسياً في تحليل السلوك الإنساني. فإذا ما أراد الإنسان أن يترك مكاناً لآخر فقد لا يكون الدافع هو الطموح بل ربما هو الاختفاء من هؤلاء الذين رأوا الفشل الأول. فالسلوك الإنساني مثل النص، له ظاهر وباطن. السلوك نص، والنص سلوك⁽⁷⁾.

أ - إثبات الذات: هو شعور الإنسان بوجوده. وهو شرط الإحساس بها.

- | | |
|---|--|
| (1) وفجرا فلتذهب من «من رأني»
أرمغان حجاز، ص 450. | قلبي منك ذو البدر المنير |
| (2) السابق، ص 534. | |
| (3) لي في دنياكم قد حُببها
إن تكن سر المعاني تعلم
الأسرار والرموز، ص 103. | بعض ما فيها حلالاً طيباً
فافهم النكتة «في دنياكم» |
| (4) الذي قد بهر الكون سنائه
السابق، ص 135. | قرن الطيب إليها والصلاة |
| (5) قال خير الحق وهو الحجة
السابق، ص 136. | تحت رجل الأمهات الجنة |
| (6) ما سوى الحق قللاه المسلم
الأسرار والرموز، ص 97. | قائلاً «لا قوم بعدي» فاعلموا |
| (7) السابق، المقدمة ص 28 - 42. | |

وهو يشبه «الكوجينو» الديكارتى. وهو غامض، مليء بالأسرار. تحمل الذات إمكانات مضمرة فيها. وهي مخلوقة، لكنها لا تنفى بل تبقى عن طريق العمل. ففي الذات قدرات خلاقة لا نهائية⁽¹⁾.

ب - الإحساس بالذات: هي المرحلة الثانية بعد إثبات الذات. فالإنسان يشعر بأنه أشرف المخلوقات. خلقت الكائنات من أجله وذاته أعلى ما لديه. خلق الإنسان على الفطرة. وهو صانع مستقبله، ومسؤول عنه. وهو قادر على التمييز بين الخير والشر⁽²⁾.

ج - تربية الذات: حينما يعرف الإنسان أنه قادر على السيطرة على العالم حوله بالجهد والاجتهاد، تتولد لديه رغبة في تربية الذات للاستعداد للوصول إلى الهدف. وتقوم التربية على مستويين، فردي وجماعي. الأول في «أسرار النفس»، والثاني في «رموز النفس». وتقوم تربية الذات على ثلاث مراحل: الطاعة، وضبط النفس، والإنابة الإلهية طبقاً للاستخلاف في الأرض لتعميرها⁽³⁾.

د - تكميل الذات: ويكون بالوصول إلى حالة الفقر. وهو لا يعني الفقر

(1) الذات مخلوقة في «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ الَّذِي خَلَقَ مِثْوَنَ وَالِدَيْ فَذَرَهُمْ حَبْلًا، ومعرفتها تند عن العقل «فَلِالْأَرْحُ مِنْ أَسْرٍ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»، والعمل الصالح يخلد الذات «إِلَّا إِلَهِيَّ مَأْمُونًا وَفَعَلُوا أَتَيْنَاهُم فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»، السابق، ص 29 - 31

(2) الإنسان أشرف المخلوقات «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْآخِرِ وَرَفَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»، تسخير الكائنات له «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَاقَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَمِثْلَهُ نَعْمَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ إِذَا اللَّهُ يُرِيدُ لَهُمْ شَيْئًا» كمال الذات «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ». الفطرة «فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاقِ الْقَيُّمُ». المسئولية الفردية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا وَقَدْ عَابَ مَنْ دَسَّاهَا»، «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، «لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»، السابق، المقدمة، ص 31 - 32.

(3) أولوية الذات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعُوْذُكُمْ مِنْ صَلَ إِذَا أَفْعَدْتُمْ». الطاعة «مَنْ طِيعَ أَرْسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»، «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ». شرط الطاعة المحبة «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ»، «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»، ضبط النفس «إِنْ أَنْفُسَ لَأُفَارِقَنَّ يَأْتِيَهُمْ»، «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَبَّ لِنَفْسِهِ عَنِ الْفَوَاحِشِ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُتَّقِينَ»، «أَوَلَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَمْ آتَيْنَا تَكْوِينَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا». ترويض النفس «إِنْ نَافَثَ الْبَلُّ مِنْ أَشَدِّ وَفَاوْمٌ فَيَلَا». السوء تركية للنفس «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا فَهُمْ يَشَارُونَ عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ وَرُكْبَتِهِمْ»، «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»، «إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوَالِ وَرُسُلِهِمْ ثُمَّ لَمْ يَرْسَلُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْرَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»، «وَأَمِيرُ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الْفَسَادِ وَالْعِيقِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ»، السابق، المقدمة، ص 32 - 35.

المادي كما هو الحال في مقامات الصوفية بل الفقر الروحي، والاستغناء عن العالم، والسيادة عليه في نفس الوقت. ويسمى أحياناً استحكام الذات. الفقر مرادف للتوحيد أي جعل الذات واحدة في مقصدها. الذات سيف، ولا إله إلا الله أي التوحيد هي «المسن» الحجر الذي يسن عليه السلاح كي يكون حاداً قاطعاً. وإذا كانت الذات سيفاً فإن الفقر هو المسن. فالتوحيد والفقر متشابهان. يقومان بنفس الوظيفة. الفقر معجزة، تاج وعرش وجند، أمير الأمراء، وملك الملوك. والتذكر والتدبر يؤديان إلى حالة الفقر. الفقر فخر وزهو وعزة، وليس ذلاً واستكانة وعجزاً وسوئلاً. فقر الكافر نقص، وفقر المؤمن زيادة. الأول صحراء جرداء، والثاني فيض ونماء في البر والبحر⁽¹⁾.

ويقص إقبال حكاية دفاعاً عن الفقير بين الدرويش والسلطان. وشيخ الطريق يشكو فقيراً مطالباً بعقابه. والأعدل هو عزل العامل الذي أفقر الناس⁽²⁾.

هـ - ثمرة تكميل الذات: تتولد طاقة لا حدود لها. تستطيع بها الذات النفاذ إلى أي مكان. تسخر الآخرين، وتجبرهم على الطاعة. وتدفع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تملأ الدنيا عدلاً وإنصافاً دون ملل أو عجز أو يأس. ترحم الناس ولا تقسو عليهم، جمعاً بين العدل والرحمة. تنصر الحق وينصرها الحق. وتقوم بأفعال يظنها الآخرون لعظمتها خارقة مثل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء⁽³⁾.

(1) التوحيد كراسمال الأسرار وبؤرة الأفكار «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّوَلُّفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ رُفَعُ طُورٍ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا»، الفقر فخر من حديث «الفقر فخري». السابق، المقدمة ص 35 - 40.

(2) ثم ألقى الشيخ سطرا من لهب
أمسك المزئير واكتب ذا النذير
«عامل عبيدك غر قد عصا
اعزل العامل، هذا الفاجرا
عبد حق فيه ليله احتساب
قد العامل بالقييد الثقيل
احذر لا تجرحن قلب فقير

قال للكتاب في نار الغضب
أبلغ السلطان عن هذا الفقير
وعلا رأس غلامي بالعصا
أو فهب ملكك ملكا آخر
أرعد السلطان منه ذا الكتاب
واستغاث الشيخ للصفح الجميل
لا تزج النفس في نار السعير

السابق، ص 25 - 26.

(3) الخلافة الإلهية «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْكُرُ =

و - التمييز بين الأسرار والرموز: هو التمييز بين إثبات الذات ونفي الذات من القرآن، في التمييز بين الحق والباطل، بين الإسلام وغيره، بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، وصورها الثنائية مثل النور والظلمة⁽¹⁾.

3 - اللفظ والصورة

وكثيراً ما يظهر لفظ قرآن ككتاب مقدس، وموضوع شعري وجداني. وهو عربي اللغة ولا يقرأ بلغة فارسية أو أردية أو تركية أو فهلوية⁽²⁾.

ويستعمل إقبال لفظ «ما زاغ» من آية «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» [التنجيم: 17] لبيان تقليد المسلمين للغرب، واستبدال إمام بإمام بعد أن زاغ البصر⁽³⁾. يكفي اللفظ القرآني لاستدعاء الآية. فاللفظ القرآني روح القرآن.

وتكثر الصورة القرآنية من خلال الألفاظ وفي مقدمتها الكلم وسيناء وعصا موسى، رمز ثقيل بالعصا، ورؤية النار المقدسة، وسماع الصوت، وضرب الحجر

= وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا دَاوُدَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ. جَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلِفَتْهُمْ أَلِفَةً أَلْفًا عَلَى الْكَثَرِ رُحْمًا يُبْدِيهِمْ رُحْمًا رُحْمًا شَعْرًا يَتَخَوُّونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا يَبْسُطُهُمْ فِي وَجْهِهِمْ بَيْنَ أَمْرِ الشُّجُورِ﴾، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وهم حزب الله ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. لهم العزة والنصر ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ وَلِرَسُولِهِ. وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الإيمان جهاد ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُفْلِحِينَ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيَذَكَّرُكُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَنَتْ طِينَةً فِي جَنَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالْمَرْءُ يُجِزُّهَا نَصْرَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَنْعَ قَرِيبٍ﴾. الرضا المتبادل ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، السابق، ص 40 - 42.

(1) «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِالنُّورِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَعَقُ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوًّا﴾، ﴿إِنَّا عَنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 42 - 43.

(2) لاح شيخ الحق ذلك الأسمى من حكي قرآننا بالفهلوي السابق، ص 10.

(3) قد أزاغ العين في الغرب سناً لك من صاحب ما زاغ إمام ضرب الكلم، ص 60.

بالعصا فانفجر منه الماء وكما جاء في «ضرب الكلیم»، وإجراء المعجزات. كل ذلك رموز للذات القادرة على المعرفة، المملوءة بالطاقة الحيوية، والقادرة على سماع الهاتف الباطني، وإجراء أفعال البطولة، وتفجير الصخر ماء⁽¹⁾. فالكلمة صورة. كما تدخل بعض الصور مثل تصدع الجبل خشية من القرآن⁽²⁾. وبين الحين والآخر تظهر صورة ماء زمزم المشتعلة بالنار، وليس الماء البارد. وهي تعلق هامة قيصر. وقيصر يقف أمامها كالخادم⁽³⁾. وقد تستعمل الصور القرآنية استعمالاً حراً دون اقتباس آية في الصياغات الشعرية مثل اليد البيضاء، وسيناء، والخليل، ونوح والمصطفى، والكلیم... إلخ⁽⁴⁾. وقد تطول الصورة مثل «أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ» [الحاقة: 7] وقد تقصر مثل «صُرُصْرًا»⁽⁵⁾. والحكمة خير كثير «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» [البقرة: 269]⁽⁶⁾. وكل شيء غير وجه الله هالك. وإذا دخل المملوك قرية أفسدوها. وخلق الله الناس من نفس واحدة⁽⁷⁾. واليد البيضاء، يد موسى التي أخرجها للناظرين أصل

- | | | |
|-----|----------------------------|------------------------------|
| (1) | أنا في يأس من الصحب القديم | مُشعل طوري ليغشاه كلیم |
| | السابق، ص7 | |
| | إن تكن صحراء فاطلب لجّتي | أو تكن سيناء فاقبس شعلني |
| | السابق، ص8. | |
| (2) | الذي يُصدّع منه الجبلُ | وعلى الأفلاك منه وجل |
| | الأسرار والرموز، ص112. | |
| (3) | شعلة الماء التي من زمزم | قيصر بعنو لها كالخدم |
| (4) | إن من سيناك للحق الحياة | واليد البيضاء لي منها الممات |
| | جاويد نام، ص174 | |
| | أمراء الشعر زانوا جمعهم | واليد البيضاء ليست عندهم |
| | السابق، ص261 | |
| (5) | صرصرا واجعل هواء البادية | إنهم أعجاز نخل خاوية |
| | السابق، ص183. | |
| (6) | قال ربي إنها الخير الكثير | إن تجده فاعتنمه يا بصير |
| | السابق، ص207. | |
| (7) | الأمين العبد والرحمن مالك | كل شيء غير وجه الله هالك |
| | المملوك نُكسوا لله راية | والقرى من ظلمهم في الذل غاية |
| | خبزنا والماء تحوي ماندة | إنما الناس كنفس واحدة |
| | السابق، ص215. | |

الضياء⁽¹⁾. وتوضع آية ﴿لَا تَخَفْ﴾ [حنود: 70] في النسيج الشعري⁽²⁾.
 قد يتغير منطوق الآية طبقاً لقواعد النظم مثل «لا غلاب إلا هو» تطويراً الآية
 (لا غالب إلا الله)⁽³⁾ التي تستعمل في الحياة اليومية إخفاء للعجز الذاتي، وطلباً
 للنصر من قوة خارجية. فالآية ليست بحروفها بل بظلالها من خلال اللفظ. وهو ما
 فعله ابن طفيل من قبل والسهورودي في «حي بن يقظان».

4 - البيت والآية

تظهر الآيات القرآنية في «رموز نفي الذات» داخل النسيج الشعري. فالتوحيد
 يعني أن يأتي الفرد الرحمن عبداً⁽⁴⁾. وإبراهيم أبو الجميع⁽⁵⁾. وعلاج التوحيد لعلل
 الخوف والحزن واليأس⁽⁶⁾. ودور الرسالة تطهير النفس والجماعة، وقبول توبة
 النائبين وهدى المهتدين⁽⁷⁾.

- | | |
|---|--|
| (1) الخفي منها وضاح الجلاء
إن نور الروح للحكم الفلاح
السابق، ص 229 - 231. | واليد البيضاء أصل للضياء
واليد البيضاء بها الملك المباح |
| (2) بلحن ليس من شرق وغرب
أرمغان حجاز، ص 459. | لتعزف «لا تخف» تطرب صحبا |
| (3) بلا دين ولا تدين
دواء العاجز المغلوب
ضرب الكلیم، ص 121. | هوت في الفخ رجلاه
لا غلاب إلا هو |
| (4) حوالی (18) مرة وهي:
في أنى الرحمن عبداً مُضمّر
الرموز والأسرار، ص 87. | رمز التوحيد للقلب ببصر |
| (5) نحن في الإسلام أبناء الخليل
السابق، ص 88. | من أبيكم خذ إذا شئت الدليل |
| (6) عدة الموت فنوط محبط
قوة الإيمان تُحيي فاعلمن
قلبه من لا تخف قلب سليم
يا سجين الغم أبصر واسمع
السابق، ص 89 - 90. | والحياة الحق أن لا تفنطوا
ورد لا خوف عليهم فافران
حين يمضي نحو فرعون كلیم
من رسول الله لا تحزن وع |
| (7) طهرا بيني إليه أنزلا
تب علينا نصرت زهرتها | بعد سيل من دموع سُيلا
فتمت في أرضنا روضتها |

والحياة قصاص⁽¹⁾. والوطن ليس أساس الأمة وإلا أصبحت خاسرة. بشس قرارها، وضل قومها إلى دار البوار⁽²⁾. والأمة المحمدية لا زمان لها بل هي منذ عهد النور الأول عهد «ألست» عند الصوفية وهو عهد ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأنعام: 30] عند إقبال، وهي محفوظة حفظ القرآن لا تموت إلا بموته. وهذا هو معنى التنزيل. ومن يُطفأ مصباحه؟⁽³⁾ لقد نزلت الشريعة رحمة للعالمين⁽⁴⁾. إن توسيع حياة الأمة بتسخير موسى العالم. لذلك أمرت «انظروا» أي النظر في آثار الأمم للعظة والعبرة. ولقد علم آدم الأسماء. والنظر تعرف على ما تعلم الإنسان من قبل⁽⁵⁾. ولا يحزن المسلمون لأنهم الأعلون، تفاؤل مطلق بالنصر.

وينتهي إقبال منظومة الأسرار بتفسير سورة الإخلاص، ودعوة المسلمين إلى فهمها وتمثلها والعمل بها. وهي بقايا محافظة عند إقبال أشبه بالحجاب والتعاضد حتي ولو كان لها أصل في الحديث. كتابتها في حجاب، وتعليقها في الرقاب أو في المركبات أو بيعها في المواصلات العامة. فهي كالدواء للداء بدلاً من الطبيب. تستقي ما في الصدور. تفرز الوحدة في القلوب، وتوحد بين الأمم والأقوام والشعوب، أفغان وترك وعجم. وهي وحدة فعالة، تحول الإيمان إلى عمل.

- | | | |
|-----|--|---|
| = | ذلك من يهدي إليه ما يري | حلفة منها حوالينا يشيد |
| | السابق، ص 95 - 96. | |
| (1) | وتلا القاضي حبة في القصاص | ذاك قانون حياة، لا مناص |
| | السابق، ص 102. | |
| (2) | طلبوا الجنة في بشس الفرار | فأحلوا قولهم دار البوار |
| | السابق، ص 105. | |
| (3) | أمة الإسلام تأبي أجلا
لا تخاف الموت هذه الأمة
ذلك المصباح أنى يُطفأ؟ | أصلها الميثاق في قالوا بلى
نحن نزلنا لديها حجة
قال ربي عالما: أن يطفئوا |
| | السابق، ص 108 - 109. | |
| (4) | ذا بلاغ آخر للمرسلين | قد نلاه رحمة للعالمين |
| | السابق، ص 111. | |
| (5) | أيها المقصود من أمر انظروا
علم الأسماء فخر الآدمي | كيف في آفاقها لا تنظر؟
حكمة الأشياء نصر الآدمي |
| | السابق، ص 131. | |

ويموت الإيمان إذا لم يعمل⁽¹⁾.

ويشرح إقبال «الله الصمد» بإرجاع الآية إلى تجربة ذاتية، وإحساس داخلي، وعلم قبلي ذوقي، ومشاهدة عيانية على طريقة الصوفية. فمن تناقضات إقبال التي جعلت الفكر الإسلامي بعده يتقسم قسمين، محافظ ومحدد، موقفه من التصوف. فهو ضد التصوف الذي يؤدي إلى نفي الذات أي إلى الكسل والخمول والخوف والحزن، ومع التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، والعشق، والحياة، والمشاهدة، والتجربة الذاتية والعيان. ويمدح الرسول لدرجة الوصول إلى الحقيقة المحمدية وكأن «حب المصطفى» هو الحل. «الله الصمد» يشعر بها بالقلب، وتخلص من القيد، وتحرر الإنسان من عالم الأسباب. فالحياة ليست لولباً من العلل. يكفي الإيمان بالله وعدم الشكوى لأحد، ولا مد اليد لأحد. يكفي أقل القليل حتى يتحرر الإنسان من مغريات الدنيا بما في ذلك تحت قابوس. هكذا انتصر المسلمون في عصرهم الذهبي، عصر هارون الرشيد، وبغداد والعراق⁽²⁾.

مطلع الديوان من أهل الفناء!
فانظرون ما الغضب من أدوائنا
سورة الإخلاص برء السقم
وهي للتموحيّد سر هائل
ولتكن منه مثلاً للجمال
بك للوحدة في الدنيا سما
لم تزل عما تعودت القدم
اقصد البحر واخل القنوت
قد بعدت اليوم عن دوحتك
لا تقطع صاح! حبل الوحدة
كل تفريق وللحق ارجعن
وهدمت الحصن فيه تحتمي
مات إيمان إذا لم يعمل

تخلصن من قيد أسباب وحد
لا تمدن إلى الخلق يدا
عش ومث حرا. عذاك الغرور
وتعش حرا بها كل الفخار
ابذل الرأس وبالعرض ابخل
اقصدن بغداد، نعم الوطن
حبنا حسن به، الأعين راق

قلت: يا صفوة أصحاب النصفاء
بك قر الأس في بنياننا
قال: ختام أسير الوهم
نفس في كل صدر جائل
فاجل هذا السر في كل الفعل
الذي سماك عبدا مسلما
قلت: أفغان، وترك وعجم
طهرن الحق من هذي السمات
يا أسيرا لسمات ويحكا!
أبدل الوحدة بالثنائية
عابد الواحد! وحد واهجرن
أمة قطعتها في أمم
قوة الإيمان زد بالعمل

السابق، ص 140 - 149، المقدمة، ص 51.

أشعرن القلب الله الصمد
لا نبئن شكاة أحدا
خفف الزاد، طريق وعر
اجعلن أقلل من الدنيا شعار
تحت قابوس اركلن بالأرجل
لم يخف هذا العقيق اليمن
حبنا زهرة أيام العراق

(1)

(2)

ويستأنف إقبال تفسير سورة الإخلاص آية آية، ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ [الإخلاص: 3]. ويحول المعنى من الله إلى الرسول، ومن التوحيد إلى النبوة. النسبة إليه ليست بالدم بل بالرسالة. ليست نسبة إلى الغرب أو الروم أو الترك أو العجم. تقليده طريق النجاة⁽¹⁾.

وينتهي إقبال تفسير سورة الإخلاص بآخر آية ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]، مطالباً بالعودة إلى العالم، وعدم احتقاره، والدخول في معاركه وأهمها: الكسل أم العمل؟ اليأس أم الأمل؟ العبودية أم التحرر؟ وسبيل ذلك هو التوحيد والأحادية، والتفرد والنفردية. لا فرق في ذلك بين الله والإنسان. فكلاهما من أصل لغوي واحد «خود»، «خودي». الله بالفتح، و«خودي» الذات بالكسر. والمسلم لا يرضى إلا بالسمو. وكان الفاتح العربي يبني قصره بعد فتح المدينة أعلى الجبل. وكما قال أبو فراس:

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر العالمين أو القبر

لماذا يحزن المسلمون وهم الأعلون؟ مهمة المسلم ليست التاج، وليست

وبحسبي حبه، لي شرفا
كيف أنأى عن مكان حله
أين من ليلى بها صبح العراق؟
واترك الأرباب، والله اعبدن

وشريكى في ولاء المصطفى
وأنا أشهد أنوار النبي
ليس من روم وعرب أصلنا
قد حبانا ذاكم الوصل القريب
حب عين نشوة في قربه
مذ حوت أعراقنا نشوته
نبضت منه عروق الأمة
هو في الروح، وفي الجسم النسب
خل إيران، وخل القربا
قد نمت أغصاننا دوحته
ثوب حق، لا سدى أو لحمة
قد غفا عن لم يلد لم يولد

قال: إني خادم للمصطفى
أنا، من قيدت في حبي له
لي في يثرب حب واشتياق
عن طريق المصطفى لا تذهبن

السابق، ص 142 - 145.

(1) أه للسرور الذي قد ورقا
عينه تحرم إبصار النبي
ما من الأنساب يقوى وصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب
حسبنا آصرة من حبه
جدد الدهر بنا سيرته
عشقه سر اجتماع الأمة
صلة العشق لنا أقوى سبب
أيها العاشق خلل النسب
نور حق مثله أمته
نور حق ما حواه نسب
من ثوى في نسب أو بلد

السابق، ص 146 - 147.

السير حافي القدمين. يحمل العالم كله على كتفيه وفي صدره، بره وبحره، أرضه وسماؤه، هواءه وماءه. يسمع الرعد، يرى البرق، ولا يخاف. لا يسمع من ضوضاء العالم إلا الأذان. يعفو ويبدل، لين في السلم، قوي في الحرب. ومن لا يطير بجناحيه ليس له إلا أن يزحف على بطنه كالودود. ومن يشكي ذلك الزمان هو الدليل الذي هجر القرآن. فلماذا يرضى المسلم الزحف على الأرض ولديه إمكانية الصعود إلى السماء؟⁽¹⁾.

يستمر إقبال في «ضرب الكلیم» في استخدام الآيات القرآنية داخل الأبيات الشعرية كنسيج أدبي وفكري واحد. فالشعر والوحي صنوان. السالك طامع إلى مقام ﴿عِلْمِ الْأَسْمَاءِ﴾. وذكر ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يقيس الزمان والمكان⁽²⁾. وتدخل في البيت الشعري آية طويلة مثل ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾⁽³⁾. ويستعمل إقبال آية ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ لبيان الزمان النفسي، ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ في مقابل الزمان الجغرافي ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَبَعًا﴾⁽⁴⁾. ورسالة الذات تعبير عن آية الأمانة

- (1) صاح! ما المسلم للدنيا احتقر
لم يكن أمسك بها واشدد يدا
ذلك الواحد لا شرك له
قد سما المسلم أعلى من سما
ورده لا تحزنوا في المأزق
حمل الكونيين طرا ظهره
أذنه للرعء إما جلجلا
ليس في ضوضاء هذي الأمم
هو في العفو وفي البذل عظيم
لطفه في الحفل جبر المنكسر
أنت يا من لم يطر منك جناح
مستكين تشتكي جور الزمان
قد هيبت الأرض طهرا كالندى
فإلام العيش في الترب؟ ارحلا
السابق، ص 148 - 149.

- (2) ذان للسانك الطموح مقام
ولذكر سبحان ربي
ضرب الكلیم، ص 14.

- (3) السابق، ص 38.

- (4) يمر العام، ما ساوى الشعير
زبور العجم، ص 382.

عامرا بالحق قلبا قد عمر؟
لترى في الناس حرا أوحدا
عبد يابى شربكا مثله
ليس يرضى بمسام في السما
أنتم الأعلى تاج المفرق
وحوى برا وبحرا صدره
صدره للبرق إما نزلا
نقمة إلا أذان المسلم
وهو حين انقهر ذو طبع كريم
قهره في الحرب صهر للحجر
دودة في ظلمة الترب تراح
قد أصبت الذل من هجر القرآن
بالكتاب الحي أمسكت بدا
أصعدن فوق السماوات العلى

نزلت فيه علم الأسماء
والفكر يقيس الزمان والأرجاء

بآية كم لبثتم كن بصيرا

﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ التي تدخل في النسيج الشعري⁽¹⁾. وبالرغم من العشق المتبادل بين الذات الإنسانية والذات الإلهية فإن الذات الإنسانية لا ترى الذات الإلهية إلا بعين البصيرة مستشهداً بآية ﴿كُن تَرِنِّي﴾⁽²⁾. والخلود منذ القديم منذ عهد ﴿أَلَسْتُ﴾، ورد البشر بالإيجاب ﴿يَلَن﴾⁽³⁾. وتدخل الآية مع تغيير بسيط مثل دخول آية ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِرٌ﴾ مع تبديل لفظ «القوم» بلفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾⁽⁴⁾. ويستعمل الشاعر أمر ﴿لَا تَخَفْ﴾ ليشجع الأمة على الاقتراب من النار دون أن تحرق كما أمر الله موسى⁽⁵⁾. هي سيف يأخذها الإنسان بيده من الوحي. وأحياناً يلجأ الشاعر إلى الآية داخل نسيج شعره إن لم يستطع إعادة صياغتها مثل جعل القلب إمام الحضور. وهو نفس سؤال موسى ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁽⁶⁾. وفي وصف الطين الذي خلق منه آدم واعترافه بالألوهية واعتراض إبليس يستعمل إقبال جزءاً من آية ﴿قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾⁽⁷⁾. ويستعمل إقبال آية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ داخل بيت شعر يعبر به عن ثقة الإيمان⁽⁸⁾. وفي ظلمة الليل يزوغ البصر. وهو تعبير قرآني في المعراج⁽⁹⁾.

- (1) أما قلوي «أنا» وهو الضياء وفي إنا عرضنا ما نشاء السابق، ص 389.
- (2) بنور فلتنر من لن تراني وإن أغمضت عينك أنت فان السابق، ص 394.
- (3) ألسنت لخلوة قد صعدتها بلى أي المعارف رذذتها السابق، ص 400.
- (4) والعصر إن القوم لفي الخسر وسل الطبيعة عن مفاصلها السابق، ص 433.
- (5) فمن لا تخف شعلة نم نزل تصاعد في الأجمة اللاهية جناح جبريل، ص 437.
- (6) لا تخف كل سيف فخذها وهي وحي دون ريب السابق، ص 477.
- (7) أو لا يزعج فوولي أرني أنظر إليك؟ السابق، ص 441.
- (8) ربما مزقت لجبريل سرا ورأي قوله أتجعل فيها السابق، ص 458.
- (9) وليه وثيقة الأمن لا خوف عليهم في محكم القرآن يا أمم الشرق، ص 349.
- (9) مساؤه ران على صباحه بظلمة في ليلها زاع البصر السابق، ص 353.

تعليم الله آدم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سر لا يُعرف أو خمر يسكر. وهل يكشف الدعاء في ﴿أَدْعُونِي﴾ هذا السر؟⁽¹⁾. وما تصف به الآية السلوك الإنساني عندما قالت امرأة العزيز ليوسف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ يأولها إقبال على الكون عندما سرى الضوء في الدنيا⁽²⁾. والذات لا تقوى ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي إلا باستقلالها وتفردا⁽³⁾. ويأمر الأفغاني المسلم ﴿قُمْ﴾ كما أمر جبريل الرسول ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾⁽⁴⁾. والتجلي الإلهي لا يُرى بالعين المجردة كما طلب موسى وكما أجيب ﴿لَنْ تَرَانِي﴾⁽⁵⁾.

والاستخلاف في الأرض نص قرآني دخل في الصياغة الشعرية⁽⁶⁾. وقد تطول الآية دون أن تخرج عن النسيج الشعري مثل ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا...﴾⁽⁷⁾. وفي ليلة الإسراء والمعراج ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾⁽⁸⁾. وقد يمتد

- | | | |
|-----|------------------------------|-------------------------------|
| (1) | علم الأسماء سر من دراه | أسكرت من خمرها أو من سقاء |
| | قد رشقت الصدر منا بالسهم | حرف ادعوني عن هذا الكلام |
| | جاويد نامه، ص 140. | |
| (2) | لام تنك الأرض مزروق الفلك | ما رأت عين كهذا هيت لك |
| | السابق، ص 143. | |
| (3) | قوله إلا بسُلطان تذكر | أو فمت في الوحل والذر المبعثر |
| | السابق، ص 149. | |
| (4) | عالم في صدرنا هذا اختفى | في انتظار قم لإنسان غفا |
| | السابق، ص 199. | |
| (5) | لن تراني إنها المعنى الدقيق | ولنضع فيه فذا البحر العميق |
| | السابق، ص 202. | |
| | حكيم دائما أخي كليما | لسان ساكت عن لن تراني |
| | أرمغان حجاز، ص 439 | |
| | ليس جيد وجهد هذا الزمان | لاتقا بحديث لن تراني |
| | السابق، ص 520. | |
| (6) | قول إنني جماعل تقديسه | بين أرض وسما تفسيره |
| | جاويد نامه، ص 200. | |
| (7) | أهل حرص أي خير حققوا | لن تناولوا البر حتى تنفقوا |
| | السابق، ص 215. | |
| (8) | ثم ما زاغ البصر بضحي النصيبا | لمقام عبده تمسي الرقيب |
| | السابق، ص 220. | |

لفظ السورة إلى مصطلح وفترة زمانية مثل عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ الذي أشهد الله به البشر على ألوهيته⁽¹⁾. ﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ في حاجة إلى فهم، بعيداً عن القضاء والقدر⁽²⁾. ومما يسهل استعمال الآيات في الشعر الصوفي تشابه المصطلحات مثل القرب والبعد⁽³⁾. وقد ترك المسلمون الأندلس وما زالت ﴿سِيمَاهُمْ﴾ من أثر السجود⁽⁴⁾.

وأحياناً تبدأ الآية القرآنية مثل ﴿وَلَحَبُّ ذُو الْعَرْفِ وَالرِّفْحَانُ﴾⁽⁵⁾. وأحياناً تأول الآية في الشعر مثل تفسير ﴿أُولَى الْأَمْرِ﴾ بأن من يحق لهم أخذ الخراج، وليس من يدهم السلطة السياسية أي التأويل الاقتصادي وليس السياسي⁽⁶⁾. وتوضع الآية في صورة مركبة مثل (ربي الأعلى) الذي تشير إلى العلو والرفعة⁽⁷⁾.

5 - القصة الدينية

يكون التأويل للحكايات والقصص الواقعية أو الخيالية. فلكل فكرة حكاية أو قصة أي تجسد واقعي في التاريخ.

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| (1) قف تأمل وحدة قد شئت | و ألسنت عند قوم أبطلت |
| السابق، ص 226. | |
| من ألسنت هزها فرط اضطراب | سكوت من لحنها رشف الشراب |
| السابق، ص 252 | |
| (2) ولهذا الشعر ما فهمت | قبل فهم ربي ما رميت |
| السابق، ص 263. | |
| (3) إن قرب الروح من إنني قريب | من حياة الخلد للمرء النصيب |
| السابق، ص 318. | |
| (4) سيماء من أثر السجود على الثرى | طرب يفوح ونضرة تتجدد |
| جناح جبريل، ص 485. | |
| (5) الحب ذو العصف والريحان ينبت | من ظلمة الطين رب الحب والطين |
| السابق، ص 506. | |
| (6) وأقول لك يا عالي المقام | لسوى اثنين الخراج كالحرّام |
| لأولي الأمر و«منكم» شأنهم | في الكتاب قوله برهانهم |
| السابق، ص 327. | |
| (7) ربي الأعلى أكانت عندنا | ذنبيه همذا أو ذنوب لنا |
| السابق، ص 327. | |

فقد نظم إقبال بعد مقدمة «الأسرار والرموز» بعض الأشعار في مدح سر سيد علي إمام حذفها في الطبعة الثانية⁽¹⁾. وهي شخصية واقعية ولد عام 1869 وأصبح محامياً ثم وكيلاً لكلية عليكره ورئيساً فخرياً للجلسة التي عقدها حزب الرابطة أو الجامعة الإسلامية. ثم أصبح قاضياً. وعهد إليه بتشكيل الوزارة في حيدر أباد. وتوفي في 1932. وقد حذفت الحكاية من الطبعة الثانية. ومثل هؤلاء هم النجباء الفضلاء الذين يرجى منهم الخير. فالإصلاح ليس مجرد آمنيات بل يمكن تحقيقه.

وتصويراً للنبابة الإلهية يروي إقبال قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري شاكياً بغي أعدائه. فالنبابة الإلهية تعني الخلافة في الأرض والكفاح والسعي والشهادة للبطل كما هو الحال في سمفونية البطولة عند بهوفن التي كان أهداها إلى نابليون قبل أن يتوج نفسه ملكاً على فرنسا، ومثل «نداء البطل» عند برجسون في وصفه للدين الحركي عند الصوفية، وسماع الهاتف الباطني مثل جان دارك. وعلي الهجويري صاحب «كشف المحجوب» هو راعي مدينة لاهور وحاميتها وواليتها. يأتيه الفقراء للطعام المجاني من كل أنحاء باكستان والهند وآسيا أسفل المسجد. ويذكرون الله في حلقات الذكر في فناء المسجد المكشوف⁽²⁾. والقصة أن فتى أتى الشيخ شاكياً له بغي الأعداء. فأعطاه الشيخ درساً في إثبات الذات، وأن من تحلى بالجمال فإنه يتجلى في الجلال. ولو اختلط الخير بالشر في الحياة فإن الذات قادرة على أن تحرر نفسها من هذا الخلط. وتنتقل من الغم إلى الهم، ومن اليأس إلى الرجاء، ومن السكر إلى الصحو، ومن الغيبة إلى الحضور، ومن الفقد إلى الوجد، ومن رموز نفي الذات إلى أسرار إثبات الذات. الذات هشة كالزجاج، ولكنها صلبة كالحجر. وإن ضعفها يجعل الآخرين يطمعون فيها. وبالرغم من أنها من الطين إلا أنها شعلة نار. والشكوى للنساء. وقد يكون العدو صديقاً، والصديق عدواً. فالعدو تقوية للذات. نفي الذات إثبات لها. النقيض يحيي النقيض كما هو الحال في الجدل الهيجلي. قوة العزم تذيب الحجر، كالسبل لا يوقفه المانع. والشدائد تشحذ العزائم. إثبات الذات لا يقضي فقط على العدو بل يزلزل العالم. إثبات الذات بقاءها، ونفيها فناؤها. الموت نوم الذات، والحياة

(1) سمير عبد الحميد، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 16.

(2) الأسرار والرموز، ص 46 - 48.

يقظتها. وقد سُجن يوسف ولكن لم يُقَضَّ على ذاته، بل انتقل من السجن إلى الملك. وينتهي الشيخ بنصيحة الفتى باستحكام الذات، والنهوض، ونصرة الحق، وحمل الأمانة⁽¹⁾.

وتصويراً للنبيابة الإلهية أيضاً يحكي إقبال قصة ثانية للطائر الذي أجهده العطش. فقد خدع الطائر بماسة، وظنّها ماء. وبضربها بمنقاره دون أن يعرف «ضرب الكلیم» تفجرت المياه من الصخر⁽²⁾. ثم رأى نقطة ماء مثل دمع الليل

كيف عيشي بين أعداء كثير
قد تجلى في إطار من جلال
لا يميز الخير من شر الحياة
أنت بأس نائم، قم لا تنم
فهو في الحق، زجاج بكسر
قطع السبل عليه الفاجر
شعلة الطور من الطين أئز
فيم شكواك العدو الخادع
أنت بالأعداء ذو عصن وريق
من مقام «الذات» حقاً يفهم
مثل ما تحيي الموت الراجعة
لا يبالي السبل صخراً إن جرى
امتحان العزم بُعد المنزل
ما غناء العيش مثل النعم
إن حيت «الذات» عزماً مسعراً
واعمرن «الذات» إن شئت البقاء
أترأه بعد روح وبدن؟
ومن السجن إلى الملك استقم
ناصراً للحق، مبرّاً حاملاً

كدخان نفّساً قد صعدا
صاغها ماء لعينيه الصدى
فرأى الجاهل ماء في الصخر
لم يُصب ماء بنقر الجواهر
تضرب المنقار في جسمي سدى
ما أنا من أجل غيري باقية
لحياة نورها منسها بدا
وترى الإنسان منه ينبهر
زفريات لحنه يضجيد

علّمني أبها الشيخ الكبير
فأجاب الشيخ، من فيه الجمال
أبها الغافل عن سر الحياة
حررن نفسك من بأس وغم
إن رأى النفس زجاجاً حجر
وإذا خذرت فواء السائر
كم ترى نفسك طيناً قد حقر
فيم شكواك الرفيق النافعا
كم عدو لك، في الحق صديق
قوة الأعداء فضلاً يعلم
يوقظ الخصم قواك الهاجدة
قوة العزم تذيب الحجر
تشحذ العزم عقاب السبل
ما الحياة دون عزم مُحكم
زلزل العالم وافعل ما ترى
اهجرن «الذات» إن تبغ الفناء
ما الردى؟ إن يدرك «الذات» الوسن
يا أخا يوسف في «الذات» أقم
احكمن الذات وانهض عاملاً

السابق، ص 47 - 48.

طائر من ظمأ قد جهدا
قد رأى الماسة في مثل اثندي
خدعته ذرة مثل الشرر
لم يجد ربا بضرب المنقر
قالت الشذرة: جُنبت الهدى
لست ماء، لا تراني ساقية
جاهل يقصد هضمي ما اثندي
كل منقار بمائي ينكسر
حسرة في صدره تتقد

السابق، ص 48 - 49.

على غصن أخضر انعكست فيها نور الشمس. فنقرها دون أن يعلم أن من هذه القطرة تجري الأنهار⁽¹⁾. والنتيجة من المحاولتين أن قوة الذات قادرة على أن تفجر من الماس ماء، وتجعل القطرة نهراً، وأن قوة الذات هو نضج القطرة، وأن الذات فضة تحولت من زئبق. الذات سر ينكشف لمن يسبر غورها، وأوتار تصدر ألحاناً لمن يحسن تحريكها⁽²⁾.

ويعطي إقبال قصة ثالثة «قصة الألماس والفحم». وهو حوار أيهما أفضل الألماس أم الفحم؟ وهو شكل أدبي في المفاضلة بين الشعراء مثل جرير والفرزدق، وفي الفلسفة بين المنطق والنحو، والنثر والشعر، والحساب والهندسة. وتحول إلى مفاضلات شعبية حتى العصر الحاضر بين عبد الوهاب وأم كلثوم، والطربوش والعمه، والمقري والمذيع. تباهى الماس على الفحم بأنه أبيض ساطع، والفحم أسود داكن. ومع ذلك كلاهما من أصل واحد في الكون. الماس على التاج زينة، والفحم في التراب مذلة. ينعكس الماس في المرأة، والفحم سبب سواد اليد. ويدافع الفحم عن نفسه ضد أفضلية الماس عليه بأن سواده يضيء الجمر وإن تحول بعدها إلى رماد تسير الأقدام عليه. ومع ذلك يصعد منه اللهب والشرار والدخان. ويقر بأن الماس كالنجم يشرق، وفضي يزين الخنجر⁽³⁾. ثم

(1) وأضاءت مثل دمع البلبيل
لضياء الشمس فيها مئة
كوكب يرعد من نسل السماء
غره الأكمام والزهر الخصيب
قطرة من دمع صب تبهر
فمضى الطائر فيها راغبا
السابق، ص 49.

(2) أيها الباغي عدوا تقهر
حينما الطائر أضواء صداه
كانت الشذرة عضبا يرهب
قوة «الذات» احتفظنها أبدا
أنضج القطرة كالطود تُرى
أثبت «الذات» وفيها حقق
ومن «الذات» أبى أسرارها
السابق، ص 49 - 50.

(3) قصة أخرى بها أدلي إليك

قطرة في غصن ورد خضيل
ولخوف الشمس فيها رعدة
شاقه الجلوة في هذا الفضاء
لم يزود من حياة بنصيب
زانت الهدب وكادت تقطر
بل بالقطرة حلقت لاهبا

قطرة أنت، تُرى، أم جوهر؟
حي نفسا بحياة من سواء
لم يكن قطرة طل يشرب
وكن الألماس لا قطر الندى
حاملا غيما مفيضاً أنهارا
فضة كن بالنشام الزئبق
حزكن عن لحنها أوتارها

يفتح الحقُّ بها باباً عليك

يتباهى الفحم على الماس ولا يكتفي بالدفاع. فأصل الماس الحجر. والحجر صلب مقاوم في الحرب، إذا نضج يشع فيصبح ماساً ينير الصدور. الماس يعيش على أصل الحجر، ويستمد ذاته من ذات غيره:

أمن غير ذاتك تعمّر قلباً معاذ الإله، ترى أين ذاتك؟

والدرس المستفاد هو أن يتطور الحجر فيصبح ماساً. وتهجر الذات ما يتابها من فساد وغم، وتتحول من حجر إلى ماس. ويتم ذلك عن طريق الجهد والسعي والكد والكفاح ﴿يَتَابُهَآ الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَمًا مَلْفَقِيهٖ﴾. والكعبة من حجر. وبها الحجر الأسود وليس الماس الأسود. يقبله الناس عن اقتناع إلا عمر عن تقليد. القوة الكامنة في الأشياء، وأصلها والماس، قوة كامنة في الحجر. فالحجر أفضل من الماس في الباطن، وليس الماس أفضل من الحجر على ما يبدو في الظاهر. هذا هو تأويل الطبيعة⁽¹⁾.

قال للألماس فحم المعدن
نحن صنوان نمائنا والد
وعلى التيجان أنت الزينة
لك حسن في المرابا بسطع
من ظلامي قد أضاء المجرم
موطئ الأقدام بين البشر
إن حالتي بسبكاء لخرى
إنني موج دُخان يُعقد
ومن الأنجم فيك الرونق
تارة نور بعيني فيصرا

السابق، ص 50 - 51.

يا حليف النور طول الزمن!
أصلنا في الكون أصل واحد
وأنا في الثرب حظي الذلة
وأنا من كف ترب أضيع
ورمادا أض في الجواهر
قد رموا في مهجتي بالشور
هل ترى أصلي وفصلي هل ترى؟
كل ما في شرار يصعد
كل جنب فيك نور يُشرق
تارة فص يزین الخنجرا

ينضج الثرب فيغدو خاتماً
وغدا بالحرب صلباً كالحجر
وبصدري كم شعاع أسفرا
وبلبين في فوام تحرق
وانضجن كالصخر والألماس كن
فهو في الدارين بدر طلعا
كان من قبل تراباً حرقرا
ورجت تقبيله كل الأمم
والونى والذل من ضعف الحياة

(1) قال: فاسمع يا رفيقي وافهما
شنّ فيما حوله حرباً ومز
هيكلي من نضجه قد نورا
أنت من ضعف كيان تنشق
اهجرن خوفاً وغماً لا تُهن
من أجاد السعي والأخذ معا
وبحجر الكعبة انظر حجرا
جاوز الطور علاء لا جرم
قوة الأحياء عز ونجاة

السابق، ص 51.

ويحكى إقبال قصة رابعة، قصة الشيخ والبرهمي ومحاورة نهر الجنج وجبل هملايا أيهما أفضل كما فعل من قبل في محاورة الماس والفحم. ويعرج على طابع تقليدي فيه أصيل، في معنى دوام الحياة. فدعوة الأمة بالتمسك بسنتها دعوة للأصالة وحدها خاصة وأنه يري عدم جواز الاجتهاد في عصر الانحطاط⁽¹⁾. في القصة يدعو الشيخ البرهمي إلى الاستمسك بدينه البرهمي. والكمال فيه خير من النقص في غيره. فلا الموحدون يسرون على نهج إبراهيم في تكسير أصنام قومه. ولا الوثنيون يعبدون التماثيل التي صنعها آزر وقومه. فالكمال أهم من الشيء الكامل. ومن هنا تأتي ضرورة التمسك بتراث الأولين، وعدم ترك نهج الأقدمين، حرصاً على الوحدة حتى ولو كانت في الكفر. وشمع الذات المميزة هو شرط الطير في السماء.

وفي المفاضلة بين النهر والجبل. النهر أفضل من الجبل لأنه يتحرك، والجبل ثابت. الجبل ثابت ثبات الذات. ولا يفنى كما قد يجف النهر. وإثبات الذات أفضل من نفيها. النهر أفضل لأن الجبل مقيد إلى الأرض. والنهر جريان وفيضان على الأرض. والحياة سير وسعي. والجبل الأفضل لأنه يحوي مياهاً كالنهر. والتغير فناء. ولا يفخر أحد بالموت. الثبات أفضل. والنماء في المكان مثل إثبات الذات. والزمان لم يؤثر على ثبات الجبل ولا براكينه. وقد تصل قمته إلى الفلك. والبركان في قلب الحجر. لا تصل إليه مياه النهر. النهر مجموع قطرات تغلبها الأمواج. مياهه من السحاب. يشكو من الجفاف أو من علو الموج. وفي كلتا الحالتين يبقى ضعيفاً عاجزاً⁽²⁾.

(1) يا أمينا لتراث الأولين
باجتماع الشمل تحيا الأمة
إن إبراهيم فينا هجرا
قيسنا ما هام خلف المحمل
إن شمع الذات فينا لانطفأ
السابق، ص 52 - 53.

لا تدع نهج الجدود الأقدمين
وكذلك الكفر فيه وحدة
وبعدتم أنتم عن آزرا
في جنون العشق لما يكمل
كيف يجدينا طواف في السماء؟

(2) قيدت رجلك عن سير فما
إنما العيش مسير وصلا
إن هذا السير فيه الحين لك
بمقام لك هلاً تأبه!
إنما العيش نماء في المكان

هيبة فيك ورأس قد سما؟
وحياة الموج في أن يجفلا
من يزل عن نفسه يوما هلك
أفخار بالردى يا أبله
وبروض الذات قطف الأقحوان

6 - القصة الخيالية

يصور إقبال الصلة بين العلم والعشق كنصيحة ميرنجاه النقشبندي المعروف بباي صحرائي (الأب الصحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند. فالحكيم يولد من الذات كما ينبت الورد من الأرض. الذات موطن الخلد، قطرة وكأنها بحر يروي. ولماذا تخشى الذات العدم والوهم وهي الوجود والحقيقة؟ هي شرارة من رماد يشعل البصر وهجا. هي الكعبة التي يطوف حولها المؤمنون وكما هو الحال في الثورة الكوبرنيقية عند كانط عندما يدور العالم حول الذات، ولا تدور الذات حول العالم⁽¹⁾. يؤخذ العلم من الشيخ وليس من الحكيم، من القلب وليس من الجسم، من الرومي وليس من المشائي، من موسى وليس من الفيلسوف، من الذوق وليس من النظر، من التجربة وليس من الاستدلال، من أم الكتاب وليس من الكتاب⁽²⁾. العلم لا يأتي إلا من القلب، وليس من القديم أو من الفقهاء أو من التجارة بالدين. لا يذهب أبعد من الحس. والظاهر توقف عن السير، ووضع السيف في

أتراني زائلا عن منزلي؟
فعلى سفحي الثريا ترقد
لبس لنماء إلى ناري ممر
وهو في جدواك بادي الذلة

= في دهور لم تزحزح أرجلي
وإلى الأفلاك قدّي يصعد
صخر قلبي وناري في الصخر
فهو في فيضك دون الموجة

السابق، ص 53 - 54.

من ضمير الذات نلت المولدا
قطرة كن واشرب من البحر صدى
يا أسير الوهم أخطأت الفهم
واشتعلت بعد يعشي البصرا
واجعلن نفسك بيت الحرم
عن إمام الروم خذ نصح الحكيم
وهو في القلب دواء وشفاء
كان فيضا من علوم في حلب
في ظلام العقل بالفلك يرود
ما درى ما العشق أو من يعشق
من قياس ودليل أوهما
محرق والكتب منها في لهيب
أحرقنا أسفارنا وقدتها
ذوقنا والحال أتى تعلم؟
ولطانا الكيمياء الأحمر

(1) أنت كالورد من الأرض بدا

لا تعد الذات واخذ أيدا
أنت موجود وفي خوف العدم
هي جمع من رماد شررا
هي حول الذات طوف فاعلم

(2) أيها الجاهد في كسب العنوم

إنما العدم لدى الجسم شفاء
قصة الرومي تقضي بالعجب
وعلى رجليه للعقل قيود
هو موسى دون طور يشرق
قال: ماذا النقال والقييل وما
فيذا الإدراك من نار القلوب
قال: هذي النار ما قصتها؟
قال شمس الدين يا ذا المسلم!
حالتنا أرفع مما نفكر

السابق، ص 58 - 60.

حلقة. فطرته خالية من العشق. لا يطلب الحق. لا يذهب أبعد من علل العقل. والعشق لها دواء. العشق هو المعبود. تعبد له أصنام العقول⁽¹⁾. ثم ينادي إقبال على أمين السر لأم الكتاب كيف يمكن العودة إلى الوحدة الأولى بعد أن عم الكفر، وانتشرت الأصنام، وتحول العلماء إلى مشايخ، والكتب باليد إلى سبج. سادتهم الأهواء بعيداً عن التوحيد. يلبسون الخرقة، ويتاجرون بالدين. يذكر في حلقة مع مريدين، وينسى الأمة. يعبدون المناصب دون مراعاة لحرمة الأمة. يبتهل إلى الأوثان، ويقبض ثمناً للفتاوى⁽²⁾.

وفي محاوراة السهم والسيف مباراة بينهما أيهما أكثر إصابة؟. السيف ثابت لا يقذف، والسهم متحرك ويقتل عن بعد كلما اشتد القوس. السهم شعلة مصوبة إلى الصدر، في حين أن السيف يقطع بالنحاس. فالسهم أقوى. وهو إلى اندفاع الحياة أقرب⁽³⁾.

يضرب إقبال المثل للخوف كقيمة سلبية بقصة السلطان عالمكير والأسد.

(1) من نهيب القلب علم الكامل
قد نبذت الدين ظهرياً وما
من حدود الحسن لا ينطلق
من نهيب العشق تخلو فطرته
علل العقل لها العشق دواء
سجد العالم للعشق الجليل
السابق، ص 60 - 61.

(2) يا أمين السر من أم الكتاب
نحن حراس حصون الأمة
تعمر الكعبة من أصنامنا
شيخنا باع الدُّمى ملته
قلبه بيت لأصنام هواه
بمريديه أدام السفرا
يلبس الخرقة من يرخي الشعر
عند الأسياف فينا المنصب
واعظ عيناء شطر الوثن
عن طريق المصطفى لا تذهبن
السابق، ص 62 - 63.

(3) إنني في الجو أو في جعبتي
وإذا القوس رمتني للشبور
إن خلا الصدر من القلب السليم
حيثما كنت، بجسمي شعلتني
بصرت عيني بأحناء الصدور
ما به يأس ولا خوف مفيم

عالمكير أحد ملوك المغول في الهند. نشر الإسلام. والتزم بحدود الشرع عكس السلطان أكبر الذي أراد توحيد الأديان، والتقريب بين الإسلام والهند وجمعهما في دين سماوي واحد مع احترام كامل للشعائر. وهو موقف إسلامي أصيل. ليس به كفر ولا خروج على الدين كما يرى إقبال. و«تاج محل» شاهد على ذلك. وهنا تبدو تقليدية إقبال ومحافظته التي تفجرت بعد وفاته. والمثل خارج عن موضوع الخوف. إلا أن العشق يظهر في نهاية المثل في مقابل الخوف. ما يدمره الخوف بينه العشق⁽¹⁾.

ويضرب إقبال المثل على معنى الأخوة الإسلامية بقصة أبي عبيد وجابان. أبو عبيد أمير عربي، وجابان أسير أعجمي أعطي الأمان. ثم اتضح أن الأسير أمير وجب قتله لأنه محارب، عدو المسلمين، ولكن الأمير العربي رفض لأنه أعطاه الأمان⁽²⁾.

- = نفذ النصل خلال الأعظم السابق، ص 92.
- (1) إن عالمكير عالي المنزل كان للإسلام منه عزة آخر الأمهم في جمعيتنا غرس الإلحاد فينا أكبر وخبا في الصدر مصباح الفؤاد إنما العبد أمام الحق «لا» أيها الخافل قلبا حضلا ابذل النفس تنلها لا مفر أحرقن بالعشق خوفا وانهدا إن خوف الله إيمان جلي السابق، ص 93 - 95.
- (2) مسلم في حومة الحرب أسر قال للأسير: يا ذا الكرم فإذا المأسور جابان الكبير بو عبيد قائد العرب الأبني قال يا قوم: ألسنا المسلمين كل جندي أمين الملة إن جابان عدو غشيم دمه اليوم عليكم حرما السابق، ص 99 - 100.
- فكسوت اللحم درعا من دم من بني تيمور فخر الدول ولحكم الشرع فيه حرمة في ذباد الكفر عن ملتنا فنمنا في طبع دارا يزهر وبدت أمتنا رهن فساد وهو للزور «نعم» لن يبطلا هيتن للحب هذا المحملا ذل للحق تنل عز الدهر حملا في الحق ليثا للمعدى ثم تقوى غيره ترك خفي قائدنا من جيش كسرى ذا خطر آمنني، ذاك شأن المسلم قائد في جند إيران أمير عزمه في الحرب عن جيش غني نعمة واحدة في العالمين؟ صلحه والحرب عهد الأمة لكن الأمن حياه مسلم أمة المختار، أوفوا الذمما

ويحكى إقبال قصة السلطان والعمار في معنى المساواة الإسلامية. كان عمار شهيراً في تشييد المساجد. غضب السلطان عليه لنقص في الاتقان. فقطع يده. فهرع إلى القاضي يشكو، والدم يسيل من يده. فاستدعي السلطان وهو خائف من تطبيق الحد عليه. وندم السلطان وأصدر القاضي الحكم ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ﴾. فعفا العمار عن السلطان لما رأى عدل الملك. فقد عزت نملة سليمان القوي. لقد ساوى القرآن بين الناس، بين المولى وفتاه، بين الملك والمملوك⁽¹⁾.

لمراد مسجداً قد شيّدا
لم ير الإنقان في تعميره
ويد المسكين فوراً بتسرا
دمه من يده ينهمر
يا حفيظاً شرع خير المرسلين
حكّم القرآن فينا واقطع
هبة القرآن تدمي قلبه
وخصيم في ثياب الملك
لا أرد الحق إنني جارم
ذلك قانون حياة، لا مناص
وحد المعمار والملك دم
فنضاً السلطان فوراً كمه
آية الإحسان والعدل تلا
إنني أعفو لأجل المصطفى
انظرون سطوة قانون النبي
وذوي التيجان سوى بالرعاة

صائعا فرهاد حقاً ولدا
غضب السلطان من تقصيره
قدحت عين المليك الشررا
سار للقاضي حزينا يجار
قال: يا من قوله الحق المبين
لست نل سلطان عبدا فاسمع
فأتى السلطان يخشي ذنبه
وقف الخصمان: خصم يشتكي
جهر السلطان: إنني نادم
وتلا القاضي: «حياة في القصاص»
ليس دون الحر عبد مسلم
سمع القرآن يملئ حكمه
إذ رأى الخصم الذي قد فعلا
قاتلا: لله أعفو وكفى
نملة عزت سليمان القوي
جمع القرآن مولى وفتاة

(1)

الفصل الثاني

نفي الذات

1 - التصوف السلبي

نقد التصوف موضوع شائع في كل الدواوين والكتابات النثرية لإقبال. وهو الرمز الأول لنفي الذات. ويصدر إقبال «رموز نفي الذات» ببیت من جلال الدين الرومي كما صدر «أسرار إثبات الذات» بأربعة أبيات منه⁽¹⁾. فنفي الذات لا يتم إلا بإثبات الذات. ولا يتم إثبات الذات إلا بالاجتهاد كمبادرة من الذات دون توقع، كبداية وليس كنهاية. وفي إهداء المنظومة إلى الأمة الإسلامية يعبر إقبال عن تصويره لدور العشق كوسيلة للمعرفة والسلوك، مستعملاً لغة النور والنار والاحتراق.

«زبور العجم» ديوان غنائي. في معظمه غزل مع الطبيعة كرمز للألوهية كما هو الحال في «التأليه الطبيعي»⁽²⁾. وهو أكثر شعرية وأقل فلسفية باستثناء القسم الثالث. يتكون الديوان من أربعة أقسام. الأول، يبدأ بدعاء ثم ست وستين قطعة أغلبها بلا عنوان. والثاني خمس وسبعون قطعة أيضاً أغلبها أيضاً بلا عنوان⁽³⁾. والثالث بعنوان «حديقة السر الجديد» صدر عام 1929، مساجلة مع «روضة السر»

(1) جذ بنفي الذات ذاتاً، لا تهاب اجتهد؟ والله يهديك الصواب

الأسرار والرموز، ص 77 - 80.

(2) التأليه الطبيعي Deism.

(3) قام بترجمة القسمين الأول والثاني أربري تحت عنوان Persian Psalms (Zaburi Ajam), Parts I, II, Translated into English Version from the Persian of the Late Arthur J.

Arberry, Muhammed Ashraf, Labore, 1948..

لمحمود الشبستري أحد أعلام التصوف في القرنين السابع والثامن، إجابة على بعض الأسئلة لبعض الصوفية. يجيب إقبال عن تسعة أسئلة في التصوف كفلسفة إلهية⁽¹⁾. والقسم الرابع «كتاب العبودية»، يبين فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون. ميزة التصوف الوحيدة هو الشعر. فالصوفي شاعر، والشاعر صوفي⁽²⁾.

ونفي الذات على قسمين: الأول نتيجة العشق. والثاني وصول الذات إلى مرحلة الفناء في ذات الحق كما يصف مجموعة من الدراويش الهندوس. قد يكون الأول مفيداً، في حين أن الثاني ضار للغاية. يقضي على الهمة ويبعث على الكسل. يرفض إقبال كليهما. والحقيقة أن نفي الذات هو التحكم في الأهواء والرغبات والميول، والتمسك بأحكام الشرع. وهو نفي الفناء في التصوف الإسلامي الحقيقي، وليس في التصوف العجمي الدخيل⁽³⁾.

يرفض إقبال التصوف من أساسه. يرى المعجزات في كل شيء مع أنها من الممكنات. يرى العالم بعين الخيال. والعالم حياة وموت. يغيب عنه الوعي، والوعي بالذات هو وعي بالعالم⁽⁴⁾.

وكان لأفلاطون أثر سلبي على تصوف المسلمين وآدابهم. لذلك وجب الاحتراز منه. لقد دفع التصوف المسلمين إلى الرضوخ والخنوع والاستكانة ثم العبودية. واعتراض إقبال على أفلاطون هو اعتراضه على كل المذاهب الفلسفية التي تقوم على الفناء وليس على البقاء والتي تغفل المادة لصالح الصورة. تنكر الحياة. وتجعل جوهرها الموت. وتدعو إلى أن العالم مجرد ظاهر، وأن الحقيقة خارج هذا العالم. وبدلاً من السيطرة على العالم وتسخيرها تدعو إلى الانعزال عنه،

(1) وقد نقله إلى العربية شعراً د. حسين مجيب المصري، ص 371 - 372.

(2) Persian Psalms, p. 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 19 - 20.

(4) ترى عينك دنيا المعجزات
وفي عيني دنيا الحادثات
ومن دنيا الخيال عجبت فاعجب
لدنيا للحياة وللهمات
تبدّلها بنظرة غير واع
وكم تدعوك دنيا الممكنات
ضرب الكلم، ص 21.

والفرار منه⁽¹⁾. أفلاطون من فريق الضأن أي بلا عقل، شاة في لباس الآدمي. أعياء الدهر فكل. لم ير الواقع المحسوس. صمت آذانه وأطبقت عيونه. الحياة لديه في الموت. والفلسفة تعلم الموت. أنكر عالم الأشياء. وجعل حقيقتها في المثل في السماء. ومن ثم فالعمل ليس للدنيا بل للآخرة. فتواكل الناس⁽²⁾.

عيب أفلاطون أنه أثر الحياة على الموت. وتصور أن الحقيقة لا تكتشف إلا بعد الموت لأن هذه الدنيا التي نعيشها عالم الظاهر. ومن ثم كانت الفلسفة تعلم الموت. الحقيقة هي هذه الحياة، كشرار بجنح الليل يشب. ومقصد رؤية الذات والوعي بالذات في هذه الحياة وليس فيما وراءها. إثبات الذات في الحياة هو الطريق إلى إثباتها بعد الممات⁽³⁾. إن وصف أفلاطون للعالم لا يدعو للثقة لأن القلب قادر على إدراك اللانهائي دون تدخل الخيال، وقسمة العالم إلى ظاهر باطل وباطن حقيقي⁽⁴⁾. والأفضل قطار اللصوص من العقل السماوي الملاحق. الأفضل هم القلب من كل فن العالم لأفلاطون⁽⁵⁾.

للأسف دنس العقل الغربي يتابع المعرفة اللانهائية. كما أضل أفلاطون

(1) واهب الماضين أفلاطون الحكيم
طرقه في ظلمة العقول ضل
فكره في غير محسوس فثن
قال: في الموت بدا سر الحياة
هو شاة في لباس الآدمي
عالم الأشياء سماه الهراء
هلك أقوام بهذا الشمل
الأسرار والرموز، ص 30 - 31، المقدمة، ص 16/48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 18.

(2) حياة بالحقائق في قرار
ضرب الكلم، ص 33.

(3) يبصر الموت عاقل، فحياة
ما إلى الموت والحياة التفات
السابق، ص 48.

(4) Persian Psalms, p. 11.

(5) Ibid., p. 17.

والرواقية العالم كله. ووضعوه في الوحل⁽¹⁾.

لقد ظهر التصوف في التاريخ الإسلامي كحركة مقاومة سلبية في الصدر الأول ابتداء من الفتنة الكبرى لدى الزهاد والعباد والبكائين بعد أن عزت المقاومة الفعلية للحكم الأموي، وصعب استرداد الشرعية لعلي والحسين. استشهد أئمة آل البيت وأوائل الصحابة. فأثر الصوفية انقاذ النفس بعد أن استعصى عليهم انقاذ العالم. وخلقوا عالماً وهمياً بديلاً من الأقطاب والأبدال والمشايخ والمريدين من صنع الخيال⁽²⁾.

الصراع بين الفقهاء والصوفية إذن صراع حقيقي، أهل الظاهر وأهل الباطن، أفعال الجوارح وأفعال القلوب. وكان العلاج ضحية هذا الصراع بين الجهر بالقول والصلب، بين التسامح والتعصب⁽³⁾. ومع ذلك يتشابه الصوفي واللاهوتي. إذ يريد كلاهما استبدال البخور بالحجر، والإيمان الحي بالوهم أو بالمعتقدات. وقد خلا المنبر والمحراب من صيحة الحق أو من صرخة السحر. وقد كان الأذان من قبل تميل له الجبال⁽⁴⁾. والصوفي واللاهوتي والمجتهد، كل منهم في سكرة الوجد أو العقل أو النظر. ومع ذلك عز الثلاثة روح الطموح. كل منهم في زاوية أو مدرسة أو مسجد، في قفص صغير يتيه فيه. وهو سجن بلا قضبان إلا أن القيد الخفي غير مرئي، قيد القلب أو الذهن. ويتحرر كل منهم بالتجربة، تجربة الحياة. وتقضي على حيرته⁽⁵⁾.

Ibid., p. 21.

(2) «وكل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي. وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارتها، وتجعل الاستكانة في أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا. وفي هذا الترك تخفي ضعفها، الأسرار والرموز، مقدمة عيد الوهاب عزام، ص 12.

(3) بين المحقق والفقير خصومة عصفت بمنبر ذلك المسكين
لما رثي الحلاج فوق صليبه كسر الصليب تعصبا للدين
ما بين منبر ذا وبين صليب ذا لم ألق غير خصومة من طين
جناح جبريل، ص 422.

(4) صوفينا خلف لاهوتي أديرة يريد يستبدل البخور بالحجر
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا من صيحة الحق أو من صرخة السحر
أين الأذان الذي كانت تميد له روح الجبال وأين الصعق في الصور؟
السابق، ص 434.

(5) أفيلسوف وصوفي ومجتهد في سكرة من كؤوس السمع والبصر =

ثم انهار التصوف. كان لدى الصوفي دِن لم يرتو منه. أغلق مكتبه. وهجر طريقه. وغادر مجلس الشعراء. ومات اللحن في نايه⁽¹⁾. خمر الصوفية خالية من الحرقه⁽²⁾. وجميع العارفين والعامه غرباء عن الذات. ولا يستطيع أي منهم التمييز بين المسجد والخماره⁽³⁾.

ويسأل إقبال ماذا يأمل الإسلام من سلوك الصوفي، الرضا بالفقر أم أن طيش الملوكة أفضل؟ ويجيب الرومي بأن جنة الإسلام في ظل السيف، وأن الجهاد سنامه، وليس ما يطلبه الرهبان والصوفية من أمن الكهوف⁽⁴⁾.

الصوفي الحق من رجال الله. يجيد الضراب والطعان، وليس الذي يضرب رمحه في الهواء. والحر هو الذي يضع على رأسه تاج الأحرار، لا خرقة الصوفي أو قلنسوة الفقيه. ومن ترابه يصنع الدهر الشرار. فطرته الحرة تجعله يعاف الدنيا، ولا يطوف حول الأصنام، بعيداً عن التدين على طريقة الوثن الذي يقدر أهواء النفس، وهي الأصنام الجديدة⁽⁵⁾.

وبالرغم من النقد اللاذع للتصوف إلا أنه تجربة فردية كشفية تهتك الأسرار،

= ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفا
كانت بزواية الأقفاس بغيتهم
سجن التفلت لا قضبان تمسكه
تغنيك إن حرت فيما قلت تجربة
السابق، ص 439 - 440.

(1) لدى الصوفي دن ما رواء
أغادر مجلس الشعراء كرها
أرمغان حجاز، ص 444.

(2) السابق، ص 534.

(3) السابق، ص 539.

(4) قال: ماذا يأمل الإسلام من هذا السلوك؟
أنكي نرضى بفقر أم إلى طيش الملوكة؟
قال رومي: جنة الإسلام في ظل السيوف
ليس ما تطلبه الرهبان من أمن الكهوف
جناح جبريل، ص 526.

(5) إنما الحر من يجيد ضرابا
وسجاي الأحرار تجمع تاجا
من خفايا ترابهم أخذ الدهر
شرارا فصاغ منه ذكاء

وطريق خاص لا يسلكه إلا من هو قادر عليه وأهل له⁽¹⁾.

وأخذ علماء الهند طبقاً لطوائفه من إقبال أربعة مواقف:

أ - علماء ديوباند وقفوا موقف المحايدين دون موافقة أو اعتراض.

ب - المثقفون المتغربون والمتشبعون بالثقافة الإنجليزية وهم الأكثرية لم يفهموا «الأسرار والرموز» لأنها تعتمد على القرآن وعلى مثنوي الرومي باستثناء القلة.

ج - عامة المسلمين لم يفهموا شعر إقبال لأنه بالفارسية.

د - الصوفية عادوا إقبال لهجومه على التصوف خاصة حافظ لعدم تفرقتهم بين التصوف الإسلامي والتصوف غير الإسلامي. الأول يدفع إلى الثورة، والثاني يدعو إلى الخمول. الأول أمل، والثاني يأس. وفي رسالة إلى أكبر إله أبادي يبين إقبال أنه يدافع عن التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، وليس نفيها⁽²⁾.

حياة الإنسان هي حياة الوجدان. فلا شرب من كأس إلا مع صدق الوجدان. والنشوة مع القدماء الأوفياء، وليس مع قيصر الرومان⁽³⁾. والقدماء يحفظون الأسرار. لا تفشي الأنعام أسرار الأسود. ولا يفشي الصقر حديثه للغربان. كل على ما تعود. ومن شاب على نسج الحصير عجزت يده عن نسج الحرير⁽⁴⁾. يكشف

من طواف الأصنام عاشت براء
وثني تقديس الأهواء

تهنك أسرارها في البلاد
بصعب إطلاقها للعباد

إلا وفياً صادق الوجدان
ولو أن فيهم قيصر الرومان
د ولا حديث الصقر للغربان
يوماً إلى نسج الحرير يذان

لا تعب في مراعيها النعم
لا تبج بالسر إلا للأسود

فطيرة حرة تعاف الدنيا
أنت في الكفر والتدين جمعا

ضرب الكليم، ص 27.

(1) وبالرغم من أن أهل القلوب
فيان الطرائق هذه الجريئة

جناح جبريل، ص 454.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 17 - 18.

(3) لا تصحب في شرب كأسات المني
لا ترج في ندماء غدر نشوة
لا تفش للأنعام أسرار الأسو
من شاب في نسج الحصير فما له
يا أمم الشرق، ص 343.

(4) إن سر الأسد في حصن الأجم
ليس كل الخلق أهلاً للعهد

القدماء لبعضهم أسرارهم بشرط أن يكونوا أهلاً لذلك. فلا تسر الأسد للنعام أسرارها. وليس كل الخلق أهلاً للعهود. الندماء للأصدقاء وليس للأذلاء أو للقياصرة أو الأباطرة.

ومع ذلك، يرفض إقبال تفرقة الصوفية بين العوام والخواص. فقد حلل الخواص على أنفسهم ما حرموه على العوام. لا يوجد الصدق إلا في العوام. والغوي غير التقى. الخواص يلوحون كالبرق. ينير ظلام العوام ولا يتعالون عليهم⁽¹⁾. العوام أفضل من الخواص لأن الخواص ثملوا ومروا⁽²⁾.

-
- | | |
|--|---|
| <p>أبعد السفلة عن حقل الندامى
لن ترى فيه النديم الخيرا</p> | <p>= عن تعاظيت مع الصاحب المداما
هبة كسرى فيه أيضا قيصر
السابق، ص345.</p> |
| <p>ما رأيت الصدق إلا في العوام
مع أهل الفضل والحق اجلسن
حطبا يجعل من غرب وشرق
وهو ذو حذق بحل العضلات</p> | <p>(1) كل خير للخواص كالحرام
التقى من غوي ميؤن
رجل الله يلوح مثل برق
نحن كنا في ظلام الكائنات
جاويد نامه، ص333.</p> |
| <p>فإن خواصهم ثملوا ومروا</p> | <p>(2) عوام القوم عابثهم رويدا
أرمغان حجاز، ص423.</p> |

2 - وحدة الوجود

العقيدة الأولى في التصوف غير الإسلامي هي عقيدة «وحدة الوجود» التي تنفي أي فرق بين الإنسان والله والعالم. هناك حقيقة واحدة متحققة، لا مكان فيها للعمل والفعل، ولا للمسافة بين المثال والواقع حتى يستطيع الإنسان أن يحقق بعمله وجهده المثال في الواقع. الإنسان خليفة الله في الأرض. والعالم فسيح لجهده وكده. ليس الإنسان هو الله ولا العالم. وليس الله هو الإنسان ولا العالم. وليس العالم هو الإنسان ولا الله. الإنسان موجود بالفعل. والله مثل أعلى. العالم ميدان للنشاط والكد والكدح. والإنسان حر مختار مسؤول عن أفعاله. والعبادة هو الاستخلاف في الأرض، وحمل الرسالة والأمانة. ومن هنا أتت ضرورة إثبات الذات في «أسرار النفس»، داعياً إلى تحمل المسؤولية من أجل بناء عالم جديد. يكون فيه الإنسان حراً. وتمحي فيه عبودية الإنسان للإنسان⁽¹⁾. هذا هو موقف التصوف العجمي مثل تصوف حافظ الذي ينكر الذاتية. ويريد إمامتها باسم الفناء في الله. وهو تصوف ابن عربي خاصة وحدة الوجود والغريبة على الإسلام. وهو تصوف القرامطة الذين أرادوا إسقاط الشرائع⁽²⁾. خلود الذات أمل. والأمل تحقق بالعمل والجد والاجتهاد. ولا يمكن ذلك عن طريق بوذا والتصوف العجمي⁽³⁾.

وفي عرض إقبال نظرية الوحدة المطلقة عند عبد الكريم الجيلاني والأصح الجيلي، يستعمل الفيلسوف الغربية كأداة للتعبير في نظرية الإنسان الكامل، تطويراً لنفس النظرية عند محيي الدين بن عربي⁽⁴⁾. ويعطي إقبال تأويلاً إنسانياً لها. فالإنسان الكامل يصف الله والإنسان في آن واحد. يفسرها الصوفية إلهياً، ويؤولها إقبال إنسانياً⁽⁵⁾.

وفي مقطوعة «إلى سيد مصاب بالفلسفة»، وحدة الوجود ليست فقط عند

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 7 - 8.

(2) السابق، ص 11.

(3) السابق، خلاصة مقالة الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 18.

(4) Iqbal: Thoughts and Reflections, the doctrine of Absolute Unity as expounded by Abdul Karim al - Jilani, pp. 3 - 27.

(5) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد. إلهيات أم إنسانيات؟ ص 600 - 664.

الصوفية بل أيضاً عند الفلاسفة الرومانسيين من أمثال هيجل وشلنجر. وفيها تُسقط الذات من المذهب لحساب الكل. ويصبح العالم من نسج الخيال. إنما هو برجسون الأقرب للحقيقة، إثبات الذات. الذات هو الطريق لإثبات الوجود، وتحويل الظلام إلى إشراق عن طريق الأذان أي الإعلان عن الإيمان. الفلسفات الهندية تذيب الذات في بحر الوجود. والفلسفات الوثنية تجسم الذات في الصنم، وتثبتها في الوثن. في حين أن الوحي عن طريق الأنبياء إثبات للذات من إبراهيم حتى محمد مروراً بموسى وعيسى. الفلسفات العقلية تبخير للذات، بعيدة عن الحياة، أفكار بلا أعمال، أصداء بلا أصوات، عقل بلا قلب، حرف وتدوين دون صوت وقراءة. ولا يغني ابن سينا عن علي بن أبي طالب، ولا يغني البخاري عن القرشي⁽¹⁾.

المسيح وإسبينوزا كلاهما تجليان لوحدة الوجود. فقد أخرج العرق اليهودي هذين الرجلين العظميين. المسيح هو الله المتجسد في الابن. وعند إسبينوزا المتجسد في العالم. فإسبينوزا هو الذي أكمل تعاليم قومه بالرغم من معارضتهم له⁽²⁾. ولا يمكن إنكار مساهمة اليهودية في الحضارة الإنسانية. ربما كان اليهود أول من نظّر لأخلاق رجال الأعمال وتلخيصها في مفهوم الاستقامة لمقاومة الربا والمصلحة والغدر⁽³⁾. فوحدة الوجود قد يكون لها أثار على السلوك الإنساني.

لم تحملن زُنار برجانا
طُلسمه جميعه خيالي
وكيف تجتاز الزمان الذات؟
وقصده دستور ذي الحياة
أذاً مؤمنٌ بهذا الأفاق
فلسفة بُعد من الحياة
للذة الأعمال حادي الموت
لدين أحمد وإبراهيم
«أبا علي» ارتكن يا ابن علي
فالقرشي اتبعه لا البخاري

(1) لو لم تُؤل ذاتك النسيان
أصداف هيجل من الخوالي
فكيف صاح تُحكّم الحياة
وطلب الإنسان للثبات
يُحوّل الدجى إلى الاشراف
عاقبة العقل إلى شتات
ونغمة الأفكار دون صوت
الدين في حياتنا تقويم
قلبك فاربط بالهدى المحمدي
إن تك بالطريق غير داري
ضرب الكلم، ص10.

St. Ref., p. 39.

(2)

Ibid., p. 56.

(3)

إقبال صوفي أبا عن جد، ولكنه يرفض وحدة الوجود لتنتائجها السلبية على حياة المسلمين. ومنها ظهور الرهبانية، ولا رهبانية في الإسلام. إنما الرهبانية في المسيحية وفي التصوف الإيراني⁽¹⁾.

3 - الفناء

كان يريد إقبال كتابة «من الفناء إلى البقاء» أي من «رموز النفس» إلى «أسرار النفس» أو «من السكر إلى الصحو» أو «من الخوف إلى الرجاء» أو «من الغيبة إلى الحضور» أو «من الفقد إلى الوجد» أي الانتقال من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية. الذات تبقى ولا تفتنى. والصراع مع الفناء يؤدي إلى البقاء. تصوف الفناء غريب عن الروح. وتصوف البقاء ديبب في الأرض⁽²⁾. والعشق يبقى ولا يفنى⁽³⁾. أما عند الصوفية وفي الدين الشعبي، الدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء. وإذا كانت غاية الإنسان الآخرة فإنه يتحول من دار الفناء إلى دار البقاء⁽⁴⁾. وهو أحد أسباب ضعف المسلمين وقوة الغرب. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء والتحول من الفناء إلى البقاء⁽⁵⁾. وسكون الليل معناه الفناء. واندفاع السيل إثبات للبقاء⁽⁶⁾. إذا استحكمت الذات فإنها تنتقل من الفناء إلى البقاء⁽⁷⁾. والروح لا تفتنى

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 20 - 23.

(2) بروحي للحياة مع الفناء صراع، لا أرى غير البقاء
رأيت ثراك عن روح غريباً فيه نضجت من روحي ديباً
زبور المعجم، ص 375.

(3) وما لأجيج عشق من فناء ونظرة ذي اليقين بلا انتهاء
السابق، ص 393.

(4) لنا الكاسات دارت بالفناء وقد ذقناه من وان ونائي
السابق، ص 398.

(5) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟
هو نفسه ما عاد يعرف ما الفناء وما البقاء؟
جناح جبريل، ص 512.

(6) اندفاع السيل إثبات البقاء وسكون الليل معناه الفناء

(7) فكيف تخاف من ريب الفناء؟ إذا نضجت، فعنها الموت نائي
زبور المعجم، ص 392.

إذا فني الحب⁽¹⁾. ونهضة الأمة مشروطة بذهاب درب الفناء، وقدوم عاصفة البقاء⁽²⁾.

قد يتساءل الملحد أو صاحب النزعة الإنسانية: هل الإنسان فان والله باق أم أن الإنسان باق والله فان؟ وإن تحقق الوحي كنظام مثالي للعالم، هل الإنسان في الأرض ويسكن السماء أم أن الله في السماء ويتحقق في الأرض؟⁽³⁾. الإحساس بالفناء هو الذي يعطي الذات الرغبة في البقاء⁽⁴⁾. وتتحقق هذه الرغبة بإشعاع الذات ونورها، وتحديد الجسم البالي وصقله لإطالة العمر⁽⁵⁾. والشوق هو الذي يحول الذات من الفناء إلى البقاء⁽⁶⁾.

يقود الزهد الشائع عند الصوفية إلى الفناء. وهو في حقيقته طوفان توارى في حجاب⁽⁷⁾. وكل ما في الأرض يفنى⁽⁸⁾. يتحدث الحكماء عن لحظتين. الوجد والفناء. فالوجود هو البقاء⁽⁹⁾. الفناء والبقاء معترك لا يدري الإنسان نهايته. الحياة

-
- (1) حقا أبو الحسن المحقق قال لي الروح لا تفنى إذا فني الجسد جناح جبريل، ص 417.
- (2) ولي زمان السوحدة المطروح في دروب السفناء خرجت أخيرا من صدور الغيم عاصفة البقاء السابق، ص 447.
- (3) إنني الفاني فهب أنت البقاء وأنا الأرض فسكني السماء جاويد نام، ص 142.
- (4) إنني الفاني ومالي من خلود وأنا حي ومثلي في اللحد السابق، ص 142.
- (5) أنت إن واجهت ذيك الضياء نسك طولا سرمديا للبقاء جسمك البالي جدد بالصقال واختبر ذاتك عش فالعمر طال السابق، ص 148.
- (6) إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم يمتنع الخلد لفان لا يدوم السابق، ص 255.
- (7) ما أنت إلا للفناء يا زاهدا أنسيت طوفانا نوارى في الحجاب؟ السابق، ص 169.
- (8) كل ما أنت تراه سوف يفنى الفلا والشاطئان، ليس شيئا السابق، ص 171 - 172.
- (9) وحديث الحكماء برهتان الوجود والفناء تصنعان السابق، ص 266.

موت وخلود في نفس الوقت⁽¹⁾. الفناء والبقاء في الحياة، بعد أو قرب في اللقاء⁽²⁾. إن الصلاة نفسها تقوم على الفناء والبقاء، في الدلال والدعاء⁽³⁾

نفي الذات فناؤها، وإثبات الذات بقاؤها⁽⁴⁾. وإذا انتهى الإنسان بالفناء فهو يسعد بالبقاء. الفناء سكر وعدم⁽⁵⁾. وتبقى الروح في الشعب. فإذا تشتت بفنى⁽⁶⁾.

الحج أيضاً أصبح مجرد شكل وصورة كالصلاة إن لم ينضو تحت الجهاد. شعائر بلا روح هو شعب مختل النظام. إن السجدة الحقّة تزلزل الأرض، وتجري الشمس، مثل سجدات الأوائل وليس سجدات الأواخر التي دب فيها الوهن⁽⁷⁾. الفؤاد خال من الحبور والنور. والصلاة ليس لها حضور. ولا تؤدي إلى أي ثواب. هذا كلام في الدين والوطن وليس بناء الدير الذي يبدو كالحطام⁽⁸⁾. يذهب

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | الفناء والبقاء معترك للحياة يحمل الموت الرسالة الرياح أشبهت هذي الحياة | ليس يدري المراء سرا للفلك والسعيد من وعى للموت حالة ما استقرت، كل ما تبغي الثبات |
| (2) | الفناء للحياة والبقاء | إنها خلق وشوق لنقاء |
| (3) | في صلاة البقاء والفناء | وهي كانا دلالة في الدعاء |
| (4) | إن فقدت الذات حققت الفناء | والوجود كان للذات عطاء |
| (5) | إن عرفت فانتهاه بالفناء تسكر الكأس خلت بعد امتلاء في الفناء لك شوق واحتدم | من سعيد في الفناء بالبقاء وعن العلم اغتراب كالفناء ذلك الموجود لا يلقي العدم |
| (6) | باجتماع القوم للروح البقاء | والشئونات فيه للروح الفناء |
| (7) | من بلاد الفرس هذا، ذاك هندي إن حجا وجهادا واجبان إن روحا في الصلاة والصيام سجدة، والأرض منها زلزلت ذاك عصر كان فيه خفض هام | حكم حج وجهاد ليس عندي للصلاة أو للصوم كائجنان إن نأت فالشعب مختل النظام وأرادت، فالشموس أجريت دب ضعف الشيخ منه في الحطام |
| (8) | فؤادي ليس فيه من حبور | ومن لهب خلا من تربى ونور |

المسلمون للحج كل عام يزورون أضرحة الأولياء. ينثرون عليها الزهور كل خميس. ينشدون المواويل الدينية. يختمون القرآن في أول كل شهر عربي للتقرب إلى الله. وفي نفس الوقت يعيشون حياة العبيد. والسبب في ذلك افتقارهم إلى ذوق العمل. لذلك كتب إقبال أول ديوان له بالأوردية والذي لاقى رواجاً كبيراً وهو «بانك درا» أي «صلصلة الجرس»، نظم قصائده في 1910 وأخرى في 1912 - 1913.

تجربة «أنا الحق» للحلاج ليست وهما ولا خداعاً بل هي تجربة الذات وهي تضع ذاتها بتعبير فشته⁽¹⁾. فهي تجربة بقاء لا فناء. بدونها لا تثبت الكائنات. إثبات الذات مثل إثبات العالم. والعالم تجل من تجلياتها. لها حرمتها. تشاهد بلا نظر، بل بقلب النظرة من الخارج إلى الداخل. تبقى كالطود بعد أن تفتى الدنيا. لا يستطيع الجدل العقلي نفيها. ومن ثم تكون تجربة الحلاج حق. هي تجربة الذاتية، تجربة العقل والقلب معاً، التفكير والتصديق والريب، تجربة العشق والوصال⁽²⁾. تعبر عن مقام الكبرياء. فكان جزاؤها الصليب أي الموت في رأي القضاة، والاستشهاد والكبرياء في رأي أهل الإباء. وهي تعبير عن حق شعب وجود بدمائه. تجمع بين الجمال والجلال. وتتجلى في سماء القلب. سما مقامه في العالمين فأصبح الإمام. لم يمسه أحد في الدنيا بشيء بعد أن حرم النوم عليه. «أنا الحق»

صلاتي ليس فيها من حضور
وهذا السر يطوى بالتمام؟
بنيت الدبر يبدو كالخطام

وعند القوم سر ما أقول
بذات حسنا قطع الصلات
تشاهدها بلا نظر، بخطر
كمظهر أي شبي قلت حتما
سبقى الذات، للدنيا الفناء
وحققها بما الحلاج قال

هو التفكير والتصديق والريب
فراق العاشقين هو الوصال

صلاتي تلك خذ منها ثوبا
أعن دين وعن وطن كلامي
فلا تغضب، جفوت ومن جفاء
أرمغان حجاز، ص 426.

(1) بحلقته مجوسي أشاعا
فما ذات لنا في الكائنات
حريم الذات ما بلغته نظرة
إذا سميت تلك الذات وهما
وما للطود والوادي البقاء
بذاتك ضع، ودع عنك الجدال
زبور العجم، ص 395 - 397.

(2) هو العقل المميز بل هو القلب
إذا نُصِجَتْ، لها امتنع الزوال
زبور العجم، ص 396 - 397.

بمثابة «كُنْ فَيَكُونُ» [البقرة: 117]⁽¹⁾. ويعرف السكيتون كمالات الصوفية مع أن كراماتهم غير معروفة أو مشهورة. مقام الصوفي الحر «أنا الحق»⁽²⁾.

أرواح الصوفية مثل الحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة لم تجد لها مستقر في الجنة. فصارت تطوف على الدوام وإلى الأبد. فالصوفي يريد الحراك وليس الثبات. أمره مشتبه. فلا حكم يصدق عليه. ويظل في دائرة الاشتباه⁽³⁾. الحراك في البقاء، والثبات في الفناء.

4 - عبادة الأصنام

دور العبادة أصبحت مثل دور الأصنام أو مثل الصوامع للانقطاع والعزلة. والمشتاق إلى الأصحاب لا يحتاج إلى مكان مغلق بل يحتاج إلى الفضاء الفسيح وفي أرواح الأحباب. من يعبد الأصنام في دور العبادة مرتاب. ومن يدخل على ذوي التسبيح يدخل بأسلاب. وقد يكون صاحب المسوح بالنهار نهاباً بالليل، والمتعب بالنهار سفاك دماء بالليل. وقد يرقص في جماعات بكاسات وأكواب يطلبون اللهيب من نار موسى. ويأتي كالفراش إلى الرسول اليتيم⁽⁴⁾.

(1) «أنا الحق» ذي مقام الكبيراء فهذا جائز في رأي فرد أليست قوله لاقت بشعب جلال فيه قد أخفى جمالا وبين العالمين سما مقاما ولم يمسسه في خلق لقوب يبين بهمة معنى أن الحق

أرمغان حجاز، ص 537.

(2) السابق، ص 537.

(3) جاويد نامه، ص 249.

(4) تضيق بدار أصنام ولكن نحو مشتاق فاقدم واتخذ مغنا وكيف وأنت رب الدار تغير على ذوي التسبيح وتطرق أهل زنار وذو جحفل لجب

أكان لها الصليب من الجزء ويبطل عند قوم بالإباء يجود وما لغصن فيه رطب تجلي في سموات لقلب فللدارين قد كان الإماما عليه النوم يجعله حراما ونأني بعد كن دوما يكون

لا ترضي بمحراب تسير بشوق أصحاب ك في أرواح أحباب تدخل خطو مرتاب؟ تحمل كل أملا بليل فعل نهاب لسفك دماء أصحاب

وفي رسالة المغير إلى أحد أبنائه الذي كان يصلي باستمرار لموت أبيه، يبين إقبال أن الثواب والعقاب من الله. وقد استمع إلى عديد من مرثي سكان الأرض. فقد سالت أنهار من دماء أثناء استشهاد الحسين. وصدرت صرخة من بين شفثيه. وبكى يعقوب ولم يتأثر. وعويل أيوب لم يؤثر فيه. ولا يستطيع العابد أن يؤثر في صياد الوسم بصلاته الغيبة⁽¹⁾.

وينطبق ذلك على كل الأديان، الإسلام والمسيحية والهندوكية. وهي الديانات الثلاث الكبرى السائدة في الهند. ففي المساجد الإسلامية والكنائس المسيحية وفي المعابد الهندوكية التي تفوح منها رائحة البخور والأطعمة الحريفة، بالرغم مما فيها من مئات المغريات إلا أن القلب غير راض⁽²⁾. ويدعو إقبال الصوفي إلى التنازل عن عرشه، هذه الحجارة المتربة المظلمة. تقدم الطبيعة تجارة رائجة ولكن بثمر غا⁽³⁾. والركوع للذات وحدها دون ما حاجة إلى معبد أو كنيسة أو صومعة أو بيعة لا في فارس ولا في بلاد العرب⁽⁴⁾.

بل إن الصلاة قد تكون لصنم. فالصلاة فعل من أفعال الشعور يقابله موضوع قصدي. وتتلون الوثنية طبقاً للعصور والأزمان. ما يهم في الصلاة هو فعل الشعور وليس مضمون الشعور⁽⁵⁾.

وإطالة الإمام الصلاة في المسجد تحويل الإسلام إلى كهنوت. وأثناء قيام وفد من الهلال الأحمر التركي بزيارة لاهور صاحبهم إقبال في المسجد للصلاة.

= وطورا في جماعات
وتأني باللهيب إلى
وتأني كالفرش إلى
بكاسات وأكواب
كليم غير هيب
بتيم شمعه كابي
رسالة الشرق، ص 317.

(1) A Message from the East, p. 91.

(2) Persian Psalms, p. 100.

(3) Ibid., p. 121.

(4) Ibid., p. 126.

(5) تلون في كل ثوب مناة
فهذا السجود الذي تجنويه
وشاب بنو الدهر وهي فتاة
به من ألوف السجود نجاة
ضرب الكليم، ص 24.

فلما أطال الإمام سأل الوفد التركي إقبال عن السبب فنظم إقبال القصيدة «صلاة العبيد». يرى أن الإسلام بعد الصلاة في حلف الجهاد، وليست الصلاة الشعائرية داخل المسجد. فالحياة كفاح، والشعوب حرة. وإطالة الصلاة داخل المسجد تحرم المسلمين من الكفاح في الحياة، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. ليست الصلاة هدفاً في ذاتها، بل وسيلة للإحساس بقيمة الوقت وأداء الواجبات في أوقاتها ومع الجماعة. هذه هي الصلاة الرمزية. أما الصلاة في الحياة فهو الجهاد⁽¹⁾. إن دعاء الشيخ داخل المسجد ليس جهاداً خارج المسجد. إنما الذات هي التي تقاوم في الرباط. والشرارة لا تلهب الرماد⁽²⁾. بل إن التصوف العملي، قيام الأسحار ليلاً والتهجد والتعبد دون أن يرعى الذات، لا قيمة له⁽³⁾.

إن العبادة بلا قوة أقرب إلى حياة الكهوف. والتصوف يؤدي إلى الموت والذل واليأس. ويظيل المسلم الهندي في السجود، والإسلام يريد أن يجعل منه سيداً⁽⁴⁾. الدعوة خارج الكهوف وليس داخلها. واشتعال همم الفتيان ونبد الذل يظلم القلب، ويبدد الحيرة. هذه الدعوة التي يغلب عليها مس الجنون خير من خلوة شيخ الحرم. تحتاج إلى مكافأة منه⁽⁵⁾. ولا فرق في ذلك بين الإسلام

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | قال بعد الصلاة حلف جهاد ما دري ذاكم المجاهد المؤمن الغر كم لدى الحر في الحياة كفاح حرم العبد حرقة الكد عجزا لا تعجب إذا أطال سجودا رب وفق أئمة الهند يوما السابق، ص112. | كم يظيل الصلاة فيكم إمام صلاة العبيد كيف تقام غيرة الحر للشعوب قوام فعلى وقته المضي حرام ما لديه سوى السجود مرام لسجود تحيا به الأقوام |
| (2) | شيخ المساجد! ما دعاؤك سحرة ما «الذات» يرجى في رباط خلقها السابق، ص122. | أبه الحياة بلا جهاد تظفر هل للشرار من الرماد تسعر |
| (3) | وقيام الأسحار في طول وجد السابق، ص22. | ليس للذات راعيا، ليس شينا |
| (4) | يا عابدا ليس لديه قوة وهات إسلاما به تصوف للشيخ في الهند أجزت سجدة السابق، ص22. | إذهب إلى كهف وسبح واعبدا إلى الردى والذل واليأس هدى فحسب الإسلام حرا سيدا |
| (5) | ودع الخلوة يا شيخ الحرم | واسمعن في الفجر مني ذا النغم = |

والهندوكية. بل إن الإسلام الهندي ربما أصبح أقرب إلى الهندوكية منه إلى الإسلام بعدما غلبت عليه الشعائر، وقويت فيه السلطة الدينية. فلا فرق بين إمام المسجد وإمام المعبد. كلاهما إمام بلا مؤمنين، ورعاة بلا رعية. الإمامة خارج المسجد وليست داخله⁽¹⁾.

الحر لا يقيم في الدين. ولا ينحت الأصنام⁽²⁾. فالإنسان يعبد ما يصنعه. ويرى بالعين ما ينحته باليد⁽³⁾. وهو خروج على الفطرة التي نشق من ذاتها. ليس ما يجذب الانتباه هو نقش بالمساجد وزخرفتها بل ما يحدث خارج المسجد في العالم الذي يستدعي النظر والانتباه⁽⁴⁾.

لا تحطم الأصنام إلا الذات. في حين أنه حين تشييدها قد يقيمها الآخرون للذات. كل ذات قادرة على تحطيم أصنامها. والغير لا يعرف إمكانيات الذات ولا قدراتها. بل قد لا يكون قادراً على أن يدرك نفسه⁽⁵⁾. نحت الأصنام صنعة العاجز الذليل. أما صنعة الخليل فهي التي تؤدي إلى العلا. ليس الإنسان مجرد نفع بل إنه النجم والمدار. وإذا كان نقعاً وغباراً فإن المجنون يستثيره⁽⁶⁾. وصرخة الفجر في

= يحفظ الله لك الفتيان في
هم عن الغرب زجاجاً أخذوا
في جنوني أسرار بدت
السابق، ص 39 - 40.

Persian Psalms, p. 61.

(1) بهذا الدبر حراً قد أقمتنا
وأصناماً كما نهوى نحناً
زبور العجم، ص 378.

(2) وننحت مثل صورته الحجارة
ونسجد ما رأته العين نارة
هتكنا ستر فطرتنا علينا
مجال حبيبنا ها قد رأينا
السابق، ص 386.

(3) إن كانت اقتصرت على نقش المساجد هممتي
لي ساعة تجتاح فيها الكون حدة نظرتي
جناح جبريل، ص 407.

(4) إن أصنامي التي في معبدي
لم تحطمها يد غير يدي
ذلك الأعمى الذي تقصده
هو لا يبصر حتى نفسه
نحت أصنام آزر
مثلها تلك التي في معبدك
فترفع عن يد غير يدك
ماله علم بما في قلبك
وتراه تحفة من ربك
صنعة العاجز الذليل

قرارة النفس هي التي تقضي على صنم العين من تصورات الذهن. أما طريق الخليل فهو سبيل الإقدام على النار بثقة واطمئنان. قد يؤدي الحب إلى السكر فيعيب السكران بحبال الصيد التي أوقعته وهو سعيد بها وكأنها هي التي تحرره. فالقيد أولى درجات التحرر⁽¹⁾.

مهمة الذات تحطيم الأصنام كما فعل محمد والغزنوي عندما حطم الصنم الكبير. ورفضوا مقايضته بالذهب والجواهر والحريير. فأفضل أن يسمى هادم الأصنام من أن يُسمى بائع الأصنام⁽²⁾. ليس السجود تهدل الكتفين من طول القعود. ولا يوجد سجود أفضل من سجود. كله سجود وخنوع. كل هذه السكنات والأصوات والترانيم وجل يطارده الفناء ألوان الأصنام وأصوات الساجدين. والأصنام عمياء صماء. هذه مرحلة من مراحل نمو الذات. ولا تغني الجزر القرية عن السواحل البعيدة. للأسف لم يكن للنار لهيب. ضاعت شرارتها التي كانت بنظرها تهيب⁽³⁾.

= والذي يطلب العلا
لست نفعاً مجرداً
من جنون مثابر
جناح جبريل، ص 461.

(1) كل شيء هناك تُعرب عنه
صنم العين كل لون تراه
ممكن أنت أن تكون خليلاً
فيم هذا المحب يعيب سكره
لم تزد الشباك إلا صبوراً
صرخة الفجر في قرارة نفسي
يجعل الكون هيكلًا للعقول
في صراخ الصباح بعد الأفول
بحبال الصيد التي أوقعته
وكان الشباك قد أطلقته

(2) لما أراد الغزنوي يحطم الصنم الكبير
جاؤوا إليه بكل أصناف الجواهر والحريير
فرمى بسما جمعوه في بحر وبدده جميعه
وأجاب جئت لسكي أحطمه وليس لسكي أبيعه
فلأن أسمى هادم الأصنام خير في السلوك
من أن أسمى بائع الأصنام من بين المملوك
جناح جبريل، ص 518.

(3) ليس السجود تهدل الكتفين من فرط القعود
ما كان يغني عن سجود آخر فهو السجود
من هذه الأصوات والألوان عالماً خليط
وجل يطارده الفناء من المحيط إلى المحيط
أصنام ألوان وأصوات تلم الكون لما

الكافر صاحي الفؤاد. وعابد الصنم خير من مؤمن مات في الحرم⁽¹⁾. الإمام والصلاة والحرم والمداد والكتاب والقلم كل ذلك لا يكفي المسلم الذي وسعته الدنيا⁽²⁾. وعن بصيرة تحطم الأصنام بعد تمزيق كل الحجب وافتراق كل السحب. قد فعلها الخليل ولم يفعلها المعاصرون⁽³⁾. ولا يمكن الوقوف أمام أصنام جديدة⁽⁴⁾. صارت الهيجانات القديمة رغبة باردة سقيمة. وأصبحت دماء المسلم باردة. تبارك الأصنام كفره⁽⁵⁾.

توضع الذات تحت التجربة. ومنها تحطيم الأصنام يوماً واحداً دون خوف من تخريب المعبد، وتحطيم أوثان الأجناس والأعراق وكسر أغلال التقاليد التي تكبل الذات من غير طائل. ليس دين الكهان هو طريق الخلاص. الدين هو دين الله الذي يؤكد وحدانية الذات. وشرطه الحفاظ على القلب دون أن تدوسه أقدام العباد. ومن يزرعه في صدره يجد المتعة أيام الحصاد⁽⁶⁾. والقادر على تحطيم معبد

= أسفا على سمع وعين ألفا عميا وضُفَا
الأمر مرحلة ودرب الذات تذخر بالمراحل
ما أبعد الجزر أنني تغريك عن تلك السواحل
يا أنت نارك لم تكن من موقد هذا لهيبه
ضاعت شرارتك التي كانت بنظرتها تهيبه
السابق، ص 518.

(1) كافر صاحي الفؤاد ذو صنم يفضل المؤمن نام في الحرم
جاويد نام، ص 166.

(2) الإمام والصلاة والحرم والمداد والكتاب والقلم
إنما الإنسان دنيا قد وسع هذه الدنيا له لم تنسع
السابق، ص 201.

(3) وبعين مزقت كل الحجب ونظرن واخترق كل الحجب
سنرى الأرباب حتما كلها وأنا أعلم حقاً حالها
بعل ومردوخ ويعوق ونسر وقسر رم خن ولا ناد ومناة وعسر وغر
إنها للبعث تأتي بالدليل فالزمان ليس فيه من خليل
إلام بعين عينك أنت تنظر وأصنام لديك إلام تحضر؟
أرمغان حجاز، ص 427.

(4) السابق، ص 532.

(5) ليس يجدي الهم في شيء إذا لم تضع ذاك تحت التجربة
حطم الأصنام يوماً واحدا لا تخف معيها أن تخربه
حطم الأوثان أوثان الحروق واهدم الأصنام أصنام القبائل
وانفض أغلال التقاليد التي تتعنى خلفها من غير طائل

الأوثان يكون مثل إبراهيم في الإيمان⁽¹⁾.

وفي ميدان الفكر الإنساني، محمد وبوذا وكانط كانوا أكبر ثوار. وفي ميدان الفعل، نابليون لا ينافسه أحد. ولا يوضع المسيح بين ثوار العالم لأن الدين الذي أسسه تم استيعابه بسرعة في الوثنية اليونانية الرومانية السابقة عليها. المسيحية الأوربية ليست إلا ترجمة هزيلة للوثنية القديمة في لغة اللاهوت السامي⁽²⁾. يواجه الإسلام والمسيحية نفس العدو، عبادة الأوثان. والفرق بينهما أن المسيحية ساومت مع العدو في حين أن الإسلام دمره تماماً⁽³⁾.

5 - المسجد والدير

المسجد في الهند خلا من كل صوت. ديرها خمد ناره⁽⁴⁾. شيد الناس في الهند الدين وما يزيد المؤمن إلا كفرة⁽⁵⁾. والخشب لعمل الإناء أفضل من عمل المنبر أو الصليب⁽⁶⁾. أهل التصوف ذئاب لا يعرفون القرآن. يعرفون فقط الصباح والضجيج في الخوانق، وأفضل منهم السكارى العاشقون لله⁽⁷⁾. ومسلم الخانقاه

= لا تقل أنشد في الدين الخلاص
إن دين الله في الدين الذي
الذي يزرعه في صدره
جناح جبريل، ص 538.

(1) كن مثل إبراهيم في الأعيان
يا أمم الشرق، ص 342.

(2) St. Ref., p. 38.

(3) Ibid., p. 99.

(4) مسجد فيها خلا من صوت حشد
جاويد نامه، ص 308.

(5) هنا قد شيدوا ديورا عجيبا
أرمغان حجاز، ص 430.

(6) إن للقرآن علما أن يُعرف
الصباح والعجيج في الخوانق
السابق، ص 333.

(7) لدي المال من خشب لئلا
السابق، ص 497.

خجول. هانت شؤونه عليه. فمات هو ودينه سارت أحواله وبدت للعيان⁽¹⁾. بنى الشيخ أساطيره على ما تلقى من أقوال. الإسلام لديه زنار وعمه ودير⁽²⁾. رجال الدين عاكفون على التظاهر، السبح التي تدور، ولا يعرفون شيئاً من شؤون الدنيا⁽³⁾. وبناردير يحرس حارس الكعبة التي مات فيها اليقين. واتجه إلى الغير. نظرتهما قصيرة. تجلى بأسه من كل خير⁽⁴⁾. وبیت الله في القلب، يغني ويطرب⁽⁵⁾.

لقد ضاقت الأرض اليوم بالمسلمين. وكانوا قد احتووها من قبل. سجدتهم اليوم أردتهم إلى العبودية في حين أن سجدة القدماء جعلتهم يحكمون العالم⁽⁶⁾. أصبحت المساجد مواطن للشكوى، قادرة على إحراق قلب الشيخ⁽⁷⁾. السجود في مساجد اليوم عار⁽⁸⁾. لقد افترق المسجد عن القلب. وسار كل منهما في طريق معاكس للآخر. المسجد يفرق. ويخرج منه الناس شيعاً وفرقاً وأحزاباً. والقلب يوحد الناس ويجمعهم على المحبة والإخوة في المسجد. يزل القدم، والحب يقيم الناس، ويساعدهم على النهوض. المسجد يطيل البحث والنظر. ولا يصل إلى شيء إلا إلى الحيرة. والحب أقصر الطرق إلى اليقين. ضاعت العقيدة باثنين وسبعين فرقة

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | خجول مسلم هانت شؤونه
وعمن أحواله لا تسألني
السبق، ص442. | له الخانقاه فقر، مات دينه
فقد ساءت وفيها حار ظني |
| (2) | أساطير متاع الشيخ حقا
له الإسلام بانزنار يبدو
السابق، ص442. | من الأوهام أقوالا تلقى
وذا حرم ومن دير تبقى |
| (3) | رجال الدين سبحتهم تدور
زبور العجم، ص383. | بأمر الحكم ليس لهم شعور |
| (4) | ويحرس كعبة بنار دير
وتقصّر نظرة منه وفيها
السابق، ص445. | يقين مات فيه، رنا لغير
تجلئ بأسه من كل خير |
| (5) | وبیت الله أحويه بقلبي
السابق، ص445. | أغني ما بقلبي ثم أطرب |
| (6) | السابق، ص454. | |
| (7) | نصتد في مساجدنا أنينا
السبق، ص493. | على إحراق قلب الشيخ يقدر |
| (8) | لجسم أنت تسجد أو لدارا
السابق، ص497. | فلا تلحق ببیت الله عارا |

ضالة. ولا يصل إلى اليقين إلا الفرقة الناجية. وهي ليست فرقة السلطان، بل فرقة الحب والوجد. ليست فرق العقيدة والشريعة، العقائد والفرق، بل فرقة الحقيقة والطريقة. يقدم المسجد إسلام النقل والكتب والورق. ويقدم الحب إسلام التجربة والذوق. الأول إسلام جاف يابس. والثاني إسلام رطب غرض طري. همة الدرس لن تصل إلى المعنى في حين أن الحب دائم الحلاوة حتى في محنه وسفه. فالحب بلا جنون عقل مقنع. الحب رعشة ورعدة وخوف وارتعاش بلغة كيركجارد حتى يوم الحشر. يشق الصخر بجذوته. بل هو قادر على كشف الأسرار، ونزع الأستار حتى عن الذات الإلهية⁽¹⁾.

ليس المسجد مكاناً أو بنياناً بل كل أرض للمسلمين. ولا يجوز بناء مسجد في أرض في يد المستعمرين⁽²⁾. فتحريرها سابق على بناء مسجد فيها. إذ لا تجوز الصلاة في الدار المغصوبة طبقاً للفقهاء الحنفي القديم⁽³⁾. وما فائدة نقوش وحروف

(1) استفت قلبك كيف المسجد افترقا
وأبن ذو جلد منهم يمر به
الحب، يعرف من زلت له قدم
وأنه جرح سهم إن صبرت له
ضاعت عقيدة قوم في مصادمة
هيهات يدركها من ليس من دمه
درس الشريعة غير الوجد وهو كما
وإنه وكما نفقت تجارنا
غصن اليقين الرطيب الوجد ينبت
الحب في قحة يحلو وفي سفه
ولا تكونن إذا حب بلا سفه
لن تهدأ الرعدة الملقاة في خلدي
إن لم تشق بسيف السكر جذبتها
جناح جبريل، ص 438 - 439.

(2) قال خير الخلف تاج المرسلين
كيف يعلمو منير للمسلمين
يألها كارثة في العالمين
حرر الأرض معاً والمسجدا
يا أمم الشرق، ص 359 - 360.

(3) في حديث المصطفى شمس الهدى
كيف تبني فوق أرض مسجدا
السابق، ص 365 - 366.

وكيف يخرج من محرابه فرقا
تقوى طويته إن تكنم الخرقا
بأنه أقصر الأثياء أزمانا
أوتيت من جعية الصياد سلوانا
بائني وسبعين واد من معانيها
وجد يؤلف قاصيها ودانيها
رأيت منتشر في جملة الفرق
إسلامنا الغير مكتوب على الورق
ولا يفوح بغير الوجد معناه
فكن بحبك في هذين سكيرا
فإن ذلك لا يجديك قطميرا
ولن تراقب يوم الحشر ذا جاء
شقت أمام البرايا معطف الله

كل أرض مسجد للمؤمنين
فوق أرض في يد المستعمرين
مسجد الهادي بأيدي الغاصبين
لا يكن غيرك فيها سيذا

كل أرض مسجد للمؤمنين
إن تركت الأرض للمستعمرين

للآيات القرآنية على المساجد، حوائطها ومنابرها وقبلتها. يسجد المسلمون داخلها. والأفضل أن يكونوا وقوفاً خارجها استعداداً للحركة والمواجهة⁽¹⁾. ليس عن طريق المسجد والآيات المرتلة وليس عن طريق المدارس العالمية يستطيع الإنسان الحصول على راحة النفس وشفاء الضمير بل عن طريق العودة إلى القلب، بحثاً عن الحبيب المفقود⁽²⁾.

مصباح الثائر شمعة في قصعة من خزف. تذوب ليلاً وتنطفئ إذا هبت الريح. والآن، ما فائدة المصابيح حول المزار؟ ولماذا الضريح والعطور والستور والحجار؟ كم كعبة للمسلمين وكم صنم في الحرم؟ بنيت القباب فوق الرؤوس حتى ضحكك عليها الأمم. نذور الأولياء ربا. صاحب القبر مختبئ. والمرابي متخفي. هم أولياء بالورثة. لقد حلت الغربان مكان النور⁽³⁾.

وفي الدير خطيب صياد، واعظ يتحدث عن جهنم. والكافر في قوله أفضل. وهل جهنم لسواه؟ والمريد رأيه أفضل من رأي الشيخ السديد الذي جعل رزقه من تراكم هذه اللحدود. إذ قال الغلام للشيخ إن هذا العصر عصر نمرود فأين الخليل؟ لماذا جعل الصوفي والمُلا نفسيهما أسيرين وفي القرآن متسع للعيش؟ خطأ الصوفي والمُلا تأويل النص بما يهويان وطبقاً لمصالحهما ولصالح الحكام فاختار الناس⁽⁴⁾. ومن نام

(1) أي مستهين بكلمة ملام
هذه الأغبياء تسجد لما
جناح جبريل، ص 450.

(2) Ibid., p. 106.

(3) أنا فانوسي الذي أملكه
إن أقمت الليل ذابت وإذا
ما الذي يفعله سيدنا
ثم ما معنى مزار وضريح
يا إلهي كم لنا من كعبة
وفقاعات قباب فوقهم
ليس ما يعطى لهذي الأولياء
المرابي دائماً مختبئ
أترامهم سلكوا كالأولياء
ملا الغربان أوكار النور
السابق، ص 548.

(4) ببيت الله صياد ودير
وللصوفي لم يك أي ضمير

تحت محراب المسجد هو الذي تاه في بيت أوثان الإفرنج⁽¹⁾. خطيب المنبر والمحراب خال من الهمّة والنشاط. فالدين للمؤمن إما الموت وإما الحياة⁽²⁾. فليخرج الصوفي من الخانقاه وليقلّد علي. مقر الخانقات هو الهم. رائحة الرهبان تهب من الدين والخلق⁽³⁾. وحديث الشيخ والبرهمن حديث سحر وخرافة⁽⁴⁾.

وحين امتلأت كنائس بالإنجليز بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب، لا توجد في مساجد المسلمين إلا المواعظ والصلوات. يعاني القرآن من كلام المفسرين. ويجعلونه أشبه بكتب المجوس⁽⁵⁾.

حياة الدير ليست حياة العصر. والحديث بالألغاز لم يعد مقبولا. انتهى العصر الذي كان يقال فيه للميت قم فيقوم. فماذا يفعل المقيمون بالدير فيه؟ هل يحترمون القبور أم يحفرونها؟⁽⁶⁾.

ومنه كافر في القول أحزم
وقال جهنم لسواي فاعلم
لشيخ فاه بالقول الشديد
تكوم فوق هاتيك اللحدود
تأمل واستمع لي باهتمام
فمنه اخلق خليلا للأنام
وفي القرآن للعيش الكثير
كلام الله قالا بالتمام
فحار الروح بل خير الأنام

تحدث واعظ لي عن جهنم
غلام حاله ما إن دراهما
مريد كان ذا رأي شديد
وجني الرزق موت، من تراب
لشيخ كان ذا قول الغلام
لهذا العصر نمrod جديد
لملا أو لصوفي أسير
على الصوفي والملا سلامي
ولكن أولا ما أولاه

أرمغان حجاز، ص 464.

- (1) السابق، ص 532.
- (2) السابق، ص 534.
- (3) السابق، ص 537.
- (4) السابق، ص 540.
- (5) هل في مساجدنا بكل بلادنا
قرآنك الحق المبين وإن يكن
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا
القرآن بازنذا المجوس لكان
جناح جبريل، ص 420.

- (6) لا العصر للقول بالألغاز محتمل
مضى الذين قالوا لميتهم
فما الذي بعدهم في الدين تفعله
أخدمة لقبور القوم ما برحوا
ولا أنا استطيع اليوم إلغازا
قم، قام فيهم بإذن الله واجتازا
جماعة بمذاق الدير كنفارا
أم أنهم لقبور القوم حفارا
السابق، ص 544.

أصبح الدير مقصد الأمة وفي نفس الوقت تبع المسجد⁽¹⁾.

ليس الطريق هو طريق الدير بل طريق القلب. الحياة نداء على القوافل لبداً المسيرة مع الركبان دون توقع موعد للبداية أو النهاية. إنما النهوض واجب. وهو نهوض لا يناسب عزلة الدير أو سلطة العقل. الطريق طويل وكثير الأشجان كما يصف الغزالي والصوفية معه⁽²⁾.

6 - العزلة والرهينة

ليس الدين هو الدعاء مثل دعاء نوح أو الصلاة مثل صلاة العابد أو الاعتزال مثل اعتزال الراهب. الإنسان قادر على أن يحول الترب ذهباً، والسماء لهباً. فالكليم فجر من الصخر ماء. وشيمة الأنبياء ليس الذكاء والدهاء بل الفطرة. ويدعي الولي أنه مثل النبي. وشتان بين التقليد والاجتهاد، بين النقل والإبداع⁽³⁾. ليس للعاجز الضعيف حياة دواؤها العبادة. فالصلاة لم تعد توجهاً إلى الله بل أصبحت عادة، حركات فوق سجادة، وسجادة بلا حراك. ويتم إعلان النصر قبل بدأ المعركة⁽⁴⁾. السجود لرب لا يُحد يجعل الصلاة بلا معنى، وسيلة لا توصل إلى

- | | |
|---|--|
| (1) أصبح الدير لنا مقصدا
يا أُمم الشرق، ص 363. | نحن للغير نبيع المسجد |
| (2) دوى النداء على القوافل معلنا
أواه ماذا يفعل هذا الساري
انهض فخمرك لا تناسب هاهنا
سيان كان القلب عبدا طائعا
فالدرب يا هذا المسافر صعبة
جناح جبريل، ص 461. | بدء المسير فقم مع الركبان
يتوقع الترحال كل أوان
ديرا وعصرك غير طبعك فان
أو لم يدع للعقل من سلطان؟
وطويلة وكثيرة الأشجان |
| (3) إن نوحا لم يجد غير الدعاء
اعتزل في الغار ورحل عن ديار
وبعين اجعل الترب الذهب
كالكليم في الجبال كن شريدا
وتناس شيمة للأنبياء
بين من هاتوا تهون الفطرة
الولي إن شأى يوما نبيا
قم وفي عش انفراد عزلتك
جاويد نامه، ص 174. | والدعاء كان خلوا من غناء
نحو أهل النور عن محض اختيار
وينجواك السماء من لهب
واحترق مما رأت عين بعيدا
دعك من فرط الذكاء والدهاء
والرماد في الرياح الجمرة
للهموى كان النبي داء عصيا
ولتدع هذا التجلي خلوتك |
| (4) ليس للعاجز الضعيف حياة | ودواء الضعيف ذوق العبادة |

غاية⁽¹⁾. وعلى لسان الشاعر الهندي برتري هري شاعر الحب والخلق والزهد في القرن السابع الميلادي يرفض إقبال دين الرسوم والأشكال وعبادة الأصنام الحسية أو الخفية والسجود والركوع بلا شعور، والشعائر بلا عمل حتى ولو كان غزلاً بخيط. وللعامل الجزء الأوفى⁽²⁾.

السجود نوعان: سجود فارغ خال وسجود يهب خراج الأرض. الأول سجود الصوفية، والثاني سجود المحاريين⁽³⁾. السجدة التي لا يحترق بها الساجد ويتحول فيها الكون إلى وجد سجدة فارغة⁽⁴⁾. والسجود على رمل يتلظى عليه الوسم ويحترق الجبين⁽⁵⁾. صلاة القلب لا تحتاج إلى سجود في معبد بل إلى تحطيمه. وليحذر المسلم السجود الخالي من كل ذوق⁽⁶⁾. هناك حرم به صنم هو الشيخ الكبير⁽⁷⁾.

-
- | | |
|---|---|
| فصلاتي كما صلاتك عادة
فوق سجادة بغير حراك
تعلن النصر قبل بدء العراك | لا تقل في الصلاة: وجهت وجهي
نحن سجدة لها حركات
إن حرباً أيقظناها نحن حرب
السابق، ص 460. |
| (1) الصلاة ما ارتضاها قط عبد | (1) ما السجود ولرب لا يُحد
السابق، ص 182. |
| هذه الأبواب شئت وهي من طين وصخر
برتري كان يعبد عن كنيس بل ودبر
عمل تلك الحياة، وهو من خير وشر
مغزل بالخيط دوزت ولكن لست تدري
ما لهم هذا النعيم والجمع غير أجر | (2) سجلت من ذوق أعمال خلت لا خير فيها
عالم أنت تراه ليس من آثار رب
اسجدن عندما للعاملين من جزاء
السابق، ص 298. |
| خراج الأرض والأرض الخلاء | (3) عجب أن تكلفني سجوداً
أرمغان حجاز، ص 424. |
| ومنها الكون في وجد يمد | (4) فهبني سجدتي فيها احتراقي
السابق، ص 426. |
| عليه الوسم يحترق الجبين | (5) ألا فاسجد على رمل تلظى
السابق، ص 437. |
| مقامي أين؟ كنت المقيّد
لقد حطمتته وهو المبدد | (6) فؤادي لم يرق أحداً بمعبد
إله يستغي مني سجوداً
السابق، ص 451. |
| به صنم هو الشيخ الكبير | (7) لنا حرم فماذا يستعير؟
السابق، ص 443. |

صلاة العشق غير محددة بوقت وأذان وخطاب بل بمقام العشق. تبدو فيها «الله أكبر» خمس مرات للناظرين. يدوم بها نداء العالمين، ويخلد بها المسلم. ولا يعلمها صريع العصر⁽¹⁾. السبحة في اليد لا لزوم لها. ولا للزناز في الوسط. والتمسح بالأبواب لا يؤدي إلى شيء. لا يدخل المساجد إلا الملاء. ولا يدخل الدير إلا السحرة⁽²⁾.

قراءة القرآن لا تكون في زاوية أو ركن من المسجد بل هو أمر للتبليغ لكل الناس. هو نار مثل التي وضع فيها نمرود الخليل. فمن يشارك في ثورة الخليل يكون له نصيب في جبريل⁽³⁾. لا تتم قراءة القرآن في عزلة بل في جماعة لإسماعه لكل العالمين⁽⁴⁾. لا تتم في الدار بل أمام الخلائق أجمعين حتى يستجيب الكون.

يسأل إقبال عن هذا العصر الذي يستلزم النزال. وفيه يخبو لهيب الشعر في

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | صلاة العشق مَبْرُها بوقت مقام العشق بفعمه اليقين أنسأل عن صلاة العاشقين أرى «الله أكبر» مثل نار نداء العالمين بها يدوم صريع العصر فينا ليس يدري السابق، ص 499 - 500. | فليس لها المؤذن والخطيب يقينا يصحب الروح الأمين وفيها خفية هم ساجدون أقي خمس بدت للناظرين ومنها سليم خلدا يروم قيامات «لقد قامت» تقوم |
| (2) | ويحفظ برهمي كل أمر وهذي سبحة قال اطرحها قال لتبتعد عن باب غير وما تسع المساجد غير ملا السابق، ص 477. | ولا يفضي إلى أحد بسر يزناز على كتفيه يجري فمن أهل لنا نحظى بخير ومن سحر الدمى كانا بدير |
| (3) | أيها الشادي بقرآن كريم قم وأبلغ نوره للعالمين إن تكن في مثل نيران الخليل من له من ثروة الهادي نصيب يا غريبا عن مقام المصطفى يا أمم الشرق، ص 362. | وهو في ركن في البيت مقيم قم وأسمعه البرايا أجمعين أسمع النمرود توحيد الخليل فهو من جبريل في الدنيا قريب عد إلى الحق تجد نور الصفا |
| (4) | أيها الشادي بقرآن كريم قم وأسمعه لكل العالمين السابق، ص 358. | وهو في عزلته ناء مقيم قم وأبلغه البرايا أجمعين |

الحياة الصاخبة. ويجيب الرومي بأن العزلة ليست غاية في ذاتها. ومع الأحباب تصبح الجماعة شهداً. فليترك الإنسان العزلة، ويعيش مع الجماعة، وينتقل من جماعة لأخرى. الناس تشتري الفراء ليس من أجل الربيع بل للترين⁽¹⁾. ولا تترك الدنيا ليلاً ونهاراً بل تسخيرها وليس تدميرها. ومن يعلو صهوتها يأمن الخطر منها. هي وسيلة للآخرة. هي صيد المؤمن الحر الجسور مثل أن يصطاده فيها الغرور⁽²⁾. والصحة مع صاحب القلب العظيم لإدراك الأمور العظيمة. وإذا ولد الإنسان عبداً على مهاد الذل فعليه الجهاد حتى يموت حراً كريماً⁽³⁾.

وبالرغم من استشهاد إقبال في أول «الأسرار» و«الرموز» بجلال الدين الرومي إلا أنه ينقد حافظ⁽⁴⁾. فهو فقيه أمة الأذلاء، وإمام أمة المساكين، وقائد النعاج. كتب إقبال خمسة وثلاثين بيتاً ضد حافظ ناقداً إياه نقداً لاذعاً مما أثار حفيظة أتباعه ومحبيه. حذفها من الطبعة الثانية ووضع مكانها «حقيقة الشعر وإصلاح الأدبيات الإسلامية».

لا يتحمل إقبال السكوت. وكان من شدة غيظه يتمنى أن يموت. إذا بشر الحجاب بالفردوس ملأ رفض إقبال لأن الملا لا يهتم بمغاني الله ونعمه. هو

(1) قال: يا أستاذ! إن العصر يستدعي النزال
ولهيب الشعر يخبو
وقلده دون اعنزال
قال: يا إقبال، لست
نقصد العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي
تصبح الخلطة شهدا
بذمة العزلة واذهب
من قطيع لقطيع
تشتري الناس فراء
ليس من أجل الربيع
جناح جبريل، ص 528.

(2) أيها الناصح ليلاً ونهاراً
إن معني تركها تسخيرها
والذي يعلو على صهوتها
فاتخذها من مطايا الآخرة
داعيا أن نترك الدنيا احتقارا
في سبيل الخير لا تدميرها
يأمن المحنة من عثرتها
تنج من تلك العجوز الساحرة
هي صيد المؤمن الحر الجسور
قبل أن يصطاده فيها الغرور
يا أمم الشرق، ص 360.

(3) فصاحب من له قلب عظيم
ولدت على مهاد الذل عبدا
لعلك تدرك الأمر العظيم
فجاهد ثم مت حراً كريماً
السابق، ص 373.

(4) الأسرار والرموز، مقدمة ص 16 - 17.

سكران دائماً بلا فجر أي غائب عن الوعي. لم يعرف من العلم إلا القليل والقال. ويظن أن الدين المنزل مجرد جدال. العبد لا يكون جباناً فكيف يكون زعيماً وهو لا يحسن أي شيء؟ لم يعد أباه إنسان بما أنزل إليه. فإذا فعل شيئاً فإنه يكفر الآخرين. لا يرى في الخلق مطيعاً إلا نفسه. وكيف يرضى الله عن غبي يكفر الناس جميعاً؟ لا يوجد في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع. إنما الفردوس فيض حب من صدور العاشقين⁽¹⁾.

لا يوجد في حواشي الصوفي إلا الغبار بالرغم من ادعائه أنه يخوض الحروب ويهزم فيها. زالت حرارة الحب عنه. وارتضى بالحياة السقيمة. لم تكن حربه للغنيمة، بل كان هو الغنيمة للعدو. تتراكم الكتب لديه للقراءة. ويصل الليل بالتهار للعبادة. ليس لديه إلا حكايات وروايات عن الأولياء يسمعها الصغار. شاع الخراب والفساد في الزوايا والتكايا. وامتد ذلك إلى قصور الملوك. فلا فرق بين المساجد والقصور من حيث التباهي والحياة السرية المغلقة⁽²⁾. ولم الصمت وكتمان

(1) أنا أيضاً كنت لكن ما تحملت السكوت
كنت من شدة غيظي أنموني أن أموت
كنت إذا بشرت الحجاب بالفردوس ملاً
فتقدمت أنادي عفوكم اللهم كلا
ليس لملأ اهتمام بمفاتيحك وحورك
هو سكران، نعم سكران، من غير خمورك
ما درى من لجة الذوق سوى قيسل وفان
بحسب الدين الذي أنزلت تاريخ جدال
نا لا أرضي لنفسي أن أرى عبدي جباناً
كيف ترضاه زعيماً وهو لا يحسن شأنه؟
نم يعد يأبه إنسان بملاك المنقر
فإذا ما جاء يوماً قيل قد جاء المكفر
لا يرى في خلقك المسكين إله مطيعاً
كيف ترضى عن نبي كثر الناس جميعاً
ليس في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع
إنما الفردوس فيض الحب من صدر الجوامع
جناح جبريل، ص 505.

(2) ما وجدنا وقد بحثنا كثيراً في حواشي الصوفي إلا غباراً
يدعي أنه يخوض حروباً كبذنه هزيمة وشناراً
كيف زالت حرارة الحب عنه وارتضى هذه الحياة السقيمة

الشهادة على النفاق، نفاق الملا والصوفي؟ يجلس على سجادة الصلاة ويقول ما لا يعمل به. ويدعو إلى ما لا يؤمن به. يحمل بيده كتاباً من نور وهو المصحف. يربك به الناس في الدنيا والآخرة⁽¹⁾.

قد تكون العزلة عن العالم وقتية كما انعزل الرسول في غار حراء لاكتشاف الذات واقتفاء أثرها. بعدها أقام أمة. والوعي بالجديد يتجاوز القديم. والأسد قبل أن يتقدم يتراجع خطوة إلى الوراء⁽²⁾.

وفي مقابل العزلة هناك الصحبة. فللمرء زوج، والعين اثنان وإلا العور. واحترام الإنسان لأخيه الإنسان لأن بين الناس جميعاً عروة⁽³⁾. والذات تخرج بين الدروشة والملكية، بين الانسحاب من العالم والانكباب عليه، بين العزلة عنه والانكباب فيه. هذان العالمان يغزوان الوجود بالنظرات أو بالجنود. الأول يترك

وقصاراه أن يكون غنيمة
يصل الليل حولها بالنهار
أولياء يقولها للصغار
في الزوايا وفي تكايا السلوك
كيف دبت على قصور الملوك؟

أي يوم مضى عليك كيومي
يطفح الناج في منازل قومي
والذي عند كل منلاً وصوفي
ووقوفاً يكون منل وقوفي

غير آثار لذات ما اقتفى
وأقاموا أمة من خلونه
كل فضل المصطفى حتما عرفنا
لشقيت أنت بالفكر العقيم
ثم تأتي بعد بحث ضالة

والرجال حذرهم كان الصحاب
كافر أو مؤمن ربي برأ
ليس منا غير هذا من علم
منك في هذا الطريق خطوة

حره لم تكن ليغتم شينا
كُتب القوم عنده فوق بعض
ما تبقى لديه إلا حكايا
ما تعجب أن يشيع خراب
عجبي من نهاية مثل هذي

السابق، ص 456.

(1) امض يا شاهد الشقاء بصمت
مثل سجادة الصلاة نفاقاً
الكتاب الذي يمجج بياضاً
يملاً الحشر حيرة وارتباكاً

السابق، ص 456.

(2) مدة في الغار ظل المصطفى
رُسمنا قد أغرقوا في مهجته
وعلى إنكار رب إن قدزنا
لو أنارت فيك روح كالكلب
فالخيال فيك تحيي عزلة

جاويد نام، ص 202.

(3) يستمر المرأة زوج أو نراب
تنطق العوراء إذا كل الخطأ
أنت إنسان أخاك فاحترم
تربط الناس جميعاً عروة

السابق، ص 332.

الركاب لغيره، والثاني يكتم جرحه ويعاني. وكل مقام ينازع المقام الثاني في الحداء⁽¹⁾.

7 - إمامة العالم

ليس الإمام في المسجد بل في الوري. والإمام في الوري هو الإمام الكامل⁽²⁾. هناك فرق بين إمامة المسجد وإمامة العالم. والإمام هو الإمام الحر. وكيف تتم الصلاة وعلى رأس جيش الغزاة إمام عبد باع نفسه وأطاع الحاكم الأجنبي بأذنه وعينه، ووهت الأجساد تحت حكم وأد الشرع وقصم الظهر؟⁽³⁾. فلا صلاة للعبيد تقام. وغياب إمام الصلاة جعل الشعب بلا إمام. فالإمامة الصغرى شرط الإمامة الكبرى⁽⁴⁾. اليوم، إمام المسلمين درويش يجرح نفسه كما يفعل الشيعة. وليس لقلبه جهتان الحزن والتوحيد. ليس له مقام بين القواد العظام⁽⁵⁾. ورجال الدين ورهبانها لا يستطيعون قيادة سفينة الأمة⁽⁶⁾.

- | | |
|---|--|
| (1) ما بين دروثة ولا ملكية
كلناهما تغزو الوجود فهذه
البعض قد ترك الركاب لغيرها
لو أنقن الحادي مقاما واحدا
جناح جبريل، ص418. | فرق إذا صلحت أمور الذات
بيد الجنود وتلك بالنظرات
والبعض يكتم جرحه ويعاني
لم يرغبوا عنه لحاد ثان |
| (2) برؤيته، لعالمنا إمام
السابق، ص394. | له لا للورى كان التمام |
| (3) لأرض الهند حال بعد حال
إلينا كيف تطلب أن نصلي
ويحكم مسلم فالنفس باعا
وهت أجسادنا من إصر حكم
السابق، ص430. | وهذا الكون أمسى في اختلال
برأس الجيش عبيد كالمحال
وأذانا وعينا قد أطاعا
فآد الشرع متنا والذراع |
| (4) أتى هذا كلام ليت شعري
السابق، ص440. | وهذا الشعب كان بلا إمام |
| (5) لك ذلك الدرويش جرح نفسه
لا في سمرقند ولا دلهي ولا
السابق، ص420. | حاشا تكون لقلبه جهتان
في أصبهان له مقام ثان |
| (6) رياه أين يلوذ مركبك الذي
السابق، ص435. | عصفت بطيبة نفسه الرهبان |

ليست الحياة داخل الصوامع، ولا أمجاد الحياة أفعال الطقوس. ولا يستطيع صياد السوء القابع في الأرض الذليل فيها أن يصيد العنقاء الطائر في السماء. تتطلب الحياة الشجاعة، طيراً في السماء أو غوصاً في البحار. وجود الإمام والدرويش داخل الصوامع وجود يُرثى له. ولا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي. وإن غاب الذكر عن الفؤاد حضر ذكر الأجنبي. في غياب الموروث النافع يأتي الوافد المبهّر⁽¹⁾. طقوس المساجد اليوم ظلم، وانتهاك لحرمة الساجدين. وسلوك الكنائس سوق للرهبان والقساوسة⁽²⁾.

فقد الإمام معنى الخشوع. وتنقصه الهواجس بالقيام. فكيف يرضى المسلم بهذا الخنوع وتلك الصلاة، ذاك الإمام؟⁽³⁾. الشيوخ وأرباب الكنيسة أجدر بالثناء. جهودهم حصاد. شكوك وظنون جرت في دماهم. ولا يحتاج الإنسان إلى مثل هذا الوسيط. وبالا اعتماد على نفسه يتقرب إليه كل العبيد والأسياد، أبناء الأرض وأبناء السماء⁽⁴⁾. وقد صرخ الشاعر لسمع شيخ الحرم، ولكنه حذره من البوح بشيء يصل إلى كل الأمم. لم يقل مرة ﴿أَرِنِي﴾ كموسى ليعرف السر. ألح موسى.

(1) لست أخفيك أنني لم يرق لي
لا يصيد العنقاء صياد سوء
طرت أم غصت في سمء وبحر
ليس يدعو إلى الرثاء وجود
وسوء، فلا تغفل عربي
سترى الذكر أجنبياً إذا لم
السابق، ص 442.

(2) ما طقوس المساجد اليوم؟ ظلم
ما سلوك الكنائس اليوم؟ سوق
السابق، ص 465.

(3) أمامك يفقد معنى الخشوع
أمثلك يرضى بهذا الخنوع
السابق، ص 427.

(4) شيوخ القوم أجدر بالثناء
حصاد جهودهم ظلمات شك
بنفسك ثق تجد نغفور عبداً
السابق، ص 452.

والشاعر راض باختياره⁽¹⁾. ولسيد الحرم أي لإمام المسجد وشيخ الإسلام قول بلا فكر، ونظر بلا عمل، وإشارة تنقصها الحرارة⁽²⁾.

8 - المصلح والدرويش

ضريح المجدد هادي سبيل. وترايه يتألق في السماء. تواري صاحب الأسرار
كما توارت في جنبات القلوب. والدرويش الحر لا تُذل عمامته لوصمة عار. هو
معلم الأحرار. افتدى الهند من جحيم النار. أما دروشة هذا الزمان فإنها خور
العزائم. بصر الدرويش بغير بصيرة فأصبح منبوذاً، صاحب شطحات مجنونة.
يرفض الفقه وصاحب العمامة. وكلاهما سارا وراء الملوك. الفقيه فقيه السلطان،
والدرويش خادم السلطان⁽³⁾. ولا يشكو الدرويش الأبى من الفقر وشظف العيش،
ولكنه يتعجب. ويسأل الله الذي أرسل الملائكة رسلاً هل ليقوموا سلطة الأوغاد في

- (1) لقد بلغت صرختي أوجها
وحذرني اليوم من كتمها
أنال لم أقل أنني مرة
فموسى جدير بالحاحه
السابق، ص 454.
- (2) لاشك فيما قلته ولا جرم
قول بلا فكر ولا إشارة
السابق، ص 447.
- (3) جزتُ إلى ضريح مجدد
وعلى التراب من الضريح تألق
لا غرو للأسرار تلمع هاهنا
هذا المكان من الوجود ضريحه
لما وقفت على ضريح مجدد
فشكوت دروشة الزمان له وما
فأجاب: طرفك ليس يبرق قلت: لا
من أين الشمس البصائر إنني
لا تكثرت منهم بصاحب شطحة
أرني قلنسوة لدرويش لهم
ذهبوا مع الفقهاء خلف ملوكهم
السابق، ص 542.
- كذلك أعلن شيخ الحرم
لنسمع ذلك كل الأمم
كموسى لأعرف أسرار
ومثلي جدير بما اختاره
- فقد رأيت اليوم سيد الحرم
وعمل تنقصه الحرارة
- ووقفت ليلي ناديا ونهاري
غبطته في قصر السماء جواري
فهنا تواري صاحب الأسرار
وهنا بغير معلم الأحرار
دار الحديث عن الزمان الدائر
ألقاه من شوقي وعزمي الخائر
هو مبصر لكن بغير نفوذ
أصبحت في عيني كالمنبوذ
مجنونة ولو ارتدي جلبابي
لم ترض فنزعة العمامة جارا
لم يتركوا لذوي القلوب منارا

ظل السماء؟⁽¹⁾. وكوخ الدرويش أعظم من قصور السلاطين⁽²⁾.

وإذا كان العبد الدرويش نصيب هذه الأرض ففي فقره طريق الكليم⁽³⁾. ينجح سعي الدرويش إذا صان ذاته وجاهر بها⁽⁴⁾. لم تعبأ أعين الدرويش بسلطان الملوك وأبهة الإسكندر. والتيجان لا قيمة لها إذا ما استجذت نساء الحي⁽⁵⁾. لا يبالي الدرويش عسر الطريق بل يرى أن هذا العسر عون له ونصير. ياليتها على وعي بذلك. فسلاحه نور البصيرة⁽⁶⁾.

ذهب الدراويش الذين لا يلقون بالاً للسيوف. وأنزواوا في حرم يتاجر شيخه بوشاح فاطمة ومصحف محمد⁽⁷⁾. لقد قنع النساك بالانزواء في الحرب، في حين أن إقبال هجر القصور. ولم تقو عليه الملوك يوماً ولا النسور. والسر في ذلك أن هذا الشاهين ملك جني يطير فوق القصور فيزورها. وتدمي قلبه رؤية الجالسين في الحرم الشريف⁽⁸⁾. الدراويش يطربون للتراسة والخزعات. وطريقهم غير طريق

(1) قال درويش أبي يسأل الله تعالى

أنا لا أشكو إليك الفقر والعيش المحال
لكن اللهم قل لي أنت أرسلت الملائك
ليقيموا سلطنة الأوغاد في ظل سمائك

السابق، ص 537.

(2) بمقر للدراويش اعبرن وقصورا للسلاطين انظرن

جاويد نامه، ص 299.

(3) السابق، ص 540.

(4) وينجح سعيه دهر مثابر بصون الذات درويش بجاهر

السابق، ص 487.

(5) أعين الدرويش لم تعبأ أظهرت أبهة الإسكندر

هذه التيجان ما قيمتها وهي تستجدي نساء البيدر

جناح جبريل، ص 444.

(6) لا يبالي الدرويش عسر طريق ويرى العسر عون له ونصيره

يسأل الله أن تكون بصيرا فسلاح الدرويش نور البصيرة

السابق، ص 466.

(7) ذهب الدراويش الذين عهدتهم لا يأبهون لصارم ومهند

وبقيت في حرم يتاجر شيخه بوشاح فاطمة ومصحف محمد

السابق، ص 422.

(8) بم النساك في الحرم استبدت بإقبال الذي هجر القصورا

الشاعر، طريق تفتح القلب. من الممكن شراء الغني مثل أبرويز ولكن لا يمكن شراء جراح فرهاد. المادة تباع وتشتري. أما الفؤاد فإنه خارج الملكية وداخل الوجود⁽¹⁾.

يلهون مع السلاطين بمقدرات الأمة، وتتعاون السلطة الدينية والسلطة السياسية على استغلالها. لا فرق بين السبحة والسيف⁽²⁾. يقيم لدى السلطان في العصر السعيد الدرويش. ويغض السلطان عن جهلهم لاستعمالهم للسيطرة على الناس⁽³⁾. وليس عجباً أن يتبنى الدرويش بعد يقظته شعر إقبال حتى يتعلم ويبحث⁽⁴⁾.

السالك يتضرع. عينه ضعيفة. وقلبه هلوع. يخلو من الحماسة والنضارة والسكينة والدموع. استطاع الدراويش القدماء الوصول إلى أرض الروم والشام. أما دراويش اليوم فقد وضعوا الأمة خلف الأنام⁽⁵⁾. الدراويش قاعد منهزم القوي. فقد

= ولم تفو الملوك عليه يوماً فما هو سره؟ الشاهين هذا يطير على القصور فيزديها السابق، ص452.	وقد ملئت عوالمها نسورا ملوكي لجيني خفيف ويدمي قلبه الحرم الشريف
(1) الدراويش يطربون لهذا لست أعني بمثل هذا فدعني ممكناً يشتري غني أبرويز السابق، ص459.	والدراويش دأبهم غير دأبي أبحث اليوم عن تفتح قلبي ومحال جراح فرهاد تشتري
(2) فألى متى صمتي وحولي أمة هذا بسبحته وذاك بسيفه السابق، ص435.	يلهو بها السلطان والدرويش؟ وكلاهما مما تكذب يعيشت
(3) لقد غضوا وغضوا من حكيم غني اليوم في عصر سعيد أرمغان حجاز، ص438.	جهول كان ذا الفضل العميم لدى السلطان درويش عظيم
(4) ليس سهلاً إذا الدراويش حجّت القضايا دقيقة فاستلمها السابق، ص442.	من بعيد إلى مدارس شعري واقض في أمرها إذا كنت تدري
(5) تضرع حاشية السالكين فأين الحماسة أين النضارة أين السكينة أين الدموع؟ نهضنا بأسلوب درويشنا	عيون ضفاف وقلب هلوع فكانت لنا أرض روم وشام =

دنياه وأضاع دينه. لقد سمع الدرويش آهات الناس وأنينهم. يظن أنه من رجال الله إلا أنه مرتبط بالطين. له شطحات. يبدو كالبرق بين الناس. ويدعي إجراء المعجزات مثل الكافر الهندي الذي يذبح دونما سيف ولا رمح كمجتون⁽¹⁾.

9 - فلسفة العمل

السبب في كسل الأمة وسكونها وركودها وفتورها وقعودها هو التصوف الدخيل على الإسلام. تصوف غير إسلامي سلب المسلمين ذوق العمل. يخلو التصوف من كل حرق وكد. ويتحجج بشراب «ألسنت» للبطالة، وهي الشهادة الأولى التي قام بها البشر منذ الخلق على وحدانية الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾. ولا يختلف الصوفي عن الفقيه. فكلاهما ذاهبان. الأول إلى الداخل، والثاني إلى الخارج. الأول في الحقيقة، والثاني في الشريعة. كلاهما هارب من الحياة ومعاركها⁽²⁾. والأفكار دون أعمال تؤدي إلى الموت وليس إلى الحياة⁽³⁾. والعمل جوهر الذات. إذ لا يمكن معرفة الذات عن طريق الحواس الخمس لأنها كامنة فينا. ولا يمكن معرفتها عن طريق العقل. إذن هي أصل الحس والعقل والكون. يشاهد كل شيء ولا يشاهد ذاته لأن الذات ليست موضوعاً بل ذاتاً. هي حقيقة مطلقة وليست وهماً

- | | |
|---|---|
| <p>= ولما زهدنا بأسلوبه
السابق، ص 454.</p> | <p>ذهبتا دواليك خلف الأنام</p> |
| <p>(1) لا قاعدة الصوفي منهدم القوى
ما قول سادتنا الدراويش التي
هو من رجال الله إلا أنه
رجل تنير طريقه شطحاته
ملك أمارات الجنون بوجهه
الكافر الهندي يذبح دونما</p> | <p>من فقد دنياه وضيعة دينه
سمعت لأهات ابنها وأنينه
سيثير عاصفة النشور بطينه
حي كمثل البرق بين شؤونه
والعبد يفضحه غباء سكونه
سيف ولا رمح فمن لجنونه؟</p> |
| <p>السابق، ص 425.</p> | <p>شراب «ألسنت» معذرة البطالة
برى في الشرع معترك البسالة
فتلك هي الهزيمة لا محانة</p> |
| <p>(2) خلا الصوفي من حرق وكد
وفز إلى ترهبه فقيهه
إذا خشى الرجال وغى حياة
ضرب الكلیم، ص 24.</p> | <p>للسنة الأعمال حادي الموت</p> |
| <p>(3) ونغمة الأفكار دون صوت
السابق، ص 10.</p> | <p></p> |

أو سراًباً أو خداعاً للنظر⁽¹⁾. فلسفة العمل رد فعل على الكسل والعجز واللامبالاة عند المسلمين في عصر إقبال أمام الاستعمار البريطاني والتعصب الهندوسي. وهي أوضاع مازالت سائدة حتى الآن في العدوان الأمريكي البريطاني على العراق، والصهيوني على فلسطين، والأمريكي على أفغانستان، والروسي على الشيشان، والهندي على كشمير، والأسباني على مدينتي سبته ومليلية شمال المغرب⁽²⁾.

الذات عمل وجهاد وحياة كما عبر أبو القاسم الشابي وعلال الفاسي بعد ذلك. وتلخص في حقائق ثلاث:

أ - الإسلام عمل يحدث ثورة.

ب - الذات ليست قديمة كما هو الحال في الفلسفة الهندوسية بل مخلوقة. وبالعامل تخلق ذاتها كذات مطلقة خالدة وكما قال فشته في الأنا الذي يضع ذاته حين يقاوم اللا أنا من أجل خلق الأنا المطلق⁽³⁾.

ج - نظرية وحدة الوجود وتأويلاتها عند ابن عربي أحدثت أثراً سيئاً عند المسلمين لتطعيمها بعناصر غير إسلامية. أثبتتها فلاسفة الهند بالبراهين الفلسفية وشعراء إيران عن طريق التدوين. والنتيجة واحدة وهو الحرمان من «ذوق العمل». في حين أن جوهر الإسلام هو «قوة العمل». لقد نقد الفقهاء مثل ابن تيمية نظرية وحدة الوجود. وحملوها مسؤولية ضعف العالم الإسلامي. كما نقدوا التعاويذ التي كانت جيوش المسلمين تعلقها على الأذرع وهم يحاربون الجيش الروسي أو الغربي. وظل أحمد عرابي في حلقة الذكر ليلة المعركة الحاسمة. والمسلمون الأوائل خططوا للحروب وانتصروا فيها بالعلم والعمل.

الدين بغير قوة يصبح فلسفة. وهو ما أعاد إقبال التأكيد عليه في «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟». وفيه يؤكد على أن «أبي لا تدعمه القوة ليس إلا مكر وسحر وطمس». وفي «بال جبريل» يصرح بنفس المعنى، «إذا وجد الكليم موسى بلا عصي فلا أساس لعمله». العمل ليس هو عمل المعجزات بل عمل القدرة

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، ص 12 - 15.

(2) الأسرار والرموز، مقدمة، ص 6.

(3) فشته، فيلسوف المقاومة، ص 181 - 192.

البشرية والإرادة الإنسانية، القائم على حسن التخطيط والتدبير والاختيار⁽¹⁾. يخلق الإنسان القوي البيئة. والضعفاء يتكيفون معها⁽²⁾. والحضارة فكر الرجل القوي⁽³⁾.

10 - الزهد

ليس الزهد الامتناع عن الطعام والشراب واللباس والسكن. إنما الزاهد هو الغريب، العاشق في العقبى⁽⁴⁾. قد يشبه الزاهد المادي الزاهد الروحي، وهو الجاحد⁽⁵⁾. الزهد ليس ابتعاداً عن الناس والبشر بل هو تقوية للإرادة وتحكم في الطين الذي منه خلق الإنسان. أما زهد الصوفية ورضاهم به فهو نتيجة للجبن والخور. يعذبون به. الزهد هو زهد الاقتدار. فلا يقبل إدعاء زهد أو ملك لمن أضع أمجاد تيمورلنك وهو يتراقص في حلقات الذكر⁽⁶⁾.

ليس التجرد هو الجوع والضعف والقوى الخائرة والعوز. هذا التجرد يقضي على البشر. في حين أن هناك تجرداً آخر به يعز البشر ويكرم. وهو التجرد عند الملوك⁽⁷⁾. والمال ليس مطلباً للذات، بل يوجد عندما لا تطلبه⁽⁸⁾.

(1) سمر عبد الحميد: الأسرار والرموز، مقدمة، ص 9.

(2) St. Ref., p. 91.

(3) Ibid., p. 93.

(4) إنما الزاهد في الدنيا الغريب ذلك العاشق في العقبى الغريب جاويد نامه، ص 265.

(5) ماجن شيخ حكيم زاهد يشبه الزهاد وهو الجاحد السابق، ص 267.

(6) الزهد إخضاع هذا الطين والشر فقل للصوفية بأنفسهم راضية وما عليك إذا أنكرت مذهبههم فالزهد والملك لا يستحسنان لمن جناح جبريل، ص 439.

(7) ليس التجرد أن تقيم على الطوى فمن التجرد ما يطيح بأهله أن لم أجد عند الملوك تجرداً شاور في صنع الإمارة مسلم السابق، ص 543.

(8) المال يوجد حتى حين تفقده فلا تكن وقفاً إن رمنه طلباً السابق، ص 543.

الزهد من شيم الملوك. والفقر من مظاهر العظمة، وعلامة على المحبة، إيثار الحبيب على العالم كله⁽¹⁾. ولا تهم الأشكال والرسوم الخارجية، فسواء أكان الذي بذى سلطان أو ذي مسكن فالرأس العاري مثل رأس النسر، قادر على أن يطير إلى عنان السماء. وأحياناً تبدو الأمة غطاء بلا رأس، شكلاً بلا مضمون⁽²⁾. وكل زهد لا يأتي من واجد أي لا يرتبط بالوجد فهو مجرد سلوكى لفقد أو لعدم⁽³⁾.

الزهد كاذب خادع. يترك القليل لأخذ الكثير. ويتنازل عن العاجل لينال الآجل. فما من زاهد إلا وهو طامع في الملك⁽⁴⁾. زهد الصوفي كاذب. يتركه لأقل إشارة من الحان. والحب قادر على أن يجعله ملكاً بدلاً من التسول على الموائد⁽⁵⁾. إن الصوفي الحنفي يحمل ناراً لا تبالي بريح الشكوك. ملأ الله دربه بمعان. علمت قلبه سلوك الملوك⁽⁶⁾.

11 - الفقر

ليس الفقر موضوعاً نظرياً للفهم بل هو سلوك مشترك بين رواد الطريق. بل

- | | |
|---|--|
| (1) والزهد من شيم الملوك فإن تجد زهد الملوك كأبرويز محبة السابق، ص 424 - 425. | ذا الفقر فيه ممن عظيم فتونه ألقى ممالكه إلى شيرينه |
| (2) إذا كان زيك زي سلطان فخطاؤنا لا رأس يحمله السابق، ص 443. | أو كان زيك زي مسكين فيليق إلا رأس شاهين |
| (3) كل زهد لم يكن من واجد يا أمم الشرق، ص 360. | فهو سلوكى لعدم فاقده |
| (4) مع هذا لا أرى من زاهد جناح جبريل، ص 444. | ماله من طمع في السلطة |
| (5) عجباً من الصوفي يترك زهده الحب يجعل حيث مد بساطه السابق، ص 416. | لأقل بارقة بهذا الحان من طعمة المتسولين ملوكاً |
| (6) إن هذا الصوفي يحمل ناراً ملأ الله دربه بمعان السابق، ص 520. | لا تبالي بريح تلك الشكوك علمت قلبه سلوك الملوك |

هي فكرة تجيش في القلب لا يستطيع لها دفعا⁽¹⁾. والفقير نادر الوجود. فإذا وُجد فليتنهز الجميع الفرصة للتعلم منه⁽²⁾.

ليس الفقر فقط تجربة روحية بل تمليه أيضاً آيات الكتاب من أجل السيطرة على الكون وتسخير الكائنات. يرفع المؤمن فوق الشبهات لأنه أحد الصفات القدسية. في حين أن فقر الكفر هدم للفطرة ومجافاة للعمران. لا يتجاوز الكهوف، وليس له موضع بين الصفوف. هو صفر على يسار العدد. فقر المؤمن ليس عزلة عن العالم بل هو نضال في البر والبحر. فقر الكفر صامت كالجماد، في حين أن فقر المؤمن تعمير للوجود. الأول يقضي العمر في ترك البدن بحثاً عن الرشد أو هجرة للوطن⁽³⁾.

أ - الفقر والحرية

الفقر هو التحرر من الطمع، والحرص على مغامرات الدنيا. هو الترهيب من أجل الحقيقة، والتحرر من العلائق. فالملكية قيد. الفقر رهبانية الإسلام أي القدرة على التحرر من أهواء النفس ومطامع الدنيا. الفقر تتحلى منه الذات. ينقلها من الفناء إلى البقاء. فإذا ما ضاع الفقر ضاع السلطان⁽⁴⁾. الفقر أساس المهمة. وهو نابع

(1) ثم أكن في الفقر ذا فهم دقيق
فكرة جاش بها القلب اضطراباً
يا أمم الشرق، ص 362.

(2) فاغتنم من فاقتي حظاً يسيراً
السابق، ص 362.

(3) فقرنا تمليه آيات الكتاب
فقرنا معناه تسخير الجهات
يرفع المؤمن فوق الشبهات
فقر أهل الكفر هدم للفطر
عيشه بين القمامي والكهوف
لم يكن في الدهر منذ المولد
ليس للمؤمن بالفقر اعتزال
بينما الأول في صمت الجمود
ذاك بطوي العمر في ترك البدن
السابق، ص 360.

(4) إسلامك الموهوم شين آخر
الفقر عندك كالترهب يظهر

من الحجاز أي من أصل الإسلام⁽¹⁾. قد يشكو الفقر جور الزمان. ومع ذلك فإنه قادر على فعل المعجز وأن يجعل الصخور كالذرات⁽²⁾. والفقر الحر إذا ناجى القدر أربى الشمس واحتل القمر. أما الفقر المذل فإنه يزول. ويبعد المسلم عن جلاله. هو فقر بدر وحنين. هو زلزال تكبير الحسين⁽³⁾.

ومهما كانت هناك من محاولات لتغيير معاني الفقر، عن المعنى الشائع في الثقافة الشعبية، فسيبقى المعنى التداولي. فالفقر بالمعنى الصوفي هو التجرد من كل شيء إلا الله، وعدم تعليق القلب بشيء سواه. هي علامة على الحرية الباطنية والتحرر من قيود الدنيا.

وفي «على ذكر الإذن بحمل السيف» يشبه إقبال الفقر بالفلواذ، مصراع بيت. التوحيد أحد شقيه، والفقر الشق الآخر. التوحيد يطلق الطاقات، والفقر سيف بيد حر⁽⁴⁾.

وشراع فقر في عباب بمخر
فنهابة الإيمان ذات تبهر
فمن الفناء أو البقاء يخير
أم موج رائحة ولون يزخر؟
ذا الفقر لما ذاع هذا الجواهر
سلمان دولة عزة لا تفهر

وابتغ فقرا أصله حجازي

جور الزمان اللحز
من اجتداء الكرز
للبر فعل المعجز
كالذرات غير معجز

يرهب الشمس ويختل القمر
قد نأى المسلم عن هذا الجلال
إنه زلزال تكبير الحسين

قيمة الفلواذ والعضب الذكر
مضممر فيه من التوحيد سر
سيف فقر تحتويه كف حر

- شتان، فانظر، بين خلوة راهب
في الروح والأبدان يبغي جلوة
هو صيرفي الكائنات وجوده
فأسأله عما ترتنيه أعالم
لما أضاع المسلمون على المدى
لم يبق فيهم من سليمان ولا
ضرب الكليم، ص34.

(1) فإن تك ذا همة فأقدم
السابق، ص63.

(2) فقر نراه شاكيا
باق عليه مسحة
ولم يزل ميسرا
أن يجعل الصخور
السابق، ص123.

(3) فقرنا الحر إذا ناجى القدر
فقرنا العاري تولاه الزوال
إنه إيمان بدر وحنين
السابق، ص361.

(4) أيها المسلم تدري اليوم ما
هو مصراع من البيت الذي
وأرى مصراعه الثاني في
السابق، المدخل ص م - ن / 17.

الفقر وحده سلاح ماضٍ في الحرب⁽¹⁾. هو روح القرآن⁽²⁾. هو المسنّ الذي يحد السيف للمنايا⁽³⁾. الفقر يحزر، والمملك يذل. الفقر والمملك متعارضان⁽⁴⁾. الفقر هو الحياة والعشق والتحرر⁽⁵⁾. يتجاوز حياة العلم والفن إلى طموح القلب. لا يصبر. يشق طريقه بين الفلسفة المعقدة للحكماء والمعجزات المتتالية للصوفية، تأسيساً بمعجزات موسى أمام فرعون وعلى الطور. المسلم هو صاحب الصدر الذي يتنفس، ويتخلي عن كل ما في الحبيب إلى درجة الجنون. إن حماس العشق والفقر الغيور هما اللذان يحميان الأمة من الذل واليأس. يصبح الفقر بالعمة كمالاً. يعزز العالم بلا سلاح. وهو علامة على الفضل الإلهي⁽⁶⁾.

الفقر الغيور، والفقر الصالح، والفقر المؤمن، كلها أشكال مختلفة للمسلم

- | | |
|---|---|
| (1) الفقر يمضي بلا سلاح
وكيل ضرب له سيد
حماسه قص كل عصر
يا غيرة الفقر أنجدين | (1) الفقر يمضي بلا سلاح
وكيل ضرب له سيد
حماسه قص كل عصر
يا غيرة الفقر أنجدين |
| السابق، ص ن/ 18. | |
| (2) تعلم فألف مقام وثمان
السابق، ص ن. | (2) تعلم فألف مقام وثمان
السابق، ص ن. |
| (3) يمر عليك من فقر مسنا
السابق، ص ن. | (3) يمر عليك من فقر مسنا
السابق، ص ن. |
| (4) أي ملك مقام فقر، ولكن
السابق، ص ن. | (4) أي ملك مقام فقر، ولكن
السابق، ص ن. |
| (5) متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم: ما فيك صدر
ومزقت الجيوب وأنت خال
أقل القول وافتح عين قلب
وما أن ذل قوم قد أعدوا | (5) متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم: ما فيك صدر
ومزقت الجيوب وأنت خال
أقل القول وافتح عين قلب
وما أن ذل قوم قد أعدوا |
| السابق، ص ن/ 34. | |
| (6) في غيرة أرى طريق حق
وصاحب الفقر الغيور هذا
إمارة المؤمن فيه سر | (6) في غيرة أرى طريق حق
وصاحب الفقر الغيور هذا
إمارة المؤمن فيه سر |
| السابق، ص 62 - 64. | |

الحر- هدف الحر فوق مسرى النجوم. ورده الذي يذكره «لا تخف». هو آمن في سلمه، آمن في حربه، ورأسه على كفه لا في جيبه. عرف الله فلم يرهب سواه. ومن يخشى الله لا يخشى خلقه. لا يرى في البؤس مرارة. ولا يكون عبد سلطان أو إمارة. هو جمل موصول الصيام. يحمل الأثقال. الشوك طعامه. هو نبض في عروق الأمل. يسعى في طريق العمل. ومن علا تكبيره من غير تاج قدمت له التيجان الخراج. النيران من جمره. والأنهار من خمره. وجنة الورد شذا من سحره. وشعلة المجد سنا من فكره. يرتعش رب السرير في قصره من سهم عريان فقير⁽¹⁾.

وفي تقابل مع الحر ومع أحوال الأمة، مع ما ينبغي أن يكون وما هو كائن فإن الأمة تتعامل مع الدين كخبر ورواية ونقل، في حين أنه عند الحر شهود ونظر. والأمة عند الباب تستجدي الأماني، وهو سيد في الدار جواد كريم. مقصد الأمة الدير. نبيع المسجد للغير. والحر يسقي من يمين المصطفى كوثراً عذباً يصفو به الورد. تكبير الإله في ضمير الحر. وتقدير الأمم في جيبه⁽²⁾.

(1) فوق مسرى النجم للحر هدف آمن في سلمه في حربه عرف الله فلم يرهب سواه لا يرى قط مع البؤس المرير جمل في البعد موصول الصيام هو نبض في عروق الأمل من علا تكبيره من غير تاج قد ذكت نيراننا من جمره جنة الورد شذا من سحره وترى في قصره رب السرير السابق، ص 363.

(2) شأنا في الدين لا يعدو الخبر نحن عند الباب نستجدي الأماني أصبح الدير لدينا مقصدا وهو يسقي من يمين المصطفى في ضمير الحر تكبير الإله السابق، ص 363.

ب - الفقر والملك

ومن يعيشون في القصور يعرضون الأبدان ولكنهم لا يعرفون إلا الروح⁽¹⁾. بل إن خرقة الزاهد عبء على الفقير. يلقي السير حفاظاً على عفة القلب. ويكفي الروض عبيره. وهو قادر كالبحر الغامر جعل الصحراء سيلاً هادراً. هو في الحرب نشيد من دماء، وفي السلم رسول للإخاء. أهل الحق هم أرباب الوفاء. نذروا أنفسهم في كل وقت حتى يعم الخير على كل الناس⁽²⁾. لقد أنجب القوم الأمراء فمتى يتجبن الفقراء؟⁽³⁾.

وفي وصف شرف النساء الفقر هو الذي يبقى في الذكرى إلى الأبد، فيتحول إلى صورة⁽⁴⁾. الفقير هو الغني. والغني هو الفقير⁽⁵⁾. قد يكون الفقر بمعنى التواضع في مقابل الغرور. وهو معنى غير شائع. فالفقر هو الفقر المادي أو المعنوي⁽⁶⁾.

الفقر هو السلطان الحق. والسلطان الحق هو الفقير. والقرآن جمع بين السلطتين: سلطة البدن وقوة الروح. تتجلى الذات في قهرها. وهو أحد مقامات هذا الزمان. ويتعبير فشته «الأنا تصنع نفسها حين تقاوم». ثم توزن في هذا المقام. توزن قواها، قوة الإيمان وهي في الامتحان. والإنسان في هذا المقام عظيم، ظل

- | | | |
|-----|------------------------------|----------------------------|
| (1) | قد ضل أهل القصر عن أرواحهم | لم يهتدوا إلا إلى الأبدان |
| | السابق، ص 343. | |
| (2) | خرقة الزاهد عبء للفقير | كن عفيف القلب وانعم بالسير |
| | إن تكن بحراً قويا غامرا | فاجعل الصحراء سيلاً هادرا |
| | أنت في الحرب نشيد من دماء | أنت في السلم رسول للإخاء |
| | إن أهل الحق أرباب الوفاء | ليس سر الحق عنهم في خفاء |
| | نذروا أنفسهم في كل حين | ليعم الخير كل العالمين |
| | السابق، ص 345. | |
| (3) | بالقوم، انجبوا كل أمير | فمتى يولد في القوم فقير؟ |
| | السابق، ص 361. | |
| (4) | وهي نور الأمل في عبد الصمد | فقرها ذكرى ستبقى للأبد |
| | جاويد نامه، ص 286. | |
| (5) | هو ذا «ظاهر غني» أو خير شاعر | الفقير، وغناه منه ظاهر |
| | السابق، ص 288. | |
| (6) | من غرور واختيال تشكر | ومن الفقر لدينا تسخير |
| | رسالة الشرق، ص 67. | |

الله في الأرض. وهي لا يعني القهر والبغي والتسلط بل العشق والوجد والجمال وإلا لما ساد الأمان في الأرض. الفقر ليس عبثاً في الدنيا، بل هو الذي يجعل الفقير يباري الكواكب، وينعكس عليه سنا الشمس⁽¹⁾. الفقير هو الإنسان. تتمثل فيه مقاصد الفطرة العليا. أودع فيه الخلاق سلطاناً⁽²⁾. الفقير بدنأ هو الأمير روحاً⁽³⁾. في كوخ الفقير وفي قصر الأمير هناك ألم وهناك شفقة. ومن الصعب انحناء ظهر الشاب. يعني الشباب الهمة والذاتية⁽⁴⁾. ويستطيع الفقير أن يحصل على ثروة الكليم وملك داود. ترتعد الصخور من زجاجه. وأفكاره لا نهائية. لا يحدها شيطان⁽⁵⁾.

وإذا كان تاج الإسكندر متاعه فإن الفقر والدروشة تاج العاشق. يبني الرجال بالفقر. والإسكندر يبني مدينة من زجاج⁽⁶⁾. لا يهتأ الإنسان بعيشة الأمراء بل بعيشة الفقراء. وسجل الفقر هو فخر النبي. والفقير سيد الأسماء⁽⁷⁾.

(1) تعلم، فألف مقام وسان
إذا انجلت الذات في قهرها
وتوزن في ذا المقام القوي
وانك في ذا المقام عظيم
وما ذاك بسغي وقهر ولكن
فما استطاع بقهر وبغي
وأعياك في الدهر حفظ لفقر
وكان على الدين سيما سجود
وكان على الشمس منه سنا
ضرب الكليم، ص 20 - 21.

(2) مقاصد الفطرة العليا يحفظها
يراقب البحر في التمدن يُبطله
السابق، ص 126.

(3) فماذا أجاب الهمام الفقير؟
رسالة الشرق، ص 301.

(4) Persian Psalms, p. 123.

(5) بفقري كان لي مال الكليم
زجاجي منه ترتعد الصخور
زبور العجم، ص 374.

(6) تاج إسكندر الشهير متاع
أنا أبني الرجال بالفقر هذا
جناح جبريل، ص 532.

(7) أنا عيشة الأمراء لم آله لها
أنا عشت درويشا مع الفقراء

الفقير هو الذي يبتعد عن السلطان⁽¹⁾. للسلطان الملك، وللفقير الروح. يحكم السلطان العالم. والعالم كله في ضمير الفقير⁽²⁾. يبدو الفقير أميراً لأنه نال نصيبه من الغنى⁽³⁾. السلطان هو الفقير. والفقير هو السلطان⁽⁴⁾. الفقير هو الأمير، وليس الخفير⁽⁵⁾. الفقير هو الذي يأخذ الخراج من الملوك. فلماذا تمجد العروش والتيجان؟⁽⁶⁾. وإن صان الفقير ذاته فملك العالم له⁽⁷⁾. والفقير الذي يوقظ القلوب لم يعد يوجد في هذه الأمة⁽⁸⁾.

ج - الفقر الغيور

إن الذات التي تقوم على الفقر الغيور تصبح ملك البشر الفقير. هو الذي يقود الشعوب إلى سدة الملك⁽⁹⁾. والفقير الحيدري هو الذي يتأسى بعلي بن أبي

=	فادخل سجل الفقر باسمك إنه	فخر النبي وسيد الأسماء
	السابق، ص 533.	
(1)	عرفت الفقر عن سلفي قديما	عن السلطان إحجامي، تأمل
	أرمغان حجاز، ص 452.	
(2)	لك السلطان لكني فقير	لأرض الروح والمعنى أمير
	ودنيا «لا إله» بدت تأمل	حواها كلها مني ضمير
	السابق، ص 454.	
(3)	أمير فيه قد يبدو فقيرا	فقير من غني نال النصيبا
	السابق، ص 463.	
(4)	وأدي القول عن عمر فقولي	كن السلطان يعرف بالفقير
	السابق، ص 466.	
(5)	عن الرومي خذ سر الفقير	يشير بفقره حد الأمير
	وفقر ذاك لكن منه فاحذر	مقاما نلت يدني من خفير
	السابق، ص 466.	
(6)	فقراء، حاكم يبغي الخراجا	قل لماذا مجدوا عرشا وتاجا؟
	رسالة الشرق، ص 292.	
(7)	فقير إن يصن بالفقر ذاتا	فملك العالمين لذا الفقير
	السابق، ص 497.	
(8)	السابق، ص 535.	
(9)	وما فلنك جائر في السير	وماذا ذكاء وماذا القمير؟
	أرى ركبها جاهدا في المسير	وأقعدا طول هذا السفر
	سكندر زمر كالرعد حينما	وعندك يا موت صدق الخبر
		=

طالب، فتى جميل الطلعة طاهر القلب، في السلم ظبي وفي الحرب أسد. ناره تحرق كل شيء. ويكفي الغاب مجرد شرار. أوتي الأبهة والملك. تاجه حسر الرأس عنه دون ارتياب⁽¹⁾.

وعلم الفقر لسالك ليس صعبا. عرفه البعض فحدث لهم الهدي أي صحوة الضمير. ولا يكون الفولاذ جوهر سيف إن لم يكن في اليد التي تمسك به قوة الفقر. إن قهر الإله فقر ذليل، ولكن سبيل السلطان فقر غيور⁽²⁾. يتطلب الفقر الغيور الحفاظ على الإيمان الذي يدعو إلى الاطمئنان في مقابل غياب الجاه والمال. فرأس مال الفقير الصدق والإخلاص والوجد والحرقة والتفاني وليس الحلبي والمظاهر والثوب الموشى والذهب الأصفر⁽³⁾.

الفقر المادي أحد نتائج اضمحلال المسلمين. أما الفقر المعنوي فهو عزة بالنفس. يؤدي إلى مالا يؤدي إليه الغنى. يعطي النفس شجاعة أديبة، وقدرة على

= وعاشت بدهلي بدا نادر
وتبقى الجبال وأفغانها
تُذَل الحوائج صيد الرجال
إن الذات أبدها فقيرها
قوام الشعوب بخَرْ فقير
ضرب الكلیم، ص 116.

(1) سواد عيون عثرته علي
بُرى في السلم ظبيًا ذا جمال
به نار تُحرق كل شيء
حباء الله أئمة وملكها
سبيل التاج حسر الرأس عنه
السابق، ص 120.

(2) علم فقر لسالك غير صعب
لا يكون الفولاذ جوهر سيف
إن قهر الإله فقر ذليل
السابق، ص 123.

(3) إن أردت الفقر الغيور فلا تفقد مع العُدم ثروة الإيمان
فمن الحال لا من الجاه والمال دوام الرضا والاطمئنان
رأس مال الأحرار صدق وإخلاص ووجد وحرقة وتфан
ليس في الحلبي والمظاهر والثوب الموشى والأصفر الرنان
يا أمم الشرق، ص 350.

المجهر بالحق لأنه لا يخشى أن يفقد شيئاً. وقد يكون الصعلوك أغني من الملك⁽¹⁾.
الفقر الغيور هو إثبات الذات، وليس ثوب الفقراء الدراويش أو خلعة الإنجليز⁽²⁾.

وفي قصيدة طويلة بعنوان «فقر الصالحين» وهو ما سماه من قبل «الفقر الغيور» يكشف للناس معنى الفقر الغني الأرفع. هو طريق العارفين، وارتواء القلب من عين اليقين. عزيز في غناه. يبدع في الحياة. ويهتدي بالتوحيد. صده يرعش الكون. ويدرك أنه ليس في الكون إله غير الله. حرر خبير بأكل خبز الشعير. يخشع لله. ويخشع الأمير له. حاله الرضى والذوق والشوق. يصفو به العيش. وهو ميراث النبوة، وهدي القرآن⁽³⁾. ويقتدى أهل الفقر عن طيب خاطر. ولا تنسى النعمة الرحمن⁽⁴⁾.

ما لا يُيسره الفني
بالشجاعة دبنا
من المملوك تصونا
وقد وصفت المؤمننا
من قللة المال اثني
لي جوهراً فيه سنا
لا بالخزائن والفنى

وتراب الآباء هذي انصخور
فيك منذ الأزال ناوي الضفور
ماؤك النور. والتراب العبير
أحفظ الأبدان زوحي أبير
إيه فقري الغيور ماذا نشير

ما هو الفقر الغني الأرفع
وارتواء القلب من عين اليقين
هامة الجوزاء من أدنى خطاه
ويري التوحيد نبيراس هده
ليس غير الله في الكون إله
لم يكن ثم سوى خبز الشعير
وإليه خاشعا يسعى الأمير
ثم تسليم لما الله قضى
فهو ميراث النبي المصطفى
دائم الإسعاد موصول النعيم

ويل من بالنعمة الرحمن ينسى

فالفقر صاح ميسر
شبان قومي لو تحلوا
لم تلف صعلكتي أقل
الأمر ليس كما زعمت
فزعمت أن طماحه
إن كان في الدنيا بدا
فمن التصعلك قد بدا

ضرب الكلیم، ص 11.

يا جبالي أيا عنك الميسر
لا زهور ولا صدی عندليب
جنتي فيك مخرم وشعاب
لن يكون الشاهين عبد بُغات
خلعة الإنكليز أم سُحق ثوب

السابق، ص 116.

يا عبيد الماء والطين اسمعوا
هو عرفان طريق العارفين
ذلك الفقر عزيز في غناه
بحكم الإبداع في صنع الحياة
يرعش الكون إذا دوى صده
خبير حررها ذاك الفقير
خاشع لله دنياك القدير
حاله ذوق وشوق ورضا
يا له كنزا به العيش صفوا
في هدي القرآن والذكر الحكيم

با أمم الشرق، ص 358.

أهل فقر من فديت، طبت نفسا

جاويد نامه، ص 333.

ذلك الفقير في رقعته يسع العالم كله في وجدانه. هو صامت لا يطيل الكلام. وبصمته يرتبي الأمم. له من طاقة الروح ما يساعد الخامل على الطيران. حول العصفور نسرا. بنداء الحق يحيي المدن. وبصدق العزم يبني الأوطان. كانت دولته فوق الحصار. يخشاها ألف سرير للسلطين وللأباطرة والقيصرة. لا يرض العيش إلا في مقام الشاهين. لا يبالي أن يجهر بالحق في وجه الملوك. يتلاشي الحجر في ميزانه. ويخاف البحر من طوفانه. صوته في الشعب يشعل اللهب. وتخاف النار منه الحطب. ولا تخشى الأمة من مغير. ولديها ذلك الفقير. تغني الأمة بغناه. وترجو برجائه. تكشف عن نفسها في مرآته. وتستمد الحكمة من آياته. تكتسب منه صفات الصادقين. وتفز منه بسلطان مبین. تتجلي فيه حكمة الدين، وتظهر في قوته ورفضه للذل⁽¹⁾.

بيدي المسلم فقره. ويصعد منه كما تصعد زفرة النار⁽²⁾. ويضيق الفقير بالألم المقيم وبالابتعاد عن دين الحق والأصل الكريم⁽³⁾. الفقير على ما يبدو عليه قريب

- (1) ذلك المسكين في رقعته
صامت ليس يطيل الكلام
وله من طاقة الروح جنان
حول العصفور نسرا في الفضاء
بنداء الحق يحيي مدنا
مسلم دولته فوق الحصار
ليس يرضى العيش إلا في مقام
لا يبالي من له هذا السلوك
يتلاشي الجمر في نيرانه
صوته في الشعب يذكي لهبا
لا ترى الأمة نخشي من مغير
نحن باستغنائه نلقى الغنى
فامتحن وجهك في مرآته
تكتسب منه مزايا الصادقين
تتجلي حكمة الدين جمالا
قوة الدين وتشبيد علاه
يا أمم الشرق، ص 359.

- (2) ويبيدي المسلم المحبوب فقره
أرمغان حجاز، ص 439.

- (3) فقير ضاق بالألم المقيم
السابق، ص 439.

يسع العالم في مهجته
وهو بالصمت يربي أمما
يمنح الخامل ذوق الطيران
فيبدأ للأرض تفسير السماء
وبصدق العزم يبني وطننا
كان يخشى بأسه ألف سرير
يستوي الشاهين فيه والحمم
أن يقول الحق في وجه الملوك
ويخاف البحر من طوفانه
وتخاف النار منه الحطب
ولديها مثل ذيك الفقير
وعلى أشواقه نرجو المني
وانشد الحكمة من آياته
وتفز منه بسلطان مبین
حين يبيدي الفقير عزاء ودالا
في تسامي الفقر عن ذلك الحياة

يُصعد مثل حر النار زفرة

بدين الحق ذو الأصل الكريم

من الحق والثورة⁽¹⁾. وهو قادر على العطاء، وإثارة الروح، والتسامي والنمو⁽²⁾.
الفقير الحق يصلي ركعة لله. يذل بها الطغاة والبغاة. والنار لاتخمد بصدرة. وتتولى
إلى عتبات الظالمين⁽³⁾.

نشر الفقير واكتوى بنار النشر دون نار الضمير⁽⁴⁾. ورجاء المسلم أن يكون
فقيراً، وأن يحول هشيمه إلى القلب⁽⁵⁾. ونظراً لأن المسلم ابن الصحراء رحالة
وكان الفقر له دليلاً فإن أصبح فقراً غيوراً كان دليلاً للكون كله⁽⁶⁾. الحذر إذن من
الفقر والتصوف الذي علم المسلم الذل والخضوع⁽⁷⁾.

د - القلندر

«القلندر» عند إقبال ليس هو الدرويش كث اللحية، فقير الحال، رث
الثياب، أشعث الرأس، بدعوى الاتصال بالله. بل هو المتوحد الفرد، المتجرد⁽⁸⁾.
القلندر هو الحر الذي لا يركن إلى سكونه أو تقيده رغبة أو رهبة. هي النفس
القوية المجاهدة في الحياة وفي الممات. فالذات ليس مكانها سكون القبر بل ساحة

- | | | |
|-----|-----------------------------|-----------------------------|
| (1) | أنله الحق، مسكين أسير | ففقير وهو في قلق يثور |
| | السابق، ص440. | |
| (2) | بفقر كنت للصديق تعطي | أنس روحاً تسامى أو تطور |
| | السابق، ص443. | |
| (3) | فقير ركعة لله صلى | طغاة أو بغاة من أذلا |
| | وتلك النار إن خمدت بصدر | إلى عتبات من ظلموا تولى |
| | السابق، ص443. | |
| (4) | وتشريد ونار للفقير | من الحرقات هب نار الضمير |
| | السابق، ص445. | |
| (5) | فقير فلنحقق لي رجائي | هشيمي اجعله قلباً في الفضاء |
| | السابق، ص447. | |
| (6) | وللركبان من عرب دليل | فمحنة زبهم ففر طويل |
| | وهذا الفقر إن أمسى غيورا | ترجف كوننا وهو الدليل |
| | السابق، ص470. | |
| (7) | السابق، ص532. | |
| (8) | لا يجد القلندري راحة | وإن نوي بقبيره تحت الثرى |
| | سكنة الأفلاك في الضريح لا | فساحة الأفلاك أو طول السرى |
| | ضرب الكلیم، المدخل ص ع/ 26. | |

الأفلاك وسرى النجوم. القلندر هو صاحب الهمة المتولدة عن الإيمان الذي تحول لديه إلى طاقة وحركة وقوة وفعل. إذا طفى اليم فلا يحتاج إلى ملاح وسفن. قدرته تكبيره. وقوته آذانه. يحاسب الأفلاك. يقهر الأيام⁽¹⁾. ويصدر إقبال القسم الأول من «زبور العجم» بتوحيد نفسه مع «القلندر»⁽²⁾.

لا يخفى على القلندر فكر عند الشباب أو الشيخوخة، علناً أم سراً لأنه يعرف كل شيء عن طريق التجربة والمعاناة والمشاهدة. لا يقع في شرك الألفاظ مثل الحكيم أو الفيلسوف، ولا في شرك الحروف إن كان فقيهاً. يبحث عن الدرر وليس الأصداف في قاع البحار. يبدو عليه الحزن، مع حلقة المجانين دون أن يتخلى عن العقل. لا يرى الشرارة لهيباً مضيئاً. وصدق القلب أغلى من الجواهر. والفلسفة الحققة هي التي تُسطر بدم القلب وإلا فإنها موت أو تبعث على الموت⁽³⁾.

ونظرة القلندر أعز من أبهة الإسكندر وملك دارا ودروشة تنم عن قلب الأسد، وشجاعة علي⁽⁴⁾. القلندر أقوى من الملوك.....

- (1) يقول للزمان ذلك الفنى
مالك في معتركي من طاقة
إذا طغى اليم فهيا أقدمن
لقد محا سحرك تكبيرى فهل
يحاسب الأفلاك ذا القلندر
وقاهر أيامه لا يُقهر

السابق، ص 26.

- (2) «مرت دون الباب بحمية القلندر، وأتحدث عما لا يمكن الحديث عنه داخل المنزل» Persian Psalms, P. I.

- (3) ليس يخفى على القلندر فكر
أنا عندي بكل حالك خير
لا يقيم الحكيم في شرك اللفظ
ليس هم الغواص أصداف بحر
إن في حلقة المجانين عقلا
إن أعلى من الجواهر، معنى
فلسفات ما سطرت بدم القلب
ضرب الكلم، ص 27.

- (4) أعز من أبهة الإسكندر
دروشة تنم عن قلب ملي
جناح جبريل، ص 450.

والسلاطين⁽¹⁾. وهو نادر الوجود، صعب البحث عنه. فلكل شيء علامة مميزة. السيف للجندي. والتاج للملك. وفؤاد القلندر ما علامته؟⁽²⁾. سر حرية القلندر أنه لا يخشى نشر سره⁽³⁾.

وفي قصيدة طويلة بعنوان «المعرفة والتجرد»، يضع إقبال تعارضاً بين العلم والمشاهدة، بين النظر والذوق، بين الفيلسوف والصوفي، ونموذجه القلندر. لا يقوى الزمان على القلندر. فقلبه تحت عرشه مستقر. سره ليس في العلوم، ولكنه تعلم بالتجرد. لا يبغي صقل العقل، ولكن تصفية القلب. هو درب مستقل وطريق متميز، طريق عيسى وموسى، وليس طريق الفيلسوف والفقيه. هو سر وبصيرة، والعلم أقاويل الأقدمين. هو سكر بالفضيلة، والعلم قد يؤدي إلى الرذيلة. النفي عند القلندر سيف صقلته الذات. وسيف واحد يفني جيوشاً تخاف وهم الفناء. وإذا كان للإنسان قلب كسرت عيناه مرايا السماء⁽⁴⁾.

ومع ذلك، الصوفي هو القلندر، الفقير الغيور، العزيز الأبى، صاحب الملك والتاج، صاحب الجذب. معه الكليم القادر على سحق الملوك بنظرته. يبغي الصلح والسلم. وهم يبعون الحرب والجور. والصوفي هو القادر مثل الكليم على

- | | | |
|-----|---------------------------|---------------------------|
| (1) | ما لسنجار أو لطغرل حظ | من عيون القلندر الملكية |
| | السابق، ص 457. | |
| (2) | ليس للجنود غير شكل سيوف | ليس للتاج غير لمعة جوهر |
| | في عروش وفي جيوش بحثنا | ما عشنا على فؤاد القلندر |
| | السابق، ص 458. | |
| (3) | والذي يجعل القلندر حراً | أنه لا يخاف للسر نشره |
| | السابق، ص 460. | |
| (4) | ليس يقوى على القلندر دهر | قلبه تحت عرشه مستقره |
| | سره ليس في العلوم ولكنه | علمه بالتجرد والحق سره |
| | هي ترمي لصقل عقل وفكر | وهو يرمي لصوغ عين وقلب |
| | هو درب بذاته مستقل | وهي بحث على مجرد درب |
| | هو عند الصعاب عيسى وموسى | وهي للناس فيلسوف وقاضي |
| | هو سكران بالفضيلة سار | وهي سكرانة بخمر الرذيلة |
| | مطلق السكر في الحقيقة حال | ليس فيه رذيلة وفضيلة |
| | نظرة النفي للقلندر سيف | طبيعته الذات التي يقتفيها |
| | واحد من جنودها الحق يغني | عن جيوش تخاف الفناء |
| | وإذا المرء كان صاحب قلب | كسرت عينه مرايا السماء |

تحطيم الأسوار والسيجان والقضايا على كل أشكال السحر كما فعل الكليم «بسحرة فرعون»⁽¹⁾. الفقر أقوى من سلطان الملوك، فقر القلب وليس فقر البدن⁽²⁾. وأهل الذكر لم يعرفوا الفقر⁽³⁾. الفقر ليس هو العري بل هو الذي يهب الملك⁽⁴⁾. والفقر الغيور هو الفقر العظيم. وهو ملك غني⁽⁵⁾.

12 - المقامات والأحوال

المقامات سَفَرٌ دون طيران حتى يمكن النظر إلى الأرض وحياة الناس. المقام حركة والمُقام ثبات. والبدر لا يرضى بالمقام لأنه حرام. وبهذا المعنى الطيران كحركة متعة. والالتصاق بالعش ضياع. وإذا كان رزق الغراب في القبر فإن رزق الشاهين لدى القمر والشمس. وسر الدين الطعام الحلال. وهو الصدق والتحلي بالجمال⁽⁶⁾.

- | | |
|--|---|
| (1) إن للصوفي عزا ياله
إن للصوفي جذبا من كليم
يقتل الصوفي بالعينين
ذاك يعني السلم والصلح وهم
فتعال وتقدم قبضة الصوفي
أخي ما كان لموسى من رسوم
جاويد نامه، ص 155 - 156. | عزا، وهذا الملك للإسكندر
الله، لكن ذاك سحر السامري
لكن الملوك بالجيوش قتلهم
يبغون بالهيجاء حكم الجائر
قدم، سد ذي القرنين حطم
ليس هذا السحر غير المبين، حطم |
| (2) كيف فقر الجوع أو فقر العراة
السابق، ص 206. | حكم سلطان، فدع ذكر العفاة |
| (3) إنه قول من الأقوال بكرر
السابق، ص 212. | ما عني بالفقر قط أهل ذكر |
| (4) دعك من فقر به عري وجب
السابق، ص 276. | حبذا الفقير إذا ملكا وهب |
| (5) إنه ملك عظيم بالفناء
السابق، ص 297. | وهو بالفقر العظيم ذو العلاء |
| (6) لذة للسفر غايات السفر
ويدور البدر يحظي بالمقام
أن تطير، للحياة متعة
الغراب رزقه في جوف قبر
إن سر الدين أكل للحلال
السابق، ص 330. | لا تطر إن خطت بالعش النظر
ما المقام عنده غير الحرام
والتزام العش فيها ضيعة
عند شمس رزق شاهين، ويدر
وهو صدق والتخلي للجمال |

يرفض إقبال عديد من المقامات مثل مقام الرضا عند الصوفية. فالاعتراض أولاً. فقد سُئل يوماً عن رضاه عن العالم. فنفي. فطلب منه الله أن يبني عالماً أفضل. ولا يوجد بطل يرضى بالرضى⁽¹⁾. الرضى يعني التسليم⁽²⁾. والتسليم نكوص عن المقاومة.

الصبر هو القبر. ولا يقوم شعب من أعماق قبر وهو في مقام الصبر⁽³⁾. ليس حزن الصديق علاجه بالصبر. ولا حل لغز الموت في الصبر⁽⁴⁾. القلب الصابر حجر. وهناك فرق شاسع بين الصبر والعشق.

والتوكل ثقة المؤمن بالله، عتاد تدفعه إلى العزم لتحقيق مقاصده. تحميه من اليأس. وتنبئ له الطريق الذي يميز به بين الخير والشر. لا تخشى الصعاب. وتحطم الظلم. وتقضي على بنيانه. تدرك الآمال بالفقر الغيور الذي يبعث الأجيال القادمة. هدي الله هو الهدي الكلي. ولا يرجى سواه منه. تنبع قوة الروح التي احتجبت في هذا العصر. هو حب دين الله. ودونه يظل المسلمون صاغرين⁽⁵⁾. والمؤمن رمز

- | | |
|--|--|
| (1) ثم قالوا هذه الدنيا لنا هل ترتضيها؟
ليس في الحانات كفه بالرضا منا جدير
السابق، ص 295 - 296. | قلت لا، لا أرتضيها، قيل هيا أهدمن
رسم الأبطال حارب، ومع الساقى امزجن |
| (2) رضاك وذلك التسليم مذهب
أرمغان حجاز، ص 470. | وعن نهج لصدق أين تذهب |
| (3) لا يقوم الشعب من أعماق قبر
جاويد نامه، ص 318. | ما له من بعد قبر غير صبر |
| (4) أرمغان حجاز، ص 524 - 525. | |
| (5) ثقة المؤمن بالله عتاد
شيمة المؤمن عزم وثقة
بهما يسمو ويمضي قاهرا
نظرة المؤمن مصباح منير
عزمه الوثاب لا يخشى الصعاب
حوّلت ضررته صم الصفا
يدرك الآمال بالفقر الغيور
حال من نشوتك العزم الصميم
كن مع الكل على هدي الإله
قوة الروح هي السحر العجائب
فلديهم حب غير الله دين
يا أمم الشرق، ص 344. | فتوكل واعتزم نحو المراد
حيثما هم بأمر حقيقه
لا أرى البائس إلا كافرا
فهو بالخير وبالشّر بصير
تاركا ما عثر الظلم خرابا
والجبال الشم قاعا صفصفا
وهو للأجيال بعث ونشور
لم تعد تحفل بالوهم القديم
وبدون الكل لا ترجو سواه
أهل هذا العصر عنها في احتجاب
ولغير الله ذلوا صاغرين |

التضحية. يتفاني في السعي إلى الخلود⁽¹⁾.

ويأخذ إقبال مقامات أخرى مثل الإخلاص الذي يمنع من رهبة السلطان⁽²⁾. العدل أيضاً مقام، عدل القوي على الاقتصاد في الفقر⁽³⁾. ويعف الفقير عن لبس المرقع لأن الفقر ليس باللباس بل بالروح⁽⁴⁾.

ويؤول إقبال مقام السكر ويفصل أنواعه. طريق الصوفي سكر الحال. وطريق الفقيه سكر المقال. وطريق إقبال سكر الأعمال. فالحال نفسي خالص. والمقال خارجي خالص. أما العمل فهو الذي يجمع بين الداخل والخارج. السكر الأول بلا يقظة. والسكر الثاني بلا شعر وجمال. والسكر الثالث هو سكر التحقيق الذي يجمع بين الحقيقة والشرعية⁽⁵⁾.

الصوفية هذه الأيام مدعون للإلهام. أطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب. وزادوه حيرة وترددوا في الظلام. وأولوا النصوص لخدمة الأغنياء والطغاة كما يفعل فقهاء السلطان. ولا يوجد في منابرهم إلا سلة الكعك أو مائدة الطعام، أجراً على الوعظ. ومنهم من أطال الجدل في العقل والنقل. وأفنوا أعمارهم في المراء، في حين لا تؤخذ الهداية إلا من كلیم (موسی) أو من يد بيضاء (معجزة). فما فائدة إطالة الكلام؟ ولا يطالب صاحب الحق حقه إلا بالسعي وليس بالعطاء⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|------------------------------|----------------------------|
| (1) | هكذا المؤمن رمز التضحيات | يتفاني في اقتناء الباقيات |
| | السابق، ص 346. | |
| (2) | وعلي الإخلاص شدد قبضتك | رهبة السلطان جنب شيمتك |
| | جانويد نامه، ص 330. | |
| (3) | أرض عن عدل القوي لا تبعد | في غناك بل وفي الفقر اقتصد |
| | السابق، ص 330. | |
| (4) | فقير عف عن لبس المرقع | لهذا منه جبريل توجع |
| | أرمغان حجاز، ص 429. | |
| (5) | في طريق الصوفي سكر الحال | وطريق الفقيه سكر المقال |
| | ونشيد الشعر المرجع مبيت | خامد اللحن لم يشب بجمال |
| | بين نوم ويقظة غير صاح | بين سُكر الأفكار والسلبات |
| | وينفسي مجاهداً لا أراه! | فيه سكر الأعمال لا الأقوال |
| | ضرب الكلیم، ص 25. | |
| (6) | قد خبرت الدعاة في هذه الأيام | والمدعين للإلهام |

وكثيراً ما يقوم الإيمان على الغدر والنفاق وبيع الشعب والدين بأبخس الأثمان. فأحرق الدار والمقل. لم يتبق نور في صلاته. وبعد التجلي من كائناته. وكل من يعبد في الدنيا الحطام يعشق المال ويخاف عليه⁽¹⁾. ولا يعرف الصوفي المزيف حقيقة جذب الشعر. ضلوا بخرقهم. والشاعر ينزع خرقة. والصوفي لم ينزع خرقة أبداً. فما أعجب صوفي وملاً يجبران الناس على الرياء!⁽²⁾

- اطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب وزادوه حيرة في الظلام
وأصاغوا التأويل في كل نص حيلة للغنى وجمع الحطام
لا أرى في منابر القوم إلا سلة الكعك أو خزان الطعام
كم أطالوا الجدان في العقل والتقل وأفنوا أعمارهم في المراء
أي باب من الهداية يرجى من كلهم بلا يد بيضاء
أي أمر يفيد من كلام في صباح مررد ومساء
صاحب الحق أنت فاطلبه بالسعي ولا تنتظره بالإعطاء
يا أمم الشرق، ص 369.

(1) مؤمن دأب له عقد النطاق مؤمن بالغدر يرضى والنفاق!
يفلس شعبه والدين باعاً أحرق الدار فضاعت والمتاع
إن نورا ما تبقى في صلاته والتجلي قد نأى عن كائناته
كل من يعبد في الدنيا الحطام عشق المال كما خاف الحماما
جاويد نامة، ص 326.

(2) هل يعرف الصوفي والملا حقيقة جذبتني؟
ضنوا بكل ثيابهم وأنا أمزق جبتي
مما مزقا يوماً ولا حشوا ولا طسرف الرداء
فأعجب للصوفي وملاً يسلجنونك للرياء!
جناح جبريل، ص 431.

الباب الثالث

الشكوى والأنين

الفصل الأول

الشكوى والجواب

1 - «صلصلة الجرس»

ديوان «صلصلة الجرس» (بانك درا) من أوائل دواوين إقبال بالأوردية وأكثرها رواجاً. يحتوي على قصائد للطفولة والطبيعة والحب، وحث المسلمين على العمل والتضحية من أجل استعادة المجد القديم. ومن أهمها «النشيد الإسلامي» و«شكوى وجواب شكوى». وضع في «الشكوى» مصائب الإسلام وفي «جواب الشكوى» آمالهم. الأول الحاضر، والثاني المستقبل. الأول السلب، والثاني الإيجاب. الأول ما هو كائن، والثاني ما ينبغي أن يكون. الأول الواقع، والثاني المثال.

والحقيقة أن «الشكوى» ليست موضوعاً لديوان «صلصلة الجرس» وحده، بل تعم كل دواوين إقبال: «جناح جبريل»، «ضرب الكلیم»، «رسالة الخلود»، «أرمغان حجاز»، «يا أمم الشرق...». ويتداخل موضوع «الشكوى والجواب» مع موضوع «الأنين والحنين». فالشكوى أنين، والأنين شكوى. والجواب حنين، والحنين جواب. لذلك صعب التمييز بين الفصلين، الأول «الشكوى والجواب»، والثاني «الأنين والحنين»⁽¹⁾.

(1) صليصلة الجرس، مقدمة عبد الماجد الغوري ص8. نقله إلى العربية نشرأ لم صاغه شعراً الشيخ صاوي شعلان المصري، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية، الهند، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 2001.

ولا فرق بين الشكوى والنجوى، الشكوى من الحال، والنجوى للمآل. ولا فرق بين التوجه للحساد أو للعواد. فالأئين أئين. تعيش الأمة في ماضيها تحن إليه وكأن ليس لها أمس وغد. وتشارك الطبيعة أئين الأمة. وتصيح الطيور على أغصانها. طالت الشكوى، وامتد السهاد، وانهارت الدموع كالندى على الأغصان. فلماذا الصمت كالزهرة الخرساء التي ليس لها موهبة الإنشاد؟⁽¹⁾

لقد امتلأت قيثارة إقبال بأنات الجوى. وآن الأوان له للتعبير عنه. فتصعد البلابل من مهجته كي تنطق بلسانه. وهذا الإفصاح ليس تعدياً على القناعة والرضا، وكأن الغضب إثم لا يُغتفر. إنما هو الخلق الطبيعي بعد التخصيب من الأشجان. وهي شكوى الدين للديان، شكوى من قلب لم يعيش إلا دائم الذكر والحمد له⁽²⁾.

ويصعب الفصل بين الشكوي وجواب الشكوى. ففي كليهما إثارة مجد الماضي، ووصف مآسي الحاضر، والتطلع إلى نهضة المستقبل. فقد وضع إقبال في «جواب شكوى» تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم التفاتهم لأمر الدنيا، وإتقان العمل فيها، تبريراً للجهل والعجز أو للتبعية والتقليد.

يوضح إقبال في بداية القصيدة أنها حديث الروح للروح. يسهل فهمه بلا عناء. لا يحتاج حتى إلى كلمات تحمله. وينقل أئينه إلى رحاب الفضاء. ينطلق من الأرض، ولكن يصل إلى أعالي السماء. ينطلق من لوعة العشق ودموعه. وهي لغة

(1) شكواي أم نجواي في هذا الدجى
أمسيت في الماضي أعيش كأنما
والطير صادحة على أفنانها
قد طال تسهيدي وطال نشيدها
فإلى متى صحتي كآني زهرة
ضرب الكليم، ص 93.

ونجوم ليلي خسدي أو غودي
قطع الزمان طريق أمس عن غدي
تبكي الرى بأنينها المتجدد
ومدامني كالطل في العفن الندي
خرساء لم تُرزق براعة منشد

(2) قيثارتي ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتي بلابل مهجتي
أنا ما تعذبت القارعة والرضا
أشكو وفي فمي التراب وإنما
يشكو بك اللهم قلب لم يعيش
السابق، ص 93.

لابد للمكبوت من فيضان
ليبين عنها منطقي ولساني
لكنما هي قصة الأشجان
أشكو مصاب الدين للديان
إلا لمحمد غلاك في الأكوان

السماء. فوصل إلى الأفلاك. وأهاج بكأؤه الملاً الأعلى⁽¹⁾.

استمعت النجوم إلى الشكوى التي وصلت إلى قرب العرش، وجاوبت المجرة. ربما طيف سرى في الفضاء. أدرك البدر أنها من قلب شاك. وتعزف على الصوت الأرضي الصادق الذي كان صاحبه من قبل في جنات عدن لولا خروجه منها للسعي في الأرض والاختبار فيها⁽²⁾. إنه ابن آدم في غروره. تجاوز قدره دون حساب. لقد سجدت له الملائكة الكرام من قبل. وهو مخلوق من طين وماء. تصور أن العلم كيف وكم، والسر ما زال خافياً عنه. ملاً كؤوسه دمعاً وشكوى، ولكن مازال في صوته نغم الرجاء. لقد وصلت الشكوى بالرغم مما فيها من مرأ⁽³⁾.

وبالرغم من ركافة شعر إقبال متواضعاً إلا أنه قد يبلغ يوماً القلوب. ولا يهم رأي المستمع ولا الشعر الذي يستمع إليه. يكفيه نداء «الله أكبر». يكفيه إذا خفق في كشف النوايا في صلوات وتراويل الزوايا بعد معرفة النفس بدون فلسفات تضر

(1) كلام الروح للأرواح يسري
هتفتُ به فطار بلا جناح
ومعدنهُ تسرابي ولكن
لقد فاضت دموع العشق مني
فخلق في رب الأفلاك حتى
صلصلة الجرس، ص 101.

(2) تحاورت النجوم وقلن صوت
وجاوبت المجرة علّ ضبفا
وقال البدر هذا قلب شاك
ولم يعرف سوى رضوان صوتي
ألم أك قبل في جنات عدن
السابق، ص 101.

(3) وقيل هو ابن آدم في غرور
لقد سجدت ملائكة كرام
يُظن العلم في كيف وكم
وملاً كؤوسه دمع وشكوى
فيا هذا لقد أبلغت شيئاً
السابق، ص 102.

وتدركه القلوب بلا عناء
وشق أنينه صدر الفضاء
جرث في لفظه لغة السماء
حديثاً كان علويّ النداء
أهاج العالم الأعلى بكائي

بقرب العرش موصول الدعاء
سرى بين الكواكب في خفاء
يوصل شدوه عند المساء
وما أحراه عندي بالسواء
فأخرجني إلى حين قضائي

تجاوز قدره دون ازعراء
لهذا الخلق من طين وماء
وسر العجز عنه في انطواء
وفي أنغامه صوت الرجاء
وإن أكثرت فيه من المرأ

أكثر مما تنفع. وعمال المناجم على الجانب الآخر أغرب عن اللاهوت، وفي البحث أعاجم⁽¹⁾.

2 - حيلة العاجزين

الشكوى بين الألم واليأس، بين النور والظلام، بين الإمكان والتحقق، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. وبين كل شكوى وأخرى ينادي إقبال «أبها الأرباب قد آن الآوان». قد تكون الشكوى حيلة العاجزين، وصوت المتوحدين، وغناء الشعراء، وابتهاال الصوفية⁽²⁾. إن الجنون هو الذي يدفع للشكوى وهو ما لم تقو صحراء الطبيعة على منعه. وهو الذي دفع الذات إلى التعبير عن المخاوف والظنون. والذات قادرة على أن تقضي على سحر إغراء الطبيعة⁽³⁾.

ويختار إقبال. هو في نار غرور يحترق. يصمت أو يشكو؟ أثر الصمت عندما سأله جبريل: هل يحتاج إلى شيء؟ لأن المسلم إذا احتاج شيئاً ناله بجهد لأنه ليس حبة شيلم. ويقرر في النهاية الشكوى لأنه لم يعد يستطيع غمض عينيه. فالحسن حوله في كل مكان، والحب يملأ قلبه، والأمل يجدده. والشجاعة لا تنقصه. وفرح بالفقر أي باستقلال الشعور. ولا يُحرم على برعم بالابتسام، ولا على

- | | | |
|--|---|---|
| <p>(1) رُغم ما يوجد في ركد
ربما تبلغ يوماً
ما على الشارع لوم
أنا بفنيني عن البشر
صلوات وتراتيل
معشر الجانب هذا
عرفوا النفس ولما
وعباد الجانب الآخر
هم عن اللاهوت أغ
جناح جبريل، ص 532.</p> | <p>(2) وأظلم حظنا نحن الحياري
أرمغان حجاز، ص 443.</p> | <p>(3) لم تقو صحراء الطبيعة هذه
لولا الجنون أساء في تقديرها
بالذات يمكن أن نكسر سحر ما
جناح جبريل، ص 422.</p> |
| <p>ة شعري من عيوب
كلماتي للقلوب
كيفما قال وعبر
مر نداء (النه أكبر)
بهاتيك الزوايا
دينهم لا يستطيع
نظروا في الله ضاعوا
ر عمال منساجم
راب وفي البحث أعاجم</p> | <p>وما في القلب للأمال نور
لما جنت على احتواء جنوني
لم آتيا بمخاوفي وظنوني
بعثته من عطر ومن تلوين</p> | |

زهرة بالتفتح، ولا على القمر بالضياء، ولا على الشمس بالإشعاع. لم يستطع إقبال أن يكتّم جرحه حتى أمام الله. وشكا له. واشتكى من المسلمين له على الرغم من رفض الناس وتململهم من هذا الصوت الهاتك للأسرار⁽¹⁾. شعر إقبال محير بفارس والعراق. يطربون له ويشجون⁽²⁾.

ويشكو إقبال وحيدا. وأراد البحث عن الاستجابة لشكواه في يثرب. يعبر البيداء أم يطلب لقاء الحبيب؟⁽³⁾. في محفله غريب يشكو. ويخشى ذبوع السر⁽⁴⁾. وبالرغم من تفاؤل إقبال إلا أنه أحيانا يصيبه الاكتئاب من مشكلته التي أعياها حلها⁽⁵⁾.

3 - الشكوى لمن؟

لا يجد إقبال من يشكو له صراحة⁽⁶⁾. هو غريب في الشرق والغرب. لا

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | لما قذفت لنار نمرود أنى
وصمت لما قال: هل لك حاجة؟
رباه! إنني أتعبتني حيرتي
الحسن من حولي بشيع وصاله
سكران مغتبط السجية منتش
يا ليت شعري كيف يحرم برعم
لم يستطع إقبال يكتّم جرحه
من سوف يسكت ذلك الوقح الذي
السابق، ص 421. | جيريل يسألني فلم أنكلم
أنا مسلم أنا لست حية شيلم
ما عاد يمكن أن أغض عيوني
والحب في صدري يذيع فتوني
بالفقر فرحان الفؤاد بهيجه
من رغبة في الابتسام تهيجه
حتى أمام الله قام وقالا
لم يبق للمتجملين جمالا |
| (2) | شعري بفارس والعراق محير
السابق، ص 425. | طربوا له وتحيروا لشجونه |
| (3) | لقد أنرت أن أشكو وحيدا
أأضرب مكتبي أم هان شوفي
أرمغان حجاز، ص 445. | ويثرب رمتها فاجتزت بيذا
تخير، حيرتي تأبي المزيدا |
| (4) | ولست بمحفلي غير الغريب
ذبوع السر بين انقوم أخشي
السابق، ص 448. | لمن في مشكلي شكوى كروبي؟
شكائي صنت عن قلبي الكتيب |
| (5) | أنا من مشكلتي طال اكتنابي
يا أم الشرق، ص 360. | حلها أعيا على الجهد صوابي |
| (6) | وما وسع الكلام أسى خفيا
وفي شرق وفي غرب غريب | لمن أشكو بقول لي صريح
فؤادي لا يواسيه الحبيب |

يجد حبيباً لفؤاده. فيشكو همومه إلى نفسه. قد تكون الشكوى للساقى أو للمرشد أو للناس أو للمرسول أو للطبيعة أو لله.

يبث إقبال شكواه إلى الساقى كما هو الحال في خمريات عمر الخيام. وهو نديم الشاعر. لقد قام الغفاة بثورة في كل شيء في الحياة. ولا توجد ذرة لم تخل من عاصفة. نهبت خيرات المسلمين. ولم يعودوا بذى نفع لأحد. لقد أصابتهم العين بحيث أصبح ركبهم هائماً في كل واد. وأصيب أطباء القلوب بفتنة في القلب. لم يعد في الوديان ماء يحيي الشعوب. ولم تعد جذوة الحرم موقدة كما كانت. وغطت الحجب العيون عن رؤية زمزم. والنهر والبستان مازالا في تبريز. وغناء جلال الدين والرومي مازال يصدح. لا يأس مادام الحقل يروي. والماء يهطل. والمسلم بفطرته ومواهبه قادر على إعادة مجد الأقدمين⁽¹⁾.

لا يريد إقبال أن يكذب قلبه لسانه. وهو طرق القلندر. كما أن الساقى اللبيب هو الذي يحشد الجموع في ألحان. لا تداوي فلسفة الرازي خور القلوب، رغم ما فيها من براعة. والمريد البسيط التقى ببيكي من صدقه. ياليت الشيوخ يكونوا مثله، بدلاً من الموت رياء. إن الإنسان، نجل آدم، مازال ضحية الأوهام والشعوذات

فكان لغريتي خدع عجيب

= هموم القلب أشكوها لقلبي

السابق، ص 449.

ثورة في كل شيء في الحياة
أيها الساقى خذ الكأس وهات
لم نعد ننفذ شيئاً للعباد
جعلته هائماً في كل واد
نحن أبناء أطباء القلوب
قبل أحيينا به روح الشعوب
يوقد الجذوة في صدر الحرم
أن ترى زمزم قرب الملتزم
ي تبريز بستان ونهر
ة رومي منذ دهر
ذا النهر والبستان قومي
ز في حضرة رومي
أيها الساقى إذا الماء هطل
وابلا يا أيها الساقى فطل

(1) أيها الساقى لقد قام الغفاه
ذرة لم تخل من عاصفة
نهبت خيراتنا أجمعها
أي عين قد أصابت ركبنا
فتنة في القلب قد أودت بنا
أين في ودياننا الماء الذي
لم لا ينطلق الطوق الذي
حجب غطت عيون المؤمنين
رغم أن النهر والبستان ف
لم يزالا لم نقيم جوف
قل لها إن شئت هـ
لو ترى إذ رقصت تبريز
أنا لا بأس من حقل دوى
فأعد رونقه إن لم يكن

جناح جبريل، ص 412.

القديمة. يلبس حلة النصر على جسد الهزيمة. والشاعر مسؤول عن ذلك أيضاً. لا يبرئ نفسه. فشجاعة الاعتراف جوهر الإيمان. ياليت الملا لديه مثل هذه الشجاعة. والإيمان بلا حب جمود. وإذا قابل الحب الكفر انتصر عليه. وقاده إلى طريقه⁽¹⁾.

يعبر إقبال عن الشكوى والجواب في حوار بين «المرشد والمريد»، بين الرومي وإقبال. إقبال يسأل، والرومي يجيب. يسأل إقبال باعتباره إماماً للعاشقين أن العود وأوتاره سجون. تيبس فيه اللحن الخافت. وتحول العصر النشوان إلى مجرد ظنون. ولا تمحو رقصة الأجساد القلب الحزين. كان المبدأ قديماً أن ما تنشؤه الأمة يكون مثل الله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والآن ليس في القلب أي حضور، ولا في الوجدان أي يقين. كيف يستوعب هذا الصدر المهين سرّاً؟ أسر لصديقه شيئاً عن الوحي الأمين، وكيف جرت به إلى الأوهام قيثار طين، رغم ما قام به من أمجاد عبر القرون؟⁽²⁾. وينتهي إقبال الحوار بحديث الرومي أن كل ما في إجاباته وشعره من

- (1) ألف خوف ولا قيام لسانی
عندما قلت لنقلندر هذا
الذي يحشد الجموع بحان
خور القلب لا يداويه رازی
المريد البسيط وهو نقي
أسأل الله نعمة مثل هذي
رب ما زال نجل آدم هذا
صنم النفس تحت إبطيه يضفي
لست في صرختي أبزئ نفسي
وأناء، كل تهنّاتي لملا
مؤمن لا يكون للحب أهلاً
وإذا الكفر صادف الحب يوماً
السابق، ص 433.

- (2) قال إقبال لرومي
لم يزل يملأ سمعي
وتر العود وقشر الـ
عندما تيبس فيه
عصرنا النشوان هذا
رقصة الأجساد لا تمحو أسى القلب الحزين
مبدأ العالم يا أستاذ ما شاؤوا يكون
ليس في قلب حضور
يا إمام العاشقين
ذلك القول المبين
عود والعود سجون
يبس اللحن الدفين
تنتشي منه الظنون
رقصة الأجساد لا تمحو أسى القلب الحزين
مبدأ العالم يا أستاذ ما شاؤوا يكون
ليس في قلب حضور
أو بوجدان يقين

صياح وصراخ قد يذهب كله أدراج الرياح. وهو ما يتنافى مع تفاؤل إقبال⁽¹⁾. ويرد الرومي بأن هذه الأيام لا فرق بين لحن وطين، مع أن فن الاستماع الحق ملك الفنون⁽²⁾.

يشكو إقبال أنه طوف الشرق والغرب من أجل العلم. وهو الآن وحيد. الآسى يملأ قلبه لأنه لم يستفد شيئاً ولم يجد علاجاً لدائه أو إجابة لسؤاله. ويرد الرومي بأن العلم الموجود الآن مجرد طب كف أي قراءة المستقبل، مجرد خرافة. لا يعالج شيئاً. وإقبال مريض من لجاج القدماء والفكر القديم. ولو سئلت الأم عن علاج لوليدها لكان نصفه من العقاقير والنصف الآخر من حنان الأم. فالعلاج مادي ومعنوي، جسدي ونفسي⁽³⁾.

يشكو إقبال من الناس حتى يشعروا بما يكابده. فقد كشف أسرارهم وإن لم يستطع بلوغ درجة سكر السكارى⁽⁴⁾. ولولا أوضاع الأمة لما عانى إقبال مما يعانيه من غصص في الحلق لو عرف سببها لما أطال قصصه. وإذا أراد الاقتراب منها

= كيف يستوعب سيرا ذلك الصدر السمهي
رد للصديق ما يروى عن الراجي الأمين
كيف جرت به إلى الأوهام قبيلة طين
رغم ما أنفقه للمجد من كد الغفرون
السابق، ص 523.

(1) كل ما في الشعر هذا من صراخ وصياح
ليس ما يدهش أن يذهب أدراج الرياح
السابق، ص 528.

(2) قال رومسي أي فرق بين لحن وطينين
إن فن الاستماع الحق سلطان الفنون
كالعصافير وليس كلها تأكل تين
السابق، ص 523.

(3) قال: طوفت لأجل العلم في شرق وغرب
وأنا الآن وحيد والآسى يملأ قلبي
قال: هذا طب كف ليس أهلاً لعلاجك
جعلت منك مريضاً في فراش من لجاجك
اسأل الأم علاجاً من عقاقير الأمان
إن نصف الطب من علم ونصفه من حنان
السابق، ص 524.

(4) حتى نحس بما أكابده مزقت أسرارى إلى الأبد =

تفيض أشجانه. يقرؤها الناس في عزلة كالمزامير، دون حزن من شطحاته وأشجانه ورنين صوته في منتصف الليل⁽¹⁾. بحث إقبال طول عمر في بستانه فما وجد إجابة لقصته. في صوته أغنية قد يحار في فهمها جبريل. قد تظل مطوية في القلب أو قد يصدق بها الشعر⁽²⁾.

وفي قصيدة «شكوى ومناجاة» التي كتبها وهو على فراش الموت، يشكو إلى الرسول حال الأمة. مع أنها حطمت الأصنام من قبل. وجددت العالم القديم المنهار⁽³⁾. الرسول هو رأس مال البائسين، ودعاء الحائرين. تحتاج أمته إلى الشجاعة واليقين وإلى التحرر من الخوف من الموت⁽⁴⁾. ولا يسمع أحد النداء⁽⁵⁾.

= وجذور غفلتك التي سكرت لا أستطيع بلوغها بيدي
السابق، ص 434.

(1) ولولا ذاك عانيت ما عانيت من غصصي
ولو أنني ظفرت به رجعت ولم تطل قصصي!
إذا أحببتك تلأسه فذلك فيض أشجاني
أقم في عزلة واقرا مزاميري بسايران
ولا يحزنك ما تقرأ من شطحي ومن مثلي
يقال: يُرنّ صوت السر في منتصف الليل
السابق، ص 436.

(2) فيالحسن فارس ووحيه وبالكأسه وبالفصني
بحثت طول العمر في بستانه فما وجدت زينة لقصتي
ترقد في حنجرتي أغنية لو قلتها لحبرت جبريلا
أحرص أن تبقي هنا مطوية هناك سوف أنقع الغليلا
السابق، ص 445.

(3) يا أمم الشرق، ص 397/400 - 401.

(4) يا رأس مال البائسين وبنا منار الحائرين
ادع الإله بهب لأمتك: الشجاعة واليقين
وبعيدهم من شر خوف الموت من قبل الممات
الخوف يفني البائسين وهم على قيد الحياة
السابق، ص 401.

(5) فإذا نصحت فإنني ناديت من لا يسمعون
وإذا نهيت فإنما أسمعت من لا يستهون
السابق، ص 402.

ومع ذلك، الشكوى ضرورية دون كتمان الأسى⁽¹⁾. يعاني منها القلب. ويثن بها الناس لمن لا يسمع⁽²⁾.

يشكو إقبال إلى الطبيعة. فإلى متى تستمر الشكوى للنجوم؟ كانت نجومًا ثم ضاعت، وتحولت إلى علوم. والإنسان موجود لم يتوقف عن الوجود. وهو أولى بالوجود. والصراع بين الوجود الإنساني والوجود العام جمود. ما دام الوجود الإنساني صاعقة فإنه قادر على جوب الصحراء، وتسلق الجبال. ولا يستحق العشب والقش لباس اهتمام الإنسان. الكون ميزان عند الشجاع الصلب. وللمؤمن الحق المخاطر لما يدعو إليه. لا يري أمامه أي سد منيع. فهو علة الكون كله⁽³⁾. وتريد الطبيعة أن يجدد إقبال أشعاره، خشية من الثثرة وكثرة الكلام. ويريد إقبال صياغة شعره من الغابات وليس من المدن، من الطبيعة وليس من الصنعة⁽⁴⁾.

لقد غنى إقبال أمام الروض أغنية رشيقة هيجت في الروض شكواه. ولم يكن

(1) هذا يقول ابن عن الشكوي ولا نكتم أسألك
ويقول ذا النظر ولا تهمس بحرف عن جواك
السابق، ص 405.

(2) كم ذا يعاني القلب من نار اللواعج والشجون
ويثن مثل الناي بالشكوى لمن لا يعلمون
السابق، ص 407.

(3) حتى متى يا طيني تتوسلين إلى النجوم
كانت نجومًا ثم ضاعت خلف أوهام العالوم
إما أكف أنا وإما أن تكف عن الوجود
هذا الصراع البارد الواهي طريق للجحود
ما دمت صاعقة ففي الصحراء أعمل والجبال
عشب وقش لباس لا يستحقان انفعالي
الكون ميزان يكون لذي الشجاعة والجلاد
للمؤمن الحق المخاطر بالحياة لما ينادي
ما مؤمنًا من لم يكن للكون علته جميعا
جناح جبريل، ص 431.

(4) ويحثني العصفور في البستان، يرغب أن أجدد في التشيد
من هذه الغابات قام الحسن يبدأ رقصته
في هذه الغابات لا في المدن نفهم قصته
السابق، ص 429.

إقبال كالزهر رهن الريح إن شاء مزقه وإن شاء أبقاه. ومع ذلك يسير ومعه جنونه. ولا يمزق ثوبه إلا حماء وحرارته⁽¹⁾.

لم يشك إقبال إلى الله، ولكن إسرائيل هو الذي اشتكى له من شكوى إقبال الذي يريد أن يغير العالم المتمرّد. والشكوى الحق من إحرام أهل الصين داخل سورها، ورقود أهل الحجاز بجوار مرقد محمد. شكوى إسرائيل من أجل إدخال المسلمين في العالم، وليس عزلهم عنه. فالملائكة راضية، ولكن الشاعر غاضب. عذر الملاك ليس في الإمكان أبدع مما كان. وعند الإنسان في الإمكان أبدع مما كان. وتلك رسالة الإنسان⁽²⁾.

4 - موضوع الشكوى: العصر الحاضر

الأحوال الحاضرة تبعث على البؤس وحزن قلب جبريل. أصبحت الدنيا في أيدي اللثام، والأحرار في مقام الأسر⁽³⁾. وبالرغم من سنا الإصباح وأصوات الطيور، وبالرغم من نمو الخمائل على الربى يجاوبها الغدير إلا أن نوم المسلمين ثقيل. لم يدركوا نور الصباح. بل إن رمضان لديهم أصبح قيداً دون تحرر من الأهواء وتقوية للعزائم. ولو كانت هناك مزايا للعصر الحاضر إلا أن الضمير غائب⁽⁴⁾. غاب فيه الوفاء، ونال الظالمون العهد. وإذا ضاع الإيمان فلا أمان، ولا

(1) إقبال غنى أمام الروض أغنية
ما كنت كالزهر رهن الريح عالمه
أمشي ويمشي جنوني في الطريق معي
السابق، ص 509.

(2) لما اشتكى لله إسرائيل من
هذا الفتى قبل الأوان يريد أن
فأجبه صوت: أليس أشد من
إحرام أهل الصين داخل سدها
السابق، ص 422 - 423.

(3) كهذا العصر عصرا ما رأينا
أرى دنياك في أيدي اللثام
أرمغان حجاز، ص 430.

(4) وكم لاح الصباح سنا وبشرى
وكبرت الخمائل في رباهما
وأذنت القماري والطيور
مصلية فجاوبها الغدير

دنيا إلا لمن يحيي دينه. والحياة بلا دين مصيرها إلى الفناء. والتوحيد ينعكس على الأمة في وحدتها. ولا تنهض إلا بالوحدة. لقد تساندت الكواكب بفعل الجاذبية. لذلك لا يتوحد أفراد الأمة إلا برابطة الأخوة في الدين⁽¹⁾.

أصبح المسلمون اليوم في الديار بلا ديار، وكالطيور بلا وكور. وكل صواعق الدنيا سهام موجهة لمضاربهم. وهم في غرور كاذب. هم فقراء في العلم والمال. يقطعون مع العالم، وينفرون منه. باع الأحفاد مقابر الأجداد. ويعجب تجار الأصنام من تجار القبور⁽²⁾.

نخي الدهر على المسلمين. وتغيرت بهم الليالي. وتفرقت بهم الأيام. وتشعبت وجهاتهم. وتضاربت أمانيتهم. تركوا الدين. ثم عادوا أسرى للهوى والهوان. وأصبح رقي الأمم متروكاً لتقلبات الأزمان، وليس مشروطاً بإرادة الأمة وعزيمتها. وما أبعد الشقة بين أوهام المسلمين ولغوهم وبين السبع المثاني! لقد انقلبت النار إلى رماد. ولم يبق منها إلا ظلاً ضعيفاً من دخان⁽³⁾.

كأن الصبح لم يدركه نور
فليس لكم به عزم صبور
وليس بغائب إلا الضمير

= ونوم صباحكم أبداً ثقیل
وأضحى الصوم في النهار قيدا
تمدّن عصرکم جمع المزایا
صلصلة الجرس، ص 103.

وكيف ينال عهدي الظالمينا؟
ولا دنيا لمن لم يحيي ديننا
فقد جعل الفناء لها قرينا
ولن تبنا العلا متفريقنا
ولولا الجاذبية ما بقينا

(1) لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضي الحياة بغير دين
وفي التوحيد للهمم اتحاد
تساندت الكواكب فاستقرت
السابق، ص 103.

وأنتم كالطيور بلا وكور
لبسببكم وأنتم في غرور
وأنتم في القطيعة والنفور
لدى الأحفاد مدعاة الظهور
إذا سمعوا بتجار القبور

(2) غدوكم في الديار بلا ديار
وكل صواعق الدنيا سهام
أهذا الفقر في علم وحال
وبيع مقابر الأجداد أضحي
سيعجب تاجروا الأصنام قدما
السابق، ص 103 - 104.

وكيف تفرقت بكم الليالي
ضحيا للهوى أو للهوان
تقرره صلاحية الزمان
بحكمة منزل السبع المثاني

(3) وكيف تغيرت بكم الليالي
تركتم دين أحمد ثم عدتم
رُقي الشعب قد أضحي لديكم
وكيف تُقاس أوهام ولغو

ومع ذلك، بقي في الأمة الفقراء، عباداً تقاة، قياماً ركعاً في المساجد. أبرار دائماً في صوم، ويستغفرون بالأسحار. وهم الستر الذي يوارى العيوب. في حين ضل الأغنياء بالملاهي والريب والتردد. الفقراء كنوز دين الله رب العالمين. هم الذين يحفظون الأمة في التاريخ. وهم البقية الصالحة⁽¹⁾.

أصبح تفكير المسلمين تفكيراً خاملاً. عزيمتهم باردة. وعظهم من غير سحر. لا يخرج من القلب، مقالهم غير مضيء. لديهم فكر، ولكن ليس حرارة الغزالي. صوت الأذان في الأرض خال من حرارة آذان بلال. علت الضمائر في كل حي، ولكن المساجد خالية⁽²⁾.

العصر الحاضر غارق في الجسم. لا يدري شيئاً عن الروح. وإشباع الجسم وفقر الروح يقضيا على الذات⁽³⁾. فهم العصر رقصة الجسم، ولكنه لم يفهم رقصة الروح. رقصة الجسم في التراب، ورقصة الروح في السحاب. رقصة الجسم

سوى ظل مريض من دخان

أرى نارا قد انفلبت رمادا

السابق، ص105.

قياماً في المساجد راكعين
وبالأسحار هم يستغفرون
يوارى عن عيوبكم العيوب
فهم في ريبهم يترددون
لدين الله رب العالمين

أرى الفقراء عباداً تقاة
هم الأبرار في صوم وفطر
وليس لكم سوى الفقراء ستر
أضلت أغنياءكم الملاهي
وأهل الفقر ما زالوا كنوزاً

السابق، ص105.

ولم تبق العزائم في اشتعال
ولا نور يطل من المقال
ولكن أين تلقين الغزالي
ولكن أين صوت من بلال؟
ومسجدكم من العباد خالي

أرى التفكير أدركه خمول
وأصبح وعظكم من غير سحر
وعند الناس فلسفة وفكر
وجلجلة الأذان بكل أرض
ضمائركم علت في كل حي

السابق، ص105.

غارق في الجسم، روحاً ليس يدري
رجل الله لذات نكصا
رقصة الروح تناسى الغافلونا
رقصة الروح لها نجم السحاب
وإلينا الأرض والخضرا تضم

أنت في عصر ولكن أي عصر
فحط روح سمر جسم انقصا
رقص جسم منه كانوا يفهمونا
رقصة الجسم ندور بالتراب
رقصة الأرواح علم وهي حكم

جاويد نام، ص334.

جهل، ورقصة الروح علم. لقد تخلق العصر عن الروح. ولم يعد به لهب. والعنق لف حوله الحبل لصلبه. ولم يعد للزهر ألوان وريح. فضاقت الصدر بالأمل الجريح⁽¹⁾. وفساد العصر ظاهر. تخجل منه الأفلاك، سرقة وتلاعب في الأسعار، وإضلال الناس، وآثام طول العمر⁽²⁾.

ويشتكي الدين من هذا العصر، ووآد الطغاة حرياته. شامت فيه وجوه الإنسان. وأفسد نقشه حتى الهواء. نظرتة تتم عن كفر وفن ناقص، والحذر منه في تجارة السوق⁽³⁾. تحول الدين إلى عنصرية. أحمد أبو لهب شعلة المصطفى. وشرد فعل النفي «لا إله» من الفؤاد. فبعثت الأصنام. وأحيا سحر الغرب آلهة أخرى. وشحب «وجه» الله. لقد آن الأوان لتحرير الدين من القيود، والعييد من الأغلال. ولكي تقام الصلاة ترفع الجباه أولاً دون سجود. ولا صلاة بدون نشيد للحرية. لقد توارى الإله، ويشهد الشيطان⁽⁴⁾. وعلى لسان سعيد حلیم باشا يصف إقبال أحوال

(1) وهذا العصر من روح تخلقى
وفي عصر بلا لهب خلقت
وفي عنقي حياتي مثل حبل
وما للزهر ألوان وريحي
أرمغان حجار، ص 449.

(2) فساد عصرنا أوهى وأفق
ومن عيناه والأذان سارق
وكان السعر في الأسواق بخسا
ومن شيطان هذا العصر فاحذر
أبالسة بهذا العصر جافي
السابق، ص 492 - 493.

(3) وعصر منه للبدين الشكاة
وجوه فيه للإنسان شامت
ونظرتة بها تصوير كافر
ومن تجاره في السوق فاحذر
السابق، ص 475.

(4) قف تأمل وحدة قد شئت
حطمت كأس بأيدي لثة
كل حر في قيود من حدود
سودد الأسلاف برد في دماء

أيها الأرباب قد آن الأوان

الأمة الحاضرة بأنها حولت الدين الحق إلى الكفر الصراح. بدا لها كلها بجرأ والبحر ظلها. باعت الكتاب. وانتحب جبريل. لم تشق بجولة في السماء لدى أم الكتاب. لم تُبق من دين النبي شيئاً بعد أن أضاعت الكوكب المنير. وهذى ضرير القلب بالنفاق. والأمة تغمه في الشقاق. تزداد المكاتب. ويكثر المشايخ. وتوسع أسرار الكتاب. ولا يرى الأعمى نور الشمس. ومن كفر بالجهاد فإنه فاسد في سبيل الله. كانت الروح تسعى في الدنيا. والآن يستكين في العالم. وتحول الفكر المبدع وثبات الشعوب إلى أقوال محفوظة، ومذاهب يتصارع عليها الناس. والحق أن يرفع الكليم رأسه، وأن يجهر بالحق، ويصدع بالأمر. فهو يدعو لرسالة محمد. ووصفه للأحوال الحاضرة وصف محمد⁽¹⁾.

= بعد دهر عاد يوم للطرب
لا تفكر في سراج المصطفى
«لا إله» في لسان ناطق
إن سحر الغرب أحيأ أهرمن
أصبح الدين صريعاً للنسب
أخذ الشعلة فيه بولهب
عن فؤاد شردت يا للعجب!
وجه يوم الله من ليل شحب

أيها الأرياب قد آن الأوان

دينك القيد تحرر من قيود
وعليه كي نشق في صلاة
إنما النعمة تعلني جذبة
إن خيراً من إله قد توارى
عبداً قد كان حراً في عبيد
ركعتين نبتغي، ما من سجد
ما الصلاة وهي تخلص من تشيد
ذلك الشيطان يبدو في الشهود

أيها الأرياب قد آن الأوان

جويد نامه، ص 226 - 227.

(1) إن دين الحق كالكفر الصراح
طلنا يبدو كبحر عندنا
من أعاجيب لمن باع الكتابا
في السماء لم نشقه جولة
ما نصيبنا نال من دين النبي
وضرير القلب يهذي في النفاق
مكتب، شيخ، وأسرار الكتاب
دين من يكفر تدبير الجهاد
رجل الله لدنيا الروح كانا
أنت يا من للحياة الفكر منكأ
حفظ قول الله كان ديدنك
ارفع الرأس، نكلم يا كليم
أنت حقاً مستنير من محمد

إن تردى الشيخ في الكفر المباح!
ويرى في البحر هذا طلنا!
كم تعالى صوت جبريل انتحبا
عنده أم الكتاب قوله
في ظلام لضبايع الكوكب
تغمه الأمة منه في الشقاق
أكمه والشمس كمها لا تحابي
في سبيل الله شيخ في الفساد
قل لمن في عزلة الركن استكانا!
وثبات الشعب قول قيل عنكا
نشره في الناس كان مذهبك
من يديك يصدر الأمر العظيم
وضعنا الحالي فصفه، أين نوجد؟

السابق، ص 210 - 211.

فسد شباب هذا العصر. وغواهم إبليس. أراد الجمع بين السلطان والفقر. ولم يحصل لا على السلطة ولا على الفقر الغيور⁽¹⁾.

تفرقت وحدة الأمة. وانقضي عهد ﴿ألست﴾. وحُطمت الكأس التي كان يسقي منها جبريل. أصبح كل حر في قيد. وانقطعت صلته بالإله. برد سؤدد الأسلاف. وارتفعت عمائم الشيوخ. يعادي المسلمون الأقربين. وهم في شقاق دائم. ويزيدون على ذلك النفاق عندما يتسوا على هدم مسجد، كانوا منه دائماً يهربون. بعد ذلك سجدوا لغير الله كالمجوس. فالشكوى من النفس قبل الشكوى من الغير. ومن ثم، أصبح المسلمون غير لائقين بالعلا الإلهي⁽²⁾. وسأل إقبال الإله وهو يسكب الدمع. ألم يحزن للمسلم دفع الكروب؟ وظلت الشكوى بلا إستجابة. وإذا كان له قلب فإنه ليس له حبيب⁽³⁾.

كل شيء حول المسلمين يسلبهم مجدهم وتاريخهم حتى سجاجيد الصلاة. ولا ريب أن ترمقهم أعين الطغاة. فقد بليت أثواب الأمة جميعاً، جبة الشيخ وجلباب الأمير. فماذا يفعل إقبال في وحدته؟ وماذا يستطيع إيمانه الكسير؟⁽⁴⁾.

يسأل إقبال عن المسلم المعاصر الضائع الذي فقد حرارته، وأصبح دمه

(1) جمعنا بين سلطان وقفر
عباداً منه بالباري عباداً
أرمغان حجاز، ص 476.

(2) يعادي المسلمون الأقربينا
تداعى مسجد يوماً ليأسوا
لغير الله عفرنا الحبيننا
فأنفسنا شكونا لا سوانا
السابق، ص 444.

(3) سألت الله بالدمع السكوب
نداء ظل في سمعي يدوي
السابق، ص 444 - 445.

(4) كل شيء حولنا يسلبنا
أنا لا أستاء أن ترمقنا
بليت أثوابنا أجمعها
ما الذي أفعله في وحدتي
جناح جبريل، ص 539.

ثلجاً. غاب عطره، وانقشع لونه. ويجيب الرومي بأن الله لا يظلم قوماً ولكن أنفسهم يظلمون. ورجال القلب لا يجرحون قلوباً⁽¹⁾. ولا محل للسؤال عن قصة المسلمين. فقد أسكت الدمع اللسان عن الوصف. لقد مُلأ القلب بالسهام. فأصبح كأهوال القيامة. وقد أعيت وصف الواصفين. ولم يبق إلا أن يقدم بنفسه دفيناً في الصدر⁽²⁾.

يسأل إقبال لماذا ضاعت الهند، واختفى منها اللهب والضيء؟ ولماذا رجال القلب فيها تعساء أشقياء؟ ويجيب الرومي بأن الناس لا تعرف روحاً. ولا داعي للبكاء ولمس الجراح والجسد بلا قلب يلفظه الحق والتاريخ. والله رب الأحياء دون الأموات⁽³⁾.

والآن تمر الهند بفترة حرجة. فهناك ثلاث مراحل في تطور المجتمع الهندي بالنسبة لتطور الأفكار الدينية: الأولى مرحلة الشك تجاه الدين التقليدي، والثورة ضد العقيدة. والثاني مرحلة الشعور بالحاجة إلى الدين كقوة اجتماعية ذات قيمة كبيرة والتوفيق بين الدين والعقل. والثالث مرحلة انتهاء هذه المحاولة بالضرورة إلى الخلاف في وجهات النظر مما أدى إلى عواقب وخيمة على وجود هذا المجتمع. وإن لم تكن هذه المحاولة مخلصة، ولسوء الحظ الكثير منها كذلك. فقد تؤدي

(1) قال: يا شيخ، وهذا المسلم الضائع كونه
دمه أصبح ثلجاً عطره غاب ولونه
قال: يا إقبال إن الله لا يظلم شعباً
ورجال القلب لا تجرح قلوباً
السابق، ص 525.

(2) لا نسل عن قصة القوم بيانا
ألم أعمد في صدري سهامه
هول هذا الحشر أعيا الواصفينا
فليدم في الصدر مطوياً دفيناً
يا أمم الشرق، ص 361.

(3) قال: أين الهند ضاعت
ورجال القلب فيها
قال: يا إقبال، أهذى
أجل الدمعة هذى
يلفظ الحق بعيداً
إن رب الناس حي
لا لهيب لا ضياء
نعساء أشقياء
الناس لا تعرف روحاً
وكفى اليوم جروحاً
جسداً ما فيه قلب
وهو للأحياء رب

حنان جبريل، ص 528.

إلى تفكك الجماعة. ومسلمو الهند الآن في المرحلة الثالثة وربما جزئياً في المرحلة الثانية، وجزئياً في الثالثة. وتبدو هذه الفترة في حياة الجماعة حرجة للغاية. ومن المفرج وجود قوى مختلفة تهدف إلى الحفاظ على التضامن الاجتماعي حتى ولو كانت آثارها وقتية⁽¹⁾.

تمادى الناس اليوم في الغرور. ولم يبالوا بمقاييس الأمور⁽²⁾. ضاع العزم الغيور هذه الأيام من الشعوب والأقوام. بليت أرواحهم. ولم يعد في القبور إلا الأجساد. مزق الكبار أستار الحياء. وقلد الشباب صنع الغانيات. فيحيون أمواتاً. ويموتون أحياء. والحسناء عارية بصيغ مستعار كجنينة البحر. تخلقى الشعب عن كفاحه. فرماده ليس تحته شرر. وزاغ بصره. تقوقع على ذاته خشية الموت. فمات وهو حي. والغني الشحيح ينفق ماله على اللهو. جعل حياته في جمع المال. يبيع دينه بدنياه. ويعمل على إرضاء غاصبه. يفكر في الحاضر دون المستقبل، وفي اليوم دون الغد⁽³⁾.

أين أئمة المسلمين وجنودهم البواسل الذين تهاب الحراب عزمهم؟ يصنعون المعالي. ويقولون الصواب. هدفهم التوحيد بلا رياء. ونهجهم اليقين بلا ارتياب. عاشوا للأمة وللأوطان. ولم يكن لهم في الدنيا أي مغنم⁽⁴⁾. خسر المسلمون

St. Ref., pp. 84 - 5.

(1)

(2) أهل دنيانا تمادوا في غرور
لم يبالوا بمقاييس الأمور
يا أُمم الشرق، ص 345.

(3) جمود هذا الشعب عن كفاحه
مسأؤه ران على صباحه
كل يعيش في إطار نفسه
يخشى البلى قبل حلول رمسه
ودو الغنى في الشح يحكي جلماً
حياته ضاعت على الغي سدى
يبيع دينه لدنيا غيره
ويومه الحاضر كل عمره
السابق، ص 353.

(4) فأين أئمة وجنود صدق
إذا صنعوا فصنعهم المعالي
مرادهم الإله فلا رياء
شهاب شبة عزمهم الحراب
وإن قالوا فقولهم الصواب
ونهجهم اليقين فلا ارتياب

قادتهم القدماء. ولم يبق لديهم إلا قادة محدثون، تابعون للخارج، قاهرون للداخل. لا يدافعون إلا عن مصالحهم، ولا يحافظون إلا على كراسيهم.

جهاد المؤمنين حياتهم، فالحياة جهاد. وعقائدهم سواعد تنطق بالأعمال التي تثبت الاعتقاد. خوف الموت من الأحياء قبر. وخوف الله من الأحرار زاد لهم. أضاعوا ميراث القدماء. فضاع الرشاد. ولا يكفي الحفاظ على إرث الخير إن لم يتم على تثبيت وحدة الأمة حتى لا تتفرق بها الشيع والمذاهب⁽¹⁾.

فلأي مآثر ولأي قوم ينتسب المسلمون اليوم ليكتسبوا فخار المسلمين؟ وأين هم من مقام الصحابة الأوائل ومن دولة العزة في الدنيا والدين؟ ولماذا لم تريح الأمة كنز الفاتحين بقيمة الفقر الغيور؟ لقد غاص المسلمون في الذنوب وفي الخطايا. بل واغتابوا الصالحين الصادقين الأطهار الذين سترت عيوب الخلق، وكانوا أبر المتقين⁽²⁾.

لقد احتفى الروم بأريكة قيصر. واحتفى الفرس بسرير كسرى. والمسلمون يطمحون إلى الثريا بلا عزم أو همة أو إرادة أو قلب سليم. أضاعوا الأخوة بينهم. والأقوام أقاموا صروح إخائهم فوق النجوم. طلبوا أزهار الدنيا فلم يفتح منها شذاً أو

= لأمتهم ولأوطان عاشوا
كمثل الكأس تبصرها دهاقا
صلصلة الجرس، ص106.

(1) جهاد المؤمنين لهم حياة
عقائدهم سواعد ناطقات
وخوف الموت للأحياء قبر
أرى ميراثهم أضحى لديكم
وليس لوارث في الخبر حظ
السابق، ص106.

(2) لأي مآثر القوم انتسبتم؟
فأين مقام ذي النورين منكم
وفقر عليّ الأبواب هلا
أقمتم في الذنوب وفي الخطايا
وهم سترت عيوب الخلق فضلا
السابق، ص106.

فليس لهم إلى الدنيا ضلاب
وليس لأجلها صنع الشراب

ألا إن الحياة هي الجهاد
وبالأعمال يثبت الاعتقاد
وخوف الله للأحرار زاد
مضاعا حيث قد ضاع الرشاد
إذا لم يحفظ الإرث اتحاد

لكتسبوا فخار المسلمين
ودولة عزه ديننا وديننا
ربحتم فيه كنز الفاتحين
وتغتابون حتى الصالحينا
وإن كانوا أبر المتقين

عطر. والبستان كان أمامهم في الدنيا، وجنات النعيم في الآخرة⁽¹⁾. والتاريخ يعيد نفسه. وينشئ من قصص المسلمين الفنون. فقد نزحت الأمم عن الأوكار شوقاً إلى التحليق والإبداع فوق العالمين. وكلما يثس الشباب تقدم الآخرون على خطاهم، فظنوا بالدين الظنون، أنه سبب التأخر، وتركه والتخلي عنه والتحرر منه سبب التقدم. وجد الشباب أنفسهم وسط المذاهب التي قدمتها لهم المدينة الحديثة حائرين بينها. وقدمت لهم الملاهي والمجون وبيوت الدعارة لتحجب عنهم الحرم الأمين⁽²⁾. لقد سئم قيس الهوى في البید. ومل من الشكاية والعذاب. وما زال يحاول أن يبوح بالعشق حتى يرى ليلى بلا حجاب. يريد رؤية الوجه السافر بلا نقاب. فقد أحرق هذا العصر الحاضر كل غرس من الماضي. وأغلق كل باب. وأفنت صواعقه المغاني. وأفسدت كل شيء في الجبال وفي الهضاب⁽³⁾.

واليوم، هناك نار جديدة لا يكفي فيها حطب سوى المجد القديم. وبإيمان إبراهيم تنبت في النار روضات النعيم. وينبت من دم الشهداء ورد، ذكي العطر قدسي النسيم. ويلمع في سماء الكون نوع من الهضاب أحمر اللون. ولا خوف إذا

(1) أريكة قيصر، وسرير كسرى
وأنتم تطمحون إلى الثريا
تضيعون الإخاء هم أقاموا
طلبتم زهرة الدنيا وعدتم
وكان لديهم البستان محضاً
صلصلة الجرس، ص 107.

(2) بعيد الكون قصتهم حديثاً
فكم نزحوا عن الأوكار شوقاً
ويأس شبابكم أو من خطاهم
هي المدينة الحمقاء ألقت
لقد صنعت لهم صنم الملاهي
السابق، ص 107.

(3) لقد سئم الهوى في البید قيس
وحاول أن يُباح العشق حتي
يريد سفور وجه الحسن لما
فهذا المهد أحرق كل غرس
لقد أفنت صواعقه المغاني
السابق، ص 107.

ما أصبح المرجان، وهو صغار اللائى، عقوداً للبراعم والأعنان⁽¹⁾.

لقد زالت الرياض من الربى. وبادت النخيل من البوادي. ومع ذلك تنمو نخلة الإسلام بالرغم من العواصف وعوادي الزمن ومجد الأمة في محن. الإسلام باق بقاء الشمس والكواكب السبعة. المسلم هو يوسف في مصر. يرى كنعان كل البلاد. تسير قافلته في كل مكان بلا جرس أو صدى حذاء⁽²⁾.

ضياء الأمة مشرق في كل أرض لأنها غير محدودة في المكان. غزاها التتار، ولكنهم عادوا بالإيمان بعد الغزو. شاءوا التدمير. فحصلوا على الهدى. وتحول عبدة الأصنام إلى حماة للكعبة. فلا خوف أنه في الليل البهيم يشع الضياء، ولا من هبوب العواصف، والشعلة مازالت مضيئة عبر الزمان⁽³⁾.

5 - جواب الشكوى

مهما حاول الشاعر الإجابة فإن بحر الوجود لا يمكن معرفته. ومهما غنت

(1) هي النار الجديدة ليس يُلقى
خذوا إيمان إبراهيم تنبت
ويذكو من دم الشهداء ورد
ويلمع في سماء الكون لون
فلا تفزع إذا المرجان أضحى
السابق، ص 108.

(2) فكم زالت رياض من رباهما
ولكن نخلة الإسلام تنمو
ومجدك في حمى الإسلام باق
وانك يوسف في أي مصر
تسير بك القوافل مسرعات
السابق، ص 108.

(3) ضياءك مشرق في كل أرض
بغت أمم التتار فأدركتها
وأصبح عابدين الأصنام قُذما
فلا تجزع فهذا العصر ليل
ولا تخشى العواصف فيه وانهض
السابق، ص 108 - 109.

لها حطب سوى المجد القديم
لكم في النار روضات النعيم
سني العطر قدسي النسيم
من العناب مخضوب الأديم
عقوداً للبراعم والكروم

وكم بادت نخيل في البوادي
على مر العواصف والعوادي
بقاء الشمس والسبع الشداد
يرى كنعانه كل البلاد
بلا جرس ولا ترجيع حادي

لأنك غير محدود المكان
من الإيمان عاقبة الأمان
حماة الحجر والركن البماني
وأنت النجم يشرق كل آن
بشعلتك المضيئة في الزمان

قيثارة الشاعر فإنها لا تستطيع التعبير عن كل ألحان الوتر⁽¹⁾. لا يعرف إقبال ما مصدر إجاباته عن الشكوى. ولا يعرف ما مصيره؟ وإقبال نفسه يتساءل. ويغيب في وجدته وفي تفكيره. والسر تفضحه العيون دون سؤال. وتختلط صرخات الوجد بالدم دون جواب. فيقتل الشاعر دون عقاب⁽²⁾. وربما جاءه كتاب جديد أوصلته له صرخة الليل. يطلب منه التمهّل وإعادة التفكير. فعمل ما يدعو إليه إقبال طريق عسير⁽³⁾. وقد استجاب إقبال. ووهب المسلمين نارا، ولكنها ذبلت لديهم. ولا لوم على الكأس، ولكن اللوم على من طاف عليهم لخمولهم⁽⁴⁾.

قد يُستجاب للشكوى وقد لا يستجاب لصعوبة وجود خل مثل صعوبة وجود الحبيب. ومع ذلك أشرق الصباح يوما فغمر الضياء كل شيء. والعصر مليء بالنواهي. ونفذ صبر الروح. ويمر الزمان، والروح لم تخمد بعد. ومن الماء والطين يخرج قلب الإنسان⁽⁵⁾.

الشكوى لا تكون إلا في الظلام وعدم وضوح المعنى أو الطريق. فالواصل

(1) بحر الوجود تعالى أن تحيط به
حاشا لقيثارة مهما بذلت لها
جناح جيريل، ص 434.

(2) لم تسألون القوم ما هو مصدري
ما زلت منذ وجدت أشرق سائلا
سري تترجمه سلاطة أعيني
صرخات وجدي في الصباح تلطخت
رباه، أي جريمة قارفتها
السابق، ص 449.

(3) جاء من عندهم كتاب جديد
فإذا فيه: يا مسافر أمسك
ربما كنت ذاهبا من جديد
السابق، ص 450.

(4) وهب المسلمين إقبال نارا
ما على الكأس في الحقيقة لوم
السابق، ص 450.

(5) نحت في الشكوى وما من مستجيب
شاهدت عينايا يوما أشرقا
=

آخر الشوق. فالحذر من الشكوى⁽¹⁾. بل إن الشكوى كفر. والشعر لا يكون إلا كفراً. والكفر لا يكون إلا شعراً⁽²⁾.

الشكوى من الذات أمر غريب لأن الذات ليست غريبة. الذات ذات، وليست موضوعاً⁽³⁾. وهي عن الآمال والآلام، عن الأحوال الحاضرة⁽⁴⁾.

قد يكون الجواب في الإصلاح. وقد عارض الجميع الإصلاح الذي ارتآه إقبال. وأجمعوا على إقصائه وإبعاده. ذهبوا مع الصحراء جرياً وراء جنونهم. وبقي إقبال مجنوناً بلا صحراء. ويحمد الله على إسدال أستار الكعبة في وجه صياحه. ويبقى وحيداً بعد أن طافت جراحه حول الحرم. لم يجب الفقهاء بشيء. ولا استطاعت مثل أفلاطون وفلسفته من الحضور والغياب، والسلب والإيجاب وأن ترد بشيء. وقديماً كان رجال الفكر ينبضون جرأة وحمية أوجبتها روح العصر. كان بهم نفس القرآن، وليس «الكشاف» وغيره من كتب التفسير⁽⁵⁾. ويرجو إقبال المسلم الذي يشتكيه بعدم لومه لأن عينه تفضحه. فالصرخة في الشكوى بين المسلمين

أين روح لي نشامي صبرها
كي نرى روحاً وما فيها خمود
قلب إنسان فذا كنز ثمين

إن شكواي السراج في الظلام
ما لشكوى وزفير من أثر

إنه كفر وراء كل شعر

فما عن ذاته كان الغريباً

عن الآمال في حلو ومر

لم يجمعوا إلا على إقصائي
وبقيت مجنوناً بلا صحراء
أستار كعبتنا بوجه صياحي
طافت على الحرم الشريف جراحي
دونى وما حاروا بأي جواب
وغيابه والسلب والإيجاب

قيد هذا قيد من نهى
ويمر الدهر من عمر الوجود
إن نما من ذلك الطين المهيمن
رسالة الخلود، ص 139 - 140.

(1) أي معني للطريق والمقام؟
الوصال آخر الشوق، الحذر
السابق، ص 220.

(2) ليس ما تبغيه من غير كفر
السابق، ص 261.

(3) مشكاة الذات مهمهم بجافي
أرمغان حجاز، ص 496.

(4) وهذا عبدك المسكين سله
السابق، ص 428.

(5) وقف الجميع يعارضون ندائي
ذهبوا مع الصحراء خلف جنونهم
حمدا لمن رحم العباد فأسدلت
وبقيت وحدي مرة أخرى وقد
فقهائنا وقفوا بصوت واحد
لا مثل أفلاطون بين حضوره

عتاب أخوي لا يعلمه الناس⁽¹⁾.

قد يكون الجواب في الشعر والخيال والإحساس بالجمال. وإذا كانت قصص الحب متنوعة بالآلاف فكذلك أشعار إقبال وغنائياته. تارة تملأ الحياة وصلاً للبقاء، وتارة تطلب الفراق للفناء⁽²⁾. وإذا أراد الأتراك أن يكونوا أقوى بالشعر، فليقرؤوا بيتاً للشاعر. ولا يكون الضعيف قوياً بمجرد لولا وليت⁽³⁾.

قد يكون البديل هم الشباب والمستقبل ونوعيته بأنه لا فائدة من سجادة العجمي ولا من الأثاث الإنكليزي، لا من الموروث ولا من الوافد. ولا فائدة من ثروة حصل عليها وأنفقها كما يفعل الملوك مما يدعو إلى الرثاء والبكاء. ربما لم يذق غبطة الإيمان أو بأس علي أو رضا سلمان، ولم يرحم شبابه. ولا تقاس سلع الحضارة بالذات. فالثمن غال. وهو الخطأ بعينه. المؤمن الصديق سيد نفسه، ومالك وقته. يرقى عالمه برقي قناعته. تلك مكانة الإنسان في الكون. لو دب روح النسر في قلوب الشباب لم يبحثوا في أصلهم في التراب. ومن ثم فلا داعي لليأس ما دام العلا هو المطلوب. اليأس يميت الفتى. والمؤمن الصديق برهان الإله وسره. فليبعد الشباب نفسه عن اليأس. وعش الشاهين ليس في قصر الملوك بل على قمم الجبال. ودونها يتم اصطياده. لذلك فليبق الشباب بعيداً عن مرمى الصياد⁽⁴⁾.

- | | |
|-----|---|
| = | كانت رجال الفكر تنبض جراحة
نفس إذا القرآن ما انتفعت به
جناح جبريل، ص 464 - 465. |
| (1) | أبها المسلم الذي يشتكيني
لا تخف من صراحتي في حديثي
السابق، ص 466. |
| (2) | فصة الحب ألف نقش ولون
تارة أملاً الحياة وصلاً
السابق، ص 465. |
| (3) | قبل إن الأتراك بالشعر أدري
لا يكون القوي جار ضعيف
السابق، ص 465. |
| (4) | سجادة العجمي هذا والأثاث الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي |

إلا أن هذه الردود لا تعبر عن كل أمانى الشاعر وتطلعاته. ويعبر «النشيد الإسلامي» في أول الديوان عن طموحات المسلمين. ويتضمن ثلاثة وعشرين بيتاً مثل الأناشيد الوطنية للشعوب المستقلة حديثاً. وموضوعها واحد «نهضة المسلمين» وإن تبادل كل بيتين أو ثلاثة موضوعات تفصيلية.

العالم كله للمسلمين: الصين والهند وبلاد العرب. الإسلام دين واحد. والكون عالم واحد. وقد تم ذلك بفضل التوحيد الذي حل روح المسلمين. إن زالت السيادة على الأرض تظل السيادة في النفس قائمة. أقيمت له معابد في الأرض. والكعبة أول بيت. يحافظ عليه المسلمون بالروح كما يحافظ هو عليهم برمز وحدتهم، ونقطة ارتكازهم وانطلاقهم⁽¹⁾. تربوا في ظل السيف. وبنوا العزة لدولهم. ورفع علم الإسلام في كل مكان، رمزاً للمجد والرفعة. ورفع الهلال فوق

= ماذا تفيدك ثروة حصلتها في مثل أبهة الملوك بذلتها
أبكي لأجلك يا عزيزي
هل ذقت يوماً غبطة الإيمان أو بأس حيدر أو رضا سلمان
أرحم شبابك يا عزيزي
المؤمن الصديق سيد ساعته ورقى عالمه رقى فناعته
فاعرف مكانك يا عزيزي
لو دب روح النسر في قلب الشاب لم يبحثوا عن سرهم بين التراب
إياك تيمأس يا عزيزي
باليأس معرفة الفتى تفتائه وبصيرته والمؤمن الصديق برهانه الإله سريره
فأربأ بنفسك يا عزيزي
يا أيها الشاهين عشك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقه ما أمسكوك
فارجع لعشك يا عزيزي

السابق، ص 507.

(1) الصين لنا، والعرب لنا
أضحى الإسلام لنا ديناً
توحيد الله لنا نور
الكون يزول ولا تمحى
بنيت في الأرض معابدنا
هو أول بيت نحفظه
والهند لنا، والكل لنا
وجميع الكون لنا وطننا
أعدنا الروح له سكنا
في الكون صحائف سودنا
والبيت الأول كعبتنا
بحياة الروح وبحفظنا

صلصلة الجرس، ص 91.

المآذن يمثل خنجر القوة. وكان للأذان صدى في الغرب عن نهضة المسلمين وحضارتهم ومطاولتهم النجوم⁽¹⁾.

وينينا العز لدولتنا
شعار المجد نطأتنا
ويثقل خنجر سطوتنا
في الغرب صدى من همتنا
طاولنا النجم برقعنا

في ظل السيف تربينا
علم الإسلام على الأيام
وهلال النصر يضي لنا
وأذان المسلم كان له
قولوا لسماء الكون لقد

(1)

السابق، ص 91.

الفصل الثاني

الأنين والحنين

1 - جناح جبريل

الأنين والحنين يعادل «الشكوى والجواب». الأول مضمون ديوان «جناح جبريل» والثاني مضمون «صلصلة الجرس»⁽¹⁾. وهو الديوان الخامس صدر بالأوردية عام 1935 بعد زيارات إقبال لفلسطين ومصر وأفغانستان وأسبانيا، وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا. فيه يبكي على الأطلال. ويتألم لاندثارها. ويحن إلى المجد القديم.

يتكون من ثلاثة أقسام: الأول، قصيدة غنائية طويلة واحدة. تغلب عليها الغنائيات، وإن كانت فلسفة الذات تبدو فيها قليلة. وهي أقرب إلى البكائيات والأنين والألم لأوضاع المسلمين الحالية. والثاني، قصائد نظمها في الأندلس وفيها الحنين إلى الماضي، واسترجاع انتصارات الأمة السابقة. والثالث، قصائد متفرقة يغلب عليها الحوارات الفكرية وأهمها «لنinin أمام الله» والحوار بين إقبال والرومي⁽²⁾.

هي شكوى وحنين. شكوى قد تقتضي البكاء والخور. وقد تؤدي إلى الحنين إلى الماضي، تخفيفاً للأحزان⁽³⁾.

(1) جناح جبريل (بال جبريل) نقله من الأوردية إلى الفرنسية نشر السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك. ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نشر الأستاذ عبد المعين الملوحي. ثم صاغه بالعربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا.

(2) السابق، ص 405 - 406.

(3) ثم أرجو ألا أخور وأبكي وتري المحرز لوعتي ونحيبي =

هي شكوى تطلب السماع⁽¹⁾. والعدل ليس هو المطلوب إذا كان ينتهي إلى الظلم. هو أنين لا تقوى على حمله أمة واحدة⁽²⁾. ليس المطلوب من الشكوى والأنين أن يجد الإنسان نفسه عارياً أمام ذاته بلا واقع يعيش فيه. بل الغاية معرفة محيط الذات، وميدان فعلها. ليس المطلوب أيضاً البحث عن أي منهج أو طريق للخروج من الأنين إلى الحنين⁽³⁾.

الشاعر حزين فرح، يئن ويحن، مجنون وعاقل⁽⁴⁾. لقد تمكن جنون الشاعر من معرفة السر المكنون. وأنفاس شعره أتت من صدر جبريل الأمين. وبث الأنين ليس للنجم وسؤال عن مصير الأمة لأنه نفسه لا يعرف من أين أتى، وهو منبوذ في ركن من الكون. حياة الناس سكرة بين البقطة والحلم. وتفسير ذلك مضیعة للوقت وللعم⁽⁵⁾. ويستعجب الناس من إقبال الفقير الذي أصبح غنياً. ويتساءلون عن أي كنز عثر. ويعجبون من عالمه اللهب الذي لا يمنح الناس إلا الشر⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|--|---|
| = | فرجائي ألا يصير حنيا | ذلك البوخز في فؤادي الرقيق |
| | السابق، ص 410. | |
| (1) | سواء أهزئت أم لم تهزك
أنا وقع لست أسأل عدلا | شكوي أطلبُ تُصغي إليّ
فبا طالما العدل يغني عليّ |
| | السابق، ص 409. | |
| (2) | وأمنية العمر هذي الجراح | تقسمها بين كل الأمم |
| | السابق، ص 410. | |
| (3) | أنا أرجو ألا أفاجأ يوما
ورجائي ألا أكون ببحتي | وأري ساحلي شعوري بذاتي
وهو بحث بغير لون ومنهج |
| | السابق، ص 410. | |
| (4) | الشاعر انفرح الحزين معا أنا | حذر الحكيم أنويه بجنونه |
| | السابق، ص 424. | |
| (5) | روعة السر التي أعطيتها
إن أنفاسي التي أحدر بها
لست أتى النجم كي أسأله
هو لا يعرف من أين أتى
ما حياة الناس إلا سكرة
لا تضع عمرك في تفسيرها | والتي مكنني منها الجنون
أخذت من صدر جبريل الأمين
عن مصيري هاهنا كيف يكون؟
في رحاب الكون منبوذ مهين
وهي في البقطة أو في الحلم
كثرة الحيرة موت الهمم |
| | السابق، ص 425. | |
| (6) | يقولون إقبال في فقره | غني على أي كنز عثر؟ |
| | | = |

يفرح الشاعر فرحاً غامراً. ولا يستطيع أن ينسل عن نفسه. ضميره معذب. وسمو فكره من سكرة الحب. لا يعتمد في أنينه أو حنينه إلا على قلبه المجنون، وليس على كنوز قارون أو علوم أفلاطون. يعتمد على معراج الرسول أي استلهام الحقائق من الملاء الأعلى. ما زال الوجود الإنساني في طريق الاكتمال. فالوجود مشروع إيجاد على ما يقول فلاسفة الوجود المعاصرون في الغرب. يتجدد كل يوم. ويقضي على خرافات سادت منذ قدم الزمان⁽¹⁾.

لم يستطع الطبيب أن يفهم ما يكابده الشاعر أو أن يدرك مكنون سره. بل إنه أدرك أن يتطلع إليه الشاعر لا طاقة له به. ومع ذلك، لا ينبغي اليأس. صفاء الروح معروف، ولكن الدم القرمزي الذي في قلب الشاعر يدل على أنه على الطريق الصحيح⁽²⁾.

ولا يمنح الناس إلا الشرور

قدمي إلى رأسي
أنسل من نفسي
لضميره المعذب
في سكرة الحب
عن قلبي المجنون
وعالوم أفلاطون
علم عظيم انشان
في عالم الإنسان
ما كان يحتمل
ما زال يكتمل
نصفي إلى إعلان
من سالف الأزمان

فقال: ويحك ما تخفيه من طلب؟
لكن «لك الحق» لا تأس من السب
وليس هذا الذي في قلبك اللهب
تدل أنك لم تشرب شراب غبي

وعالمه لهب كله

السابق، ص 443.

(1) فرحي تفجير من
والقوم تطالب أن
ما سر قلبي؟ أه
وسمو نظرتي
لا أرتضي بدلا
بكنوز قارون
معراج سيدنا
بدت السماء به
لا بد يدهشنا
فوجدنا هذا
في كل أونة
يُلسفي خرافات

السابق، ص 426.

(2) جس الطبيب بقلبي ما أكابده
تطلعاتك لا طاقات تحملها
وما يسمى صفاء الروح أعرفه
هذا الدم القرمزي اللون نضرتي

السابق، ص 428.

2 - مصدر الأنين

ويئن إقبال لأن فكره ما زال حائماً في السماء. لا يستقر في أحد الأفلاك. تأبى عليه الفطرة أن يشرك. إقبال ليس مسكيناً وليس مراوغاً، بل يشهد على عصره. غضب عليه الأصدقاء لكشف الأستار حتى لم يعد له صديق واحد. ولا يكذب. فيسمي سمهم حلوى وهو سم قاتل⁽¹⁾. لم يتحمل أي ساحل شطحات إقبال التي هتك بها أسرار الكتاب دون جدوى⁽²⁾.

احترار إقبال في دروب الفكر. فلما أحب مال القلب واهتدى⁽³⁾. وأخيراً انتبه إقبال. ولبت السماء صرخته. وسمع أنه سيكشف له الغطاء عن حكاية العاشقين من البداية إلى النهاية. وهي حكاية نار وحزن وانفجار⁽⁴⁾. وتحزن الملائكة إقبال لأنها عابت عليه صرخته وجراته أمام الله. يهتك أسرار الطبيعة. ويجعل الدنيا بفلسفته. لا ينتمي إلى الأرض وهو مكوّن منها. تتعدد قدراته كالملك، ولكنه في رغباته إنسان. يملأ الريح صدره. ويعيقه بستانه المحدود. اهتدت الملائكة، واقتدت به، وسلكت طريقه، طريق آدم إلى الله⁽⁵⁾.

(1) مازال فكري في سمانك حائماً
تأبى عليّ ملانكية فطرتي
أنا لست مسكيناً ولست مراوغاً
غضبت عليّ الأصدقاء جميعهم
لم أستطع أبداً أسمي سمهم
السابق، ص 420.

(2) لم يتحمل موجة الشطحات هذي أي ساحل
هتكت بها مجنون أسرار الكتاب بغير طائل
السابق، ص 447.

(3) مضى إقبال هوناً في دروب الفكر واجتازا
ولما جاء درب الحب مال القلب وانحازا
السابق، ص 446.

(4) وأخيراً انتبهت ولبت صرختي هذي السماء
وسمعت ما قالوا: أخيراً سوف ينكشف الغطاء
وللعاشقين حكاية وتكاد تنفق الحكاية
نار وحزن وانفجار في البداية والنهاية
السابق، ص 447.

(5) إقبال تحزنه الملائكة التي عابت أمام الله جرأة صرخته

وهت مباحث الفكر عن الغياب دون الحضور. ووثب الحب من الدم. وبالرغم من الشمس الساطعة، مازالت الأرض ظلماء. الكل يعرف كد الأمة وسعيها في سالف الأيام. لم يعرف أحد أن العلم مضیعة، وأنه سبب الأطماع والنهم. ومهما هز الإنسان نخيل الفكر لم تسقط عليه إلا العراجين القديمة. كما أيقظت مقالات الموتورين والمتقمين وجدان الشاعر. الفكر بضاعة أبي لهب. وكل مكر ودهاء بين الأفراد والأمم. والحب اختيار المصطفى، واختيار الشاعر. ونهايته أحلى من بدايته⁽¹⁾.

ويجب إقبال من السر القديم الذي يعود من جديد إجابة من حميم إلى حميم، اعتراف كاعترافات أوغسطين⁽²⁾. وبيأس من حمق الناس. ينزل عنهم، ويعود إلى وحدته، ولكن أصدقاءه يروون له أخبارهم لينير بها وحدته⁽³⁾. مراد

ويجمل الدنيا بلؤلؤ نظرت
لا الشام موطنه ولا قاشان
ملك وفي رغباته إنسان
ويعيقه بستانه المتنامي
لطريق آدم في رحاب الله

ومشهد الحب من وثب الحضور دمي
مازالت الأرض في بحر من الظلم
وما تحملت من كذي ومن سامي
وأنه سبب الأطماع والنهم
عني غير عراجين من الهرم
به مقالات موتور ومنقم
وكله كله مكر من الأمم
وكله كله من مقلتيه نمي
مذاهب الحب في شعري وفي حكمي
وربما صحت الأجسام بالنقم

علي السر القديم
كحميم لحميم

والقيت في وجههم وحدتي
بأخبارهم ترتوي جلوتي

وقح يهتك للطبيعة سره
لا ينتمي للأرض وهو سليلها
متعد الأوصاف في قدراته
قلق رياح الخد تملأ صدره
في ظل مذهبه انملأكة اهتدت

السابق، ص 460.

مذاهب الفكر من بحث الغياب وهت
بالرغم من ثورة للشمس ساطعة
أناء، وتعرف أيامي التي سلفت
ما كنت أعرف أن العلم مضیعة
هزرت كل نخيل الفكر ما سقطت
لقد تيقظ وجداني الذي عصفت
الفكر من حيث تأتيه أبو لهب
والحب حيث يكون المصطفى يده
أخذت عنه فتون الحب فاغتنموا
نهاية الحب أحلى من بدايته

السابق، ص 502 - 503.

ربما أشرق إقبال
حدت السر حديثاً

السابق، ص 449.

أنا قد تخليت عن حمقهم
وأصبحت لي أصدقاء هناك

السابق، ص 453.

(1)

(2)

(3)

إقبال كشف أسرار تقضي على حالة اليأس، وأن يفصح للطلاب عما يجول في نفسه. لقد ركب إقبال الفلك الذي صنعه بيديه، ولكن الريح أجرته على غير هواه. ضاع الكرى من عينيه قلقاً، والدمع في عينيه ظل من ندى القلب⁽¹⁾.

يريد إقبال أن يعلم نفسه بنفسه في الحياة دون ما حاجة إلى جبريل، وتعليم أستاذ إلى تلميذ، ومعلم إلى متعلم. فتقليد الآخرين متعارض مع تجربة الحياة، بالرغم مما فيها من سفك للدماء، يستغفر لها أهل السماء⁽²⁾.

نفس الشاعر يؤجج نار الورود التي خمدت لواعجها على الأغصان. لم يهدأ البستان منذ أن نفت الشاعر روحه، وبدا آثاره عليه. أيقظ قلب العارفين. وكشف الأسرار للبسطاء. ووهب لعدة أجيال ذوق اللهب. وملأ أنفاسهم برشح دنائه. الشاعر أعجمي الحب إلا أنه أطلق لسانه في الحرم الشريف. فحرق أثواب الأدياء من الحجاج والمطوفين. جمع بين نظرة العادل وسهم الحسين. ولم التعجب من تحرق المسلم وهو لابس رداء من الأحزان. وهو الذي يجمع بين فقر الجنيد وملك سنجار وجنون طيفور الطليق؟ لماذا يتأذى أحد ويحكم بقبح الشعر إلا لأنه يكشف الحقيقة ويجعلها ظاهرة للعيان؟⁽³⁾.

تؤول راحة اليأس
ما أخفيه في نفسي
بأعينه صنعناه
وعكس الريح أجراه
على قلق طوي جنبي
ظل من ندي قلبي

(1) مرادي رشف أسرار
وإلا قلت للطلاب
ركبنا البحر في فلك
فأجرى الريح عاصفة
ذوت عيناى من أرق
وهذا الدمع في عيني
السابق، ص 514.

لا أنت أسناذي ولا أنا عبدك
شان وجدي في السماء ووجدك
لكنها في الأرض أقدس فرضي
يستغفرون بها لمن في الأرض
خمدت لواعجها على الأغصان
فانظر لأناري مدى البستان
وهتك للبسطاء سر الحان
وملأت أنفسهم برشح دنائي
أطلقت في الحرم الشريف لساني
مرقنه باللحن من الحاني

(2) جبريل دعني في الحياة وسكرتي
أنا إن تبعت خطاك خنت خلافتي
سفك الدماء رسالة مذمومة
أهل السماء صلاحهم في أنهم
نفسى يؤجج نار وردتك التي
لم يهدأ البستان منذ أنيته
أيقظت قلب العارفين بصددهم
وهبت للجبلين ذوق لهيبهم
أنا أعجمي الحب إلا أنني
كم ثوب إحرام على متضرع

شهادة إقبال هي شهادة كل مسلم بل وكل إنسان، عربياً أم أعجمياً، شهادة صدق وحق، شهادة على هذا العالم، تمتد إلى العالم الآخر. تذهب السكره، ولكن نظل عين الساقى كالتصل. له نظراته القاتلة التي تريد أن تقضي على شهداء الحق، وتبقي على شهداء الزور. والبستان لا يذم الورود الحزينة. ورب سم يكون دواء، ورب دواء يعين على بقاء الداء⁽¹⁾.

لقد ابتعدت الحمام عن أغصان الصنوبر. وتعرت الأشجار من حبل الربا. وفرت طيورها إلى الوديان. أما بلبل إقبال فما زال يغرد قبل الربيع. ألحانه بحر متلاطم الأمواج وكأنه يقص عن الطوفان. هدفه أن يسمع قومه شكواه المحبوسة في ضميره. وهي صرخة الوجدان⁽²⁾.

لقد احتار الشاعر مما يدور في قلبه. يريد أن يلهمه الله مباشرة لأمته ليبعث فيهم يقظة الإيمان. ويذيقهم الخمر القديمة، عين اليقين وكوثر الرضوان. وهي الخمر الموروثة لدى كل المسلمين بصرف النظر عن أوطانهم، خمر الحجاز التي

بسهام سيدنا الحسين رماني
ورداه قطع من الأحزان
وجنون طيفور الطليق العاني
تأذى به عيناك حين تراني

عربياً أم لا، معانيه بيضر
وعن العالم الأخير يفيض
نظرة الساقى في الفؤاد كتصل
فسلوه فدينه لم قتلي؟
يصبغ الروح منه لونا فلونا
ودواء يكون للداء عونا

عنها قمارتها بكل مكان
وطيورها فرت إلى الوديان
حتى الربيع ولا صبا نيسان
فكانه الحاكي عن الطوفان
هي في ضميري صرخة الوجدان

متلطف قلبي بنظرة عادل
لم تعجبون لمسلم متحرق
فقر الجنيد وملك سنجار به
بالرغم مما قلت قبلي ظاهر
السابق، ص 462.

(1) وسواء كان ابن آدم هذا
وعن العالم الذي هو فيه
ذهبت سكرة المساء ولكن
ولها فيه طعنة بعد أخرى
لا يذم البستان مر غنائي
رب سم يكون تريق داء
السابق، ص 456.

(2) ما بال أغصان الصنوبر قد نأت
وتعرت الأشجار من حبل الربا
يا رب إلا بلبل لم ينتظر
ألحانه بحر جرى متلاطما
بالت قومي يسمعون شكايه
صلصلة الجرس، ص 99 - 100.

جمعت كل الشعوب والأقوام. صوت إقبال قادم من عدن وسط أنغام الهند حتى يسمعه المسلمون⁽¹⁾.

ويتساءل الناس عن مصدر أنين إقبال. وسأل إقبال بدوره الدراويش، ولكنه وجد المسؤول وجوه الملوك⁽²⁾. بحث عمن يحيل أنينه إلى حنين. فطوّف أمة الصحراء يسألها فوجدها ضعيفة مستكنة حائرة. سجودها بلا اتجاه. ليس له أي أثر عليهم. ومع ذلك، ماضي الأمة في قرطبة الحمراء. مازالت تمثل رصيذاً للأمة تتحدى به الغرب بدخان ومصانعه. وحماسة الشعر تعبر عن هذا الحنين، بالرغم من موجات الكفر والجمود⁽³⁾.

لقد لعب الرهبان دور الريان فعصفت بمركب الأمة الرياح. وضل طريق الشاطئ، والبحر بحر الرحمن. وقد يمنع الرياء التعبير عن آخر زفرة للأمة التي لا ترى منارتها. وقد يمنع البرهمي آخر زفرة، وهو ما زال يخفي شرارته في معبده.

3 - منابع الحنين

كان هذا الكون قبل وجود المسلمين روضاً وزهراً وورداً بلا روائح. وكان الزمان قبلهم ليلاً مظلماً للظالم والمظلوم. ولما ظهر الإسلام اخضرت الربى وانتشر الشذا⁽⁴⁾.

(1) إن الجواهر حُبِرَت مرّة هذا القلب فهو على شفا البركان
اسمعهمو يارب ما ألهمتنى
وأذفهم الخمر القديمة إنها
عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي الدن لكن خمري
صنع الحجاز وكرمها الفتيان
إن كان لهم نغم الهند ولحنهم
لكن هذا الصوت من عدنان
السابق، ص100.

(2) يقولون إقبال ماذا يريد
يقولون إقبال ماذا يريد
سألت الدراويش عن سرها
ومن أين جاء بهذا السلوك
وأثقيته في وجوه الملوك
السابق، ص430.

(3) طوّفت في أمة الصحراء أسالها
رأيتهم في سجود لا اتجاه له
مهلًا فقرطبة الحمراء ما برحت
فلاذ بها أمة الصحراء في خور
وماله في وجوه القوم من أثر
تلوح بين دخان الغرب بالشرر
نفوح رغم حروب الكفر والأثر
حماسة الشعر هذا من شبيبتها
جناح جبريل، ص434.

(4) قد كان هذا الكون قبل وجودنا
روضا وأزهارا بغير شميم =

لم يذكر أحد قبل المسلمين اسم الجلالة ولم يكن أحد يدعو قبلهم الواحد القهار. فقد انغمس الناس من قبل في عبادة الأصنام، وتقديم القرابين. عبدوا الكواكب والنجوم جهلاً، دون الاستفادة بنورها في المسير. لم يعلن أحد من قبل التوحيد وهدى الشعوب. قدم المسلمون للسيوف صدورهم دون خوف من أي غاشم جبار⁽¹⁾.

ثم خنى الدهر على الأمة. وجذب عليها كل الشدائد. وحاول طوفان الباطل إغراق سفينتها⁽²⁾. والتاريخ شاهد على عظمة الأمة الماضية بالرغم من مآسي الحاضر: حدائق الأندلس وموسيقاها وأغانيها وموشحاتها، أشعار دجلة وأدباؤه وفلاسفته، شريعة الحجاز ومدارس فقهه ورأيه، ونشأة الإسلام، وإمارة النبي للركب⁽³⁾. إن اسم الرسول ما زال يبعث الأمل في نهضة جديدة. تلك نبوءة

= والورد في الأكمام مجهول الشذا
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل «محمد» زكت الربي
وأداعت الفردوس مكنون الشذا
صلصلة الجرس، ص 93.

(1) من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
كنا نقدم للسيوف صدورنا
السابق، ص 94.

(2) يا دهر لقد جزيبت على
طوفان الباطل لم يفرق
يا ظل حدائق أندلس
وعلى أغصانك أوكار
السابق، ص 91.

(3) يا دجلة هل سجلت على
أمواجك تروي للدينيا
يا أرض النور من الحرمين، ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته
في أرضك رواها دمننا
ومحمد كان أمير الركب، يفود الفوز لنصرتنا
السابق، ص 91.

لا يُرتجى ورد بغير نسيم
ليلا لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هشيم
فلذا الوري في نضرة ونعيم

من كان يدعو الواحد القهار؟
من دونك الأحجار والأشجار
لم يبلغوا من هديها أنوارا
وهدي الشعوب إليك والأنظار؟
لم نخش يوما غاشما جبارا

نيران الشدة عزمتنا
في الخوف سفينة قوتنا
أنسيت مغاني عثرتنا؟
عمرت بضائع نشأتنا

شططيك مآثر عزتنا
وتعيد جواهر سيرتنا
يا أرض النور من الحرمين، ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته
في أرضك رواها دمننا
ومحمد كان أمير الركب، يفود الفوز لنصرتنا

المصلحين لإعادة المجد الأول وبعث الأمة⁽¹⁾.

كان لليونان فلسفة، وللرومان مدرسة، وللساسانيين ملك. ولم يمنع العلم أو الحكمة أو القوة أو المال من انهيار المجتمعات. وفي كل أرض سامري مكر، يقوم بدور الشيطان لليهود. كانت الحكمة الأولى وثنية في الصين والهند وطوران. ثم جاء الوحي الإسلامي. فأوضح نهج الهدى ومعالم الإيمان⁽²⁾.

حمل المسلمون الرسالة، وأوفوا الأمانة، ورفعوا السيوف لرفع رسالة التوحيد فوق هامات النجوم. ساروا فوق الجبال، وعبروا البحار. ووصل الأذان إلى معابد الإفرنج قبل وصول الفاتحين سلماً. فتحت البلدان. وانتشر الإسلام في صحراء أفريقيا. وأقيمت فيها شعائر الإسلام في عز حرارتها. واحتتموا بظلال السيوف حديقة خضراء. تثبت الأزهار في كل مكان⁽³⁾.

لم يخش المسلمون طاغوتاً يحاربهم حتى ولو نصب شرك الموت حولهم. ودعوا إلى التوحيد جهاراً وإلى خالق الأكوان ومقدر الأقدار. وحملوا رؤوسهم فوق أكفهم مفازة وثواباً. هدموا الأصنام من ذهب، معابدها وعابديها. ولو كان غيرهم لحولها إلى كنوز وحلي. وصك منها النقود⁽⁴⁾.

(1) إن اسم محمد الهادي
دوّت أنشودة إقبال
ليعيد قوافلنا الأولى
السابق، ص 91 - 92.

(2) قد كان في اليونان فلسفة، وفي الرو
لم تغن عنهم قوة أو ثروة
ويكل أرض سامري مكر
والحكمة الأولى جرت وثنية
غني الذين بنور وحيك أوضحو
السابق، ص 94.

(3) من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اس
كنا جبالات الجبال وربما
بمعابد الإفرنج كان أذاننا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤنا
وكان ظل السيف ظل حديقة
السابق، ص 94.

(4) لم نخش طاغوتا يحاربنا لو
نصب المنابح حولنا أسواراً

واستمروا في زلزلة الصخور دون وهن في العزيمة أو ضعف في الإيمان. ولو فرغت الأسود في عرينها فإن ثبات المسلمين في الميدان قائم. يتلقون بنيران المدافع في الصدور ريحاً وريحاناً. حولوا التوحيد إلى نور عبر الأزمان. وأصبحت - ورهم مصاحف في الكون. يقرأون القرآن على صفحاته⁽¹⁾.

المسلمون وحدهم هم الذين هدموا التماثيل التي كان يعبدها الجاهل. هم الذين أسقطوا الصور في المعابد، حماية للتوحيد ولخالق الوجود ومصدره. هم الذين حملوا باب المدينة بسواعدهم يوم غزوة خيبر. هم الذين أطفأوا نار المجوس. وأظهروا وجه الحق. بذلوا حياتهم رخيصة في سبيل مرضاة الله الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. ورضي المسلمون البيع عن طيب خاطر⁽²⁾. هم الذين أيقظوا بصوت الأذان النيام. هم الذين يدعون إلى الصلاة ويحرقون الأرض بدمائهم. أخذوا الحجاز قبله لهم حيث هبط الوحي لآخر مرة. واستمر على ذلك سلاطين المسلمين وغزاتهم مثل محمود الغزنوي وإياز مولاة. فلا فرق بين سيد وعبد في الخشوع أمام الواحد القهار⁽³⁾.

صنع الوجود وقدر الأقدار
نرجو نوابك مغنما وجوارا
فنهدهما ونهدم فوقها الكفارا
كنزا وصاغ الحللي والدينارا

من بأسنا عزم ولا إيمان
لم يلق غير ثباتنا الميدان
ر المؤمنين الروح والريحان
نورا يضيء بصيحه الأزمان
في الكون مسطورا بها القرآن

كانت تقدمها جهالات الورى؟
لجلال من خلق الوجود وصورا
باب المدينة يوم غزوة خيبر؟
وأبان وجه الحق أبلج نيرا؟
ورأى رضاك أعز شئ فاشترى؟

دنيا الخليفة من تهاول الكرى
والحرب نسقي الأرض جاما أخضرا

ندعو جهارا لا إله سوى الذي
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا
كنا نرى الأصنام من ذهب
لو كان غير المسلمين لحازها

السابق، ص 94 - 95.

كم زلزل الصخر الأشم فما وهى
لو أن أساد العرين تفزع
وكان نيران المدافع في صدو
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا

السابق، ص 95.

من غيرنا هدم التماثيل التي
حتى هوت صور المعابد سجدا
ومن الألى حملوا بعزم أكفهم
أتم رمى نار المجوس فاطفت
ومن الذي بذل الحياة رخيصة

السابق، ص 95.

نحن الذين استيقظت بأذانهم
نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم

وصلت خيول المسلمين نهاية الأرض. وامتدت رمال الصحراء إلى البحار. رفع الهلال في محافل الأكوان علامة على النصر. ورفعت الرايات في كل موقعة معلنة النصر للتوحيد وحرية الناس بعد أن كانوا عبيداً باسم الدين أو الإقطاع⁽¹⁾.

لم يعرف البيت العتيق سجوداً إلا من جباه المسلمين. ولم يكتب مصحف على القلوب كما كتب وحفظ في صدور المسلمين. وهذا دليل على الوفاء الصادق، والشعور بالواجب والإحساس بالأمانة. لقد امتلأت الأرض بألوان البشر من جناة وعصاة وملاحدة وعتاة ومغرورين. يجرفهم غيث السحاب. وخص المسلمين بصواعق تدميرهم⁽²⁾.

ثم عادت الأصنام بعد موت. وبعثت من جديد. واستيقظت من قبل نفخ الصور. وتوارى أهل الكعبة وأصبحوا موتى دون نشور. وضل حداة قوافل الصحراء طريقها. وتحولت مضارب القوافل ومنازل القبائل إلى ظلال قبور. لم يعد في الأمة من يقدم عملاً صادقاً لحدور العين. في حين أصبح الكفار في نعيم ومواكب وقصور. يملكون الدنيا. ويتقدمون بالعالم. يتعلم الآخرون منهم كما كانوا يتعلمون سابقاً من المسلمين⁽³⁾.

= جمعوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا
محمود مثل إياز، قام كلاهما
وانعبد وانمولى على قدم التقي
السابق، ص 95 - 96.

(1) بلغت نهاية كل أرض خيلنا
في محفل الأكوان كان هلالنا
في كل موقعة رفعنا راية
أمم البرايا لم تكن من قبلنا
بلغت الأجيال حرياتها
السابق، ص 96.

(2) رحماك رب، هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفا
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً
ملا الشعوب جنانها وعصاتها
فإذا السحاب جرى سقايم عيشه
السابق، ص 96.

(3) قد هبت الأصنام من بعد البلى
واستيقظت من قبل نفخ الصور =

حكمة الإله ومشيبته في كل أنحاء البرية. لم تجارها مذاهبها السياسية. تستطيع تحويل الصحاري إلى أنهر، والأنهار إلى أمواج سراب. وقد ابتلي الإسلام في أبنائه، فأصبحوا في محنة وعذاب. تحول ثراؤهم إلى فقر. ونُهبت دولة مجدهم من الثعالب والذئاب. وكان هذا عقاباً عادلاً للمسلمين كما ينتظر أعداؤهم يوم العقاب⁽¹⁾.

عاش أعداء الأمة ومحتلوها بثروات الأمة فاغتنوا. وافتقرت الأمة. وعاشت بين الذل والإملاق. والدين لا يحيا إلا في أمة حية. والكأس لا يبقى بدون الساقى. لقد غاب الذين تفتانوا في حب الله والإسلام والوطن. وسكبوا الدموع وتوضؤوا بها. وصدر عنهم الأنين بعد أن كانت الشمس تسطع من الوجوه⁽²⁾. وطويت الأيام الأولى التي نشر فيها الهدى. وهجرت الديار فغابت الهداية والاقتداء بعد أن كانت هي المرشد، والتوحيد هو الهادي⁽³⁾.

فكأنهم موتى لغير نشور
وغدت منازلها ظلال فبور
في أنعم ومواكب وفصور
عملا تقدمه صدق السحور

والكعبة العليا توارى أهلها
وقوافل الصحراء ضل حداثها
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
بل محنتي ألا أرى في أمتي

السابق، ص 96 - 97.

أعيت مذاهبها أولي الألياب
أو شئت فالأنهار موج سراب
حتى انطووا في محنة وعذاب
في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب

(1) ولك البرية حكمة ومشيبته
إن شئت أجريت الصحاري أنهارا
فلذا ذهي الإسلام في أبنائه
فثراؤهم فقر ودولة مجدهم
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا

السابق، ص 97.

للموت بين الذل والإملاق
والكأس لا تبقى بغير الساقى
أنوار بين محافل العشاق؟
وتوضؤوا بمدامع الأشواق
نُهدي الصباح طلائع الإشراق

(2) عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم
الدين يحيا في سعادة أهله
أين الذين ينار حبك أرسلوا الـ
سكبوا الليالي في أنين دموعهم
والشمس كانت من ضياء وجوههم

السابق، ص 97.

نشروا الهدى وعلوا مكان الفرق؟
من يهتدي للقرم أو من يقتدي؟
إلا على مصباح وجه محمد
ولهم خلود الفوز يوم الموعد

(3) كيف انطوت أيامهم وهم الألى
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم
يا قلب حبك لم تُلْم بطيفهم
فازوا من الدنيا بمجد خالد

ومع ذلك، مازال المسلمون باقين على العهد طالما أن قيس ما زال متيماً بليلي. طالما أن المها مازالت ترعى في مراعي نجد والظباء ملأ الجبال. طالما أن العشق مازال فياضاً فأمة محمد مازالت قادرة على تسيير التاريخ، والتأثير فيه. ولو أنها حاولت العثور على مكانة في السماء لاستطاعت أن تقيل إلى شمس الضحى، وهي مازالت بعيدة في الأفق. وهي مازالت تتحجج بالحظ العاثر والأيام غير الموتية⁽¹⁾.

لقد هجر الحبيب. ورمي الأحبة بالنوى وانحسار الآمال. وربما ملأوا العشق، واستكانوا إلى الهوى والضلال. ربما صنعوا الأصنام وباعوها مع أن الموخذ لا يذل لمال. وما زال تاريخه موصولاً منذ أيام سليمان، وتقوى أويس القرني، وأذان بلال⁽²⁾.

كان عهداً طيباً عندما حملت الأمة الأمانة. وانبثق منها نور الحق. وتجمع حولها العشاق، راحاً بغير دنان. وتولدت في القلوب نار الإيمان. ثم تغير الزمان وكأن القلوب لم تعرف نار الهوى أو دخانه. إن لم يعد نور الرسالة فليس أمام القلب إلا الانطواء، حزيناً كسيراً⁽³⁾.

= يا رب ألهمنا الرشاد فمن لنا
السابق، ص 97 - 98.

(1) مازال قيس والغرام كعهده
وهضاب نجد من مراعيها المها
والعشق فياض وأمة أحمد
لو حاولت فوق السماء مكانة
ما بالها تلقى الجدود عواثرا
السابق، ص 98.

(2) هجر الحبيب رمى الأحبة بالنوى
لو قد مللنا العشق كان سبلنا
أو نصنع الأصنام ثم نبيعها
أيام سلمان بنا موصولة
السابق، ص 98.

(3) يا طيب عهد كنت فيه منارنا
وأشرت فيه العاشقين بللمعة
أحرق في قلوبهم بتو
لم نبق نحن ولا القلوب كأنها

ما أفرح الأيام عندما يعود الروض متجلياً وارف الأغصان. ويعود المحفل مضيئاً. ومن المحزون أن يعيش الأعداء بين الظلا والظل والألحان. ينعمون بالدنيا التي سلبت من الأمة بعد أن تركوا أمور الآخرة إليها. يعيش الأعداء في البساتين وأنفاس الأمة تصطلي بنيران الهجير. ويدعو إقبال بالإشراق بالنور وبعث البرق لينير فراش الأمة المظلم⁽¹⁾.

إقبال غيور على شعره. يطالب الناس بالنهوض إذا كانت لهم بصيرة. مجاله الذات كجوهر لمشاعره النبيلة كسيف باتر⁽²⁾. ويشبه الشاعر نفسه بالخليل محطم الأصنام والذي قذفه نمرود في النار جزاء على فعلته. وكان الخليل في نعيم فيها، في برد وسلام⁽³⁾.

إقبال من كفار الهند فهو من أسرة برهمية. اعتنقت أسرته الإسلام منذ مائتي عام. ومع ذلك لا يجحد فن المسلمين. حماسه من لحنه، وصلاته على شقيقه، ابتهاجاً لتورد الخدين. فتنته تثير خيال الشاعر. يعبر عن نور التوحيد وحياة القلب. لا تخمد نوره رياح الدنيا. يشع جمالاً وجلالاً. حماس بالضحى ووجد بال مساء. وما خفي في الغد أعظم. يبعث على المسرة والمحبة والتواضع والود. كلماته عذبة. روحه خفيفة. قلبه رفيق. يقظ لا ينام. حبه أبدي. وحره نقيه. وعرضه مصون.

- = إن لم يُنر وجه الحبيب بوصله
فمكان حُزن القلب كل مكان
السابق، ص 98.
- (1) يا فرحة الأيام حين نرى بها
ويعود محفلنا بحسبك مسفراً
قد هاج حزني أن أرى أعداءنا
ونعالج الأنفاس نحن ونصطلي
أشرق بنورك وابعث البرق القديم
بومضة لفراشك الظمآن
السابق، ص 98 - 99.
- (2) أنا على شعري شديد العبرة
أنا مجالي الذات في مشاعري
جناح جبريل، ص 455.
- (3) أنا خليل هذه الأصنام
في النار ألقوني كإبراهيم
السابق، ص 454.

تعضده يد «الله»، وتحفظه من غوائل الزمن، وتقلبات الدهر⁽¹⁾.

العالم كله قصر خلافته، وسماء العالم معبده. رؤيته سر الكونين، وهو متجرد عنهما. سراب العصر بنور الدين يبدده نور الحب. هو أول سر في الدنيا ومقصد الكون شغل العالم بالجمال القديم المتجدد. أعمدته كنخيل الشام. وزرقة قبه تتألق في ظلمة الليل. يتنهّد في وحدته كالطيور. منائرهما صداحة كما صدح صوت جبريل لمحمد أول مرة. ويشهد على ذلك إبراهيم وموسى⁽²⁾.

4 - الحنين إلى الماضي

يبدو الحل حينئذٍ إلى الماضي واسترجاع الذكريات وإثارة الأشجار. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. هذا القصر أي السجن الذي يعيش فيه المسلمون

(1) أنا من كفار الهند وفي نظراتي ما لا تحجده
وحماسة أغنيتي هذي من لحن قلبك ينشده
وصلاة السحب على شفتي وعلى خديك تورد
الفتنة وجهك بوقدها وأنا أشرح ما توقده
توحيد الله لنا نور وحياة القلب توحيده
بحبكك جمالا وجلالا رجل لله تعبده
وحماس ضحاه ووجد مساه وما يخفيه له غده
ومسرتة ومحبتة وتواضعه وتودده
عذب الكلمات خفيف الروح رقيق القلب مسهده
أيدي الحب نقي الحرب مصون العرض مهنده
وعلى يده لله يد بلطف القدرة تعضده
السابق، ص 479.

(2) العانم قصر خلافته وسماء العانم معبده
سر الكونين بنظرتة وعن الكونين تجرده
وسراب العصر بنور الدين ونار الحب يبدده
هو أول سر في الدنيا ورجاء الكون ومقصده
هو مثلك شاغل عالمه بقديم الحسن يجده
كنخيل الشام وأعمدها شمخت في المسجد أعمده
تتألق زرقة فينه وتقويم الليل وتقعده
وتنهدها في وحدتها كالطيور كواه تنهده
بعثت جبريل منائرهما بجمال أنت محمده
نادى إبراهيم وموسى لشهود هذا مشهد
السابق، ص 479 - 480.

لا يصلح لهم. يكرهون لونه. أما قصر الماضي فهو العش والغصن الذي يطوي الكون. هو الذي أطلق من الصدر صراخ الفجر. هو الذي فُتِحَ من التوحيد نارا. أنفاسه به تغني. وغناؤه ذو شجون وحماس وندوب وجروح، شكوى وجواب شكوى، أنين وحنين. التوحيد غايته وأمله ومطلبه الوحيد. هذا هو نصيب الإنسان دون غيره. عندما يقترب الإنسان من غايته تصبح الصحراء بحرًا. وإن ابتعد يصبح البستان صحرا⁽¹⁾.

القصد من هذا الحنين إلى الماضي ثورة على الحاضر. فالحياة دون ثورة موت. والفكر دون غلبة انهزام. وبداية الفكر الحر مواجهته للأخطار. والشعب الوائق الخطوات سيف في يد المسلم ليعيد سيرة الآثار. وتستمر في الألحان⁽²⁾. إن لم تثر الآثار الحنين في النفس تكون معابة. وإن لم تستمر الأنعام القديمة أضحك الرقص.

الحل هو العودة إلى التراث القديم، شعر الرومي ووحى جبريل. فالشعر والوحي صنوان. ينبعان من نفس المصدر. لذلك حمل العرب الرسالة. وبنغوا الأمانة. ليس الفلاسفة الذين دفنوا رؤوسهم تحت ركام أفكارهم. بل هي رسالة

(1) أكون هذا القصر عُشي وأنا أكره لونه؟
أنت ذاك العش والغصن الذي يستتر كونه
أنت من أطلقت من صدري صراخ الفجر بعشا
بك أنفاسي تغني لك تغدو ونروح
ذاك شجون وحماس وندوب وجروح
أملني أنت وشغلي طلبي أنت الوحيد
وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد
عندما تخطر قربي نصبح الصحراء بحرا
وإذا لم تك في البستان فالبستان صحرا
السابق، ص 476.

(2) حياة ليس فيها ثورة موت لطلالها
وهل لحياتنا فكر يكون لغير غاليتها؟
وبدا الفكر بدء تأهب الأحرار للأخطار
وشعب واثق الخطوات سيف في يد القدر
إذا الآثار جوهرا أنته عابها النقص
وإن لم تأخذ الأنعام عنا أضحك السرقص
السابق، ص 481.

موسى الكليم وضربه الحجر بعصاه لتنفجر منه المياه. وهو الذي أمر بعدم الخوف عندما رأى النار في الأجمة⁽¹⁾.

يحن الشاعر إلى الأمجاد الماضية وإلى الأسلاف ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾⁽²⁾. لقد أخذ سراج الكعبة. وبعد أن انتصرت الأمة على الفرس والروم، انبهر فتيان اليوم بهم⁽³⁾. في الكتاب آيات محكمات، والعالم ما زال في حجاب. ولم يرفع النقاب عن الجبين. ولم يكشف عن الفؤاد. والعالم فيه الدبيب للموت، والشعوب نائمة. خمدت نار الغلاب في التتار، وسلم الكتاب⁽⁴⁾.

وتجيب السماء بأنها وهبت المسلمين عطايا، سحبا سائرة، دون أن يطلبها أحد. الطريق مملوء بالزهور والأنوار، ولكن لم يسلكه أحد. لم تعكس الجواهر ضياء الوحي والنور المبين. في حين أن تراب آدم كان شيئا آخر بالرغم من أن أصله ماء وطين. ولو صدقوا أنه لا توجد أنهار في الأرض لفجرت السماء لهم عيوناً⁽⁵⁾. وخضعت الثريا

(1) أنا لم أر السر لو لم أنل
ومن بدء تلمذتي قال لي
رأيت فلاسفة بالآلوف
وذو الوحي يرفع من رأسه
إذا خضت معركة فلتكن
فمن لا تخف شعلة لم تزل
السابق، ص 437.

(2) فما الناس بالناس الذي عهدتهم
جاويد نام، ص 179.

(3) صدرت نار تلمظت من محمد
وبهلك الروم أو كسرى تغنى
السابق، ص 181.

(4) محكمات لي أبنت في الكتاب
النقاب عن جبين ما رفع
ولدينا عالم فيه الدبيب
في التتار خمدت نار الغلاب
السابق، ص 510.

(5) عطايانا محائب مرسلات
وكل طريقنا نور ونور
ولكن ما وجدنا السائلينا
ولكن ما رأينا السالكينا

لملكهم. وأصبحت النجوم لهم حصون. والعيب أنهم الحدوا في الدين الذي بنى ملكهم في الشمس. وأهملوا ما تركه الرسول وراءه. عاشوا مهملين. وحادوا عن الطريق الأول، هدم الأصنام. بل وصنعوا أصناماً جديدة. أبوهم إبراهيم، ولكن خرج منهم أمثال آزر أبناء لهم⁽¹⁾. كان في الأسلاف مزايا يذكرها كل الناس. وتنشدها كل الأقوام. تفوح الصحراء بعطرها. وتبتسم الورود لريها. فهل بقت هذه المحاسن في الأبناء والأحفاد؟ فنوا في الخالق وخلدوا فيه. ونهل السلف من كوثر الرسول. وهو الآن بعيد عن الخلف⁽²⁾.

يقظة الفاروق (عمر) ويقظة المرتضى (علي) نموذج ليقظة المسلم الحالي، وليس حجر الفلاسفة الذي يحيل التراب إلى ذهب وهما. يقظة المسلم الحالي تمنع من ضياع العمر، وحجاب القلب. وعصى الكليم نموذج آخر، تفجر من الأرض ماء. وعلى هذا النحو لن يضل مسلم في الصحراء. ولن يصطاد التتري الغزال⁽³⁾. الحل هو ثبات

ضياء الوحي والنور المبينا
وإن بك أصله ماء وطينا
لأجرينا السماء لهم عيونا

وشيدنا النجوم لهم حصونا
بنى في الشمس ملك الأولينا
فعاشوا في الخلائق مهملينا
فعادلها أولئك يصنعونا
أرى أمثال آزر في البنينا

بكل فهم لذكراها نشيد
بريها وتبتسم الورود
فيجعل في دالككم الصُّدود
فلم يكنب لغيرهم الخلود
ولكن شوقكم عنده بعيد

يقظ كمثال المرتضى في حربه
يستخرج الذهب الدفين بثره
مادام قلبك غارقا في حجب
إن لم يذوق الكليم بضره
إن كان لم يصحبك مرهف شمكا
مهما نصبت له حباله وهمكا

= ولم نحد الجواهر قبايلات
وكان تراب آدم غير هذا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر
صلصلة الجرس، ص 102.

(1) وأخضعنا لملكهم الثريا
ولكن الحدوا في خير دين
نراث محمد قد أهملوه
تولى هادمو الأصنام قدما
أباهم كان إبراهيم لكن
السابق، ص 102.

(2) وفي أسلافكم كانت مزايا
نضوع شقائق الصحراء عطرا
فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناء
وكوثر أحمد منكم قريب
السابق، ص 103.

(3) يقظ كما الفاروق بقطرة قلبه
حجر الفلاسفة المجرب مثله
أيقظ فؤادك إن عمرك ضائع
أنا، لا عصاي ولا عصاك تفيد
ستكون في الصحراء أحرق باحث
وغزالنا التتري لست تصيده
جناح جبريل، ص 434 - 435.

إسماعيل، مقتل الحسين، الرضا والمقاومة، الطاعة والثورة⁽¹⁾.

5 - الحنين إلى الأوطان

الحنين إلى الماضي نوع من الرثائيات، والبكاء على الأطلال كما هو الحال في الشعر القديم. يبدأ من التراث الماضي إلى العصر الحاضر. وأحياناً يقلد إقبال الشعر العربي القديم مثل قصيدة «النخلة الأولى». فالمقطع الأول منها ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول في «نفح الطيب» وكما رواها المقرئزي. وقد غرست النخلة في مدينة الزهراء⁽²⁾.

أ. مكة والحجاز: تتطلع أشواق الأمة أولاً إلى الحجاز. تحن إليه كحنين المغترب إلى الأوطان. والطيور إذا قصت أجنحتها طارت بحكم الفطرة. وقيثارة إقبال مكبوتة. ملئت من صمتها وكنمان صوتها. والأوتار ترجو عازفاً ييوح بأسراره ومعانيها. والطور يرتقب التجلي بهوى الشوق ولهفة الحيران⁽³⁾.

احترقت الأكباد بأنات الجوى، والدماء أنهار الدموع القانية. وفاض العطر من الخمائل والربى وكأنه شكوى بغير لسان. ومن أهوال القيامة أن ينم الزهر على البستان. ولا يخشى النمل جنود سليمان إذا حرسه عناية الرحمن. وبراهمة الهند في حاجة إلى من يرشدهم لرفع الإسلام فوق هياكل الأوثان⁽⁴⁾.

(1) حكاية ليس لها نظير
ثبات إسماعيل ميتداها
السابق، ص 455.

(2) السابق، ص 483.

(3) أشواقنا نحو الحجاز تطلعت
إن الطيور وإن قصصت جناحها
قيثارتي مكبوتة ونشيدها
واللحن في الأوتار يرجو عازفا
والطير يرتقب التجلي صارخا
صلصلة الجرس، ص 99.

(4) أكبادنا احترقت بأنات الجوى
والعطر فاض من الخمائل والربى
أو ليس من هول القيامة أن يكو
النمل لا يخشى سليمان إذا
ودماؤنا نهر الدموع القاني
وكانه شكوى بغير لسان
ن الزهر غماما على البستان؟
حرسنا قراء عناية الرحمن

ب - قرطبة والأندلس: الحنين الثاني إلى مسجد قرطبة والأندلس. وتبدأ قصيدة الحنين إلى مسجد قرطبة بالشكوى من أن صرخته تفضح أمره. وهي الصرخة التي طواها القلب طيلة العمر. ويطمئن إلى أن صحبة الأظهار نور، وأن رضا الله نور. يمكن أن يتذكر وعشاء السفر. ويتوضأ ليصلي من دم القلب الكسير. ويسير في الطريق مع الآخرين، ولكن رجاءه لا يشاركه فيه أحد⁽¹⁾.

يعني مسجد قرطبة، الإسلام وسط الغرب، بعد أن حاول الغرب وضع نفسه وسط الإسلام ببناء كنيسة وسطه، عكرت جمال غابة النخيل من الأعمدة داخل المسجد. هو قصر التاريخ ومسجده من صنع فنانيين موهوبين. يقص حكايته للناس. مازال صوته يرن في النفوس، ومازال الأذان في الأذان. المسلمون ظمأى، ولم يرتوا منه بعد. ويزداد الظمأ برويته. كلما قام الظمآن بعد ريه قعد. زيتته يخفق لها القلب. صنع المسلمون من الصخر فنوناً بأفعال القلوب. يهيج الذكريات. فتقابل أنات الروح⁽²⁾. المسجد لا ند له في عظمته إلا الإيمان وعمقه. جمع بين عروبة اللحن، وحجازية الروح، ويمنية العطر، وشامية الباسقات. ظباء تلعب بسهام

= أرشد برأمة الهنود ليرفعوا الإسلام فوق هياكل الأوثان
السابق، ص 99.

(1) إن هذي الصرخة اليوم التي تفضح أمري
صرخة القلب التي خبأتها طيسلة عمري
صحبة الأظهار نور ورضا الله صبور
وشقيب الروض كاسات على النهر تدور
هاهنا يمكن أن أذكر وعشاء المسير
ووضوئي لصلاتي من دم القلب الكسير
مع من عيشي الذي يمشي على هذا الطريق
وأنا إلا رجائني ليس لي فيه رفيق
(2) قصر التاريخ ومسجده، ما أروع ما صنعت يده
للقوم يصدر حكايته صوت مازال يردده
ظمأ لا ري له، وبه طالع الظمآن ومقصده
يزداد برؤيته ولها ويريد يقوم فيقعده
في الصخر فنون سرائرنا بلطائفنا نتسعهده
ليهيج رنين جوانبه بأنين الروح نزوده

السابق، ص 99.

الحب كما يلهو العرب بها⁽¹⁾.

أصبح الآن المسجد في الغرب جزءاً من تاريخ، لا يستطيع أحد جحده. وأصبحت الأندلس زينة الغرب، بل حرمًا يفخر به الغرب ويعظمه⁽²⁾. من روحه خرج الإصلاح الديني في ألمانيا. فبدد الأسرار ولم يتبرك لها كما نتبرك بالبيت العتيق. وانهارت سلطة الباب العجوز وعصمته. وأيقظ الفكر قاضياً على الأوهام المسبقة معتزاً بأنه ترك المعارف السابقة حتى يتيقن من صحتها⁽³⁾. من ثناياه خرجت الثورة الفرنسية ناقدة للنظم الفكرية والسياسية القديمة، وأربكت كل شيء. وانقلب الشيء إلى نقيضه⁽⁴⁾. أما روما فقد شاخت على العهد القديم. تحتسي خمراً جديداً مع البابا كنديم⁽⁵⁾. ولو كشف المسلم أستاره وأسفر عن أفكاره لكل الغرب بحملها⁽⁶⁾. إن الأندلس التي بها مسجد قرطبة سماء للعيون. لم يسمع الأذان فيها

(1) لا ند له في سؤده إلا الإيمان وسؤده
عربي اللحن، حجازي روح الإسلام تخلده
يمني العطر، تهب به أنسام الشام وتخشده
نظرات ظبايك لأعبه بسهام الحب تكبده
السابق، ص 479.

(2) يا ظل الغرب ودوحته من ذا تاريخك يجحده
بك أصبحت تربة أندلس حرمًا في الغرب نمجده
السابق، ص 479.

(3) هيج الألمان حول الدين إصلاحاً عريفاً
بدد الأسرار لم يتبرك لها بيتاً عتيقاً
أصبحت منه هباء عصمة الباب العجوز
وأفانق الفكر لا يعرف شيئاً لا يجوز
السابق، ص 480.

(4) منذ أن ثارت فرنسا بدأ المغرب العراكا
لم تعد تبصر فيه بعمدها إلا ارتباكها
السابق، ص 480.

(5) هي ذي روما التي شاخت على العهد القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا كنديم
السابق، ص 480.

(6) ولو هتكت أستاري وأسفر وجه أفكاره
نكل الغرب أن يحمل ما غنته أوتاري
السابق، ص 481.

منذ قرون. كيف سرى موكب الحب الغضوب وفي أي درب بعد أن تاه المسلمون؟⁽¹⁾

في فؤاد المسلم اليوم غليان. عندما تهيج الذكريات. وهو سر كشف عنه كل المصلحين. إقبال واحد منهم واثب في بحر الفضاء. بيده كوب يلتقط به ماء السماء. تميل سحابة الوادي فتحكي قصة الغطاس. رمتها الشمس بالياقوت. وابنة الفلاح تغني بأهاتها وأناتها. تغازل نهر قرطبة الذي مازال يزخر بالحب. يرتع الساري فوقه. فالنهر تاريخ يغني فوقه الشرق. صحيح أن عالمه الجديد مازال يحوط به القدر. ومع ذلك، حرية المسلم قادرة على التحرر منه⁽²⁾.

ساعة مغادرته أسبانيا سمع صوت المنارات عبر النسيم كتوماً في الأذان. صدها يتردد في الأرواح. يطوف بمسجدها توأم الحرم الشريف الركع والسجود. مازالت أثارهم على الشرى يفرح القلب، ونضرة تتجدد. تحكي النجوم لأسنة رماحهم بطولات الماضي ليلاً. وإذا غابت الخيام فإن الأوتاد مازالت حاضرة. إن

(1) إن أرضاً أنت فيها لسماء للمعيون
كيف لم يسمع أذاناً أهلبها منذ قرون
ليت شعري كيف أسرى موكب الحب الغضوب
ليت شعري ما يرى الآن وفي أي الدروب
السابق، ص 480.

(2) في فؤاد المسلم اليوم كهذا الغليان
هو سر الله عن تبيانته كلّ اللسان
فارقبوا من ذلك الوائب في سحر القضاء
وارقبوا الكوب الذي يختاره ماء السماء
تميل سحابة السوادى فتحكي فيه غطاسا
رمتها الشمس بالياقوت أكداً فأكداً
وأغنية ابنة الفلاح تطرب رغم ركنها
برقتها إذا غنت وأهتها وأتتها
كأن غناءها فيض يقل سفينة القلب
تغازل نهر قرطبة الذي يزخر بالحب
هنالك يرتع الساري هنالك تصدح الورق
كأن النهر تاريخ يغني فوقه الشرق
نعم، مازال عالمه الجديد يحوطه القدر
ومثلي ليس يعجزه عن إدراكه نظر

سئلت الحسناء عن حسننها يحمر الوجه خجلاً من هجرها. فقد سفكت دماء المسلمين. نشفق وهم يشفقون على أعدائهم⁽¹⁾. لقد فتح صقر قريش الأنڈلس، ولكنه لم يستطع توحيد أمرائها. لقد سكنت الأرواح. وزال اللهب. وغاب بريق قرطبة الخالد. ضاع النوم من الجفون. وأثخنت الأمة بالجراح. في أسبانيا وفي مشهد. في كليهما العزاء⁽²⁾. ومع ذلك، ستهتك الأسرار في سيناء. وتباح من أول مصلح يعي أنين الأمة وحنينها⁽³⁾.

ولما تحالف المعتمد بن عباد ملك أشبيلية مع الفونس السادس أسره يوسف ابن تاشفين وزج به في السجن فمات فيه. صور إقبال صرخته في السجن وكيف أنه أثر العبودية على الحرية فمات مع العبيد. ترك الحر السيف من يده فتحول إلى عبد. واغتربت ذاته في الآخر فوالاه⁽⁴⁾.

نظم إقبال في إحدى ساحات المعارك في الأنڈلس «دعاء طارق». يتخيل صقر قريش وقد عاد من جديد يرثي لحال المسلمين فيها. ويقارنهم بجيشه الفاتح

(1) صوت المنائر في نسيمك يرقد، وصداه في أرواحنا يتردد
يا توأم الحرم الشريف تطوفت بك رنح من عاكفين وسجد
بسمك من أثر السجود على الثرى طرب يفرح ونضرة تتجدد
تحكي النجوم أسنة لرماحهم بإزائها ليل يقوم ويقعد
ملؤوا وهادك بالخيام ولم تزل أوتادها بنسيمهم تتأود
إن تسأل الحسناء عن خنائهم فتخيب بنصفها دمي المتورد
يا طالما سفكت هناك دماؤنا ظلما ونحن المشفقون العود
السابق، ص 485.

(2) ما كان صقر قريش غير موحد عجباً أما في المسلمين موحد؟
خدمت حقيقتنا وزال لهيبنا وبريق قرطبة الشريد مخلد
ووقفت لا نومي حمدت ولا السرى أتكيد الجرح الذي أتكيد
عانيت مشهدهم وقلت وقيل لي بيان قول في العزاء ومشهد
السابق، ص 485.

(3) ستهتك الأستار عن سينائنا وتباح أسرار لنا وتُبدد
ويكون أول من يقوم بهتكها للناس أول مصلح يتحمد
السابق، ص 485.

(4) كذاك تفعل بالحر الحياة إذا أراد شينا وحالت دونه الطرق
أليس عارا على الأحرار يسجنهم مع العبيد دعي جيشه الحمق
السابق، ص 482.

الذي حمل عناء العالمين، وجاهدوا في سبيل الله. حملوا السر، والسيادة في طلبهم، والنور في نظراتهم، والنار في عزيمتهم. فعلوا كما فعل موسى بشق البحر بعصاه، فتراجعت المياه أمامهم. كان البحر مثل حبة خردل في كفهم. وكان العشق في أرواحهم إعصاراً. عزفوا عن الدارين، فأصبحوا من علاماتها الباقية. كانت الشهادة مطمعمهم مهما أثنختهم الجراح. لم يكن سبي الغواني وسلب الغنائم مطمعماً لهم. جمعوا من كل العباد أقواماً وشعوباً تحت راية التوحيد. وحدهم لون الدماء. ونضج البستان⁽¹⁾.

خرجوا من الصحراء أفذاذاً. وامتلاً صدر الصبح من آهاتهم، وأصبح الأعراب أساتذة. طنبوا النار واستعذبوا طعمها. وأوجدوها بأرواحهم بعد حل وترحال. الموت ليس النهاية، بل باب البصيرة المفتوح. أين المسلمون الذين يؤمنون كما آمن قوم نوح. فالحق ثابت مهما تغيرت الظروف. الحق لا يتغير والناس كثر بين مدرك ومعتم. الحق يقين، والناس أوهام وظنون. يتنازعون على فهم العالم، والعالم سكران بين الماضي والمستقبل⁽²⁾.

ج - الشام وفلسطين: المسلم غريب الآن، مع أن عدد المسلمين بالشام

(1) هذي الكماء عبادك الأخيار
أصحاب شرك والسيادة طبعهم
فعلت كموسى في البحار عصيهم
البحر حبة خردل في كفهم
عزفوا عن الدارين إلا أنهم
نبيل الشهادة للموحد مطمح
لا سبي غانية وسلب خزائن
كل العباد على اختلاف عروقهم
ترجو من العربي لون دمائه
السابق، ص 489.

(2) رباه أنت بعثت من صحرائهم
وملات صدر الصبح من آهاتهم
طوت الحياة الدهر تنشد طلبية
ويروحهم عثرت عليها بعدما
الموت ليس نهاية في عينهم
رباه! فابعث مسلمين أعزة
لتغيرات العصر من ثوراته

وحدها مثل عدد حبات رمالها. كلما طاف الشاعر وجد زماناً غريباً مختلفاً عن الزمان الماضي. ومع أن هذا البحر ليس له ساحل يُرى إلا أن الشاعر امتشق الحسام. فلا حياة لمن يأنف الردى. وإذا سطع البرق زاد تألقاً، وبانت نخيل الشام. يعطي إقبال الأمل للمسلمين، بالرغم من ضياع ملكهم. فالعالم كله ملك الحاكم العادل. ويعيد المسلمون البناء لأنفسهم ولغيرهم. فالكرم لا يتحول إلى بخل. وإذا نضبت الأجساد من الدماء فما زالت المنازل مملوءة به. وتظل آثار المسلمين باقية بالرغم من انقراضهم كعبة للفضل يحج إليها الناس. وفيها صلى المسلمون، وضجت قلوبهم، وانتبذت أرواحهم سعف النخل⁽¹⁾.

بعد زيارة فلسطين عام 1931 للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي، نظم إقبال قصيدة «فلسطين» على نفس وزن «البردة» و«نهج البردة» ونفس مطلعها⁽²⁾. يتذكر أطلال فلسطين القديمة والمدينة قبل الاستعمار الاستيطاني وولادة الكيان الصهيوني، وكيف تحولت فلسطين إلى أشلاء من الخيم⁽³⁾. سكر القدماء هنا. فهل

والناس منها موسر أو معسر
إلا ظنون الواهم المتقول
سكران من ماض ومن مستقبل

وفي الشام من أمثالنا عدد الرمل
زماناً غريب الوجه مختلف الشكل
مضيت به عريان ممتشقا نصلي
وهل يقدر الزند الشرار من الوحل
وحن بذكر الشام للأعين النجل
فكل بلاد الله ملك ذوي العدل
وحاشا لأهل الجود توهم بالخل
فمنزلنا ريان من غدق البذل
وتطلب من آثارنا كعبة الفضل
هنا انتبذت أرواحها رسل النخل

والشمس ترنح بين البان والعلم

يدوي، هنا بضع أشلاء من الخيم

رباه! أنت هو الحقيقة كلها
الدهر ملك يديك ليس لأهله
يتنازعون على تفهم عالم

السابق، ص 489.

(1) وأعجب ما في الكون غربة مثلنا
وما زلت في التطواف ألقى على المدى
وليس لهذا البحر من ساحل يرى
وما من حياة للذي أنف الردى
إذا شام طرفي البرق زاد تألقا
وما ضرنا ملك تركناه خلفنا
سنيني كما كنا بنينا لغيرنا
إذا نضبت أجسادنا من دمائنا
ستذكرنا الدنيا وتندبنا الورى
يقال هنا صلت وضجت قلوبهم

السابق، ص 484.

(2) نزلت بربة الوادي بذى سلم

السابق، ص 499.

(3) هنا بقية أطلال، هنا لهب

السابق، ص 500.

يقدر المحادثون على ذلك؟⁽¹⁾. ينادى إقبال على غزنوي جديد غير منهزم ليقود المعارك. فلا شيء يُرجى من لهيب العرب أو غناء الفرس. كما ينادى على حسين جديد من الحجاز أو محمود جديد من العجم⁽²⁾. أين ضاع الحب القديم وهم أهله؟ وهل للدين من قيمة بغير الحب؟ بالحب قدم إبراهيم ولده إسماعيل قربانا. وقدم الحسين رأسه على كفه. وبفضله وقعت غزوات بدر وحنين⁽³⁾.

وانقطع الرهبان في فلسطين. وانزوا داخل الأديرة. فعموا عن الدين والدنيا، عن الله والعالم. لا يرضى الناس عن حاناتهم بديلاً، بالرغم من أن الساقى نفسه ظمآن. لم يعد الناس ناساً، ولا القوم قوماً، في حين ساد القدماء على الأمم. العيب على ورد بلا جذل، وعلى شوك بلا ألم. وإن لم تقم الصلاة على صدق قامت على الزور⁽⁴⁾.

6 - من الماضي إلى الحاضر

يتمنى إقبال مرة أخرى جرعة كأس كي يخرج مرة من طوافه حول نفسه بعد

- | | |
|---|--|
| (1) هم أقاموا سكارى هاهنا زمنا
السابق، ص 500. | فإن رضيت بسكر هاهنا أقم |
| (2) أما لمعتك الأيام من طمع
لا في لهيب تراث العرب من رصد
هل في الحجاز حسين من بني مضر
السابق، ص 500. | بغزنوي جديد غير منهزم
يرجى، ولا في غناء الفرس من نغم
وهل هنالك محمود من العجم؟ |
| (3) أما لهم من بقايا الحب باقية
استغفر الله هل للدين من قيم
بالحب قدم إبراهيم واحده
فصل حنيناً ويدرا عن حروبهما
السابق، ص 500. | وهم سلاله أهل الحب والتيميم؟
بغير حب وهل للشعب من قيم؟
وابن الحسين على كف الحسين رمي
كم ضرج الحب فيها من فؤاد كمي |
| (4) رهباننا انقطعت عنا بأديرة
لا يرتضى القوم عن حاناتهم بدلا
حكايي البحث عن قوم هنا غُدمت
أنا أعيب على ورد بلا جذل
إن لم تكن نصب عيني في الصلاة فلا
السابق، ص 501 - 502. | وكل منقطع في الدبر عنك عمي
بالرغم من أن ساقى الناشئين ظمي
أخبارهم وهنا سادوا على الأمم
كما أعيب على شوك بلا ألم
قامت على الزور في محرابها قلمي |

إثبات ذاته إلى العالم. ماذا يفعل وما زال الذات تحت الخمار؟ كيف تقوى وتشرب؟ كيف تخرج إلى العالم؟ لقد حطم المسلمون كل الحانات في العالم وهم يبحثون عنها. ويناجي إقبال الساقى أن يحن إليه، وأن يمر على الناس بالأقداح. فالخلق لم يذوق بعد طعم الفتون. أما إقبال فقد أعاد إليه جنونه وعيه وذوقه⁽¹⁾.

تستطيع الأمة أن تعيد إلى التوحيد نوره. يتم به اتحاد العالمين. هو عطر في الروض لا يعيش في حبس دفين. هو نسمة تحمل شذى العاملين، ولا تحمل غبار الخاملين. تستطيع أن تحول شعلة الإيمان شمساً، ومن الذرى الطائرة جبلاً ثابتاً حصيناً، وأن تكون موجاً في قمة الطوفان، وسحاباً يमطر منه الغيث⁽²⁾. باسم التوحيد تقام خيمة الفلك المنير. ينلأ في الرياض وفي الصحاري وفوق الموج والسيل الهادر. يخرج منه نبض الكون وحرارة العالم. ويمتد أسره من المغرب إلى الصين. هذه المشكاة التي يشع منها النور هو ضمير المسلم الغيور⁽³⁾. ورفع الذكر

(1) أتَمَنِي مرة أخرى ولو جرعة كأس
عزُّ أن أخرج يوماً من طوافي حول نفسي
أنا منها في خمار كيف لي أشرب منها
كل حانات النوري حطمتها في البحث عنها
أيها الساقى متى تنظر لي عين حنانك؟
ومتى الجمهور بالأقداح تروي من دنانك
خلفك اللهم هذا لم يذوق ذوق فتوني
وأنا إن لم تبدله ببذله جنوني
السابق، ص 476.

(2) أعد من مشرق التوحيد تورا
وأنت العطر في روض المعالي
وأنت نسيمه فاحمل شذاه
وأرسل شعلة الإيمان شمساً
وكن في قمة الطوفان موجاً
صلصلة الجرس، ص 109.

(3) فباسم محمد شمس البرايا
تلأ في الرياض وفي الصحاري
وتبصر الكون منه مستمد
ومن مراكش يغزو صداه
وما مشكاة هذا النور إلا
السابق، ص 109.

للتوحيد رفع لقدر الموحد نحو الكمال. الإنسان عين الكون. يشهد على مقامه العالي فوق المعالي. بخنجر العزم الوثاب تلوح على الأعلام أنوار الهلال. نداؤه في العناصر أجل ردع، والعشق خير سيف للنضال⁽¹⁾.

التوحيد هو الاهتمام بحياة الناس. «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». فالله في السماء رعاية الناس على الأرض. الإيمان هو وجع في الرأس، «شوكة في البدن» كما هو الحال عند كيركجارد. لا يعرف الهناء في الصباح أو المساء، بل هو وجع في الفؤاد، وخز في الضمير⁽²⁾.

والأمة قادرة على ذلك. قلبها لا يعرف اليأس. علمها الحب قوة الإرادة. تحول العسر يسرا، تقدر على الصمود أمام قيصر وكسرى. هي متعلقة بالرسالة. فلا غرو أن تسقط الأقمار في أيديها، بها خاتم الرسل. شعلة تضيء أمام الركب. أخذها من الطور أول الصف وآخر الدرب. وهو سكران من نشوة الحب. إنها رحمة القرآن أعطيت للناس، ياسين وطه⁽³⁾. مازال المسلم قادراً على النهوض من جديد.

(1) ورفع الذكر للمختار رفع
فكن إنسان عين واشهد
بخنجر عزمك الوثاب لاحت
نداؤك في العناصر مستجاب
وعقلك في الخطوب أجل ردع
السابق، ص 109.

(2) إن تكن ربا فبيني عندنا
وجع في الرأس لا يتركه
أستمح العذر إما إن تكن
فهو لا يعني تماماً عندنا
جناح جبريل، ص 418 - 419.

(3) متفاهم قلبي
الحب عالمه
من عسر عالمه
لا قصير قصير
متعلق أبدا
لا غرو للأقمار
هو سيد الأشياء
هو شعلة الساري
هو مركب من نور

لقدرك نحو غايات الكمال
مقامك عاليا فوق المعالي
على الأعلام أنوار الهلال
إذا دوى بصوت من بلال
وعشقك خير سيف للنضال

صرت تهتم بأرض وسماء
لهناء في صباح ومساء
محض إنسان على هذي الوهاد
وجعا في الرأس لكن في الفؤاد

لا يعرف اليأس
أن يُرغم النفس
يستخرج اليسر
يرجسو ولا كسرى
بركباب سيده
يسقطن في يده
هو خاتم الرسل
في هذه السبل
يمشي أمام المركب

فما زال الوجد في قلبه. ويعترف التاريخ أن الجمال ترعرع من زرعه⁽¹⁾. رجل البصيرة لا يُهان، عبداً كان أم سلطاناً. يختال في الدنيا مسلحاً بالزهد، دون شكاية من أحد⁽²⁾.

من المسلمين من يتقدم إلى المعالي ومن يسير على نهج الهداية والصواب. يخرج النور من جبهاتهم، ويتلى الكتاب من أخلاقهم. بنى الأوائل المجد والفن العجائب. أما مسلمو اليوم فلا يعرفون من التراث إلا الشكوى والاكتئاب. ومن يعيش يومه يائساً فإنه يعيش غده معذباً⁽³⁾. فلماذا الشكوى من قوم فازوا، والآخرون نيام؟ مشوا بهدى الأوائل، في حين أن المحدثين أضاعوا التراث الأقدمين. كيف يحرم من ورد المعالي ويسعد بالرقى الخامل؟ أليس من العدل أن يكون حصاد الأرض لزارعيها؟ تجلي النور فوق الطور مما يستدعي وجود الكليم في سيناء⁽⁴⁾. لقد أرسل إلى الأمة نبي يوحدنا على نهج سليم. والمصحف منار

= أعطي جنون الطور
هو أول الميذان
في أعين السكران
هو رحمة القرآن
هو سيدي ياسين
السابق، ص 424.

(1) دم المسلم النور في دبره
ويعترف المعصر أن الجمال
السابق، ص 429.

(2) رجل البصيرة لا يذوق هوانا
يختال والدرع الوحيدة زهده
السابق، ص 422.

(3) من المتقدمين إلى المعالي
ومن جبهاتهم أنوار بيتي
أما كانوا جدودكم الأوالي
وليس لكم من الماضي تراث
ومن يك يومه في العيش يأسا
صلصلة الجرس، ص 104.

(4) أنشكو أن ترى الأقوام فازوا
مشوا بهدى أوائلكم وجدوا
بمجد لا يراه النائمونا؟
وضيعة تراث الأولينا

للأخوة، والقبيلة سبيل السلام. وفوق الجميع إله رحيم واحد رب الأنعام. فلماذا ضاعت وحدتها، وتاهت الأمة في الظلام؟ وحسن اللؤلؤ المكنون مرهون بصوغ العقد وحسن النظام⁽¹⁾.

التاريخ الرائع للمجتمع الإسلامي في الماضي شاهد على إمكانية عودته في الحاضر. فكلما زاد التفكير في التاريخ الإسلامي أدرك الإنسان كم هو رائع. فمنذ نشأته حتى بداية القرن السادس عشر حوالي ألف عام كان هذا الجنس النشط (ويقول إقبال طالما أن الإنسان عمل كقوة جنسية خالقة) مشغولاً دائماً بالتوسع السياسي. ومع ذلك، وأثناء هذه العاصفة للنشاط المستمر وجد هذا الشعب الرائع وقتاً كافياً لنقل كنوز العالم القديمة وحفظها وإضافة عليها، وإبداع أدب فريد. وقبل كل ذلك وضع نسفاً قانونياً. وهو أفضل ما خلفه الفقهاء المسلمون⁽²⁾.

ويسعد بالرقى الخاملون؟
يكون حصادها للزراعينا؟
فهل بقي الكليم بطور سينا؟

يوحدكم على نهج الرثام؟
منار للإخوة والسلام
إله واحد رب الأنعام
وأمسيتم حيارى في الظلام
بصوغ العقد في حُسن النظام

أبحزم عامل ورد المعالي
أليس من العدالة أن أرضي
تجلّي النور فوق الطور باق

السابق، ص 104.

(1) ألم يُبعث لأمتكم نبي
ومصحفكم وقيلتكم جميعاً
وفوق الكل رحمن رحيم
فما نار ألفتكم تولى
وحسن اللؤلؤ المكنون رهن

السابق، ص 104 - 105.

الباب الرابع

السقوط والنهوض

الفصل الأول

أسباب السقوط

1 - «ضرب الكلیم» و«رسالة الخلود»

أ - ضرب الكلیم: إذا كان ديوان «أسرار النفس» هو أول ما نشر إقبال بالفارسية في 1915 فإن «ضرب الكلیم» هو آخر ما نشر في حياته بالأوردية عام 1937 قبل أن يتوفي بعام. إذ نشر «أرمغان حجاز» بعد وفاته بعام.

والرمز الذي يبدو في العنوان «ضرب الكلیم» هو الأهم، رمز موسى وهو يضرب بعصاه، فيتفجر الماء. مهمة الإنسان، خليفة موسى ورسالته في الحياة، تفجير الماء من الصخر، والحياة من الجماد. ويضع عنواناً جانبياً «عصا موسى» أي فعل الإنسان وقدرته على التأثير.

وبالرغم من قسمة ضرب الكلیم إلى ستة أقسام متنوعة الموضوعات ومختلفة الطول إلا أن الديوان كله مكون من مقطوعات صغيرة على عكس «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود» التي هي منظومة شعرية واحدة⁽¹⁾.

(1) الأقسام الست هي: 1 - الإسلام والمسلمون (40ص) 2 - التعليم والتربية (18 صفحة) 3 - المرأة (6 صفحة) 4 - الأدب والفنون (28 صفحة) 5 - سياسات المشرق والمغرب (16 ص) 6 - أفكار محراب جل الأفغاني (12 ص).

ومن حيث عدد المقطوعات الشعرية 1 - الإسلام والمسلمون (68) 2 - التعليم والتربية (28) 3 - المرأة (9) 4 - الأدب والفنون (43) 5 - سياسات المشرق والمغرب (33) 6 - أفكار محراب جل الأفغاني (1).

والمقطوعة من بيت إلى عشرة تقريباً، كلها حوالي 202 بيتاً تقريباً باستثناء القسم السادس =

وبالرغم من أن المترجم قد أدى دوراً جليلاً بتحقيق أمنية إقبال وهو ترجمة بعض دواوينه إلى اللغة العربية، وقيام المترجم بذلك خير قيام، وإعطائه نموذجاً لما تكون عليه رسالة السفير في البلد الذي يمثل فيه الوطن، معرفة لغته وثقافته إلا أنه خاضع لسلوك العصر، والثناء على الحكام والدعاء للسلطين⁽¹⁾. والعيب لدى الشاعر نفسه الذي نظم رباعية في «أرمغان حجاز» بعنوان «الفاروق» بمناسبة اعتلاء ملك مصر العرش. وشتان بين الفاروق عمر، والفاروق الذي أزاحته الثورة المصرية عن العرش في 26 يوليو 1952 وتحويل البلاد من ملكية إلى جمهورية. فهو رياح العرب وموج النيل، الكرامة والسيادة، الإمامة والشهامة، الجمع بين الملك والدين مثل خليفة المسلمين، تتطلع الأشواق إليه وتنجذب نحو نوره⁽²⁾.

وبالرغم من الموضوعات الفلسفية في «ضرب الكلیم» إلا أنه تم التعبير عنها بالشعر. فلا توجد حقيقة إلا ويمكن التعبير عنها شعرياً. الحقيقة الإنسانية تجربة معاشة، حقيقة وجدانية يمكن التعبير عنها بالخيال. بل إن ما تبدو على أنها حقائق مجردة، تمت صياغتها شعرياً بعد تحويلها إلى تجارب ذاتية⁽³⁾.

وتتكرر الموضوعات. فالشكوى والجواب، والأنين والحنين، والسقوط والنهوض موضوع واحد. الشكوى هي الأنين. وكلاهما أسباب السقوط. والجواب هو الحنين. وكلاهما عوامل النهوض. وهو يدل على خضوع إقبال لبنية فكرية واحدة، السلب والإيجاب. ويصل الأمر إلى حد تكرار نفس الأفكار، ولكن في مناسبات مختلفة.

ب - «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود»: «جاويد» لفظ متشابه. إذ يعني الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ابن الشاعر وهو أيضاً «زروان» روح الزمان والمكان الذي يمضي الشاعر في سفرته إلى العالم العلوي. موضوعها أحوال

= والمقدمة، ضرب الكلیم، مدخل ص ح. ترجم الديوان وطبع لأول مرة في باكستان عام 1951 في الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر.

(1) إهداء ضرب الكلیم إلى جلالة الفاروق وهي ترجمة الرباعية في مدح الملك التي كتبها الشاعر نفسه بمناسبة اعتلاء الملك عرش مصر، السابق، ص أ.

(2) من انعقيدة إلى الثورة، من الدعاء إلى السلطين إلى مدح الشعوب، ط المقدمات النظرية، ص.

(3) ضرب الكلیم، مدخل ص و.

المسلمين من خلال رحلة في الكواكب مؤتماً بجلال الدين الرومي في «المنثوي». الرسالة أشبه بالإسراء والمعراج يطوف فيها الشاعر بقيادة جلال الدين الرومي مثل البراق بين سبعة أفلاك⁽¹⁾. وفي كل فلك يحيا شخصية أو يتطرق إلى موضوع، بعد مناجاة أولى، وتمهيد سماوي، وتمهيد آخر أرضي وأغنية الملائكة وغزل وزمزمة النجوم، ثم روح الزمان والمكان، تستخدم بمثابة التمهيد المسرحي لرحلة الروح. يحاور الشاعر في الفلك الأول: فلك القمر «جهان دوست»، وفي الثاني فلك عطارد الأفغاني وسعيد حليم، وفي الثالث فلك الزهرة الآلهة القديمة، وفي الرابع فلك المريخ القضاء والقدر، وفي الخامس فلك المشتري الحلاج، وفي السادس فلك زحل الخونة، وفي السابع ما وراء الأفلاك نيتشه، وهو ما دعا البعض إلى الحكم بأثر نيتشه على الشاعر. وكما بدأت الرحلة بمناجاة تنتهي إلى المستقبل مثل ابن عربي في «فصوص الحكم» في الفص الأخير، فصل «ابن سنان». أكبرها فلك عطارد، وأصغرها فلك زحل⁽²⁾. وهو الديوان الوحيد الذي يقوم على بنية مسبقة مثل المذاهب الفلسفية، وليس تجميع موضوعات متفرقة، وقصائد متباينة تحت عنوان واحد. لذلك أخذت طابعاً نظرياً خالصاً أقرب إلى التجريد منه إلى تحليلات الواقع المباشر وحال الأمة.

ليست القضية إذا كانت «رسالة الخلود» تقتفي أثر «الكوميديا الإلهية» لدانتي أو «منثوي» جلال الدين الرومي، فالإبداع الشعري مستقل عن مصادره، ونماذجه، والأثر والتأثير.

في فلك القمر يقدم الرومي الشاعر إلى جهاز دست «سحب الدنيا»، الحكيم الهندي، صديق للناس كافة، من أجل بيان أن طريق التقدم هو الجمع بين الحضارتين الشرقية والغربية، بين الروح والمادة، وأن الشرق الخامل بالفعل في طريقه إلى اليقظة. ثم يطلع الشاعر كتب بوذا وزرادشت والمسيح ومحمد. ويشرح

(1) رسالة الخلود «جاويد نام» نقله إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. وهي التي اعتمدنا عليها انساقاً مع الدواوين الشعرية التسعة الأخرى. ولها ترجمة نثرية أخرى قام بها الصديق الفاضل د. محمد سعد جمال الدين. جاويد نام، ص 152 - 154

(2) ترتيب الأفلاك من حيث الكم (عدد الصفحات) 1 - ما وراء الأفلاك (42) 2 - عطارد (32) 3 - القمر (26) 4 - المشتري (22) 5 - الزهرة (12) 6 - المريخ (12) 7 - الجيل الجديد (10) 8 - زحل (6).

تعاليم كل دين على لسان شخصيات أرمغان، البوذية على لسان راقصة، وزرادشت على لسان أهرمن، والمسيح على لسان تولستوي، ومحمد على لسان أبي جهل. ويلاحظ أحياناً الحديث بالضد في حالة البوذية والإسلام.

وفي فلك عطارذ يقابل جمال الدين الأفغاني وسعيد حليم باشا. ويصف على لسان الأفغاني أخطاء أمم الشرق خاصة الأتراك والفرس والعرب، ووقعهم في التغريب. والتعبير عن رأي الشاعر في المزج بين الثقافتين الغربية والشرقية على لسان سعيد حليم أحد المصلحين الأتراك وليس الخلافة أو العلمانية وهو طريق «زنده رود» أي «النهر الحي»، بالرغم من أن المصلح التركي يرى أيضاً أن الدين قد أصابه الفساد بسبب تعصب رجال الدين «الملا»، وخلق المشاكل بدلاً من حلها.

وفي فلك زحل يزور إقبال موطن الآلهة القديمة حيث يقيم فرعون وكثشير. ويعتذر فرعون عما فعل لموسى مع مقارنة الشاعر بين الأوثوقراطية والاستعمار في الشرق.

وفي فلك المريخ يناقش إقبال مع فلكي مشكلة القضاء والقدر، وإمكانية الإنسان أن يغير قدره، والسيطرة التامة على قوى المجتمع والطبيعة ضد القدرية الجهمية، والكسب الشعري، والثقافة الشعبية القدرية.

وفي فلك المشتري يتقابل مع الشاعر غالب والحلاج لمناقشة الحياة والموت وظهور الشيطان.

وفي فلك زحل يقابل الخونة الكبار الذين عملوا ضد أوطانهم وهم يكافحون عاصفة قوية من الدماء.

وفيما وراء الأفلاك يقابل الشاعر نيتشه الذي ظل يبحث عن الإله ولم يجده لاعتماده على العقل الذي لا ينتهي إلى شيء. ثم يقابل ثلاثة شعراء من كشمير ليعرض بيع بريطانيا لها. ويقابل شعراء آخرين من الهند. ويعدّها بسمع صوت الإله ليكشف له أن سر التقدم هو نمو الأفراد والمجتمعات.

وفي النداء إلى الجيل الجديد يخاطب الشاعر الشباب الذي يرمز لهم ابنه

جاويد. وينصحهم بالابتعاد عن صحبة الأشرار، وبتنمية نداهمم بالجهد والكفاح، والسعي في الأرض⁽¹⁾.

يتناول إقبال في «أرمغان حجاز» الذي نشر بعد موته في 1938 نفس موضوعات الدواوين السابقة في خمسة أقسام: مناجاة، الرسالة، المجتمع، قصائد رباعيات. أطولها الثالث عن المجتمع. وواضح أن الثاني «الرسالة»، والثالث المجتمع أسماء موضوعات في حين أن الأول «مناجاة»، والرابع «قصائد» والخامس «رباعيات» أشكال أدبية. يجمع بين التصوف والفلسفة والسياسة خاصة في قصيدة «برلمان إبليس» لمناقشة المذاهب السياسية في عصره. والإسلام هو المنافس الوحيد لها. ويبدو في هذا الديوان بوضوح نقد التصوف كسلوك وطريق. ويعمق فلسفة الذاتية. ويعرض لموضوع الخلافة والملك ونقد الأتراك لوقوفهم في تقليد الغرب. ويصف أحوال العصر الحاضر. ويبين طرق الخروج من أزمتته⁽²⁾.

وفي «برلمان إبليس» جلسة برلمانية ناقش فيها شياطين العالم، ووكلاء نظام إبليس. واستعرض المذاهب السياسية التي تهدد مهمتهم في العالم. وانتهى إلى أن المسلم هو المنافس الوحيد والمناضل ضدها. هو الشرارة التي تتحول بسرعة إلى نار. فكيف يُحارب هذا العدو؟ تأمر أنصار الباطل ضده لإضعاف الروح الديني لكن اليقظة الإسلامية حتمته. وأصبح المسلم هو باز العالم الجديد⁽³⁾.

2 - موقف الذات

العصر عصر الأمة الإسلامية، وحاضرها ووضعها الحالي. أما العصر الحديث فهو أقرب إلى الغرب، عصر الآخر وليس عصر الأنا. فالعصر عصرا. والزمن زمانان، والوعي التاريخي خاص بكل شعب. قد يتزامن الوعي التاريخي للشعوب دون أن يتعاصر.

ليست النجوم في السماء هي المسؤولة عن هدم أمجاد الأمة بل المسؤول

(1) رسالة الخلود، ص 135 - 138.

(2) أرمغان حجاز، نقل القسم الأول والثاني والثالث من الفارسية إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. ونقل القسمين الرابع والخامس نثراً سمير عبد الحميد إبراهيم، ص 411 - 416.

(3) السابق، ص 503 - 509.

موت الذات وشقاؤها بين العزلة في القمقم، وتقييدها بالأصفاد⁽¹⁾.

العصر أمانة للذات في الشرق وفي الغرب على حد سواء. ماتت الذات عند العرب فأصبحوا خامدين، وعند العجم فتحولوا إلى مجرد عروق وعظام، وفي الهند جناح مكسور، طائره في قفص محتبس في قفص، وهو حرام. موت الذات عريها من ثياب البيت الحرام⁽²⁾.

أصبح الفكر مجرد سقطات ومماحكات فيما لا ينفع مثل صنة الروح والجسم، وبلغت الفلاسفة بين النفس والبدن. يبحث عن جوهر النفس وجوهر البدن، ومشاكل الناس وأزماتهم وحياتهم اليومية في جانب آخر⁽³⁾. حطم الحكماء كل شيء، يريدون الملائكة دون أن يظفروا بآدم في الحياة. فالحقائق عند البشر وليست في المجردات، في الحياة وليست في المجسمات⁽⁴⁾.

أصبح المسلم قوقعة فارغة. وهو القادر على أن يجعل من الحصى تيجاناً للملوك⁽⁵⁾. والسؤال هو ذوبان الذات في العالم، وانشغال القلب بحاجات البدن.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | ليس النجوم يرغم لعبنها
بل موت ذاتك بعدما شقيت
جناح جبريل، ص 443. | مسؤولة عن هدم أمجادك
ما بين قمقمها وأصفادك |
| (2) | من ممات الذات في الغرب ظلام
من ممات الذات في الغرب خمود
من ممات الذات في الهند جناح
من ممات الذات يُعري مسلماً
ضرب الكلیم، ص 56. | ويموت الذات في الشرق جذام
ولدى العجم عروق وعظام
هيفض في الأفصاص والعش حرام
من ثياب سادن البيت الحرام |
| (3) | تحير الناس في ذا اللغز من قدم
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثمل
ومشكل لك أن الخمر من قدح
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الروح في بدن؟
السابق، ص 37. | ما جوهر الروح أو ما جوهر البدن
وثورة وسرور النفس والحزن
أو أن من خمرة كأساً، لذي زكن
حمر بدا في رماد منه للفظن |
| (4) | أرى الحكماء تحطم كل شكل
يريدون الملائك في طلاب
رسالة الشرق، ص 270. | ومن هذا الوجود بسومنا
وما ظفروا بآدم في الحياة |
| (5) | إن أكن قوقعة فارغة
أنت من يجعل من هذا الحصى
جناح جبريل، ص 409. | فمن المسؤول عن هذا السلوك؟
جوهرها يلهب تيجان الملوك |

ذهبت الجوقة. وانكسرت الكؤوس. وأطبق الصمت في الوديان. وتسولت في الحانات. واكتفتها اللامبالاة في غياب ماء الخضر لملأ الكؤوس⁽¹⁾. وإذا حضر الشراب فالكأس صغيرة، وفرغت الدنان. والذات طامحة. والقلب جامع. فاللؤلؤة مازالت في البحر تضيء⁽²⁾.

أجذبت حانات إيران⁽³⁾. وأغلقت الحانات أبوابها في الهند، ثلاثة قرون بعد سقوط سرهند. اختفى الندمان والشراب. وانزوى الغزل. وتاجر اللاهوت حرم الشرب. فأصبحت القلوب سوداء في الغاب. وضاعت الحقيقة من قلوب الصوفية والملا. ولم تبق لديهم إلا القراب الفارغة. كلام القلب هو الخمر، وإلا كان موتاً⁽⁴⁾.

(1) ساقني ما حصل الذي أبغيه
القلب منشغل بما عاطيته
ذهبت بجوقته كؤوسك كلها
ما مثله متسول في حانة
لو جاء ماء الخضر كسر كأسه
السابق، ص 413 - 414.

(2) ساقني والكأس الصغيرة لم تعد
فرغت دنان النجوم في أديارهم
بصري على طمع وقلبي جامع
غادرت لؤلؤتي التي أغرقتها
السابق، ص 414.

(3) وحانات إيران قد أجذبت
السابق، ص 416.

(4) لماذا أغلقت أبوابها
مضت هنذا ثلاث قرون بعد سقوط سرهند
في حان هدمناها
ولم تنحمل الندمان
ذوت غزليتي لا شيء
عنينا بائع اللاهوت
قلوب أسودنا في الغاب قد هجرت تحفاتها
مع الصوفي والملا عبيد أيها الساقبي
من انتزع الحقيقة من مهند حبسنا هذا
وما أبقى لها إلا قرابا أيها الساقبي
كلام القلب حين يكون حيا خمرنا الباقي
وإلا كان للارواح موتنا أيها الساقبي
السابق، ص 412 - 413.

والحانات رمز المعرفة. هناك كؤوس لا مذاق لشرايها. وهناك شراب ليس له كؤوس. وثأر بين إيران وتركيا أو سرور قيصر والغرب⁽¹⁾. الأوضاع بائسة، حائرة، سعيدة بالأوضاع القائمة. ومع ذلك تغييرها أسعد⁽²⁾. هذا الزمان صعب مظلم، والإنسان بعيد عن القافلة. لذلك يقدم إقبال لهيب زفرته مصباحاً يبدد ظلمات الليل⁽³⁾.

حرم إنسان هذا العصر العشق لصالح العقل الذي يريد أن يثأر منه. أصبح العقل شارداً. غابت عنه البصيرة للهدى. لم يعد إلى ذاته لاكتشافه. وآثر النظر إلى الخارج، عالم الأفلاك. انتهت حكمته إلى شرك. فغاب عنه مقياس المنفعة والضرر. لم يعد يقبض على شعاع الشمس فأظلمت ليلاه⁽⁴⁾. انتبه هذا العصر لعالم الطبيعة. ونسي عالم الإنسان، في حين أن علم الذات هو القادر على إنارة الطريق لعلوم الطبيعة. الذات في جدل مع الطبيعة، ويحتاج هذا الجدل لمعايير للسلوك⁽⁵⁾.

أصبحت مدينة الإسلام اليوم خاوية باردة بلا عشق أو جنون. نقص منها

- | | |
|---|---|
| (1) كم ذا ذهب مشرقاً ومغرباً
فهنا كؤوس لا مذاق لخميرها
طوران من إيران تأخذ ثأرها | (1) كم ذا ذهب مشرقاً ومغرباً
فهنا كؤوس لا مذاق لخميرها
طوران من إيران تأخذ ثأرها |
| السابق، ص 422. | |
| (2) قافلة القوم بوضع يوسف
ورغم هذا غبطة السياحة | (2) قافلة القوم بوضع يوسف
ورغم هذا غبطة السياحة |
| السابق، ص 454. | |
| (3) هذا الزمان ليله شديد
لهيب زفرتي هو المصباح لك | (3) هذا الزمان ليله شديد
لهيب زفرتي هو المصباح لك |
| السابق، ص 455. | |
| (4) حُرم العشق وللعقل به
تبع العقل شروداً سادراً
لم يسافر في دُنَى أفكاره
هو من حكمته في شرك
من شعاع الشمس في قبضته | (4) حُرم العشق وللعقل به
تبع العقل شروداً سادراً
لم يسافر في دُنَى أفكاره
هو من حكمته في شرك
من شعاع الشمس في قبضته |
| ضرب الكلم، ص 48. | |
| (5) نظر المنجم في حباك نجومه
من يدر أن الذات أرفع منزلاً
وجميل أنظار يرى وقبحها | (5) نظر المنجم في حباك نجومه
من يدر أن الذات أرفع منزلاً
وجميل أنظار يرى وقبحها |
| السابق، ص 49. | |

الحماس والفعل والإقدام. وعمتها اللامبالاة والفتور كما لاحظ الكواكبي في «أم القرى». وهي خالية حتى من كمال العقل خلوها من عشق الجنون. لا يحركها شيء من عظمة الماضي أو أزمة الحاضر. لديها من الحقائق والدوافع، وتحمل من الطموح والآمال ما يحركها بعيداً عن طلسمات أفلاطون. تحمل رسالة جبريل الأمين، وأمانة مكارم الأخلاق، والحمية العربية، والشجون والأحزان⁽¹⁾.

من أسباب السقوط ذبول الحب في أنفس العاشقين، وتحوله إلى وسوسة، والاعتماد على المدرسة والتعليم والتلقين والحفظ والطاعة للمشايخ. بلغ تعظيم المعلمين درجة أنهم أصبحوا أصناماً جددًا. تذرو الرياح معابدهم وزواياهم. والعالم لا يعيش في عش أو قفص⁽²⁾. لم يعد للمسلمين من جنون الحب نصيب. كان دمهم مناراً للشعوب. ثم أراقوه في الظلام. خارت قوى الضلوع. ولم يعد بها لهب يصول. وسجداته رتيبة في خمول، في صفوف معوجة وذهول⁽³⁾.

وتصدر النظرة من القلب، على عكس النظرة اليوم الخالية من أي جذبة.

- (1) حياة المسلم اعرف في بياني
سنا كالصبح مغربه طلوع
ولا كالعصر، خلوا من حياء
حياة بالحقائق في قرار
عنصرها يؤلفها جمال
وحسن الخلق من عجم لديها
السابق، ص 32 - 33.

- (2) ذوى الحب في أنفس العاشقين
وصرنا إلى زمن ماله
يقولون استنادنا آزر
هم وثنيون لا يعرفون من فن آزر إلا اسمه
نعم هم إلى الآن لم يعرفوا
تطوح معبدهم في الرياح
تعجبت من عالم هكذا
جناح جبريل، ص 415 - 416.

- (3) أترى ما للمسلمين نصيب
دمهم كان للشعوب منارا
ذاك أن الضلوع خارت قواها
سجدات رتيبة في خمول
من جنون الحب الذي أطلقوه
ثم هم في ظلامهم أهرقوه
لم يعد بينها لهيب يصول
وصفوف معوجة وذهول
السابق، ص 467.

نظرة فارغة خالية من أي سحر⁽¹⁾. أضاع المسلم القلب⁽²⁾. وضاعت منه حرارة الإيمان، وسراج ليل الفكر⁽³⁾. لم يعد الفكر حتى بالفضيلة يرضي القلب. ولم يعد القلب يؤمن بالتجارب ولا بالفكر. حدث نفور بين الخطابين: خطاب العقل، وخطاب القلب⁽⁴⁾.

ليست الشكوى من الأصدقاء، ولا من جور الزمان، ولا من نقص الثياب. إنما الشكوى من غياب ذوق الغناء، والحزن الذي يشبط العزائم، والخوف الذي يقعد عن الجهاد. الشكوى من عقد الفكر وعدم إطلاق سراحه، والخلاص من شياطينه، وغياب الحب وجنونه⁽⁵⁾. وبسبب بلاهة المسلم باعتة الملوك في الأسواق. ولم يتعود من قبل على هذا التشرذ والتسكع في الطرقات. والشاهين بطير. لا يتخذ عشاً. ولا يأكل جيفة⁽⁶⁾.

واللامبالاة أحد أسباب السقوط. لم يعد المسلم يبالي بشيء. أصابه الفتور وعدم الحماس كما عبر عن ذلك الكواكبي في «أم القرى» لمعرفة أسباب الفتور

(1) وحدها النظرة ما أطلبه
ونظرة خالية من جذبة
وشؤون القلب عنها تصدر
نظرة فارغة لا تسحر
السابق، ص 444.

(2) يا أسم الشرق، ص 400.

(3) فحرارة الإيمان في القنـب المشوق إلى النضال
وسراج ليل الفكر، لا معبود إلا ذو الجلال
السابق، ص 401.

(4) الفكر حتى بالفضيلة لم يعد
والقلب حتى بالتجارب كافر
يرضى بقول القلب في تفسيرها
ويرد قول الفكر في تقريرها
فيألى متى هذا النفور يفودنا
وإلى متى تجتاحني أنفاسي؟
جناح جريل، ص 418.

(5) بفضلك لا أشتكي الأصدقاء
وثوب الحياة التي خضتها
فهبني بسرك ذوق الفناء
فلا الحزن ثبط من عزمهم
نعم، عقد الفكر أطلقها
متى الحب تمنحني سره
ولا أشتكي جور هذا الزمان
بفضلك أخلعه في أمن
كما فني السابقون الأول
ولا الخوف أعدهم في الدول
وخلصتني من شياطينه
وتجعلني من مجانينه
السابق، ص 416.

(6) أحرقث رغبتي بلاهة سوق
فأنتني ملوكه تشتريها =

في العالم الإسلامي. العينان تلمعان ولكن لا يشيران إلى الاهتمام بشئ مثل عيني الأبله الفاجر فاه، الجاحظ عيناه⁽¹⁾. عدم الاكتراث هو البلاء. مع أن المسلم في الماضي كان يخوض المعارك. يقضي عمره كله في الجهاد في ساحة الوغى وفي العلم، بحرارة الرومي وباكتئاب الرازي. نما العقاب بين النصور الكاسرة. وكان للصقر الملكي سر واحد هو الحب⁽²⁾.

3 - القدرية والمهدية

رداً على اشبنجلر أن سبب ضعف المسلمين إيمانهم بالقضاء والقدر وبالمهدي، نظم إقبال عدة مقطوعات بأن هاتين العقيدتين غريبتان على الإسلام، بالرغم من استعمال إقبال عقيدة المهدي في بعض أشعاره لنفخ الحياة في موتى الأحياء. فالإنسان سنبلي في كلتا الحالتين، في الأزمة والخلاص، في البداية والنهاية. إرادة غير إرادته تورطه، وإرادة غير إرادته تنقذه من ورطته كما هو الحال العقائد المسيحية، وحصار الإنسان بين الخطيئة والخلاص، بين آدم والمسيح⁽³⁾.

ودرءاً للشبهة العامة بأن الإسلام مركز حول الله وليس حول الإنسان، ينظم

يعبوديتي النبي أنا فيها
أو تسكعت في طريق كهذا
بين غاب يرودها وجبال
ناعم باله شديد المحال

ولو اهتممت جعلت منه يقينا
دلت على عدم اكتراثك فينا

لم أستفد شيئا بكل غنائي
في ساحها أنفقت كل حياتي
نشبت على لغز من الألغاز
حينما وحين باكتئاب الرازي
وترعرعت بين النصور الكاسرة
لم تدره تلك العقاب الحائرة
لغمة، ولا تحتاج للالفاظ

على قدر التخيل في الحياة
غزال المسك من هذي الفلاة

لست أبتاع سكرة الملك غينا
ما ترددت أو تشردت يوما
لا يمل الشاهين ما يرتجيه
ويرى في انخاذه العرش عارا

السابق، ص 414 - 415.

(1) لم لست مهتما بهذا كله؟
عيناك لامعتان إلا أنها

السابق، ص 416.

(2) عدم اكتراثك لم يزل وشفائي
ما خضت إلا وقعة نشبت به
ما خضت طول العمر إلا وقعة
بحرارة الرومي كنت أخوضها
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت
فلسقرونا الملكي سر واحد
للحب أغنية وما لغنائها

السابق، ص 417.

(3) أرى الأقوام تمضي في حياة
فإن تنفر من المهدي ينفر

إقبال قطعة حول «الإنسان». فهو سر الوجود والعدم. سمي الإنسان منذ القدم. هو سر لا يمكن وصفه في كلمات معدودة. إذا ضعف الزمن فإن الإنسان لا يضعف. ويظل يحمل مشعل التقدم. هذا الإنسان هو الإنسان، لا روحاً ولا بدنًا⁽¹⁾.

أصبح التوحيد اليوم نكتة أي المفارقة بين ما يجب أن يكون وما هو كائن. تحول إلى وثن في الرأس، وصنم للعبادة، وشيء يُستهل إليه. لم يبينه الفقه. أصبح دافعاً على حروب الزور والعدوان. وبدلاً من أن يكون ثورة للتحرر أصبح عبودية ورقا. وبدلاً من أن يميل المسلم إلى فقير أي إلى حر صاحب وعي مستقل جعله ذليلاً مذعناً⁽²⁾.

ومن مآسي المسلمين كثرة إدعاء النبوة كما فعل محمد علي الباب وهو يلحن في القرآن فجعل من آياته اللحن! والمتنبي الجديد يرى إسقاط فريضة الجهاد، والدعوة إلى المسالمة. وهو ما تريده بريطانيا وبعض أدعياء التصوف⁽³⁾.

= إذا ما الحي من جهل نردى أُسلم ذا الجهول إلى الردى أم ضرب الكلیم، ص 40.	بأكفان وأغرق في سبات تمزق عنه أبواب الممات؟
(1) ذا طُنُسُ الكون والعدم هو سر الله جل فلا إن هذا السدهر من أزل ومضى الإنسان سيرته واليك السر أعلنه ما بدا روحاً ولا بدنًا السابق، ص 39.	سُمي الإنسان من قديم يحترقه الوصف في كليم من سفار باء بالسقم لم يُصب بالضعف والهم إن تسعه غير متهم ذلك الإنسان للفهم
(2) إن سر التوحيد طوع بياني رمز شوق بلا إله خفي كم سرور في حرب حتى وزور كم تُجلي الآفاق نظرة حر أي ملك مقام فقر! ولكن السابق، ص 36.	ثبّت في الرأس موثناً، ما احتيالي؟ ليس في الفقه بنا، ما احتيالي؟ لست في الحرب مطعناً، ما احتيالي؟ حجب الرق أعيناً، ما احتيالي؟ تؤثر الدلّ مذعنًا، ما احتيالي؟
(3) لست المحدث والفقيه لا عالم عندي بالنبوة لكن إلى الإسلام في الأيام	ولا الولي ولا المجدد كيف نوصف أو نحدد لي نظهر مسدد

وفي بعض كتاباته النظرية، يدافع إقبال باعتباره ليبرالياً عن الأحمدية والبهائية دفاعاً عن حرية الفكر والتأويل.

ومن أسباب السقوط تعدد المذاهب الفقهية الحديثة عند مسلمي البنجاب وكثرة النحل والبدع. فلكل مجدد مذهب. وكل عالم له تأويل. فارتبك الجميع. وقسمت الأمة إلى مذاهب وطوائف في جو عام من التعصب الديني⁽¹⁾.

لقد حطم الإسلام الوثنية، والكهانة والسدنة والتيجان والعروش. ثم فقدت الأمة قوتها. تفرقت وتم احتلالها⁽²⁾. لقد هدم الإسلام اللات والعزى، وحرر الحرم. وبنى فوقها أمة علت القمم. لم تبين ربا من رخام أو حجر. ولم تسجد لنجم أو لنبات أو بقر. لم تعبد الكهان أو السلطان⁽³⁾.

وبالرغم من استمرار الرسالة في التاريخ إلا أن أنصار أبي لهب هم الذين يسيطرون على العالم الإسلامي. والشباب استنارت عقولهم وأظلمت قلوبهم. ينعمون بمباهج الدنيا ولا يحملون أملاً جديداً ونظراً بعيداً. نشأوا على العبودية جيلاً وراء جيل بحيث ضاعت الحرية كأمل منشود⁽⁴⁾. الدين له من الزمن البعيد

= أوحى إليّ يسره الفلك
فرأيت في ظلمات هذا العصر
عندي حشيش المسلمين
ما إن لديها دعوة
المحيط فلا أفئد
العصر ذا الحق المؤيد
نبوة فيهم تجدد
للنبأ والمجد المخلد
السابق، ص 38.

(1) مجدد في كل حين مذهباً
في حلبة التحقيق يكس وإذا
حبالة التأويل إن تنصب له
يحل في مرحلة ليركبا
خامره داع غوي غلبا
هوى من الغش إليها معجبا
السابق، ص 42.

(2) يا أمم الشرق، ص 398.

(3) يا من هدمت اللات والعزى وحررت الحرم
وبنيت أعلى أمة تهدي بسيرتها الأمم
لم نتخذ في الكون ربا من رخام أو حجر
كلا ولم نسجد لنجم أو نبات أو بقصر
لم نلق جيهتنا لدى الكهان في ذك حقير
لم نحن هامننا لسلطان قوي أو أمير
السابق، ص 401 - 402.

(4) طوفت في أرض الأعاجم ثم في أرض العرب =

أضحى غريباً عن ذاته. استبدل بكرامته طعام الذل. يلتقط حباً كالطير في الأرض، وليس كالصقر في عنان السماء. ومن لا يتغني من هذه الدنيا متاعاً، إن لم ينل قرب الحبيب، تكون دنياه ضياعاً⁽¹⁾.

الأمة متفرقة متشرذمة فإلي أين يذهب المسلم؟ ولا يوجد في بحر العرب ثورة، ولا في الصدر موج، فأين يذهب؟ لا يوجد للحادي ركب أو زاد وهو يقطع الفيافي، فأين يذهب؟⁽²⁾.

ومن مآسي العصر الحاضر الصراع بين المسلمين والهندوس. قتل مسلم هندوسياً أساء إلى الرسول في لاهور. وقتل هندوسي مسلماً أتي يشاوره في أمر في كراچي. وآراء المسلمين تأدية دية القتيلين تجنباً لقتل القاتلين. إلا أن إقبال لم يشأ التسوية بين مسلم وكافر في الدية. فالمسلم شهيد، والهندوسي كافر. والتوحيد لا يقبل الشرك. ولا يساوم معه!⁽³⁾.

لم ألق فيها المصطفى ولكم رأيت أب لهيب
عجبي لهذا المسلم المزهو بالعصر المنير
لا همة تحذو خطاه ولا سراج في الضمير
وأرى شسايًا واهن العزمات في لين الحرير
ولدت أمانيه فكان المهيد مصرعها الأخير
ذاك السغلام بين الغلام بين الغلام
في شرعه تحرير أمته محال أو حرام
الدين ليس له بدنياه زمان أو مكان
كل البذي أدريه عنه أنه بالأمس كان
عن ذاته أضحى غريباً مستهاماً بالدخيل
بذل الكرامة عنده ثمنا لمطعمه الذليل
كالطير غابته التقاط الحب في ظل القصور
هو طائر لكنه لم يدر تحليق النسور

السابق، ص 403.

(1) إن الذي لا يتغني من هذه الدنيا متاعاً
إن لم ينل قرب الحبيب تكون دنياه ضياعاً

السابق، ص 407.

(2) أرى العملة البيضاء بُدّ نظمها
فلملك انظر حاله، أين يذهب؟

وليس ببحر العرب لذة ثورة
وفي الصدر موج غاله، أين يذهب؟

ولا ركب ولا زاد عنده
وقطع الفيافي هاله، أين يذهب؟

فبين لنا الأسرار، روح محمد!
حفيظ لأي، ياله، أين يذهب؟

(3) قد تولي الله عبداً
مسلم ما أمرا

يعبر إقبال عن وضع المسلمين في الهند. إذ يقول البرهمن عن المسلم أنه خائن لوطنه، وإن كان مخلصاً لدينه. فالإسلام دين ووطن. ويصفه الإنكليز بأنه سائل شحاذ. وتعتبره البنجاب كافراً لا يؤمن بالدين الهندي وتمسكاً بإسلام الأسلاف. وبصرف النظر عن الصواب والخطأ في مثل هذه الأحكام إلا أنها مجهدة للذهن، مضيعة للوقت، جالبة للحروب⁽¹⁾.

نسي العرب الذين حملوا الرسالة وبلغوا الأمانة أداء الواجب والاستمرار فيه. فكيف يخاطب الهندوسي أمراء العرب وهو يعلم أنهم تخلوا عن واجباتهم، وغابوا عن الساحة بعد أن كانوا من أوائل الأمم التي تهب في نجدة الغير؟⁽²⁾.

4 - القهر الداخلي والاستعمار الخارجي

لقد مانت الأمة أربع مرات بسبب المرابي، والوالي، وشيخ الطريق، والشيخ. وهي السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية والسلطة الدينية بنوعها الفقهي والصوفي⁽³⁾. لقد بيع العلماء في سوق التجارة الرائجة بأرخص الأسعار.

- | | |
|---|---|
| <p>لَمَ الرُّوحَ سَافِراً
لَخَنُودَ أَثَرِ
وَأَغْلَى جَوْهَرِ
نَسِيبِ مَا دَرَى
إِلَهَهَا آخِراً</p> | <p>= هو بالتموت إلى عا
كيف تفقدون شهيدا
دمه من حرم أعلى
أه للمسلم غفلان
سر ولا تدع مع الله
ضرب الكلیم، ص 37 - 38.</p> |
| <p>والإنكليز تقول: هذا مجتدي
مستمسك بقديمه لا يهندي
ويل لقلبي في الصراع السجهد</p> | <p>(1) قال البرهمن: خائن أوطانه
ونبوة البنجاب قالت: كافر
أيان صوت الحق يعلو هاهنا؟
السابق، ص 16.</p> |
| <p>مخاطبا أمراء العرب في آدب
بحكمة فأعانتها على الثوب
وهجر كل غوي من أبي لهب
من أحمد العرب كانت أمة العرب</p> | <p>(2) هل يسعد الكفر الهندي منطقة
من أمة قبل كل الناس قد أخذت
إخاء مصطفىوي دون تفرقة
ما من حدود وأرض كان منشوها
السابق، ص 43.</p> |
| <p>اذكرون منها المرابي الأجشعا
منه في ذيلك طين أقتم؟</p> | <p>(3) نحن في الدنيا نموت أربعا
أبليسك بك هذا العالم
جاويد نامه، ص 317.</p> |

وتدخل المرابون. وتقامروا على الأديان⁽¹⁾.

لم يخرج مصلحو الشرق للناس شيئاً. بل ربما قدموا لهم ما قدم لهم السامري الذي أضل بني إسرائيل. وجعلهم يعبدون عجلاً من ذهب له خوار جمعاً بين السحر والضلال. قدموا للندماء الأقداح وأفتوا بما يرضي السلطان. قدموا سحاباً ما برق، قديماً لا جديداً⁽²⁾.

الإنسان مسافر في هذه الدنيا. قد تغره فيصبح في خسران مبین. ومن مظاهر الخسران النفاق لا الزهد ولا الملكية، على عكس الصادق الملك المبجل رغم محنته. لا تستطيع يد المنافق أن تحمل سيفاً. والصادق يصد كل السيوف الموجهة إليه. ليس المنافق حر الإرادة، بل هو عبد المصلحة. ولا هو قادر على استقبال الأقدار متحججاً بالعلم والنظر. والمسلم المغوار قادر على مواجهة الجهلاء بالدين. يحمل أقدار أمته وهو في مظهر المسكين⁽³⁾.

ومن أسباب السقوط استسلام الناس للإنجليز. يعتقدون أن لهم مطلق السلطان. لم يمنحوا العلماء أية سلطة، بل جردوهم من كل سلطة، في حين أنهم يعطون أبناء الحمير المتعاونين معهم الرياض. ملأوا الكنائس بكل ملذات الدنيا من

- | | |
|---|---|
| <p>(1) رباه هذا السوق ينبض روعة بالرغم من هذا فأرخص سلعة ملك المرابون البلاد جميعها ينسئ فلا أرجي في أناس شفاة في ربوع الشرق طافوا سحاب ما هوى برقاً قديماً أو لا تزال مسافراً تسري والعصر إن القوم في خسر يمشي المنافق في نقائمه وترى الموفق رغم محنته كف المنافق لا تساعده والمؤمن الصديق محنته ما للمنافق من إرادته يستقبل الأقدار مرتبكاً المسلم المغوار حجتنا في نفسه أقدار أمته</p> | <p>ويروج حتى في ابتياع الداء عند الشراء مواهب العلماء وتقامروا حتى على الأديان لهم فن كفن السامري على الندماء بالقندح الخلي وليس لديه من برق فتى وتغرك الدنيا بما فيها وسل الطبيعة عن فيافيها لا زاهدا حقاً ولا ملكاً ملكاً يبجل أينما سلكا في حمل سيف يبعث الفرقا قدر يشوب سيوفه ألقا حر ولا من صولة القدر متعللاً بالعلم والنظر نرمي بها الجهلاء بالدين متستر في زي مسكين</p> |
|---|---|

لحوم وشراب⁽¹⁾. جعل الله العالم فردوساً للجميع. فجعل الإنجليز بلادهم فردوساً. والمسلمون ينظرون إلى السماء وليس إلى الأرض⁽²⁾.

لم تعرف الأمة حالياً استحقاق «لا إله إلا الله». فعل النفي الأول في «لا إله» كأس الأماني لأن الأمة لم تقم بنفي آلهة العصر المزيفة: القوة، الجاه، الثروة، السلطة، المرأة... إلخ. لم تقم بفعل الاستثناء «إلا الله» بعد أن تكسرت الكؤوس بأيديها. والكأس طافحة بالنفس. تبكي ذهاب الثبات، وخرس العازف. تبكي بلا صوت، وتخون نفسها⁽³⁾.

الشباب قعود رقود نيام لعجز الأمراء وفوضى الجنود. تطيش السهام، وتخطئ أهدافها في الوجود. يقال إن الأمة بحر عميق. وهو ضحل ما أضيعه. وبعد البحث فيه موجة موجة وقوقعة قوقعة فإما هجر أصنام الآخرين أو الخروج من القمقم. وقد زُخرفت الأصنام من دماء الأمة⁽⁴⁾.

(1) والناس يعتقدون رغم شقائهم
لم تمنح العلماء حتى قشة
والإنكليز وهم عباد مثلنا
ملئت كنائسهم بكل ملذة
السابق، ص 420.

(2) فردوسك اللهم لم يره هنا
الإنكليز بلادهم فردوسهم
السابق، ص 420.

(3) من «لا إله» لنا
وكؤوس «لا إله»
الكأس طافحة
والكأس في الإثبات
العازف الموهوب
تبكي بلا صوت
السابق، ص 423.

(4) شباب قعود رقود نيام
فوالسفا كيف هذي السهام
يقولون بحر عميق عميق
بحثت به موجة موجة
أما أن تهجر أصنامهم
وغاية أصنامهم أنها
السابق، ص 436 - 437.

للإنكليز بمطلق السلطان
وجعلتهم أخلق العباد وفاضا
يعطون أبناء الحمير رياضا
فهنا اللحوم وهامنا الكاسات

أحد وأنت هو السميع المبصر
والمسلمون إلى سمانك تنظر

كأس إيماننا
كسرت بأيدينا
بالنفس في الأرواح
تبكي ذهاب الراح
بالعزف أخرسنا
وتخون أنفسنا

لعجز الأمير وفوضى الجنود
تطيش بلا هدف في الوجود
وما أضيع البحر ما أضيعه
وقلبت قوقعة قوقعة
أما أن تخرج من قمقمك؟
تزخرف هيكلها من دمك؟

لقد تعلمت الأمة الفقه وحكمة الدين، ولكنها تركت الكفاح⁽¹⁾. الشباب مؤمن، ولكنه هارب من جنة الشهداء⁽²⁾. أين خالد بن الوليد وصلاح الدين كي ينال المجد والخلود؟⁽³⁾.

5 - ما هو الحل؟

يتم النهوض في التو واللحظة مثل التوبة عند الصوفية. ومن الغد يتم استباق النجم. الإنسان شرار النور. يشارك الله في الخلود دون أن يغار منه. يجوب الآفاق بالحضور، وليس بالصبر. يفنى ليبقى في الأرض. يسكن السماء، هو بحر لا يسكن. يغوص فيه متى يشاء. هو بحر لا يستقر موجه، وليس ساحلاً ساكناً هادئاً آمناً⁽⁴⁾.

الحل يبعث على التفاؤل ورفع الأحزان عن القلب، وليس حلاً وقتياً أو وهمياً أو خادعاً⁽⁵⁾. هل الحل ظهور درويش السودان، المهدي؟ المنقذ المخلص؟. برق الماء. وتدفق الموج. ولاح روح من الفردوس. هو در في القاع. في صدره ذاب الحجر. لم يصدق اللورد كتشنر. وظن أن الموت في القبر أو في النهر نهاية

(1) يا أمم الشرق، ص 400.

(2) هو مؤمن ولكنه من جنة الشهداء هارب
ليستقر بقلبه أن ليس غير الله غالاً
السابق، ص 404.

(3) يا من خلعت على صلاح الدين خلة خالد
فحقني بعز دائم يبقني ومجد خالد
السابق، ص 407.

(4) من غدي والأمس إنني منطلق
أنت نور خالد نحن الشرار
قل لمن ما ماز موتاً من حياة
جاء آفاقاً وليس بالصبر
إنني بحر سكوني لا يلبق
وعلى الساحل دنيا تستقر
جاويد نامه، ص 142.

(5) ألا يا حبذا تلك الطريق
لها الزفرات، فافتح منك قلباً
تطول ولا يؤانسها الرفيق
لتحرق فيه حزناً لا تطيق
أرمغان حجاز، ص 419.

الحياة. إنه روح العرب يعود من جديد. يحمل تراث الأسلاف. يدعو قادتهم (فؤاد، وابن سعود، وفيصل) إلى أن يبدؤوا الدخان من حولهم، وأن يوقدوا ناراً خمدت في الصدور، والعودة إلى الأيام التي ضاعت. يدعو البطحاء إلى أن تنجب خالداً، وأن يُبعث عطر الخلود من الأسلاف من جديد، وأن يتولوا أمرهم دون أن يتركوه لغيرهم خشية من البلاء⁽¹⁾.

هل الحل هو المصحف والسيف كما طلبت «شرف النساء» الطاهرة وكما قال الإخوان المسلمون بعد ذلك في مصر؟⁽²⁾. لقد انتهى هذا الحل إلى نوع من الوهابية والحكم الإلهي والتعصب وإقصاء الرأي الآخر مما أدى إلى ظهور جماعات العنف. فالضغط من أعلى يولد الانفجار من أسفل.

الحل هو حاجة هذا الجيل إلى بعث جديد وإلي نهضة ثانية. توقظه من

(1) هو ذا في السماء برق يأتلق
ومن الفردوس ضاع نفع عطر
إن منها الدر في القاع استقر
قال «كتشنر» انظرون يا فهم
ما حباك الله من قبر يضمك
ثم ضاع في اللسان المنطق
قال هبّي أنت يا روح العرب
يا فؤاد! ابن السعود، فيصل
أوقدوا في الصدر ناراً أخدمت
وادي البطحاء أنجب خالداً
أمة الإيمان، يا سود الجلود
فإلام تجهلون سيركم
ليت شعري هل تخافون البلاء؟
جاويد نامه، ص 231 - 232.

(2) تحمل المصحف والسيف الحساما
خلوة سيف وقرآن الصلاة
قبل موتي ذاك منك مطلبني
الكتاب والحسام حسبنا
وقرونا تحت تبر للقباب
منه سيف وكتاب ما حمل
السابق، ص 286 - 287.

إنها السكرى وما ذاقتم مداها
حبذا عُمر تقضى في النفاة
مصحفي والسيف مني قرّبي
بهما يزدان حقاً قبرنا
قد تحلى بالحسام والكتاب
ولذا الإسلام فيه قد قتل

انهياره بالغرب. فقد هزمت الأمة بالتقليد، دون حرب أو سجال⁽¹⁾. وتكون يقظة الوجدان بذكر الله⁽²⁾. فقد اليقين والحياء. وأصبح ضعامه وشرابه أقصى ما يتمناه. هو مقيد باليمن الثقال، مقيد لأنه لا يقول «لا ولا» إلا «أي لا يقوم بفعل النفي والإثبات في الشهادة»⁽³⁾.

«الأمة العربية» هي ركيزة الإسلام⁽⁴⁾. إذ قامت قام. وإذا انهارت انهيار. ففي قصيدة «إلى الأمة العربية»، يبين فضلها وسبقها في حمل الرسالة، رسالة التوحيد، «لا إله إلا الله»، وقيادة البشرية، وبدايتها تاريخ جديد، وتأليف القلوب، وإنهاء العبودية للبشر كما تنبأ الرسول «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. وإذا ملك كسرى فلا كسرى بعده»، وإشعال الروح، وإحياء القلب، وإبداع العلوم، وظهور الصوفية كالساطمي، والقواد كصلاح الدين الأيوبي. جمع بين العقل والقلب الرازي والرومي معا. نقل العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ثم عادوا إلى جاهلية القرن العشرين. تركوا ذاتهم، وقلدوا الإفرنج. أضاعوا وحدتهم، وتفرقوا. يخاطب الشاعر الهندي زعماء العرب. ويحذرهم من الانقطاع عن محمد، والتواصل مع أبي جهل، وترك الإيمان للطاغوت، وبألا يقعوا في حبائل القوميات والوطنيات والفلسفات المادية، ووضع الحدود والقيود⁽⁵⁾.

(1) يا أمم الشرق، ص 399.

(2) ذكر الإله ويقظة الوجدان في أنس وجان
من فيض وحيك يا صلاة الصبح يا صوت الأذان
السابق، ص 401.

(3) ذاك الذي فقد اليقين وقلبه فقد الحياء
وطعامه وشرابه ومنشأه أعني مناه
وتراه باليمن الثقال مقيدا ومكبلا
ممن يقول «نعم» وممن لا يجيب بنفي «لا»
فليضخ من غفلاته لبعود حيا قلبه
وبعيش في أوج الكرامة هاتفا «الله هو»
السابق، ص 404.

(4) السابق، ص 377 - 382.

(5) شعب العروبة والمجد المؤثر في
من الذي حرر الدنيا لخالقها
من قبلكم أبلغ الآيات ناطقة
من غيركم رفع المصباح مؤتلقا
بدو وفي حضر حتى ضحي المحشر
وأسمع الخلق لا كسرى ولا قيصر؟
بوحى من خلق الدنيا وسواها
ووجد الخلق لما وحد الله؟

كان للعرب مجدهم السابق بفضل الإسلام. وتحولوا من بدو في الصحراء إلى أمة بلا حدود، حرة من طغيان كسرى وقيصر. لم يحمل أحد قبلهم الآيات ناطقة. وبلغ الرسالة إلى الدنيا. ووجد الخلق باسم التوحيد. أطعموا الناس على موائدهم. وتأخروا بعد فرقة. حولوا البید روضاً، والحصى درراً. أنبتوا الورد في قلب الصحراء بفضل النبي الذي أغنت مكارمه عن السحب⁽¹⁾. حطم أصنام الشعوب القديمة إكباراً لله. وأبقى على كل حسن قديم ونماء. ساروا خطى بهمم عالية. فسادوا العالم كله.

هم الذين حلوا الأغلال، وحطموا القيود، وواجهوا كسرى وقيصر. هم الذين صدعوا بالقرآن في مسمع الكون إعلاناً للتوحيد ووحدة البشر. قدموا الحكمة للناس، وهم أميون. أنبتوا الزهرة بالصحراء، والبساتين بالفقر. ثاروا، وانتصروا في بدر وحنين. وكان منهج أبو بكر وعلي والحسين. استعادوا سيف أيوب وتقوى بايزيد مفتاحاً لكثير العالمين. وضعوا الحكمة، أقاموا الدين القويم، وحكموا الدنيا. كان في كل قلب شوق للمجد. فاشتعل ثورة عارمة⁽²⁾.

لم يطعم الناس إلا في موائدكم
في شأنكم أرسل الله الكتاب
من حول البید روضاً والحصى درراً
أستغفر الله ما غير النبي لها
السابق، ص 382 - 383.

علما شهيا وتهذيبا وعرفانا
فأصبحتم بنعمته في الخير إخوانا
وأنت الورد في الصحراء للعرب؟
أغنت مكارمه فيها عن السحب

(1) فكل معبود قديم في الشعوب هوى
وكل غصن هشيم من نداء غدا
واما لها جذبات طالما خفرت
السابق، ص 383.

بعزمه ساجدا لله إكبارا
يجدد الحسن أوراقا ونوارا
منا الخطا وأثارت للعلا همما

(2) أمة الصحراء يا شعب الخلود
أي داع قبلكم في ذا الوجود
من سواكم في حديث أو قديم
هاتفا في مسمع الكون العظيم
حدثوني اليوم عن أي خوان
وابل من فيض أمي اللقب
أنبت الزهر بصحراء العرب
لا تسلسني الآن عن ثورته
في أبي بكر وفي صاحبه
سيف أيوب وتقوى بايزيد

من سواكم حل أغلال الوري؟
صاح لا كسرى هنا لا قيصرا؟
أطلع القرآن صبحا للرشاد؟
ليس غير الله ربا للعباد؟
قدم الحكمة قوتا للفظن
الكريم الفرد في كل الكرام
بل سقى في القفر بستان الوثام
إنها ميدان بدر وحنين
في علي ثم في صبر الحسين
فيهما مفتاح كنز العالمين

آثار المسلمين شاهد عليهم، قصر الحمراء، تاج محل. طاعت لهم الدول الأخرى. ودفعوا لهم الخراج. أقاموا دولة بها مظاهر العزة والملك الحصين. وحكمت بالحق الذي في قلوب العارفين. جاهدوا وكبروا لله في ظل السيوف واستشهدوا. وقفوا صفوفاً في المسجد. وأنت لهم الشعوب. ووصلوا إلى النجم القطبي⁽¹⁾.

ثم انقلبت الآية عندما أتى العرب المحدثون. تبدلت الليالي، وتبدلت السعادة إلى بأس مرير. انقلب النور إلى ظلمات. كل الشعوب اعتمدت على مواردها من أجل الرخاء. ولدى العرب كنوز تفوق النعم في صحرائها. انقضى الحقل، وانقض السحر. وكان منعقداً حتى الأمس. وانقلبوا من وحدة إلى فرقة، وكأن الكائنات لم تشرق لهم بهدي الإيمان والمنهج الرشيد، وكأنهم نسوا في ظلام الدنيا قيم الصحراء من أجل العيش الرغيد⁽²⁾. كل شعب أقام نهضة في حين انهدم بنيان العرب. كانوا قديماً أمة فأصبحوا حديثاً أمماً⁽³⁾.

وهناك الحكم للدنيا بقم
ثورة نعلو به فوق المرام

وسل الحمراء واشهد حسن تاج
نحوها طوعا يؤدون الخراج
مظهر العزة والملك الحصين
دونها حارت قلوب العارفين
وصفوها تحت ظل المسجد
وارتقوا فيها مكان الفرقد

بأسا مريرا ومن أنوارها ظلما
حصن الرخاء وصارت للمنى قدما
وكان بالأمس مثل العقد منتظما؟
ما بالها انقسمت في أرضكم أمما؟

بهدي الإيمان والمنهج الرشيد
قيمة الصحراء في العيش الرغيد
وأرى بنيانكم منقسما
لهف نفسي كيف صرتم أمما؟

هاهنا الحكمة والدين القويم
كل قلب فيه للمجد الصميم

السابق، ص 384 - 386.

(1) لا تقل أين ابتكار المسلمين
دولة صار ملوك العالمين
دولة تقرأ في آياتها
وكنوز الحق في طبياتها
كبروا لله في ظل الحروب
ضجة دانت لهم فيها الشعوب

السابق، ص 386 - 387.

(2) قد أبدلتنا الليالي من سعادتها
كل الشعوب أعدت من مواردها
كيف انقضى حقلكم وانقض سامركم
توحدت من قديم الدهر أمتكم

السابق، ص 383 - 384.

(3) وفي كان لم تشرقوا في الكائنات
ونسيتهم في ظلام الحادثات
كل شعب قام ببني نهضة
في قديم الدهر كنتم أمة

السابق، ص 387.

ثم استعمر العرب. خدعهم المستعمرون. ووضعوا سم العقارب في أكمامهم. أهدروا آدمية الشعوب. وأيقظوا الفتن. أفسدوا الفطر. وقسموا الأمة. وقضوا على وحدتها⁽¹⁾.

الحل هي الذاتية أو هو العود إلى الذات كما قال علي شريعتي بعد ذلك، أن يضرب العرب خيامهم في وجودهم دون الوقوف على الرسوم الخارجية والآثار القديمة، وأن يدفعوا بنوقهم في الميدان، وليسرعوا بها أسرع من ريح الصحاري، وليوحدوا أوطانهم المقسمة، ولينظر العرب إلى عصرهم ويحكموا النظر، وليبنوا أوطانهم بالسلم والعدل كما فعل عمر⁽²⁾. كل من أهمل ذاتيته يفنى. كل من لم ير ذاته قلد الغرباء. ويدعوا إقبال العرب إلى التفكير في العصر والسبق فيه، طالما أن جمالهم في هذا العصر وليس في العصر القديم. عليهم ملأ الصحراء عزيمة، واستعادة روح عمر⁽³⁾.

(1) قد خادعناكم من المستعمرين يد
كم أهدروا من شعوب آدميتها
توارث العرب الأحرار وحدتهم
حتى إذا جاء الاستعمار قسمها
السابق، ص 384.

(2) اضرب خيامك في دنيا وجودك لا
وادفع بناقتك الميدان أسبق من
يا أيها العربي انظر لعصرك في
بالسلم بالعدل تبني ما تؤمله
السابق، ص 384.

(3) كل من أهمل ذاتيته
لن يرى في الدهر قوميته
فكروا في عصرهم واستبقوا
واملؤوا الصحراء عزما واخلفوا
السابق، ص 388.

الفصل الثاني

عوامل النهوض

1 - نهوض الحضارات

للحضارات قوانين قيامها وسقوطها مثل قانون ابن خلدون من البداوة إلى الحضارة، من الفتح إلى الترهل، من السيف إلى الكأس، من التقشف إلى البذخ. وينطبق ذلك على الأمة الإسلامية وعلى الغرب معاً، بل ينطبق أيضاً على شعوب الشرق، وسلطان تيمور لنك⁽¹⁾. سقطت الأمة عندما سقطت أوراق عرشها في الخريف. فتمكن منها الصياد⁽²⁾.

النهوض لفظ شائع في دواوين إقبال. ورمزه الأذان. إذ يؤذن المؤذن للصلاة عندما يسمع الزفرات المشتعلة للقلوب المنفعلة. ينادي بالنهوض من السبات العميق. ويتكرر النداء للنهوض سبع مرات⁽³⁾. ويقظة الأمة مثل مطلع الصباح بفضل

(1) فانظر إلى قدر الشعوب وكيف يبدأ بالسيف
فلذا انتهى فالى المزامير السجية والدفوف
حانات أوربّا كذلك والغريب طبقوسها
السكر يبدأ أولاً وتدور بعد كؤوسها
سيان تيمور لنك في سلطانة سلطان نادر
الكل تسقطه أخيراً سكرة الزمن المبادر
جناح جبريل، ص 447.

(2) أنا لو لم تسقط الأوراق عن عشي اللطيف
عجز الصياد عن صيدي ولو وقت الخريف
السابق، ص 451.

أذان المؤمن الذي يبدد ظلمات الليل. الأذان هو الإعلان عن الحق والدعوة إلى الاستيقاظ لأداء الواجب⁽¹⁾.

يدعو إقبال المسلمين إلى النهوض والقيام بإذن الله، مادامت الدنيا قائمة، لم تُفَن الأرض. وتلك دلالة «أنا الحق»، صرخة أطلقها الحلاج من القلب، تجلي المثال في الواقع، وحضور الله في الإنسان⁽²⁾. عصرنا أوثان التي يمكن تحطيمها عن طريق «لا إله إلا الله». الدنيا وثن، غرور وخداع وخسارة ووهم. كلها أوثان تحطمها «لا إله إلا الله»⁽³⁾.

وعوامل النهوض الفن والتربية والعلم والمرأة. يشمل الفن التمييز بين الجمال والجلال، والفن والحياة، وأنواع الفنون: الشعر والغناء والموسيقى والتصوير والسينما. وتضم التربية روح العلم والإبداع وحرية الفكر. ويحتوي العلم على التمييز بين العلم المنقول والعلم الحي، بين علم العقل وعلم القلب. وتتجسد في المرأة كل هذه المعاني من الجمال والفن والعلم والفكر والتربية.

2 - الفكر بين المثال والواقع

يستفسر إقبال عن أن فكره دليل للسماوات، وهو حائر في الأرض، دليل حائر العزم. فلماذا يسترشد بمصلح غير قادر على إصلاح نفسه وأهله؟ لماذا يكون

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | إنا لنجهل مطلع الصبح الذي
لكنما الصبح الذي ارتجت له
ضرب الكلیم، ص8. | يُدعى يوم أو غد في الأزمن
ظلمُ العوالم من أذان المؤذن |
| (2) | إن تُحل دنيا فلم تُفَن أرض
من «أنا الحق» انطوى فيك قلب
السابق، ص45. | وسماء، قم بإذن الله
ومضاء، قم بإذن الله |
| (3) | عصرنا يبتغي خليلا حطوما
إن دنياك موئن لا تصدق
في متاع الغرور تسعى وتبغي
يا أسير الخسار والريح ينسي
مال دنياك والبنون خداع
هي أصنام وأهم قد براها
السابق، ص8. | وثنه. لا إله إلا الله
زوره، لا إله إلا الله
ربحه، لا إله إلا الله
نفسه، لا إله إلا الله
كله، لا إله إلا الله
وهمه، لا إله إلا الله |

العارف بالدين بغير الدين أبله؟ فأجاب الرومي بعدما تأمل في الكون الكبير أن من يسير على الأرض قادر على أن يسري في السماء⁽¹⁾. نموذج الذات الطيران في السماء. لذلك كان العصفور بالرغم من رفته أقرب إلى الذات من التين بالرغم من حلاوته⁽²⁾.

يتعجب إقبال من الخوض في المسائل النظرية الخالصة مثل أصل الإنسان من ماء وطين. هو يبحث عما يوقظ قلبه، وهو في صورة سجين. وينصح الرومي بأنه لا لزوم للشموخ كنعش. فخلف النعش يد وكف، وأنه من الأفضل التواضع كحصان في أي مكان يسهل ويخف⁽³⁾. يعرف الفيلسوف كيف يخلق بفكره في غاية البراعة. جسده فارغ من قلبه. علمه غزير. تنقصه الشجاعة وروح المغامرة⁽⁴⁾.

الدين مع الفيلسوف مثل الشمس في كبد السماء، ولكنه يتوهم الوصول إلى الحقيقة بالبحث والنظر. يبحث إقبال عن سبب غربة النفس وطول الطريق في السفر، والحبيب في كل واد. أضاع العمر في البحث والنظر. وتردد بين ابن سينا والرومي، بين النظر والذوق. يسير مع كل رفيق ولكن لم يجد رفيقاً يسير معه إلى

(1) قال: يا أستاذ، فكري
وأنا في الأرض هذي
لنم نسترشد بالمصلح لا بصلح أهله؟
ولم العارف بالدين بغير الدين أبله
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبير
في سماء الله يسري من على الأرض يسير
جناح جريل، ص 527 - 528.

(2) الطيران سرنا المحجوب لا يستطيع نيله مجذوب
السابق، ص 545.

(3) قال: يا أستاذ الخوض في ماء وطين
أين ما يوقظ قلبي
وهو في صدري سجين
قال: لا تشمخ كنعش
ف وراء النعش كف
أينما شاء يخف
وتواضع كحصان
السابق، ص 526.

(4) يعرف الفيلسوف كيف يطير
جسد فارغ وعلم غزير
وهو في العلم غاية في البراعة
لو أضافوا إليه روح الشجاعة
السابق، ص 546.

نهاية الطريق⁽¹⁾. يحتار أهل الفلسفة في أسرار المعرفة. لم يجاوز فكرهم منذ القدم آراء عن الماء والطين لأن أعينهم حرمت نور القلوب. ونضب لديهم معين العشق. لم يروا في الكون إلا الظاهر، الألوان بالابصار، دون نور القلب وسراجه⁽²⁾.

يخشى إقبال من الفكر الحر على الدين كما يخشى على العصفور أن يقع إن لم يحسن الطيران. الفكر الحر هو المرتبط بالوجدان. وهو مساوق للوحي، ومتفق مع الدين. لا يقف ضده أو يهدمه كما حدث في الثورة الفرنسية. يمكن أيضاً أن نخشى من الدين على الفكر الحر، من القطع على الشك، ومن الإيمان على البحث الحر، ومن المسلمات على الافتراضات، ومن الإلهيات على الإنسانية⁽³⁾.

3 - علوم النظر

الفيلسوف والمتكلم والفقيه وكل رجل علم نظري أيضاً يعيشون في الأوهام.

- (1) محل الدين من يد فيلسوف له في كل يوم وهم بحث أنا في ظل بيتي أم غريب قد استوحشت من جبل وواد أضعت على رسوم القوم عمري تعجب جئت من أين ابن سينا أرافق في طريقي كل سار ولم أر في طريقي مستعداً السابق، ص 533 - 534.

- (2) ذلك السر وهذي المعرفة منذ بدء الخلق في ماضي السنينا حرمت أعينهم نور القلوب لم يروا في الكون إلا منظرنا وإذا الأبصار لم تدرك هداها يا أعم الشرق، ص 344.

- (3) ألا ترثني لعصفور إذا استخفى وحاول أن يحاول أن يكون وليس له من الطيران غير الققال والقييل هل العصفور بين الشوك كالعصفور في الجنة؟ بريك هذه حريصة في الفكر أم جنة؟

لا يعرفون معنى الشكوى والأتين. يحيون في أرض غير الأرض⁽¹⁾. وهل الشريعة قامت من أجل التقليد وحراسة المعبد الذي شيدته أم أنها الوجد في فؤاد متجه إلى الكعبة التي ألهيته؟⁽²⁾ لا يحتاج الشاعر إلى فيلسوف أو ملأ. فقد مات القلب وفسق البصر. ويزدري الشاعر اللاهوتي وهو على رأس القوم وقد عمي بصره⁽³⁾. الميتافيزيقا متعبة، مع أن التعامل مع الآخرين يبين أن كثيراً من قضاياهم في حاجة إلى نقد وتمحيص مما يؤدي إلى النزعة التأملية، ومن ثم ضرورة الميتافيزيقا كتفكير في الحياة كما هو الحال عند برجسون⁽⁴⁾. المعرفة من التجربة. وكل تجربة تعكس شيئاً من روح الإنسان بما في ذلك تجربة الخطيئة. إذ تكشف عن شيء من الروح لم يكن معروفاً من قبل. التجربة إذن مصدر مزدوج للمعرفة. تعطي رؤية لما هو بخارج الإنسان وما هو بداخله⁽⁵⁾.

الصوفي النظري والملا أي التصوف الإلهي والفقه ليسا طريقاً للعلم. فالعلم ينقش على صفحات القلب. تشهد الذات. حل الغم في قلب الملا، ودمعت أعينه. يهرب منه الناس لأنه لا يزين حجازه بالبشر. يتحدث للحرب، وفي حضنه عدة كتب. لا يعرف لغة الذات. فمن الذي يملك القلب، ويلهم الشوق؟ كل منهما

= فقل لمفكر حر أضل الفكر وجدانه؟
تعالى الله أن يلهم ما يسطل فرانه
وهل يهدم مجد الشعب غير الفكرة الحرة؟
وهذه الفكرة البلهاء سيدها أبو مرة
جناح جبريل، ص 550.

(1) أيها الفيلسوف دعك وثنائي
لست مثلي مسافر كيف أشكو
فأنا مدرك إلى أين أمضي
لك دربي وأنت في غير أرضي
السابق، ص 242.

(2) أهي في هذه الشريعة قامت
أم هي الوجد في فؤاد مُلب
نحرس المعبد الذي شيدته؟
يمسك الكعبة التي ألهيته؟
السابق، ص 457.

(3) لست أحتاج فيلسوفا وملأ
كيف للاهوتي أبدي ازدرائي
موت قلب هما وفسق بصيره
حين ألفاه وهو رأس العشيرة
السابق، ص 459.

رمى في الدين بسهم فمن المصيب، الملاً أم الشاعر؟⁽¹⁾. ولا يُسلم القلب لأيدٍ تضيق العقدة. وإذا ما رفعت العين إلى بيت الإله فإن الإنسان يتردى من الأعالي. الملاً عبوس لا يميز في الكتاب بين القشر واللباب. وليس عجباً أن يطرد الناس من بيت الله⁽²⁾.

العلم عن طريق الدرويش قد يفتح القلب عطراً وزهراً. أما علم الملاً فالتحرر منه واجب. فعلمه لا يساعد على السيطرة ولا على القدرة⁽³⁾.

يمكن الفهم من كتب الرازي وتفسيره، ولكن كلام النفس وصوت الضمير وهمس الفؤاد أعمق⁽⁴⁾. رفع الحجاب عن الذات هو الطريق إلى العلم وليس الكتاب⁽⁵⁾. العلم في بحر العمر وليس في الكتاب⁽⁶⁾.

- | | |
|--|---|
| (1) أنا الصوفي والملاً أجاني
علي صفحات قلبي «الله» فاكتب
في قلب لملا الغم حلا
أولي من مجالسه فرارا
يقول القول نصلا للحراب
وتخجلني الصراحة في كلامي
أجب بالله من ملك القلوبا
كلانا من رمى في الدين سهما
أرمغان حجاز، ص 448. | وتعلم من أكون بلا خلاف
لأشبهه وذاتي بالشغاف
وهل بالدمع بل العين بلا؟
أزين حجاز به بالسبئر؟ كلا
وفي حضن له كم من كتاب
عن الذات اختفى لا عن صحاب
ومن قد ألهم الشوق المذيبا
فقل في الرمي من كان المصيبا |
| (2) هو الملاً، عبوس والكتاب
ببيت الله يطردني لديني
السابق، ص 463. | وقشرا لا يميز من لباب
وذلك ليس بالشيء العجاب |
| (3) إلهي حي للدرويش ذكرى
و«لا إله» من دوما تذكر
بهذا العلم لا تبسط جناحا
السابق، ص 478 - 479. | يفتح قلبنا عطرا وزهرا
من الملاً ومن درس تحرر
به الإنسان في عجز تحير |
| (4) من الرازي كتاب الله فافهم
ولكن لي كلام فيه فانظر
السابق، ص 460. | ومنه النور خذ فالليل أظلم
أنحيا بالفؤاد وما نصزم؟ |
| (5) أعن ذات تحجب بالحجاب
وفي رزقي لي التفكير كفر
السابق، ص 483. | إليها حسبنا يوم الإياب
وأنت كفرت من علم الكتاب |
| (6) وعلم الغوص ضمنه كتابا
السابق، ص 438، السابق، ص 538. | ولكن ليته في العمر أبحر |

لم ينفع الملا علمُ الكتابي⁽¹⁾.

يتساءل إقبال عن الحرب التي تملأ جنبه. وفي كل مرة يسأل يقال له: قلبك، قلبك. والقلب في الصدر، رفيق الطريق. يتأرجح بين الخمول والكد. ويرى بريقه في مرآته. ويرد الرومي بأن الأمة ليست أهل فقه وأصول. وكل إنسان لديه قلب. والقلب سماء عرشه في أوجها. ولكليهما رب واحد. ليس المهم أي درب يسلكه القلب بل من الذي يملكه ويسيطر عليه ويوجهه⁽²⁾.

ليس العلم تنميماً للكلام ولا صياغة لخطاب لأن ما يحتويه الفؤاد لا يكون على اللسان⁽³⁾. القول الحق لا حجاب عليه. والباقي منقول من الكتب. معاني الكلام معقدة الفهم. ويزداد التعقيد بالصوت والنطق. أما النظرة فهي خير موصل للمعاني، وكذلك الأتني وصداه في السحر.

والطلسمات التي ظهرت في العصور المتأخرة ليست علماً بل مجرد خرافة، مجرد خطوط وأعداد لربط روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب

- (1) قال يا أسفاذ، ما الحرب التي تملأ جنبك؟
أنا ما جئت إلا قلت لي قلبك قلبك
هو ذا قلبي بصدري وأنا حلف طريقي
بين كد وخمول ملء مرآتي بريقي
قال: يا إقبال لسانا أهل فقه وأصول
أنا لي مثلك قلب وكما أنت تقول
إنما القلب سماء عرشه في مستواها
ولله رب حواء ونها رب حواها
ما لملك القلب يا إقبال درب تسلكه
منتهى الحكمة أن تبحث عمن يملكه
جناح جريل، ص 527.

- (2) إن تنميق الكلام غير مجد
قلت قولاً ما عليه من حجاب
فالفؤاد ما احتواه ليس يبدي
بالكلام كل معنى لي تعقد
ما تبقي منه ينبو عن كتاب
نظرتي منها افهم ما استعر
ويزيد اللبس من صوت تردد
أو أنيني وصداه في السحر
جاويد نام، ص 326.

- (3) لعلم اليوم أبطلت الطلسمات
حطمت حبالاً بالحب خطماً
أرمغان حجاز، ص 449.

منفعة أو دفع ضرر. فعندما يضعف النظر تقوى الخرافة⁽¹⁾. العلم هو الذي يؤدي إلى الإطلاق⁽²⁾. وقد يضار الروح من علم⁽³⁾.

ليس العلم سرّاً أو حجاباً. ومؤلفات الرازي كُحل على الجفون، تمنع الرؤية⁽⁴⁾. التعلم من الذات والاحترق بها تقدم الخانقاه النار⁽⁵⁾. أساس العلم خوف ورجاء. يرهب العلم جلال الكون ويغرق العشق في جماله. يغيب العلم ويحضر ويظل يتطلع للعشق. وذرة شوق تتسع للكون كله. والشوق هو طريق الخلود⁽⁶⁾. العلم هو العلم الفياض على العقل والقلب. يستحيل عليه الكذب. وهو في نفس الوقت مرتبط بالأرض والطين⁽⁷⁾.

يؤدي العلم إلى النظر بالدليل ولكنه يكشف عن قشر الوجود. فيقف عاجزاً عن كشف سره. يمهد الطريق فحسب. ويوقظ الشوق النائم. يوهب النار للقلب.

- | | |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| (1) نعلم ذلك أنباء فعلم | لأن كتابهم سحر يخيب |
| السابق، ص 447 | |
| (2) عليم زانه أدب وجاهل | كريم منه من يحظى بحاصل |
| وما أحببت إنساناً عليماً | ومن أدب نصيب غير كامل |
| السابق، ص 478. | |
| (3) فلا تأمن إذا حصلت علماً | فمنه الروح يمكن أن تضارا |
| السابق، ص 479. | |
| (4) أخشي عليك ركوب بحر من سراب | وكما ولدت العمر تطوي في الحجاب |
| للفخر كحل عن جفوني أغسله | فأرى مصير العشب في هذا الكتاب |
| جاويد ناعم، ص 168. | |
| (5) ومن الذات تعلم أنت حرفاً واحترق | تعدم الخانقاه ناراً للكليم أبداً |
| السابق، ص 217. | |
| (6) وأساس العلم خوف أو رجاء | ما لعشاق على هذا اتكاء |
| يُرهَبُ العلم من الكون الجلال | يُغرق العشق الرواء والجمال |
| ما مضى للعلم أو ما قد حضر | والى الآتي من العشق النظر |
| ذرة للشوق شمس حاسدة | صدرها فيه السماء راقدة |
| إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم | بمنح الخلد لقان لا يدوم |
| السابق، ص 255. | |
| (7) إن بفضل الله فاض علمكما | فسيأتي للزمان غيركما |
| لم يخف عقل وقلب لم يذب | ما استحث عين وغاصت في الكذب |
| كل علم كل فن كل دين | لا تُكف عن طواف حول طين |
| السابق، ص 328. | |

ويهدي النحيب في جوف الليل. لا يفسر الدنيا. يربّي العين دون القلب. يرفع إلى جذب الشوق إلى جبريل. ويضعه في صحبة المحبين. هو رفيق في بداية الطريق، ولكنه يفترق في منتهاه⁽¹⁾. العلم ليس هو كلام العارفين، ولكنه طبع العاشقين⁽²⁾.

العلم عند الشباب شك في حاجة إلى يقين. إذا علم بالحس فإنه ينتهي إلى الشعور⁽³⁾. العلم ضروري لتجاوز الصعاب حتى حين اللعب واصطياد الغزلان⁽⁴⁾.

العلم هو الذي لا يذل نفسه من أجل الخير⁽⁵⁾. العلم سعي نحو الحقيقة المستقلة عن أهواء العالم وأوضاعه الاجتماعية. العلم كرامة واحترام للذات، وليس ذلاً أو إذلالاً للعالم.

4 - علوم الذوق

في مقابل علوم النظر هناك علوم الذوق. ويسأل إقبال عن السوق التي كسدت، مع أن أي بيع يربح؟ ويجيب الرومي بشراء الحيرة بالعقل الظني. فهو

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | وإذا بالعلم حققنا النظر
ويريك للوجود فشره
رام تمهيد الطريق دائماً
وهب النار لقلب والوجيبا
إنه ما فسر الدنيا لنا
ولأني جذب وشوق يرفعك
هل يتيح العشق يوماً عزلة
كان في البدء الرفيق والطريقا
السابق، ص315. | فالسبيل والدليل يعتبر
ويقول مل تبين سره
أيقظ الشوق وكان نائما
وبجوف الليل تد أهدى النحيا
عيننا ربي وربى قلبنا
مثل جبريل أراه يبدعك
إنه يحسد منه مقله
ثم يمضي بعد أن ينسى الرفيقا |
| (2) | عدمت أنا كلام العارفينا
أرمغان حجاز، ص459. | فطبعي كان طبع العاشقين |
| (3) | ظمى الفتان ما في الكوب قطرة
شكهم يرمو ويحتاج اليقين
جاويد نام، ص329. | عقلهم نور، بروح ليل حسرة
ما رأوا شيئاً، وكانوا البائسينا |
| (4) | لا تغفلن فلات حين لعب
ضرب الكلم، ص61. | العلم حصل واستهن بالصعب |
| (5) | بعلم ليت شعري أي فخر
وينصح طفلنا نصحا حكيماً
أرمغان حجاز، ص478. | فعن روح لأجل الخبز غابا
لخبزك لا تذلل النفس أسرا |

وهم وظن، في حين أن الحيرة حق ويقين⁽¹⁾.

لا يكفي العقل بالعلم إن لم يصاحب بالجنون أي بالقلب والعشق. العقل يهدأ والقلب لا ينام. العلم وحده متفرج على مسرح، في حين أن القلب يشارك في صنع الأحداث. العلم استنباط مجرب، والعشق تجلّ وكشف جديد. العقل جبر، والقلب تحرر. العلم خبر ورواية، والبحر والبر مصدرها. العلم من التراب لا ينتج إلا الكلام، والعشق صمت الروح⁽²⁾. يتخلى العقل عن هذائه، ويحل محله العشق⁽³⁾. جوهر العقل هو العشق، سر الكائنات، وطريق العشق طريق جديد تتجلى فيه الذات، حين في قلوب العاشقين⁽⁴⁾. ليس إلا القلب في صدر الشعوب هو الذي يحركها ويحولها إلى واد خصيب⁽⁵⁾.

العلم والشوق من المقامات التي عرفها الصوفية. العلم بهجة، والعشق متعة. أراد صاحب التحقيق المنجلي، وصاحب الخلق بذاته يختلي. أراد موسى أن يتحقق، ولكنه أجيب ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾. فالعين ترى، ولكن الأذن تسمع. ترى العين

(1) قال: يا أستاذ إن الشوق والحق أقول
كسدت فالبيع أي البيع يحظى بالقبول
قال: اذهب واشتر الحيرة بالعقل الظنين
إنه وهم وظن وهي حق ويقين

جناح جبريل، ص 525.

(2) قد وهب العقل فامحنى الجنون
إنما للعلم في الفكر المقام
وإذا العلم عن العشق انفرد
عشت لولا التجلي سقمنا
هذه الدنيا بها بحر وير
من ترابي ما نأ إلا الكلام
واهد هذا القلب للجذب اندفين
عش ذلك العشق قلب لا ينام
مسرحاً أضحى لأفكار تعد
عقلنا مس وجبر ديننا
نحن نرنو وهي من يروي الخبر
وكلام الهجر يخلو من ختام
جاويد نامه، ص 141 - 142.

(3) أنت يا عقل فانصرف عن هذاء
أنت يا عشق صحوة الجد أطلب
السابق، ص 146.

(4) عقلك الحاصل كان للحياة
وطريق للحبيب، كم جديد
إنما هذا الحنين للوحيد
السابق، ص 154.

(5) ليس إلا القلب في صدر الشعوب
إنها لولاء كالوادي الحطيب
السابق، ص 170.

الآفاق، لكنها قد لا تقوى على رؤية التجلي الإلهي في الدنيا⁽¹⁾. العلم بالعشق علم المؤمنين، وبدونه علم الكافرين. العلم دون عشق جثة، وعقل لا يصيب. هو أعمى يحتاج إلى نور، وعقل يحتاج إلى هداية⁽²⁾.

دور العقل حل لغز الطين والماء. إذا كان فوق القوة فإنه يكون بطيء الخطوة. في حين أن العشق زمان لا يفرق بين الشهور والسنين، بين القرب والبعد. يطوف العقل حول الجبل، والعشق يشقه. وهو ما قاله برجسون في العقل والحدس. العقل جبال، والعشق بركان. العقل في مكان، والعشق في زمان. العقل رماد، والعشق حجر⁽³⁾. يسود العشق ويسمو بالدماء. ويكافح في سبيل الحبيب حتى لو صد الحبيب⁽⁴⁾.

- (1) من مقامات لنا علم وشوق
بهجة للعلم تحقيق دقيق
صاحب التحقيق رام المنجلي
عين موسى رؤية الدنيا أرادت
لن تراني إنها المعنى الدقيق
إن تلح للعين آثار الحياة
هذه الآفاق بالعين ارمقن
جاويد نامه، ص 202.
- (2) علمنا بالعشق علم المؤمنين
جثة علم لنا ما لم نحب
هب عبرن العُمي نورا تشهده
السابق، ص 210.
- (3) وإلى العالم هذا العقل جاء
حيث كان العقل فوق القوة
ما درى العشق شهورا من سنين
ويشق العقل شقا في الجبل
ومن العشق جبال كالهشيم
إنما العشق بينات اللامكان
ليس يقوى العشق من ريع وماء
والرماد العشق والعشق الضرم
أمننا والغد وهو اللازمان
السابق، ص 150.
- (4) بالدماء العشق يسمو ويسود
في سبيل الله ما يجري يطيب
السابق، ص 175.
- لهما فيما جرى للقوم حق
منعة للعشق خلق قد يليق
صاحب الخلق بذات يختلي
وإليها رغبة التحقيق ساقط
ولنضع فيه فذا البحر العميق
تستمد النبع جوف الكائنات
وتجللي ربها لا تطلبن
- وبغير العشق علم الكافرينا
ولنا العقل كسهم لم يصب
واحد للإيمان من تبثت يده
- كي يحل اللغز من طين وماء
أم من يهوي وتبد الخطوة
لا ولا حتى قريبا من شطون
أو حوالبه يطوف في مهل
وقلوب كالسموك إذ تعوم
والحمات دون قبر للعيان
لا ولا من قوة للأقوياء
يفضل الدين ومن علم أهم
ما دنا أو شط وهو اللامكان

وجوهر النبوات والملل العشق إن كمل⁽¹⁾. وإمام شهداء العاشقين شرف للناس.

موت العقل ترك الفكر. وموت القلب ترك الذكر. والجسم تراب، والروح إله. والإنسان أبدي سره. والكون يُوجّه شطره. والعلم قشر لا يطيب. والدليل وجه الحبيب. ودين العوام لا وجود له. ودين العارفين تصعب معرفته⁽²⁾. قد يغزو العقل ويكتشف الآفاق، ولكن يظل العشق مجهولاً⁽³⁾. العقل راحة، والعشق ألم⁽⁴⁾. العقل سراج، سر التقدم، والقلب خمر للشرب مع المحبين⁽⁵⁾.

عين القلب أفضل، والخروج عن إطار الفكر أمثل⁽⁶⁾. يتقد الطبع من القلب. ومنه يصحو التراب الراقد. إذا مات القلب تحلل الجسم، ويتغير لون الدم الأحمر⁽⁷⁾. ويصعب الحكم أحياناً، ويصعب التأويل. ولا يبقى إلا الاعتماد على

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | النبوات، كما خلّت، الملل السابق، ص 176. | يخلق الإنسان عشق إن كمل |
| (2) | قال: موت العقل؟ قلت: ترك فكر قال: جسم؟ قلت: ترب قد تراه قال: والإنسان؟ أبدي سره قال: علم؟ قلت: قشر لا يطيب قال: ما دين العوام؟ ما سمعنا السابق، ص 199. | قال: موت القلب؟ قلت: ترك ذكر قال: روح؟ قلت: رمز لآله قلت: كون؟ قال: وجه شطره والدليل؟ قلت: وجه للحبيب قال: دين العارفين؟ ما رأينا |
| (3) | عقلنا إن كان يغزو أي بأس السابق، ص 251. | عشقنا هذا وحيداً ما عرفته |
| (4) | وجُد من يعشق بالقلب الصريع السابق، ص 253. | تلك روعي منه في الحزن الوجيع |
| (5) | ألك العقل سراج؟ في الطريق سر تقدم السابق، ص 296. | ولك العشق مدام فمع الحب اشربين |
| (6) | قال لي الرومي عين القلب أفضل السابق، ص 299. | الخروج عن إطار الفكر أمثل |
| (7) | إن من قلب لنا الطبع اتقد ويموت القلب جسم غيراً بفساد القلب ما هذا الجسد؟ السابق، ص 305. | وصحنا منه التراب أو رقد ودما أمسى النضيج أحمرنا وحده كن من على القلب اعتمد |

القلب^(١). القلب ألم. ومن الألم ينبثق الفرج^(٢). لا يخشى القلب من الألم في حد ذاته، ولكنه يخشى من الألم الذي لا يليق به^(٣). وأسير القلب لا يفدي الأسير. ولا يزيد من ألمه. والأعمى لا يقود أعمى^(٤). ولو لم تؤخذ شرارة من نار القلب فإنها تكون شمساً تحت الفلك^(٥).

إذا غاب دليل العقل قاد القلب^(٦). القلب عود إلى النفس. والصدر دار للحبس^(٧). القلب بحر يسكن في الصدر، ويكمن في الدار^(٨). وإذا صان القلب السلطان والفقر فإن البحر قد صان الجواهر. إذا دام العقل للإنسان قيذا فإن القلب يفتقد^(٩).

الذات من ناحية القلب وليس العقل^(١٠). ومنها ينبثق الحبيب. وبها تتم

- | | |
|-------------------------------|---------------------------|
| (1) يصعب الحكم؟ حذار لا تؤول | وعلى قلبك مصباحاً فعول |
| السابق، ص 330. | |
| (2) لا تؤمل غير قلب ذي أمل | ادع رباً وانس كل من حكم |
| السابق، ص 332. | |
| (3) من الآلام لا أخشى ولكن | بهذا انقلب هب ألما يليق |
| السابق، ص 424. | |
| (4) أسير القلب لا يفدي الأسير | وليس يزيد من ألم كثيراً |
| السابق، ص 428. | |
| (5) السابق، ص 539. | |
| (6) وهذا العقل يقدمه دليلاً | لذا أسلمت للقلب الزماما |
| أرمغان حجاز، ص 435. | |
| (7) بقلبك أمسكن وعد لنفسك | وصدرك فليكن داراً لحبيك |
| السابق، ص 480. | |
| (8) وهذا القلب بحر منك يسكن | ومن جراك فيه الدر يكمن |
| السابق، ص 484. | |
| (9) وصن للقلب سلطاناً وفقراً | فهذا البحر قد صان الجواهر |
| يدوم العقل للإنسان قيذا | إذا في صدره القلب افتقدت |
| السابق، ص 487. | |
| (10) وسكر أنا لتلك الذات عقل | وإن الصمت في حاني لفضل |
| لديك بخرقه أدنى نصيب | ومن ذاتي وجدت شذا الحبيب |
| بسمرة لذاتي قد بصرت | بصدري خلوة فيها قرزت |
| السابق، ص 496 - 497. | |

الرؤية. ولو نظر العقل بعين القلب لرأى العالم مضيئاً بنور «لا إله». ولو نظر بنور الشمس والقمر لم يحسبه إلا دوران الليل والنهار⁽¹⁾.

العشق دين الروح. وهو ما سماه المسيح المحبة. فقد يذل العقل والدين من الفسوق. لذلك كان عيسى سراج الكائنات. حرر الروح من البدن الذي كفه الإنسان فيه. وتولستوي هو الذي فهم رسالة المسيح⁽²⁾. العشق احتراق. واحتراق قديم يعود لهيبه من جديد⁽³⁾. يضرع العشق النار وينصرف. ويهب العقل رؤية ويغادر. العشق حركة لا ثبات لها⁽⁴⁾. يبقى في القلب بعد إغراق العينين. العشق مستمر حتى بعد الوصال إلى الحسن. ولا يكون الوصال إلا بعد تحطيم القيود. فالعشق حرية⁽⁵⁾.

العشق شوق، والشوق عشق. العشق شوق إلى الحبيب، والشوق عشق له. يمزق الشوق الستر. ويتجاوز رؤية العين في الضمير. لا يمكن عزله⁽⁶⁾. الذوق والشوق ركيزتا الشعور. ولا يدرك ذلك إلا بنور العين⁽⁷⁾. الذوق يؤدي إلى

- | | |
|-----|--|
| (1) | السابق، ص 533. |
| (2) | ذل عقل دل دين من فسوقك
إنما عيسى سراج الكائنات
المسيح أسكن الروح البدن
جاويد نامه، ص 177. |
| (3) | إن عشقت في لهيب فاحترق
إنه في العشق منا أقدم
السابق، ص 266. |
| (4) | أضرم العشق علينا وانصرف
اغمض العينين حتى أملكه
السابق، ص 267. |
| (5) | الوصال ما أراح فط عشفا
وابتداء عند حسناء سجود
السابق، ص 314. |
| (6) | إن فطر الشوق ستر فرقاً
عصره كان ضميراً وهو فيه
السابق، ص 258. |
| (7) | ولما بالذوق والشوق الشعور
ولعين حاكم البنجاب نور
السابق، ص 286. |

اليقين⁽¹⁾. والقلب في قيد إذا ما تجرد عن الذوق والشوق⁽²⁾. العشق مبدأ الحياة. وهما خطوب ومغامرة موصولة الأشجان⁽³⁾. القلب والعشق والشوق والذوق طريق الحب. والحب له شهادؤه في كل مكان، ولدى كل الشعوب. يهيج في الفؤاد كما يهيج الفراش حول السراج. هو الباعث على التفلسف عند الحكماء وإلا تحولت أفكاره إلى لعبة من لآلئ من زجاج. يدفع الذات إلى الاستقلال. ولا يخاف أي سلطان. فالخوف علامة الاحتياج⁽⁴⁾. قدر الإنسان في مكانة الحب من قلبه كما ينصح إقبال ولده جاوید، عندما يصبح نغمًا صباحًا ومساءً يجدد حرقه الندماء. فهو الطريق إلى الوعي بالدنيا والهداية الإلهية⁽⁵⁾. القلب مكان الدم. وهو الذي يحركه، وليس الفقر أو النجود. ومن لم يهده دمه الأحمر يكون عقله أسود⁽⁶⁾.

5 - علوم التربية

أ - مناهج التعليم: من النقل إلى الإبداع. من عيوب العصر الحاضر مناهج

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | أتروم الذوق عند المسلمينا | وتريد الشوق فيهم واليقينا؟ |
| | | السابق، ص333. |
| (2) | بظاهر ما يراه القلب قيد | فمن ذوق ومن شوق تجرد |
| | | أرمغان حجاز، ص440. |
| (3) | مبدأ العشق والصبابة فهر وخطوب موصولة الأشجان | وهو من بعدها دلال وتيه بين طيب المني وصفو الأماني |
| | | ويعود المحب بالقرب محبوا وينسى نواعج الهجران |
| | | يا أمم الشرق، ص350 - 351. |
| (4) | من شهيد الحب الذي رعموه | ابحثوا عنه في جميع الفجاج |
| | سمة العشق لا تناح لشعب | دون شعب ولا تناح لراجي |
| | في هياج الفؤاد للحب سر | كهياج الفراش حول السراج |
| | رؤج الحب سوق كل حكيم | حساك آراءه به للرواج |
| | هي لولا تدخل الحب فيها | لعبة من لآلئ من زجاج |
| | رجل الحب لا يذل لشيئ | مستقر الفؤاد حر المزاج |
| | ليس يحتاج أو يخاف منيكا | إنما الخوف مظهر الاحتياج |
| | جناح جبريل، ص532. | |
| (5) | لنكن لقلبك يا بني مكانة | في موطن الحب البعيد النائي |
| | كن في أساسيه وفي أسماره | تثما يجدد حرقه الندماء |
| | وعى الفؤاد حقيقة الدنيا فزن | وهبتك إياه يد الرحمن |
| | | السابق، ص533. |
| (6) | رجل يحرك قلبه دمه | لا الفقر يحزنه ولا الجود |

التعليم. فقد ازدحم التعليم بالغث والسمين، وبالحشو المنقول، دون تمييز بين حسن وقبح مما منع توليد الأفكار الجديدة⁽¹⁾. تعليم هذا العصر لا ينضج فكراً. ولو وجد عقل حر في مدرسة إلا أن الأفكار متناثرة دون جامع بينها في ثنائية حادة بين إلحاد الغرب وفوضى الشرق⁽²⁾. ومن كان له نظرة سهم لم يحتاج إلى الكتاب والديوان. إنما العلم هو العلم الذوقي الذي يقوم على العرفان والمشاهدة، لا علم الدور والفصول⁽³⁾.

يقوم المعلم حالياً بخنق روح التلاميذ. ويبني بدلاً منه صرح فخار. الحق في القيل والقال، وليس في التجربة. إذا حجب جدار المدرسة الشمس فإنه سيحجب نورها⁽⁴⁾. وفي القوم حمال كتب ثقيلة يثن بحملها جمل⁽⁵⁾. لا يأتي العلم بالإقامة في زوايا الحجرات، يحشد الألفاظ كما يحشد المكتبات. إنما يأتي من نيران الخليل حتى يسمع التوحيد⁽⁶⁾.

= إياك من لم يهدم دمهم السابق، ص 545.	سود الدماء عقولهم سود
(1) ضمير المدارس في ازدحام وهذا العصر ماض في هواء ففي جنبات قلبك أخل بيتاً ضرب الكليم، ص 57.	بأفكار كما امتلأ القفيز جميلاً من قبيح لا يميز عسى يشوي به ضيف عزيز
(2) فأين بصيب المرء ناضج فكرة مدارس فيها كل عقل محرر أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد السابق، ص 57.	وأجواء هذا العصر لا تُنضج الثمر ولكن بها الأفكار عقد قد انتثر وعبد عقل الشرق فوضى من الفكر
(3) من كان في نظرتهم سهام لكنما الدار التي سراج السابق، ص 61.	منهم خلا الكتاب والديوان أنت لها مذاقها عرفان
(4) أمام روح التلاميذ التي اختنقت الحق ما قال كاغاني ويسحرني وإذا الجدار أمام الشمس ترفعه جناح جبريل، ص 546.	يبني المعلم هذا صرح فخار ما قال من بيت شعر ند أشعاري فلن نرى نورها في باحة الدار
(5) وكم ترى في القوم حمال كتب يدور في الناس كحمال الحطاب يا أمم الشرق، ص 353 - 354.	ثقيلة يعيا بحملها جمل ويرسل الأقوال من غير عمل
(6) يا مقيماً في زوايا الحجرات	يحشد الألفاظ حشد المكتبات

طريق الفقه طريق مسدود، طريق الأدلة والأحكام⁽¹⁾.

يسأل إقبال عن كيفية العلم بالعيان أم بالبصيرة؟ ويجيب الرومي بأن البصيرة هي طريق العلم. فقد ترى العين ولا تدرك، تبصر ولا تعي⁽²⁾. ويسأل أيضاً أنه لا يبصر في الدرب مناراً. ويبحث عمن يقدح في صدره نار الحكمة. ويجيب الرومي أن من يوقد نار العلم هو يابس الخبز الحلال. أما الذي يأكل كد الناس فإن الضلال يقضي عليه⁽³⁾.

لا يأتي العلم عن طريق الرواية والخبر والنقل، بل عن طريق الشهود والبصيرة. العلم الأول هو الظاهر، والثاني هو الباطل. الأول من يقف في ظل الدار، والثاني من يدخل فيه. وهي نفس الصورة التي استعملها برجسون في الفرق بين العقل والحس، العقل الذي يرى كنيسة نوتردام من الخارج، والحس الذي يدخل فيها⁽⁴⁾.

-
- = إن تكن في مثل نيران الخليل
أسمع النمرود توحيد الجليل
السابق، ص 357.
- (1) أنا لم أسلك إلى الفقه سبيلاً
أتحرى الحكم فيه والدليلاً
السابق، ص 362.
- (2) قال يا شيخ! بماذا
وبأي الأمر أعني
قال: يا إقبال ما هذا الذي ليس بيني وبين
إن تكن تبصر يعني
يملاً المهجة حق وحبيب دامغ
ما عدا ذلك يا إقبال جوز فارغ
جناح جبريل، ص 525.
- (3) قال: يا أستاذ، لا أبصر في الدرب مناراً
أين من يقدح للحكمة في صدري ناراً؟
قال: يوري العلم ناراً يابس الخبز الحلال
والذي يأكل كد الناس يفنيه الضلال
السابق، ص 428.
- (4) شأنا في الدين لا يعدو الخير
نحن عند الباب في ظل الشجر
وهو في الدين شهود ونظر
وهو في الدار وفي محني الثمر
يا أعم الشرق، ص 365.

لا يأتي العلم من كتاب أو مذهب. هذا علم إبليس⁽¹⁾. يمكن بالجدل انتصار على العلم المنقول والمعقول. بل إن علم إبليس الظاهر هو إنكار وجود الله، وعمله الباطن إثباته. الشهادة بين «نعم» و«لا» وهو ما فعله إبليس، وليس «نعم» فقط وهو ما فعلته الملائكة.

يحتار العقل في الحقائق. تعامل معها وهو لا يدري كيف؟ والقياس لا يستطيع تحريك الفؤاد والخيال. العقل أسير للقياس، مرتبط بالحواس. ومعرفة الخير والشر تجلي. وأصل القصور العمل لا الحجر. فالعمل أصل الأشياء كما نبّه جوته وماركس⁽²⁾.

لا يأتي العلم عن طريق الكتاب. النبي تلقى الوحي دون كتاب. وعلمه دون كتاب. ولا يحدث القرآن ككتاب في القلب الأثر⁽³⁾. ليس القرآن كتاباً يقرأ بل ذوق يُطلب⁽⁴⁾. لا

(1) ليس عندي من حديث أو كتاب
كأنفقيه عزّل ديس من غزل
ما عرفنا مثل هذا المطلب
لوجود الله لست منكرا
أجهلت كي أقول ما وُجد
وهـنعم في ستر «لا» ما قد نطق
جاويد نامه، ص 268.

(2) حار هذا العقل في تلك الحقيقة
والخيال غيره عنه اختلف
من يقول إن هذا في السما
فضل الدنيا على دنيا الفؤاد
قال لي «الرومي» أسير للقياس؟
بالتجلي الخير كان والشرور
القصور كالربيع في النظر
السابق، ص 284 - 285.

(3) ما انتشى ما ذاق شيئا من حبور
ويقول ما يظن اليوم حقا
ليس للقرآن في القلب الأثر
السابق، ص 327.

(4) صاحب القرآن ما ذاق الطلب
العجب ثم العجب ثم العجب
السابق، ص 327.

والفقه من دحزّت في الغلاب
جعل الكعبة آتار الطنل
ما لإبليس تشقاق المذهب
أبصر الباطن واترك ظاهرا
كيف هذا، إن ربي قد شهد
ما سكت، فأنا خيرا صنعت

سار وهو لا يرى حتي طريقه
ذاك في الجوزاء وهذا قد أسف
يجوار من على الأرض ارتمي
بالقياس حرت في شرح المراد
عنك دع كل اعتبار للحواس
جنة كانت كما كان السعير
أصلها الأعمال لا ذاك الحجر

وكتاب الدين في جوف القبور
عن نبيين تلقى ما تلقى
فيهما الآمال خابت للبشر

العجب ثم العجب ثم العجب

يهم الكتاب إلا إذا جذب القلب إليه⁽¹⁾. كم كتاب أغشى فيها البصر؟ إن خير علم ما عُرف بالنظر، علم يسكر من أول رشفة⁽²⁾. الكتاب دماء غير مشتعلة بالنار، غمد خال من السيف، ومن اليد التي تمسك به⁽³⁾. العلم بالقلب وليس بالحرف. وهو العلم الذي يبعث على الخير والتقوى. ودرع الجاهل خير من فسق الكافر⁽⁴⁾.

الأساتذة هم القادرون على فهم روح العصر وإفهام الطلاب إياها عن طريق تجلية النفوس، وليس عن طريق القيل والقال. مهمتهم التأثير في الطلاب كما تؤثر أشعة الشمس في الأحجار الكريمة⁽⁵⁾. مهمتهم إثارة الاعتراض من الطلاب وليس طاعتهم وإذعانهم حتى يشتد عودهم، ويقوون على المقاومة. مهمة التعليم إيقاظ نفس الطالب، تحريكها وإثارتها للنظر، وحثها على نيل المثل العليا، وليس تلقينها وحفظها للمنقول. فالعلم في الطبيعة، في الأمواج العاتية، وليس في هدوء العاصفة. الكتاب محدود. وقراءته محدودة. أما أصل الكتاب فغير محدود. ومشاهدته بلا حدود⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | ليس يدري القصد منه المكتب
السابق، ص 329. | إن تناسى ما بقلب يجذب |
| (2) | كم كتاب فيه أغشيت البصر
إن هذا العلم صب خمرة
السابق، ص 329. | خير علم ما عرفت بالنظر
يا لها من بعد رشف سكرة |
| (3) | دماء فيه تخلو من لهاب
خلي الغمد، ما في الكف مال
أرمغان حجاز، ص 440. | وم زرع الأزاهر في الحراب
وهذا الرف يهوي بالكتاب |
| (4) | ومن علم بقلب ليس حرق
أفضل جاهلا ورعا تقيا
السابق، ص 477. | تأمل متق خير وأبقى
بعلم ليس يخدعني الكفور |
| (5) | إن كان تربية الياقوت مقصدنا
وما المدارس أو ما الدارسون بها
كانت جديرا بقود العصر أدمغة
ضرب الكلیم، ص 59. | فما شعاع رمته الشمس حيران
وللروايات عم الأرض إذعان
يقودها العصر ما فيهن نكران |
| (6) | الله يحبك علما
فلن بحرك رهو
لسن تستطيع فراغا
فأنت قاري كتاب
السابق، ص 57 - 58. | بمائنجات العباب
ما يُبتلى باضطراب
في السفر من أبواب
ولست أهمل كتاب |

تتجلى الذات في الإبداع، عندما تخلق من ذاتها عالماً آخر. والتوتر في الزمان هو بداية الإبداع، وألا يكون اليوم مثل أمس أو الغد. الإبداع هو شرط بقاء الأمة أيضاً والأمة التي لا تبدع في التاريخ تندثر كالغبار، خاصة إذا ما عمتها فلسفة عدم تجعل الوجود وهماً وظناً. العدم بداية والعدم نهاية⁽¹⁾. ولا يأس من تعلم الأطفال الصغار، مادامت القلوب في الصدور. والطفل قادر على تعلم الدين ليشرق في حياته⁽²⁾.

وتقوم التربية على شقين: العلم والحياة، العقل والقلب. العقل والعلم للسيطرة على الدنيا. والحياة والقلب لتحرر الذات. ولا يغني العقل عن القلب، ولا الكتاب عن التجربة الحية، ولا علم الشيخ عن مشاهدة المريد. فالكبريت الأحمر لا يستطيع إشعال سراج الكهرباء⁽³⁾. الأسفار والكتب والنقول تعمي الحس، وتجعله غير قادر على شم عطر الرياض⁽⁴⁾.

ب - المدرسة، من المهنة إلى الرسالة: أصبحت المدرسة وسيلة لتعليم الوظائف وسبل المعاش. لا تساعد على اقتحام الحياة أو انطلاق الفطرة أو كشف

(1) وما المعنى ليومك أو ليومي بلا ليل يكون ولا نهار
إذا عبر النبوغ بأرض قوم تولى مثل زوبعة الغبار
حكاية كوننا وهم وظن وهذي كل أطوار الحكاية
من العدم البداية أخرجتنا وترومين إلى العدم النهاية
جناح جيريل، ص 477.

(2) لماذا اليأس من طفل صغير
ولكن من يعلمه لتسأل
أرمغان حجاز، ص 478.

(3) فرق علم وحياة
هو في الرأس ذكاء
قدرة في العلم تبدو
معضل أن ليس فيه
ليس بدعاً أن كأساً
ما طريق الشيخ في المكتب
كيف بالكبريت إشعا
ضرب الكليم، ص 55.

(4) أعمت الأسفار حساً فالصبا
لم تعطر لك من روض مشام
السابق، ص 60.

أسرار الكون. المهنية والحرفية قتل للنفس، وتوقف للقلب عن النبض. يغيب الحوار وطرح السؤال. تحجب المدرسة الأسرار المنتشرة في الكون⁽¹⁾. ولا تقوم المدرسة الهندية على تربية الذات. فليست هدفها. الحمامة لا تلد نسرًا. ومدرسة العبيد لا يخرج منها الأحرار. والموت لا يؤدي بالضرورة إلى الخلود⁽²⁾. الحر يدافع عن الحق، والعبد تغشاه الخرافة. الحر ذو كرامة، والعبد تأتيه الكرامة. والعبد المقيد لا يقدر على التعليم إلا بتصويره للحن والنباتات.

مدارس المسلمين اليوم باردة ليست بها حرفة. مازالت ورود المسلمين لم تفتح بعد. ومازالت سماؤهم سماء شياطين لا ملائكة. الرأس مملوء، ولكن النظرة ضحلة⁽³⁾. وأيهما أفضل: حيرة الفكر الفلسفي أم حماسة جلال الدين الرومي ووجد موسى؟ أسلوب الثعلب في الظلام أم يد الله في طريق الحب؟⁽⁴⁾.

- (1) لذلك كتب إيفان إيلتش «القضاء على نظام التعليم المدرسي في المجتمع» Ivan Illich: Deschooling Society.

كل نفس بفكرة في المعاش
وهي موت لمشتق من هراش
صاح بالعقل: لا تلذ بنقاش
وضع الرق نظرة الخفاش
هو في السبيد والرواشخ فاش

ملك الموت عصرنا يتوفى
يرجف القلب من كفاح حياة
أبعد الدرس عن حجاج جنونا
عين صقر فنحنها وعليها
حجيت دونك المدارس سرا

السابق، ص 58 - 59

فما لمدرسة هذي المقالات
من البُزاة مقامات وحالات؟
كم تبطل السير بالعُبدان أوقات
ونحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة العبد تغشاها الخرافات
والعبد من غيره تأتي الكرامات
تصويره ولحن والنباتات

إقبال أفصر، هنا لا تُعرف الذات
الخبر ألا تُرى في عين قبرة
فلحظة الحر عام للدليل فكم
ولحظة الحر من خلد رسائنه
وفكرة الحر من حق منورة
كرامة حية بالحر مائلة
حسب المقيد تعليمًا وتربية

السابق، ص 54 - 55.

فحسنها بارد لا روح تذكيه
منى ابن آدمنا هذا تُرقيه؟
اللازوردية المجنونة الفرحة
رأس منير ولكن نظرة وقعة

هب المدارس يا رباه حُرقتها
متى سمواتنا تنشق وردتها
هذي السماء التي أغرت كواكبنا
سما شيطان ما فيها ملائكة

جناح جيريل، ص 457.

وجد موسى أم فكرة فلسفية؟

حيرة الفكر أم حماسة رومي؟

العقيدة في المدارس لا فعالية لها. والأديرة خاوية بلا أسرار، بالرغم من طول الطريق ووعورته، تتساءل العينان والقلب حيران⁽¹⁾. يقنع الشاعر بذنه في حانته. ولا يطوف حول الكنائس يستجدي الهداية. لم يجد هذه الخمر في تلك المدارس⁽²⁾. لا يمزق الشاعر ثوبه متعة بل حرقه على أوضاع المدارس. يطمع في تربية الفرد وتكوينه حتى ينقذه من رقاد المدارس. وهو رأي غاندي أيضاً أنه لا يربي الفرد إلا «ضرب الكلیم» الذي يقضي أيضاً على شعوذة البراهمة بدعوى السحر⁽³⁾.

لم يتجاوز تعليم الدين الإسلامي والمسيحي طرق التعليم العام بل أسوأ منه. يقوم بالتعليم الإسلامي المشايخ دون إخلاص وبنية شئى آخر. والتعليم النصراني براق لا يقوم على دين أو أخلاق. كلاهما تعليم يقوم على الذل والاستكانة. ربما يُغفر للفرد هذا التعليم، ولكن لا يغفر للأمة نظام تعليمها⁽⁴⁾. وفي هذا الزمان تقع حرب الأديان. وهي حرب ضد الدين لصالح الكفر. الدين بناء حق أرفع مما شيد السلطان⁽⁵⁾.

= هي أسلوب ثعلب في ظلام السابق، ص 457.	أم يد الله في طريقة حبه؟
(1) غصن العقيدة في المدارس عار بالرغم من طول الطريق وعمره السابق، ص 455.	ومذاق أديرة بلا أسرار عينك ظاعنة وقلبك سار
(2) أنا في حانتي قنعت بذني أبدا لا تقدم الخمر هذي السابق، ص 458.	لست ممن يطوف حول الكنائس نفسها في رحاب تلك المدارس
(3) لست عن متعة أمزق ثوبي طمعي الفرد والمطامع كثر رأي غاندي إن كنت غير قوي ليس إلا عصا الكلیم لسحر السابق، ص 460.	نلك أسرارنا وليس وماوس هبة الفكر من رقاد المدارس غير مجد في ملتي واعتقادي برهمي مشعوذ في البلاد
(4) قد عرفنا قدر أشياخ الحرم ولتعليم النصراني نغم تكتب الذن على أقدارها ربما تغفر للفرد ولا ضرب الكلیم، ص 60.	كل دعوى دون إخلاص سقم ليس من دين وخلق ذا النغم أمة بانذات فيها لا تُهم تغفر الفطرة أمام الأمم
(5) حرب على الأديان ذا الزمان	مركب في طبعه الكفران =

والمسؤول عن ذلك هي المدارس الدينية وفقهاء السوء ورهبانه. ونولاهم
لأمكن ري المدينة مما رواها السابقون. وصغار التلاميذ الأبرياء لم يعلموهم
الطيران. قتلوا الحمية في صدورهم. والمفتي يكرر مصطلحات الفقه القديم بلا
فهم. كؤوسه فارغة. لجاجه كثير. ومن قدر على نحت الصخور في الماضي سهل
عليه صياغة الزجاج⁽¹⁾. ليس في هذه المدارس إلا ما يُحدث الغفلة والبلادة.
والدرس والبحث في الفؤاد سماع صوت التوحيد. فالعلم في القلب وليس في
الكتاب، ومن الذات وليس من الأستاذ⁽²⁾.

والدير كالمدرسة سبب ضياع البصيرة، وانزواء الحب، وظلام الطريق
الموصل إلى المعرفة⁽³⁾.

ويشير إقبال إلى الرسالة أحياناً باسم الدين. والدين يعطي اليقين. يعطي
القوة، ويربط القلب بالإله. الدين احتراق في الطلب. هو عشق بالقلب يوجب

- | | | |
|-----|---|--|
| = | سدة أهل الله. فاطلُبْنِهَا | أرفع مما شيد السلطان |
| | السابق، ص 61. | |
| (1) | ولولا مدارس هذي الشيوخ
لرؤى المدينة مما ارتواء
صغار الشواهين ما ذنبها
هم قتلوا القلب في صدرها
ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحات نسر وغدوات باز
ومفتي المدينة واد محيق
أنا لست أفهم هذي الكؤوس
ومن كان يحسن نحت الصخور
جناح جبريل. ص 429 - 430. | وأخبار سوء ورهبانها
وأورق بالحب يستأنها
هم علموها عناق الغبار
هم أبدلوها بهذا الشنار
يضج بمصطلحات الحجاز
ويؤسفني مثل هذا اللجاج
ترفع عن أن يصوغ الزجاج |
| (2) | ما في مدارسك التي ترتادها
سر الدراسة في فؤادك كامن
لم تبق يا مسيكن إلا فرصة
اطلب علوم القلب من أستاذها
السابق، ص 442 - 443. | إلا بحوث مخفل وسليل
لو كنت تتقن صرخة التوحيد
لك في استعادة سرك المفقود
واجهد لنيل مقامك المحمود |
| (3) | أنا أسف جدا ويحزنني
ضاعت هناك بصيرتي وذوى
السابق، ص 443. | غضبي على ديري ومدرستي
حبي وأظلم درب معرفتي |

طاعة الحبيب⁽¹⁾. يكشف العشق الطريق⁽²⁾. وأهل القلب شمس الكائنات. نورها يهب الحياة⁽³⁾.

يريد إقبال أن يرى شيخاً قادراً على تغيير الأوضاع الحالية. يحول التلميذ إلى أستاذ، والأستاذ إلى تلميذ، متحولاً من النقل إلى الإبداع. يخاف الباز من العصفور الذي قد يقلم مخالبه. فلدى الشباب نور يفيض على الشيوخ إذا ما تخلصوا من قيد العبودية حتى لو ألقوا حطياً في نار الوجود. يتصرفون بجنون، ويسقطون تعباً. قلوبهم كالحجر⁽⁴⁾.

والآن تبكي مدرسة الأسود التي تخرج منها أباطرة الزمان الماضي. جار عليها الزمن فأصبحت مرعى لخرفان ووكر ثعالب. لم يعد للقوافل من يقودها مثلما قاد موسى شعبه. ومن يردد وراء العصفور نشيده والجميع ساء والمردد لاه؟ إن حضر المعلم غاب التلاميذ وإن حضر التلاميذ غاب المعلم. مضت العزائم السالفة كما يمر النسيم بالبستان. وهي التي أعطته جمالها وروته بالألحان. والآن يكرر التاريخ نفسه في الظلمات في آيات معكوسة⁽⁵⁾.

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | كن قويا وابغ بالدين اليقين
نلت من ربك قلباً منحنه
إنما الدين احتراق في الطلب
جاويد نامه، ص 330 - 331. | واربط القلب برب العالمينا
مسلم هذا تأمل طاعته
وهو عشق ثم يتلوه الأدب |
| (2) | ولعبد العشق من رب طريق
السابق، ص 332. | وعلى الكافر والبر الشفيق |
| (3) | إن أهل القلب شمس الكائنات
السابق، ص 333. | نورها وهاب هاتيك الحياة |
| (4) | بودي أن أرى شيخاً
يقوم ويجعل التسليم لأستاذ
يخاف الباز عصفورا
فأت شبابنا نورا
وخلصهم بما تاختار من قيد العبودية
ولو ألقيتهم حطياً
تصرف بالجنون لهم
فليسوا شعبة منه
جناح جريل، ص 513. | بغير وضعنا هذا
يقلم ظفر مخالبه
تفيض على الشيوخ به
بسنسيران الوجودية
وفجره بهم شعباً
إذا لم يسقطوا تعباً |
| (5) | يممت مدرسة الأسود رأيتهما
تبكي أباطرة الزمان الناهب | = |

وتوجد غريزة جمع الشهادات في طبقة معينة من العائلات الهندية غالباً من صنع الإدارة الإنجليزية. تطور الميل إلى جمع الشهادات من مصادر رسمية متعددة وطباعتها. وأصبح غريزة ظهرت بوضوح لدى الخلف. وهو مرض نشأ في ظرف غير صحي⁽¹⁾.

6 - الجمال والفن

أ - الجمال والجلال: الجمال رؤية فنية للعالم في حالة نشوة وسرور به، وقدرة على التعبير والتصوير. الجمال مرتبط بالعين التي تسبح في الفضاء⁽²⁾. ليس الجمال الحجارة أو اللون أو الصوت أي البدن بل هو ما يثيره من معاني ودلالات أي الروح. فالمسجد ليس مجرد تشييد وأعمدة وأقبية وزخرفة بل هو أذان وذكر وشهادة «لا إله إلا الله». فما قيمة مسجد لا يُذكر فيه اسم الله؟ وما قيمة سجد لا يُتدبر فيه معاني التشهد؟⁽³⁾.

مرعي لخرفان ووكر ثعالب
بحوار موسى في رحاب الله
والجمع ساه والمردد لاه؟
طيف ومربذلك البستان
وهي التي زوته بالألحان
ظلمات تاريخ يكرر نفسه

جارت عليها الحادثات فأصبحت
ما للقوافل من يفود ركاها
من أين للعصفور ذوق نشيده
آه لأنفاس مضت وكأنها
وهي التي أذكت لهيب جماله
في ليل دهشته هناك ووجده
السابق، ص 463.

St. Ref., p. 138.

(1)

وجيوش الشقيق في الصحراء
ودلال ونشوة بالغناء
وسبح الأفلاك في الدماء
تهادي بموكب للقاء
وصمت الأفلاك في ذا الرواء
لا يباع الجمال في ذا الفضاء

الربيع النضير ملء الفضاء
وشباب ومنعة وسرور
وعيون النجوم في حلك الليل
وعروس الهلال في هودج الليل
وتبدي ذكاء في رونق الصبح
سرح العيين، لا تكلف أجرا
ضرب الكليم، ص 74 - 75.

(2)

لم يبق إلا اذكاء مفقود
ولا تجل تواتر ملحود
أعوى إياها مقام محمود
لجواهر كالزجاج معدود
صلاة حر ربيب توحيد
فيه وغى هالك وموجود

(3)
تملاً صدري هموم مفتود
قد خمدت «لا إله» لا حرق
في الخلق كل العيون تنكرني
من صخر المسلمون في خجل
فإنما كفء ما تمثله
جلال تكبيره لذي أذن

يفرق إقبال بين الجمال والجلال مثل الصوفية. وهي التفرقة الأثيرة عند كانط والتي اشتهر بها. فالجلال هو ما أضاف العظمة والرونق والقوة للجمال مثل جلال السماء المرصعة بالنجوم⁽¹⁾. قد تفقد الذات نفسها حيناً، ولكن يبقى الجلال العظيم. كلاهما، الجمال والجلال، سر وسحر⁽²⁾. وكما ينمو نبات على ضفاف نهر وصوت الموسيقى العذب الفضي يسمع من تحته كذلك ينمو الإنسان على ضفاف اللانهاية يستمع إلى لحن إلهي من أسفل، يعطي روحه الحياة والانسجام⁽³⁾.

القوة من عناصر الجمال. وهي التي تحيل الجميل إلى جليل. وهي تفرقة عند الصوفية المسلمين خاصة عند ابن عربي قبل أن تكون عند كانط⁽⁴⁾. بل إن من عذوبة العذاب أن يكون بنار قوية⁽⁵⁾.

والحسن والقبح أو الخير والشر مرتبطان، نتيجتان لإثبات الذات ونفيها، لعلوها وسفلها، لقوتها وضعفها⁽⁶⁾. لا يعبران عن النفع والضرر أو المكسب

= وما صلاتي بقلب ذي حُرْق
ولا أذائي جلال مقتدر
السابق، ص 75.

(1) حسبي كمالات قوة من حيدر
وأرى جمالا في بهاء أن ترى
ولنعمة من دون نار نفخة
السابق، ص 98.

(2) Persian Psalms, p. 119.

(3) St. Ref., p. 140.

(4) عندي جمال في بهاء أن ترى
ولنعمة من دون نار نفخة
ضرب الكلیم، المدخل، ص ط - ي.

(5) لا أرضي نار الجزاء ولم تكن
السابق، ص ي.

(6) عالم الذات به علو وسفل
في اعتلاء الذات يبدو جميل
السابق، ص ي.

في سجدة للقوة الأفلاك
ما الحسن إلا بالجلال يحاك

وهاجة ولهيبها دراك

وبه معرك قبح وجمال
وقبح ما بدا في الاستفصال

والخسارة⁽¹⁾. الجمال والأخلاق شيء واحد. ومن القيم الإنسانية الإحساس بالاحترام والتقدير والجدارة، بل ولها قيمتها الاقتصادية. فلقلب مساعد جراح أفضل من لقب مساعد مستشفى حتى دون زيادة في الأجر⁽²⁾. التملق سلوك مغالى فيه⁽³⁾. والأخلاق سلوك. أبدع القدماء شخصيات أخلاقية في حين ألف المحدثون مختارات أخلاقية⁽⁴⁾.

ب - الفن للحياة: ليس الفن للفن بل الفن للحياة⁽⁵⁾. الفن في الهند جنازة لكل عشق، وقبر لكل فكر. فن الهند للموت، وليس للحياة. ينيم الروح، يسدل الستار على كل مجد. موضوعه المرأة التي يُسخر لها كل شيء⁽⁶⁾. الفن تعبير عن الحياة. والحياة خضم زاهر. والذات لا تركز إلى الشيطان بل إلى النهر ذاته⁽⁷⁾. فالحياة على الشط ضعيفة، وفي البحر زاخرة. والحياة ليست موضوعاً للحديث بل للفعل⁽⁸⁾. الحياة هي تجميل الذات، وإبقاؤها في مسيرة. والفن على هودجها هادي لها⁽⁹⁾. والفنان يعبر عن هذه الرؤية ليل نهار. ليست الحياة للبشر فقط وليست ملكاً

(1) جميلك أو قبيحك لا أراه جعلت عبارة ربحاً وخسراً رسالة الشرق، ص 266.

(2) St. Ref., p. 7.

(3) Ibid., p. 158.

(4) Ibid., p. 123.

(5) الشعر فيه من الحياة رسالة مقصد الفن في الحياة لهيب السابق، المدخل ص ل، ص 84.

(6) تخيلهم جنازة كل عشق وموئنتهم به نقش المنايا ينيم الروح في إيقاظ جسم يسخر للأثوثة كل شيء السابق، ص 93.

(7) دع الشيطان لا تركز إليها عليك البحر صارع فيه موجا السابق، ص 267.

(8) أنكسر لي حديثاً عن حياة سكرت بلدة التسيار حتى السابق، ص 267.

(9) Persian Psalms, p. 118, 121.

لهم فحسب. الحياة في كل مكان. إنما السر متى تبدأ ومتى تنتهي⁽¹⁾؟.

وتقليد الإفرنج في الفن ليس فناً. فمسجد باريس تقليد لطراز أفرنجي أقرب إلى الملعب منه إلى المسجد، وأقرب إلى روح الوثن منه إلى دار العبادة، وكأنه بني في عصر خراب دمشق، وليس في عصر المسجد الأموي⁽²⁾. ليس طرازاً مغربياً بل هو طراز غربي.

الفن تربية. ليس في مدارس الضوضاء واللهو والغم بدعوى العيش الوفير. فهذا ليس علماً. بل هو سم الحر. الفن تعبير عن كد الحياة سواء كان أدباً أو فلسفة أو غناء. هو الفن الذي يضيء كالصبح معلناً نهاية الليل. وليس هو الذي يحاكي الطبيعة. هو القادر على تطوير مسار كل شيء. والطبيعة هي التي تحاكيه لأن الطبيعة عمل فني⁽³⁾.

الفن والدين قرينان. بل إن كل فنون التعبير من شعر ونثر وخطابة وكتابة وتحرير وتدبير تدخل مع الدين والفن كشكولين أدبيين رئيسيين. كل فن له مضمونه وصورته. كلها تنشأ من أصل واحد، من الطين والقلب، ولكنها تنفرع إلى أزهار متعددة. الكل تعبير عن الذات. الذات تعبير عن نفسها في الدين والأدب لأن الفن أخلاق. والقرآن والشعر العربي قرينان. كلاهما نظم⁽⁴⁾.

Ibid., p. 120.

(1)

للزور هذا الحرم المغرب
عند الفرنج للفرام ملعب
في صورة من حرم تكذّب
دمشق من عدوانه تخرب

يا نظري لا يخدعتك فنه
وليس هذا حرماً لكنه
قد أخفت الإفرنج روح موثن
إن الذي شيد هذا موثنا

ضرب الكلم، ص74.

(3)

وغم دام في العيش الوفير
إذا كان الجذّي كف الشعير
قوام الفن في جهد المسير
بضيء الليل كالصبح المنير
بطوع لحكمه كل العسير
أياة الشمس كالطلن النصير

مدارس ثم ضوضاء ولهو
وسم الحر هذا ليس علماً
وما أدب وفلسفة غناء
تحكم في الطبيعة رب فن
فرب الفن من بركات فن
وذلك إن يثأ قطرت عليه

السابق، ص117.

(4)

والشعر والنثر والتحرير والكتب
في صدره يتوارى جوهر عجب

الدين والفن والتدبير والخطب
كلّ يحيط بمكنون يضمن به

الفن والعلم تعبيران عن الحياة. كلاهما خادم لها⁽¹⁾. الأول بالخيال، والثاني بالعقل. الأول بالوجدان، والثاني بالذهن. الأول بالتعاطف مع الأشياء، والثاني للاستخدام العملي. الفن وحده لا حدود له، في حين أن للعلم والفلسفة والدين حدود⁽²⁾. الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يصور اللانهاية في خط وليس الرياضي⁽³⁾. وفي نفس الوقت، الفن كذبة مقدسة. فهو خيال ووهم وشرود⁽⁴⁾ **﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾**.

الفرق بين الفلسفة والشعر أن الفلسفة هي مجموعة من المجردات تترأى في الليل البارد وللعقل الإنساني. ثم يأتي الشعر ليدخل عليها الدفء لدرجة الموضوعية⁽⁵⁾. يعبر الفيلسوف والشاعر عن نفس الفكرة، ولكن يصورها الشاعر بطريقة أدق. ويختلف الشعراء في دقة التصوير. فقد نظم هوراس فكرة ثم عبر عنها الفيلسوف مونتاني. ثم أحسن تصويرها الشاعر آزاد⁽⁶⁾. والنقد الأدبي لا يتبع بالضرورة الإبداع الأدبي. فلسنج في قلب الأدب الألماني روائي وناقد⁽⁷⁾. وفنون الشعر والرسم تعبير شامل عن الحياة⁽⁸⁾.

جـ - الفنون: تتجلى الذات في الفنون وإلا تحولت إلى صنم، والفنون إلى أوثان⁽⁹⁾. والفنون على أنواع: الشعر والغناء والتصوير والسينما. الشعر خاصة،

= ومن ضمير سليل الطين مطلعها
إن تحفظ الذات هذي فالحياة بها
كم أمة تحت هذي الشمس قد خزيت
السابق، ص72.

(1) للحياة العلم والفن خدم
الأسرار والرموز. ص18.

(2) St. Ref., p. 156.

(3) Ibid., p. 104.

(4) Ibid., p. 1.

(5) Ibid., p. 129.

(6) Ibid., pp. 148 - 9.

(7) Ibid., p. 150.

(8) Ibid., p. 110.

(9) قد رأى ذو بصر سر الذات وجلا الفن أمين جنات =

والأدب عامة يجمع بين القلب والعقل. يجدد القديم في صورة جديدة. ويؤصل الجديد في صورة قديمة، حرصاً على التواصل ضد تقليد القدماء وتقليد المحدثين⁽¹⁾. وفي قصيدة تصويرية عن «الفلسفة والشعر»، نقد أبو علي (ابن سينا) في الغبار الذي أثاره جمل ليلي. وأمسك جلال الدين الرومي بستار هودجها في وصل إلى الجوهرة. والآخر غاص في الدوامة مثل القشة. لو كانت الحقيقة بلا طعم فهي الفلسفة. وإذا كان لها مذاق خاص فهو الشعر⁽²⁾.

ويعنون «الشاعر الشرقي» لا يريد إقبال أن يحدثه أحد عن هذا العقل الحساس المرفه الذي ينكسر زجاجه بسبب أقل هبة ريح. كيف يستطيع أن يتكيف مع الحرب الطحون أو يشحب وجهه عندما يرى أي فقاعة ماء؟ الشعر قوة⁽³⁾. الشعر أقرب إلى الجنون. والجنون أحد مصادر الفن كما لاحظ نيتشه وفوكو. الشعر غير الفقه. الشعر خيال، والفقه نظر واستدلال. الجنون كمال عندما تتولد عنه الفنون. لذلك قيل في الأمثال «الفنون جنون»⁽⁴⁾.

ومن الجنون البحث عن حقيقة منطقية في الشعر. فالمثل الأعلى للخيال هو الجمال وليس الحقيقة. لا يمكن إذن بيان عظمة الشاعر بذكر أبيات من شعره يُظن أنها تحتوي على حقيقة علمية. والكتب المقدسة مثل الشعر⁽⁵⁾. ولا ترجع شعبية

= ما به الذات ولا الكون يُرى
تعبس الكافر من أصنامه
هالك صلى عليه فنه
ضرب الكلیم، ص 83.

(1) رأيت العشق يقفو اليوم نهجا
وليس يُريق ماء الوجه ذلا
محا التقليد في روح قديم
السابق، ص 74.

(2) A Message from the East, pp. 67 - 8.

(3) Ibid., p. 121.

(4) واطوى البید ويحه المجنون
حين تعدو البیداء منه فنون
ليس وقفا على الفياقي الجنون
ضرب الكلیم، ص 73.

(5) St. Ref., p. 16.

قصيدة إلى مقدار ما فيها من حقيقة منطقية. فقصيدة «القرية المهجورة» لشميث شعبية رائجة للغاية بالرغم ما تحتويه من أخطاء علمية واستدلالات اقتصادية خاطئة⁽¹⁾. الشعر أعمق من علم النفس. فعالم النفس يسبح، والشعر يغوص⁽²⁾. الفلاسفة تجعل الإنسان هرما. والشعر يعيد إليه شبابه⁽³⁾.

وأهم خاصية للشعر صدقه وتعبيره عن النار في الضلوع، والكشف عن أسرار النفس وخبايا الوجود⁽⁴⁾. ليس الشعر فقط هو المنظوم، بل هو حالة من العطاء، ونطق الحر، وفرح وطموح⁽⁵⁾. الشعر هو شعر القوة والعزة وليس شعر الخنوع والذل. هو حاد كالسيف. فثاي الشرق ليس من نفس الرثة بل من نفس القلب⁽⁶⁾.

Ibid., p. 53.

(1)

Ibid., p. 137.

(2)

Ibid., p. 143.

(3)

(4) لي من فعلك شكوي همت في حب الضلوع
شئت عن قلبي فالأسرار عن قلبي تشيع
لا تكن ممن شرار ند عن نار بضيع
والشمس خلوة صدر فيه من نار ضلوع

السابق، ص 73.

(5) عدتي ذكر وفكر وهيام وغناء
لست أدري أهو شعر أم سواه ذا العطاء؟
إن عبد الحق يُزهى في محبته ضياء
من جلال ظل فكر الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إن لم يك كفرًا ذا البلاء
أن يُرى بالحاضر المشهود للحر سباء
لا تذب غمما فكم في السهر أدوار وضاء
كم نجوم حادثات سوف تجلوها السماء

السابق، ص 78 - 79.

(6) في غابة الشرق ناي يتغني نَفَسًا
من كان في ذاته من رقه خور
إنّاؤها من زجاج كان أو خزف
لم تبصر الشمس من دنيا يُخال بها
طور جديد، وبرق كل آونة
يا شاعر الشرق هل في صدرك النفس؟
فقل له من لحون العجم يحترس
اجعل بخمرك سيفًا لمعه قبس
مجد بغير الجلال المر يلتبس
لا قرب الله للعشاق ما التمسوا

السابق، ص 91 - 92.

يعبر الشعر عن تجلي الذات. يغني كالطير في الصباح⁽¹⁾. الشعر يشعل النار في الجُتوب، واللسان يعبر عنه⁽²⁾. يُعبر عن الحياة ورسالتها الأبدية⁽³⁾. الشاعر هو روح العالم الذي يخفي المراحل المختلفة للحياة الداخلية في رموز. فليس العالم إلا رمز كبير ولكنه لا يهتم بتفسير هذه الرموز لنا. تلك مهمة الشاعر لتفسيرها والكشف عن معانيها للإنسانية جمعاء. ومع ذلك، قد يتعارض روح العالم مع الشاعر طالما أن العالم يستر والشاعر يكشف⁽⁴⁾. وكل كتب الفن الشعبي في المكتبة لا تساوي غروب الشمس على ضفاف نهر «رافي»⁽⁵⁾. فالواقع أبلغ من أي تصوير له.

مهمة الشعر إصلاح الآداب الإسلامية⁽⁶⁾. فالشعر له رسالة أخلاقية. مهمته إشعال العواطف في قلوب الأمة. يحرك النفوس، ويبعث الأمة. وتلك طبيعة الشعر العربي. الشعر هو القادر على إثبات الذات والتعبير عنها، والتأثير فيها. هي الطاقة التي تدفع إلى الأمل، والنور الذي يبعث في العين الضياء. الشاعر هو القادر على الإحساس بالحسن. فهو ما زال على الفطرة. يشعل القلب البارد. يحيي الموتى، ويعز المذل، ويفرح الحزين، ويقوي العاجز. الشعر في شط العرب يعبر عن روح العروبة أكثر مما في الهند أو بلاد العجم. العربي شاعر بالطبع. لذلك نزل القرآن

- (1) كم يشعر العجم من سحر ولكن
صمت طير الصبح أولى من غناء
ليس ضرباً ما يشق الطود لكن
ينحت العصر أيا إقبال صخر
السابق، ص 92.
- (2) أثار الشعر في جنبي نارا
حديث الحب حاوله لساني
رسالة الشرق، ص 273.
- (3) لم أدر سر الشعر إلا نكتة
الشعر فيه من الحياة رسالة
إن كان من جبريل فيه نغمة
السابق، ص 96.
- (4) St. Ref., p. 105.
- (5) Ibid., p. 131.
- (6) أسرار النفس، ص 32 - 37، المقدمة، ص 48.

بلغة الشعر والبلاغة، إعجاز العرب⁽¹⁾.

ويستخدم الشعر أحياناً في أول القصائد للإيقاظ والتنبيه وكإعداد للموضوع. قد يكون شعراً ذاتياً، تأملات خاصة. وقد يكون تأملاً في الطبيعة وحواراً معها. وقد يكون حواراً بين الشاعر والطبيعة قبل أن يتجلى موضوع الذات⁽²⁾.

يخشى الشاعر من رفع الأستار. وهتك الأسرار. انشغاله بما يحجب يؤدي إلى التهلكة. هو الحب الذي ينسي آلام الجراح، وينضح الأسرار. هو الذي يؤدي إلى الشهادة، بدلاً من العيش الذليل⁽³⁾. الشاعر أيضاً كائن بشري. فقد عُرف إقبال بأنه مفكر مجرد، عالم بمثل عليا، ولكنه في المنزل يلعب مع الأطفال. يركبون فوقه بالدور وكأنه حصان خشبي وهو في دائرة العائلة. وينحني على قدم أمه ذات الشعر الرمادي. وتلمسه بيديها الشابتين على مر الزمن. ترجعه إلى أيام الصبا بالرغم من وجود كائنات وهيكل في رأسه⁽⁴⁾.

قد يجتمع الشعر والغناء والموسيقى والرقص والتصوير معاً في فن واحد، هو فن الأوبرا. للشعر بهجته. حمل مثله جبريل. الموسيقى ابتهاج، والرقص نشوة.

نار هذا الطين من نور الأمل
طوره صبح الجمال الباهر
قد شربت السم من نبيانه
عطلت من نغم أوتاره
أنت للإسلام عاز في الدنى
هالك من ركلات الحارس
شاكى الأقدار جهلاً صانعا
ليس إلا العجز في مخبره
ارجعن يا صاح شطر العرب

(1) حرقه الإنسان من كور الأمل
مطنع الحسن ضمير الشاعر
يا برود القلب من ألحانه
يا دليلاً للردى أفكاره
أنت لئلا أرحت البدن
آه من وغد ذليل يائس
صار كالناني هزلاً ناعجا
ليس إلا الحقد في جوهرة
من بفكر صالح في الأدب؟
الأسرار والرموز، ص 32 - 37.

(2) السابق، ص 13 - 5.

بسر كهذا الذي أهلكه
كشغل المحب بما يهلكه
وتفضح سرّك آثاره
وما العيش جُلّله عازه

(3) أنا كيف أجهر هذا المساء
وشغل الحكيم بهذا العراء
هو الحب ينسبك وقع الجراح
وما الحب إن لم تمت عزة
جناح جبريل، ص 437.

الموسيقى روح الشعر، والرقص روح العين⁽¹⁾.

ليس الغناء هو مجرد نفخ هواء في عود، بل صوت قلب حي، نشوان بالفرح. تهب منه الريح. يزدري الملوك والسلاطين⁽²⁾. وإن أدى الغناء إلى ضعف وخور فهو حرام⁽³⁾. الغناء الحلال يشير قوة الذات وحرقة الحياة. يفتح القلب ويحييه. وفي الأفلاك ألحان طبيعية، تلين الكائنات، وتحرر الحزن والغم. تحول النفس من العبودية إلى السيادة⁽⁴⁾. والموسيقى تخرج من حرارة القلب، وليس من برودة الدم. إن لم تظهر الضمير فإنها تكون كالسموم⁽⁵⁾.

روح جبريل والرجيم اللعين
وكذا الرقص نشوة وفتون
فيه أفشى مخبات الفنون
ومن الرقص جسمها في العيون

صوت عود ذاك أم من قلب حي؟
قوة سكري تحدث كل شيء؟
مثل ربح صرصر في تخت كي؟
من حياة فيه يحيا كل حي؟
واردات زُمرا تهفو إلي؟
ملك روم ومنى وشام وري
طوي الفن له أسرع طي

حرم الناي عندنا والرباب

أيّ فتح والقلب رهن همود؟
صاهر حره نجوم الوجود
ولياز يسمو إلى محمود
أنت تبقى ونخمة التوحيد
لم يزل في انتظار شاد مجيد

نحن له الوجوه لا تنير
إن كان لم يظهر به ضمير
من الشقيق شاقني المسير
شقت بها جيوبها الزهور

(1) إن للشعر بهجة ضاء منها
ومن الموسيقى ابتهاج وشوق
قد سمعنا في الصين قول حكيم
إن للموسيقى من الشعر روحا
ضرب الكلیم، ص 96.

(2) صاح من أين لناي نشوة؟
صاح ما القلب؟ ومن أين له
ولماذا نظرة منه سرت
ولماذا ذلك السر له:
ولماذا كل حين مبدل
ولماذا صاحب القلب ازدري
إن وعى للقلب رمزا مطرب
السابق، ص 81 - 82.

(3) إن سرت في اللحون دعوة موت
السابق، ص 91.

(4) تفتح القلب نخمة من غناء
في صدور الأفلاك لحن خفي
يهجر الناس منه خوف وغم
تبه هذي النجوم يفنى ولكن
قد أحلت شريعة الذات لحنا
السابق، ص 90.

(5) دل على برد دم المني
أنفاس زامر سموم لحن
بالشرق والمغرب في رياض
فما مرت بينهما بمرج
السابق، ص 95.

ويتأسى كبار الشعراء الأقدمين كالرومي وسنائي على تقليد الشرق في الفنون. وقد أعلن الحلاج من قبل أن سر الذات يعيشه القلندر، رمز الوعي الإبداعي المستقل⁽¹⁾. وتكشف أشعار الرومي عن الذات. وعلى أوتارها يتم نظم الشعر⁽²⁾.

والمصور يعبر عن الحياة. يطلق ذاته لا أن يحاكي الطبيعة⁽³⁾. الفن ثورة ضد التقليد، والمحاكاة تقليد. التصوير ليس للطبيعة الخارجية بل للذات في رؤيتها للطبيعة أي للخلود وليس للزمان⁽⁴⁾. الإنسان قادر على الإبداع. لا يحاكي الطبيعة. بل يسيطر عليها، ويؤثر فيها⁽⁵⁾.

ولاقبال موقف سلبي من السينما حديثة العهد. ففيها تعود الوثنية مرة أخرى، وتذيع فيها قيمها. وتقيم الأصنام وسط صالتها كما كانت الأصنام من قبل في أفنية المعابد، تعيد بيع الأصنام. عرضت الدنيا لعبادتها. وكوّنت ديناً جديداً للعصر. الفن هو الفن الخالد دون طقوس لأوثان. والسينما هي وثن ثان. صاغت عالماً من

- | | |
|--|--|
| (1) قال للرومي في الخلد سنائي
قال منصور: ولكن قد سمعنا
السابق، ص 84. | لا يزال الشرق بالتقليد يُؤسر
أن سر الذات أفساه قلندر |
| (2) مازال طرفك في خلط وفي سنة
ولم تزل في صلاة لا قيام لها
ومزهر الذات أوتار مقطعة
السابق، ص 87. | وعنك ذاتك في الأسرار لم تزل
وبالضراعة عز الروح لم تصل
مازال عن نغمة الرومي في شغل |
| (3) مقصد الفن في الحياة لهيب
كم ترى من طبيعة وتربها
السابق، ص م. | أبدي مما وميض الشرار
أرنا الذات فوق هذي المجالي |
| (4) رأيت الكواكب لمحات نور
تعالى ضميرك عن كل لون
وغيبة ذاتك ذكر وفكر
إذا أضمنت الروح آلام رق
وإن عرفت قدرها كنت حقا
السابق، ص 80. | وذاتك بالعشق رهن خلود
فعفت من اللون كل القيود
ومحضرها شعرها والنشيد
ففنك عبيد رهين سجد
على الجن والأنس رب الجنود |
| (5) شادت الفطرة كثبانها لها
رؤع الأفلاك فيبه هرم
من إसार الكون حزر صنعة
السابق، ص 83. | في سكون من يباب قد وقد
أي كف صورت هذا الأبد
صائد ذو الفن أم صيدا بعد |

الصور والأضواء كما صاغت الوثنية القديمة عالماً من الأحجار والطين. ومع ذلك، يصلح حالها إذا كانت عوناً على نشر التوحيد، فالفن أخلاق. والسينما من أجل نشر قيم التوحيد⁽¹⁾.

لا توجد وسائل تسلية في البلاد الإسلامية، لا مسارح ولا قاعات للموسيقى، ولا حفلات موسيقية. وهذا جيد! فالرغبة في التسلية لا يمكن إشباعها. وتطلب دائماً المزيد. وتثبت تجربة البلاد الأوربية هذه الحقيقة المؤسفة. ولا يدل غياب وسائل التسلية في البلاد الإسلامية على فقر أو تقشف أو غياب الإحساس بالمتعة. بل يدل على أن شعوب هذه البلاد تجد تسلية كافية في التمتع بلقاءات المنازل. ولا يجب أن يتسرع الناقد الأوربي في رفض هذا الطابع للمنزل الإسلامي. واللامبالاة بالتسلية الخارجية ليست نتيجة حتمية للسعادة المنزلية. ولا يعني أن حب التسلية في الخارج نتيجة الشقاء المنزلي في الداخل⁽²⁾.

7 - المرأة الجميلة

المرأة في حد ذاتها كائن جميل. هي لون في رسوم الكائنات. لحنها ينثف الوجد في صدر الحياة. خلقت من الطين، ولكنها تسمو فوق الكواكب والنجوم. هي عقد به كل الجواهر الكريمة. فلا إشكال فيها كما يرى أفلاطون. وقد خلق هو منها كشرارة من جمرة متقدة⁽³⁾. وأعظم شيء سحراً على الأرض المرأة ذات

- (1) أيمود آزر مرة أخرى
أصنامها في صدر صالتها
ما كان ينحت قبل من صنم
صاغت لنا الدنيا لتعبيدها
ما كان فناً منه أبدا
فتفحص السنما التي ظهرت
هو صاغ أصناماً لعالمه
وتصوغ صالتها لعالمنا
ما في زوايا المعبد بين سوى
إن لم يل التوحيد أمرهما
جناح جيريل، ص 541.

St. Ref., pp. 77 - 8.

(2) إنمما المرأة لون
(3) في رسوم الكائنات =

الجمال الرائع الفاقدة الوعي تماماً⁽¹⁾. المرأة جوهر يتجلى بغيره. والرجل جوهر يتجلى بذاته. حرارة الشوق سرها. كيائها لذة التخليق. منها بدت أسرار الحياة، الخلق والموت. تلك هي فطرتها التي لا حل لها⁽²⁾. ولا يمكن أن تتحقق جماليات الطبيعة إلا من خلال عيون المحبين. ومن هنا أتت أهمية الزواج⁽³⁾.

يصور إقبال العشق كما يصوره الصوفية تصويراً حسياً اتصالاً بين جسدين. فيما أعظم من اثنين يعشقان. جنسان موصولان. تشعل المرأة نيران الحياة. وتصغرها في الروح، وخلق الإنسان لا يتم إلا بها. تعيش في الضمير، وفي وهج الشعور إن غاب الشرر عنها غاب الجسم وقصر النظر. بدونها لا يكون للفرد قيمة. فقد رسمت جسده، وأثارت روحه. النظر إليها تطهير للنفس. وفي هذا العصر أفسد إيمان العوام النظرة للمرأة. دخولها إلى متعة أو إلى محرم. في الجسم نار تتقد. فلماذا لا يستفيد منها الفرد؟ من تصيبه هذه النار تتحول نفسه إلى رقيب⁽⁴⁾. العشق

=
لحنها ينفت نـار الوجود في صدر الحياة
ذلك الطين نعالني فوق أوج النيران
إنها درج لديها كل در من صفات
مالأفلاطون تروي من قضايا معضلات
وهو منها كمشرار من ذكي الجمرات
ضرب انكليم، ص 67.

St. Ref., p. 129.

(1)

(2) بغيره يتجلى جوهر امرأة
حرارة الشوق سر في بلايلها
من هذه النار أسرار الحياة بدت
كذلكم في فؤادي للنساء أسي
السابق، ص 69.

St. Ref., p. 133.

(3)

(4) ما الحياة يا بصير هل فهمنا
يربط الجنسين موصول الصلات
تشعل المرأة نيران الحياة
أضمرت في الروح منها نارنا
ممكنت العيش منها في الضمير
إن يغب عن هذه النار الشرور
ما لنا من قيمة، منها لنا

له متطلباته فإن لم تتحقق فليضرب الكأس البيت المصون⁽¹⁾. والعشق لا يدان كما يدان أهل الكلام⁽²⁾.

وحصانة المرأة بينها، في عصمة رجل يحفظها ويحميها أكثر مما يفعل العلم أو الحجاب. وإن غابت هذه الحصانة عن أمة تنكشف لديها الشمس، وتغيب عنها الحقيقة⁽³⁾.

ومن وسائل النهوض بالامة النهوض بالمرأة. والمرأة في الإسلام هي المرأة المحجبة. تلون الأحجية، والدنيا واحدة. وتعدد الأنقة، والوجه واحد. فمتى تبرز الذات من الحجاب؟ المهم هو الخروج عن حجاب العقل وستر الذات⁽⁴⁾.

ويقيد إقبال حرية المرأة. وهي قضية العصر. يمكن التفرقة فيها بين الشهد والسقم. والناس أقرب إلى التمدن، وبالتالي التأكيد على حرية المرأة. والفصل في ذلك للمرأة ذاتها. ويعجز عنه الرجال. وأيهما أجمل زينة حرية المرأة أم تزيين جيدها بالدر الثمين، بالزوج والأسرة والبيت؟⁽⁵⁾. وأنبياء الأمة للإصلاح الاجتماعي

طهر النفس بتقدير لها انظر يكشف السر الخفي قولنا أي فرد حولها لم يستفد يجعل النفس على الفعل الرقيا	إن حباك الله عقلا للتفكر أنسد الإيمان فيك عصرنا في الجسوم الخلق نار تنقد من ينل من هذه النار النصيبا جاويد نام، ص 201 - 202.	=
بكأسك فاضرب البيت المصونا	(1) إذا كان هذا دأب عشق أرمغان حجاز، ص 424.	
وكم لمحنك عابوا الكلاما	(2) أدانوا عاشقا رشف المداما السابق، ص 435.	
من حاز برد دمائه غضب لا العلم يحفظها ولا الحجب فكسوف شمس فيهم كتب	(3) في الصدر حق ليس يدركه حفظ الأتونة في يدي رجل إن غاب هذا الحق عن أمم ضرب الكلم، ص 68.	
ولم تنض دنيك هذا الأهاب فذي في نقاب وذا في نقاب ومن برزت ذاته من حجاب	(4) أرى فلكا كل حين للون ولا فرق ما بين عرس وعرس ولم يزل الناس رهن حجاب السابق، ص 66.	
وإن كنت بين الشهد والسقم أفرق وقبلا بنو التمدن عني تفرقوا	(5) قضية عصر لست فيها بفيصل وما نفع أقوال تزيد ملامتي	

يحبذون قدرأ ضئيلاً من التعليم على النمط الأوربي لأنه سيحيي المرأة المسلمة الحديثة، ويجعل دموعها مجرد ذكريات أليمة. قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن يُخشى أن تجد نفسها عارية ومضطرة إلى تغطية جسدها من عيون هؤلاء الأنبياء الشبان⁽¹⁾.

لم يكن الهدف من نظام تعدد الزوجات أن يكون نظاماً عاماً. بل هو استثناء خاص يُسمح به استجابة لبعض الصعوبات التي توجد لا في المجتمع الإسلامي وحده. فالطلاق هو أبغض الحلال عند الله. لذلك يسمح بتعدد الزوجات للاختيار بين أهون الضررين. وتجنب الطلاق ليس هو المبرر الوحيد. هو تنازل جزئي لطبيعة الرجل التي تميل إلى التنوع دون الهرب من مسؤولية هذا التنازل. وفي إنجلترا يسمح للفرد بمثل هذه الرخص، ولكن القانون يتركه لممارسة هذه الحرية الجنسية دون مسؤولية. فهو ليس مسؤولاً عن تعليم الأطفال. ولا يرث الأطفال منه شيئاً. ولذلك نتائج وخيمة. كما اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بالعهر كنظام اجتماعي. مهمة الدولة القبيحة الرعاية الصحية للعاهرات. وأشهر نقد لنظام الزوجة الواحدة هو وجود نساء كثيرات في البلاد الأوربية بلا أزواج بالرغم من أن نظام الطبيعة يكفل تساوي عدد النساء والرجال. وقد عوضت العانسات في أوروبا عن ذلك بالانشغال بمسائل أخرى غير إنجاب الأطفال. وحملن الأفكار وليس الأطفال. ثم انشغلن أخيراً بموضوع مساواة النساء مع الرجال في الانتخابات من أجل إيجاد مشاغل لهن في ميدان السياسة. فإذا لم يسمح المجتمع لهن بإنجاب الأطفال فإنه يعطينهن ما يشغلن. وحركة المطالبة بالاقتراع في أوروبا هي حركة مطالبة بالأزواج وليس بالانتخاب. هي مجرد مظاهرة ضد البطالة⁽²⁾.

ويعجز عنه في الرجال المحقق
أم الجيد بالدر الثمين يُطوَّق؟

يُبين هذا السر وجدان امرأة
أحرية النسوان أجمل زينة

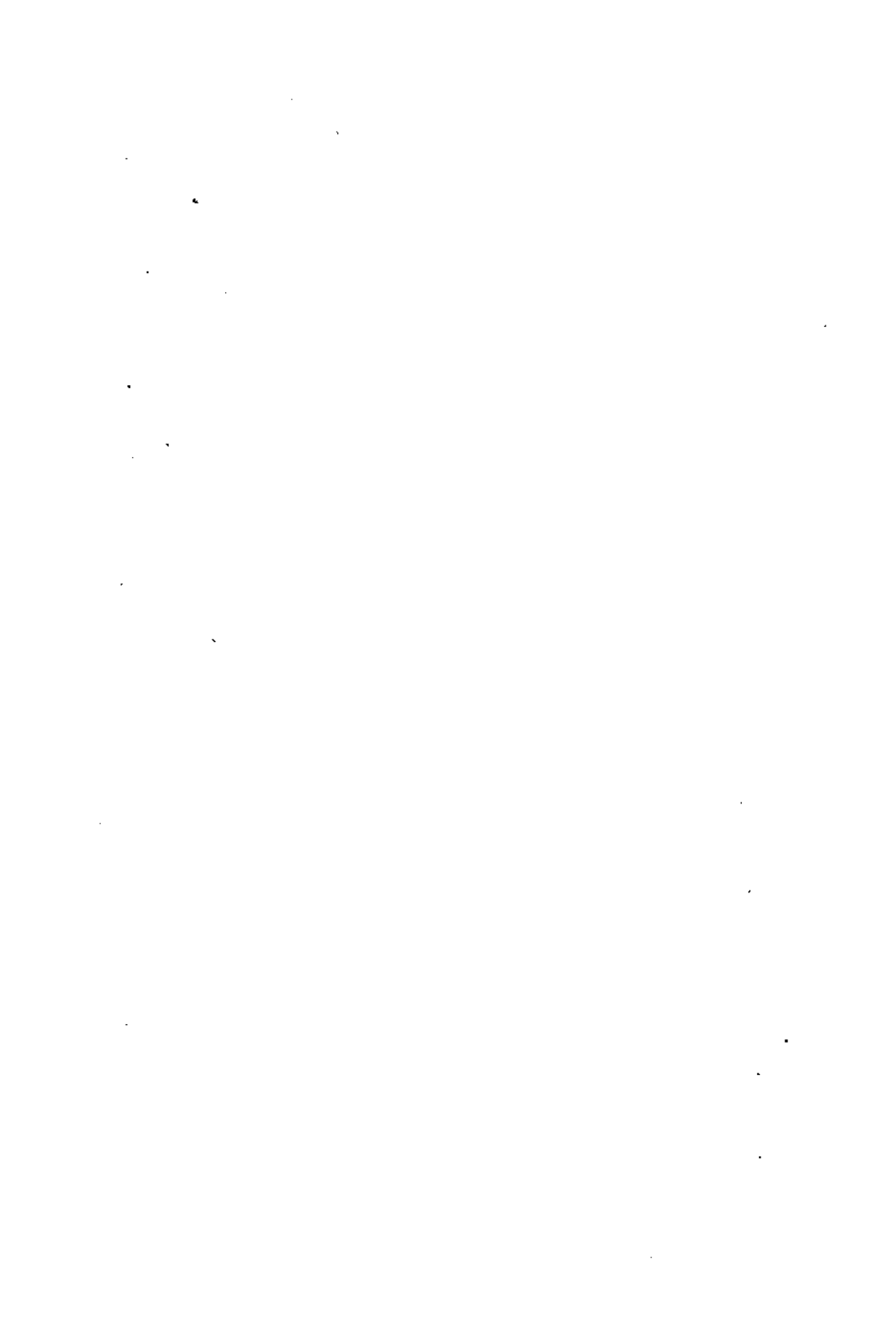
السابق، ص 68.

St. Ref., p. 124.

(1)

Ibid., pp. 62 - 5.

(2)



الباب الخامس

الذات المضادة



الفصل الأول

الغرب والتغريب

1 - رسالة المشرق

ظهر ديوان «بيان مشرق» لأول مرة بالفارسية عام 1923، رداً على ديوان جوته «الديوان الشرقي للشاعر الغربي». وكتب فوقه آية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وتحت «جواب ديوان الشاعر جوته».

ليس كله في الغرب بل القسم الرابع منه فقط بعنوان «نقش الفرنج». ويعني النقش هنا الموضوعات⁽¹⁾. إذ ينقسم الديوان إلى خمسة أقسام: شقائق الطور، الأفكار، الخمر الباقية، نقش الفرنج، الدقائق⁽²⁾. وتحتوي الترجمة الإنجليزية على بعض الزيادات. وربما تحتوي الترجمة العربية على بعض الحذف⁽³⁾.

وفي مقدمة إقبال للديوان يذكر وصف هايني الشاعر الألماني ديوان جوته بأنه باقة من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق. فقد حن المغرب بروحانيته الضعيفة الباردة. فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق. فهو ديوان يدخل فيما عرف باسم تأثير الشرق في الأدب الألماني.

Thèmes.

(1)

(2) شقائق الطور The Tulip of Sinai .

(3) رسالة الشرق (ببام مشرق) نقله إلى العربية د. عبد الوهاب عزام. وله ترجمة بالإنجليزية قام بها هادي حسين - I - A Message from the East, A selective verse rendering of Payam Mashriq, by Hady Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

كان جوته منذ شبابه يميل إلى الشرق. ولقي هردر في استراسبورج حيث كان يتعلم القانون. تأثراً بسعدي وحافظ. بل إن شيلر نفسه قد تأثر بالأدب الشرقي في قصته «ثوران دخت» المأخوذة من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع لنظامي. وبعد نشر الترجمة الكاملة لديوان حافظ في 1812، بدأ الأثر الشرقي بوضوح عند جوته بعد أن ستم من انحطاط الغرب عامة، وألمانيا خاصة. كما تأثر بالعطار وسعدي والفردوسي⁽¹⁾. وكان يأمل في أمريكا الجديدة كعنصر تصحيح لانحراف أوروبا.

والديوان صوفي خالص، أقل فلسفة وسياسة وواقعاً من «أسرار النفس» و«ضرب الكلیم». ولا جديد فيه بالنسبة لموضوعات الدواوين السابقة. اعتمد على جماليات الشعر. وهو أقرب إلى الفن للفن منه إلى الفن للحياة. يغيب عنه الحس النقدي. كما أنه أقرب إلى شعر الطبيعة. وهو في نفس الوقت نشيد للعشق ضد العقل والعلم والفلسفة والفقه. وهو أقرب إلى الدفاع عن التصوف منه إلى نقده. أحياناً يبدو غامضاً لأن الشاعر هام في كل واحدة، وبعد عن الإصلاح. يمثل الرومانسية الإسلامية كما يمثل شاتوبريان Chateaubrian ودي لامنيه De Lammenais الرومانسية المسيحية (الكاثوليكية). لذلك تفرقت موضوعاته عبر الأبواب والفصول السابقة دون أن يكون له باب أو فصل خاص⁽²⁾.

والعنوان الفرعي الثاني لديوان إقبال الآخر الذي نشره عام 1937 قبل وفاته بعام واحد «ضرب الكلیم». وعنوانه الفرعي الأول «عصى موسى». هو «إعلان الحرب على العصر الحاضر» خاصة القسم الخامس منه «سياسات المشرق والمغرب»⁽³⁾.

(1) أيام مشرق، مقدمة إقبال، ص 253 - 259.

(2) نظم عبد الوهاب عزام بعدما قرأ ديواني «أسرار خودي» و«رموز بي خودي» قصيدة بعنوان «اللمعات» ونشر الأبيات الأولى منها. ثم استأنفها بين الحين والآخر. وبعد أن أتم ترجمة «أيام مشرق» أكملها وأهداها إلى الشاعر. ونشرها كملحق للديوان مقلداً إقبال سواء في الشكل الأدبي، الشعر الفارسي والأوردي أو في المضمون ابتداء من العنوان «اللمعات» أي الاشراقات والإلهامات حتى الموضوعات: صفاء الهمم، العالم معبد، لا رهبانية في الإسلام، معنى التوكل، غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل، طغيان العقل على القلب، البيت، تفاخر الجماعة، الشيوعية، إقبال، دعاء. رسالة المشرق، ص 343 - 368.

(3) محمد إقبال: ضرب الكلیم، عصى موسى، إعلان الحرب على العصر الحاضر. نظمه باللغة =

يعترض إقبال على أوربا، ويحتج عليها، ويقف ضد الانبهار بها. يلعن أوربا وسحرها، وقدرتها على الأسر والإبهار، ونزع أسلحة الآخرين. قبائلها الهمجية تُشعل النار. فيمتد لهيبها إلى كل شيء. وتحطم العالم. تبني دوراً جديدة للعبادة، والأرض في حاجة إلى إعادة بناء يقوم به المسلمون إذا نهضوا⁽¹⁾.

2 - الموت في الروح

لقد فصل الغرب بين النفس والبدن، بين الروح والجسد. فوقع في ثنائية حادة متعارضة بين السماء والأرض، بين المثال والواقع على التبادل⁽²⁾. فماتت النفس، وانحل الجسد.

لذلك أقام الغربي حكمه على الشيطان الذي انفلت من كل قيد. الصحراء أجمل من بستانه. والفقر أفضل من مدنه الخادعة⁽³⁾. الجسم صحيح، والروح عليل. يحقر الدين، ويعظم العلم والفن. ينتهي العقل إلى الكفر، ومصير الإنسان العقل. الكل يقتل الكل. الحذر من نار الغرب واجب، وإلا مات القلب، وحيا الظاهر⁽⁴⁾. بريق حضارة الغرب الترف. ولم تستطع فتنة الشاعر وهو ابن المدينة والنجم وغبارها في مقلتيه، قطرة للعيون، وأنجع دواء لعله. وما زال مقيماً في العالم، بالرغم من تقلبات التاريخ، ورياح القرون، كل مستبد عتي⁽⁵⁾. ويظن الغرب

= الأوردية شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام بك، سفير مصر لدى باكستان، جماعة الأزهر للنشر والتأليف. مطبعة مصر، 1952، ص 99 - 124.

(1) Persian Psalms, p. 76.

(2) وبين الروح والجسد الفراق
بغرب، أين في الحكم الوفاق؟
زبور العجم، ص 383.

(3) وغربي له حكما أقاما
ومن بستانه الصحراء أجمل
لدي الكفار زاد الكفر عقل
وهذا راصد ولذا السكمين
ليدخل ذلك الصمصام غمده
عن الشيطان قد خلع الزمام
مدينه فدع، فالفقر أفضل
وللإنسان عند الغرب قتل
إلهي! كن لهم نعم المعين
ولا أهلك الإنسان بعده
السابق، ص 394 - 395.

(4) وإلا نار غرب خذ وحاذر
السابق، ص 401.

(5) بريق الحضارة أوج الترف
لدى الغرب لم يستطع فتنتي =

أن رفاهيته ستبقى إلى الأبد، وأن الوفرة لن تزول. عقله طائش، ورغبته غير ناضجة⁽¹⁾.

لم يعلم الغرب غيره الا الترهات. وصار «الملا» هو الآخر عاراً في الحياة. فلا الجديد غير ضار، ولا القديم نافع⁽²⁾. لقد جفت دموع عيون أوروبا. وما تبقى لها من قطرة لا تبدد ظنونها⁽³⁾. صرح أوروبا مضيء معتم، مرايا من جليد. لا تعكس نور الحقيقة مثل الإسلام⁽⁴⁾. إن موهبة أوروبا أن تحيل العصر إلى ليل من التيه. ويظل أثرها محدوداً. فكم وردة قصفت في رياض المسلمين ولم تمزق بستانها. فمازالت عند المسلمين حرارة الحب من خمر اليقين. ولا ينكر ذلك إلا واهم⁽⁵⁾.

في الغرب لا يساعد علم على الرؤية. من أبدع فيه لم يُحاسب. يكفيه السعي وليس إدراك الصواب⁽⁶⁾. يخطئ الغرب في أحكامه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. يسحر ويمتدح شعوب الأرض. ويلعب بهم كما يلعب بالنرد. يسرق

- = أنا ابن المدينة وابن النجف
غبارهما قطرة للعيون
مقيم برغم رياح القرون
جناح جبريل، ص 437.
- (1) يرى الغرب أن بقاء الرفاه أن يستمر بهذا النهج
فكم يفعل الطيش في عقله
رغم أن الغرب ما علمني
فأنا يؤسفني (الملا) الذي
السابق، ص 419.
- (2) فكم يفعل الطيش في عقله
رغم أن الغرب ما علمني
فأنا يؤسفني (الملا) الذي
السابق، ص 419.
- (3) حاشا لأوروبية السني
حاشا تنير بسقطرة
السابق، ص 431.
- (4) وعجوز حانتنا يقول مؤكداً
هذي المرايا من جليد ما لها
السابق، ص 455.
- (5) أقصى مواهب أوروبا النسيطة أن
كم وردة قصفت في روضنا يدها
حرارة الحب من خمر اليقين وما
السابق، ص 457.
- (6) في الغرب كنتُ وقلما عيني رأت
جاويد نامة، ص 168.

الثروة، ويبذر العداء بين شعوب الشرق. ويتقاتل على الغنيمة. يعتبر الآخرين سلطة وهو التاجر. يحب المال كما تحب الأمة وليدها. يخرج الماء من جذع الشجر بحثاً عن حلو الثمر. وكى لا يتحرك المستقبل ضده، قتلوا الأجنة في الأرحام. لديه إبداع في كل الفنون، يقلدها الناس. وقراءة الكتاب تساعد أسير التقليد أن يفك من أسرهِ⁽¹⁾.

صدر الغرب يرضيه اللهيبي. استطاب لذة السطو الغزو. نكس أعلام الأمة، ونهب أموالها. واستمد بطش إبليس. وحول النور إلى جحيم. تعود على القتل. ونزعت من قلبه الرحمة. كان الأولى أن يكون مؤمناً أو أن يُقتل بسيف الكتاب⁽²⁾. لم يشأ الغرب الرقي، بالرغم من أنه أشاد ألف شكل له. حرّق الديار. ومزق غصون العشوش. ظاهر الرقي يبدو للعين، وروض القلب يشعر به الفؤاد، ومصير الشرق يرجى وراء مظاهره⁽³⁾.

(1) بنس ما في الغرب حقاً حكمهم
يسحرون، خذع دهر خذعهم
يسرقون، ذا ثري ذاك كادح
يكشف السر جلياً قولنا
جفنتهم في المال حبا قد جمد
ويلهم! خوفاً على حلو الثمر
ولكيلا يبعث العود الرنينا
عندهم من كل فن كثرة
يا أسيراً كان من تقليدهم
السابق، ص 204.

(2) صدر أهل الغرب يرضيه اللهب
نكسوا الأوضاع في أيامنا
واستمدوا بطش إبليس الرجيم
قتله ما زال كالأسر الصعب
كان أولى مؤمناً أن تجعله
السابق، ص 209 - 210.

(3) الفرنج بالرقي ما أرادوا
ظاهر منهم دياراً حرّقا
ظاهر يبدو لعين لامعا
ومصير الشرق هذا من درى
السابق، ص 307.

وبيزد الميت موتاً ضورهم
من شعوب الأرض كان نردهم
بالعداء بعضهم للبعض كاشح
سلعة نحن وهم تجارنا
كل أم آدها ثقل الولد
يخرجون الماء من جذع الشجر
في البطون قتلوا حتى الجنينا
كل ما حصلت منهم عبدة
الكتاب اقراء، وعد من أسرهم

لذة للسطو والغزو استطابوا
نهبوا الأموال من أقوامنا
تصبح الأنوار نارا بالجحيم
إنه قد ضاع في عمق القلوب
وبسيف للكتاب تقتله

ألف فردوس من الألوان شادوا
والغصون بالعشاش مزقا
وهن القلب لعين خانعا
أي تدبير وتبغى مظهرها

وإذا كانت مهمة الحياة التنفس بحرية من هذا الإنسان الهش فإن الحياة الحقّة هي التحرر من الطلاسم. علم الغرب فان. زفراته حلوة، ولكن الدمع في العين، والرؤية ضعيفة⁽¹⁾. علوم الغرب نهب. وبدون علي بن أبي طالب يكون مجرد دير خبير⁽²⁾.

الحرية في الغرب خادعة. فقد سمحت الحضارة الحديثة لكل فرد أن يفكر ويسلك كيفما أراد. هي حرية ظاهر، والواقع استبعاد، يشرب هو الحل، وليس الغرب. فهي الدواء لكل داء. وكيف تضيع المعرفة والإيمان بسبب شك الفرنج ووسوسة البرهمي⁽³⁾. الغرب وهم مفرح. والحقيقة أنها سفينة تفرق. في خمر أوروبا شعاع يذوب ويتألق، بالرغم من أكارها⁽⁴⁾.

عرف الغرب بالعقل والحسن، بالفكر والجمال، بالفلسفة والفن، ولكن القلب نواح من الألم⁽⁵⁾. حاول الوصول إلى الكمال في خلقه. وقلده الشرق في تشييد الأصنام⁽⁶⁾. قال «لا إله» أي أنه نفي، ولكنه لم يقل «إلا الله» أي الإثبات. فتاه العقل⁽⁷⁾.

Persian Psalms, p. 58.

- | | | |
|-----|-------------------------------|----------------------------|
| (1) | وعلم الغرب نهب يُذكر | وبلا حيدر دير خبير |
| (2) | سمحت حضارتنا الحديثة هذه | للناس يتجهون كيف أرادوا |
| (3) | مَكَرَتْ بعالمهم فظاهر أمرها | حرية والواقع استبعاد |
| | مولاي خذ بيدي ليشرّب إنه | بتراب بترك المطهر مرهمي |
| | ضيعت معرفتي وإيماني على | شك الفرنج ووسوسات البرهمي |
| | جناح جبريل، ص 435. | |
| (4) | إن كنت من وهم بشئ مفرح | تأسى فإنك في السفينة تفرق |
| | في خمر أوربته شعاع ذائب | بالرغم من أكارها يتألق |
| | السابق، ص 465. | |
| (5) | شعبه بالعقل والحسن اشتهر | وهو في الآفاق معروف الخير |
| | دُحِجَتْ كَأَسِي ولكن في دماء | نواح نابي للآليم من أساء |
| | جاويد نامه، ص 259. | |
| (6) | وقنيل ذلّ أصنام الجمال | تشبه الإفرنج في خلق الكمال |
| | السابق، ص 301. | |
| (7) | إنما المسكين قال: لا إله | فكره ند ومنه العقل ناه |
| | السابق، ص 316 - 317. | |

الغرب بلا عقل أو قلب أي إنه بلا فؤاد أو لب. يوهم نفسه بأن العقل في كمال وافر. يقوده العقل إلى الطبيعة، وقلبه وراءه خائف وجل. فالعقل الغربي صوري مجرد، كمي قياسي، آلي مادي، مما آثار الرومانسية وكل المذاهب الحيوية. وانتهى إلى الشك والنسبية واللاأدرية والغنوصية والعدمية كما هو الحال عند نيتشه⁽¹⁾. يعيش الغرب في راحة اليأس. يواجه سيلاً عنيداً ولا يستطيع حماية نفسه⁽²⁾.

يأخذ إقبال نيتشه نموذج الحضارة الغربية في معراجه وهو يسبح في ما وراء الأفلاك. ويسميه المجنون. ويحييه الرومي، وهو مشهود الذكاء عند الألمان. يعزف نفس الحلاج بلا عوده. وهو جريء القول، براق الفكر. شطره سيف الفرنج. في رأي الطب مجذوب لا يعرف العشق. ابن سينا قادر على علاجه بفصد الدم أو بالحب. كان كالحلاج في الغربة. فر من قتل رجال الدين له وليس الأطباء. ليس لديه دليل فضل في السير. كان لديه المال الذي يعصى على العد. وينجز الأعمال وحده. عاشق له زفرة، سالك تاهت خطوته⁽³⁾. حطم الكأسات في لحظة السكر. وانفصلت ذاته عن الله. ورأى بعين الظاهر العلاقة بين العبد والسيد. ولم يشأ مقام

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | انظر خراب فؤاد الغرب يأكله
يقوده العقل في نهر يفجره
جناح جبريل، ص 440. | وعقله في كمال وافر بطر
وخلفه قلبه يمشي على كدر |
| (2) | قال أهل البحار أهل البراري
واقف في طريق سيل عنيد
السابق، ص 458. | ليس للغرب غير راحة بأسه
ليس يقوى على حماية نفسه |
| (3) | قلت للرومي ذا المجنون من؟
كان بين العالمين موضعه
إنه الحلاج لكن أين عوده؟
وجريء القول براق الفكر
عند أهل الطب ختل ما وجد
ابن سينا في كلام قال أفصد
كان حلاجاً بأرض كالتغريب
الطريق في الفرنج من عرف؟
الطريق ليس فيه من دليل
كان مالا لم يجد من عده
عاشق لكن طوته زفرته
جاويد نامه، ص 282. | قال: في الألمان مشهور الزكن
وقديم اللحن منه نسمعه
قال قولاً وسواء لا يعبده
قوله السيف الفرنج قد شطر
وبل مجذوب لإفرنج ولد
أو بحب من شكا الأوجاع أرقد
فر من قتل الفقيه لا الطبيب
فعللى قيشارة دوما عزف
ضل في سير وفي سير وبيل
ينجز الأعمال لكن وحده
سالك قد تبهته خطوته |

الله أو الوصول إليه بالعقل. ظل في مقام «لا» أي النفي دون مقام «إلا» أي الإثبات. يحب الإنسان ولم يجده. عاش كموسى وحيدا. يا ليتة عاش عصر المصطفى. طال في مقام واحد، ولم يعبره إلى آخر⁽¹⁾.

3 - السفور

المرأة لها نموذجان: الأول، المقلدة للغرب، المرأة السافرة وهي أحد مظاهر الاغتراب. والثاني، المرأة المحجبة أحد رموز النهوض. فقد حاول كثير من الحكماء حل قضية المرأة. والحقيقة أنه لا لوم على المرأة الغربية لأنها في فساد شائع كما شهدت بذلك النساء الفضليات. وكل امرأة تعاشرهن يعدوها الفساد ولا يعرفن طباع المحصنات⁽²⁾.

السفور فضيحة العصر، نور في الظاهر وظلمة في الباطن. قد تتمتع العيون ولكن يتشتت الفكر. وقطرات الماء لا تتحول إلى در خارج أصدافها بقاع البحر. واستحكام الذات ممكن دون خلوة المساجد والأديرة⁽³⁾.

- (1) حطم الكاسات ذباك الشمل
ورأى لكن بعين الظاهر
ومقام لئله ما يريد
إن تلك الذات شرح للحياة
ظل في «لا» وحدها هذا العجيب
طلعة الإنسان راقته منه عينا
أو عن الناس نراه راغبا
ليته من عاش في عصر لأحمد
السابق، ص 283.

- (2) كم حكيم قد تمنى حله
لا تلمها في فساد شائع
عشرة الأفرنج نهج مفسد
ضرب الكليم، ص 66.

- (3) فضح العصر جنة بالسفور
إن تجز متعة العيون مداها
قطرة الماء لا تتحول دُرّا
تمسك الذات بنفسها حين تخلو
السابق، ص 67.

وعن الله وذات منفصل
الرقيق في العنيف القاهر
وعن العقل البعيد والبعيد
«لا» و «إلا» من مقامات الذات
عن مقام «عبده» وهو الغريب
ثم صاح ذلك الإنسان أينما؟
وكموسى للقاء طالب
ليعيش في الحبور وهو سرمد

مشكل المرأة في هذي الحياة
شهدت بالطهر كل النيرات
جهل الحمقى طباع المحصنات

نور عين وظلمة في الصدر
كان فيها الشنات في التفكير
دون أصدافها بقاع البحور
لا خلأ بمسجد أو ديور

ينتقد إقبال تحديد النسل في الغرب ومنع الحمل إما بسبب عقم النساء أو عجز الرجال أو عدم الرغبة في الإنجاب. وقد شاع هذا النموذج خارج الغرب أيضاً⁽¹⁾. لذلك ماتت الأمومة في الحضارة الغربية. والموت مصير طبيعي للإنسان في الغرب. فإذا ما أخرج التعليم في الغرب المرأة عن طبيعتها فإنها تموت. وحرمت الفتاة من تعليم الدين في المدرسة. والعلم والفن لا يكفيان⁽²⁾.

درس الغرب هو مركزية الحور، نشوى الحاضر وفي نفس الوقت منطلق الغرور⁽³⁾. فالحذر من وضع الغرب الحور في العين والقلب⁽⁴⁾. ويشكو إقبال بأن حور الغرب ألقت الشباك على مفاتن الشرق. صرعت كل الناس بمن فيهم ذوي الألباب حتى لم يبق فيهم حراك. ويحذر الرومي إقبال من الخداع بالمظاهر. عندما يفرك الفضة ينظر إلى يديه أي ما تركته فيها الفضة من صدأ. حضارة الغرب بريق فضة يعلوه صدأ⁽⁵⁾. ثم يستمر إقبال في السؤال: إلام سحر الإنجليز؟ يحج الطالب

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | إلى عالم الغرب من أسلست
كمال معشورة عندكم
السابق، ص 66. | له الروم والهند يرجى سؤال
حيال النساء وعطل الرجال؟ |
| (2) | موت الأمومة إن رامت حضارتهم
إن يجعل المرأة التعليم لا امرأة
إن تحرم الفتاة الدين مدرسة
السابق، ص 69. | فالموت عاقبة الإنسان في الغرب
فالعالم موت يراه صاحب القلب
فالعالم والفن موت العشق والحب |
| (3) | تذكروا روحى دروس الغرب
فآه بالفرحة الحضور
جناح جريل، ص 455. | أيام حوره سكرن جنبي
وآه من منتطفه المغرور |
| (4) | انحور في الغرب سكر القلب والبصر
السابق، ص 434. | فاهدأ قليلا وكن منها على حذر |
| (5) | قال: حور الغرب ألقت فتن الشرق شباكها
صرعت ذا اللب حتى
قال: يا إقبال! احذر
عندما تفركها الفضة انظر لسيدك
قال: يا رومي! وسحر الإنكليزي إلاما
ياخذ الطالب لحما
قال: كالعصفور إن لم
هجم القط عليه
السابق، ص 524. | لا ترى فيه حراكها
ظاهرا يطغى عليك
ثم يرميه عظامها
يكمل الريش وطار
ورمه للصغار |

إليه لحماً ثم يرميه عظاماً. ويجيب الرومي أن ذلك بسبب أن العصفور يطير قبل أن يكتمل الريش. فهجم القط عليه ورماه للصغار. فالطالب الذي يذهب إلى الغرب غير واع. تنهشه حضارة الغرب وتقضي عليه. في خمر أوروبا سم يسمم شعوبه. يفني شبابه بالتسكع فيه. فتضيع مواهبه، وتبذل كرامته⁽¹⁾.

المرأة في الغرب مثل فتاة المريخ التي ادعت النبوة. وهي حسناء ادعت النبوة في العالم مثل الغرب تماماً الذي يهر بريقه ليستولي على العالم⁽²⁾. رسالتها للنساء أنها ليست خليلية للرجال، بل تريد أن تكون خليلية. يظلمها الرجال ويحرمونها من ذاتها. ترخي شعرها بالمشط لغواية الرجال. يصيدونها بعد أن يدوروا حولها. يدون العشق والهيام لخداعها. هم كفرة يقيمون الحرم وكله ألوان الألم. وإذا تم الاتفاق على الزواج فإن الوصال سم. والفراق شهد. وتنتهي نبية المريخ إلى تحذير المرأة بأنها ستذبل لخداع الرجال لها خليلية أو خليلية. وعليها مقاومة خدعة الفطرة كي تكون حرة بافتراق الجسدين، والابتعاد عن الرجال⁽³⁾.

ويندب الرومي هذا العصر الجديد، ويعني الغرب ووضع المرأة فيه الذي لم يعد يؤمن بالله. فالعشق سر الحياة، وهو دينها الأوحده. تحرق المرأة في الظاهر،

(1) في خمر أوربه لشعب كامل
تغني بنيه بالتسكع خلفها
السابق، ص 530.

(2) فُرْزَمَزُزُ في حديث قد صدق
لَقْنُ الحسنة أسرار النبوة
جاويد نامة، ص 244.

(3) يا نساء، أنت يا أمي الجليلة
عبيتها ما كان إلا ظلمها
إننا بالمشط تُرخي شعرنا
الرجال صائدون، حذر كن!
وإذا ابداوا هياما مأكرونا
كافرون، ويقيمون الحرم
كل أم سوف تضوي في ذبول
غالب ما الناس قد سموه فطرة
بافتراق الجسدين وحُدي
السابق، ص 244 - 245.

سم يسمم ذاته وإرادته
تمحو مواهبه تبذل كرامته

من بلاد الغرب إياها سرق
ثم في العالم ألقاها بقوة

قلن لي حنّام عيشي كالخليلة؟
إنما الحرمان في الدنيا لها
في الرجال قد وجدنا صيدنا
ولأجل الصيد داروا حولكن
ويشوق وشجون خادعونا
ولكن فسيه ألوان الألم
طاب عيش ليس فيه من حليل
والفتاة فلتكن من بعد حرة
كي تصاني، عن رجال فابعدي

وينور الإله تشرق في الباطن. نارها أوجدت كل الفنون. وكل فن جنون. بالعشق ينتصر الدين، ومن العشق يؤخذ منه⁽¹⁾. ويسميتها إقبال أحياناً «فتاة المجتمع» التي تتجمل على طريقة الكفار وإعطاء الخد بدعوى الحداثة والعصرية. ونسيت دور الأم⁽²⁾.

4 - عبادة المال والقوة

عبادة الغرب جمع المال. وهو ما يفخر به كقيمة. أباح العشق والسكر دون ضبط الهموم⁽³⁾. لذلك سيطر اليهود على الغرب، وتحكموا في مقدراته. استولى البخلاء على الأغنياء. يشتري اليهودي نصف كفته ويستعير الآخر⁽⁴⁾.

أدرك إقبال ببصيرته سيطرة اليهود على أوربا. وقد توفي قبل مأساة فلسطين بعقد من الزمان. في الغرب نظام ومال وعيش رغد، ولكن أيضاً فيه ظلمة القلب. ودخان المصانع لا يؤدي إلى تجلي الذات. الحضارة الغربية بالرغم مما يبدو عليها من تقدم، في احتضار. وهنا ظهر اليهود لورائتها واستعمالها لحسابهم الخاص من

- | | |
|---|---|
| (1) يا لعمرى كلهم بالله يكفر
في الحياة ما لنا دين سواء
وينور الله قاع يشرق
كل فن كان من فرط الجنون!
ذلك الدين فخذ عن عاشقين | مذهب العصر الجديد! قف لتنظر
إن هذا العشق شرع للحياة
وهي في الظاهر نار تحرق
ناره قد أوجدت كل الفنون
إن عشقا بؤاً العلياء دبنا
السابق، ص 246. |
| من الكفار نزيين أيعجل؟
فإن الغزو من عين النامل
على حسن تفتح منه باب
عليه في تجليه الحجاب
بنظرة هذه الأم الحنون
إلى القرآن عودي بالبصير | فتاتي دعك من هذا التجمل
وصدي القلب عن توريد خد
ضمير العصر ليس له نقاب
بنور الله دنيا فلتنيري
أصبنا العقل من ذاك الجنون
ومن ليل لنا فجرا أنيري
أرمغان حجاز، ص 474 - 475. |
| تنخر في روحه السقيم
أن اضبط النفس في همومي | (3) عبادة الغرب جمع مال
العشق والسكر ما أباحا
ضرب الكلبي، ص 19. |
| ويهودي لكفن نصفه الثاني استعارا | (4) مثل كريباس والباس يخطط نصفه
جاويد نام، ص 303 - 304. |

خلال الاستيلاء على الكنائس وكما هو واضح الآن في المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية⁽¹⁾. ويسخر إقبال من التقدم التقني الغربي مثل الطائرة. فقد صنعت من الطين وطارت إلى السماء مثل جبريل، وكأن البشر أصلحوا ما في الأرض فلجؤوا إلى إصلاح السماء⁽²⁾.

الغرب مدجج بالسلاح للدفاع عن الباطل. ويبرر باطله باستعمال الحضارة والدين. الجهاد للدفاع في الشرق شر مستطير. والحرب في الغرب للعدوان مجرد شر وليس جريمة. فأين الحق، مع الغرب المعتدي أم مع المسلم المقاوم؟⁽³⁾.

لقد نشر الغرب أسواقه ومن حولها الجند بالسلاح. وسلعه شراك للشراء. ومتجره ظل عرش وتاج. فالرأسمالية مقدمة للاستعمار، والاقتصاد وسيلة للسيطرة السياسية. في التجارة منفعة، وفي السياسة عدوان. باللسان الكلمات العذاب، وفي القلب الحقد الدفين. تتم مقاومته بالزهد في تجارته، ففيها الخسارة. ونسيج الذات أقوى خيوطاً، وثيابها أنعم. تدور آلاته وهي تحمل المنايا. ويميت بالغش من غير حرب. ويمص دماء البشر. مقاومته بمقاطعته ورفض نقش البساط اكتفاء بالحصير. وفي معاملاته لا يعطي الوزير بالبيدق في لعبة الشطرنج. بريقه زائف. يجمع النقود، ويبيع الضمير. وعاء المسك لديه مصنوع من عظام الكلب، وليس من قرن الغزال. هو ماكر كالشعلب، غادر مثله. يُعاذ من كل شروره. ومن ذاق خمره لا

(1) نظام ومال وعيش رغيد
دخان المصانع في الغرب داج
رأيت حضارته في احتضار
فليس غريباً تولي اليهود
ضرب الكليم، ص 101.

(2) من الطين صار لنا جبرئيل
أصلحت في الأرض بعد عناء
رسالة الشرق، ص 303.

(3) أما ترى الغرب بدا مدججا
يا مفتيا على الكنيس مشفقا
الحرب في المشرق شر داهم
إن يبتغ الحق فكيف حاسب المسلم لا الفرنج ذلك الحكم
ضرب الكليم، ص 18.

يعود إلى داره، بل إلى قبره. يضل البصر بألوانه وأصباغه. ويسلعه تنبيه الأمة⁽¹⁾.

الغرب جيفة لا تقترب منها الشواهين. هو مجموعة من الغربان إذا أخفت مخالبتها أعينها سكاكين. لم تلهبها الأوتار بلوعة الحب. فتغمة الملائكة لا تفتن في القلب. لقد أتى إقبال الغرب، ولم يفتن بسكرة كأس ساقبها. فكرام الناس لا يطعنون ضيوفهم. وغزة العصر ليس لهم سلطان على العشاق. فالعاشق له من حبه كون، بالرغم من أن العشاق بين الحضور والغياب، بين الوصل والفراق⁽²⁾. إن

- (1) لقد نشر الغرب أسواقه
وسدعته شرك لئلا يشراء
له في التجارة ربح ونفع
ويلقك بالكمات العذاب
فكن في متاجره زاهدا
نسبح بلادك أقوى خيوطا
جهاز المنايا بدولابه
يميتك بالغش من غير حرب
إذا جاء يعرض نقش البساط
وإن وصلتك به رقعة
جواهره بهرج زائف
ونفجة المسك في سوقه
تنبه لهذا الدخيل الذي
ولا تتعمم بمنسوجه
وإما مررت على حانة
فمن ذاق خمرة لم يعد
بأصباغه وبألوانه
بسلعته قد غدونا سكارى

يا أمم الشرق، ص 394 - 395.

- (2) أتطلب جيفة البغربين هاتيك الشواهين
إذا أخفت مخالبتها
مضى الأوتار تلهبها
بلوعة ذلك الحب
فتغمة صور إسرافيل لا تفتن في القلب
بسكرة دل ساقبها
على مرأى أعادبها
على عشاقنا عون
له من حبه كون
من الهيجان أدومه
لعن الهجر للجرح الذي في الوصل مرهمه

جناح جبريل، ص 436.

أعظم نصيحة أعطاها أحد لوردات الإفرنج لنجله هو أنه من الظلم إعلام الخراف بشريعة الأسود. إنما سر الملك هو عدم قهر العباد بالسيوف، بل عن طريق التعليم وتذويب النفوس في النار، ثم إعادة صياغتها طبقاً للمراد، عبودية أو حرية، ذلاً أو استقلالاً. فالتعليم هو الذي يحول الرماد إلى ذهب⁽¹⁾.

الاستعمار أصل كل بلاء. يريد كليل أن يحجب الشمس، دون أن يعلم أن الليل موقوت، وأن شروق الشمس قادم⁽²⁾. ليس هناك طريق لمواجهة الاستعمار إلا القوة والنضال من أجل التحرر من الظلم والعدوان. والطريق إلى ذلك يقظة الروح حتى يهد البناء على رؤوس الظالمين⁽³⁾. ليس العدل بعيد المنال. ولا ينال أي خير من سراق أكفان القبور⁽⁴⁾.

الأرض لشعوب الشرق وليس للغرب. يعيش الغرب فيها كنزلاء، وليسوا كأصحاب بلاد. وتكون المواجهة بالثقة بالنفس، والكفر بالعدو الدخيل. فالعلاء والهوان في يد الذات، وكرامة الأجيال من صنعها⁽⁵⁾. تحيا الشعوب بقوة الحق،

- | | |
|---|--|
| (1) أبغ مرأى يدوم فيه المراد
خراف نريعة الآساد
لا ترم بالسيوف قهر العباد
ثم صغ طينها وفاق المراد
جبل التبر كومة من رماد | قال لورد من الفرنج لنجل
أظلم الظلم للمساكين إعلام
إن للملك سره فاكتمنه
وبحمض التعليم فاغمس نفوسا
أين منه الأكسير؟ هذا محيل
ضرب الكلام، ص 110. |
| (2) يا له ليلا يريد حجب شمس | (2) إن الاستعمار منه كل نكس
جاويد نامه، ص 316. |
| (3) إذا كنت تنشئ للحق نصرا
وللشرق أن يستبين الدليل
على الظالمين كئيبا مهيبا | (3) خذ السيف من عصبة المعتدين
نقد أن للروح أن تستفيق
ليجعل أنفاس هذا البناء
يا أمم الشرق، ص 392. |
| (4) نرى العدل أمرا بعيد المنال
على يدهم أي خير ينال | (4) لقد حان تغيير دنيا بها
وسراق أكفان موتى القبور
السابق، ص 392. |
| (5) وأيكم في حماها نزيل؟
وعش كافرا بالعدو الدخيل
ومجدك في الشرق عال أصيل
فأنت له أو عليه الدليل | (5) لك الأرض أم هذه أرضه
بنفسك كن واثقا مؤمنا
فمنك إليك العلا والهوان
كرامة أجياله في يدك
السابق، ص 393. |

وتنال المجد. قوة الشعب في وحدته. ومهما بان الحق فإنه يبقى زيف خيال ووهم، أماني إن لم يقرن بالقوة. والقوة دون الحق جنون وطيش ووبال⁽¹⁾.

وبالرغم من قصيدة «لينين أمام الله» خارج موضوع الحنين إلى الأندلس إلا أنها نفحة من نفحات الإيمان، ونقد للغرب عامة، والرأسمالية خاصة، وإعطاء لينين الحق في قصده، والأعمال بالنيات. يعترف منذ البداية لينين بوجود الله وخلق العالم وخلود النفس وكأنه من كبار المؤمنين المؤلهين. يخاطب الله ويناجيه بأن كل شيء في الكون من تجلياته، وأنه حي خالد يقوم بذاته، وأن العقل قاصر عن إدراك كل عظمته وكمالاته، وأنه لم يدرك لطيشه دلالات الوحي، وأن العالم قد قصر فهمه عن إدراكه⁽²⁾.

ويعلن لينين بعد أن شاهد ما يحدث في العالم بعد أن حاول فهمه ومعايشته أنه لم يكن وحده مغرورا. كانت أساطير الكنيسة حولهم في كل مكان. وكانوا مكبلين بأغلال السنين التي يصورها الله في قصص الأنبياء⁽³⁾. كان السؤال الذي يمزق قلبه والذي تركه لأباطرة الجدل واستمر معه طيلة العمر يثيره وما من جواب

- (1) على قوة الحق تحيا الشعوب
فلا شعب يقوى بلا وحدة
ومهما سما الرأي إن لم يقم
وفي قوة دون رأي جنون
السابق، ص 393.

- (2) يا من ترى في النفس والآفاق من آياتيه
الحق أنك خالد حي يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك لا يكون على يقين
والعقل يخرج مرغما عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرتة السريعة
ما كنت ترسله من الأنغام في خالد الطبيعة
سبان رضاد النجوم ومن توغل في المنبئات
وقفوا على مرصادهم والكل ينقصه الثبات
جناح جبريل، ص 490.

- (3) اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
إنني، وتعلم، لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عتمتنا تدور

مما أدى إلى تحطيمه. يعبر عن شكوك نفسه: ما أصل آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟⁽¹⁾.

والإجابة على السؤال الميتافيزيقي: أين كان آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟ إجابة تاريخية عملية إنسانية. لم يكن معاصراً عندما كان الدين أفيون الشعوب، عندما كان الإنسان مترنحاً أمام الصنم الذي خلقته يده في درب أوربا التي تأمرت على الشرق الجريح. أوهمت أوربا أنها منار الحياة. والحق أن النبع من ظلماتها نبع الحماة. تاهت في أبنية المصارف فوق أبنية الكنائس، جمعاً بين السلطتين الاقتصادية والدينية. وزينت هيكلها الجديد بكل أنواع النفائس. قيل تجارات وكل ما فيها قمار، ومؤامرات تجعل الصغار في جيب الصغار. رفعت السياسة والحكومة والكنيسة والسماة مبدأ المساواة وهي في حقيقتها مص الدماء. آياتها العري والفقر والبطالة والفساد. في حين أن شعباً كاملاً رد المحبة إلى السماء. حُصرت روائعه لما أتى عصر الكهرباء⁽²⁾.

= كنا هناك مكبلين بكل أغلال الليالي
أيام أنت تصدر الأزمان فيه عنى النوالي
السابق، ص 490 - 491.

(1) قالبي يمزقه سؤال فيه فائذن بالسؤال
تركته خوفاً من عواقبه أباطرة الجداك
هذا السؤال وكان طول العمر يرميني شريداً
ويشبرني تحت السماء أسي ويتركني وحيداً
هذا الذي أنقي بأيامي خطاماً في الوهاد
هذا السؤال وكان مغروساً كشوك في فؤادي
هذا السؤال عن الأنام ولن أجور على الأنام
وأنا تضايقتني مراقبته الطريقة في الكلام
فالمرة لما تعصف الأفكار في أرجاء روحه
لا يستطيع تخير الكلمات تخرج من جروحه
من كان آدم حين كان الطين صلصالاً عليه؟
من كان سيده سؤال لا أوجهه إليه
السابق، ص 491.

(2) إيالك نعبد - لا أضن وأنت علام الغيوب
عاصرت مترنحاً بهياكل الصنم القبيح
في درب أوربه التي انتمرت على الشرق الجريح
في درب أوربه التي تبعد منارا للحياة

الغرب حكم الآلات. لا مكان فيه لمعاني القلوب. محي الحنان من بين الشعوب. وتبدو الدلائل أنه صائر إلى فناء. يقع الغربيون في شبك حاناتهم. ويفنى شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك. وجوههم صحراء من حمرة النبيذ. وهو خمر زائف وخضاب دماء. يذوق العامل مرارة العيش. ويعبر مركب الرأسمايين في البحار. فمتى تفرق أخذاً بثأر الحق؟⁽¹⁾

وتغني الملائكة تأييداً لإقبال تأييداً لليقين. الفكر حر، لا يكبح جماعه أحد. والحب لا مأوى له. لوحة الله لم تكتمل. وجارت على السر الدفين. الكهان مع الطغاة ضد البسطاء. ولمحنهم صباح مساء لجؤوا إلى الإلحاد. الفقراء من البؤس في سكرة، والأغنياء من الترف سكارى. عبد يلم كسر الخبز من الشوارع، وعبد

= والحق أن النبع في ظلماتها نبع الممات
تاهت بأبنية المصارف فوق أبنية الكنائس
وأنت لهيكلها الجديد بكل أنواع السنفائس
قالوا تجارات نادر وكل ما فيها قمار
ومصادفات تجعل البلدان في جيب الكبار
أي لاسياسة والحكومة والكنيسة والسماء
رفعوا مساواة ثقاف وأشربوا حب الدماء
العري والفقير المبادل والبطالة والفساد
آيات أورثه التي انتشرت بأنحاء البلاد
أسفنا لشعب كامل رد المحبة للسماء
خسرت روايته بما أوحى إليه الكهرياء
السابق، ص 492.

(1) لم يبق بعد حكومة الآلات معنى للقلوب
كان الحنان ملاذنا فمحنته من بين الشعوب
ويرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم
سيبددون ويقرعون على الهزيمة سنهم
حاناتهم رقعت بما نصبوه من تنك الشباك
فإذا شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك
الحمرة المملقة فوق وجوههم عند المساء
آثار حممر زائف وخضاب زور لا دماء
رباه! أنت انقادر الحق الرحيم العادل
من ذاق من مر المعيشة ما يذوق العامل
الرأسمايون مركبهم يعربد في سحارك
فمتى تغرقه وتأخذ من مظالمهم بشارك
السابق، ص 492.

آخر يطعم حتى الأقمار. ولم يسلم الحكماء والفقهاء من طمع تأرجح في النفوس. تعارضت الآراء، وبشت الضغائن، وقُضي على الحب الذي يواسي جراح البؤساء. الحب جوهر الحياة وجوهر الذات. ويوضع هذا السر في غمد السيف بين الذل والآهات⁽¹⁾.

يصدر الله أوامره إلى الملائكة بإنقاذ هذا الكون الغريق، ورفع مقام الفقراء على الأمراء. لقد بدل الأغنياء القصور بالمساجد، وهم خلقه وأجراؤه. فليعاد النفخ في روحهم دون أي أسى على الأسرار. وعلى الحائر أن يستبدل ببرده حرارة اليقين. وللضعفاء قوة تجعل العصفور يصرع النسر. ويُمحى الماضي للقضاء على الجمود والتقليد. ويقام العدل على الأرض بسيف الإصلاح. وتُحرق الحقول التي لا تشبع الفلاح. وترفع الحجب بين الخلق والخلق. وترفع الأستار التي وضعها الكهان على الأزواق. ويخرج الكهان الغارقين في الأوهام من الكنائس. ولا يكون السجود إلا لله وإلا كانت مؤامرة مع الأصنام. وتوضع المصابيح في المساجد والكنائس حتى تنير للناس طريقهم. وما فائدة رخام أبيض والقلوب سوداء؟ وتبنى المساجد والكنائس من الطين مثل بيوت الفلاحين للمساكين. وينتهي النقش والرقيش. فالطين لا يهديه إلا الطين⁽²⁾.

- (1) الفكر حر لا يرد جماحه والحب لا مأوى له يؤويه
رباه! لوحتك التي لم تكتمل جارت على السر الذي تطويه
كهان خلقك في صفوف طغانهم يقفون للبسطاء بالمرصاد
محن صباح مساء لا معنى لها إلا لجوء الناس للإلحاد
فقراؤهم من يؤسهم في سكرة والأغنياء من الرفاء سكارى
عبد يلم من الشوارع خبزه عوزا، وعبد يطعم الأقمارا
هل تسلم الحكماء والفقهاء من طمع تأجج في النفوس وفيه
أم تسلم الآراء من لعناته هذي عطاياها، وتلك عبيده
يرعون كل ضغينة لبقائهم والحب من ألم الشقاء يصيح
سبحانك اللهم فالحب الذي بأسو جراح البائسين جريح
ذات الحياة الحب جوهر سرها والحب جوهر حياة الذات
أسفا لهذا السيف يخبط سره في الغمد بين الذل والآهات

السابق، ص 493.

- (2) قوموا إلى كوني الخريق وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
أبدلون مساجدي بقصورهم جورا على خلقي وهم أجرائي؟
قوموا إليهم وانفضوا من روحنا فيهم ولا تأسوا على أسرارهم

وفي قصيدة بعنوان «الدين والسياسة» ينقد إقبال المؤسسات الدينية ومظاهر الطقوس والعبادات الخارجية بلا مضمون وحياة باطنية. كما ينقد الصوفية الفقهاء، وأنصار «التأويل» أنصار «التنزيل». ويبدأ ساخرًا، فشر البلية ما يضحك. فقد بنيت الكنائس ضد الملوك فأصبحت طوعاً لهم. رأس الكنيسة غارق في الوداعة. والقصر يترفع على رقاب الناس. لا تفعل شيئاً لإيقاف استبداد الملوك بل تسير خلفهم لتبرير استبدادهم. يتبادلان الأدوار. ثم فصلوا الدين عن السياسة بعدما عمت الفتنة، واشتد القتال بينهما، وسالت الدماء في حروب الدولة والكنيسة. أصبح البابا سلطاناً بلا سلطان، والشعب جريح مما أدى إلى فساد الدين والسياسة معاً، تناقضاً بين اليمين واليسار. لعنة حلت على الاثنين كما تنبأ بذلك النبي في الصحراء، جمعاً بين الجند وأردشير، بين السماء والأرض، بين الدين والدنيا⁽¹⁾.

قولوا لحائزهم تبدل أمركم
قوموا إلى ضعفائهم وهبهم
وامحوا من الماضي جميع ذبوله
وخذوا من العدل الأخير لأرضهم
وتقلبوا بالنار في الحقل الذي
لم هذه الحُجب التي تلهو بهم
لا تتركوا في الأرض سترا مسيلاً
ومن الكنائس أخرجوا أربابها
لله قد شُرع السجود وما عدا
جوسوا الكنائس والمساجد لا
أنا غير راض عن رخام أبيض تلقى به سود القلوب مراحا
وابنوا من الطين المعابد عل أن يجد السكينة عابدي المسكين
يتنافسون بنقشها وبرقشها
والطين لا يهديه إلا الطين

السابق، ص 494.

عندي لرهينة الكنائس طرفة
بنيت لأعداء الملوك وأصبحت
رأس الكنيسة في الوداعة غارق
تنوي الماضي فيستبد أمامها
هذا التناقض كيف أمكن دمج
ما للقصور وللكنائس حيلة
فصلوا عن الدين السياسة بعدما
وتطاول البابا فقيل له : استرح
وتلفت الشعب الجريح فلم يجد
كانت مصالح راهب ومتوج

(1)

5 - الانبهار بالغرب

وفي الإهداء إلى الأمة الإسلامية في بداية «رموز نفي الذات» يحذر إقبال الأمة من الانبهار بالغرب أي من التغريب. والغرب لديه هم النصاري أو النصران. الاغتراب نفي للذات وأحد رموزه، وابتعاد عن الأصالة التي ترمز إليها الكعبة. الخطر إذن نفي الذات، والاغتراب في الآخر. والاغتراب الحضاري للأمة مثل اغتراب الوجود للذات وخضوعها لغيرها⁽¹⁾. يؤدي الانبهار بالغرب إلى «التغريب». وينشأ من فقد الذات، وتحويل الإنسان إلى غريب في الأوطان، واستمد أجره من غيره الذي ينصب شباكه على أرضه وقهره. ماتت الجذوة فيه لأنه حول نفسه إلى عبد. وخمدت النار في عروقه. أهان نفسه، ووضع الجبين على التراب. مع أنه فيما مضى خاض الحروب، وتحدى الخطوب⁽²⁾.

ينقد إقبال الانبهار بالغرب كما تجلى لدى «صريع الفرنج» الذي نسي ذاته،

= ثنوية لم تبق دريا صاحيا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمة
هي لعنة الدنيا كما أفضى لنا
لن تعرف الناس السلامة ساعة
أبدا مرقعة الجنيد لوحدها
إن لم يكن هو أردشير صراحة
السابق، ص 505 - 506.

(1) لك طرف بالنصاري سُحرا
صحبته النصران قلبي هجرا
أنا من نظم مديح أرفع
الأسرار والرموز، ص 77 - 78.

قيل: أهدى سحر أوربا لنا
السابق، ص 151

(2) منذ أن ضيغ من ذات نصيبا
ظل في أيدي سواء أجراه
ومضت في سيرها كل القوافل
ماتت الجذبة فيه وهو عبد
لا تظن أنه كان المهينا
إنه فيما مضى خاض الحروب
جاويد نام، ص 289.

سقت الديانة كأسها والدارا
تزجي التناقض بمئة ويسارا
بالسر هذا سيد الصحراء
إن لم تقم من حلق هذا الداء
لن تستطيع لأمرنا ترفيعا
خرف الطرائق أردشير جميعا

وعن الكعبة أبعدت السرى
حينما وجهك عندي أسفرا
لست ممن لأمير يركع

وبقائون الفرنج افتتنا

كان في أوطانه هذا الغربا
وشباك الغبير أرضى نهرا
أفسد الأعمام شأن كل غافل
ولنار في العروق كان خمد
في التراب دائما أدلى الجبينا
وتحدى وهو ذو البأس الخطوبا

واغترب في الغرب. تحولت ذاته إلى هيكل خال، غمد بلا حسام⁽¹⁾. يشك في الله وهو يشك في ذاته. الكون جوهر الذات ينكشف فيها. والمغترب يدفن ذاته في غيره. والباحث عن المعنى تزوغ عيناه إلى الغرب، ولكنه لا يجد شيئاً هناك⁽²⁾. يدعو إقبال إلى تجنب الغرب وعدم الانسحاق بسحر أوربا. فهي لا تساوي شيئاً في ماضيها، ولا في حاضرها. وكل الأبطال القدامى في الشرق والغرب، داريوس، الإسكندر، خوسرو، كايكوباد حفنة عشب جرفتھا الريح الآن⁽³⁾.

لقد أبهرت أوربا الأمة، وألهت نفسها بها، وتخلت عن ذاتها. فالحذر من أن تكسر الذات مرآتها التي تعكس فيها صورة غيرها. فلا تُترك الأصالة، أصالة الرومي. فداؤها دواؤها. وتستعيد به ما ضاع منها⁽⁴⁾. إذا انبهر الغرب بالغرب فسره قد غزا من قبل الأنام. فقد استطاع الكلیم تفجير الماء من الصخر. وشكل الحسام المستقيم أمضى من شكل الهلال المستدير⁽⁵⁾. إن بريق الغرب خادع، بريق ماسة

(1) من تجلّي الفرنج نلت وجوداً
ومن الذات هيكل الثرب خاز
ووجود الإله عندك ريب
إنما الكون جوهر الذات يجلي
ضرب الكلیم، ص 21.

(2) وصياد المعاني ما
فضاء مونسك لكن
السابق، ص 121.

(3) Persian Psalms, p. 117.

(4) إلهتک أورپیّه
ایساک آن تررضی
لا تشرك الرومي
فدواؤك الشافي
أو ما استعبدت به
إساک كنت ترى
جناح جبریل، ص 427.

(5) إذا سلب الغرب قلب الغرير
عصاك تُصدع ضمّ الجياك
فدع ترف الغمد ما للهلال
السابق، ص 427.

فهمو منك هيكلًا قد أقاموا
أنت غمد مذّهب لا حسام
وأرى الريب في وجودك أننا
فانظروا أيّ جوهر قد دفننا

رُجئت في الغرب عيناه
غزال المسك خلاله

بألسبحر عن ذاتك
عن كمر مرآتك
ولهيّيب حرقنته
في نار نظرتيه
ما ضاع من نفسك؟
جيحون في كأسك

فسرك بغزو مصير الأنام
وتعرف سيناء صدق الكلام
على فخره غير شكل الحسام

خارجي من أثر الكهرباء وليس من طبيعته⁽¹⁾.

الغرب نفسه يرفض التغريب أي ذوبان الآخر فيه. إذ يشهد الغرب أن إقبال غزنوي جرّع الغرب مصير إياز الذي قص الغزنوي صفائره المغرية كما قص صفائره أوروبا. وما يقص شعره لا يكون نموذجاً للاقتداء. وبالتالي يظل الإنسان نسيج وحده⁽²⁾.

لقد عشقت الأمة دُمي الغرب. وأصبحت تحرق النار لغيرها، لأهل الدير. أصبحت غريبة على نفسها. لم يتحقق وجودها. شربت الأمة من حان الغرب، وفي نفس الوقت شربت العذاب. وعندما نجالس أهل الحسين تبدو النيران ثلجاً مذاباً⁽³⁾. المتفرنج مثل الشيطان. رزق الله كليهما، واحتار بينهما⁽⁴⁾.

لقد ذاق الشرقي جرعة من خمر الغربي. ولا عجب أن يخرق نذره بالامتناع عن الشرب. لقد علم الغربي بأفكاره الجديدة القارضة الشرقي كيف يفكر؟ وكيف يسلك بمفرده؟ فغلى الدم في عروق هذا العابد القديم للقدر. ولا يحزن الساقى إذا أرد الشاربون خمرأ أكثر. ويعذرهم، فهو الذي علمهم الشراب. ولا يعرف الليل إذا كان في حديقته إلا بفضل رائحة الورد⁽⁵⁾. تغري أوروبا الأمة بالنهر. وبنفس النهر ضاعت الأمة. تستتر أوروبا وراء النهر لتخفي تيارها المدر. جرف كل شيء. ولم

(1) لا تقل في الغرب رأياً
ماسه من كهرباء
ببريق يتعلّق
جعلته يتألق

السابق، ص 451.

(2) شهد الغرب أنني غزنوي
أيهم الفؤاد في كل حسن
حين جرّعته مصير إياز
أم يغنى لوحده في الزحام؟

السابق، ص 466.

(3) دُمي الإفرنج قلب لي تعشق
لقد أصبحت عن نفسي غريباً
ومن نار للأهل الدير أحرق
فما أدري وجوداً لي تحقّق

(4) بروجي قد شربت لي العذاب
وكم جالس أهل الحسن لكن
بدت نيرانهم ثلجاً مذاباً
رأي متفرنج لله حكماً

(5) على الشيطان أعقد أي رزق
إلى أن حار فيه الله يوماً
فيرزق وهو يطلب منه دوماً
أرمغان حجاز، ص 500.

يترك مكاناً لتمساح يعيش فيه. العبيد لا رأي لهم. والأحرار رأيهم عام. لا شيء ينهض بالامة إلا اجتهاد أصيل يستخرج للؤلؤة من الصدف. الامة قادرة على أن تعيد صب الزجاج بعد صهره في الكير. وتجعله صخراً بما لديها من إكسير الحياة. يدها في الجهاد يخشاها فرعون. بيضاء تبغي السلام إذا ما مدت لمولاها. تخطئ أوربا إذا ظنت أن نفس الامة سيتوقف أو أن ينطفئ ناراها في قشها اليابس. نار الامة بعد ما قويت من أعوادها لا شيء يتوقف أمامها من حطب أوربا⁽¹⁾.

يؤدي الاغتراب إلى الرياء والنفاق والمداهنة، والتغني بمزايا الآخر، صدقاً أو كذباً، فيه أو ليست فيه. دولة الغير رحمة. والذل في الدنيا نعمة. ويؤدي حكم الدخلاء فيه إلى ازدهار وارتقاء للدين والدنيا. لقد تخلى البعض عن ذاتيته فأصبحوا غرباء. وكل من أعرض عن ذاته واغترب في الغير فقد جوه مرآته. ولو أن الذات تعيش مطلبها يوماً واحداً مغايراً للأجنبي لعرفت معنى استقلال الذات⁽²⁾.

- (1) عجيباً لأوربته
وبذات لجنته
تخفي بهدأتها
عصفاً فما تركت
رأي العبيد بها
وتقرر الأحرار
لا شيء يقتنعنا
يأتي بالؤلؤة
ذاك الزجاج إذا
فأنا أسويته
لي في السجود يد
بيضاء ما مدت
أنظن أوربته
أو تنطفئ ناري
ناري وقد أذكت
لا شيء بمنعها
جناح جبريل، ص 423.

- (2) كم تغني بمزايا بايزيد
فيري في دولة الأغيار رحمة
وينادي أن حكم الدخلاء
أبها المحروم من وجدانه
أو تدري أننا من عصرنا
ذو رياء هو اللورد مريد
وكان الذل في دنياه نعمة
فيه للدين ازدهار وارتقاء
ومن الشوق ومن أشجانه
غريباء فيه عن أنفسنا؟

استبدلت الأمة الآن بالمسجد الدير. والحر ما زال ينهل من يمين المصطفى. في ضميره تكبير الإله. وفي جبينه تقدير الأمم. أسلمت الأمة القيادة للأفرنج واعتمدت عليهم. وأرادت عزتها منهم، وقبلتها لهم. شعار الحر عزم وإباء. يعتمد على نفسه وعلى الله. لا يمد اليمين لغير الله. ولا يحني الجبين إلا لله.

يبدو الغرب قمراً في عين الفتى المسلم الساذج⁽¹⁾. إنما المسلم هو الذي يمد يده للعائرين. يضرهم في روحه النار. ويهبها لجميع المسلمين⁽²⁾. لقد أطال جهيد الأفرنج القول في الكون والعدم. وكرره الشيخ وراءه دون علم أو وعي⁽³⁾. وتغرب العقل وبدا كالمقامر بالعلم المشين. أصبح الجهول أفضل من الحكيم⁽⁴⁾. ومن الغربي لا يطلب أي شيء بل فقط تحطيم الصنم المعار⁽⁵⁾. وعلى عتبات الغرب

- كل حي مُعرض عن ذاته
عش ولو يوماً عزيز المطلب
يا أمم الشرق، ص 361 - 362.
- (1) أصبح الدير لدينا مقصداً
وهو يسقى من يمين المصطفى
في ضمير الحر تكبير الإله
نحن للأفرنج أسلمنا القيادة
وابتغينا عندهم عزتنا
وشعار الحر عزم وإباء
فلعبر الله ما مد اليمين
السابق، ص 363.
- (2) فتى الأفرنج فلتشهده حيناً
فتاتاً ساذجاً من فرط ظرف
يمينك مدها للعائرينا
فمن نار أضرمها بروحي
أرمغان حجاز، ص 453.
- (3) كلام جهيد الأفرنج قالاً
من الأعجام شيخ قال قولاً
السابق، ص 483.
- (4) تغرب عقلنا ذا عن يقين
السابق، ص 496.
- (5) ولا تطلب إلى الغربي شيئاً
السابق، ص 497.
- فقد الجوهر من مرآته
أجنبياً عن طريق الأجنبي
نحن للغير نبيع المسجد
كوثرنا عذبا به الورد صفاً
في جبين الحر تقدير الأمم
واتخذناهم لدى الجلى عتاداً
وجعلنا ودهم قبلتنا
رزقه من يد جبار السماء
لغير الله لم يحن الجبين
- بدا قمراً لعين الناظرينا
وقاه الله عين الكافرينا
ومن لسواك كاثروا ناظرينا
نصيباً هب جميع المسلمينا
- وفي كون وفي عدم أطالاً
أبلغه، فائق إليه بالاً
- بدا كمقامر إلى الحق المبين
بقليد حطم الصنم المعارا

يُعَفَّر الجبين كصنم جديد. فلتدر إليه الظهور. وإن عبادة أصنام الفرنج تؤدي إلى الموت⁽¹⁾.

6 - تقليد الغرب

قامت نظم التعليم على تقليد الغرب، والهيام به، ونفي الذات، وانتظار المعرفة من الغرب في الغذاء⁽²⁾. أضاع التقليد الأمة، ومحا شخصيتها. وتحول المسلم يحطم الأصنام القديمة إلى مشيد لأصنام جديدة. والنفس قادرة بكرمها وحيائها تأكيد ذاتها. لا تخشى سوى الإله. والقادر على إثبات الذات قادر على أن يشق طريقه في الدنيا⁽³⁾.

ولا يكون الفن تقليد الغرب بل هو إبداع ذاتي⁽⁴⁾. التقليد محاكاة، والمحاكاة ليست حياة، بل هي إماتة للخيال.

ينقد إقبال «صريع الإفرنج» الذي يستمد وجوده من غيره. ويعمر ذاته من

- (1) بجاه الغرب إن كنت القمينا
أدر لعصاه عند الضرب ظهرا
وأصنام الفرنجة ما عبدتها
السابق، ص 498 - 499.

- (2) بنا أمم الشرق، ص 398 - 399.

- (3) قد ذاب في نار الفرنج فمائله عنها محب
وأنته نار جهنم لئكن بأملوب جديد
ومدينة الإفرنج ماضية بنا نحو الزوال
قتلت مواهبنا بلا حرب تدور ولا قتال
فاكشف لقومك عن كريم النفس متقد الحياة
ثمّل يحب الله لا يرجو ولا يخشى سواه
وإذا تبين مسلم في ذاته شرف المكانة
اخلف به في السهر أن يختار في الدنيا مكانه
السابق، ص 404 - 405.

- (4) قلد الغرب فن عجم وهند
شغني الغم أن بهزاد عصري
يا خبيرا بفنه فيه تمت
كم ترى فيه خلقة وتريها
عم هذي البلاد موت الخيال
يفقد الشرق بهجة الأزال
صنعة العصر والعصور الخوالي
أرنا الذات فوق هذي المجالي
ضرب الكلیم، ص 89 - 90.

ذات غيره⁽¹⁾. لم يأخذ المقلدون من الغرب إلا القشور دون اللباب، الزجاج المنكسر وليس الصخر الأصم⁽²⁾. يقلد المغترب وثن الإفرنج القائم على النرد والسحر. ويترك الكعبة التي يشع منها النور. ولا يحولها إلى بيت نار⁽³⁾.

ينقد إقبال تقليد أمم الشرق للفرنج وخضوعها لهم. في حين لا يستطيع الفرنج أن يحيوا العرب والفرس. فنونهم تؤدي إلى الموت، ويعني إقبال بذلك إباحية الفن⁽⁴⁾. لقد ضل المسلمون بأن أخذوا الغرب إماماً لهم. ثم زاغ البصر عن إمامهم⁽⁵⁾.

قلد الأتراك الغرب ففقدوا ذاتيتهم بعد أن أسكرهم الغرب بالسم. وكذلك فعل العراق دون تريقا. وعبيد الغرب يبغون الظهور عن طريق التقليد والرقص. روحهم في اللهو. ويصعب عليهم العلم. يطلبون السهل، ويتركون الصعب. يأخذون الظاهر، ويتركون العمل. فضاع الروح، وبقي الجسد⁽⁶⁾.

الانبهار بالغرب وقوع في أسرهِ⁽⁷⁾. وهو نتيجة إنكار الذات، والإيمان بالغير،

- | | | |
|-----|------------------------------------|------------------------------------|
| (1) | من تجلّي الفرنج نلت وجودا | فهمو منك هيكلًا قد أقاموا |
| | السابق، ص 21. | |
| (2) | هم عن الغرب زجاجًا أخذوا | علّمتهم صدمة الصخر الأصم |
| | السابق، ص 39. | |
| (3) | من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ | فموتن أفرنج به الزور والسحر |
| | السابق، ص 42. | |
| (4) | كيف تجلّي حقائق لعيون | عميت بالخضوع والتقليد؟ |
| | كيف يحيي الفرنج غربا وفرنسا | يفنون تسيير نحو اللحد؟ |
| | السابق، ص 49. | |
| (5) | قد أزاع العين في الغرب منأ | لك من صاحب ما زاع إمام |
| | السابق، ص 60. | |
| (6) | فقد الأتراك ذاتا بالمدام | فالفرنج أسكروهم بالسمام |
| | إن تريقا العراق ما لديهم | رحمة يا رب فابسطها عليهم |
| | وعبيد الغرب يبغون الظهورا | إنهم يرضون بالرقص الغورا |
| | روحهم في اللهو كانوا يفقدونا | يصعب العلم، بلهو لن يكونا |
| | يطلبون السهل لكن من كمل | طبعهم ما يبتغي سهل العمل |
| | اليسير السهل لكن إن طلبنا | أنت روحا لك من جسم فقدنا |
| | جاويد نامه، ص 307. | |
| (7) | انس شرقا لا تكن من سحر غرب كالأسير | فالقديم والجديد ما هما غير النقيير |

وتحويل الذات إلى تراب قبر أو أحجار دير⁽¹⁾. والاعتماد على لذة «اللوردات» يغني عن وقود نار الذات⁽²⁾. قلد المسلمون الإفرنج وهم يطلبون السراب، ويظنوه كوثرا. والإفرنج أهل حقد وعداء لدين المسلمين⁽³⁾.

وإذا ضاقت قيود المسلم قلد الغرب ولم يحقق ما يريد. والوجه لا يُعفر بالسجود لغير الله⁽⁴⁾. قلد التركي العثماني في الغرب فأوقع نفسه في أسر الفرنج. سحره طلسمهم، وتخلّى عن ذاته. وظن أنه حقق رغباته ونال أعلى المراتب بعد أن كشف له الأجانب مصيره⁽⁵⁾. وتقليد الفرنجة في الرأس لا يُعرف هل هو نشوة أم سكر. ما يعرف أنه لا ينبع من الدم⁽⁶⁾. عزة الشعب في الدين. وعزة الدين في وحدة الشعب. يفقد الشرق ذاته إذا قلد الغرب. وعزة الغرب ليست بالمطربات، ولا رقص الغواني العاريات، ولا التبختر على الأرض فيها وخيلاء، ولا لتركه الدين، بل لتمسكه بالعلوم والفنون ونور العقل. فلا يستطيع الشرق أن يلبس عمام العلم. ولا يصيح بالثوب حكيماً كالأعاجم. ينال العلم بالعقل الذي يملكه الشرق،

- = السابق، ص 321.
- (1) ينكرون الذات، إيمان بغير رفعوا من تربهم بنبان دير السابق، ص 329.
- (2) وعلى وقد إذا لم يعتمد لذة للوردات لم يجد السابق، ص 329.
- (3) قلد الإفرنج منا المسلمونا وبسر ديننا ما علمهم؟ السابق، ص 333.
- (4) من الإفرنج إن ضاقت قيود على عتبات غير الله وجه أرمغان حجاز، ص 426.
- (5) بملك واسع أضحي أميرا يظل من الفرنجة في قيود بذاتك فاعترف البأس جانب بهم قد حقق الترك الرغائب أليس لمسلم عينا بصيره السابق، ص 473.
- (6) أرقص ذاك؟ إنني لست أدري لتقليد الفرنجة كان رقص أنشوة فرحة أم سكر خمرة؟ وليس دما بعرقك وهو يجري السابق، ص 476.

وليس بثوب مستعار. فالعلم في الرأس وليس في العمامة. يكفي امتلاك الفكر. والطبع يغني عن الباقي⁽¹⁾.

ولو أراد الله أن يحمل الرسالة لأمة لاستطاع ذلك. وهو يعلم أنه اختار أفضل الأمم لحملها. فتقليد الأمم المغايرة يسير في الروح رعدة. قد تحرم من ذكره. ويقلب الغير يلقي ناره⁽²⁾.

يهرب البعض من جمود الشرق إلى تقليد الغرب. بل يكره أن يسمع الأذان في بعض قرى الإفرنج. والحق بين الاثنين، بين ترك تقليد القدماء وتقليد المحدثين. وإشباع الذات لتجديد القديم ونقد الجديد. فلا طعام من يد تذيق المسلمين الهوان. والعيش مع كدر القديم خير من العيش في نشوى الغرب. والدواء المر للعقل خير من الحلوى للطفل⁽³⁾.

(1) بمقام وحدة قد عز دين ذاته يفقد ذا الشرق المقلد عز هذا الغرب لا بالمطربات لم يهبه قوة ورد الخدود مجده ما كان من ترك لدين العلوم والفنون سره لست بالشوب حكيمًا كالأعظم تدرك العلم بعقل أنت مالك ليس في هذا السبيل غير علم إن ملكك الفكر هذا الفكر حسبك جاويد نامه، ص306.

(2) لو أراد الله عنا حملته ذلك التقليد فينا قد رأيت في غد قد يحرمون ذكره السابق، ص216.

(3) إنه العاشق في أهل الجحود فهو يحكي مسلما بات يعاني قل لأهل الحق ما يشفي القلوب اقبل الهم ولا تأكل طعاما إن يكن عيشك من طوك الكدر الدواء المر للعقل الكبير يا أمم الشرق، ص345.

ذلك الشعب بها شعب يكون ليته النقد للغرب المنفذ لا ولا رقص الغواني العاربات وقصير الشعر أو ميس القدود ليس من خط لديه بالممكن وبمصباح لديه نوره أئضار العلم من ليس العمام؟ لا بثوب تستعير من هنالك ما على رأسك من غير المهم كل شيء عنه ما يغنيك، طبعك

لاستطاع لسوانا نقله رعدة للروح في جسمي وجدت ويقلب الغير يلقي ناره

لم تزد أسمعهم غير الجمود في قرى الإفرنج ترديد الأذان قل عن الدين وأنباء الشعوب من يد تطعمك الهم دوما فيه مر الجوع فالذل أمر فترك الحلواء للطفل الغريب

هناك إذن خطآن: الأول من يصطنع التجديد أو لا يعرف كيف. والثاني تقليد الغير والتغريب أي الانبهار بالغرب أو التغريب، الوقوع في أسر الغير⁽¹⁾. الذوبان في الآخر يقضي على الذات، استقلالها وحريتها. والحق يحافظ على الذات، ويبقي على رجائها⁽²⁾. يؤدي الولاء للغير إلى بناء الدير بأحجار الحرم أي بيع الذات وشراء الغير. ويموت بعد أن عاش وهماً أدى به إلى العدم⁽³⁾.

تقليد الغرب يسلب الذات ذاتها، ويجعلها تغرب في الآخر. يفنى المقلد في جمال الآخرين. وينظر إلى نفسه في مرآة غيره. يسكن في عشهم. ويطيّر بأجنحتهم. ويُقتل بالشرب من كأسهم. والحق أن هجرهم أحلى من وصالهم⁽⁴⁾.

قلد الشرق باطل الغرب ونسي تاريخه⁽⁵⁾. ومن نسي ذاته وقلد سحر الغرب

- | | |
|--|---|
| (1) يصطنع التجديد في الدين القويم
فما له ند سوى عصا الكليم
السابق، ص352. | (1) وذلك البارع في مهنته
قد شطر الوحدة في أمته
السابق، ص352. |
| (2) وهم لحكم الغير زرع وحصاد
وغيرهم في أرضهم ساد وشاد
حصافة الفكر ودقة النظر
وما لديه عن وجوده خبر
وكل خير عن ضميره استتر
لكنه في المهد ولى واندثر
السابق، ص352. | (2) متى يفق القوم من وهدتهم
قد هدموا بناء ذاتيتهم
كم من غريب استطل وادعى
قد خبر الوجود والدنيا معا
أزال نقش الحق من خاتمته
قد ولد الرجاء في عالمه
السابق، ص352. |
| (3) حتى بنى الدير بأحجار الحرم
قد عاش وهما ثم وراه العدم
السابق، ص354. | (3) ولاؤه للغير كل همه
مات ولكن ما درى بموته
السابق، ص354. |
| (4) لنفسك منك سلاب
فاغسلن قبا وعينا من خيال الآخرين
ذلك العش الذي شددت بهمال الآخرين
أنت لا تسطيع طيرا بجناح الآخرين
ممكن قتلي بكأس من زلال الآخرين
عندنا محرك أولى من وصال الآخرين
رسالة الشرق، ص318. | (4) سفاك الغرب من كامن
أنت كالمرآة تنفى في جمال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقبس واحرقن
وتعلم جاهدا خفق جناحك وطر
أنا حر وغيور مسرف في غيرتي
إيه يا أقرب من روحي ولا أبصره
رسالة الشرق، ص318. |
| (5) ولها التاريخ فهم شكّلت
ومن الإفرنج ذابوا في اللهب
جاويد نام، ص302. | (5) باطل الإفرنج ما قد حصّلت
إنهم لم يذكروا فضل العرب
جاويد نام، ص302. |

فقد كفر⁽¹⁾. كان في الأمة نار فتحول إلى مجرد نور. بحثت عن النار عند الكافر الأجنبي. وباعت الدين بأبخس الأثمان. ويعز الدين بالعلم، ويذل بالجهل⁽²⁾. قلد الشرق الغرب. آسيا أرض الشمس المشرقات اتجهت إلى الغير، وليس إلى الذات لأنها لم تجددها بل حواها الدين القديم في جمود وخمود. سهل صيدها من شيخ أو سلطان أو ملك. ووقع فكرها في الشرك. واتجه عقلها ودينها وشرفها إلى رقاب «اللورد». تمت الغارة على أفكارها، ومزقت أستارها. والقلب يفيض دمعاً عليها. ومع ذلك، هناك ذات أخرى قادرة على تغيير العالم⁽³⁾. إذا ما قلدت الذات الآخر فإنها تحترق بناره ولا تثبت ذاتها⁽⁴⁾. التقليد يصهر الذات في الآخر ويذيبها فيه⁽⁵⁾.

الاعتماد على الذات هو سبيل التحرر من سيطرة الغرب. فذوي الفضل في كل شعب يسهرون على مجد أمتهم. يعملون بسواعدهم، ويزرعون في أوطانهم.

- | | |
|--|--|
| (1) إن نسيت الذات كنت من كفر | كم لأهل الغرب من فن سحر
السابق، ص 308. |
| عند كفر أجنبي أي خير فيهما
عزة الدين بعلم وبجهل ذلة | (2) يا أخي مصدر النور لدينا كان ناراً
لهما بالدين سر يشتري حتى التضاراً
السابق، ص 303. |
| عينها للغير، ما كانت لذات
نلت منها الريح أو حب الشعير
في جمود وخمود لا تريم
فكرها ظبي ولكن في الشرك
من ركاب اللورد كانت في طرف
وعن الأسرار مزقت الستور
ثم دنياها أنا غيرت وحدي | (3) آسيا أرض الشمس المشرقات
لا جديد جذ للقلب الغرير
وحواها ذلك الدير القديم
صيد شيخ أو لسلطان ملك
عقلها والدين بل حتى الشرف
فعلى أفكارها كنت المغيرة
فاض قلبي بالدما من فرط جهدي
السابق، ص 328. |
| بنار الأجنبي صلى الأمة | (4) تبارك فاحترق يوماً وأقدم
رسالة الشرق، ص 264. |
| عوداً ولم تبحث بقلبك عن أثر
ج ومن لحاظ العين روحك قد قطر
في حنة فيها التراب له قدر
ل وما فهمت حديث وجد يستطر
حرم وفي معنالك لم تُجد النظر | (5) أسفي عليك، نحت أصناماً آخر
أسفي عليك صهرت في نار الفود
أسفي عليك فما وُزنت بنظرة
أسفي عليك قرأت أسفار العقو
أسفي عليك تطوف من دير إلى
السابق، ص 321. |

وينتجون من أرضهم ما تنكفأ به على نفسها⁽¹⁾. وبدلاً من أن يبيع الشرق محصوله للغرب ثم يعاود شراءه منه بأضعاف سعره فلينتج الشرق وليصنع ما يستهلك. جهده يعود إليه. وكيف يشري المرء لؤلؤاً كامناً لديه من يد غواصيه؟

يشجع إقبال المسلم على التخلص من عقدة النقص أمام الغرب. فلا يمنعه شيء من النهوض بإذن الله⁽²⁾. رفض الهنود تقليد الغرب. وانكروا كل سحر فيه. وعرف الغرب روح ثقيل لا ينزل من سماه⁽³⁾. وللاينكليز سيادة في غير قلب المسلم بل فقط على جسده. وقلب المسلم خال من تأويلات الشيوخ ونقاش البراهمة. فالاغتراب في الموروث والوافد على حد سواء. وسماع صوت الذات وهو صوت القلندر قادر على ألا تنحني الذات أمام غيرها⁽⁴⁾.

- (1) وإن ذوي الفضل في كل شعب فهم بسواعدهم يعملون ومن أرضهم كل ما ينتجون فيا من غدا منسكرا ذاته وكم بعث محصول ذرع له يعود بأضعاف ما نلتته كأنك لم تشق من أجله أفني البحر لؤلؤه كامن يا أمم الشرق، ص 396.
- (2) لا تُرع مما ترى، لفرنج صرب الكليم، ص 45.
- (3) الهنود أنكروا قانون غرب إن عرف الغير روحا يثقل السابق، ص 309.
- (4) للائنكليز سيادة ما فيه تأويلات لو كنت تسمع للقلندر حين قال وحين جلتني حياء لما انحنيت أمام غيرك صرت من جسد ومن قلب هباء جناح جبريل، ص 429.
- على مجد أمتهم ساهرون وهم في مواطنهم يزرعون وما يأكلون وما يلبسون إلى أين يمضي بك الماكرون؟ رخيصة وأنت غدا مشتريه بربح سخى لمستورديه ولا كنت في الأرض من زارعيه ومن يد غواصه يشتريه سيمياء قم بإذن الله كل سحر رفضوه كل خلب من سماه إنه لا ينزل

الفصل الثاني

الغرب والشرق

1 - الشعراء بين الشرق والغرب

أعجب إقبال بالشعراء الفلاسفة، والفلاسفة الشعراء مثل جوته، والشعراء مثل بروننج وبايرون وأسد الله غالب وجلال الدين الرومي كل منها في بيت واحد مركز يعبر فيه عن فلسفته أو شعريته. بروننج كأس بارد في حين أن الخضر كأس حار⁽¹⁾. أما غالب فمنه يمتلأ الصدر اللهب ويزداد الخمر. ويصهر الدن ويملاً الكأس⁽²⁾. ويعترف إقبال بأنه يدين لغالب وجوته وبديل (ميرزا عبد القادر) ووردزورث وهيكل الشيء الكثير. فقد هداه هيكل وجوته إلى باطن الأشياء. وعلمه غالب وبديل كيف يظل شرقياً في الروح والتعبير بعد التعرف على المثل الأجنبية للشعر. وأنقذه وردزورث من الإلحاد أيام الدراسة⁽³⁾. وجلال الدين الرومي، وهو نموذج الشاعر الحق عند إقبال، فإنه يمتلأ كأسه منه ويغترف من عروق كرمه⁽⁴⁾.

ويقارن إقبال بين جلال الدين الرومي وهيكل. فقد أدرك حكيم الألمان من

(1) ليس في كأس الحياة البرد نار
السابق، ص 334.

(2) لأزيد الخمر والصدر لهيباً
أصهر الدن وكأسي أمتلاً
السابق، ص 335.

(3) St. Ref., p. 54.

(4) أين مزج من سنا جوهرها
من عروق الكرم كأسي أمتلاً
السابق، ص 335.

الشيء الآني حقيقة أبدية لدرجة أن العالم يخجل من أفكاره أمام هذا الفضاء الفسيح. أما صوفي العجم فقد ارتطم العقل بطوفان البحر. وجرف العشق تأمل العقل. واستولت الشمس على نوره. وأوقظ النائم⁽¹⁾.

ويقارن إقبال هذه المرة بين جلال الدين الرومي وجوته الشاعر وليس هيجل الفيلسوف. فقد صاحب شاعر الألمان في روض إرم أي الجنة شيخ العجم. والشاعر عالي الهمة ليس نبياً ولكن له ديوان. قصص للعارف السر القديم عن إبليس والشيخ ويعني «فاوست». فأجاب الشيخ بأن الفكر خال، والروح مملوء. رأى الدر في قاع البحر وسمع دبيب الروح من خلف الستار. العشق ليس لكل الناس، بل فقط للسعيد. وهو القادر على مواجهة مكر إبليس⁽²⁾. وتتطلب حقائق الحياة شرحاً أعمق في صورة أمثال تعليمية عبقرية فائقة. وقد يكون شكسبير مولانا جلال الدين الرومي أكبر من عبر عن هذا النمط من العبقرية⁽³⁾.

(1) ليلة بت أعاني حلها
ذاك من أبرز في إبداءه
يخجل العالم من أفكاره
سرت في بحر له فالتطمت
نفث الوم بعيني سحره
وأخذ الشوق طرفي فإذا
إنه الشمس تجلت في الضحي
نوره في مظلم الأفق سري
تنبت الأفكار في الفضاءه
قال: قم يا أيها النائم! هل
في طريق العشق بالعقل يُسار
السابق، ص 321.

(2) شاعر الألمان في روض إرم
شاعر يشبه ذا العالي الجناب
قص للعارف بالسر القديم
فأجاب الشيخ: يا رب العلاء
قد خلا فكرك في القلب السليم
فرايت الدر في قاع البحار
ليس كل قد تجلى العشق له
قد تجلى لسعيد المعني
رسالة الشرق، ص 332 - 333.

لم يتأثر إقبال بجوته فقط بل إنه عارض قصيدته «الخور والشاعر» بقصيدة مثلها. وكلاهما يعبر عن رؤيته للعالم، الرؤية الغربية والرؤية الإسلامية. إذ قالت الخور للشاعر إن الخمر لا تسره، ولا ينظر إلى الغير. فما أعجب الأجابة دون أن يشعر بهم. وهو شاعر يعبر عن حرقه القلب. خلق عالماً جديداً بالإيمان. عيبه أنه ينظر للجديد بعين القديم. ويجيب إقبال الشاعر مدافعاً عن نفسه بأن لديه فطرة شاعر يكره دعة المنازل. يدرك الجمال، ولكن يعلو بإدراكه إلى الجلال. يرقى من الشرار إلى النجوم إلى الشمس بكل أمل في المزيد. فلا حدود للطموح. تتجاوز عزيمته التدرج والمراحل. يشرب من الربيع الحالي. ويغازل الربيع الآتي. يعشق بروح الخلود. لا يحزن ولا يتألم. ولا يحتاج إلى مواساة⁽¹⁾.

لم تقرر الطبيعة ماذا تفعل بأفلاطون شاعراً أم فيلسوفاً. وهي نفس الحالة التي شعر فيها إقبال أيضاً بالنسبة لجوته⁽²⁾. يكتشف الروح ذاته عندما يقابل روحاً أعظم.

(1) الخور: لا الخمر يوما تطيبك
إنني عجيب لشاعر
من حر أنغام الرجاء
نفس تذيب بلوعة
وخنقت بالألحان دنيا
تبدو لها إرم كما
الشاعر: تخدعني قلب مسافر
ما إن تحاكي لذة
ماذا أقول وفطرتني
قلبي على قلق كما
فيذا نظرت إلى جميل
خفق القفاز إلى الذي
فمن الشرار إلى النجوم
إنني ليهلكني القرار فما
إذا شربت من الربيع
أشدو بشعر آخر
طلبي النهاية في الذي
لا صبر نظري ولا
تودي قلوب العاشقين
لا صوت محزون ولا

ولا إلينا أنت ناظر
يهوى الأجابة غير شاعر
وحرقه الطلب المثابر
وتغزل يشجو المزاهر
ك العجيب خلق شاعر
يبدو لعين فعل ساحر
بالسحر من خزات قائل
وخزات شوكة في المجاهر
لا ترتضي دعة المنازل
تهفو الضبا حول الخمائل
رائع حلو الشمائل
يعلوه حسنا في المحافل
إلى الشمس رقي أمل
أعوج على المراحل
الكأس تسري في المفاصل
وربيعي الآتي أغازل
لا ينهي فيه المسائل
قلبي عن الآمال غافل
بدارة الخلد الموصل
ألم ولا واس بمائل

السابق، ص 296 - 297.

حدث ذلك لإقبال عندما تقابل مع خيال جوته حين اكتشف ضيق خياله الخاص⁽¹⁾. وإذا أراد أحد تشريح العقل الإنساني فإنه قد يستعين بفوند ووارد وجيمس وستاوت، ولكن الحدس الحقيقي للطبيعة البشرية يمكن الحصول عليه من جوته⁽²⁾.

يعيد جوته وشكسبير كلاهما التفكير في الخلق. والفرق بينهما أن الشاعر الإنجليزي واقعي يفكر في الفرد في حين أن الشاعر الألماني مثالي يفكر في العام. وبالرغم من أن «فاوست» تبدو عليه الفردية إلا أنه تغلب عليها الإنسانية المتفردة⁽³⁾. أخذ جوته في «فاوست» أسطورة عادية وملأها ليس فقط بتجربة القرن التاسع عشر بل بالتجربة الإنسانية كلها. هذا التحول لأسطورة عادية إلى تعبير نسقي للمثل الإنساني الأعلى عمل إلهي، شيء رائع، مثل خلق عالم جميل من عماد مادة هلامية⁽⁴⁾. الأمة الألمانية سعيدة الحظ لأنها أنجبت الشاعر هاينه عندما كان جوته في قمة إبداعه الشعري. فأصبح لديها معينان لا ينضب⁽⁵⁾.

ويجيب على سؤالات هاينه في موضوع الحياة والعمل. فالساحل المسكين ثابت أبد الدهر لا يتغير. والموج صاحب يوجد ويعدم⁽⁶⁾.

ويعبر إقبال عن صورة بعض الشعراء والفلاسفة في ذهنه مترجماً مذهبهم الشعرية أو الفلسفية بنظم شعري. فبايرون قطرة رشحت من كأسه، شعلة تنمو كورد، بها رسالة حر. ضاق بالفرنجة وبالحضارة الغربية الباردة، وأصبح مغموماً وضائعاً بالأوطان. بنى عالماً من الخيال، وفضاء للشباب. فارق العش كطائر خرج من حلق الشباك ولم يعد. فقد فارق الشاعر وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثورة

Ibid., p. 2. (1)

Ibid., p. 139. (2)

Wmnd Ward, James, Stouf. (3)

Ibid., p. 71. (4)

Ibid., p. 151. (5)

(6) يقول الساحل المسكين: دهرا
حببت ولم يَبْنِ لي ما أكون
فقال الموج في صخب وسير
وجودي السير والعدم السكون

بها. ومات هناك⁽¹⁾. وبايرون يلهب صدور الشعراء مثل الخضر. ويكتفي إقبال بماء القلب ليبرد⁽²⁾.

والحياة نقد للشعر عند ماثيو أرنولد. وهي أيضاً نقد للأدب⁽³⁾. وهو شاعر مدقق. ومع ذلك يحب إقبال عنصر الغموض والإجمال في شعره لما يعطيه من عمق⁽⁴⁾. أما ملتون فلا يستطيع اللاهوت التطهري عنده جذب خيال هذا العصر. لذلك كان قراؤه قليلين. وفولتير على حق عندما اعتبر نفسه أكثر رواجاً من ملتون لأن لا أحد يقرؤه. ومع ذلك لا يوجد أحد من الشعراء أخذ رسالته بنفس الدرجة من الجدية مثل الشاعر ملتون. ويظل أسلوبه، وهو معمار ضخيم لآلهة مزيفة، فريداً لا يقارن عبر الزمان⁽⁵⁾. أما أوسكار وايلد فروحه فارسية أكثر منها إنجليزية⁽⁶⁾. وإذا كانت المعرفة المطلقة مستحيلة في الفلسفة فإن الشاعر بروننج حول هذه الاستحالة إلى استعمال أخلاقي بحجة عبقرية مؤداها أن لا يقينية المعرفة الإنسانية هو الشرط الضروري للنمو الخلقي طالما أن المعرفة الكاملة سوف تدمر حرية الاختيار الإنساني⁽⁷⁾.

والشهادة للأوطان أيضاً. فقد قتل شاعر مجري شاب في الدفاع عن وطنه. ولم يعثر له على بدن كي تبقى ذكرى أرضية له. ونظم إقبال خماسية تجعل أصل الإنسان في السماء، وليس في الأرض. فهو طين ولكن نفخ فيه من روح الله.

- | | |
|-----|--|
| (1) | قطرات رشحت من كأسه
ذو رسالات بها حر الجوى
ضاق بالإنفراج برداً طبعه
وخيال كم بنى من ملعب
جلوات لنشباب انتقلت
طائر فارق عشاً ورأى |
|-----|--|

السابق، ص 331.

- | | |
|-----|--|
| (2) | منه للخضر لا تلهب صدري
فبماء القلب كأسى آملاً |
|-----|--|

السابق، ص 334.

- | | |
|-----|------------------|
| (3) | St. Ref., p. 37. |
|-----|------------------|

- | | |
|-----|----------------|
| (4) | Ibid., p. 106. |
|-----|----------------|

- | | |
|-----|---------------|
| (5) | Ibid., p. 72. |
|-----|---------------|

- | | |
|-----|---------------|
| (6) | Ibid., p. 73. |
|-----|---------------|

- | | |
|-----|----------------|
| (7) | Ibid., p. 157. |
|-----|----------------|

المزار في القلب والروح، وليس في المقابر والمدافن⁽¹⁾.

ويمثل غالب الشاعر الفارسي المساهمة الوحيدة تقريباً للهند في الأدب الإسلامي. إذ يفوق خياله وعقله الحدود الضيقة للعقيدة والتوحيد. لم يعترف به أحد حتى الآن⁽²⁾. أما حافظ فقد عبر بكلمات كالجواهر عن الروحانية اللاوعية للبلبل⁽³⁾.

ويذكر إقبال من الشعراء العرب البحتري والمنتبي. إذ يستشهد بحكاية رمزية للبحتري في «ديوان الحماسة» أن ابن خاله سار على حافة الهاوية وتساؤله هل يدفعه من الخلف ليقع في الوادي فيموت دون فجر؟ وهو محق في هذه الطريقة في التعامل معه، وهي طريقة وضیعة لا إنسانية. ويعتبر إقبال نفسه محقاً في هذه الطريقة في التعامل معه بالرغم من أنها طريقة وضیعة لا إنسانية. هكذا قال الشاعر العربي في «ديوان الحماسة». ويمكن اعتبار هذا الشعر نموذجاً للشعر العربي. ولا يوجد شاعر أكثر مباشرة وصراحة ورجولة في الروح منه. فالعربي مرتبط بالواقع ارتباطاً وثيقاً. لا يثيره بريق الألوان. وربما كان المنتبي استثناء. هو شاعر عربي من حيث اللغة، وفارسي من حيث الروح⁽⁴⁾.

2 - الفلاسفة بين الشرق والغرب

ويصور إقبال مذاهب الفلاسفة مثل لوك وكانط وبرجسون، بصرف النظر عن الترتيب الزمني أو التصنيف المذهبي، فلوك فارغ الكأس، يريد ملاً الأكواب من شمس الضحى. والفلاسفة الحسية فارغة من أي مضمون⁽⁵⁾. وكانط فطرة ضاءت

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | لعروس الرياض غنيت حيناً
وخضبت الشقيق من دمك المسفوك
كم بآه الصباح في المرح يسري
نغمات من الجوى ذبت فيها
والى الترب لم تعد بمعات | زدت قلباً جوى وأسلبت قلباً
وجدنا وجل ذلك خضباً
في صدور الأكمات فتحت قلباً
في مزار القريض تدفن حبا
ذاك حق فليس أصلك ترباً |
|-----|---|--|
- السابق، ص 332.

(2) St. Ref., p. 51.

(3) Ibid., p. 152.

(4) Ibid., pp. 81 - 2.

(5) فارغ الكأس أنى الروض شقيق يملأ الأكواب من شمس الضحى

السابق، ص 334.

شراباً. ولها نجم كأس من الأزل. فلسفته عكس لوك، ذات مضمون، وشرابها من رحيق الأزل⁽¹⁾.

كما أعجب بالفلاسفة الأدباء والأدباء الفلاسفة مثل نيتشه. ويأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والجسم لا الروح، والعلم لا العشق. لم يعرف التوحيد. آمن عقله دون قلبه. بنى موتنا على أساس مسجدي⁽²⁾. ويسميه إقبال مجذوب الفرنج الذي توصل إلى النجاة عن طريق المهدي⁽³⁾. نيتشه مصاب بالجنون. فالإنسان مليء بالتناقضات الغريبة. إذا تزوج عاهرة فإن ذلك يعني أنه لا يرى غضاضة في مثل هذا الارتباط. فإذا تحول سلوكه إلى رواية أو قصة فإنها تصبح لا أخلاقية مدانة نظراً لما يتم قبوله عملاً. فلسفة نيتشه على الأقل في ميدان الأخلاق محاولة عقلية لتبرير سلوك أوربا بالرغم من إدانة هذا النبي للاستقراطية الأوروبية. وقد عرف القليل من الناس هذا الجنون⁽⁴⁾.

وفي الخطاب الشهير من إقبال إلى نيكلسون ينفي إقبال تأثره بنيتشه. فهناك فرق بين «الإنسان الكامل» عند إقبال و«السوبرمان» عند نيتشه. وقد كتب إقبال بحثاً عن «الإنسان الكامل» قبل أن يتعرف على نيتشه، وضمنه رسالته للدكتوراه، «تطور الميتافيزيقا في فارس». ينكر نيتشه البقاء الشخصي الذاتي في حين يثبت إقبال. رأى نيتشه ضرورة ظهور الأمة المثالية ولكن دهريته وإعجابه بالسلطان أضاعا فلسفته⁽⁵⁾. يعجب إقبال بنيتشه في فلسفة الحياة والقوة والإنسان الأعلى التي تعادل فلسفة الذات عنده. ومع ذلك عرف نيتشه العقل دون القلب، وتصور العلم ولم يعيش العشق. لم يعرف التوحيد والبراءة الأصلية، ولكنه عرف الإثم والخطيئة كما هو الحال في المسيحية⁽⁶⁾. ثار من ضعف الناس قلبه فأراد تكميل الخلق. وهي إحدى

(1) فطرة ضاءت شراباً ولها نجم كأس من حريم الأزل السابق، ص 334.

(2) ضرب الكلیم، المدخل، ص ط.

(3) فمجدوب الفرنج على خيال من المهدي قاد إلى النجاة السابق، ص 40.

(4) St. Ref., pp. 42 - 3.

(5) الأسرار والرموز، مقدمة ص 24 - 25، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 20.

(6) أي قدر لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد =

فتن الغرب، كسر بيت الزجاج⁽¹⁾.

ويجمع إقبال بين شوبنهاور ونيتشة في نسق واحد. فشوبنهاور متشاؤم. طار العصفور من عشه فوق الروض فأصابته شوكة. فلعن الروض والزمان. ورأى سمة الزهور جوراً وظهور البراعم خداعاً. شيدت الدار على اعوجاج. وزاد النواح. وتحول الدمع إلى قطرات من دماء. لا كسب بل خسارة⁽²⁾.

قرأ إقبال عن نظرية وحدة الوجود في الفلسفة الغربية، الألمانية والغربية، ولكنه أفاق منها وأسس أسرار النفس، إثبات الذات، ونفي رموزها من القرآن⁽³⁾.
قرأ إقبال التراث القديم والتراث الغربي، ولكن أفكاره مستمدة من التراث القديم. فالعربي أو المسلم ذو ثقافتين. ينهل من منبعين. والغربي لأنه لا يعلم إلا ثقافته سرعان ما يحكم على المفكر اللاعربي بالأثر الغربي إذا وجد تشابهاً بين فكره وفكر أي مفكر غربي. لذلك ساد منهج الأثر والتأثر⁽⁴⁾. أفكار إقبال عن الذاتية تستمد من التصوف الإسلامي بالإضافة إلى تجاربه ومشاهداته. قرأ القديم في إطار

سر معني بـ (لا إله) بعيد
وحوى الشمس بالخيال المديد
نذرة الإنم نصب طرف حديد

فبرى الخلق المكمل لبه
كان في دار الزجاجي ضربه

فأصابته شوكة من زهور
بشبور لنفسه والطبور
وظلم البرعوم خدع خبير
كل صبح بها إلى ديجور
من دماء، بدمع عير غزير
ينزع الشوك من جناح الكسير
مزق الورد صدره للعبير
وانلف الشوك تغد كلك روضاً

ليس إلا لنذي البصيرة يبدو
أرسل الفكر أسهما في سماء
طاهر الطين في الترهب لكن
ضرب الكلم، ص 59.

(1) ثار من ضعف الأناسي قلبه
فتنة في الغرب من ذي جنون
رسالة الشرق، ص 330.

(2) طار من عشه يسير بروض
لعن الروض والزمان ونادى
ورأى وسمة انشقاق جوراً
قال ذي الدار شيدت باعوجاج
ناح حتى تقاطرت نغمات
وشجا الهدهد النواح فوافى
قال: أخرج من كل خسرك ربها
واجعل الجرح بلسماً فترضى
السابق، ص 329 - 330.

(3) الأسرار والرموز، ص 22/27.

(4) التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، 1980،
ص 102 - 110.

جديد. ومن المؤسف أن يجهل الغرب الإسلام، ويظن أن كل إبداع فلسفي إسلامي إنما هو أثر من آثاره حتى يبقى الإبداع وحده قاصراً على الغرب، ودونه من الناقلين.

والمسؤول عن وحدة الوجود هو الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي ويعني اسبينوزا، ولكن الغرب سرعان ما تخلى عنها إلى إثبات الذات خاصة الفلاسفة الألمان والإنجليز. اتجه الغرب نحو العمل. والحقيقة أن هذا سوء تأويل للتاريخ. فقد بدأ الغرب بإثبات الذات عند ديكارت في «الكوجيتو» الشهير. ونقله اسبينوزا تلميذ ديكارت من مستوى الفرد إلى مستوى الوجود. وظل إثبات الذات «الأنا أفكر» عند كانط، ولكنه تحول أيضاً إلى مطلق عند هيجل، ووحدة عند شلنج. بل إن نظرية العلم عند فشته تشبه في دعواها الأولى إثبات الذات «الأنا تضع نفسها حين تقاوم». ثم في دعواها الثانية تتحول إلى اللأنا أي حدود الأنا، نهاية المجال الحيوي للأنا. وفي الثالثة تتحول الأنا واللأنا إلى الأنا المطلق. فالذات ليست جوهرًا ثابتًا، وإثباتها أحد لحظاتها⁽¹⁾. وينقد إقبال اسبينوزا بأنه فيلسوف عاقل. يبصر الحياة، ولكن الحياة ليست عقلاً بل هي «نور وجلوة تستحب»⁽²⁾. هي حدس وزمان وديمومة. وهو نفس قول برجسون بقوله «الكل إنسان فلسفتان، فلسفته الخاصة وفلسفة اسبينوزا» أي فلسفة حياة وفلسفة خلود.

وفلسفة هيجل نموذج الإنكار الذات، وجعلها من صنع الخيال لصالح الوجود العام والمطلق⁽³⁾. كما وقع شراح هيجل الإنجليز المحدثين في هذا الوهم، نفي الذات⁽⁴⁾. مذهب هيجل الفلسفي ملحمية شعرية بالنثر⁽⁵⁾.

وتمثل فلسفة برادلي فلسفة نفي الذات. فكل مركز للشعور محدود. وكل

(1) الأسرار والرموز، مقدمة إقبال، ص 14. وأيضاً فشته فيلسوف المقاومة، نظرية العلم، ص 121 - 230.

(2) يبصر العاقل الحياة وليست غير نور وجلوة تُستحب ضرب الكلم، ص 48.

(3) أصداف هيجل من الخوالي طُنُسمة جميعه خيال السابق، ص 10.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 16.

St. Ref., p. 11.

(5)

ذات مفردة خداع باطل. والحقيقة أن هذا المركز بؤرة الكائنات ومنبعها. وهي واقع لا خيال، وحقيقة لا وهم. الحياة كلها فردية. وليست للحياة الكلية وجود خارجي. بل تتجلى في شخص أو فرد. والخالق فرد أوحده كما سماه شترنر «الوحيد» أو «الأوحد» أو «الفرد» أو «الفريد».

ولا يوجد أثر خارجي في مفهوم الذاتية عند إقبال بالرغم من التشابه بين الذات و«الأنا أفكر»، «الكوجيتو» عند ديكارت، والذات عند فشته، والديمومة عند برجسون. وإقبال يحيل إليهم دون حرج.

فلسفة برجسون نموذج لإثبات الذات والزمان⁽¹⁾. ويشرح إقبال «رسالة برجسون» بأن الحياة هي التي تبوح بالأسرار. والفوضى فيها شرط المعرفة. أما العقل فهو نظر عريف يمر الإنسان به كالغريب. يقدم أوهاماً باسم العقل الذي لا ينير إلا بالقلب⁽²⁾. لا يحتاج برجسون إلى خمر وكأس من الأزل لأن ناره تصعد من حرقه القلب⁽³⁾. وكما يبحث إقبال موضوع المادة في حرية الذات، يعرض موضوع الزمان في خلودها. ويلتقي مع برجسون في أن الزمان ليس خطأ مستقيماً إلى ما لا نهاية بل هو توتر خالص لا طول له، ولا يمكن قياسه⁽⁴⁾.

وضع الغرب فلسفة الذات منذ كوجيتو ديكارت، والأنا أفكر عند كانط، والأنا الحر عند فشته. ولم يعرف إقبال هوسرل ليقرر أن هذه الفلسفة قد اكتملت في الكوجيتو عند هوسرل، وتحقق حلم المثالية الترتسندنتالية في الظاهريات. إلا أن الغرب نسي الذات وأعلن موتها بإعلان نيتشه «موت الإله»، وإعلان بارت

(1) لو لم نقول ذاتك النسيانا لم تحمِلْ رُتْر برجسانا ضرب الكليم، ص 10.

(2) إذا ما شئت أن تحظى بسر فلا تبعد بنفسك عن لظاها ولا تصحب سوى نظر عريف وما صوّرتة وهم فأعدد رسالة الشرق، ص 333.

(3) ما له من أزل خمر وكأس تاره من حرقه القلب الشقيق السابق، ص 334.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 18.

«موت الإنسان» والانتهاى إلى العدمية المطلقة⁽¹⁾. ولا أحد يستطيع فهم الأمر الجازم عند كانط فهماً كاملاً دون دراسة التاريخ السياسي للشعب الألماني. فأحكام تصور كانط للواجب يجد أصوله فيه⁽²⁾.

ويعرض إقبال الفلسفة الإسلامية من خلال الفلسفة الغربية. وإذا أراد الإنجليز فهم نظرية الإنسان الكامل فعليهم بقراءة (صمويل) الكسندر، ذلك الفيلسوف الاسترالي الذي تعلم في إكسفورد وكمبريدج والذي تُعد فلسفته مدخلاً لأسرار الذات، بالإضافة إلى آراء دكنسن وهابنه⁽³⁾.

اعترض دكنسن على فلسفة إقبال بالرغم من عالميتها وشمولها على أنها محلية تدور في دائرة محدودة. والحقيقة أن إقبال يعرض لفكرة شاملة ثم يبرهن عليها من خلال ثقافة خاصة. واتهم دكنسن إقبال بأنه متعصب لدينه وقومه ووطنه، في حين أن الإسلام دين لا لقوم أو وطن بل للبشرية جمعاء. تجمعهم الأخوة الإنسانية دون اعتبار للفوارق العرقية واللغوية. ويكرر دكنسن الأفكار النمطية السابقة. وهي أن الإسلام انتشر بالسيف. وقام على إراقة الدماء. قد يكون هناك خطأ هنا أو هناك من بعض علماء المسلمين وأمرائهم، ولكن الإسلام دين عالمي. لا يفرق بين الشعوب. سهل في فهمه. بسيط في ممارسته. يقتنع به الإنسان ويقنع به. هو دين العقل ودين الفطرة ودين الحرية.

وفي حوار بين أوجست كومت وعامل، يعرض إقبال فلسفة كومت الوضعية وبداية الاشتراكية السان سيمونية. فعند كومت كل الناس أعضاء في جماعة واحدة كالأوراق والغصون لشجرة كبيرة. الرأس إلى أعلى والقدمان إلى أسفل وضع طبيعي. الرأس تأمر واليدان تعملان. ولكل عمله طبقاً لقانون تقسيم العمل. الورد والشوك كلاهما يكونان الحديقة. وهو تصور في ظاهره اشتراكي وفي جوهره رأسمالي. يعطي القمة أكثر مما يعطي القاعدة. ويثور العامل على الفيلسوف ويتهمه بالغش والخداع بإيهامه بأنه لا يستطيع الخروج من هذه الحلقة الجهنمية حتى ولو

(1) من ممات الذات في الغرب ظلام وبحوث الذات في الشرق جذام

ضرب الكلبي، ص 56.

St. Ref., p. 96.

(2)

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 25.

كانت من ذهب لأنها تعلم الإنسان الخضوع للأمر الواقع باسم القدر. والعامل قادر بمعوله شق القنوات، واستخلاص اللبن والعسل من أشياء رفيعة. يعطي رجل الأعمال أكثر مما يعطي العامل، ولا يمكن خداع الخضر، سر الحقيقة وكاشفها. مهمة الرأسمالي متع الحياة بمص دماء العمال. هو لص بطبعة. وجريمته لا تغتفر. وبالرغم من حكمة الفيلسوف إلا أنه كان ضحية الوهم والخداع⁽¹⁾.

وفي «حوار بين لينين والقيصر فيلهلم» يقول لينين إنه منذ مدة طويلة حُشر الفقير بين الصخور كحبة القمح. خدعه القياصرة، ووقع في شباك الكنيسة. وفي النهاية مزق العبد الجائع في آخر قطرة دمع ثياب سيده. واستشهد في ثوب أحمر من دمائه. لقد أحرقت شرارة الديمقراطية أرواب رجال الكنيسة والملوك. ويتساءل القيصر: لماذا يقع اللوم على الأوثان، لطرقها المغرية؟ إنها طبيعة البرهامي في العبادة. يستمر في وضع أوثان جديدة لأنه يحمل الأوثان القديمة. أما قاطع الطريق فإنه يسرق ابن السبيل. وإذا أتت الدهماء في الحكم فإنها تتسلط أيضاً. إذ لا ينتهي النهم من قلوب البشر. فالنار يستعر لهيبتها. وقوة السحر فعالة، بصرف النظر عن الدور الذي تقوم به. وسحر شيرين ليس للبيع على طارقة الطارق. فخسرو وفرهاد موجودان باستمرار⁽²⁾.

وقد عقدت جمعية في العالم الآخر من تولستوي وكارل ماركس وهيغل ومزدك وكوخان للحوار. وكل حديث تصوير لفلسفة المتحدث. ففي رأي تولستوي أن محاربي أهريمان كانوا تجار حروب. يأكلون بحد السيف، باحثين عن رغبة من الخبز. الشر خير. يأكل البقول. الدولة والكنائس والأوطان مملوءة بالمخدرات. يشترون العبيد بأرواحهم. وواضح هنا النزعة الإنسانية عند تولستوي. وبسبب الأنانية والعقل، يعاني العامل من الجوع واليأس. أما كارل ماركس فإن الإنسان بالرغم من حكمته مازال غير واع. وشرعت الرأسمالية لقتل الإنسان لأخيه الإنسان. وواضح هنا أيضاً النزعة الإنسانية عند ماركس. أما هيغل فإنه يرى أن الواقع متشابه، الصحراء والرياض في آن واحد، الحلو والمر. ولفهم الواقع يتم تذوق الجانبين. الواقع تناقض، جدل بين الموضوع وتقيضه، صراع بين أصحاب رؤوس

A Message from the East, pp. 110 - 3.

(1)

Ibid., p. 114 - 5.

(2)

الأموال والعمال، بين السادة والعبيد. ونبت مزدك في أرض إيران من إمبراطوريات القياصرة، ووسط الملوك والأغنياء. وقبله حطم إبراهيم الأصنام. وألقاه نمرود في النار. ذهب عصر برويز. فعلى ضحايا الطغيان الاستيقاظ ومقاومته، واستعادة الحقوق المسلوقة. ومزدك أول اشتراكي في تاريخ إيران. أما كوخان حبيب شيرين الذي شق قناة في الجبل بيد واحدة كدليل على حبه بالرغم من وداعتها الظاهرة إلا أنها محاربة جسورة. لسانها عذب كلسان المسيح. وقلبها مثل قلب جنكيز خان. هناك سباق بين السماء والأرض. وعلى الإنسان أن يسرع الخطى⁽¹⁾.

3 - الصور المتبادلة بين الشرق والغرب

الغرب مجرد مرآة للذات، تعكس صورتها فيه، لترى مدى التقابل إن لم يكن التعارض بل التناقض بين مرآة الآخر وصورة الأنا. شتاء الغرب يعكس دفء الذات. ولندن ماخور لمن يريد، بما فيها من حانات، حيث كان الشاعر يخرج ليؤدي صلاة الفجر، ويقابل المخمور الهلع. كان لهيبه من آلام مجتمعه يحملها على ظهره أينما سار. تنكره الناس لأنه يحمل هم الشرق معه. ولا يغرف من لذة الحياة كما يفعلون. وهو الوقت الذي كان حزب العمال سيعطي العمال حقوقهم. صحيح أن الديمقراطية قضت على عرش الملوك، ولكن حزب المحافظين اتبع سياسة استعمارية خالصة. كما فصل الغرب بين الدين والدولة وأصبحت السياسة جنكيزية جشعة. تقوم على الغزو والمطامع. وقارن الشاعر دلهي بروما. فتألم وتوجع. واحترق بين الحضارتين، ولكل منهما سحرها⁽²⁾.

A Message from the East, pp. 105 - 8.

(1)

وكان طرف الهوى من مبة النوع
بما تضم من الحانات والبيع
على الضيق برأى الفاجر الهلع
وندعي أن هم الشرق جاء معي
ما تدعيه يد العمال من شرع
عرش الملوك بما أبدته من ورع
إن السياسة جنكيزية الجشع
فكنت بينهما في ملنقى وجعي
رياه عفوك قد أبعدت منتجعي

كان الشتاء كمثل السيف حدته
أيام لندن ماخور لطالبها
أيام كنت صلاة الفجر أبعثها
وكيف كانت هناك الناس تنكرني
أيام آلت مقاليد الأمور إلى
با لعبة من ديمقراطية طُلِبَتْ
كانت حكاية فصل الدين آخرها
ذكرت دلهي بروما حين طفت بها
كلا الدروس لها سحر وأبهة

جناح جبريل، ص 438.

يظهر التقابل بين الغرب وحضارة الشرق كتقابل بين الحضارة الروحية والحضارة المادية. ففي لقاء بين إقبال وموسوليني، يرى موسوليني أن من ملك الحديد فقد ملك كل شيء، في حين أن عند إقبال من كان حديداً ملك كل شيء. فالقوم الحديد الذي يصاغ منه الشباب وهم لا يحتاجون إلى سيفوف. والذات الحرة قادرة على الوصول إلى الأفلاك التي تطيع قانون الطبيعة الضروري. الحياة مجرد سعي، موج صახب لا شأن له بصنع اللائي. النسر يعلو ولا يهبط. والإنسان ذو العزيمة لا يناله التراب⁽¹⁾. تشع الشمس في كل مكان، ولكن نورها في الغرب مخلوط بدخان المصانع وقارها. في الشرق القلب بصير، ولكنه متوارٍ عن نور الشمس⁽²⁾. الشرق نائم، والغرب يركب المخاطر، ولا ترهبه الشرور⁽³⁾.

رقص الغرب بالجسم، ورقص الكليم بالروح. الرقص الأول هم بلا هدف، والرقص الثاني سلطان وفقر أي قدرة على استقلال الوعي⁽⁴⁾. تشرق الشمس على الجميع، ولكنها لم توقظ الشرق، بل أيقظت الغرب. وآخر شعاع ألا يفقد إقبال الأمل، ويأس من نهضة الشرق⁽⁵⁾.

الحضارة الغربية حضارة مادية، لها بدن، وليس لها روح. لها عقل، وليس

- | | |
|--|---|
| (1) ما بهم حاجة إلى السيف قوم
أين منك الأفلاك؟ إنك حر
ما اصطخاها الأمواج لئذ سعي
ليس يهوى الشاهين من ضل خفق | من حديد يصاغ فهم شباب
وهي فخر ذهابها والإياب
واللالي بصوغها الوهاب
يا أبا العزم لا بنالك الشواب |
| (2) تداعى الأشعة من كل صوب
وصاحت: تعذر في الغرب نور
وفي الشرق لب بصير ولكن
أنور الموائم! لا تهجرينا | إلى الشمس تبغي لديها قرارا
دخان المصانع يكسوه قارا
كعالم غيب بصمت توارى
إلى نور صدرك آوى الحبارى |
| ضرب الكليم، ص77. | |
| (3) فلا يحزنك من الشرق نوم
السابق، ص78. | وفي الغرب لا ترهين الشرور |
| (4) دع لأهل الغرب رقصا بجسوم
فبهذا الرقص سلطان وفقر
السابق، ص97. | إن رقص الروح من ضرب الكليم
وبذاك الرقص هم لا يرسيم |
| (5) شعاع جريء له نظرة
ولا يستقر على حالة
يقول: أضبيء على الشرق حتى | كنظرة حوراء تغزو الضمير
تري زئبقا في ضياء يبور
أرى ذرة كشموس تنير |

لها قلب⁽¹⁾. وماذا عن الرومانسيين والصوفية النصاري؟ ارتبط الإفرنج فيما بينهم بروح العصبية. فلو تنصر البرهمي لا تتغير نظرة الإنكليز إليه. بل إن الإنكليز لو أسلموا لما قبلهم المجتمع البريطاني. فالغرب يقوم على عنصرية دفيئة وطائفية لم تمحها العقلانية أو التنوير أو الرومانسية أو التصوف أو الفن أو العلم أو الفكر. الثقافة الإفرنجية تقوم على فساد القلب والنظر. حضارتها خالية من العفة. فإذا ما خلت الروح من الأخلاق، طهارة القلب وجمال السريرة، يغيب جمال الوجدان ولطف الذوق وصواب الفكر⁽²⁾. قد يعطي الغرب نفساً، ولكن الإسلام هو الذي يعطي الإيمان⁽³⁾.

وبإدراك يتجاوز البصر إلى البصيرة، والألوان إلى الشمس والقمر، يرى المؤمن أنه يستطيع أن يتجاوز منزلة الغرب. فهذه المنزلة ليست نهاية الطريق. الغرب حانة. السكر فيها ليس هو نهاية علم العصر. إذا شرب منها المسلم مات، إن لم يشعله بشرر التوحيد⁽⁴⁾. وإن أراد الغرب للإسلام لفظاً آخر فهو «الفقر

- | | | |
|---|--|-----|
| فأوقف نوامها للنشور
لدى موثن والزمان يسير | وأجلو عن الهند هذا الظلام
ينام البرهمي في سدة
السابق، ص 77 - 78. | = |
| فأخوة الإفرنج بالعصبات
للإنكليز إليه نظرة عات
بالمسلم المنكود من إعانت | هذي الحضارة ما تدين قلبها
فلئن تنصر برهمي لم يزل
ولو أنهم قد أسلموا لم يرفقوا
السابق، المدخل، ص ل/42. | (1) |
| فساد القلب والنظر
خلت من عفة الوطر
جمال الصفو والطهر
ولطف الذوق والفكر | أرى تشقيف إفرنج
فروح حضارة لهم
إذا ما الروح جانبها
فأين جمال وجدان
السابق، ص 50. | (2) |
| أنت يا مؤمن البشير النذير؟ | قد سباك الفرنج نفساً ولكن
السابق، ص 123. | (3) |
| بل مفتن عن ضياء الشمس والقمر
تقدمن، ليس هذا منتهي التنصر
ما السكر فيها بعلم العصر بالنكر
إن لم يكن فيك للنوحيد من شر
في شملة لست ذا تاج ولا سرور؟ | ليس الذي يترك الألوان بالبصير
يا قومنا قد شأى الإفرنج منزله
وحانة الغرب للصادي مفتحة
لك الممات بهذا السكر مستر
هل يسمعن بنو الحانات موعظتي | (4) |

الغيور» أي الزهد الإيجابي، قوة الروح في العالم⁽¹⁾.

يضع إقبال تقابلاً بين الأنا والآخر، بين الإسلام والغرب، وهو تقابل الإيمان والكفر. فقد قابل إقبال الخضر الذي حذره من البحث عن الترياق من سم الإفرنج. الكافر حيران له الآفاق تيه. والمؤمن كون تاهت الآفاق فيه⁽²⁾. ومن مآسي التعليم ثنائته بين أفكار الغرب الملحد وفوضى الشرق المؤمن⁽³⁾. لو كان في ضمير الغرب يسكن «لا إله» لكان تعليمه في أمان⁽⁴⁾. حانة الشرق بها صخرة تجلد الشعور، وحانة الغرب بها خمر سوداء تنيم الشعور⁽⁵⁾.

الإسكندر رمز الحضارة الغربية، والخضر رمز الحضارة الإسلامية. الأول القوة والفتح والغزو، والثاني الروح والباطن والتأويل⁽⁶⁾. العقل من الغرب، والعشق من الشرق. هناك تمايز بين الحضارتين. وتقليد أحدهما للآخر انحراف حتى ولو أن كلاهما أكمل الآخر. الإكمال ليس بالتقليد بل التحديث والتجديد

- | | | |
|-----|-------------------------------|------------------------------|
| (1) | إن قلبى الغرب من الإسلام لفضا | فله اسم آخر: الفقر الغيور |
| | السابق، ص 19. | |
| (2) | أمن عند البحر قال | الخضر لي قسولا أعيه |
| | تبغى الترياق من سم | فرنج تتقيبه؟ |
| | فخذن قسولا سديدا | هو بالسيف شبيه |
| | ذا مضاء وضياء | خبرة الصيقل فيه |
| | إنما الكافر حيران | له الآفاق تيه |
| | وأرى المؤمن كونا | تاهت الآفاق فيه |
| | السابق، ص 28. | |
| (3) | أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد | وعبد عقل الشرق فوضى من الفكر |
| | السابق، ص 57. | |
| (4) | إن تك «لا إله» في ضمير | فالغرب من تعليمه في أمان |
| | السابق، ص 61. | |
| (5) | والى اليوم حانة الشرق فيها | خمرة للشعور منها جلاء |
| | ينس المبصرون من أمم | الغرب فغيبها بواطن سوداء |
| | السابق، ص 81. | |
| (6) | ما جاهد يُنبط ماء الحجر | لا يهتدي بالخضر كالإسكندر |
| | كنظر العين صفى مشرق | لا بلبل وهو غريق نهر |
| | مصراعه مكمل منفرد | ليس عليه مئة للأشطر |
| | رسالة الشرق، ص 300. | |

والتطوير⁽¹⁾. بل إن الإفرنج هدموا ما بنوه، وقضوا على ما أنتجه العقل⁽²⁾. كما ولّى لحن الإسكندر ودارا أي حكم القوي. وبقي يوسف سجيناً عزيزاً⁽³⁾.

الإسكندر والخضر نموذجان للذاتية، الإسكندر ذاتية الغرب، والخضر ذاتية الشرق. الأول نموذج القوة والحرب والفتح، والثاني نموذج الروح والإيمان والحياة الباطنية. كلاهما نموذج الكد والكفاح. وهما نموذجا أبوللو وديونيزيوس عند نيتشه⁽⁴⁾. ومصاحبة الإسكندر الخضر مثل مصاحبة الظاهر للباطن⁽⁵⁾. فعند الخضر النوم موتة صغرى، والموت موتة كبرى⁽⁶⁾. وما اعتبره الغرب سقط المتاع مثل الدين والإيمان هو رأس مال الأمة⁽⁷⁾.

صورة الغرب عند إقبال أنه حانة أو «متجر» أو «مدفن». ففي رباعية «حانة الإفرنج»، الحانة مكان الخمر. والخمر تربي الخمار، وتحدد رؤيته. أما الساقى فإنه يبحث عن شراب أشمل، وعشقه أعم. يشعل ناراً ليس فيها حيارى أو سكارى⁽⁸⁾.

- | | | |
|-----|---------------------------|-----------------------|
| (1) | أبلغن يا ربح عني | عالم الإفرنج جهرا |
| | السابق، ص 325. | |
| (2) | فنه قد هدم الأفرنج | ج والنفق أثارا |
| | السابق، ص 326. | |
| (3) | لحن إسكندر ولّى | وتفضى لحن دارا |
| | وأنى فرهاد يبغي | ملك برويز جهارا |
| | يوسف فارق سجننا | وعزيز الملك صارا |
| | وخرافات زليخا | ورفاها تنواري |
| | السابق، ص 328. | |
| (4) | أهاب إسكندر بالخضر: أقبل | وعان الكد في بحر وبر |
| | وموتن في الوغى تزدد حياة | إلام تحيد عن كر وفمر؟ |
| | السابق، ص 265. | |
| (5) | لقد أفصح الخضر في الظلمات | على حين صاحبه إسكندر |
| | عسير على الناس فهم الممات | وفهم الحياة لهم أعسر |
| | السابق، ص 339. | |
| (6) | النوم موت خفيف | والموت نوم ثقيل |
| | السابق، ص 340. | |
| (7) | وما عده الغرب سقط المتاع | بمذهبنا رأس مال الظفر |
| | جناح جبريل، ص 443. | |
| (8) | عهد حانات فرنج | ذكرني يا خليلي |

وفي نظم «حانات الفرنج» قال خلیع أنها خالية من الوهن. وهي ليست كنيسة بها ترانيم للسمع. بها كل رذائل البشر، وكل مظاهر العصيان. توزن فيها الأعمال بأوزان غير ما اصطنعها الناس. وهو ميزان الدين. القبيح حسن، والحسن قبيح. الحياة رياء، والصدق خداع. الصدق والوقار حجاب يُحرم رفعه. قانون الحان التمويه والتزييف. هذا هو سر الحياة والطريق إلى الكسب⁽¹⁾. وبالرغم من أن كثيراً من الآراء والأفكار في أوروبا حرة إلا أنها تقيد عقل الآخرين. قد تسمم عقولهم، وتحيل خصبهم إلى أرض قاحلة⁽²⁾.

وفي تقابل رمزي بين مكة وجنينا يرى إقبال أن الإسلام وحد بين الشعوب في أسمية شاملة لا تقوم على العرق أو القوم كما هو الحال في الوحدة الأوربية⁽³⁾. لذلك أخطأ رينان حين وضع تعارضاً بين الإسلام والعلم أي بين الإسلام والغرب.

= ربّت الخمرة فيها
نظرة الساقى رسالا
عقلها الخائر غاز
جوهرها أشعلت
ليس فيها من خلیع
رسالة الشرق، ص333.

(1) أمس في حانة الفرنجة وهنا
قال: ليست كنيسة تغشاهما
إنها حانة الفرنج وفيها
قد وزنا الأعمال فيها بوزن
لا تزن وزن أمة ذات دين
كل قبح يزيد جاهك، حسن
إن تفكرت فالحياء رياء
إنما الصدق والوفاء حجاب
شيخنا قال: مؤخر كل صفر
ذاك سر الحياء لا تفشيه
السابق، ص335.

Persian Psalms, p. 107.

(2) كم حديث عن الشعوب سمعنا
حكممة الغرب فرقة الناس والإسلام فيه نوحده العمران
ومقال من مكة لجنينا
قد وعاه اللبيب في كل آن
خيريني اليقين: هل عصبة الأقيام خير أو عصبة الإنسان؟
ضرب الكلم، ص39.

ووقع في عقيدة التفرقة العنصرية. والإسلام يوحد بين البشر جميعاً⁽¹⁾.

صورة المسلمين في مرآة أوروبا المتقدمة صورة متخلفة⁽²⁾. المسلمون عبيد والأوروبيون أحرار يسودون العالم. المسلمون ثبتوا في المكان. داخل محبس من صنعهم، في حين أن الغرب تقدم، وإشراقه مستمر. الشيخ قابع في حرم، والحبر في كنيسته، دون أي قول أو فكر جديد. السياسة فاسدة، والشعر مفلس، والخيال مغلق. يحتاج المسلمون إلى مهدي يزلزل عالم الأفكار دون أن ينحرف بالأمة عن الطريق القويم.

التبادل بين الشرق والغرب على النقيض. فقد أهدت الشام إلى الغرب نبياً، عفيفاً ومواسياً وصبوراً. في حين أهدى الغرب إلى الشام النساء والخمور والقمار⁽³⁾. وإذا كان الضعيف يشكو من الزمان، والحر باسم الحراب، فالخشية أن ينخدع الشاب الذي لا يحسن الطعان والحراب بالحضارة الغربية، وما تقدمه من حلول يلهو بها الأطفال⁽⁴⁾. بل إن نظم التعليم في الغرب تخدع. ألم تقم على القيم المادية؟ فهو تعليم ميت. لا يخرج من حرارة الصدر. وحرارة القلب لا تأتي إلا بالإيمان⁽⁵⁾.

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 25 - 26.

(2) كل ثوى في مجلس من صنمه
والشيخ في حرم وحبر كنيسة
أهل السياسة في شرك قديمهم
من لي بمهدي له نظر يزلزل
السابق، المقدمة، ص 6/29.

(3) أهدت الشام إلى الغرب نبياً
ومن الغرب إلى الشام هدايا
ضرب الكلیم، ص 107.

(4) يشكو الضعيف من الزمان صروفه
من صوت طير الصبح يدعش ذا الفتى
حذري لأنك في طباع طفولة
السابق، ص 121.

(5) خدع العين فتى مدرسة
وهو ميت ومن الغرب اجتدى
إن نرد تربية القلب فمن
السابق، ص 120.

سبار إفرنج وثابت مشرق
لا جدوة في القول أو في المنطق
والشعر أفلس في خيال مغلق
عالم الأفكار، غبر ممزق

هو عصف ومواس وصبور
من قمار ونساء وخمور

والحر فيه باسم لحراب
أترأه أهل تطاعم وضراب
والغرب تاجر سكر وجلاب

فبدت فيه حياة الأنس
ما سرى في صدره من نفس
نظر المؤمن شزراً فاقبى

والداعية إلى الإسلام في بلاد الغرب عليه أن يكون واعياً بخصائص الاثنين، جوهر الإسلام وروح الحضارة الغربية وكيف يصل الأول إلى الثاني. جوهر الإسلام يتجدد باستمرار طبقاً لظروف العصر. وحضارة الغرب هي حضارة نمروذ الذي وضع إبراهيم في النار. للغرب أصنامة التي يحطمها التوحيد. فالإصلاح هو الطريق بين إسلام الحجاب ومدنية الغرب. كلاهما في حاجة إلى تغيير. تغيير الحجاز بسلفي، والترك بالشوق، ولخراسان والعراق وللمعجم الألحان. لقد انتظر المسلمون عازفاً فجاءهم الأفغاني بلحن جديد فأتى بحديث العشق وسط الهوس ونثر در الكلام بالصحراء⁽¹⁾.

ويقارن الشاعر بين الشرق والغرب. ويزور الغرب ومصر والهند⁽²⁾. ويسمع أحكام الأفلاك عن الحضارتين، وهو يسبح في فلك المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض. لقد سبق الغرب الأمة في كل فن. قهروا المكان والزمان بعلوم الفضاء. وتغلبوا على حدود العقل⁽³⁾. ونموذج الحضارة الغربية مدينة مرغدين، أبنية في السماء، سكان حسنوا الوجوه. كل شيء موفور. العلوم والفنون مزدهرة. إنما عيبها صنم الدنيا. فليبتعد عن الحرم. ومع ذلك للفلاح مصباح بنيره. لا يخشى من غارة المالك عليه. آمناً على زرعه لا يشاركه فيه أحد. لا يوجد جندي يمص الدماء. ليس في المدينة قلم، فرية للخادعين. ليس في أسواقها عاطلون. ولا تسمع الأذن

(1) الدهر عاد بنار نمروذ
هلم نلق الحجاب عن حرق
أملكت حور الفرنج من حكم
فقل لأهل الحجاز عن سلمي
على خراسان والعراق فجع
كم انتظرنا لعازف ولكم
جعلت عشفا حديث ذي هوس
رسالة الشرق، ص 301.

(2) فارساً شاهدتها والغرب زرت
جاويد نام، ص 238.

(3) وكأهل الغرب فيه من سكن
قهروا حتى الزمان والمكانا
إن وعرا في العقول مهدوا
السابق، ص 235 - 236.

فيها سؤال الشحاذين⁽¹⁾. ضمير الغرب ضمير التجار، وضمير الشرق ضمير الرهبان⁽²⁾. أما علماء الشرق فقد التحوا بالثلج أي أن لحيتهم مزيفة، مدعين أنهم منشغلون بالعلم، صباح مساء. يسبحون في الفكر كالغرب، ويلبسون المسوح مثل رهبانه⁽³⁾. لقد وصل الشرق لأرض الغرب. ثم خرج منها يبحث عن التجلي. والدليل أنه مازال موجوداً⁽⁴⁾.

لقد أعطي الشرق ملوكاً عظاماً من الأفغان والفرس والهنود مثل نادر رمز وحدة المسلمين، وأبدالي الذي نهض بالأفغان. أقام أبدالي ملكاً عظيماً فوق الجبال وأضرم النار فيها ولم يحترق! فأين بطل الشرق الآن؟ أين النور من نور الكواكب يواكب عيش الناس؟⁽⁵⁾. لقد كشف سر العاشق رجاء بالروح بشوق دافق. أبلى بلاء حسناً في بدر وحنين. ويفقره انجذب إلى الحسين. رفض قصر السلطان

- (1) البناء في السماء كان طولاً
إنما الدينار كان كالصنم
إن للفلاح مصباحاً أناراً
أمنّا يروي نباتاً بملكه
هاهنا ما لاح جندي لرائي
مرغدين ليس فيها من قلم
ليس في السوق نداء من تبطل
لا مكان هاهنا للسائلينا
السابق، ص 240.

- (2) أرمنغان حجاز، ص 542.
(3) ذلك شيخ العلم بالثلج النحي
كشيوخ الغرب في الفكر السبوح
جاويد نام، ص 237.

- (4) أرضكم هذي إليها قد وصلنا
التجلي نحن عنه الباحثونا
السابق، ص 238.

- (5) وملوك الشرق في حفل كعقد
نادر التحرير رمز الاتحاد
ثم أبدالي وقد كان البطل
السابق، ص 299.

- وفتى ملكاً عظيماً قد أقاما
أضرم النيران في تلك الجبال
السابق، ص 304.

في السموما عسيت أن أقولا
أبعدوا الأضنام عن هذا الحرم
مالكاً لم يخش حتى إن أغارا
ما له في ملكه من يشركه
لا ولا من عاش من مص الدماء
فربة للخادعين قد رقم
لا ولا في الأذن نوح من نسول
والعبيد لا ترى والمالكينا

ممسيا كان يعلم مصباحا
كنصارى الغرب في لبس المسوح

نحن في الدنيا ولكننا خرجنا
والدليل أنت نرضى أن تكونا

عزة الأفغان أو فرس وهند
كان للإسلام بشرى بالوداد
منح الأفغان أسماً للعمل

للجبال عاد واختار المقاما
أحرقته؟ أم شجاع لا يبالي؟

وحافظ على ملك الهند⁽¹⁾. والجندي الشرقي هو الذي يحمي الشرق⁽²⁾. كل قول له كان فعلاً. ظل مستيقظاً بالرغم من قوم الشرق⁽³⁾.

يتجلى المرء في الثبات الذي يعطي الحياة للشعوب والأفراد. ونال ذلك بكمال التوحيد. وحقق الجمال والجلال⁽⁴⁾. وإذا التوحيد أسكر شعباً فإنه يرفعه إلى الذرى. وروح الشعب لا تحل في الأجساد بل في الأرواح⁽⁵⁾.

الجمع بين روحانية الشرق ومادية الغرب ممكن عند حلیم باشا المصلح التركي، بين القلب والعقل، قلب الشرق وعقل الغرب. فالقلب طريق العقل، والعشق سبيل الفكر. في الغرب فتحت العين، ومات القلب. وفي الشرق فتح القلب، وأغلق البصير، وأظلم العقل. وأخطأ مصطفى كمال حين اختار علمانية الغرب. وأخطأ العثمانيون عندما اختاروا سلفية الشرق. انهار الغرب بما اخترعه. الغرب إذن ليس نموذجاً للتقليد. إبداع الذات هو الطريق. اختار العلمانيون الجديد على حساب القديم. واستبدلوا صنماً بصنم. مع أن الغرب يحطم أصنامه كل يوم. فما سماه العلمانيون جديداً أصبح قديماً في الغرب. لذلك لم تتحقق نفوسهم في

-
- إنه للدين بأس والوطن
بطل الهيجاء حقاً والأمير
السابق، ص 308.
- (1) أين من نور اسمه نور الكواكب
إنه كشف سر العاشق
وبفضل من ببدر أو حنين
زایل السلطان قصراً زائلاً
السابق، ص 300.
- (2) وحياة الشرق كانت من حياته
السابق، ص 308.
- (3) كان فعلاً كل قول قائله
السابق، ص 311.
- (4) بالتجلي كان للمرء الثبات
ولقد نالاً بتوحيد كمالاً
السابق، ص 319.
- (5) وإذا التوحيد شعباً أسكراً
إن روح الشعب بين الناس كانت
السابق، ص 320.
- فاد جيشاً في جبال قد كمن
والحديد عند قوم والحرب
- وتراء عيشنا هذا يواكب
جاد بالروح بشوق دافق
قد حباه فقره جذب الحسين
ملكه في الهند ظل مائلاً
- ابنه الجندي أمر من مماته
- لم ينم، والشرق نام ليله
- إنه للفرد والشعب الحياة
حقاً هذا جللاً ذا جمالاً
- فمكان الشعب في أعلى الذرى
للحلل قط جساماً ما أرادت

أبدانهم. ولم ينبثق القلب في صدورهم. حياة القلب تخلق الزمان، والتقليد يميته. والمسلم لا ينظر في الكتاب وحده، بل ينظر أيضاً في الضمير. وهو قادر على التجديد، يغير ثوب دنياه كلما رث. ويجدد الثوب بفهم القرآن من جديد طبقاً لعصره⁽¹⁾.

دون الذات تكون حياة المسلم زورقاً يسير بلا هدى. والقرآن هو الهادي له. ومن ثم يدعوا الأفغاني إلى العودة إلى الربان. ويأمر المسلم (قم) كما أمر الوحي الرسول من قبل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. ولا ينهر بالغرب. وليس بالقلب ملوك أو عبيد لأنه بغير حدود⁽²⁾.

قد يفعل صاحب الرأي، ولكنه لا يقلد الغير، بل «يعتمل» أي يعمل

- (1) إن في الغرب الذكا أصل الحياة
ويعشق يعرف الله الذكاء
وإذا العشق الذكاء صادقاً
انهضن العالم الثاني اصنعن
للفرنج شعلة قد بُللت
جُرْحُوا لكن بحد سيفهم
نشوة من كرمهم لا تطلبين
للحياة النار فلتنشعل بنارك
وكمال حين نادى بالجديد
ليس للكعبة تجديد الحياة
ما تغنى الترك ما قالوا نشيدا
نفس آخر فيهم ما خفق
إن حي القلب خلاق الدهور
مسلماً إن كنت ذا عقل منير
يؤمن الإنسان من آيات ربه
وإذا دنياه رثت ثوبها
السابق، ص 198 - 199.

- (2) زورق نحن بلا هدي جري
عالم في صدرنا هذا اختفى
ليس فيه أي لون أو دماء
ليس فيه من ملوك أو عبيد
السابق، ص 199 - 200.

عالم القرآن أين؟ من دري؟
في انتظار قم لإنسان غفا
ما لغرب ما لديه من بهاء
مثل قلب في خلو من حدود

بنفسه»⁽¹⁾. ترك تقليد الغرب مرهون بالعود إلى الذات. ومكر الغرب مثل مكر الثعلب. يتحول بعدها إلى افتراس الأسود. لا يعرف إلا القتل⁽²⁾.

4 - استعمار الغرب للشرق

وموضوع ديوان «والآن.. ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» مقومات النهوض أو أساليب العمل. كما أنه يدخل في موضوع الشرق والغرب والذات المضادة. ويتعلق أيضاً بالموضوع السياسي. والعنوان هو عنوان آخر قصيدة في الديوان، دلالة للجزء على الكل. وهو آخر ديوان أصدره في حياته باللغة الفارسية عام 1936 بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة.

ويشمل عدة موضوعات حول استعمار الغرب للشرق. فالشرق هو الذي هدى الغرب إلى الرقي والتقدم. وحضارته أعلى قيمة من حضارة الغرب في العلوم والفنون. كما يتناول موضوع تطهير الفكر وتجديده كشرط للتقدم مع التمسك بفقر المؤمن. فالفقر لا يعني ترك الدنيا ولا الإهمال والعزلة بل تسخيرها أولاً، والعزة والعفة والاستعلاء، كي تجوز للإنسان الخلافة على الأرض⁽³⁾.

لقد استعبد الإفرنج الناس، ووضعوهم في قيود من حرير وصديد⁽⁴⁾. وتتنوع أشكال الاستعمار من استعمار مباشر كالهند إلى استيطان كفلسطين إلى انتداب مثل مصر. وحجة الاستعمار أن الشعوب المستعمرة غير قادرة بمفردها على التمدن، بالرغم من أنها صاحبة تاريخ عريق. ولها من التمدن الخاص بها، وليس بالضرورة

(1) إنه ذو الرأي فيما قد عمل
السابق، ص 202.

(2) دعك من هذا التجلي للشببات
ويمكر الغرب إن كنت الخبيراً
أمل الثعلب في الدنيا طعام
يصبح الثعلب ذباك الأسد
السابق، ص 214.

(3) يا أمم الشرق، ص 339 - 341.

(4) لبني الإفرنج في الدنيا عبيد
في قيود من حرير أو حديد
السابق، ص 365.

التمدن الغربي من خمر ونساء وخمور. هو تمدن يقوم على التواصل والأصالة والبداءة والتربية⁽¹⁾.

وفي آخر قصيدة تحمل عنوان الديوان كله «والآن.. ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» يفضح إقبال مؤامرات الإفرنج الذين اغتصبوا أراضي المسلمين، وسلبوهم حقوقهم. ومزقوا أوطانهم. وينتقل من مخاطبة الأمة العربية إلى مخاطبة أمم الشرق. والعرب جزء من الشرق وكما دعا الأفغاني من قبل إلى أشكال من الوحدة مركزها مصر، وحدة وادي النيل، وحدة مصر والشام، وحدة المغرب العربي، الوحدة العربية، الوحدة الإسلامية أو الجامعة الشرقية. وهو السؤال في كل ثورة ونهضة: ما العمل؟ وتتضمن نفس موضوعات «إلى الأمة العربية»، استنهاض الذاكرة التاريخية، ووصف الأحوال الحاضرة، خاصة الاستعمار، ثم وصف الحل من أجل النهضة من جديد⁽²⁾.

الفرنج سبب ضياع المسلمين وإسكارهم وإخضاعهم تحت سلطانهم⁽³⁾. لقد عاد روح فرعون في لورد كشنر. وهو ما رآه إقبال في فلك الزهرة في معراجة إلى السماء. وينتهي كل بيت بلازمة «ذاك أولى» مثل: كسر القيود، تحطيم الأصنام، شق الصخر. اشتد الصراع بين الشرق والغرب. ولا تنفع مدية الدرويش أمام عصي موسى. وينتهي الفرعون القديم والفرعون الجديد إلى الردى إذا ما فلق موسى البحر⁽⁴⁾. ويتوب فرعون القديم بعد أن فقد عقله ودينه. ويريد التماس قلب العقل

(1) ملك الحضارة أين يُحتم سيره؟
في حيث لا خمر ولا قمر ولا
والروح في بدن قوي خافق
حيث المدارس غائص ينبوعها
يفتي جهاينة الفرنجة أنما
ضرب الكلم، ص 108.

(2) يا أمم الشرق؟، ص 389 - 396.

(3) الفرنج المسلمين أسكروا
من نفوذ الغرب في الشرق الخراب
جاويد نام، ص 195.

(4) ذاك شرقي وذا من أهل غرب
وعصا موسى على هذا نهاوت
مع أهل الحق في حرب وضرب
والرفيق مدية الدرويش غالت

والقلب من الكلیم⁽¹⁾. ويعترف فرعون الجديد، لورد كتشنر، كما اعترف فرعون مصر القديم بأن للغريين قصداً خفياً وهو حفر القبور من أجل الحصول على ذهب الأحياء. ويتكرر في هذا العصر ما حدث من قبل في مصر. وقد ظهر ما خفي الغرب بفضل العلم والبحث⁽²⁾.

استعمرت بريطانيا الهند. واعتبرتها درة التاج البريطاني. وعلمائها موتى بالأكفان. الجسم والروح مسلوبان. ولم يبق فيها أرض ولا سكن. ورضيت الهند أن تكون رقاً لأوروبا ولا تشكو⁽³⁾. وأرادت بريطانيا تجميل استعمارها بما سموه الاصلاحات كنوع من الحكم الداخلي. وهي في الحقيقة تأكيد لنزعة التسلط. مازال الصياد هو الصياد حتى لو تظاهر بالشفقة، ووسع قفص الضحية، وزينه بزهور لعل الطائر يرضى بقفصه⁽⁴⁾.

ظامشان بين أمواج تشور
موت جبار كآيات بدا
هاك كفي فما قلب وجف
فإذا القمرء جوف البحر يجلو

ونظرت والضياء ما عرفت
وهبوني لفنة يا من ظلمتم
عين عميان أنار بالبصر
والأساس أحكموه بالنفاق
والفساد، وتفشى كل شر
لالتسمت منه قلب العاقل

ولأجل النبر كم قبر حفر
ما نراه اليوم في سفر قديم
حكمة والبحث، أو شيء حقير

يا ويحها، درة في التاج ترتهن
ولم يزل مرقاً تحت الثرى الكفن
لم يبق في أرضها دار ولا سكن
فمنك شكواي لا منها، وبني حزن

ولم يجد فينا ذا الصغير المجدد

مثل فرعون الصغير والكبير
يعرفان الطعم مرا للردى
سر ورائي يا بني لا تخف
ومن القرآن طه الشيخ يتلو

السابق، ص 228 - 229.

(1) آه عقلي آه ديني قد فقدت
امتحنوني نظرة يا من ملكتم
جاءنا عن غاصبين بالخبر
ما يريدون لنا غير الشقاق
ولهذا دب في الحكم الخور
لو بدا موسى كلیم الله لي

السابق، ص 229.

(2) إن للغربي قصداً قد ظهر
إن تاريخاً لمصر والكلیم
إنما بالعلم للسر الظهور

السابق، ص 230.

(3) مستقبل الهند من يدري؟ وما برحت
دهقانها من ظلام اللحد مطرَح
الجسم والروح للباغين قد رهنا
رضيت رقاً لأوروبا بلا أنف

ضرب الكلیم، ص 108.

(4) أرى رحمة الصياد سترا لقهرة

لم تكن قضية كشمير قد ظهرت بعد حين قسمت بريطانيا الهند إلى الهند وباكستان عام 1948. وخلقّت مشكلة كشمير لاستمرار النزاع بين أكبر دولة هندوسية وهي الهند، وأكبر دولة إسلامية وهي باكستان. كما قسمت فلسطين بين العرب واليهود، وجنوب إفريقيا بين البيض والسود. يحن إقبال لكشمير، جبالها ووديانها، غاباتها وأحراشها، أرضها وسماها، طيورها ومياهها⁽¹⁾.

وفي قصيدة بعنوان «لن يثير الشجن والأحزان، دمة على افتراق الشعب في شبه القارة» يتنبأ بتقسيم الهند كجزء من سياسة بريطانيا «فرق تسد» وكما ستفعل في فلسطين وفي جنوب إفريقيا بعد موت إقبال بعشر سنوات عام 1948، إثارة للنعرات الطائفية والعرقية بعد أن فشلت محاولات غاندي في الدعوة للتسامح والإخاء بين المسلمين والهندوس خاصة وأن غاندي نشأ في منطقة الجوجورات حول بومباي، منطقة المسلمين. التقسيم إذن مؤامرة الغرب. فبالرغم من استغلال شعوب الشرق إلا أن الغرب مازال يسيطر عليها اقتصادياً وسياسياً. سلب ثروات الشرق. ونما نفسه بأموال الشرق. ويمتد نوم الشرق سنين طوالاً بإرادتهم، وليس بإرادة السماء. وهو ليس أهلاً للحزن أو للغسل أو للدفن أو لشق الثياب ولا عزاء. لا ينتسب إلى الفلك، ولا إلى السماء. يأتي يوم الحساب بلا أعمال. ويقف بلا حصاد لأنه لم يزرع بل ظل ينتظر المعاول بلا كد وكدح وسعي في الأرض. وما تنفع الأماني بلا جهود إذ يكون مصيرها العدم، ومحو نقشها من سفر الوجود. تمادي الغرب في الفتن وأحكم سحره وقبضته حول الشرق. فلا هو بقي على الكفر في الغرب، ولا هو حافظ على الدين في الشرق. أحال الضوء إلى ظلام. ولا حل لخلاص الشرق إلا بالثورة⁽²⁾.

= وقد زين الأقفاص بالزهر ذابلاً
لعل أسيراً للأسار يغرد
السابق، ص 113.

A Message of the East, pp. 92 - 3.

(1)

شعوب الشرق والغرب استقلت
فلا أغيار ثروتنا متاع
وأين حياتنا والغير فيها
وليس النوم ما صرنا إليه
وإن بذور هذا الموت جاءت
ومنذ المهد كان القوم صرعى
وضاق بنا على الأرض الفضاء
ومن لبناتنا لهم البناء
يصول كما يشاء ويستطيل؟
فذاك الموت لا النوم الثقيل
من الأعماق منذ الابتداء
وهذا الموت ليس من السماء

(2)

=

كشف إقبال الأقنعة عن السياسة الغربية. وأيقظ أمم الشرق. في الهند الإنسان المستعبد الذليل ليس له الحق في ذكر اسم النبي. والعبودية والذل لا يلتقيان مع الإيمان والحرية. تصوّر السياسة الغربية الظلم عدلاً. وهو عدل جديد لا عهد للناس ولا للفظرة به. التحرير لديه زيادة قيد العبد والأمن لديه، أن يدخل الطير في وكر الصيد. ويرمي للطير الطعام فيقع. ويغيب رشده عندما يفقد الأمل⁽¹⁾. على شعوب الشرق أن تحذر كيد الغرب. فكل ما يأتي منه زور وبهتان. والأفضل الموت ضمّاً كالحسين من شرب ماء الغرب. ما يقوله تخدير لا يصدق. وكحله يعمي العين⁽²⁾.

غزت إيطاليا الحبشة. وانقضت عقبان أوربا على جيف الأحباش. فحضارتها تقوم على العدوان. هي مجموعة من الذئاب تطارد الخرفان. والكنيسة تساهم في ذلك. تريق

لغسل أو لقبر أو بكاء
ولا سعي الوفود إلى عزاء
فليس لها إلى القللك انتساب
بلا عمل فليس له حساب
بلا زرع فمن أين الحصاد؟
وكل حياته يوم معاد
بلا جهد وتمضي في ركود
وينسي نقشها سفر الوجود
وأحكم حولها السحر المبين
ولا أبقي لأهل الدين ديناً
ولا حل بغير الانقلاب

ما هو التفسير للعدل الجديد
يحكم القيد لتحرير العبيد
فاتخذ في منزل الصيد وكرا
لا ولا تأمن في الصحراء تسرا
يسقط الطير ويهوي ثملاً
ساعة يفقد فيها الأمل

كل ما يأتي به زور ومين
ولتمت ظمآن حراً كالحسين
فهو تخدير مبيد للبشر
إنه الكحل الذي يعمي البصر

وليس فقيد هذا الموت أهلاً
ولا شق الثياب عليه حزناً
جهنمه سوى ما قد عرفنا
ويوم حساب كل الخلق يأتي
حصاد الزارعين غداً وهذا
ومدة عمره في الدهر يوم
وأية أمة نرجو الأمان
يكون مصيرها علماً ومحو
وكم فتن تمادي الغرب فيها
فما أبقي على الكفار كفراً
هي الغمرات ما منها نجاة

يا أمم الشرق، ص 371 - 372.

(1) صوّر الغاصب عدلاً ظلمة
زاد في التحرير معنى أنه
قال للطير إذا رمت الأمان
ليس في الأجواء للطير مكان
حين يلقي الحب في أشواكه
ويغيب الرشده عن إدراكه
السابق، ص 374.

(2) سيدد الرأي وحاذر كيده
إن سفاك الماء فاترك ورده
لا تصدق منه ما تسمعه
وحاذر الكحل الذي يصنعه
السابق، ص 374 - 375.

الدماء أنهارا. ورئيسها لا يحرك ساكناً بعد أن سالت في العالم أنهار من الدماء⁽¹⁾.

وفلسطين غصة في حلق الغرب. فقد ادعى الغرب أنه حضارة التمدن. وأمانته فوق كل اشتباه. وأوربا نصيرة كل شعب. وقع عليها الظلم والضرر والحيث. قساوستها حملوا شعلة الفكر الحر. ثم خلقوا قضية فلسطين. وأحل شعب مكان شعب. وبعد أن نجت أوربا من تركيا العسكرية انتقموا منها في شعب فلسطين⁽²⁾. وإذا كان لليهود حق في فلسطين فللعرب حق في أسبانيا، ولكنها لغة بريطانية خفية في تقسيم العرب، وزرع جسم غريب بينهم، يفصل بين الشام ومصر، وتكون قاعدة غربية للعدوان في المنطقة العربية وعلى العالم الإسلامي⁽³⁾. ولا يوجد حل أمام عرب فلسطين إلا أن تعتمد فلسطين على ذاتها بدون لندن أو جينوا. فاليهود يعيشون في دماء الإفرنج. ومادامت النار في الحشا دون خمود فالزمان قادر على إرجاع فلسطين⁽⁴⁾.

(1) عقبان أوربا بغبر علم في جيفة الأحباش أي سم

قد آن للميتة أن تحيى

حضارة تكمل بالمخزاة وعيش أقوام على الغارات

وكل ذئب طارد خروفا

وجه الكنيسة اكتسى شئارا روما أراقت ماء نهارا

يا باب قد أضحى النور أسيفا

ضرب الكلیم، ص 104.

(2) أمانتها علت عن كل رب

فأوربا نصيرة كل شعب

كرامات القساوس أن أضاءوا

ولكن من فلسطين بقلبي

وتلك عقدة ليست لحل

من الترك الجفاة نجوا فلاقوا

السابق، ص 109.

(3) مرحى لحانات الفرنج فقد

إن في فلسطين اليهود رجت

للتكليس مقاصد خفيت

السابق، ص 111.

(4) لا يزال الزمان يصلى بنار

لا دواء بل لندن أو جنوا

لم تزل في حشاك دون خمود

بوريد الفرنج كف اليهود

وموسوليني نموذج الحاكم المستبد في الغرب والشرق على حد سواء. هو مجرم حرب في ثوب سياسي. الكل يأخذ بوسائل التمدن. ويختار الغرب الوسائل الحربية. يشغل الغرب نفسه بالزمر والموسيقى وكل ملذات الحياة. والبعض الآخر يملك الأرض ويأخذ الخراج حتى على الصحارى⁽¹⁾.

ولا فرق بين الإسكندر قديماً والقرصان. ففي حوار شعري بينهما يتهم الإسكندر القرصان أن جزاءه في سلاحه. كما أن التصميم في سيف الإسكندر. وإن ضيق وسع البحر عندما يمعن في قطع الطريق. ويرد القرصان بأن الإسكندر أيضاً لم يوفق في مسعاه، وأنه ما ينقذ به يرد إليه. فالقتل أيضاً مارسه الإسكندر. الإسكندر يصول ويجول في البر. والقرصان يصول ويجول في البحر⁽²⁾.

تقوم سياسة الإفرنج في الغرب على أدمغة الساسة وإذا كان هناك إبليس واحد فسياسة الغرب الآن ألوف الأبالسة⁽³⁾. أسف الساسة وأخلدوا إلى الأرض.

- = ومن الرق للشعوب نجاة
- السابق، ص 113.
- (1) أرى العصر يأبى من مسؤولين جرمه
كلانا بآلات التمدن آخذ
وقد نقموا مني غرام تملك
لمن شعبات الحكم تبقي ممالكها
أبنتخ في الأعواد أبناء قبصر
نهيتهم خيام البدو والزروع والقرى
قصدا من التمدن قتلا وغارة
- السابق، ص 107.
- (2) اسكندر:
- جزاؤك في سلاسلك ارتهان
فقد صيرت وسع البحر ضيقا
القرصان:
- سكندر! للفتوة لم توفق
فإن القتل دأبي لا أماري
كلانا اليوم قرصان: ببر
- السابق، ص 110.
- (3) يا رب تلك في غرب سياسته
خلقت إبليس فردا من لظى لهب
- السابق، ص 103.
- قوة الذات وازدهار الوجود
- وأخيار أوروبا علي غضاب
أتنفخ أفعال السيوف حراب
أما ثار منهم بالضعاف ضراب
ولا ملك أو ملك بهن يصاب
ويجبي إليكم عاصر ويباب
وكم كان منكم للعروش نهاب
أمسكم فخر ويومي عاب؟
- أو التصميم من سيفي العتيق
بما أمعنت في قطع الطريق
- أحمل بالفتي فضح الرفيق
كذلك القتل دأبك يا صديقي
تصول، وصلت في بحر عميق
- وما تعبد إلا الهام والروسا
ومن تراب أقامت ألف إيليا

يمدون الشباك كما يفعل الذباب والنحل. ونادراً ما يظهر أمير بينهم له هدف يتجاوز الأفلاك⁽¹⁾.

هناك حكمة مستفادة من الشرق والغرب على السواء وتفيد العبيد مؤداها أن لا ملك أو فقراً أو دنيا أو حكمة يمكن تأسيسها إلا على العقائد. فهي أساس الضمير. تحمي الأمة من أفعال الرعديد أو الأقوال المثيطة⁽²⁾. السياسة اللادينية خسة مات الضمير فيها وساد إبليس. ولما قضى الفرنج على الكنيسة استبدلوا بها الشيطان. وكلاهما واحد بالنسبة لاستغلال أموال الناس. بالإضافة إلى الإقطاع في الكنيسة ورأس المال والعسكر في العلمانية⁽³⁾.

5 - تحرر الشرق من الغرب

وكيف يستعمر الغرب الشرق، وحضارة الغرب وافدة من الشرق؟ من الشرق فاض العشق والحسن على الكون. ومنه امتدت الفطرة في العالم كله. منه تعلمت نهضة الأمم، وعرفت العلوم والفنون. رفع الشرق الحجاب عن الكائنات. ومنه أشرقت شمس الحضارة. أصداف البحر من قطراته. وهدر الموج من بحره. حرارة الشدو من ميزانه. إيمان الناس من قلب آدم⁽⁴⁾. يكسب الغرب من جهة الشرق، وما

(1) ما رجائي بساسة قد أسفوا
نظرات إلى ذباب ونمل
حيذا الركب قد هداه أمير
السابق، ص 111.

(2) تعلمت بين الغرب والشرق حكمة
فلا ملك أو فقرا ودينا وحكمة
فإما خلا منها ضمير جماعة
السابق، ص 104.

(3) ما الحق مخف عن فؤادي سره
فسياسة اللادين عندي خسة
لما قضى حكم الفرنج كنيسة
شُرعت لأموال العباد كنيسة
السابق، ص 109.

(4) بنا لبس العشق ثوب الدلال
وفطرة آدم في كل حي
تعلمت الأمم النامضات
وفاض على الكون طيبا وحسنا
رونها الخلائق في الدعر عنا
من الشرق ديننا وعلمنا وفنا

يقتنيه من ادخاراته. ومن يأخذ الغذاء والكساء ويعيش في نعيم⁽¹⁾.

فماذا كان الشرق أصل الغرب، فالشرق قادر على النهوض من جديد دون الذوبان في الغرب. وهو قادر على إجراء المعجزات كما أخرج موسى يده بيضاء من غير سوء ليبطل سحر الغرب كما أبطل موسى سحر فرعون. فلماذا قيد الشرق نفسه بزناد الغرب، وصبر على القيد؟ يكفيه أن يوحد البلاد ويوجهها نحو العلا حتى يحقق العزة والنصر⁽²⁾.

لقد استعمر الغرب الشرق. وآن الأوان كي يتحرر الشرق. فاثورة في النفوس تدفع الحياة إلى المجد من جديد. وما زال الغرب في غروره، يكيد للعالمين. ينشر الإلحاد في الكون، ويقيم الدنيا على غير دين. ويلبس الذئب لبس الشاة، ويخفي أنيابه، ويتنظر في الكمين⁽³⁾. يستغل الغرب البرايا. ويرى بني آدم مثل القطيع حلالاً

-
- | | |
|--|--|
| <p>رفعنا الحجاب عن الكائنات
إذا لاح في صدف جوهر
وإن هذر الموج في سحره
حرارة شدو الهزار الطروب
سقبنا دم آدم قلب الورود
يا أمم الشرق، ص 393 - 394.</p> | <p>=
فنحن من الشمس وأشمس منا
فذلك من فطر نيسنا
فذلك من فيض طوفانا
على غصنه بعض نيراننا
فأهدى رسالة إيماننا</p> |
| <p>(1) فمن جهد كسبك ما يحتنيه
ومنك الغذاء معا والكساء
السابق، ص 396.</p> | <p>وما يقتنيه وما يدخر
له في نعيم وعيش نظير</p> |
| <p>(2) فتى الشرق أنت الوفي الأمين
لتخرج بيضاء من غير سوء
علام ارتبطت بزنازه
موحيد بلادك صوب العلا
يا أمم الشرق، ص 394.</p> | <p>فأظهر بد العزم للناس جهرا
وتبطل من فتنة الغرب سحرا
وكيف استطعت على القيد صبورا؟
بإيمانها تلقى عزاء ونصرا</p> |
| <p>(3) تشن الخلائق في الأرض ضرا
فيا أمم الشرق فيم التواني
أكاد أرى ثورة في النفوس
مضى الليل وانجاب عهد الظلام
وما يرح الغرب بخشال تبها
لينشر في الكون إلحاده
ويستبطن الذئب في جلد شاة
السابق، ص 389.</p> | <p>وفد سامها الغرب عسفا وجورا
لقد آن أن يصبح الشرق حرا؟
تشد الحياة إلى المجد جرا
وبعد الدجى يعقب الليل فجرا
ويحترف الكيد للعالمين
وينشئ دنيا على غير دين
بأنياه الغضل خلف الكمين</p> |

يرى إقبال حل مشكلات الشرق بالإيمان والعلم. فمصير الإنسان في هذا الوجود هو التراب. وقد تشكل من قبل من ماء وطين. وفي الحياة ضلت القافلة عن طريق الصواب. كل شيء مباح لتحقيق الأطماع دون حساب أو رقابة من ضمير. وللحق في كل شيء دليل، ينير الأبصار. وفي كل شيء له حكمة يدرك أسرارها العارفون. إذا شاهدوا آياتها لا يرهبون. وإذا تبين الهدى لهم فإنهم ينظرون. للمؤمن الحر من ربه في حياته نور مبين. وفي قلبه لوعة واشتياق وعطف على محن الآخرين⁽¹⁾.

يسأل إقبال عن الذي ملأ الشرق فأحيا القلوب، وعما يعصف به الآن فترضخ الشعوب؟ ويجيب الرومي بأن الشعب لا يموت إلا إذا حسب الأحجار بخوراً، وظن الشهد سما أي عندما تنقلب الرؤى لديه وتختلط الموازين⁽²⁾.

فيشارة أوتارها أشعاري
متحفزا للسبق في المضمار
غير الذي شهدت من الأدوار
لغو القرنج وزيف الاستعمار
موصولة بنزاهة الأفكار
عن قصده لم يلق غير بوار
وينطوي في ذلة وصفار
ن وفوزه من حريها بفرار
ما فيه من لج ولا تبار
تحريرها بالعزم والأصرار
أن يسهل التعمير للأفكار

يزيد بهم شرها كل حين
لديهم سوى هبكل من تراب
وبنيانه صائر للخراب
بحكمتهم عن طريق الصواب
وما للضمير عليهم حساب
ومن نوره كل ما تبصرون
يفوز بأسرارها العارفون
أبأة على الضمير لا يرهبون
بإدراكهم أفلا ينظرون؟
هدى في الحياة ونور مبين
وعطف على محنة الآخرين

إني مأسعهم نشيد المجد من
وأحبل خام الطبع وعيا صارخا
وأصوغ للأيام دورا مقبلا
ليحرروا الأرواح والأفهام من
ومجال تحرير النفوس أمانة
والشعب حين يضل في أماله
ويموت داخل صدره القلب السليم
فإذا الحياة هي السلامة والسكو
في بحر موج الأمانتي راسب
الخطوة الأولى لنهضة أمة
لو أمكن التطهير أمكن بعده

السابق، ص 347 - 348.

(1) أرى مشكلات بني آدم
فما قدر إنسان هذا الوجود
تشكل في الخلق ماء وطينا
وقافلة الكون ضلت خطاها
لأطماعهم كل شر مباح
وللحق في كل شيء دليل
وفي كل معنى له حكمة
إذا شهدوا آية الله عاشوا
لقد نظروا فاستبانوا الهدى
وللمؤمن الحر من ربه
وفي قلبه لوعة واشتياق

السابق، ص 390.

(2) قال: يا من ملأ الشرق بما يحيي القلوب

ويحذر إقبال ابنه جاويد من أن يدين لصانع يصوغ الزجاج في أوربا. ويوصيه بأن يصوغه من تراب الهند، وأن يضع بلاده فوق رأسه تاجاً⁽¹⁾. وكل شيء يجعله الشرق نجساً يعتبره الغرب مقدساً. فرح الغرب لترك المسلم لسجوده، في حين يعتبر المسلم ذلك إنكاراً لوجوده⁽²⁾. لقد آمن الشرق وحده بالإله. أما الغرب فقد شاح عنه. ومع ذلك، الشرق الآن متأرجح بين الوجود والعدم. ومن يدري ماذا يخبأ له المستقبل من نهضة جديدة؟⁽³⁾. من الشرق ذكاء يطلع عندما يفك من قيد الغرب. ويتجلى عندما يفيق من الغزو⁽⁴⁾. والشرق قادر على فهم الأسرار⁽⁵⁾.

لقد علّم الغربُ حكمة للشرق، أن الدين معبد وطائفان، كهنوت ودير. وهو

= ما الذي يعصف بالشرق وما داء الشعوب؟
قال: ما أعرف شعبي مات إلا مات نعمة
حسب الأحجار بخورا وظن الشهد شمة
جناح جبريل، ص 525.

(1) إياك يوما أن تدين لصانع في ليل أورثه يصوغ زجاجا
صُغ من تراب الهند كأسك وافتخر وارفع بلاده فوق رأسك تاجا
السابق، ص 533.

(2) كلما يجعل منه الشرق معيار النجاسة
لا تبياني حكماء الغرب أن ترفع رأسه
فسر الغرب الديموقراطي تركبي لسجودي
لم يُد من بعده في الأرض معني لوجسودي
السابق، ص 545.

(3) شاهد الشرقُ الإله وحده وأشاح الغرب عنه خده
في طلسم للوجود والعدم ذلك الشرق بسر ما ألم
ما لنا أهل السما إلا النظر في غد للشرق تحقيق الوطر
قال يبدو الآن هذا المشرق شمس الأخرى عليه تشرق
جاويد نامه، ص 163 - 164.

(4) فمن الشرق ذكاء تطلع باجتراء وتجل نسطع
في عذاب واصل من نار قلب عند فك القيد من شرق وغرب
بالتجلي أسكرت في شرقها أفقا ما أقبلت من عزوها
منهما قد قطعت أصل السبب إنها للشرق لكن في النسب
السابق، ص 196.

(5) أنت يا من قلت قولاً عبقرياً يعلم الشرق به سرا خفياً
السابق، ص 297.

وهم⁽¹⁾. والآن أصبح أمير القافلة محباً للمال في العاجلة. لم يقم بفعل النفي «لا إله» لتطهير النفس وتحريرها من العبودية للمال والجاه والجسم. كان في الماضي مرفوع العلم بالتوحيد. ينشد المجد. ولد في ظل الحرم ثم أصبح مريداً للغير. كان في الماضي مرشداً يسترشد به كل مرتاب يبحث عن اليقين. وإذا ما سجد هو وصحبه زلزلت الأرض من جبهاتهم. كانوا يعلنون وسط الأهوال وتحت ظلال السيوف توحيد الإله. يكتبون ربنا الله ولا رب سواه من دمائهم⁽²⁾.

لقد ضاع من الأمة الشوق والقلب الصبور. والباقيات الصالحات ردمتها العصور، وتوارت في الظلام. بُليت بالرق، وهي بجوار الحرم حتى إنها لتخجل من ذكر اسم المصطفى على لسانها، وتحول ضمير الأمة إلى دير للأصنام. أصبحت أسيرة تحت حكم الغير، ولا تقدر على أن تصنع خيراً. تدعي الحب لخاتم الأنبياء دون أن تتحول أقوالها إلى أفعال. فتصبح أقوالاً كاذبة، لا تصديق لها في الفعل. وإذا لم يتبع الحب الاقتداء كان بلا قيمة وبلا فاعلية. لا يدرك العبد الذليل لذة الإيمان. والمسلم المستسلم للطامعين لم يعد يقتدي بالخليل بل بأبيه آزر. صلوات الحر تبعث الشعور. وهي معراج إلى العيش الكريم. أما صلاة المرء بلا حضور فإنها عادة جوفاء ومظاهر قديمة. الأحرار وحدهم أصحاب العزة في العيد السعيد. أما الأسرى العبيد فإنهم خارج دائرة المؤمنين⁽³⁾.

(1) علم غرب حكمة للمشرق
السابق، ص 172.

(2) ضاق صدري بأمر القافلة
عابد المال يحب العاجلة
كان بالتوحيد مرفوع العلم
ذلك المولود في ظل الحرم
أين من كان بهم يسترشد
وترى الأرض إذا ما سجدوا
في دوي الهول كانوا يعلنون
بممداد من دماء يكتبون
يا أمم الشرق، ص 375.

(3) أين ذاك الشوق والقلب الصبور
قد طوتها في تواليها العصور
قد بلوت الرق منذ الابتداء
من رسول الله يعروني الحياء

وبعد الإيمان يأتي العلم، فيتحول إلى تقوى. يزداد خوفاً من الله حتى يعطيه الأمان. هو علم يكشف عن الإله، يؤدي إلى صدق الإيمان، وليس علم الغرب الذي يُبعد عن التقوى والإيمان. فغاب المعيار، وعم الشك، وانتهى إلى الصوفية. العلم سبب الرقي في الحياة. حوله الغرب إلى آلة للهدم والتدمير. حول جنات عدن إلى سقر. أصبح العلم خداعاً وسحراً. فتبدلت نعمة الله كفرًا. أصبح الورد شوكاً، والأمن حجراً⁽¹⁾. إذا أذعن العقل للقلب كان أهدي سبيلاً وأكثر طاعة وإلا أصبح كأبليس في المكر والدهاء⁽²⁾.

أم غدا صدرك للأصنام ديرا
تحت حكم الغير لن تصنع خيرا
أكذب الأقوال ما لم يبد فعلا
لم يكن للحب أو للفرح أهلا
قل أن يدركها عبد ذليل
أزري حاد عن دين الخليل
فهي معراج إلى العيش الكريم
عادة جوفاء في رسم قديم
مظهر العزة في دنيا ودين
يصبح العيد هجو المؤمنين

أحل به خشية المتقين
يرد الأمان إلى الخائفين
إلى قدرة الله يهدي البصر
سوي حيرة في دياجي الفكر
بفرق ما بين خير وشر
وفي صدره قطعة من حجر
تضيء القرون به والعصر
لمحو البوادي وقتل الحضير
معاون هدم لمحو البشر
لسكانها جعلوها سقر
بكل السموم خداعا وسحرا
لقد بدلوا نعمة الله كفرًا
وتوقد في روضة الأمن جمرا

رأى طاعة الله أهدي سبيلا
كأبليس مكرًا وشرًا وبيلًا

لك قلب ومع القلب ضمير
أنت للغاصب محكوم أسير
تدعي الحب لخير الأنبياء
وإذا لم يتبع القول اقتداء
لذة الإيمان عند المؤمنين
مسلم مستسلم للطامعين
صلوات الحر بعث للشعور
وصلاة المرء في غير حضور
إن للأحرار في العيد السعيد
ولدى الأسرى وفي عيش العبيد

السابق، ص 375 - 376.

إذا العلم حل بقلب الفتى
ويزداد خوفاً من الله حتى
هو العلم فيه كنف كيمياء
فيا أسفا ليس للغرب منه
فلم يحبه العلم عقلا سوا
فلا يتبع الطل من جفته
فبالعلم كان رقي الحياة
فحوله الغرب سيفًا رهيبًا
تصير الملائك نو جاوتهم
ولو كانت الأرض جنة عدن
غدا مظهر العلم في عصرهم
معاذ الحقيقة، ماذا سحر
لهم فتن تجعل النور شوكا

السابق، ص 391.

إذا العقل أذعن للقلب حكما
وإن لم يجب داعي القلب أضحي

السابق، ص 392.

6 - من ريح الغرب إلى ريح الشرق

وبالرغم من مسار التاريخ وقوانينه وقيام الحضارات وسقوطها هناك «الملك الخالد» الذي يقوم على العدل. ملوك تبقى وملوك تفتنى. والسبب حضور العدل وغيابه⁽¹⁾. التاريخ في حراك دائم، ولا شيء ثابت فيه. تقوم الحضارات وتنهار ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. ولا يوجد قدر يتحكم في التاريخ بل قوانين ومسارات فيه. جبروت الإفرنج ليس دائماً، قام على الغرور. وقد يتحول مركز الثقل من جنوا إلى طهران⁽²⁾. ومن ثم ينادي إقبال على جماعة الأمم الشرقية بأن المستقبل لها، سابقاً بذلك ما يُقال حالياً عن «رياح الشرق». تنتهي حضارة الغرب كما بدأت. فلا خلود للحضارات. تقوم وتسقط. لكل منها دورتها. وكلما شيد الغرب صرحاً تكسّر على حضارات الشرق⁽³⁾.

أ - انهيار الغرب: الغرب لم يعرف مثل الروس إلا النفي «لا». فتحول إلى نار ودماء. وأثاروا الأمم. واستهانوا بتقاليد الزمن. وقضوا على معايير السنن. ولم يصلوا إلى فعل الإثبات «إلا». كون جيوشاً زاحفة تقهر حتى العاصفة، ولكن دون هدف نبيل أو مقصد سامي. فانعدم العدل. وعم الظلم. مع أن في الفطرة ضمير يدعو إلى التوحيد. فأصبح الوعي الأوروبي نافياً وليس مثبتاً، يهدم ولا يبني. يشك ولا يوقن⁽⁴⁾.

(1) إني لغواص المعاني فطرة
ما إن يحب الدهر ملكاً خالداً
فرهاد أبقى الدهر تحت صغوره
ضرب الكلم، ص 106.

(2) سُحَّرَ الماء والهواء مسخَّر
جبروت الفرنج غرته رؤيا
إن جنبا للشرق طهران صارت
السابق، ص 106.

(3) ما لملك الغرب خلد
كلما شيد صرحاً
صار شعب الروس ناراً ودماً
فاستهانوا بتقاليد الزمن

(4) وقف الركب بهم في باب «لا»
لم يروموا نحو «إلا» منزلاً
=

والساسة يأتَمرون بأوامر إبليس، إبعاد الناس عن الدين خاصة المسلمين الصابرين المستميتين، وبوجه أخص العرب الذين كرمهم الله بالدين، والأفغان الذين عرفوا بالحمية فيه ونصرته⁽¹⁾. يريدون إخلاء ضمير المسلمين من مثلهم وآمالهم حتى يرضخوا لهم تماماً.

أوربا مثل شيلوك الذي صورته شكسبير في تاجر البندقية، المرابي الذي يريد أن يأخذ الفائدة من لحم إنسان. ومكر الثعلب أحياناً يتغلب على قوة الأسد. وإذا استمرت أوربا في أخذ شيلوك نموذجها فإنها ستسقط إلى الأبد⁽²⁾. وهو يعني بلغة العصر سيطرة القيم اليهودية على القيم المسيحية، بعد التعارض الذي وضعه المسيح بينهما.

وينشد إقبال قصيدة «علي قبر نابليون»، يمدح فيها سيف الخالدين مثل

بعد حين يقهرون العاصفة
نحو «إلا» يدفعون المركبا
كل نفي دون إثبات عدم
هاتفا يدعو لتوحيد القدير
دون «إلا» فهي للصدق دليل

بأشراك السياسة والحبال
من الدبر القديم بالاحتفال
ومن هو بالمنايا لا يبالي
لتعمل فيه أحداث الليالي
من الإفرنج ألوان الخيال
ليسرع في الحجاز إلى الزوال
وليس علاج هذا بالمحال
من الأرض المنيعه والحبال
لهم سننا تحيد عن الضلال
وخلوا الأرض من هذي الغوالي
به زهر الشقائق في اشتعال
لتحموا الناس عن هذا المقال

مكر الثعلب يفري قوة الأسد
في كيس شيلوخا المجهول للأبد

ستراهم كجيشوش زاحفة
وترى للقوم أمرا عجبا
«لا» و «إلا» بهما العدل انتظم
إن للفسطرة في كل ضمير
لم بين في حرف «لا» صدق الخليل
يا أُم الشرق، ص 357.

(1) عليكم بالبرهمن فازيكوه
وأصحاب الزنابير اطردوهم
وذلكم الصبور على الرزايا
فروح محمد منه اسلبوه
وفي العرب اقلدوا في كل فكر
بأرض العرب للإسلام كيدوا
وفي الأفغان بالدين اعتصام
عليكم بالفقيه فأخرجوه
وقواما على الحرم اسلبوهم
غزال المسك من ختن أثيروا
واقبال له شدو مشير
من المرج أطردوا هذا المغني
ضرب الكلیم، ص 105 - 106.

(2) أشباه شيلوخ في المرصاد واقفة
لايد تسقط أوربة إذا نضجت
جناح جبريل، ص 549.

الإسكندر وتيمورلنك، ولكنها خالية من الإيمان. لذلك يزول السيف⁽¹⁾. ويمدح موسوليني عام 1931 قبل أن يستولي هتلر على الحكم، وبالرغم من إدانته غزو إيطاليا للحبشة. يعجب إقبال بالفكر الجديد، والنشاط الجديد، وأمل الثورة. ويسعى نحو المجد. ويتساءل عن طريقها، خطأ أم صواب؟ الشيوخ راضون، والشباب طموحون. يثني إقبال على التجلي والحماسة. ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الحر الذي تقتدي نظراته بنظرات الشمس⁽²⁾.

لقد قامر الإنجليز حتى اندثروا، وزالت دولتهم. والدهر لا يقامر وحده، ولكن مقامرة الدهر أقوى. وهو ما سماه هيجل «مكر التاريخ»⁽³⁾.

ب - نهضة الشرق: الأزمة ليست في الغرب وحده بل في الشرق أيضا. ففي كليهما انطفأت الحياة. في الشرق ماتت الذوات. وفي الغرب مات الضمير. وفي كليهما بدايات ثورة في القلب، تتحول إلى ثورة في البلاد، وهما في طريق

(1) التوق للفعل سيف الخاندين به
وقبل مولد نابليون خاض به
جبال ألوند هدتها حماسه
تصير صرخة أهل الله صرخته
السابق، ص 535.

(2) نشاط جديد وفكر جديد
صبا شعبه أن يرد الصبا
نشاط جديد وفكر جديد
يصوغان من حجر لؤلؤا
تأملت روما وقد جددت
فقلت: أيا رب ماذا أرى
حياة تفر عيون الشيوخ
فيا للتجلي الذي هاهنا
سماؤك يا نعمة الشائرين
وروحك تنتظر العازفين
ومن ذا الذي صاغ هذا الجمال
هو الحر ذو النظرات التي
السابق، ص 536 - 537.

(3) قامر الإنجليز حتى تولوا
وكذا الدهر لا يقامر وحده
السابق، ص 520.

التحول من القديم إلى الجديد⁽¹⁾. رؤية الغرب عمياء. تملأ عقله الأوهام. وسكران من البخور السحري. ولا يسعى إلا إلى الباطل. أما الشرق فإنه يهدر إمكانياته فيقع في الخسران أمام غرب متوحش. لا تثيره المسائل الجليلة. ومن ثم يسود الموت روح العالم⁽²⁾. لقد أعطي الغرب قدح نور العقل، وبه حرارة الشمس، ولكن دون الشروق. فبهز النور حتى العمى. وأحرقت حرارة الشمس حتى الموت⁽³⁾.

وقع العالم بين قطبي الرحي، حيل الإنكليز من الخارج والتقاتل بين المسلمين في الداخل، بين العجم والأترك أو بين الشيعة والسنة⁽⁴⁾. والمبدع لا يقلد الغرب أو الشرق. لا يقلد الكوفة وبغداد من ناحية ولا الغرب من ناحية أخرى، بالرغم من أن الكوفة لم تستطع كسر سيف الحسين ولا بغداد استطاعت أن تسيطر بقواها المادية. ولا يقلد الغرب بالرغم من أنه يثير ويوقظ⁽⁵⁾.

نام الشرق ولم يعد يُرى في سماه نجم يبشر بقدوم رسالة كما فعل قبل ولادة السيد المسيح⁽⁶⁾. خبا في الشرق دنيا اللهب. لم يعد به روح، بل مجرد صورة دون مضمون، بدن بلا نفس. ينتابه طيف الأمانى ولكن نايه صامت. يرقد نائماً في تراث القدماء، يكفّن نفسه فيه ولا يرجو بعثاً⁽⁷⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | أبمشرق أو مغرب
فهنا تموت ذواتها
وأرى القلوب لشورة
فلعل دنياك القديمة | نار الحياة ونورها؟
وهناك مات ضميرها
ملأ البلاد زفيرها
للمات مـيرها |
|-----|---|---|

Persian Psalms, p. 41.

(2)

Ibid., p. 49.

(3)

- | | | |
|-----|---|-------------------------|
| (4) | حيلة الإنكليز نظهرها أم
السابق، ص 457. | هجمات التركي داخل حربه؟ |
|-----|---|-------------------------|

- | | | |
|-----|--|--|
| (5) | يقصد المبدع الغيور بلادا
لا إلى الكوفة التي ما استطاعت
نظرائي التي تموج فنونا
منحتني في حالة الغرب صحوا
السابق، ص 459. | لمعانيه غير كل البلاد
كسر سيف ولا إلى بغداد
والتي تملأ الفؤاد حبورا
ونشاطا وغبطة وسرورا |
|-----|--|--|

- | | | |
|-----|--|--------------------------|
| (6) | نام هذا الشرق لا يرعاه نجم
السابق، ص 373. | بنشيد العيش فجرا قد خلقت |
|-----|--|--------------------------|

- | | | |
|-----|---|--|
| (7) | خبا في الشرق دنياك اللهب
وأضحى صورة ترنو إليها | فأين الروح بل أين الوجيب
وما للعيش من ذوق لديها |
|-----|---|--|

وفي كل أمة ذليلة فقهاء السلطان. يضمون المفكرين والعلماء والشعراء والأدباء لتبرير السلطان، وتمرين الأمة على الخضوع. ويقضون على ما لديها من إقدام لقبول العبودية والرق. ويستعملون لذلك كل فنون التأويل والخداع والجدل⁽¹⁾. والأئمة الأذلاء أحد أسباب أمراض الأمم. يبررون شريعة الأسود والثعالب للمتسلطين من الخارج أو الداخل. ويحيدون عن شريعة الحياة والقوة إلى مذاهب الخنوع والاستكانة، يدعون المسلمين إليها⁽²⁾.

وجزاء من السياسة تملق المناصب العليا مثل الوزارة والرياسة. فقد أكثر الهند منها بدعوى استقلال الولايات الهندية وضرورة إدارتها. وتطلع الهندو إليها. وتلقوا من تنصبوا فيها حتى ينالوا منها شيئاً ولو درجة أدنى. كثر مدح الوزراء. وقبل الوزراء المدح. فماتت الذات، ذات المادح وذات الممدوح ﴿يُكَلِّمُ الْفَرَصُونَ﴾. وكيف يمدح الصقر البوم إلا إذا كان تملقاً ونفاقاً. فشتان ما بين المادح والممدوح⁽³⁾. لقد قدم الفرنجة هذه المناصب لغواية المسلمين. وهي موت للذات،

وُسَكَّتْ نَابِه رَجْع الْأَغَانِي
قِيَامُ الْبُعْثِ يَوْمًا مَا عَسَانَا

= يحافني قلبه طيف الأماني
لنا كفن ونرقد في ثرائنا

السابق، ص 373.

من عليهم وشاعر وحكيم
جمع الآراء مقصد في الصميم
قصص الأسد في الحديث القديم
كل تأويلهم خداع عليهم

(1) ليس يخلو زمان شعب ذليل
فرقتهم مذاهب القول نكر
علموا أنليث جفلة الطيبي وامحوا
همهم غبطة الرقيق برق

ضرب الكلیم، ص 101 - 102.

يقصر في شرحهن البيان
يرى دائما حكمة الثعلبان
على قومه في خطوب الزمان
لقوة فرعون طوع البنان

(2) بأسباب سقم الشعوب خفاء
بشرع الأسود إمام العبيد
كليم الإله يرى لعنة
إذا كان في السر هذا الكلیم

السابق، ص 112.

ولكن رب القلب للغيب يشهد
فذاك دستور وعهد مجدد
فهل ذاك حق أو دهاء يردد

(3) جهلت أمور الناس غير مجرب
فقل لوزير ما بدا لك مادحا
إذ قال صقر الليل لليوم مادح

السابق، ص 100.

متاجر بالدين والأخلاق

كسم عالم فاضل مماري

السابق، ص 119.

وتحول من التوحيد إلى الشرك، وشراء نلذمم والضمائر⁽¹⁾. لقد كذب الغرب بالوعود وبدلوها. فالابتعاد عنهم ضروري. والاعتماد على النفس وعلى الإله هو القادر على خلق عالم جديد⁽²⁾.

وقد ضربت مصر مثلاً في الجمع بين العقل والقوة بتمثال أبي الهول. لذلك خرج منها موسى بعصاه التي فجرت المياه من الصخر. وآمنت برسالة المصطفى التي جمعت بين الحكمة والحسام⁽³⁾.

ويعم الفرخ للغز الإنجليز وللذي عرّى غروره. وفي نفس الوقت يشع النور من زجاج سور الصين العظيم. يتراءى السر في المرايا، ويلمع على رؤوس الهيمالايا⁽⁴⁾. تقود نهضة الشرق إذن مصر والصين.

وعلاج أمراض الشرق في النهاية بناء على تجربة الشاعر في البداية⁽⁵⁾.

-
- (1) سحر الفرنجة قد أحاط بمؤمن
فلعل منصبك الرفيع مبارك
هذي القضية معضل إخفاؤها
لا شرك في حكم لعبد إنما
السابق، ص 100 - 101.
- (2) عن الإفرنج فنتكن البعيدا
لك النظرات خذها عن ملك
أرمغان حجاز، ص 455.
- (3) من أبي الهول أتتني نكتة
بدلت سير شعوب جملة
طبعها في كل عصر مائل
فهي طورا في حسام المصطفى
ضرب الكليم، ص 104.
- (4) فرح للغز الإنكليز
ولأن ذات السر يعكس من زجاج الصين نوره
هوذا على مرأى وسمع الكون يرقص في المرايا
ويجيش في آكوند يلمع في رؤوس الهيمالايا
جناح جبريل، ص 511.
- (5) لقد جربت ذلك في البداية
منحت الشرف منه في النهاية
زبور العجم، ص 375.

الباب السادس

التراث والتجديد

الفصل الأول

التراث الفلسفي القديم

1 - «زبور العجم»

وموضوع «القديم والجديد» شائع في الدواوين الشعرية، وليس فقط في الكتابات النثرية. إذ يدعو إقبال في «زبور العجم» إلى القطيعة مع القديم ثم إعادة بناء العالم من جديد. ومن مبدأ «لا إله» فإنه ينتهي إلى «إلا الله». فشعار التوحيد فعلان: نفي في «لا إله»، وإثبات في «إلا الله»⁽¹⁾.

ويطرح إقبال تسعة أسئلة من التراث القديم يحاول الإجابة عليها إجابة جديدة. والأسئلة التسعة فلسفية مجردة خالصة عن التفكير والعلم، والممكن والواجب، والمحدث والقديم، والنفوس والبدن، والجزء والكل، والحقيقة والطريقة، والمفارقة والحلول، والوحدة. والردود عليها شعورية خالصة من فلسفة الذات.

1 - ما هو التفكير؟ أي فكر طاعة الله، ثم يؤدي الفكر إلى الكفر؟⁽²⁾. هو الانعكاف على الذات لمشاهدة العالم، والغوص في النفس للوصول إلى الكون، لا فرق بين الذات والموضوع، بين الدين والعالم⁽³⁾.

Persian Psalms, p. 82.

(1)

(2) وقفت حيال فكري في التحير

طريق شرطها من أي فكر؟

زبور العجم، ص 375 - 378.

(3) وهذا الملك، والملك العظيم

وتوأمه هو الدين القويم

السابق، ص 378.

2 - ما العلم وفي أي بحر وأي در يخرج؟⁽¹⁾. هو علم الشعور الذي لا ساحل له. والشعور منفتح على العالم من خلال الحواس. العالم ينمو ويكبر. فالنمو سنة الحياة والشعور متجدد مثله⁽²⁾.

3 - ما العلاقة بين الممكن والواجب، والقريب والبعيد؟ يصعب حد هذه الأمور بالعقل، ظاهراً أو باطناً. إنما هو إحساس داخلي بالزمان، وعشق بالقلب، وعود إلى الذات، وتفجير طاقاتها، وعشق الممكن كواجب بالفعل. فالصلة بينهما ليست صلة عقلية بطريقة المتكلمين والفلاسفة بل صلة الإمكان بالتحقيق أو ما بالقوة إلى ما بالفعل. ولا يستعمل إقبال المفهومين العقليين بل يجيب عنهما من خلال فلسفة الذاتية⁽³⁾.

4 - ما هو المحدث والقديم؟ هل هما المعروف والعارف، الإنسان والله؟ ولماذا عشق المحدث للقديم والتوجه إليه بالقصد؟ وينقل إقبال الحجاج العقلي الكلامي الفلسفي المجرد إلى تجربة الفراق والوصال الصوفية. فقد انفصل المحدث عن القديم، ويشتاق إلى العودة إليه. واقترب عنه ويحن إلى الجمع به. ينقل إقبال الموضوع من العقل إلى الوجود، ومن الفلسفة إلى التصوف، ومن النظر إلى التجربة⁽⁴⁾.

5 - من هي الذات وما بها من قصد؟ هي أول الكائنات وأصل الحياة. شرارها يصعد إلى النجوم. لا حدود لها. تفرق وتجمع. تخفى وتجلو. تأمل

(1) وعلم كان ساحل أبي بحر؟
السابق، ص 378 - 381.

(2) حياة، يا لها بحرا يَمُور
وفي دنياه ليس له مقام
إذا أغمضت عنها العين هانت
برؤيتنا لدنيانا النماء
السابق، ص 378 - 379.

(3) يقال لممكن صلة بواجب
السابق، ص 381 - 384.

(4) أمذا محدث هجر القديم
أمعروف وعارفه، إلهي
السابق، ص 384 - 387.

دائماً. وهي التي تحمل الأمانة والرسالة. مكانها في القلب. من الطين تخرج بنفس الحياة، وإليه تعود، ومنه تُبعث إلى الحياة من جديد. تعيش في عالم الضرورة وهي حرة. وهي الأمانة على نفسها المحافظة على كيانها⁽¹⁾.

6 - هل الذات جزء من كل؟ وما الطريق إلى البحث عن ذلك؟⁽²⁾، الذات ليس لها نموذج أو قياس لأنها فرد. يمكن تصويرها بالهبوط والصعود، حركة دائبة بين السماء والأرض. هي مجرد شعور، قادر على أن يجوب أنحاء الفضاء. هي نور في ظلمة الصدر. هي روح من نفس الإله⁽³⁾.

7 - من الذي يعبر السبيل ويسافر، ويصف الكمال في الذهن والذكر؟ والجواب هو أين المقر؟ والطريق بداية ومسار ونهاية. البداية في الطين والبدن، والمسار في الحياة والروح، والنهاية في الخلود⁽⁴⁾.

8 - ماذا يعني «أنا الحق» مقالة الحلاج الشهيرة؟ هل الشطحة هراء أم حقيقة؟⁽⁵⁾. هي تجربة صوفية وليست مقولة فلسفية. أشيع عنها أنه تجربة مجوسية أو أنها تجربة خادعة للذات مع أنها تجربة قلبية. قد لا تتفق مع حكم العقل، حلم يقظة، ليست علماً قياسياً ولا هي وهم عجاب. هي تجربة الذات، ترى ذاتها. هي تجربة حقيقة، تجربة التوحد بين العاشقين، البقاء بالذات، وليس الفناء عنها⁽⁶⁾.

9 - ما هو سر الوحدة، وماذا تعني؟⁽⁷⁾. هي أحد المقامات، قبة يطيب تحتها

- | | | |
|-----|---------------------------|----------------------------|
| (1) | أجيني من أنا؟ وضع أنا لي | وما في الذات من شد الرحال؟ |
| | السابق، ص 387 - 390. | |
| (2) | أهَذَا «الجزء» عن كل يزيد | وكيف البحث عنه لمن يريد؟ |
| | السابق، ص 390. | |
| (3) | السابق، ص 390 - 392. | |
| (4) | ومن عبر السبيل ومن مسافر | ووصف كمال من في ذكر ذاكر |
| | السابق، ص 392. | |
| (5) | أتعرف ما تضمنه «أنا الحق» | أتحسبه هراء حين ينطق؟ |
| | السابق، ص 395. | |
| (6) | السابق، ص 395 - 397. | |
| (7) | وسر الوحدة الخافي أتدري | أيعلم عارف يالبيت شعري؟ |
| | السابق، ص 397. | |

ويلتهب أعلاها، شمس وضياء. تجمع ولا تفرق، تضم ولا تباعد، تحمي ولا تعتدي⁽¹⁾.

وفي الدواوين الأخرى، يظهر نفس الموضوع في صورة تساؤلات وتحديات مثل: إذا كانت السماء قادرة على الإطاحة بالسلطة الفاشية فلماذا تهبط للطغاة على حساب الشعب الجريح؟⁽²⁾. وهو تحد لأشكال الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية في سلوك البشر أو لأشكال العدل الإلهي والحسن والقيح العقلين.

كما ينادي الساقى بإحضار خمر جديد بدلاً من الخمر القديم. فقد تبدل الزمان. ينادي إقبال على الساقى بإحضار الكؤوس من الدنان، وبألا يشحن القلب الجريح بمزيد من الظمأ، وهو أجدر بالحنان. ولا يريد خمرأ أو كأساً قديماً لم يعد يؤثر في القلوب. يريد خمرأ تشق لها الجيوب، تؤثر وتفعل، تصخب وتصيح، وليست الخمر التي تبعت على الكآبة كالورد الذابل على الخدود، تثير إشكالات الأمة وتذيع أسرار الخلود. يطلب من الساقى هتك الأستار، وأن يجعل العمر الباقي جلوة الأسرار. ولذة اللحن ليست في الوتر ولكن في القلب الذي يصوغ اللحن⁽³⁾. لقد تبدلت أنغام الزمان، وجوقة العزف البارد الرتيب، واضطربت آلاته لتمرد النغم الجديد⁽⁴⁾.

(1) السابق، ص 398.

(2) أنا لا أفهم ما قصد السماء وهي بالسلطة لو شاءت تطيح؟
تهب السلطة من لا يملكون أي مفهوم عن الشعب الجريح
جناح جبريل، ص 444.

(3) يا أيها الساقى فهات من الكؤوس من الدنان
لا تشحن القلب الجريح وأنت أجدر بالحنان
دعني أبعد خمرتي أسفا على الكأس العتيق
ما كل ما دار السقاة به تدور به القلوب
أنا أطلب الخمر التي كانت تشق لها الجيوب
كانت تفيض كآبة كالورد يذبل في الخدود
فتسر إشكالاتنا وتذيع أسرار الخلود
أبها الساقى هتك الأستار
عمرنا الباقي جلوة الأسرار
لذة النلحين ليس في الأوتار

السابق، ص 510 - 511.

(4) بذلت أنغام الزمان، ونوطة العزف البليد

يشس الشاعر من الشيوخ القدماء. ولديه أقوال جديدة أكثر وضوحاً. والمستقبل يجب الماضي⁽¹⁾. ولماذا ذكر الماضي المجيد وهو لا يفيد. وفي القلب سراج، ولكنه خامد لا ينير منذ قرنين؟⁽²⁾. لقد طوي الزمان القديم وأتى الزمان الجديد⁽³⁾. التقليد ثوب قديم للتمزيق باسم التوحيد المتجدد فهمه⁽⁴⁾.

2 - تطور الفكر الفلسفي

ويتناول إقبال موضوع «التراث والتجديد» في دراساته الفلسفية النظرية في أعماله النثرية في عملين رئيسيين. الأول في بداية حياته «تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية». وهي رسالته التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة مينشن عام 1908⁽⁵⁾، والثاني «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في أواخر حياته. وهي محاضرات خمس ألقاها في مدينة مدراس عام 1936⁽⁶⁾. ومع ذلك يظل شاعراً أكثر منه باحثاً، وأديباً أكثر منه عالماً. في شعره

- | | | |
|-----|---|---------------------------|
| = | وتداخلت آتانه | وتعمد النغم الجديد |
| | السابق، ص 511. | |
| (1) | قد يشس من شيوخ الأقدمين | ولدي عن غدي قول مبين |
| | جاويد نامه، ص 142. | |
| (2) | لمماذا أذكر الماضي المجيدا | فهذا الذكر ما كان المفيدا |
| | بصدري قد حوت أنا سراجا | وفي قرنين أنست الخمودا |
| | أرمغان حجاز، ص 445. | |
| (3) | طواه بفتنة عصر قديم | ولكن لي الجديد من الزمان |
| | السابق، ص 451. | |
| (4) | إن للتقليد ثوبا، مزقه | وخذ التوحيد منه وافهمته |
| | جاويد نامه، ص 266. | |
| (5) | محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409هـ - 1989م. العنوان الأصلي للكتاب: Development of Metaphysics in Persia. وقد ترجم العنوان بتصريف. فقد ترجم لفظ Metaphysics بلفظي «الفكر الفلسفي». كما ترجم اسم Persia باسم «إيران». وهناك ترجمة أخرى عن الفرنسية للموضوع للدكتور محمد مجيب المصري. | |
| (6) | محمد إقبال «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز مراغي، وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1968، وقد صدرت الطبعة الأولى عام 1952. = | |

نبض الأمة. وفي بحثه أثر الاستشراق. العمل الأول في التراث، والثاني في التجديد. الأول في القديم، والثاني في الجديد.

ويتضمن «تطور الفكر الفلسفي في إيران» قسمين ومدخلاً وخاتمة. الأول «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام» وهو الأصغر. ويحتوي على فصل واحد «الثقوية الإيرانية» ليبين أثر الفكر الفلسفي الإيراني قبل الإسلام على الفكر الفلسفي بعده، وكأن الإسلام لم يستطع احتواء الثقافات الشعبية التي كانت موجودة في المناطق التي انتشر الإسلام فوقها، وبرزت بعد الإسلام محدداً لثقافته، خاصة الثقوية الفارسية المعروفة. وهو رأي المستشرقين الذي يقسمون الفكر الإسلامي طبقاً للشعوب خاصة «فارس» من أجل التفرقة بين العرب والعجم. فهناك فلسفة عربية وأخرى فارسية على ما هو معروف في كتب المستشرقين، والتحول من العرب إلى الفرس، ومن الدولة الأموية إلى الدولة العباسية. والقسم الثاني «الفكر الفلسفي بعد الإسلام» وهو الأكبر⁽¹⁾. ويتضمن خمسة فصول: الأول: «المشاةون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة». ويتناول الفلسفة في علاقتها باليونان عامة وأفلوطين خاصة. والثاني «ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانتهياره» وهو عن علم الكلام خاصة المعتزلة وكما يركز المستشرقون على انتهياره وكأن العقلانية كانت طارئة على الإسلام ورافده من اليونان مع مزجها بروح الشرق الصوفي. والثالث النزاع بين المثالية والواقعية، وهو الصراع بين أصحاب الطوائع من المعتزلة والأشاعرة باستعمال مصطلحين من الفلسفة الغربية الحديثة. والرابع «التصوف» وإدخاله تحت الفكر الفلسفي لأنه يتعلق بالفلسفة الإلهية. والخامس «الفكر الإيراني في العصر الحديث» وهو ما يسمى عندنا «الفكر العربي الحديث»، ربطاً بين القديم والحديث، واستئنافاً للماضي في الحاضر إعداداً للمستقبل. وعلى هذا النحو يضم الكتاب العلوم الإسلامية الفلسفة والكلام والتصوف دون أصول الفقه الذي نبه

= والعنوان الأصلي: Reconstruction of Religious Thought in Islam. وهي ترجمة أيضاً بتصرف إذ ترجمة لفظ Reconstruction بلفظ تجديد. وهي ترجمة معنوية. واللفظ الأدق «إعادة بناء» وهو اللفظ الذي نستعمله كعنوان فرعي للجبهة الأولى لمشروع «التراث والتجديد» وهو «إعادة بناء التراث القديم».

(1) ويبدو ذلك في عدد الصفحات. الأول (14)، والثاني (110).

مصطفى عبد الرازق المعاصر له على أنه هو الإبداع الفلسفي الإسلامي الأصيل في «المدخل إلى تاريخ الفلسفة في الإسلام».

وفي آخر كل فصل يرصد إقبال أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها مطبوعة أو مخطوطة كما كان الحال عليه في أوائل القرن التاسع عشر⁽¹⁾. ومع ذلك فمصادره ناقصة. يعرض مسكويه من «الفوز الأصغر»، وليس من «الفوز الأكبر» أو «تهذيب الأخلاق» أو «تجارب الأمم». ويعرض ابن سينا من «منطق المشرقيين» وقطعة من كتاب له ما زال مخطوطاً في المتحف البريطاني⁽²⁾.

3 - الاستشراق

ويغلب على الرسالة «الاستشراق» خاصة في القرن التاسع عشر، وذلك باستعمال المنهج التاريخي⁽³⁾. من الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام إلى الفكر الفلسفي بعد الإسلام إلى الفكر الإيراني في العصر الحديث، وكأن الفكر الإسلامي من صنع التاريخ، وليس له بنية فلسفية مستقلة، تتخلل كل العلوم. هو كحلقة في تاريخ الفكر الإنساني. تأثر بما قبله، اليونان وفارس خاصة، دون الرومان والهند. والمؤلف هندي، وفي حاجة إلى مؤثرات خارجية جديدة لتطويره من خلال الفلسفة الغربية الحديثة.

ويعترف إقبال بأن تتبع سلسلة المؤثرات أصبح منهجاً وتقليداً لدى المستشرقين. وهو ما ينطوي على قيمة تاريخية كبيرة دون الإقلال من أهمية العقل الإنساني، وإمكانية اكتشافه نفس الحقيقة في عصور ولدى شعوب مختلفة. المؤثر يعرقل ولا يعطي، ينه ولا يخلق، يثير ولا يوجد من عدم.

وفي نفس الوقت ينقد إقبال المنهج التاريخي مع منهج الأثر والتأثر بأنه يقوم على مفهوم العلية. وهو مفهوم خاطئ يقوم على ربط ضروري بين أ و ب. قد يصح في العلم الطبيعي، ولكنه لا يصح في دراسة الظواهر الإنسانية التي تتطلب الظروف التي نشأت فيها الظاهرة⁽⁴⁾.

(1) السابق، ص 67/46/16 - 69/80/123 - 126/139.

(2) السابق، ص 40/33.

(3) تطور الفكر الفلسفي، مقدمة المترجمين، ص 7.

(4) سبق، ص 81 - 82.

والكتاب مهدي إلى أستاذه توماس آرنولد اعترافاً بدوره في تكوين ثقافته الفلسفية على مدى عشر سنوات، وتقديراً لأحكامه المتسامحة معه⁽¹⁾.

ومن آثار الاستشراق التاريخ بالميلادي في تحقيب الفكر الإسلامي وفي حياة الفلاسفة. فقد ظهر الإسلام في القرن السادس وبدأت الآثار الإغريقية في القرن الثامن. ومسكويه وابن سينا في القرن الحادي عشر، مسكويه (ت 1030) وابن سينا (ت 1037)⁽²⁾ والأشعري (ولد عام 823)، والبيروني (ت 1084)، وابن الهيثم (ت 1038)، ثورة سنياد (755 - 756)، وثورة استادسيس (766 - 768)، وثورة المقنع الخراساني (777 - 786)، وثورة بابك المزدكي (816 - 838)، وظهور الشعوبية (عام 815)، والدولة الظاهرية (عام 820)، والدولة الصفارية (عام 868)، والدولة السامانية (عام 874)، وعاش المأمون والأمين في القرن التاسع⁽³⁾. وكذلك مؤسسو المذاهب الفقهية الإسلامية مثل أبو حنيفة (ت 767)، مالك (ت 795)، الشافعي (ت 820)، ابن حنبل (ت 855)، وأحياناً يذكر التاريخ الهجري في تاريخ علم الكلام وظهور الاعتزال. واصل بن عطاء في القرن الثاني الهجري⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى المنهج التاريخي يستعمل إقبال منهج الأثر والتأثر. ففكرة الوحدة في التصوف الإسلامي إنما ترجع إلى فكرة الوحدة في الديانات الهندية القديمة مثل البوذية والأسرة الآرية وفي إيران في البهائية. وهو ما يصرح به إقبال من أن الغرض من هذا البحث هو مجرد إرساء أساس لتاريخ الميثافيزيقا الإيرانية، وتأجيل قضية الأصالة فيما بعد⁽⁶⁾. فزادشت نبي الفرس كان موحداً من الناحية العقائدية، ثنواً من الناحية الفلسفية كما لاحظ هوج⁽⁷⁾. ويأخذ معلوماته عن ماني من إردمان⁽⁸⁾، وعن الإسماعيلية من ماكدونالد، وعن الأشعري من سبيتا، وعن

(1) السابق، ص 11.

(2) السابق، ص 32 - 33 / 40 / 57 - 58.

(3) السابق، ص 83.

(4) السابق، ص 83.

(5) السابق، ص 48.

(6) السابق، ص 14 - 15.

(7) السابق، ص 19.

(8) السابق، ص 22 / 55 / 58 / 120 / 128.

الجبلي من ماثيو آرنولد، وعن مللا صدرا من دي جوبينو. ومن علماء تاريخ الحضارة والدين يعتمد إقبال على «قصة الخلق» لكلود⁽¹⁾. والتصوف متأثر بالأفلاطونية المحدثة في الإلهيات والكونيات⁽²⁾. كما يعتمد على كتاب لويس «تاريخ الفلسفة» وهو من الكتب العامة لمعرفة علاقة العرب بأرسطو⁽³⁾. ويعتمد على كتب التاريخ المقارن للأديان والحضارات الذي ارتبط بالاستشراق⁽⁴⁾. ويحيل إلى بعض المستشرقين المنصفين مثل توماس آرنولد واعترافه بانتشار الإسلام سلباً في جنوب شرق آسيا وأفريقيا⁽⁵⁾.

ومع ذلك للفلسفة العربية أصالتها في القول بخلود الروح إذا ما قورنت بأرسطو والأفلاطونية المحدثة على ما يقول هوناك⁽⁶⁾.

وهناك تيارات ومفكرون معادون للفلسفة اليونانية ناقدون لها مثل النظام والغزالي والرازي وأبي البركات والأمدي. كما نقد آخرون المنطق اليوناني مثل السيرافي والقاضي عبد الجبار وأبو المعالي وأبو القاسم وابن تيمية. وانضم إليهم بعض الصوفية كالسهروردي الذي حاول إثبات عجز العقل ودحض الفكر اليوناني في كتاب «رشف النضائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية».

وفي نفس الوقت ينقد إقبال إردمان في ظنه أن روح البحث قد اضمحلت بين المسلمين بعد الفارابي وابن سينا، وأن الفلسفة قد أفلست، واستسلمت إلى الشك والتصوف دون أن يعرف النقد الإسلامي للفلسفة اليونانية الذي أفضى إلى المثالية الأشعرية⁽⁷⁾.

وقد نشأ التصوف بفضل عدة عوامل سياسية وثقافية ودينية ومذهبية. أولاً، كانت الحقبة كلها تفتقر إلى الاستقرار السياسي. وظهرت الشعبية التي تعاطمت مع

(1) السابق، ص 92.

(2) السابق، ص 93/95.

(3) السابق، ص 129.

(4) وذلك مثل كتاب جيجر Geiger «حضارة الإيرانيين الشرقيين في العصور القديمة»، تطور، ص 18.

(5) Thoughts and Reflections, p. 47.

(6) السابق، ص 94.

(7) السابق، ص 96.

الأسر الحاكمة الفارسية المستقلة مثل الدولة الظاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية⁽¹⁾. ثم غزي الطابع السامي الدقيق للحياة لدى الزهاد المسلمين الأوائل تدريجياً. ونظرية وحدة الوجود ذات الصبغة الآرية مواكبة لحركة الاستقلال السياسي للفرس. ثانياً، ظهرت الاتجاهات الارتبابية التي بذرت الشك وضرورة تحكيم العقل مما دفع بعض الصوفية إلى التأكيد على وجود مصدر أعلى للمعرفة كما فعل القشيري في «الرسالة القشيرية». ثالثاً، تقوم المذاهب الإسلامية الفقهية كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة على التقوى دون العاطفة. رابعاً، شجع المأمون المناظرات بين المذاهب الإسلامية المختلفة خاصة بين الأشعرية والمعتزلة مما دفع الصوفية إلى الخروج من هذه المناقشات الفقهية إنقاذاً للروح. خامساً، ضعفت الحماية الدينية تدريجياً بسبب ميل العصر العباسي نحو العقلانية بالإضافة إلى نمو تيار البذخ والترف مما أدى إلى الضعف الأخلاقي ولامبالاة الطبقات الاجتماعية العليا بالدين. سادساً، وُجدت المسيحية كنموذج للتطبيق خاصة حياة الرهبان وأثرها على الزهاد الأوائل بالرغم من تنافي ذلك مع روح الإسلام.

وهي نفس أسباب النشأة للتصوف اليوناني ممثلاً في الأفلاطونية المحدثة من حيث عدم الاستقرار السياسي في اليونان، وغارة برابرة الخيام على أباطرة القصور. ويتحدث أفلوطين في إحدى رسائله إلى فلاكوس عن عدم الاستقرار السياسي، واللامبالاة الدينية في الإسكندرية مسقط رأسه، وكذلك سيادة نزعة الشك ومزجه عند انتيكوس بالرواقية، وظهور الشك عند سكتوس امبريقوس تحت تأثير الشك القديم لبرهوه مما أدى إلى اليأس الذي هدى أفلوطين إلى الحقيقة. وربما دفعت إلى التصوف الأخلاقي الرواقية الجافة الخالية من العواطف، وظهور النموذج المسيحي⁽²⁾. وقد استمرت النزعة الأفلاطونية المحدثة في الفكر الإيراني الحديث عند ملأ صدرا وهي أحد مصادر البابية، ممتزجة ببعض العناصر الزرادشتية. كما استمرت عند ملأ هادي⁽³⁾.

ويؤصل إقبال التصوف في القرآن الكريم كما يفعل الصوفية أنصار نظرية

(1) السابق، ص 82 - 85.

(2) السابق، ص 85 - 86.

(3) السابق، ص 128 - 129.

المصدر الإسلامي للتصوف سواء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو حياة الرسول والصحابة الأوائل⁽¹⁾. فالحكمة المذكورة في القرآن، والإيمان بالغيب، والله نور السموات والأرض، والروح، والصدق والعدل والإحسان كل ذلك هو التصوف.

كما يستعمل إقبال منهج العرض، عرض المذهب مثل عرض مذهب مسكويه ومذهب ابن سينا⁽²⁾. وهو عرض مبتسر غير كامل نظراً لنقص المؤلفات التامة في ذلك الوقت. كما أنه عرض يحيل المذهب إلى أحد جوانبه، مسكويه نحو الكونيات، وابن سينا نحو النفسانيات⁽³⁾. وكذلك تم عرض النسق الاعتزالي والأشعري. ويفضل إقبال النسق الصوفي في عدة مبادئ مثل: الحقيقة كإرادة واعية بالذات مستشهداً بشقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم ورابعة، والحقيقة باعتبارها جمالاً كما هو الحال في الأفلاطونية المحدثة والزرادشتية والرومي والبسطامي والحلاج والنسفي، والحقيقة باعتبارها معرفة ونوراً وفكراً كما تعرض الفلسفة الصوفية، الأنطولوجيا، النور المجرد والنور العارض، والكوسمولوجيا، وعلم النفس لتحليل المعرفة والسلوك، والحقيقة باعتبارها فكراً عند الجيلي ونظرية الإنسان الكامل⁽⁴⁾. كما يعرض للمبادئ العامة للفكر الإيراني الحديث عند ملا صدرا وملاهادي والسبزواري والبايية (المرزا علي محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائية، وعند الفرقة الشيعية التي أسسها أحمد الإحسائي من تلاميذ ملا صدرا⁽⁵⁾. وحتى لا يكتفي إقبال بالعرض التاريخي كما يفعل الاستشراق فإنه ينهي القسم الأول بمراجعة وتعقيب يبين فيه أن فكرة الوحدة كانت سابقة على الإسلام، وكأن الإسلام استمرار لفكرة وجدت من قبل في فارس⁽⁶⁾.

(1) السابق، ص 87 - 89.

(2) السابق، ص 34 - 45.

(3) السابق، ص 60/49 - 62.

(4) السابق، ص 90 - 122.

(5) السابق، ص 134 - 137.

(6) السابق، ص 25 - 26.

4 - الشعوبية الفارسية

تظهر الشعوبية في العنوان ذاته «تطور الميتافيزيقا في فارس»، وكأن فارس منطقة متميزة في الفكر الإسلامي عن الهند أو العرب. وهو ما تجنبه في عمله الثاني في أواخر حياته «تجديد التفكير الديني في الإسلام»⁽¹⁾. وعلاقة الفلسفة اليونانية بالفكر الفارسي، وليس بالفكر الإسلامي ككل. والفرس جزء من الشعوب الآرية⁽²⁾. وكانوا موضع كراهية من الشعوب الآرية الأخرى. والغزالي له مساهمة في الفكر الفلسفي الإيراني في «مشكاة الأنوار»⁽³⁾. ونشأ اتجاه آخر يمكن تسميته «الوضعية الإيرانية» عند البيروني وابن الهيثم⁽⁴⁾. كما تظهر الشعوبية المعتادة في تسمية الفتح الإسلامي الفتح العربي⁽⁵⁾. وبشار بن برد متشكك إيراني أعمى. أضفى على النار طابعاً إلهياً. وأعرب عن نفوره من كل أنماط التفكير غير الإيرانية⁽⁶⁾. والنقشبندية متأثرة بالفيدانتا الهندية، تحقيقاً لمذهب كندالديني «الهندي». وكانت معروفة أيضاً لدى صوفية الفرس مما جعل فون كريمر يرجع التصوف إلى مصدر هندي⁽⁷⁾. و«أنا الحق» عند الحلاج مأخوذة من الروح «الحقيقة الفدانتا» الهندي في قوله «أم براهما أسمى»⁽⁸⁾.

وتبلغ ذروة الشعوبية في عرض نظرية المصدر الفارسي للتصوف الإسلامي عند فون كريمر ودوزي. فقد شبهاه بالفيدانتا الهندية. كما عزاه ميركس ونيكلسون إلى الأفلاطونية المحدثة. واعتبره براون رد فعل آري ضد الديانة السامية الخاوية من العاطفة⁽⁹⁾. وفي إيران أدى التفاعل الحضاري لدى بعض العقول إلى الوصول إلى صياغة جديدة للإسلام على نفس النسق، والتمثل التدريجي للمسيحية

(1) السابق، ص15.

(2) السابق، ص17.

(3) السابق، ص65.

(4) السابق، ص66.

(5) السابق، ص31/15.

(6) السابق، ص84.

(7) السابق، ص89.

(8) السابق، ص91.

(9) السابق، ص82.

والغنوصية، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم. ولم يستطع نقد ابن تيمية القضاء على النزعة الصوفية الإيرانية. وإذا كانت غزوات البرابرة قد أطاحت بالفكر اليوناني فإن غزوات التتار لم تؤثر في التصوف الفارسي⁽¹⁾.

وإذا كان الدين السامي مجموعة من القواعد الصارمة، والفيدات الهندية نظاماً فكرياً مجرداً فإن التصوف يغوص في النفس. يجمع بين الصيغتين السامية والآرية داخل مفهوم المحبة. ويتمثل حال الفناء من البوذية. ويضع نظاماً لما بعد الطبيعة لا يتعارض مع الإسلام، ويتأصل في القرآن. فضم التصوف السامي والآري وأعطاهما طابعاً فردياً خاصاً منبثقاً من الفطرة الإنسانية. وقاوم كل الاتجاهات المعادية له بتأسيس إنكار الذات والتأمل. ويعبر أحد عناصر التصوف «الحقيقة» باعتبارها معرفة: نوراً أو فكراً عن روح فارسية أصيلة ممتزجة بأساليب الفكر المسيحي. والقول بأن الحقيقة نور كما هو الحال في الإشراق الصوفي عود إلى الثنوية الفارسية.

كما أدت الأشعرية إلى تجديد حقيقي للروح الفارسية لأن إقامة نظام فلسفي هو إيراني تماماً. وظل يؤكد على ممارسة الفكر الحر المستقل غير هياك بتهديدات السلطة وضيق أفقها. وسعي الموروث الفارسي القديم الذي وجد لنفسه تعبيراً جزئياً في كتابات الرازي الطبيب والغزالي والمذهب الإسماعيلي إلى التصالح بينه وبين الكلام الإسلامي. وقد تلقى السهرودي المقتول الفكر الفلسفي بشجاعة⁽²⁾.

كان على الفكر الفارسي أن يقاوم نوعين من الثنوية، المجوسية قبل الإسلام والإغريقية بعد الإسلام. كانت نظرة الفرس قبل الإسلام موضوعية مادية إلا أن مبدأ الكون فعال ومؤثر. استطاع الفكر الإيراني بواسطة المثالية الأشعرية الثنوية الدخيلة الجمع بين الإله والمادة. ثم عاد إلى الثنوية الإيرانية القديمة بين النور والظلمة. فالسهروردي يجمع بين العقلية الواقعية للمفكرين الفرس قبل الإسلام والعقلانية اللاحقة ليقرر ثنوية زرادشت في صورة أكثر روحانية، جمعاً بين الموضوع والذات. والبابية لازالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث بطابعها

(1) السابق، ص 86 - 87.

(2) السابق، ص 95 - 97.

الصوفي ونزوعها العملي دون اهتمام بالوطن⁽¹⁾.

ينتقل الخيال الإيراني من زهرة إلى زهرة دون استعراض البستان كله في نظرة شاملة. لذلك اتجه إلى شعر الغزل في أبيات متفرقة على عكس الهندي. فعلى الرغم من تسليمه بوجود مصدر أعلى للمعرفة فإنه ينتقل في هدوء من تجربة إلى تجربة للكشف عن وحدتها الباطنة⁽²⁾. والإيراني قليل الوعي بالميثافيزيقا كنظام فكري في حين أن البرهمي على وعي تام بضرورة عرض نظريته في مذهب متكامل. هناك إذن اختلاف في العقليتين، الإيرانية والبرهمانية، غياب الأبنية الفكرية المكتملة في الأولى، وحضورها في الثانية مثل الفيدانتا. وتنمو العقلية الإيرانية غريزياً نحو التوحيد الصوفي⁽³⁾.

والتركيز على إيران أو التخصيص بها هو اجتزاء للفلسفة الإسلامية طبقاً لبلدانه وشعوبه. فابن سينا الفيلسوف الإسلامي لا ينتمي إلى إيران. فقد أسلمت فارس وأصبحت جزءاً من الأمة الإسلامية. وجميع الفلاسفة المسلمين يتسبون إلى مجموع الأمة. ليس الكندي عربياً، والفارابي تركياً، وابن سينا إيرانياً، وابن رشد أندلسياً وإلا وقعنا في النظرة الشعوبية التي وقع فيها المستشرقون من قبل. كل من تعرب فهو عربي. فالعروبة ليست بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان⁽⁴⁾. بل إنه يتحدث عن خصائص الشعوب الثابتة. فأبرز السمات المميزة للشعب الإيراني النظر الميثافيزيقي. والعقل الإيراني قلما يصبر على التفاصيل. يفتقد الملكة التنظيمية التي تضع تدريجياً بناءً متكاملًا للأفكار عن طريق إيضاح الأصول الأساسية من خلال الحقائق والتفاصيل القائمة على الملاحظات الفردية⁽⁵⁾. ومن خصائص التفكير الإيراني ارتباط الفلسفة بالدين⁽⁶⁾.

ويتحدث عن العقلية الفارسية التي تواءمت مع الظروف السياسية الجديدة

(1) السابق، ص 141 - 143.

(2) السابق، ص 14.

(3) السابق، ص 85.

(4) السابق، ص 7.

(5) السابق، ص 13.

(6) السابق، ص 14 - 15.

لتفرض حريتها الذاتية من جديد، وتراجع عن حقل الموضوعية، وتنتجه نحو الذاتية لتعكف على ما أنجزته. وقد واكبت العقلانية عصور التشكك والتصوف وألوان البدع والهرطقة، ورفض كل معايير الفكر الخارجي. تم ذلك في بداية الحكم الأموي، واستمر في العصر العباسي⁽¹⁾. وأصل بن عطاء فارسي الأصل. وقد شغل الاعتزال طائفة من ذوي العقول البارعة من الإيرانيين⁽²⁾. والمذهب الإسماعيلي حركة فارسية لتحقيق مصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله مثل إخوان الصفا. هو حركة من سلسلة المعارك المتصلة التي شنها الفارسي المستقل الفكر ضد القيم الدينية والسياسة الإسلامية. واستهوت العقلية الفارسية بطابعها السري. واعتبره ماكدونالد مؤامرة لاستئصال العرب من إيران⁽³⁾.

ويسمى إقبال فلاسفة الإسلام مثل مسكويه وابن سينا «المشاءون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة»⁽⁴⁾. وتستمر الشعبية في الظهور في عبارات مثل «الفتح العربي لفارس وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الإيراني». وقد أنهى أبناء الجزيرة المحاربون الذين اجتازوا رمالها الشاسعة وجاءوا إلى نهاوند فأنهاوا بأسياهم الاستقلال السياسي لهذا الشعب العريق. وترك الفرس طائعين الزرادشتية. وآمنوا بالدين الجديد بحرية تامة. وحققت الثورة السياسية للفتح العربي تفاعلاً بين الساميين والآريين. فإن ترك الآري مظاهر حياته التي تنطبع بالسامية إلى حد كبير إلا أنه قرأ الإسلام قراءة آرية كما قرأ العقل اليوناني المسيحية، وهي دين سامي، في تجربة مشابهة. وحول الآري صرامة الدين السامي الجديد والقانون المطلق إلى دين داخلي ينبع من الذات مع شيوع الفكر اليوناني في فارس مما عوق إمكانية إنشاء فكر محلي خالص. ومع ذلك حدث تحول من الفلسفة الإيرانية الموضوعية إلى الفلسفة الذاتية⁽⁵⁾.

ويصنف إقبال الفلاسفة المسلمين طبقاً لأعراقهم. فمسكويه وابن سينا

(1) تطور، ص 47 - 48.

(2) السابق، ص 48.

(3) السابق، ص 54 - 55.

(4) السابق، ص 31 - 45.

(5) السابق، ص 31 - 32.

فارسيان. والفارابي تركي. ولا يذكر الكندي العربي. ولا يذكر باقي فلاسفة المسلمين مثل ابن باجه وابن طفيل⁽¹⁾.

وقد ساعد الفكر الوافد ويعني به إقبال الإسلام الفكر الفارسي على بلورة التوحيد بحيث يصبح أكثر روحانية. وأخذت الثنوية الفارسية القديمة معني روحياً جديداً كما فعل الفكر اليوناني من قبل. فقد تأثر المفكرون الفرس بالأفلاطونية المحدثة⁽²⁾. وبدأ علم الكلام بالمرحلة السورية في حران وهي المرحلة اليونانية ثم بالمرحلة الفارسية التي بدأ فيها المسلمون يفكرون في دينهم. فنشأ علم الكلام الإسلامي⁽³⁾.

إن أكبر حدث في تاريخ الإسلام هو «فتح فارس» فلم تعط معركة نهاوند العرب فقط بلداً جميلاً بل أيضاً حضارة قديمة، جمعت بين الحضارتين الآرية والسامية. والحضارة الإسلامية هي هذا التخصيب المتبادل بين الأفكار الآرية والأفكار السامية. هي كالطفل الذي ورث نعومة ورقة الأم الآرية وقوة شخصية الأب السامي. ولو لم يتم فتح فارس لأصبحت الحضارة الإسلامية ذات بعد واحد. لقد أعطى فتح فارس للإسلام ما أعطاه غزو اليونان للرومان⁽⁴⁾.

والقول بالخصائص الثابتة للشعوب والشخصيات القومية قد يصل إلى حد النزعة العرقية. ومع ذلك، يستعمل إقبال لفظ الإسلام في عنواني قسمي الكتاب «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام»، «الفكر الفلسفي بعد الإسلام». فالإسلام وليس العرب هو الحد الفاصل في التاريخ⁽⁵⁾.

5 - مراحل الفكر الفلسفي

الفكر الإسلامي حلقات متصلة من إيران إلى اليونان إلى العرب إلى الغرب الوسيط والحديث. فزرادشت نبي إيران مثل أفلاطون. ترتبط الميتافيزيقا لديه

(1) السابق، ص 33.

(2) السابق، ص 32.

(3) السابق، ص 48.

(4) St. Ref., pp. 49 - 50.

(5) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص 31 / 17.

بالأخلاق⁽¹⁾. ولم تكن الحضارة اليونانية وحدها حضارة حرية الفكر. فكثيراً ما وقع فيها اضطهاد المفكرين الأحرار مثل سقراط وأفلاطون. وقد لجأ ديوجين وسيمبليوس وآخرون من فلاسفة الأفلاطونية المحدثه إلى بلاط كسرى أنوشروان المتسامح، هرباً من اضطهاد جستنيان⁽²⁾. ويعترف إقبال أن معلوماته عن الفلسفة الشرقية من المراجع الثانوية، وليست من المصادر الرئيسية. فلم يقرأ «الزندا» المصدر الرئيسي لزرادشت⁽³⁾.

لم تكن الفلسفة اليونانية ذاتها ببعيدة عن الدين، لا الأرسطية ولا الأفلاطونية المحدثه، على غير ما يظن إقبال⁽⁴⁾. ومن ثم لا فضل خاص للفلسفة الفارسية على الفلسفة اليونانية. ويرى إقبال أنه بعد الفتح الإسلامي الذي يسميه الفتح العربي، ظهرت فلسفة خالصة منفصلة من الدين على يد الأرسطيين المسلمين ذوي النزعة الأفلاطونية المحدثه. وهو غير صحيح. فلم تكن هناك فلسفة خالصة منفصلة عن الدين في الفلسفة الإسلامية القديمة.

والثنائية اليونانية العقلية الشهيرة، الجوهر والعرض، الكيف والكم، الزمان والمكان، الواحد والكثير... إلخ والتي استعملها الفلاسفة المسلمون للتعبير عن ثنائية الله والعالم، القديم والحادث... إلخ ليست ثنوية فارسية: النور والظلمة، الخير والشر، الإله والشيطان، الروح والمادة.

وقد انتقلت الفلسفة اليونانية في آخر صورها وهي الأفلاطونية المحدثه إلى الإسلام من خلال سوريا وحران ظناً أنها هي الفلسفة المشائية المتبقية لأرسطو من خلال نسبة ترجمة موجزة لتاسوعات أفلوطين له على أنها «ميثولوجيا أرسطو» قبل التمييز بينهما، ودون فهم دقيق لكل من أرسطو وأفلاطون. وهناك نصوص «سخيفة» نقلها مترجمون غير أكفاء. وربما يقصد بها إقبال المتحولات⁽⁵⁾.

ويصدر إقبال على الفلاسفة المسلمين أحكاماً عامة تنقصها الدقة. فابن سينا

(1) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص 21.

(2) السابق، ص 26.

(3) السابق، ص 15.

(4) السابق، ص 15.

(5) السابق، ص 32 - 33.

أكثر دقة وأصالة من الفارابي ومسكويه. وابن رشد الأندلسي بالرغم من قربيه من أرسطو إلا أنه لم يتمكن من الفهم الدقيق لفلسفته على عكس الحكم الشائع بأنه «الشارح الأعظم». وشروحهم محاولة للاكتشاف أكثر منها عروضاً أو تفاسير. ولم تترك لهم الظروف الوقت الكافي للعمل على بناء أنساق فكرية مستقلة بذاتها تدل على عقل حاذق حُبس وسط ركام من الغناء المعوق⁽¹⁾.

ثم ظهر المذهب العقلي وانهيار، وكأن العرب لم يستطيعوا الاستمرار في العقلانية إلى ما لا نهاية⁽²⁾. كان العقلانيون من الناحية الفلسفية ماديين، ومن الناحية الدينية (اللاهوتية) مؤلهة⁽³⁾. كانوا ماديين، فالعقل والمادة قرينان. ثم حدث رد فعل على المذهب العقلاني المادي في اتجاهين معاكسين: الشك أو اللادرية من ناحية مثل الجاحظ وثمامة بن الأشرس، والتصوف من ناحية أخرى. وكان مذهب التعليم الإسماعيلي أيضاً رد فعل على العقلانية المادية، ومصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله⁽⁴⁾. واقترب البلخي من نظرية المعرفة الأشعرية التي سددت ضربة قاسية إلى النظرية المادية للعقلانيين⁽⁵⁾. كانت الأشعرية رد فعل كبير ضد العقلانية. وهو رد فعل محافظ⁽⁶⁾. والتصوف نتاج طبيعي للأحداث والظروف التي أنشأتها⁽⁷⁾. وكان أكبر رد فعل على العقلانية المادية ويفرد له إقبال الفصل الخامس كله⁽⁸⁾.

وطبقاً لأسماء الأعلام المذكورة يغلب التراث القديم على التراثين الشرقي واليوناني الغربي. ففي التراث القديم يتقدم الأشاعرة ثم المعتزلة كأهم فرقتين كلاميتين. الأولى روحية مثالية، والثانية عقلانية مادية. ثم يأتي الجيلي والإنسان الكامل الذي يتوحد فيه الشرق والغرب، إيران والإسلام. ثم تظهر الإسماعيلية كرد

(1) السابق، ص33.

(2) السابق، الفصل الثالث: ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانهياره، تطور ص47 - 69.

(3) السابق، ص51.

(4) السابق، ص54.

(5) السابق، ص52.

(6) السابق، ص58 - 66.

(7) السابق، ص15.

(8) السابق، ص81 - 122.

فعل على العقلانية. ثم يأتي مسكويه وابن سينا مفكرين فارسيين ثم الغزالي ممثلاً رد الفعل الصوفي، ثم ملا صدرا من المتأخرين. ويخصص إقبال للبهائية والبابية مساحة كبيرة في الفكر الإيراني الحديث مبدئياً تعاطفاً معهما لنزعتهما الصوفية. ثم تتفاوت أسماء الأعلام فيما بعد بالعشرات مما يدل على سعة إطلاع إقبال على التراث الإسلامي القديم⁽¹⁾. كما تذكر عدة مؤلفات قديمة⁽²⁾. ولم تذكر الآيات القرآنية إلا مرات قليلة⁽³⁾.

ومن التراث الفارسي القديم يتقدم زرادشت والزرادشتية ثم ماني والمانوية، ثم مزدك والمزدكية، ثم بوذا والبوذية. ومن الملوك يذكر كسرى أنوشروان الذي أعجب به المسلمون لعدله⁽⁴⁾.

6 - الفلسفة الغربية كوسيلة للتحديث

ويخلل تحليل القدماء بعض وجهات نظر تحديثية ليست بقدر العمل الثاني الموجه إلى هذا الغرض وهو «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وإقبال على

(1) القرآن (9) الاشاعرة، الأشعرية، الأشعري (49)، الاعتزال، المعتزلة، الجيلي (17)، الإسماعيلية (16)، مسكويه، ابن سينا (13)، الغزالي (9)، ملا صدرا (7)، البهائية، البابية، الباب (6)، الفارابي، فخر الدين الرازي، السهروردي، النظام، الرومي، الكاظمي (5)، ابن المبارك، وحيد الدين محمود (4)، الشهرستاني، الماتريدية، ابن تيمية، النسفي، الرشتي (3)، إخوان الصفا، الرازي الطيب، الجاحظ، ابن حزم، بشر بن المعتمر، القاضي عياض، الحسيني، القشيري، ابن عربي، الجيلاني، السبزواري، أحمد الاحساني، صلاح الدين، معمر بن عباد (2)، ابن رشد، السرخسي، أبو المعين الاصفهاني، المعصومي، واصل بن عطاء، أبو هاشم، أبو الهذيل، محمد ابن عثمان، أبو القاسم، ثمامة بن الأشرس، يوسف البصري، المقنع الخراساني، بشار بن برد، أبو حنيفة، مالك، الشافعي، النقشبندية، الشبلي، ابن الجوزي، البيروني، ابن الهيثم، التجاري، شقيق البلخي، إبراهيم بن أدهم، رابعة، الكرمي، البسطامي، الحلاج، حافظ الشيرازي، أبو البركات، الأمدى، السيرافي، القاضي عبد الجبار، أبو المعالي، أبو القاسم، مجد الدين الجيلي، الاصفهاني، ملاهادي، الجبائي، الباقلاني، العطار، البصري، سيمون القنداق... إلخ.

(2) مثل «الفوز الأصغر» لمسكويه، «حكمة المشرقين» لابن سينا، «المضنون به على غير أهله» و«مشكاة الأنوار» للغزالي، «حكمة العين» للكاظمي.

(3) القرآن (9).

(4) زرادشت، الزرادشتية، الزرادشتيون (22)، ماني، المانوية (20)، مزدك، المزدكية (6)، بوذا، بوذيون (6). كسرى أنوشروان، كابيلا (3)، ميتهارا، كنداليني، سنباد، استادسيس (1).

وعني بذلك بأنه يعبر عن تطور الفكر الإيراني بلغة الفلسفة الحديثة. وهي أول محاولة فيما يعلم، وكما استخدم القدماء الألفاظ والمصطلحات اليونانية كذلك يستخدم المحدثون الألفاظ والمصطلحات الغربية. وقد توصل الجيلاني في «الإنسان الكامل» إلى نفس ما انتهى إليه كانط⁽¹⁾.

والفكر الغربي الحديث نفسه يمتد إلى الفكر الشرقي القديم. ومن ثم يكون استعماله من جديد للتعبير عن الفكر القديم بمثابة «هذه بضاعتنا ردت إلينا». فقد أثر الفكر الثنوي عند زرادشت على الفلسفة الإغريقية القديمة وعلى الفكر الغنوصي المسيحي المبكر ثم على بعض جوانب الفكر الغربي الحديث⁽²⁾.

ومن التراث الغربي الحديث يأتي في المقدمة هيغل الذي عبر أصدق تعبير عن التصوف الإسلامي، ثم كانط لعقلانيته ومبدئه الخلقي، ثم شوبنهاور وشيلرماخر وبركلي لفلسفتهم الذاتية الإنسانية، ثم فشته وجاكوبي لتصوفهما، واسبينوزا وليبنز لفلسفتهما في الوحدة. ثم يشار إلى بعض الرومانسيين مثل شليجل وسولجر ووردزورث، وبعض العقلانيين والمثاليين مثل هاملتون⁽³⁾.

ومن التراث اليوناني القديم يتقدم أرسطو والأرسطية والأرسطيون المسلمون بطبيعة الحال، ثم الأفلاطونية المحدثة، وأفلاطون موضوع الدراسة الرئيسي ثم أفلوطين، ثم المشاءون الفرس. ويذكر كتاب «التاسوعات». كما تذكر الرواقية. ولأرسطو احترام كبير لأن أثره كبير على المسلمين وجحوده لأفلاطون يمنع من الإعجاب الكامل به. صحيح أن نقده لأستاذه وارد، ولكن العيب في طريقة نقده. مع أن المسلمين أعجبوا بعبارة أرسطو «أحب أفلاطون ولكن حبي للحق أعظم». والدهشة عند أفلاطون أم العلوم. وينظر الشاعر بديل (ميرزا عبد القادر) إليها من وجهة نظر أخرى. قيمة الدهشة عند أفلاطون هو أنها تعود إلى سؤال الطبيعة. وعند بديل قيمتها في ذاتها بصرف النظر عن نتائجها الذهنية. وهو تعبير جيد عن

(1) السابق، ص 15/7.

(2) تطور، ص 19 - 20.

(3) هيغل، هيجلي، (9). كانط (5). شوبنهاور، شيلرماخر، بركلي (4). فشته، جاكوبي، اسبينوزا، لينتز، نقد العقل الخالص (2)، كومت، ديمستر، شليجل، ديكرات، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، هريات ووردزورث... إلخ (1).

الفكرة⁽¹⁾، وسكتوس امبريقوس⁽²⁾. ويحال إلى عديد من المستشرقين وعلماء تاريخ الأديان والحضارات المقارن⁽³⁾.

وتتسم الدراسات الإسلامية لإقبال بنقلها من مستوى الحضارة اليونانية القديمة أفلاطون وأرسطو إلى الحضارة الغربية الحديثة عند ديكارت واسبينوزا وكانط وهيغل ونيشيه وبرجسون. وواضح أن كانط هو الأكثر جذباً مع الإحالة إلى «نقد العقل الخالص». فكانط هو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب⁽⁴⁾. كما يبدو كانط في موقفه من الميتافيزيقا وارتباطها بالعلم في «نقد العقل الخالص» أنه دفع بعض الفلاسفة مثل جاكوبي وشيلر ماخر إلى تأسيس الإيمان كحقيقة مثالية، وكذلك بالنسبة للشاعر الشاك وردزورث في حديثه عن الحالة الخفية للذهن التي تحيلنا كلية إلى الروح، وتجعلنا نعي حياة الأشياء⁽⁵⁾. وهو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب الذي لم يصل إليه الشعب الإيراني بالرغم من نظراته الميتافيزيقية⁽⁶⁾. ويسلم الجيلي في «الإنسان الكامل» بالنتائج التي توصل إليها كانط فيما بعد في كتابه «نقد العقل الخالص» إلا أن الجيلي يجعل هذا الخيال نفسه جوهر الكون. فالثشي في ذاته الذي قال به كانط هو عند الجيلي عدم محض. لا شيء وراء الأعراض. الأعراض هي الحقيقة⁽⁷⁾.

وفكرة الوحدة في التصوف الإسلامي ترجع إلى نفس الفكرة لدى الشعوب

(1) St. Ref., p. 83.

(2) أرسطو، الأرسطية، الأرستين المسلمين (25). الأفلاطونية المحدثة (19). أفلاطون (13). أفلوطين (4). ثيولوجيا أرسطو (3). الرواقية (2). المشاءون الفرس سكتوس امبريقوس، انتيكوس، جستنيان، ديوجين (1). التاسوعات (1).

(3) من المستشرقين هوج (3). فون كريم، سينا (2)، ماك دونالد، آرنولد، دوزي، براون، نيكلسون، دي جوبينو... (1). ومن علماء تاريخ الأديان والحضارة المقارن جيجر، إردمان، لويس، كلود (قصة الخلق)، هوبنكر... (1).

(4) كانط (5)، نقد العقل الخالص (2)، هيغل (4)، هيجلي (1)، شوبنهاور، شيلر ماخر، بركلي (3)، جاكوبي، لينتز، فشته (2)، جاكوبي، كونت، شليجل، ديكارت، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، ودزدورث، هربارت، اسبينوزا، بوزانكيه (1).

(5) تطور الفكر الفلسفي، ص 13.

(6) السابق، ص 74/13.

(7) السابق، ص 114.

الآرية الكبرى في الهند وإيران بل وفي الغرب عند شوبنهاور وهيجل⁽¹⁾. والنسق الكوني المانوي مشابه لمبدأ الخلاص المسيحي. وهو نفس النسق الكوني الهيجلي القائم على الثالوث المقدس⁽²⁾. ويستعمل إقبال إطلاق هيجل اسم «الرومي الكامل» على الرومي⁽³⁾. وفي وصف الجيللي في «الإنسان الكامل» لمراحل الوجود: الأحدية، الهوية، الإنية، أن الإنية ليست سوى مظهر خارجي للهوية. وهي بتعبير هيجل، انفصال ذاتي الباري. وتقود نظريته إلى أخص خصائص فكر هيجل، وهو تطابق الفكر والوجود. وهو ما يسميه الجيللي تطابق العرض والحقيقة⁽⁴⁾. والخطوة الثالثة وهي سفر الوجود عند هيجل تسمى الرحمانية عند الجيللي. وهي ارتقاء الكون من ذاته، وتجليها في كل ذرة نتيجة لانفصالها. ويعتمد هيجل على ذلك لتبرئة نفسه من وحدة الوجود⁽⁵⁾. ويصبح الإنسان كاملاً عند الإيجي إذا ما دمج نفسه مع الوجود المطلق أو بما سماه هيجل الفلسفة المطلقة⁽⁶⁾. والمبدأ الحي للوجود يتجلى في الكون الخارجي بأن يوجد في داخله وحدات أو مراكز واعية يعتبرها ماكتاجرت تشكيلاً جديداً لفكرة المطلق عند هيجل⁽⁷⁾.

ويبدو أن زرادشت أدرك ما أدركه الصوفي الألماني بوقت طويل من أن التنوع والاختلاف في الطبيعة لا يمكن تفسيرهما بدون افتراض أصل لهما في طبيعة الإله نفسها⁽⁸⁾.

وحقيقة الذات الإلهية عند الصوفية المسلمين مثل الغزالي مثلاً تشبه نفس الموقف عند بعض الرومانسيين الألمان مثل بورجر وسولجر في ألمانيا⁽⁹⁾. وكما أدت الوحدة والتصوف إلى رد فعل توحيددي عند ابن تيمية ورد فعل تكثيري عند

-
- (1) السابق، ص 14.
 - (2) السابق، ص 23.
 - (3) السابق، ص 92.
 - (4) السابق، ص 112 - 114.
 - (5) السابق، ص 117.
 - (6) السابق، ص 119.
 - (7) السابق، ص 136.
 - (8) السابق، ص 20.
 - (9) السابق، ص 63.

وحيد الدين محمود، ورد فعل لاإرادي عند عمر الخيام كذلك أدت الوحدة الألمانية إلى رد فعل تكثيري عند هربارت كما أدت وحدة الوجود عند اسبينوزا إلى الفردية عند ليبنتز، وكما أنكر وحيد محمود حقيقة الواحدة وأثبت التعددية⁽¹⁾. وقال قبل ليبنتز بأن الكون متألف من أفراد أي وحدات أساسية وذرات بسيطة أزلية أودعت فيها الحياة. ويتنبأ السهروردي بنظرية ليبنتز الخاصة باتحاد الآحاد غير القابلة للتميز، إذ لا توجد نفسان متماثلتان تماماً⁽²⁾.

وقد انتهى شوبنهاور إلى ما انتهى إليه ماني من قبل وهو الدعوة إلى الزهد وإنكار الذات كمبدأ للحياة⁽³⁾. ويتشابه موقف بهاء الله مع موقف شوبنهاور في تمثيل الحقيقة في الإرادة وتحقيق ذاتها موضوعياً بدافع آثم كامن فيها. الحب والإرادة كامنان في كل ذرة من ذرات الحياة. والمتعة في تحقيق الذات مع ميول ورغبات شريرة لا يمكن تفسيرها. ويفترض شوبنهاور عدة أفكار لتبرير هذا التحقق الخارجي لتلك الإرادة الأولى، في حين لا يقدم بهاء الله أي تفسير للمبدأ الذي يقوم عليه تصوره لتجلي الحب الخالد وتحقيقه في الكون⁽⁴⁾.

ويقرب السهروردي من بوزانكيت في تسمية التعريف «جمع الكيفيات». إذ يرى أن التعريف الحقيقي يشمل كل الصفات اللازمة. وهي لا توجد إلا في الشيء المعروف رغم أنها قد تكون موجودة على أفراد في أشياء أخرى⁽⁵⁾.

وحدث في الفكر الأوروبي نفس الشيء عند فشته في القرن الثامن عشر بشكه في حقيقة المادة. ثم وجد الحل في النهاية في وحدة الوجود. كما تشبث شليرماخر بالإيمان كنقيض للعقل. واتجه كاكوبي إلى مصدر آخر للمعرفة أعلى من العقل. في حين عارض أوجست كومت كافة الأنظار الميتافيزيقية. وجعل المعرفة قاصرة على الإدراك الحسي. ووجد دي ماستر وشليجل الحل في القول بسلطة البابا المعصوم.

(1) السابق، ص 94 - 95.

(2) السابق، ص 109.

(3) السابق، ص 24.

(4) السابق، ص 136 - 137.

(5) السابق، ص 98.

وهي نفس طريقة الإسماعيلية في التفكير وإيمانهم بسلطة الإمام المعصوم بالرغم من سماحهم بكافة اتجاهات الفكر الحر⁽¹⁾.

وفي العصر الحديث، قادت النتائج السلبية لكتاب «نقد العقل الخالص» لكانط وكذلك جاكوبي وشليرماخر إلى تأسيس الإيمان على الإحساس بالحقيقة المثالية. وقد كشفت كحالة خفية للذهن عند الشاعر وردزورث⁽²⁾.

وتصور الجيلي لله في «الإنسان الكامل» قريب من تصور شليرماخر. إذ يحول الفيلسوف الألماني كل الصفات الإلهية إلى صفة وحيدة هي القدرة. يرى الجيلي أنه من الخطر تصور الله مجرداً عن الصفات. إلا أنه يتفق مع شليرماخر في أن الله في ذاته وحدة غير قابلة للتغير، وأن صفاته ليست إلا محض أفكار عنه طبقاً لوجهات نظر بشرية مختلفة⁽³⁾.

وما عبر عنه الأشاعرة دفاعاً عن نظرية الخلق بحيث صار العالم مجرد عرض لمجموعة من الخبرات الذاتية لا تفرقها حقيقة إلا الإرادة الإلهية هو موقف بركلي⁽⁴⁾. فقد فسر بركلي نسبية الإدراكات البصرية للبرهنة على أن الله هو الأساس النهائي للأفكار كما فعل فيلسوف الإشراف⁽⁵⁾. ويتفق بركلي وفشته مع الجيلي في «الإنسان الكامل» في تطابق الفكر والوجود⁽⁶⁾.

وقد سبق الغزالي ديكارت في الموقف الشكي، وكذلك هيوم بسبعمئة عام في الشك في السببية⁽⁷⁾.

ومزدك أبو الشيوعية والاشتراكية ظهر في عصر الملك العادل كسرى أنوشروان كرد فعل ثنوي مضاد للمجوسية السائدة. كل البشر متساوون، والملكية الفردية أساس الشقاء⁽⁸⁾.

(1) السابق، ص 54.

(2) السابق، ص 84.

(3) السابق، ص 115 - 116.

(4) السابق، ص 61.

(5) السابق، ص 107.

(6) ص 113.

(7) السابق، ص 12.

(8) السابق، ص 24 - 25.

ويستعمل إقبال أسماء المذاهب الفلسفية الغربية مثل العقلانية والمادية، والمثالية والواقعية لقراءة تاريخ الفكر الإسلامي خاصة علم الكلام. ويعرض المذهب العقلاني المادي، ويعني الاعتزال⁽¹⁾. ويؤرخ للصراع بين الأشعرية والأرسطية على أنه صراع بين المثالية والواقعية⁽²⁾. وهو الصراع بين المتكلمين والفلاسفة بوجه عام. ويمثل الفلاسفة نجم الدين الكاتبي في كتابه «حكمة العين»⁽³⁾. ويمثل المتكلمون محمد بن المبارك النجاري ومحمد هاشم الحسين. وقد سبق الحسيني إلى ما قاله هاملتون ضد الواقعيين بأن الجوهر أو الكنه كموضوع المعرفة والذي يقال أنه لا يمكن إدراكه معلوم بصفة أولية بديهية⁽⁴⁾. كما يستعمل المباحث الغربية مثل الانطولوجيا والكوسمولوجيا ليصب فيها مباحث الفلسفة الإلهية في التصوف النظري⁽⁵⁾.

وأحياناً يقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي. فما شرعه ميمون القداح من جواز اغتيال المخالفين على عادة الساميين جوز بابا روما مذبحة سانت بالتلميو في القرن السادس عشر⁽⁶⁾. وتشبه ثورات المرتدين الإيرانيين مثل سنباد واستادسيس والمقنع الخراساني استخداماً للدين من أجل السياسة ثورات اللامانيين أنصاري دي لامي⁽⁷⁾.

(1) السابق، ص 47.

(2) السابق...: الفصل الرابع، النزاع بين المثالية والواقعية، ص 71 - 79.

(3) السابق، ص 71.

(4) السابق، ص 73 - 74.

(5) السابق، ص 98 - 105.

(6) السابق، ص 55 - 56.

(7) السابق، ص 83.

الفصل الثاني

تجديد التفكير الديني

1 - «تجديد التفكير الديني في الإسلام»

وعلى عكس «تطور الفكر الفلسفي في إيران» وتأسيسه على الشعبوية والاستشراق في أول حياة إقبال فإن «تجديد التفكير الديني في الإسلام» بيان إصلاح إسلامي لإعادة بناء الفكر الإسلامي من الداخل في أواخر حياته، وهو الأكثر ذكراً وشهرة⁽¹⁾. بينما العمل الأول رسالته للدكتوراه من جامعة منشن إلا أن العمل الثاني مجموعة من المحاضرات أُلقيت في مدراس وحيدر أباد وعليكرة قبل أن يتوفى بعامين. تدل على نضج فلسفي. وتجمع بين التجربة الشعرية والتجربة الفلسفية. الهدف منها بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديداً جمعاً بين الموروث القديم والوافد الجديد، بناءً على تطور المعارف الإنسانية حتى اللحظة الراهنة⁽²⁾. والوافد الجديد هو العلم. وقد استطاعت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التي قامت عليها. فسرعان ما انتهت المادية. وليس غريباً أن يظهر الآن الاتفاق بين الدين والعلم.

ولفظ تجديد ترجمة معنوية للفظ Reconstruction الذي يعني حرفياً «إعادة بناء». ويتكون من مقدمة دون خاتمة وستة أقسام مثل العمل الأول: الأول

(1) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1952، ط2، 1968.

(2) السابق، ص2.

«المعرفة والرياضة الدينية» عن التصوف. والثاني «البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية» عن الفلسفة. والثالث «الألوهية ومعنى الصلاة» عن الكلام الإشرافي. والرابع «روح الثقافة الإسلامية» عن العلم والتجربة والواقع. والخامس «مبدأ الحركة في بناء الإسلام» عن علم أصول الفقه. والسادس «هل الدين أمر ممكن؟» رد على الوضعية الغربية. ويشبه سؤال القسم الثالث من «رسالة التوحيد» لمحمد عبده «الوحي ممكن الوقوع». وأكبرها الثالث «الألوهية والصلاة»⁽¹⁾. ومع ذلك، الكتاب أقرب إلى الفلسفة الخالصة، وعلاقة التجربة الدينية بالفكر الفلسفي أو علاقة الدين بالفلسفة، والدين بالعلم، والدين بالتقدم عبر الاجتهاد، وليس دراسة للتراث القديم أو الغربي أو الواقع المعاصر.

أ - خصائص الفكر الإسلامي

يعنى القرآن بالعمل أكثر مما يعنى بالنظر. ومع ذلك نظراً لضعف إقبال أمام التصوف فإنه يجعل الرياضة الباطنية الهدف الأسمى للدين⁽²⁾. لذلك أثبت الصوفية الكوجيتو العملي «أنا أقدر» وليس الكوجيتو النظري «أنا أفكر»⁽³⁾. ولقد تعود الجيل الجديد التفكير الواقعي وهو ما حث الإسلام عليه في المراحل الأولى من تاريخه الثقافي مما دفع الجيل الجديد إلى التشكك في قيمة الرياضة النفسية لأنها عرضة للخداع. مثال ذلك تفسير آية ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَنُكُم إِلَّا كَفَّسٍ وَجِدْ﴾. فهي تشير إلى الأصل النفسي أكثر من الأصل الجسمي. وهي تجربة واقعية يشعر بها كل إنسان⁽⁴⁾. أسس التصوف في الماضي تجربته على الرياضة الدينية ثم انغلق على نفسه في العصور الأخيرة. ولم يستعن بنتائج الفكر الحديث والتجربة العصرية بالرغم من اختلاف الرؤى الثقافية بين الماضي والحاضر. تحتاج المعرفة الدينية إلى أن توضع في صورة علمية⁽⁵⁾.

(1) ترتيب الفصول طبقاً لعدد الصفحات: 1 - الألوهية ومعنى الصلاة (67) 2 - مبدأ الحركة في بناء الإسلام (41) 3 - البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية (39) 4 - المعرفة والرياضة الدينية (31). 5 - روح الثقافة الإسلامية (26) 6 - هل الدين أمر ممكن؟ (19) المقدمة (3).

(2) تجديد، ص 1.

(3) السابق، ص 226.

(4) السابق، ص 1 - 2.

(5) السابق، ص 1 - 2.

وتجديد التفكير الديني في الإسلام لا يتوقف عند حد معين بل هو مستمر ودائم كلما تقدمت المعرفة وتغير العصر⁽¹⁾. وقد أدرك شاه ولي الله الدهلوي ذلك. ووجد أن المهمة الملقة على عاتق المسلم العصري ضخمة. إذ عليه أن يفكر في نظام الإسلام دون أن يقطع مع الماضي. وتبعه جمال الدين الأفغاني. إلا أن نشاطه وحركيته منعاه من التفرغ لتجديد التفكير الديني وإعادة بنائه⁽²⁾.

ب - الاستشراق مستمر

وبالرغم من غلبة التحليل الفلسفي على الرصد التاريخي إلا أن الكتاب لم يخل من الاستشراق بمعنى التأريخ للفكر الإسلامي بالتحقيب الميلادي. فأبو هاشم الجبائي توفي عام 933م، والباقلاني عام 1012م⁽³⁾، وتخریب بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي، والسيوطي في القرن السادس عشر الميلادي، وولد ابن تيمية عام 1263، ومحمد بن عبد الوهاب عام 1700م. والإسلام ظهر وامتدت حضارته ما بين 800 - 1100م.

ويظهر الاستشراق أيضاً في منهج الأثر والتأثر. فنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ قد تأثرت بالبوذية⁽⁴⁾. وعقيدة المهدي عند ابن خلدون مستمدة من المجوسية الأصلية. فالمجوس هم الأصل مع أنها من صلب الفكر الإسلامي السني والشيعة⁽⁵⁾. واستلهم فلاسفة الإسلام آراءهم في النفس من الفكر اليوناني. وأدخل في حظيرته أقواماً ومللاً متعددة كالنساطرة واليهود وأتباع زرادشت⁽⁶⁾.

كما يظهر الاستشراق في الشعوبية. إذ لم يستطع العقل العربي العلمي اعتبار الزمان شيئاً متوهماً كما فعل اليونان⁽⁷⁾. والعقل العربي غير العقل اليوناني. الأول يبدأ من المحسوس، والثاني من المعقول كما لاحظ بريفو في كتابه «تكوين

(1) السابق، ص3.

(2) السابق، ص111 - 112.

(3) السابق، ص80 - 81 / 173 - 188 / 175.

(4) تجديد، ص81.

(5) السابق، ص167.

(6) تجديد، ص109 - 110.

(7) السابق، ص88.

الإنسانية» Brifault: Making of Humanity. المثل الأعلى اليوناني كما لاحظ إشبينجلر هو التناسب وليس اللانهاية⁽¹⁾. ونشأ القياس وجعله أبو حنيفة أصلاً من أصول التشريع. تتمثل فيه النزعة السامية التي تهدف إلى كبح الميل الآري إلى تيار النظر المجرد لصالح الواقع المتحقق، وعالم الأذهان على عالم الأعيان⁽²⁾.

ويعتمد إقبال في آخر حياته على المصادر الاستشراقية كما فعل في أول حياته. فيعتمد على تلخيص ماكدونالد لمضمون «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون في مجلة إيزيس، وأعاد د. زويمر نشره في مجلة «العالم الإسلامي في يناير 1928»⁽³⁾. كما يعتمد على نشر ماسنيون لنصوص الحلاج. كما يذكر آراء المستشرقين مثل ماكدونالد الذي وصف نجد بأنها «أطهر بقعة في عالم الإسلام الذي دب إليه الانحلال» لتفسير نشأة دعوة محمد بن عبد الوهاب⁽⁴⁾. ويرد على تساؤل هورتن: هل شريعة الإسلام قابلة للتطور؟⁽⁵⁾. ويستشهد برأي المستشرق فون كريمير Von Kremer على أن الرومان أصحاب التشريع. لذلك جاءت المسيحية بعقيدة روحية في حين أن العرب أصحاب عادات وتقاليد. وجاء القرآن بالبادئ العامة للتشريع تاركاً للمسلمين حق الاجتهاد. كما يستشهد برأيه في قانون الميراث في الإسلام وأنه يتسم بالأصالة والابتكار⁽⁶⁾. ويرد رأي جولدزيهر في عدم صحة الحديث. كما يستشهد بكتاب النظريات المالية الإسلامية Mohammedan Theories of Finance لبيان بداية التشريعات المالية والإسلامية وتطورها⁽⁷⁾. ويعتمد إقبال على بعض المستشرقين المنصفين مثل فلنت Flint عندما يؤكد أن الحضارة الإسلامية وحدها هي التي عرفت وحدة الإنسانية نظراً وعملاً، رؤية وحركة اجتماعية. وأفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء لابن خلدون⁽⁸⁾.

(1) السابق، ص 151 - 153.

(2) السابق، ص 204.

(3) السابق، ص 110/81.

(4) السابق، ص 175.

(5) السابق، ص 188.

(6) السابق، ص 193 - 196.

(7) السابق، ص 197.

(8) السابق، ص 162.

2 - الفلسفة والدين

أ - العقل والإيمان

والمعرفة والرياضة الدينية هي قضية الفلسفة والدين أو العقل والإيمان. ويأخذ إقبال صف الدين على حساب الفلسفة، والإيمان على حساب العقل، ويعلم عجز العقل عن إدراك كنه الحقيقة القصوى. ولا يدرك جوهر الدين إلا بالإيمان الباطني⁽¹⁾. الإيمان مجرد شعور خالص يشبه رضا النفس كما هو الحال عند الصوفية. قد يكون الفكر أحد عناصره كما حاول المتكلمون الفلاسفة. الدين في حاجة إلى أساس عقلي مهما تجاهل الميتافيزيقا من أجل رفع التناقضات في عالم التجربة. ولا يعني ذلك تعالي الفلسفة على الدين وإن كان لها الحق في الحكم عليه. الفكر والبداهة قرينان⁽²⁾.

والأسس العقلية في الكتاب والسنة وعند الصوفية المتأخرين وفي مقالات المتكلمين وفي الفلسفة اليونانية. فقد وسعت الفلسفة اليونانية آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، ولكن إقبال يرى أنها غشت على أبصارهم في فهم القرآن وهو غير صحيح⁽³⁾. وتركيز سقراط على الإنسان لا يخالف روح القرآن الذي يركز على الإنسان أيضا. فالدخول في النفس شرط للصعود إلى أعلى. وإن قدح أفلاطون في الإدراك الحسي لا يخالف دفاع القرآن عنه لأن الإدراك الحسي في القرآن مشروط بيقظة القلب أو الضمير أو الفؤاد. ولا تعارض بين النظر الفلسفي القديم والقرآن⁽⁴⁾.

ونتيجة النظر الفلسفي القديم أسس الغزالي الدين على الشك الفلسفي. وهو ما يتعارض في رأي إقبال مع روح القرآن. كما يتعارض والعقل الفعال عند ابن رشد الذي انتشر مذهبه في كل أرجاء أوروبا مع القرآن ونظرته إلى النفس

(1) السابق، ص5.

(2) السابق، ص7.

(3) السابق، ص8.

(4) السابق، ص9.

ومصيرها⁽¹⁾. وأقنع التجلي اللانهائي على طريقة الوعي الصوفي الغزالي بتناهي العقل، وعجزه عن الوصول إلى أحكام قاطعة. وفرق بين الفكر والبداهة⁽²⁾.

ب - الكلام والتصوف

كان الأشاعرة على طريق الصواب في فلسفتهم المثالية وهي تدافع عن أهل السنة بالمنطق اليوناني⁽³⁾. أما المعتزلة فيما يرى إقبال فقد تصوروا الدين مجموعة من العقائد والمعاني المنطقية دون حيوية. فالفكر لا يستقل عن التجربة⁽⁴⁾.

هدف القرآن أيضاً هو إيقاظ شعور أسمى في النفس بالعلاقة بين الخالق والمخلوق. فهناك صراع بين الدين والحضارة. وقد واجهت النصرانية نفس المشكلة. فاعتنت باستقرار الحياة الروحية عن طريق تجلي عالم جديد في النفس وهو ما يقره الإسلام أيضاً. بالإضافة إلى أنه عالم ليس غريباً على المادة. فالمثال والواقع في الإسلام غير متعارضين كما هو الحال في النصرانية. وقد نص القرآن على ذلك في عديد من الآيات بأن الحياة رسالة، وبأن للإنسان هدفاً، وأن في الكون آيات، وفي التاريخ عبرة، وأن الإنسان قد يكون في أعلي عليين أو في أسفل سافلين. الحياة سعي وعمل وجهاد وكدح ومعاناة. الحياة اختبار. وللإنسان القدرة عليه. ويدعو القرآن الإنسان إلى التأمل في الطبيعة وتجربتها⁽⁵⁾.

والبحث في الرياضة الدينية مصدر للعلم الإلهي. وهو أسبق من ضروب التجارب الإنسانية الأخرى كطريق للعلم بالحقيقة النهائية. والقلب نوع من علم الباطن كما قال الرومي. وهو ما تثبته الكتب المنزلة وأعمال الصوفية. وقد أورد البخاري المحدث شواهد كثيرة على ذلك. وأدرك هذا المعنى أيضاً ابن خلدون⁽⁶⁾.

ويلاحظ على التجربة الدينية أو الصوفية الآتي:

- (1) السابق، ص9.
- (2) السابق، ص11 - 13.
- (3) السابق، ص102.
- (4) السابق، ص10.
- (5) السابق، ص15 - 22.
- (6) السابق، ص22 - 25.

- أ - عدم الاعتماد على الوسائط أي إنها تجربة نفسية مباشرة.
- ب - عدم القابلية للتحليل لأنها كل لا يتجزأ.
- ج - الحالة الصوفية عند المريد لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى، فريدة سامية، تفتى فيها شخصية المريد فناء مؤقتاً. وهو ما أكدته القرآن.
- د - عدم القابلية للنقل إلى إنسان آخر لأنها حالة ذاتية. وهو ما يؤكد أيضاً القرآن.
- هـ - اتصال المريد بالذات الأزلية اتصالاً مباشراً. وهذا لا ينفي الزمان المتجدد⁽¹⁾.

ج - البراهين على وجود الله

التجربة الدينية عند إقبال هي تجربة الإيمان بالله. والبرهان الفلسفي عليها هو البرهان على وجود الله⁽²⁾. ويعرض البراهين الثلاثة المشهورة على وجود الله: الدليل الكوني، والدليل الغائي، والدليل الوجودي. ولا يذكر دليل الحركة. ولا دليل القدم والحدوث أو الواجب والممكن أو الجوهر والأعراض إلى آخر ما هو معروف عند المتكلمين المسلمين أو عند توما الأكويني في العصر الوسيط. يقوم الدليل الكوني على العلية، أن لكل معلول علة، ولما كانت العلل لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، إذن لابد للانتهاء إلى علة أولى. ويستبدل الدليل الغائي بالعلية الغائية. فلكل شيء غاية. ولما كانت الغايات لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، فلا بد من الوصول إلى غاية قصوى. والدليل الوجودي هو ما عرف باسم الدليل الانطولوجي الذي يقوم على استنباط الوجود من الكمال. لما كان الله كاملاً، والوجود أحد مظاهر الكمال، إذن الله موجود⁽³⁾.

وتكشف التجربة في الزمان على ثلاثة مستويات: مستوى المادة، ومستوى

(1) السابق، ص 25 - 35.

(2) السابق، الفصل الثاني: البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية، ص 36 - 74.

(3) السابق، ص 36 - 40. انظر نقدنا لهذه الأدلة في «من العقيدة إلى الثورة» ج2، التوحيد، ص 5 - 75.

الحياة، ومستوى العقل والشعور. لذلك العلوم ثلاثة: علم الطبيعة، وعلم الأحياء، وعلم النفس. وهو مثل تقسيم هوسرل في الجزء الثاني من «الأفكار» في نظرية «التكوين»⁽¹⁾. وهناك تمييز كيفي بين هذه المستويات الثلاثة كما هو الحال في التطور الخالق عند برجسون. المستوى الطبيعي موضوع العلوم الطبيعية. ويختلف العلماء في تصور الطبيعة والكون بين الفيزياء القديمة التي يمثلها نيوتن والفيزياء الجديدة التي يمثلها أينشتاين. الأولى تقوم على الجوهر المطلق الثابت، والثانية على النسبية، نسبة المكان والزمان والأبعاد الأربعة. ونسبة الحياة إلى الله عند علماء الكلام ومنهج ابن حزم خشية من التجسيم والتشبيه. والحقيقة أنه لا يمكن إثبات الكمال الإلهي إلا بعد نفى كل صفات التشبيه. والشعور انبثاق من الحياة يتسم بالتوتر والتركيز والانتباه. ويستدل إقبال على هذا التمايز بين المستويات الثلاثة. الطبيعة، والحياة، والشعور، بعدد من الآيات القرآنية⁽²⁾. وهي تثبت الزمان كلفظة كلمح البصر. كما يعتمد على الشعر لإثبات نفس الحقيقة⁽³⁾. ويذكر بيت شعر لناصر على السرهندي.

د - الذات والصفات

وبعد اطمئنان التجربة الدينية على المقاييس العقلية فإنها تكشف عن إرادة معبرة، ذات نظام معقول، هي أساس كل تجربة. وتسمى هذه الإرادة «ذات» أو «إله». تتسم بالوحدانية أو الفردانية وهو ما يثبته القرآن أيضاً⁽⁴⁾. والسؤال هو: هل تقتضي الفردية التناهي؟ وإذا كان الإله فرداً فكيف يكون متناهياً؟ الذات الإلهية فرد غير متناه في المكان ولا الزمان. وتتسم الذات الإلهية بصفات عقلية أخرى بحتة مثل الخلق والعلم والقدرة والقدم. والخلق والقدم يدخلان معاً في تصور واحد: خلق العالم وقدام الله. فالعالم حادث، والله قديم. وقد قال البسطامي «كان الله ولا شئ معه».

(1) السابق، ص 40. تأويل الظاهريات، النافذة، القاهرة، 2005، ص 172 - 174.

(2) السابق، ص 56/59/61/66/68/70/72. ويذكر إقبال حوالى 110 آية في الكتاب كله.

(3) السابق، ص 64/71.

(4) السابق، ص 35/76 - 78 - 86.

وفي علم الكلام خلق الله الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ رفضاً لمذهب أرسطو القائل بثبات العالم. وقال به أبو هاشم الجبائي والباقلاني بل وموسى بن ميمون. وقد أثبتته الأشاعرة كذلك معتمدين على الآيات القرآنية. ورفضه ابن حزم. وقد أدت نظرية الجوهر الفرد عند الأشاعرة إلى التكثر الروحي.

وإقبال أميل إلى القول بفكرة الخلق المتصل التي حاول الأشاعرة إثباتها. فهي أقرب إلى روح القرآن من نظرية أرسطو. وهي أقرب إلى العلم الحديث. وقد سبق الأشاعرة العلم الحديث ولو بشيء من الغموض. لذلك فإن قول الأشاعرة بأن النفس عرض يتعارض مع نظريتهم. وكان الرومي أكثر فهماً لروح الإسلام بقوله «أفاد جسمي وجوده من الروح ولم تغد الروح وجودها من البدن». فالحقيقة روحية في جوهرها. ولها درجات كما هو الحال عند السهروردي.

أما صفة القدم فإنها تستدعي القول بحدوث الزمان والمكان. وهو ما استرعى انتباه الصوفية والمتكلمين في آن واحد. وهو ما تؤيده الآيات القرآنية أيضاً. فعند ابن عربي الدهر من أسماء الله الحسنى. وكذلك عند الرازي دهر وديهور وديهار. والزمان عند الأشاعرة آتات مفردة. وهو نفس موقف اليونان دون الاستفادة منه⁽¹⁾.

وعندما تستند صفة العلم إلى الذات المتناهية فإنها تعني العلم الاستدلالي. وهو نسبي دائماً بالقياس إلى المقدمات. وإذا استند إلى الذات الإلهية فإنه يكون علماً مطلقاً⁽²⁾. ويصطدم العلم المطلق بمشكلة الشرق في العالم ووقوعه، ومدى المسؤولية بين التشاؤم والتفاؤل، وتأويل قصة هبوط آدم، ومسؤولية الإنسان عن الشرق في غواية حواء وهوي آدم، وفي النقوش البابلية القديم بين الشبان رمز الذكر، والتفاحة رمز البكارة. والقرآن لا يستعمل هذه الرموز وإن كان يقر بقصة آدم وحواء وشجرة الخلد. ويلعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم. ولا تتعلق القصة بظهور الإنسان الأول بل بالجانب الأخلاقي في ضعف الإرادة وسيادة الهوى⁽³⁾.

(1) السابق، ص 87.

(2) السابق، ص 91.

(3) السابق، ص 96 - 103.

وعلم النفس الديني عند العراقي خوجه محمد رضا أقرب إلى المفاهيم الحديثة للزمان والمكان. فالمكان منسوب إلى الذات الإلهية. وهو على ثلاثة أنواع: مكان الأجسام المادية، ومكان الكائنات غير المادية، ومكان الله. وكان يؤمن بالفكرة الأرسطية عن زمان الكون⁽¹⁾.

والحقيقة أن الذات طبقاً للأشاعرة لها أوصاف ستة: الوجود، والقدم، والبقاء، وليس في محل، ولا يشبه الحوادث، وواحد. أخذ منها إقبال وصفين، القدم والوحدانية. ولها صفات سبع: العلم والقدرة والحياة، والسمع والبصر والكلام والإرادة. أخذ منها إقبال صفتين: العلم والقدرة. فلم يفرق إقبال بين الأوصاف الستة، والصفات السبع.

وبالرغم من تأكيد إقبال على عقلانية الدين، وإيراد البراهين الفلسفية على صدق التجربة الدينية إلا أن مطامح الدين تسمو على مطامح الفلسفة. فالدين ليس مجرد معرفة بل هو سلوك وممارسة متمثلة في الصلاة رمز العبادة والتي تؤدي إلى الهداية الروحانية، وتحقيق الاتحاد بين الخالق والمخلوق. الصلاة إحالة من الوعي نحو عالم أخلاقي جديد. والعبادة معرفة وسلوك. ولما كان وضع الجسم عاملاً في تحديد اتجاه العقل مثل القبلة والصلاة الجماعية فإن الصلاة تؤدي إلى الوحدة والمساواة. فلا وجود لفريق المنبوذين كما هو الحال في الهند⁽²⁾.

هـ - الحرية وخلود النفس

ويؤكد القرآن النفس الإنسانية، حريتها وظهورها وقوتها. فهي أساس شخصية الإنسان وفرديته، وأنه وحدة من وحدات الوجود. وهو مسؤول. فكل امرئ بما كسب رهين. فواضح في القرآن ثلاثة مبادئ: اصطفاء الله للإنسان، خلافة الإنسان لله في الأرض، حمله رسالة وأمانة لتحقيقها في الدنيا. وبهذا المعنى تفهم عبارة الحلاج «أنا الحق» كتحد للمتكلمين، والفصل بين الخالق والمخلوق⁽³⁾.

وتكشف النفس عن وحدة الحالات العقلية، مثل تاج محل، بصرف النظر

(1) السابق، ص 100 - 109.

(2) السابق، ص 103 - 108.

(3) السابق، ص 109 - 123.

عن مدينة أكرأ. فالنفس لا توجد في مكان. والنفس متفردة دون انعزال. وهي جوهر روحاني بسيط ثابت لا ينقسم عند المسلمين خاصة الغزالي.

ويميز القرآن بين النفس والروح. الأولى يمكن للإنسان معرفتها. أما الثانية فيصعب ذلك. كما يميز بين الأمر والخلق⁽¹⁾.

والسؤال هو: كيف تنشأ النفس داخل النظام المكاني الزماني؟ القرآن صريح باستقلال النفس عن البدن. تتسم بصفات مغايرة له. والعلاقة بينها مثل علاقة التلقائية بالنظام، الكيف بالكم⁽²⁾.

وقد تصارعت الآلية والحرية لتحديد النشاط النفسي. تقوم الآلية على تصور خاطئ للنشاط العقلي تقليداً للعلوم الطبيعية التي تقوم على العلية. فحدث رد الفعل في مدرسة الجشطت. وأعطت النشاط النفسي استقلالاً تاماً. فالعقل الإنساني فعل قصدي يقوم على الكد والكذب والاختيار الحر، وكما يقر القرآن ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. فلإنسان القدرة على حرية الاختيار⁽³⁾. والاعتقاد بالقدر هو اعتقاد بالقدرة الزائدة، والتوحد مع الهدف كما قال الحلّاج «أنا الحق»، «أنا الدهر»، «أنا القرآن الناطق» «سبحاني، ما أعظم شأنني» إلى آخر ما هو معروف من شطحات الصوفية. وأيدت عقيدة القضاء والقدر الدولة الأموية لمناقضة المعارضة ومطالبة الناس بالطاعة والولاء لها. فهي قدر الله.

وتناول الفلاسفة خاصة ابن رشد موضوع خلود النفس. ويميز بين النفس والروح. ووقع في اثنيية ليست في القرآن⁽⁴⁾. أما رأي القرآن في مصير الإنسان ومستقبله فيتفرع إلى بيولوجي وأخلاقي. البيولوجي في صور مثل البرزخ، والأخلاقي مثل العدل. وتتفق الآيات على ثلاثة أمور: بداية الروح في الزمان، وأن ليس لها وجود سابق، واستحالة العود إلى الأرض، والنهاية هي القضاء الأجل. والمصير لا يلغي الفردية بل يقوم عليها. والخلود ليس حقاً بل هو خلود مكتسب بالجهد الشخصي، والإنسان مرشح له. وهذا هو المعنى الروحي للبرزخ أي انتقال

(1) السابق، ص 118 - 119.

(2) السابق، ص 119 - 123.

(3) السابق، ص 123 - 128.

(4) السابق، ص 128.

من حال إلى حال، إمكانية تحقق، مشروع وجود، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ وإخوان الصفا ومسكويه. وأنشده الشعراء مثل الرومي. لا يوجد جزاء أو عقاب أبدي مسبق بل هما من كسب الإنسان عمله وجهده⁽¹⁾.

و - الدين والتقدم

وكما اعتنى إقبال بالصلة بين الدين والفلسفة وهو موضوع القدماء، انشغل أيضاً بموضوع الدين والتقدم وهو موضوع المحدثين فيما سماه «روح الثقافة الإسلامية». وهي فكرة خاتم النبوة، أي اكتمال الوحي وترك المجال أمام الإنسان لإعمال الفكر⁽²⁾. فالتاريخ لا يعود إلى الوراء كما شعر ولي مسلم عظيم عبد القدوس الجنجوهي. ربما تكون الولاية تالية للنبوة. ومع ذلك هناك فرق بين الولي أو الصوفي والنبى. كلاهما يتحقق بمقام الشهود. لا يعود الصوفي منها، في حين يعود النبي ليوجه التاريخ ويحرك الزمان. الوحي صفة من صفات الوجود. يتجاوز الجانب المعرفي أو النفسي أو الاجتماعي أو السياسي. وينتهي باكتمال تقدم الوعي الإنساني، ونهاية العون الخارجي، والاعتماد على الذات أي على العون الداخلي. لذلك أبطل الإسلام الرهبة وورثة الملك. واعتمد على العقل والتجربة. دعا إلى النظر في الكون، والوقوف على أخبار الأولين. الوحي والعقل والطبيعة أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة⁽³⁾.

ويعد القرآن الأنفس والآفاق مصادر المعرفة، أي الداخل والخارج، النفس والطبيعة. كانت وظيفة التصوف تحويل الرياضة الروحية إلى منهج دقيق للمعرفة كما قرر ابن خلدون. ويضيف إليهما القرآن التاريخ وتداول الأيام بين الناس. والكل يقوم على عالم الحس والشهادة. لذلك ثار الفكر الإسلامي على الفلسفة اليونانية المجردة ونقدها النظام. وأفاض الغزالي في ذلك في «إحياء علوم الدين» ولو أنه ظل تلميذاً لأرسطو في المنطق. ووضع في «القسطاس» بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية أرسطية. ونقده السهروردي في «حكمة الإشراق» وابن تيمية في

(1) السابق، ص 133 - 141.

(2) السابق، 4 - روح الثقافة الإسلامية، ص 142 - 65.

(3) الوعي والعقل والطبيعة، قراءة في كتاب القانون في الطب لابن سينا، حصار الزمن، ج3، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2005. ص 539 - 586.

«نقص المنطق» المنطق الأرسطي. ونقد الرازي الشكل الأول للقياس الأرسطي. ووضع أسس المنهج التجريبي. فالملاحظة والتجربة أساس المعرفة، وليس التفكير النظري المجرد. وكشف البيروني زمان الانفعال، والكندي تناسب الحس مع الدافع باستعمال المنهج التجريبي وتطبيقه على الظواهر النفسية. وبين ابن حزم في «التقريب إلى حد المنطق» أن الحس مصدر من مصادر العلم⁽¹⁾.

وسارت فكرة التطور في التفكير الإسلامي جنباً إلى جنب مع التفكير الرياضي. فقد لاحظ الجاحظ التغيرات في هجرات الطيور. ثم نظر مسكويه ذلك في «الفوز الأصغر». ووضع الكائنات الحية في درجات، من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان. ولكل درجات. وهو ما عرضه إقبال في رسالته الأولى للدكتوراة «تطور الميتافيزيقا في فارس»⁽²⁾. كما ظهر مفهوم التطور عند ابن خلدون في تصوره للتاريخ. وهي أيام الله بتعبير القرآن. والتاريخ مصدر ثالث من مصادر المعرفة مع العقل والتجربة. وقد عرفه ابن خلدون من روح القرآن. ووضع مبادئ النقد التاريخي. وساهم القرآن في ظهور مؤرخين مثل ابن اسحق والطبري والمسعودي. وقد قامت فلسفة التاريخ من فكرتين رئيسيتين: الأولى، وحدة الأصل الإنساني. والثانية، إدراك حقيقة الزمان إدراكاً دقيقاً، وتصور الوجود حركة مستمرة في الزمان. التاريخ تغير لا ثبات كما لاحظ مسكويه والبيروني من قبل. وانتصر كتابه «المقدمة» لروح القرآن المعارض لعلوم اليونان. فالزمان عند اليونان في الخارج كما ذهب أفلاطون وزينون. يتحرك حركة دائرية عند هرقليطس والرواقيين مما أفقدها صفة الإبداع⁽³⁾. وقد قضى ابن خلدون نهائياً في تصوره للتاريخ على فكرة المهدي كمخلص. وهي عقيدة موجودة في المجوسية الأصلية⁽⁴⁾.

ز - الاجتهاد ومبدأ الحركة

وبالإضافة إلى تطور الحياة، يقوم الإسلام على مبدأ الحركة⁽⁵⁾. إذ يرفض

(1) تجديد، ص 142 - 148.

(2) السابق، ص 154 - 155.

(3) السابق، ص 159 - 164.

(4) السابق، ص 167.

(5) السابق... 5 - مبدأ الحركة في بناء الإسلام، ص 168 - 208.

الإسلام كحركة ثقافية وكتصور للعالم ثبات العالم. والحركة في الإسلام تتم في حياة الفرد والجماعة أي في حياة الشعور الإنساني وليس في فرد معين أو جماعة معينة تقوم على رابطة الدم. وعلى هذا الأساس قامت وحدة الإنسانية. فالحياة روحية في أصلها وغايتها، دون ما حاجة إلى شعائر تحافظ عليها، مما يساعد الإنسان على التحرر من الروابط المادية. وقد حاول الإمبراطور قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية، وهو نظام رهباني، أن يجعلها نظاماً رومانياً لتوحيد الكلمة بين الناس باسم الإمبراطورية الجديدة. ولما أخفق ارتد الإمبراطور جوليان إلى عبادة آلهة الرومان مع تأويلات فلسفية جديدة. وهنا ظهر الإسلام معطياً العالم، كما يقول أحد المؤرخين، ثقافة جديدة، تحل محل ثقافة العرش والنظم التي كانت تقوم على قرابة الدم. وقام الإسلام على مبدأ التوحيد. ويعني تحرر البشر والمساواة الإنسانية والتكافل الاجتماعي. وجعل الاجتهاد أحد مصادره لمواكبة التطور. فكما أن الصلاة طريق الألوهية فإن الاجتهاد أساس الحركة في الإسلام⁽¹⁾. والثاني، حق نسبي داخل كل مذهب. والثالث، حق خاص لتعيين قاعدة شرعية خارج المذهب. وإثبات الحق الأول يثبت الحقيين الآخرين. فهو الحق المبدئي الأصلي⁽²⁾.

ويظن بعض الأوربيين أن سبب الجمود في القانون الإسلامي هم الأتراك. وهو رأي غير صحيح لأن الاجتهاد قد أرسى قبل الأتراك بزمان طويل. وهناك ثلاثة أسباب لتوقف الاجتهاد: الأول، اعتبار الحركة الفكرية في صدر الدولة العباسية مسؤولة عما وقع عند المسلمين من خلاف عقائدي خاصة في قضية قدم القرآن وما يشابهها في العقيدة المسيحية من قدم «الكلمة» واتهام القول بالخلق بأنه تفويض للجماعة الإسلامية. وشك النظام في الأحاديث وصحة الروايات. فتم تقييد حرية الفكر والاعتماد على النص دون الاستنباط أو الاجتهاد. والثاني، نشأة التصوف ابتداء من الزهد متأثراً بمصادر غير إسلامية، ووضعه علوم الذوق والكشف في مقابل علوم النظر والاجتهاد، والقلب في مقابل العقل. والثالث، تخريب بغداد بعد غزو التتار. فخشي المحافظون من أعمال العقل. واعتمدوا على سلطة النص الذي لا خلاف عليه لمقاومة الغزو. ثم ظهر ابن تيمية. فقد ولد بعد

(1) السابق، ص 168 - 170.

(2) السابق، ص 170 - 171.

تدمير بغداد بخمسة أعوام. ونشأ على مذهب ابن حنبل. وتبنى المنهج الظاهري عند ابن حزم. وأنكر مذهب الحنفية الذي يقوم على النظر والاستدلال. وبالرغم من مناداة السيوطي بضرورة الاجتهاد إلا أن حركة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد لجأت إلى سلطة النص. وأثرت في كثير من الحركات المعاصرة كالسنوسية والبابية. وكان شبيهاً بأحد تلاميذ الغزالي وهو محمد بن تومرت المصلح المغربي أثناء انحلال الأندلس. ولا يهم توقف الدعوة الوهابية التي قضت عليها جيوش محمد علي، ولكن الأهم ما ولدته من رغبة في الإصلاح حتى ولو كان محافظاً، وتوليد حركة تجعل حق الاجتهاد ليس قصوراً على أصحاب المذاهب⁽¹⁾.

وقد عادت فكرة الاجتهاد للظهور في تركيا الحديثة. وأقامه حليم ثابت على أفكار اجتماعية عصرية. فقد وجد في تركيا اتجاهين: الحزب الوطني القومي وحزب الإصلاح الديني. يعطي الأول الأولوية للدولة على الدين، والثاني للدين على الدولة. وهو صراع مفتعل ناشئ من إسقاط تاريخ الغرب، والصراع بين السلطتين الدينية والسياسية أو الكنيسة والدولة على تاريخ الإسلام. في حين أن التوحيد الإسلامي تصور ينتج نظاماً قابلاً للتحقيق. يقوم على الحرية والمساواة والاتحاد. والدولة مجرد أداة للتنفيذ. نظام الحكم ليس ثيوقراطياً. وليس الخليفة ظل الله في الأرض، معصوماً من الخطأ. لا يفرق الإسلام بين الدين والدنيا، بين ملكوت السموات وملكوت الأرض. هو مثال يتحول بطبيعة الحال إلى واقع أو كما يقول إقبال، الدين أمر ممكن أو كما يقول محمد عبده، الوحي ممكن الوقوع. مهمة الدولة تحقيق الروحانية في المجتمع. قلد الحزب الوطني التركي الغرب في فصله بين الدين والدولة. ويعني في الغرب الكنيسة والدولة. والإسلام ليس به كنيسة⁽²⁾.

وفي مقابل ذلك، نادى حزب الإصلاح الديني بزعامة سعيد حليم بالجمع بين المثالية والواقعية. فالحقائق الأزلية لها رصيدها في المجتمع في الحرية والمساواة والتضامن، دون الانتساب إلى وطن أو قوم. وقد مارس المجلس الوطني الكبير حق الاجتهاد. وفيما يتعلق بنظام الخلافة، الخلافة ضرورية لا ريب فيها،

(1) السابق، ص 171 - 176.

(2) السابق، ص 176 - 188.

ضرورة النظام السياسي للمجتمع. إنما السؤال هو هل تكون الخلافة ممثلة بالضرورة في فرد أم قد تكون في جماعة أو في مجلس منتخب؟ المجلس المنتخب هو ما قرره حزب الإصلاح في تركيا. وهو رأي يتفق مع روح الإسلام. ولا يرفضه ابن خلدون. إذ يورد ثلاثة آراء مختلفة في الموضوع: الأول، أن الإمامة نظام شرعي. والثاني، أن الوجوب عقلي لضرورة الاجتماع. والثالث، أن الإمامة ليست ضرورية وهو رأي الخوارج. وقد أخذ الأتراك الرأي الثاني وهو رأي المعتزلة. وقد أسقط الباقلائي من قبل شرط القرشية. كما عبر ضيا الشاعر الوطني العظيم عن نفس الرأي. تستقل البلاد الإسلامية أولاً. ثم ترتبط فيما بينها بسلطان واحد يقيم نظاماً عصرياً لأن الضعيف يطمع فيه الناس، والقوي يهابه الجميع. فالإسلام ليس رابطة قومية بل وجدانية. الدين هو العلم والفلسفة. ولا يتناقض معهما. ويجوز الأذان والصلاة باللغة التركية كما أجازها لوثر باللغة الألمانية وليس باللاتينية وحدها. وقد أمر محمد بن تومرت ترجمة القرآن إلى اللغة البربرية حتى يفهمه الناس. كما أعلن الشاعر مساواة المرأة للرجل من أجل حفظ كيان الأسرة التي تقوم على العدل. وتشمل المساواة الطلاق والانفصال والميراث. تركيا نموذج التحديث في العالم الإسلامي والإصلاح الواقعي فيه. حرية الفكر في الإسلام ضرورية، وكذلك النظرة الإنسانية العامة. ويمر المسلمون الآن بفترة مشابهة للإصلاح البروتستانتي في أوروبا، وإحلال الروح القومية محل الروح المسيحية الشاملة.

والشريعة الإسلامية متطورة بطبيعتها. فالمصادر الأربعة للتشريع متطورة فيما بينها، فأخذ الزمان بعين الاعتبار، من القرآن إلى السنة، إلى الإجماع إلى القياس. القرآن في زمن محدود، والسنة في زمن أطول. والإجماع لكل عصر. والاجتهاد ممتد إلى يوم الدين. بل يمتد السؤال إلى باقي العلوم الإسلامية، الكلام والتصوف والفلسفة. كل شئ يتطور بما في ذلك الثقافة مما يدل على مرونة التفكير الإسلامي. وهي أكثر ظهوراً في ميدان التشريع. وتدل على ذلك مؤلفات الفقه والشريعة. ونظراً لغياب دراسة نقدية للفقه، لم يعرف أحد مدى التغيير والخلافات المذهبية فيه. ويبيدي إقبال ثلاث ملاحظات: الأولى، لم يدون منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية إلا القرآن، والثاني، ظهر منذ منتصف القرن الأول حتى أول القرن الرابع حوالي عشر مدارس للفقه. والثالث، تدل المصادر الأربعة

للتشريع على قيامها على مفهوم التطور وهي⁽¹⁾:

1 - القرآن: ورؤيته للكون متغيراً. والعقيدة مجرد منه على التشريع. فالقرآن عقيدة وشريعة، تصور ونظام. حكم القرآن المتغير مطابق لحكم الواقع المتغير. وهو أيضاً رأي الشاعر التركي حنيا. مقاصد الشريعة ابتداء كما حددها الشاطبي هي ثوابت الشريعة: الحفاظ على الحياة (النفس)، والعقل، والدين، والعرض (النسل) والمال. ربما لم يعلم الشاعر حنيا وضع المرأة في الإسلام. فالزواج عنده عقد مدني. وللمرأة أن تشتترط حق العصمة في يدها. والتوريث وحدته الأسرة وليس الفرد⁽²⁾.

2 - الحديث: وقد خضع لمناهج دقيقة للرواية وشروط صعبة للخبر المتواتر. والأحاديث التي تتضمن أحكاماً تشريعية صحيحة في روايتها. أما غيرها فليست مصدراً للتشريع. ولم يستعملها أبو حنيفة. بل أدخل مبدأ «الاستحسان» في الفقه. وهو أحد أشكال القياس الحر الذي يعتمد على البديهة والذوق السليم. وكانت مجموعات الحديث لعبد الملك والزهري موجودة من قبل. لذلك لم يجمعها أبو حنيفة كما فعل أحمد⁽³⁾.

3 - الإجماع: ويتعارض مع سلطة الحاكم المطلق ومصالحه السياسية. وهو مصدر الروح الجمهوري. لا ينسخ الإجماع القرآن. ويمكن تجنب الخطأ في التشريع عن طريق تأليف هيئة مستقلة من العلماء، أهل الدراية بالدنيا والدين، مما يستدعي تغيير نظام التعليم من أجل تخريج علماء عصريين⁽⁴⁾.

4 - القياس: وهو الاستدلال عن طريق التشابه بين الحالات. وكان استعمال العقل ضرورياً للاستنباط من النص خاصة بعد ترجمة منطق أرسطو كأداة للاستدلال. ويرجع الفضل في ذلك لأبي حنيفة⁽⁵⁾.

(1) السابق، ص 188 - 190.

(2) السابق، ص 190 - 196.

(3) السابق، ص 196 - 199.

(4) السابق، ص 199 - 203.

(5) السابق، ص 203 - 208.

وعلى هذا النحو، ليس في الشريعة ولا في مصادرها ما يدعو إلى الجمود بل فيهما ما يدفع نحو التجديد والتفاعل مع تحديات العصر. فالإنسانية اليوم تحتاج إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية لتطوير المجتمع الإنساني. ولا يكفي لذلك التفكير المجرد بل الإيمان الصادق. وإن معنى خاتم النبوة هو التأكيد على حرية الفرد والجماعة واستقلال الشعوب، وتأسيس الديمقراطية الروحية. وهي منتهى الإسلام ومقصده⁽¹⁾.

وإذا كان الدين يقوم على العقل والتجربة، ويدفع نحو التطور، يكون تحققه ممكناً. فالدين أمر ممكن⁽²⁾. وتنقسم الحياة الدينية على وجه العموم إلى ثلاثة أطوار: طور الإيمان، وطور الفكر، وطور الاستكشاف. في الطور الأول تخضع الحياة الدينية إلى نظام معين خضوعاً مطلقاً دون تحكيم العقل. قد يساعد ذلك على تقوية الشعوب، ولكنه لا يساعد على رقيها الحضاري. وفي الطور الثاني يفهم العقل مقاصد النظام وأهدافه. وقد يبحث في ذات الله. وفي الطور الثالث يحل علم النفس محل الميتافيزيقا، ويطمح الإنسان إلى الاتصال بالحقبة القصوى. ويصبح الدين مسألة شخصية. ويكتسب الفردية حرية في الفهم والسلوك. ويكتشف أبعاد التجربة في أعماق الشعور. ويفهم القرآن كما نزل على النبي. الطور الأول الفقه. والثاني الفلسفة. والثالث التصوف، وإن كان اللفظ سيء الحظ. وممن اختار هذا الطريق ابن عربي والشاعر العراقي وغيرهم⁽³⁾.

لذلك يضر الجمود بالدين. ويقضي على حرياته الإبداعية. ويعوق التقدم الروحي. وعجزت الطرق الصوفية المتأخرة عن القيام بهذا الدور نظراً لعزلتها عن الحياة الاجتماعية. فغاية الحياة الدينية كشف الذات ونموها⁽⁴⁾.

(1) ليس في أصول شريعتنا ولا في بناء مذاهبنا كما نجدتها اليوم ما يسوّغ النزعة الحاضرة، وإن العالم الإسلامي وهو مزود بتفكير عميق نفاذ وتجارب جديدة يتفق عليه أن يقوم في شجاعة على أثر التجديد الذي ينتظره. على أن لهذا التجديد ناحية أعظم شأنًا من مجرد الملاءمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها...، السابق، ص 206 - 207.

(2) السابق، ص 209 - 227.

(3) السابق، ص 209 - 211.

(4) السابق، ص 211 - 212.

3 - الفلسفة الحديثة

وتدور الفلسفة الحديثة في سياق تاريخي. فلا يمكن الفصل بين تقدم الفكر ومراحل النشاط الإنساني. ويخبرنا تاريخ الفلسفة كيف فكرت الشعوب المختلفة ولكنها لا تعطي الأسباب الاجتماعية والسياسية. صحيح أن كتابة تاريخ كامل للفلسفة مهمة جلية. ولا يستطيع لاهوتي بمفرده أن يكشف لقرائه المضمون الفني للإصلاح عند لوثر نظراً لميلنا إلى عزل الأفكار من السياق العام للنشاط الذهني الإنساني⁽¹⁾، يموت الأفراد، وتنقرض من الشعوب ولكن أفكارهم خالدة. وهم الأطفال الذين يتركونهم وراءهم⁽²⁾. والتاريخ أخلاق تطبيقية. وإذا كانت الأخلاق تجريبية فإنها تقوم على كشف التجارب الإنسانية. قد يغضب البعض لذلك ولكن سلوك البشر خاضع لتجارب التاريخ⁽³⁾. التاريخ نوع من «المجراموفون» الكبير يحفظ أصوات الشعوب⁽⁴⁾. وإذا كانت الفلسفة منطق الحق فإن التاريخ منطق القوة. وتبدو مدافع منطق القوة أقوى من منطق الحق⁽⁵⁾. التاريخ تفسير للبواعث الإنسانية. قد يخطئ في تفسير بواعث المعاصرين وحتى أصدقائنا المقربين ومساعدينا في الحياة اليومية. والأولى أن يكون من الصعب تفسير بواعث الذين عاشوا قبلنا تفسيراً صحيحاً. لذلك يقبل تدوين التاريخ بحذر شديد⁽⁶⁾. وللتاريخ قانونه الذي يتحكم في صراعه المستمر بين القوي والضعيف، بين من ينتج بذهنه ومن ينقل⁽⁷⁾. وقد أفرزت الفلسفة الحديثة في الغرب عدة اتجاهات أهمها⁽⁸⁾:

- (1) St. Ref., pp. 60 - 1.
- (2) Ibid., p. 69.
- (3) Ibid., p. 21.
- (4) Ibid., p. 107.
- (5) Ibid., p. 39.
- (6) Ibid., p. 86.
- (7) Ibid., p. 89.
- (8) تكرار أسماء الأعلام في «أفكار هائمة Stray Reflections» كالآتي: جوتة (9)، المسيح (5)، أورانجرب (4)، بودا، أفلاطون، كانط، جوتة (3)، أرسطو، هوراس، ماثيو أرنولد، بديل (ميرزا عبد القادر)، غاليد، مونتاني، محمد، نيتشه، آزاد، شكسبير (12)، وآخرون مرة واحدة مثل: أكبر، ألكسندر، بيكون، بروننج، حافظ، هاينه، لسنج، ليبنتز، لوثر، مازيني، المتنبي، نابليون، بوب، رينان، الرومي، اسبينوزا، فولتير، أوسكار وايلد، وردزورث، فوندد... إلخ (1).

أ - المنهج التجريبي: ويقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي. فقد ظل التاريخ الإسلامي راكداً في القرون الخمسة الأخيرة. وكان الغرب قد بدأ في النهوض ابتداء من ترجمة العلوم الإسلامية قبل ذلك. وأغرب شيء هو نزعة المسلمين الآن تقليد الغرب. ولا ضير في ذلك. فتلك بضاعتنا ردت إلينا. إنما الخشية هو الانبهار بالغرب الذي يشل التفكير ويعيق التقدم. سيطرت أوروبا على الطبيعة بفضل علومنا التجريبية التي أبدعناها⁽¹⁾. لذلك من الضروري أن يستقل الشباب في آسيا وأفريقيا عن النظرة الأوروبية، خاصة. وقد انتشرت في أواسط آسيا دعوة ضد الدين عامة والإسلام خاصة من أبناء المسلمين مثل الشاعر التركي توفيق فكرت. ليست أوروبا بالمثل الأعلى الذي يمكن الاحتذاء به، بل هي الآن في أسوأ أحوالها، وربما في نهايتها. إنما المسلم الجديد هو القادر على استئناف رسالتها⁽²⁾.

والزعم بأن أوروبا هي التي وضعت المنهج التجريبي زعم خاطئ. وإن آراء روجر بيكون R. Bacon عن التجربة مستقاة من آراء المسلمين قبل أن يتم تنظيمها من فرنسيس بيكون F. Bacon. لقد تعلم روجر بيكون في الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخامس من كتابه Corpus Maius عن البصريات نقل من كتاب «المناظر» لابن الهيثم. وقد تأثر بابن حزم. كذلك تعلمت أوروبا المنهج العلمي من المسلمين. واعترف بذلك مؤرخوها المتصوفة مثل بريفاو Brifault في كتابه تكوين الإنسانية Making of Humanity. فقد درس بيكون اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على أساتذة كانوا تلاميذ العرب في الأندلس. وهو ما فاق به العرب اليونان. فالمحسوس المتناهي مصدر العلم. والتجربة والملاحظة طريقه. عرف اليونان التناسب وليس اللانهاية. بينما عرف العرب المتناهي من أجل الوصول إلى اللامتناهي. لذلك لم تنتشر نظرية الجوهر الفرد من ديموقريطس بسبب رفض الأشاعرة لها. وكان البيروني أول من بحث الدال في الرياضيات التي أصبحت فيما بعد رمز ثقافة الغرب. واكتشف الأعداد الزمنية، كما

(1) السابق، ص 13 - 15.

(2) «إن مثالية أوروبا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة في وجودها. ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح. وكل مهما استغلال الفقير لصالح الغني. وصدقوني إن أوروبا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرفي الأخلاقي للإنسان». السابق، ص 207.

لاحظ اشبنجلر⁽¹⁾. واعتمد عليه نيوتن لاستكمال الدوال المركبة. واستحدث الخوارزمي الرياضيات بالانتقال من الحساب إلى الجبر، واختراع حساب التفاضل والتكامل. ووضع جدول «اللوغاريتمات». وأراد هيوم تحرير العلم التجريبي من أي أثر خارجي. ثم أكمل أينشتين ما بدأه هيوم⁽²⁾. ولا يوجد شيء عام مشترك بين الناس مثل الوقائع العامة التي لم يرها الناس حتى أتى بكون ليفتح عيونهم عليها مع أنها كانت نصب أعين المسلمين، دون الوقوع في التجريبية الجذرية⁽³⁾. فالآخر وليس أنا هو الذي نجح في الحياة. والشخصية الإنسانية مستقلة عن الجهاز العصبي ومراكز الإحساس في المخ كما هو الحال عند برجسون⁽⁴⁾. يعتمد العلم على الميتافيزيقا. فلا يسخر العلم من الميتافيزيقا لأن أول من أعطى العلم فكرة المادة هو ليبنتز. فالجوهر لديه قوة أو مقاومة. ثم استعار العلم هذه الفكرة من الميتافيزيقا. ودرس سلوك القوة التي يمكن اكتشاف نفسها بنفسها⁽⁵⁾. وقد لعب العلم مع الميتافيزيقا دور «الاستغماية». كل منهما يخبيئ نفسه وراء حجر الآخر⁽⁶⁾. وإذا كان العلم يشعر الإنسان بضآلته فإن الميتافيزيقا تشعره بعظمته. فعندما رأى مذبذب هالي في أول مايو 1910 وهو ما يحدث مرة كل خمسة وسبعين عاماً سابحاً في الفضاء، وهو ما سيراه الأحفاد، شعر بضآلته وحدوده. ولم يعد لديه أي طموح إنساني⁽⁷⁾.

ب - الإيمان الفلسفي: ويميل إقبال إلى ديكارت وكانط في عرض الدليل الانطولوجي على وجود الله بين إثبات ديكارت له عن طريق استنباط الوجود من الكمال ونفي كانط لأن الوجود لا يستنبط من الفكر وإلا كان زيادة ثروة عن طريق إضافة بعض الأصفار إلى اليسار⁽⁸⁾. كما يظهر ديكارت كفيلسوف حديث يثبت تميز

(1) السابق، ص 148 - 151.

(2) السابق، ص 224 - 225.

(3) St. Ref., p. 147.

(4) Ibid., p. 111.

(5) Ibid., p. 58.

(6) Ibid., p. 58 لعبة الاستغماية Hide and Seek.

(7) Ibid., p. 12 - 3.

(8) السابق، ص 38 - 39.

النفس عن البدن واستقلالها عنه كما يقول المسلمون⁽¹⁾. في حين أكد ليبنتز الانسجام المسبق. وحاول بعض العقليين مثل ليبنتز وهاملتون اكتشاف البعد العقلي في الدين⁽²⁾. وبين لانج Lange في الانفعال الوجداني أن الجسد هو البادئ بالتأثير المتبادل وهو مما يثير الشك. إذ أحياناً تكون النفس هي البادئة.

ويعتمد إقبال على فارنل Farnell في حديثه عن صفات الله، وبيان أن تاريخ الدين يكشف عن أحوال الفكر واتجاهه إلى وحدة الوجود، وإن لم يوفق في وصف الذات الإلهية بالنور اعتماداً على القرآن⁽³⁾.

ودعوة الغزالي مثل دعوة كانط في القرن الثامن عشر للمذهب العقلي الحليف للدين. ثم تبين له أنه لا يمكن البرهنة على العقيدة. فلم تعد مقدسة. ثم ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق. وبالتالي أدى المذهب العقلي إلى الإلحاد. كما كشف كتاب «نقد العقل الخالص» عن قصور العقل الإنساني. فهدم ما بناه كانط من قبل. وهي نفس النتيجة التي انتهى إليها الغزالي بعد قضائه على المذهب العقلي. وإذا كان كانط لم يستطع إثبات أن معرفة الله ممكنة فإن الغزالي اتجه نحو الرياضة الصوفية، وبالتالي أثبت الدين مستقلاً عن العلم والميتافيزيقا. وهذا عرض غير دقيق. فقد ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق كرد فعل على أخلاق الواجب. ولم يؤد المذهب العقلي إلى الإلحاد بل إلى الإيمان بالشيء في ذاته وهي الإرادة الحرة أو الأمر المطلق⁽⁴⁾. وفات الغزالي وكانط إدراك أن الفكر يتخطى حدوده. وهو أقرب إلى موقف هيجل⁽⁵⁾. والزمان المتجدد عند كانط هو جوهر العلية⁽⁶⁾. وخطأ كانط في تصويره للنفس هو أنه وضع خلودها وفناءها من نقائص العقل. وقد رد عليه Laird بأن هذا التناقض ينشئ عالماً جديداً. والتجارب كيفيات تجعل الشعور بالنفس شعوراً روحانياً⁽⁷⁾. والحجج التي قدمها كانط على خلود النفس

(1) السابق، ص 119 - 120.

(2) السابق، ص 219.

(3) السابق، ص 76.

(4) السابق، ص 10 - 11.

(5) السابق، ص 13.

(6) السابق، ص 49.

(7) السابق، ص 115 - 116.

حجج أخلاقية أي نوع من الإيمان بمقتضيات العدالة. إذ يعجز العقل عن إثبات الخلود. في حين يشد الإنسان الخير ويسعى إليه. ويشمل الخير الفضيلة والسعادة، ويرمز إليها بالواجب⁽¹⁾.

وكان كانط هو أول من تساءل: هل الميتافيزيقا ممكنة؟ الظاهر ممكن معرفته أما الشيء في ذاته فهو موضوع تصديق وهي ثنائية يصعب قبولها.

كان الهدف الرئيسي للقرآن هو إيقاظ شعور أسمى بين الخالق والكون في نفس الإنسان. وهو الذي جعل جوته يعتبر الإسلام قوة مهذبة مؤدبة كما صرح بذلك إكرمان⁽²⁾. ويستشهد إقبال بأبيات من شعره لإثبات أن الحقيقة الأولى مبدعة ذات نظام معقول. وتفسير الحياة ذاتاً ليس وقوعاً في التشبيه بل تسليماً بالواقع البديهي بأن الوجود ليس غائماً بل هو نسق منظم، نشاط تركيب يربط بين العناصر الحية من أجل البناء. خطورة الفكر أنه حجاب على الحياة. وهي تيار جارف يعم جميع الأشياء. لذلك يؤدي المذهب العقلي إلى جعل الله هو الكل أي إلى وحدة الوجود. والمعرفة المباشرة منبعثة من داخل النفس. وتكشف البداهة الحياة بوصفها ذاتاً مركزة. هذه المعرفة كشف مباشر للحقيقة. تثبت التجربة أن ماهية الحقيقة ماهية روحية أي ذات. والدين أسمى في الفلسفة. الفلسفة نظر عقلي في الأشياء. في حين أن الدين يذهب أبعد من ذلك. يغوص داخل النفس دون أن يعلو بفعل العقل. هو اتصال بالحقيقة أقرب وأوثق. الفلسفة نظرية مجردة، والدين تجربة حية، مشاركة واتصال أوثق. ويستطيع الفكر أن يتجاوز ذاته عن طريق حال من أحواله مثل الصلاة⁽³⁾.

(1) السابق، ص 129 - 130.

(2) السابق، ص 15.

(3) وبحر لا تحده حدود
يصب به الوجود إلى وجود
ترى الأفواس آلفاً تلاقى
لنحفظ هيكل عظم ذراه
وفي حب الحياة نرى الثريا
كما أن الثرى في الأرض يهوى
خلانق كلها تسمي كفاحاً
وبطل لنفسه أبداً بعيد
ويبقى في الزمان له خلود
وقد نهضت فليس بها بعيد
وعز على الفناء فلا يبعد
تضيء لكي يكون لها مزيد
الحياة، كلاهما رأي شديد
وتنشط في الحياة لها جهود

ويرى هالدين J. S. Haldane أن الاختلاف الرئيسي بين الكائن الحي والآلة هو الاكتفاء الذاتي في الكائن الحي في الوجود والاستمرار⁽¹⁾. وفكرة أن الحقيقة روحية في جوهرها وأنها على درجات كما يصفها السهروردي موجودة في العصر الحديث على أوسع نطاق عند هالدين في كتابه «مملكة الشبيه» وعند هيجل أيضاً⁽²⁾. ويرى دريش Driesch عالم الأحياء أن الحياة وحدة واقعية كاملة⁽³⁾.

وقد أدى مذهب فوريد إلى الدين خدمة لا تقدر بثمن باستبعاد ما يزيفه الشيطان عما هو متصل بالله بالرغم من غياب الحجج المقنعة على ذلك. فإن كانت الميول الشاردة غير موجودة في الأحلام أو في أوقات الوعي فإنها لا تبقى حية في اللاوعي. وتنبق بين الحين والآخر إلى منطقة الوعي⁽⁴⁾.

وإثبات العلم الإلهي المطلق يشير مشكلة الشر في العالم كما عرضها ناومان Nauman في كتابه «رسائل في الدين». فمعرفة الكون تثبت وجود إله ذي قوة وقدرة تبعث الحياة أو الموت، ويولد خلق الكفاح في سبيل الوجود⁽⁵⁾. ويقول إن المسيحية لم تحفل بقيام دولة أو وضع تشريع. فقد ظهرت في الإمبراطورية الرومانية التي كفت المجتمع تشريعاته. في حين أن الإسلام جمع بين الدين والدولة كما فعل أفلاطون في محاورة «الجمهورية»⁽⁶⁾.

ويأسف برنجل - باتيسون Pringle - Pattison على أن اللغة الإنجليزية ليس بها إلا لفظ واحد هو «الحق» ولا يوجد بها لفظ آخر يعبر عن «الأمر»⁽⁷⁾.

وكما قدم الأمويون عقيدة القضاء والقدر لتسويغ حكمهم التسلطي كذلك قدم الفلاسفة تسويغاً عقلياً للنظام الرأسمالي باعتباره أكمل نظام اجتماعي. كما جعل

= وكل كفاحها سلم وأمن ورضوان من الله أبعد
السابق، ص 73 - 74. (ترجمة مهدي علام).

(1) السابق، ص 53 - .

(2) السابق، ص 85.

(3) السابق، ص 54 - 55.

(4) السابق، ص 32 - 34.

(5) السابق، ص 95.

(6) السابق، ص 191.

(7) السابق، ص 118.

هيجل العقل واقعاً والواقع عقلاً بالرغم من قوله بلا نهائية العقل. ورأي أوجست كومت أن وظيفة كل عضو في المجتمع قد حُددت منذ الأزل⁽¹⁾.

ويتفائل بروننج Browning. فالعالم على خير حال. على عكس شوبنهاور المتشائم. فالعالم تنصرف فيه إرادة عمياء في صور لا تتناهى من المخلوقات الحية، تحيا وتفنئ إلى الأبد⁽²⁾.

وقدم برادلي أفضل دليل في تاريخ الفكر الحديث على استحالة إنكار حقيقة النفس. ففي كتابه «دراسات أخلاقية» يفترض حقيقة النفس. وفي كتابه الآخر «المنطق» يعتبر النفس فرضاً عملياً، صحيح النتائج، ولم يقم على برهان. وفي كتابه «الحقيقة والمظهر» يجعل النفس موضوعاً للبحث العميق، وينتهي إلى شيء قريب من الأوبانيشاد عن بطلان حقيقة النفس الإنسانية. وينقد إقبال الخلط والتشويش عند برادلي مما أدها إلى التسليم بحقيقة النفس كرها⁽³⁾.

ويذهب اشبنجلر في كتابه المشهور «أفول الغرب» بأن الإسلام ينكر النفس إنكاراً تاماً، وأن عقيدة القضاء والقدر منبثة في ثنايا القرآن كله. ويرى إقبال أن القرآن لا يقوم على تصور عليّ للأفعال بل على تصور حيوي. الحياة طفرة، وهي حياة الإيمان. وهي طمأنينة تتولد عند العظام والأبطال مثل نابليون⁽⁴⁾.

وفي الفصل الذي عقده اشبنجلر عن «الثقافة العربية» فتح آفاق التفكير، ولكن على فهم خاطئ لحقيقة الإسلام كحركة في التاريخ. فالثقافات لديه دوائر منعزلة لا يتصل بعضها ببعض الآخر. ولكل روحها وخاصيتها. الحضارة الأوربية معارضة لحضارة القدماء. وتلك عبقريتها، المعاداة للقديم، وليس من تأثرها بالحضارة الإسلامية. وهي ثقافة مجوسية في روحها وطبيعتها. وهو رأي صحيح. والحقيقة أن هذا الطابع نشأ من ثورة الإسلام على القديم. ويسمي اليهودية والدين الكلداني القديم والمسيحية والزرادشتية والإسلام مجموعة الأديان «المجوسية». وهو خطأ فادح يجهل حقيقة الإسلام وفلسفة الذات. وسبب خطئه أن المجوسية

(1) السابق، ص 128.

(2) السابق، ص 95.

(3) السابق، ص 112 - .

(4) السابق، ص 125 - 127.

تقوم على الصراع بين الخير والشر. وهو موجود في باقي الديانات القديمة⁽¹⁾.

ورأي ابن رشد في خلود العقل الكلي مثل رأي رينان في خلود الإنسانية والحضارة⁽²⁾. ويشبه رأي القرآن في الخلود. ويرى هلمهولتز Helmholtz أنه إمكانية تحقق. فالتهيج العصبي لديه يستغرق وقتاً كي يصل إلى الشعور⁽³⁾.

وقد أكد الفكر الغربي الحديث مفهوم الخلود في نظرية «الوجود الأبدي» عند نيتشه. وكانت الفكرة قد شاعت من قبل. ويخالف نيتشه تصور كانط وشوبنهاور للزمان. فالزمان لا يمكن تصوره إلا في شكل دورات. فالدائرة، كما لاحظ ابن رشد من قبل في الجمع بين القدم والحدث، متناهية من حيث الشكل والمكان لا متناهية من حيث الحركة والزمان. فنظام الحوادث في الكون نظام ثابت لا يتغير⁽⁴⁾.

ولا يمكن تجاهل الميتافيزيقا وجعلها كما يريد نيتشه «لعبة مشروع للكبار» أو لانجه Lange «صورة من الشعر سائغة». إذ يعتمد عليها الخبير بالدين. ولا يعتبره أكذوبة كبرى أو مجرد فرض يضبط به الفكر والسلوك لحث الإنسان على السعي والكد والكفاح. مغامرات العلم لا خطر فيها. أما مغامرات الدين فقد تؤدي إلى الهلاك⁽⁵⁾. ولا يستبعد نيتشه أن الإنسان الأسمى سيكون نهاية التطور. بل الإنسان قادر على أن يتجاوز مصطلحاته العلمية بما يشعر به من رغبة في التجاوز. ودون ذلك تقع الإنسانية في الفلسفة المادية التي تقضي عليها كما لاحظ هكسلي Huxley.

ويصف نيتشه الوطنية والقومية بأنها أمراض وحماقات تعادي الثقافة. وهي الأمراض التي أصابت المسلم العصري في تركيا ومصر وإيران⁽⁶⁾. كان موهوباً في علم النفس الديني، ولكنه فشل لتأثره بأسلافه من المفكرين مثل شوبنهاور وداروين ولانج⁽⁷⁾.

(1) السابق، ص 164 - 166.

(2) السابق، ص 129.

(3) السابق، ص 137.

(4) السابق، ص 131 - 133.

(5) السابق، ص 212.

(6) السابق، ص 215 - 216.

(7) السابق، ص 223 - 242.

جـ - الإيمان الصوفي: يعتمد إقبال على تحليلات هوننج للشعور الديني وعلاقته بالعقل. فالعقل جزء من الشعور وليس مستقلاً عنه. ومن ثم لا مسوغ لنقد الصوفية للعقل. وهو ما يرجع إلى الخلاف الكلامي القديم عن خلق القرآن وأنه «معني في النفس»⁽¹⁾. يرى هوننج أن الولي لا يحصل على الإلهام إلا إذا كانت روحه مستعدة لاستقبال الأبدية. وهذا هو طريق الولاية أو النبوة⁽²⁾.

ولا يعرف ماكدونالد شيئاً عن الاختلاف النفساني الجوهرى بين الوعي الصوفي والوعي النبوي. ويتندر على الوعي النبوي في «جمعية البحوث الروحانية». ولو أنه فهم روح القرآن لأدرك كيف انتهى المسلمون إلى النزعة التجريبية⁽³⁾.

ويعتمد إقبال على برجسون في التأكيد على أن الفكر والبداهة قرينان. بل إن البداهة ليست إلا ضرباً عالياً من التفكير⁽⁴⁾. وقد انفرد بدراسة الديمومة. فالزمان كيف وليس مجموعة من اللحظات أو الذرات كما هو الحال عند ديموقريطس⁽⁵⁾. والغائية مفتوحة على المستقبل. وهي العلة الفاعلة بالأصالة. ربما أخطأ برجسون في اعتبار الزمان الخالص سابقاً على النفس التي منها تنبثق الديمومة الخالصة⁽⁶⁾. كما يعتمد إقبال على برجسون في تحديد مفهوم الفرد في كتابه «التطور الخالق». فالفردية هي أساس تطور الكائنات الحية، خروج الفرد من الجماعة حتى الوصول إلى الفرد المطلق، الصوفي أو النبي، البطل أو الإله⁽⁷⁾.

وكان لوليم جيمس في كتابه «أنواع الخبرات الدينية» نظرات نفسية قيمة لتحليل الوعي الصوفي. فبعض أنواع الرسائل يحمل طابع الشخص البالغ مثل الغيبوبة والتوبات العصبية⁽⁸⁾. والصلاة عبادة، والناس سيصلون إلى آخر الزمان.

(1) السابق، ص 29 - 30.

(2) السابق، ص 34 - 35.

(3) السابق، ص 25 - .

(4) السابق، ص 7.

(5) السابق، ص 57 - 58 / 62 - 63 / 65.

(6) السابق، ص 67.

(7) السابق، ص 75.

(8) السابق، ص 25 / 31 - 32.

والدافع على ذلك أن الصلاة نتيجة ضرورية من أن النفس الإنسانية بالرغم من اتجاهها الاجتماعي إلا أنها في حاجة إلى رفيق أعظم في عالم مثالي. وهو أيضاً موقف الأفلاطونية المحدثة وتأويلاتها عند المسلمين أو المسيحيين. فهي تكمله للنشاط العقلي. وهو ما أكده الرومي في صلاة الصوفية النابعة من القلب، وليست صلاة الجوارح عند الفقهاء⁽¹⁾. والشعور تيار جارف من الفكر، تدفق واع من التغيرات المتصلة. وكلها تكون النفس لإثبات وجودها واستقلالها عن البدن خلود⁽²⁾. ورأي ابن رشد في خلود النفس يشبه رأي وليم جيمس القائل بوجود آلية صورية في الوعي تؤثر في وسيط من الجسم عندما تتخلى عنه⁽³⁾.

وعند رويس الحالة الصوفية علاقة متبادلة بين الشيخ والمريد. وهو أمر لا يقاس كمياً⁽⁴⁾. ويشبه رأي جلال الدين دواني في فقرة من كتابه «زورا» عن الزمان رأي رويس. فلو كان الزمان نوعاً من الامتداد لكان ظهور الحوادث ممكناً بوصفها ركباً يتحرك. يسير وكأن هذا الامتداد وحدة. إلا أنه ليس حالة أصيلة من أحوال القدرة الإلهية، تحيط بأحوالها المتعاقبة. ويزيد جلال الدين بأن هذه الحالات تتلاشى في الله لأن علمه يحيط بكل شيء. وهو أيضاً رأي الشاعر العراقي. وقد فصل الرازي في «المباحث المشرقية» موضوع الزمان. وهو نفس رأي ميرداماد وملا باقر. وهو نشأة لازمان مع الخلق⁽⁵⁾.

ويعتمد إقبال على تعريف هوايتد للدين بما يتفق مع التعريف الإيماني الصوفي. وهو أنه نظام مجموعة من الحقائق العامة لها تأثير في تكييف الخلق إذا صدق الاعتقاد بها، وفهمت فهماً واضحاً. وعصر الإيمان هو عصر الإيمان العقلي⁽⁶⁾.

د. الإيمان العلمي: رفض هوايتهد النظرية المادية القديمة. فما لا يدركه

(1) السابق، ص 104 - 105.

(2) السابق، ص 117.

(3) السابق، ص 129.

(4) السابق، ص 17.

(5) السابق، ص 89 - 92.

(6) السابق، ص 6.

الحس فراغ مطلق. ليست الطبيعة شيئاً قاراً يقوم في خلاء لا حركة فيه، بل هي عملية متدفقة دائمة، يقسمها الفكر إلى وحدات منعزلة. وهو نفس موقف برجسون. وقد ارتبط التصور القديم بنيوتن الذي تصور الفضاء خلاء مطلقاً تقوم فيه الأشياء. وفي عرض هويته لنظرية أينشتين أصل فكرة المركب محل فكرة المادة إحصائياً تاماً⁽¹⁾. ويقول هويته في كتابه «العلم والعالم الحديث» أن أفضل التفسيرات هو أن الإلكترون لا يتحرك حركة متصلة في محله⁽²⁾. كان هويته أقرب إلى المسلمين من أينشتين في تصورهما للنسبية. فهي حية عند الأول، وأكثر تجديداً عند الثاني⁽³⁾.

وكان بركلي أول من نقد نظرية المادة باعتبارها علة لا تُدرك حسياً⁽⁴⁾. وعند ماكس بلانك في نظريته الخاصة بمقدار الطاقة المشحونة في الذرة، يمكن تصور حركة الذرة متصلة في مجالها⁽⁵⁾.

وجاءت نظرية أينشتين بنظرة جديدة للكون. وفتحت آفاقاً جديدة للدين والفلسفة. كما أتى المسلمون بنظرة جديدة على نظرية اليونان⁽⁶⁾. وقد قوضها في نظرية النسبية⁽⁷⁾. فالمكان موجود وجوداً نسبياً. تتغير أشكاله بالنسبة للملاحظ. ويتكرر رأي نيوتن في المكان المطلق. ونظرية أينشتين نظرية علمية خالصة. تتناول بناء الأشياء دون ماهياتها. ليس الكون عند أينشتين قائماً في فراغ لا نهائي بل هو متناه بلا حدود. لا يوجد بعده خلاء. وإذا انعدمت المادة انكمش الكون إلى نقطة. عيب نظرية أينشتين أنها تؤدي إلى بطلان الزمان⁽⁸⁾. واعتبار العلم الإلهي مطلقاً سلبياً هو نوع من الفراغ الجامد الذي اتسمت به الطبيعيات قبل أينشتين. يضيف على الأشياء وحدتها. وأيده رسل. فقد أدخلت النظرية النسبية الزمان في المكان.

(1) السابق، ص 41 - 43 / 48 / 56.

(2) السابق، ص 83.

(3) السابق، ص 154.

(4) السابق، ص 41 / 43.

(5) السابق، ص 83.

(6) السابق، ص 14.

(7) السابق، ص 41 - 42 / 47 - 49.

(8) السابق، ص 93.

ولم يعد هناك جوهر كما تصوره القدماء⁽¹⁾. ونقد مثل برجسون حجج زينون على نفي الحركة بقسمتها في المكان إلى ما لا نهاية، اعتماداً على حجة كانتور في اتصال الكم الرياضي.

وقد اتهم ولدون كار Wildon Carr النظرية النسبية بأنها تؤدي بالضرورة إلى المثالية الذرية. في حين أنها تقضي فقط على الظواهر المطلقة في الطبيعة. وإذا كان العقل ثمرة التطور فإن تصور الطبيعة على نحو آلي يكون متناقضاً⁽²⁾.

ويعتبر نون Nunn أن الإطار الزماني المكاني لا يتوقف على عقل الملاحظة بل على نقطة اتصال جسمه بالعالم المادي وكما يقول هوسرل في «العالم لا يتحرك»⁽³⁾. وقد تصور أوزبنسكي، وهو من المفكرين الروس المعاصرين الزمان كبعد رابع على أنه حركة جسم ذي أبعاد ثلاثة في اتجاه خارج نفسه في كتابه Tertium Organum. ولا يختلف عن أبعاد المكان عند إقليدس ولكنه اتجاه جديد في المكان⁽⁴⁾.

وفند برجسون تصور زينون الإيلي للحركة في المكان. وجعله ينقسم إلى ما لا نهاية في حين أن الحركة في الزمان لا تنقسم. والزمان عند برجسون هو الديمومة⁽⁵⁾. ويثبت رونجيه Rongier في كتابه «الفلسفة والفيزياء» أن بالعالم طفرات مفاجئة على عكس ما تصور القدماء، وليس على مقياس محسوب. بها حالات متميزة، ولحظات متميزة مثل حياة الشعور⁽⁶⁾.

وتكشف النتائج التي توصل إليها نيوتن ودارون في ميدان التاريخ الطبيعي عن آلية تفسر الطبيعة تفسيراً كلياً وشاملاً بما في ذلك حياة الشعور⁽⁷⁾. والزمان عند نيوتن شيء في نفسه ومن طبيعته الذاتية. يتدفق بالتساوي. وهو قريب من تصور

(1) السابق، ص 43 / 45 - 49.

(2) السابق، ص 47 / 55.

(3) السابق، ص 48.

(4) السابق، ص 49 - 50.

(5) السابق، ص 44 / 49.

(6) السابق، ص 88.

(7) السابق، ص 51.

الاشاعرة في أن الزمان مجموع أناث⁽¹⁾. وقد تغيرت نظريات العلم من نيوتن إلى هيزنبرج القائل بمبدأ عدم التحدد إلى مذهب يجعل الإلهيات العقلية ممكنة كما هو الحال لدى أنصار الدين الطبيعي⁽²⁾.

وينكر ماكتاجرت McTaggart حقيقة الزمان لأن كل حادث يقع في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وقد يكون الحدث حاضراً بالنسبة لمعاصريه، وماضياً بالنسبة لنا. وقد يكون مستقبلاً بالنسبة لمن يتوقعه. وقد وافقه برود Broad على ذلك⁽³⁾. والزمان حقيقي عند أوغسطين⁽⁴⁾.

ويستشهد إقبال بكتاب «المكان والزمان والجاذبية» لإدنجتون لإثبات الخلق في الزمان والمكان من ناحية، ووجود ذات لازمانية ولا مكانية من ناحية أخرى⁽⁵⁾. وهو ما قاله أيضاً هوبسون Hopson، خضوع العالم لقوانين الجاذبية والميكانيكا والهندسة. وقد تساءل إدنجتون عن كيفية معرفة الوجه الآخر للذوات الطبيعية الجزئية، خاصة وأتينا نشعر به⁽⁶⁾.

وقد رأى صمويل الكسندر في كتابه «الزمان والمكان والألوهية» أن الله موجود بالقوة لا بالفعل، وأنه في سبيل الخروج إلى القوة. وهو تطبيق للزمان الذري على الذات الإلهية⁽⁷⁾. هناك مكان وزمان مطلقان، وكلاهما تعبير عن الألوهية. ولو أن العراقي تعمق في مفهوم الزمان لأدرك أنه هو الأهم. فالزمان عقل المكان كما يقول الكسندر. والعراقي يتصور علاقة الإله بالكون مثل علاقة الروح بالبدن. ولولا تعصب العراقي لأرسطو لوصل إلى مفهوم الزمان في العلم الحديث⁽⁸⁾.

(1) السابق، ص 87.

(2) السابق، ص 210.

(3) السابق، ص 69 - 70.

(4) السابق، ص 70.

(5) السابق، ص 79 - 80.

(6) السابق، ص 214.

(7) السابق، ص 89.

(8) السابق، ص 158 - 159.

الباب السابع

الدولة الأمة

الفصل الأول

نظام الدولة

1 - موضوع السياسة

لم يؤلف إقبال في السياسة مباشرة كما فعل في «تطور الميتافيزيقا في فارس» و«تجديد التفكير الديني في الإسلام»، لكنه له بعض الكتابات والرسائل في السياسة. معظمها خطب أُلقيت في بعض المؤتمرات واللجان السياسية تم تجميعها في عملين بالإضافة إلى رسائل إلى محمد علي جناح⁽¹⁾. السياسة تطبيق للفلسفة عامة، وللشعر خاصة، فهي جزء من الآداب. لذلك خسرت إيطاليا مازيني منظر الوحدة الإيطالية التي حققها جاريبالدي. كان تخصص مازيني الفعلي الأدب وليس السياسة. ومكسب إيطاليا ليس كثيراً بالمقارنة إلى خسارتها بانشغاله بالسياسة عن الأدب⁽²⁾. أما السياسة وحدها فلها معني سلبي عند إقبال. فهي أدوار في لعبة التيجان أي السلطة، بين الشاه والجندي⁽³⁾. السياسة بمعنى النظام هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

(1) A - Thought & Reflections of Iqbal, edited with notes by Sayed Abdul Wahid, SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.

B - Letter's and writings of Iqbal edited and compiled by B. A. Dar, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.

C - Letter's of Iqbal to Jinnah, Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

Shamloo في Speeches and Statements of Iqbal وقد جمع كثيراً منها شاملو.

ST. Ref., p. 57.

(2)

(3) نقضي السياسة أن نحدد أولاً أدوارنا في لعبة التيجان =

والحكم في هذا العصر ويسميه إقبال الحكومة رضى بين الحاكم والمحكوم. فلا المحكوم غاضب ولا الحاكم غاضب. والأمة ثابتة في مكانها خارج حلبة السعي. شغلت عقلها بما لا يفيد مثل مسألة الذات والصفات. دستورها مغلق لمجتمعات الأديرة. ليس فيه من رموز الحياة شيء. هي أمة ارتضت الراحة وارتضى الشباب فيها السكون⁽¹⁾.

وتعني «حكمة» العدل مثل حكمة «الكليم». وهي سياسة الأنبياء. وتعني حكمة فرعون الضد أي سياسة الطغاة. وهي سياسة الاستعمار، وتدميره لحياة الإنسان، والقضاء على حرّيته. فإذا كانت حكمة الأنبياء هي العدل فإن حكمة الطغاة هي حكمة المكر والخداع. تحيل الإنسان إلى حيوان عن طريق الجسد، وتسلب الروح كرامة الحياة. هي حرية مارقة تعيش في الدنيا بغير دين. والنفس فيها شاردة في أوهامها، لا تعرف الشرف أو اليقين. ووسائل التهذيب في النظام سلاسل الأسرى وأغلال العبيد. وينقاد الغلام للسيد، ولا يعرف ما يعني، وماذا يريد؟⁽²⁾.

السياسة تقنين لأشكال الحكومة. يقول السكندر بوب Alexander Pope «اترك

هذا اختبار اللاعب الشيطان
دنت على شاه بلا سلطان

ليسوا عن الحق بالعتاة
وليس للمحق بالمواتي
في حلبة السعي بالخزاة
فلسفة الذات والصفات
للخمر والشرب من ثبات
لأمة حرة السمات
المر من مورد الحياة

والمكر والخداع حكمة الطغاة
وتسلب الروح كرامة الحياة
تعيش في الدنيا بها من غير دين
لم تعرف الشوق إلى عين اليقين
سلاسل الأسرى وأغلال العبيد
فلا يرى ولا يعي ولا يريد

= لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدق
إن البيادق إن أعافت نفسها
جناح جريل، ص 542 - 543.

(1) يرضى المريدون قول حق
والشيخ قول الفقير يقلّي
قد قعدت أمة وباءت
إن شغلت عقلها ببحث
دستور ذا الدبر ليس فيه
لكنما راحت نصيب
الشهد عند الشباب فيها
ضرب الكليم، ص 54.

(2) قدّمت حكمة النبي للعيان
تبقي على الإنسان جسم الحيوان
حكمتها حرية مارقة
والنفس في أوهامها شاردة
وسائل التهذيب من هذا النظام
كما يرى السيد ينقاد الغلام
يا أمم الشرق، ص 352.

المجانين يحاربون من أجل أشكال الحكومة». ولا يوافق إقبال على رأي هذا الفيلسوف السياسي. الحكومة، بصرف النظر عن شكلها، هي إحدى القوى المحددة لشخصية الأمة. وفقدان السلطة السياسية مدمر لشخصية الأمة. ومنذ الانهيار السياسي للمسلمين في الهند وقع لهم انهيار أخلاقي سريع. ومن بين المجتمعات الإسلامية في العالم، هم أضعفهم في الشخصية⁽¹⁾.

والفلسفة لا تصمد أمام السياسة. فمهما كان الفيلسوف حكيماً يقول بالحكم العدل فإن السياسي هو الذي يحول العدل إلى ظلم، والحق إلى باطل. الفلسفة نظرية، والسياسة عملية. والعمل يجب النظر. الفلسفة أخلاقية، والسياسة لا أخلاقية. وهو الدرس المستفاد من الغرب منذ «الأمير» لميكافيلي⁽²⁾.

والحياة السياسية الحققة لا تبدأ بالمطالبة بالحقوق ولكن بالقيام بالواجبات. وقد قامت سياسة الغرب على الحقوق دون الواجبات. وفيه تم «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، وليس «الإعلان العالمي لواجبات الإنسان ومسؤولياته». وتقوم الحياة السياسية لدينا على الواجبات دون الحقوق. تفرض الدولة على المواطنين واجباتهم دون أن تعطيهم حقوقهم. وعلى هذا النحو أيضاً يتم تصور تطبيق الشريعة الإسلامية كحدود وليس كحقوق، كعقوبات وليس كإشباع للحاجات الأساسية⁽³⁾.

SR. Ref., pp. 14 - 5.

(1)

(2) لا تقيسوا فلسفياً بارعا
بسياسي وبالعدل احكموا
ذاك عين جهرت في شمسها
وجمود عين ذا لا ترحم
ذاك في الحق دليل واهن
ذا لدى الباطل قول محكم

رسالة الشرق، ص 330.

(3) وقد تم منذ عشر سنوات صياغة «الإعلان العالمي لمسؤوليات الإنسان Universal Declaration of human Responsibilities» صاغته لجنة كونها هلمولت شميت مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية السابق برئاسة هانز كنج Hans King اللاهوتي السويسري وعضوية حوالي العشرين وكنت أخذهم. ووافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة. وأصبحت لجنة «لجنة الفعل المتبادل». Inter - action Council. وقد أتت اللجنة وزارت مصر. وقابلت الرئيس منذ عدة سنوات. وطلبت اللجنة حضوري ولكن وزارة الخارجية لم توجه لي الدعوة.

2 - الدين والدولة

وفي قصيدة «شقائق النعمان في الغرب» يرفض إقبال أساطير الغرب: العلمانية والمادية والعقلانية. العلمانية ضد الدين. والمادية ضد الروحانية. والعقلانية ضد الإيمان. هي مثل شقائق النعمان (التوليب) حمراء كالنار ولكن لا تحرق. وهي كالدّم ولكن دون حيويته. لذلك يضعها البستان على هامشه. وبالرغم مما توحى به هذه القيم الجديدة من فضاءات إلا أنها قفص ضيق. هي سفر تائه، وتيه مسافر. والحقيقة لدى موسى في سيناء. أخرج الدر من الأوصال والأحوال. كابد وسعى وجاهد⁽¹⁾. وأي أسى عندما لا يتحول الدين إلى دولة أو الدولة إلى دين؟ دين بلا دولة دين ضعيف. ودولة بلا دين دولة خائرة ليس بكليهما شجاعة علي وقوة بصيرته⁽²⁾.

والعلمانية أحد أسباب الضياع. كيف يستطيع المسلم أن يطوف في الحانات يسقى وهو مخنوق بعلمانيته؟ ألم تتكون الشجرة الباسقة في السماء إلا في الطين؟ فلا تجديد بلا تراث، ولا معاصرة دون أصالة⁽³⁾.

ويستعمل إقبال اللفظين على التبادل، المشرق والشرق، والمغرب والغرب. ففي الشرق قامت دعوات علمانية مثل دعوات مصطفى كمال ورضا بلهوي، تنحرف بروح الشرق. وروح الشرق تبحث الآن عن بدن آخر تظهر فيه. والدعوة

(1) هي رُغم ما تبدي رحابة صدرها
سافرت تائهة وتهت مسافرا
وعلام أيتها الشقيقة سيمرنا
موسى غريب عن نوى ودياننا
سيناء أنت ونار وادبها أنا
من ذلك الغواص أخرج درنا
جناح جبريل، ص 509.

(2) أسفا لدين ليس يكسب دولة
من أين للاتنين كرة حيدر
السابق، ص 455.

(3) النخلة السماء أختك كونت
أنطوف في الحانات تسقى كأسها
السابق، ص 442.

إلى الذاتية دعوة لليقظة والحرية التي مازال البعض يتربص بها، ويريد القضاء عليها⁽¹⁾. وكتب قصيدة إلى مصطفى كمال في يونيو 1922. عبر فيها عن إعجابه بعزمه وإقدامه ثم انقلب عليه بعدما بدأ تقليد أوروبا. فجديده قديم أوروبا⁽²⁾.

3 - الملكية والجمهورية

ويسمى إقبال النظام الملكي أيضاً حكم الفرد أو القيصرية كما يسميه إبليس على لسان إقبال الملوكية. وحكم الفرد شر للناس جميعاً. هو حكم الطغاة والمستبدين⁽³⁾. ولا يذكر إقبال شيئاً عن الملكية الدستورية وهي الملكية المقيدة أو الملكية الليبرالية التي طالما دافع عنها المصلحون قبل الأفغاني كنظام للعالم الإسلامي أفضل من الخلافة والنظام الملكي. وهو النظام الذي حكم مصر في النصف الأول من القرن العشرين. هو النظام القيصري القديم الجديد. لقد عادت القيصرية من الإمبراطورية الرومانية إلى القيصرية الجديدة⁽⁴⁾. ولا يذكر إقبال أيضاً التشريعات الرومانية ومجالس الشيوخ التي كانت تحد من سلطة الإمبراطور.

ويحيل إقبال إلى الملكية في بريطانيا دون أن يذكر أيضاً الدستور البريطاني،

- | | |
|--|---|
| <p>(1) ونسمة الصبح روضاً تطلب الآنا
فالروح في الشرق جسماً تطلب الآنا
ذا العصر جدعاً وجلاً يطلب الآنا</p> | <p>(1) جيب الشقائق من شدوي غداً فرقا
ما مصطفى أو رضا جلي حقيقتها
وحق ذاتي عقاب غير أن لها
ضرب الكليم، ص 103.</p> |
| <p>نحن آثار على مر العصور
فمضينا نقتفي سر الدهور
فلإذا شمس على الكون تسيير
نار عشق فخنعننا في فتور
أذبلت ريع الصبا فينا الزهور
فأسمعنه اليوم في نوح الأسير
دون أشرار كما انفضت صفور
ولنا قوم وسهم في الجفير
كم أمات العزم تدبير الأمور</p> | <p>(2) أمة كانت ومن حكمتها
قد عرفنا سر تقدير مضي
شرراً كنا، أجدنا نظراً
شبخنا أطفأ في أحشائه
صرصر البیداء في فطرتنا
وعلى الأفلاك دوي صوتنا
رُبْ صيد قد أخذنا وثبة
وغدوننا يوقع الصيد بنا
كلما أمكن طرف فاركضن
رسالة الشرق، ص 302.</p> |
| <p>فمن من شره غير المضم</p> | <p>(3) وحكم الفرد شر للأنام
أرمغان حجاز، ص 441.</p> |
| | <p>(4) السابق، ص 513.</p> |

وأن ملك بريطانيا يملك ولا يحكم. ويبين كيف تعاملت بريطانيا مع الملوك الذين نصبتهم في العالم الإسلامي كي يكونوا تابعين لها وإلا عزلتهم وعينت غيرهم. لقد عزلت بريطانيا ملك الهند الطيب. فالملك في بريطانيا صنم من تراب. يحطمه العباد متى يشاءون. ويستطيع الساحر البريطاني نحت صنم آخر⁽¹⁾.

والملكية حكم الشيطان. يقول إبليس إنه عرض على الإفرنج حكم الملوكية. وحطم سحر المسجد والمعبد والكنيسة. وعلم الجهلاء درس القدر. وأعطى للغنى جنون الرأسمالية. وأثنى المستشار الأول على هذا النظام الذي علم الشعب طعم العبودية والخضوع والمذلة على جبينه. صلاتهم بلا قيام. وخلون من الأمانى. صار الصوفي والملا عبداً تاماً للملكية. كان هذا النظام مناسباً لطبع الشرق. وعلم الكلام مثل الغناء الصوفي. ولو بقيت مناسك الحج والطواف إلا أن سيف السلم أصبح كمالاً. وتحريم الجهاد دليل على اليأس⁽²⁾. فليتححرر من عمل الدنيا حتى يتحرر من امتحان كل نفس⁽³⁾.

والعبودية نتيجة للنظام الملكي الذي يقترن الإقطاع به. فالإقطاعي هو السيد. والفلاح هو العبد. والعبودية هي الموت. ولسوء الحظ، لا يفهم العبيد مكر السادة. ونظامها السياسي الملكية. غوغاء الصور حلال فيها. لذة الحشر حرام. فكيف يبحث عن مقام الذاتية في العبودية⁽⁴⁾. والنصيحة الواضحة للأمم المستعبدة أن فضاء الفلك بلا حدود لو ضاقت الأرض بها⁽⁵⁾.

وأصبحت الخلافة خاصة في العصر التركي نوعاً من حكم الفرد والنظام الملكي. الخلافة بنور النبوة تاهت وضاعت عن المسلمين وتحولت إلى ملك طبقاً للحديث الشهير «الخلافة ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود». ظن المسلمون أنهم أسمى مقاماً، ولكنهم خدعوا أنفسهم. فقد تنازعوا في الملك. ونسوا الفقر الذي كان يرى الملك حراماً⁽⁶⁾.

(1) أرمان حجاز، ص 523.

(2) السابق، ص 511.

(3) السابق، ص 531.

(4) السابق، ص 535.

(5) السابق، ص 542.

(6) بنور للنبي القلب أضرم أنار بشرقه ما كان أظلم -

والسلطان أول المتسولين على الخراج الذي يجمعه من الناس. وهو أول السارقين لأنه يجمعه لملذاته. فقد صاح في الحانة يوماً سكير ظريف. إنما السلطان شحاذ وقع. لا يجرؤ أحد أن يقترب من تاجه أو أن يلبس حريراً أو ذهباً. كأسه أحمر من دماء الناس. كل ما في قصره منهوب بقرار إثر قرار. يسرق في نور الصباح وليس في دياجي الظلام. يأخذ من الفلاحة طعام دجاجة باسم الخراج⁽¹⁾.

ويدخل العباد إلى الدير لأنهم ذو احتياج. يذكرون الله حين يتأملون من الأصنام. فالدين منفعة. ثم يكتشفون أن الصلاة لا تفيدهم، ولا عبادة الأصنام. فحظهم النواح والعويل. والعمارات تطاول الأفلاك، ولكنها خراب ظاهر. والعلم والحكمة، والسياسة والتجارة. من إبداع الملكية. ومع ذلك، هناك بقعة من الأرض حرة من عبودية التاجر الأوربي⁽²⁾.

ويبدو أن النظام الجمهوري أفضل من النظام الملكي. إلا أنه يقوم على الأغلبية والأقلية، على العد والإحصاء، وليس على وزن الناس جماعة⁽³⁾. ومع

= ولكن الخلافة وسط تيه
ونشهد أننا نسبو مقاماً
خداع كله، بل كل مكر
لفقر عظيم قوم كنت عبداً
أرمغان حجاز، ص 472.

(1) صاح في الحانة سكير ظريف
أبكم بخرج عن بزته
أبكم يصبح عريان لكي
كأسه حمراء في لون الشقيق
كل ما في قصره جمعه
ليس من يسرق في جنح الدجى
كم بذاك الحقل من فلاحة
بلغوهم أنني قلت لكم
جناح جبريل، ص 504.

السابق، ص 523 - 524.

(2) بدا السر في قولة من أريب
نظام الجماهير حكم به
ضرب الكلیم، ص 107.

(3) علة الشرق ذلة واقتداء
ونظام الجمهور في الغرب داء =

ذلك، إذا كانت علة الشرق الذلة والافتداء فإن داء الغرب نظام الجمهور⁽¹⁾. وينقد إقبال النظام الجمهوري بأنه نظام عددي لا يقوم على شحذ الهمة. فالنمل عدد، وسليمان ذو همة. وألف رأس حمار لا تساوي عقل إنسان⁽²⁾. ويتساءل المستشار الثاني عن الحكم الجمهوري خيراً أم شراً. ولا يرى غضاضة في بقاء الملكية. فما الجمهورية إلا لباس لها. فالسلطة هي السلطة. عينها على ثروات الغير. النظام الجمهوري الغربي له وجه مضيء، ولكنه من الداخل أحلك من جنكيز⁽³⁾.

4 - الديمقراطية وحق الشعب

يفضل إقبال النظام الديمقراطي الذي يقوم على الاعتراف بحق الشعوب في تقرير المصير. تميل الديمقراطية إلى تقوية روح الشريعة. وهذا شيء في حد ذاته خير. ثم تميل للأسف إلى أن تزيج الرؤية الأخلاقية الخالصة، وتوحد بين اللاشعري والخاطئ في المعنى⁽⁴⁾. الديمقراطية ليست فقط في السياسة بل أيضاً في العلم. إذ تؤثر الأفكار وتتأثر بغيرها. فنمو روح الفردية في السياسة لها أثرها على الفكر العلمي الحديث. الفكر الحديث ينظر إلى العالم باعتباره ديموقراطية الذرات الحية⁽⁵⁾.

نشأت الديمقراطية في أوروبا مغطاة بظلال من الثورة الاشتراكية، والخوف الفوضوي من الانتعاش الاقتصادي للمجتمعات الأوربية. ونيته يستنكف من قاعدة القطيع هذه. وبعد أن يأس من الدهماء فإنه يجعل المسؤول عن الثقافة في العالم تنمية أرستقراطية «السوبرمان». والسؤال هو: هل الدهماء لا أمل فيها على الإطلاق؟ أما الديمقراطية الإسلامية فلم تنم من زيادة الفرص الاقتصادية بل هي

= مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء
السابق، ص 113.

(1) تريد معنى العلى من ساقطى همم وأين للنمل إقدام السليمانى؟
فاتبع حكيماً ودع جمهورهم، أترى بألف رأس حمار عقل إنسان؟
رسالة الشرق، ص 300.

(2) أرمغان حجاز، ص 511.

(3) Th. & Ref., pp. 77 - 8.

(4) ST. Ref., p. 59.

(5) Th. & Ref., pp. 83 - 4.

مبدأً روحي قائم على أن كل إنسان مركز لقوة كامنة يمكن تنمية إمكاناتها بتربية شخصية نوعية. ومن الدهماء خرج رجال من أنبل الشخصيات المملوءة بالحياة والقوة. أليست الديمقراطية الإسلامية الأولى تفيداً تجريبياً لآراء نيتشه؟⁽¹⁾.

الخطر على الديمقراطية هي أن الأقلية هي التي تقرر مصير العالم. ويشهد تاريخ أوروبا بذلك. ويرجع ذلك لأسباب نفسية. لماذا تكون الأقلية عاملاً نشيطاً في تاريخ البشرية؟ الشخصية هي القوة الخفية التي تحدد مصير الأمم. والشخصية القوية لا تظهر في مجتمع الأغلبية. هي قوة كلما عمت ضعفت⁽²⁾. وولاة الأمر في شعب هم الذين يقدرّون مصالحه، وليس من أجل استغلال الفلاح وحرمانه مما يزرع⁽³⁾.

لذلك انتهت الديمقراطية إلى الرأسمالية في الغرب. إن الطموحات الإمبراطورية لمختلف البلاد الأوربية تبين أن الغربيين مرهقون بالديمقراطية. ورد الفعل ضد الديمقراطية في فرنسا وإنجلترا ظاهر للعيان. ومن أجل فهم هذه الظاهرة لا يقتصر جهد الباحث في العلوم السياسية على تقفي الأسباب التاريخية التي أدت إلى رد الفعل، بل يتوغل أكثر في الأسباب النفسية له⁽⁴⁾.

تعني الديمقراطية حكم الشعب بنفسه. وهي تحقق الروح للشعب. وخفقان الروح خلقها⁽⁵⁾. وإثبات الذات إثبات الشعب⁽⁶⁾. تناصر الشعوب بعضها بعضاً في

Th. & Ref., p. 79, ST. Ref., p. 54.

(1)

(2) ولاة الأمر من ربي لشعب
ولكن لا يحب الله شعباً
أرمغان حجاز، ص 460.

St. Ref., pp. 121 - 2.

(3)

(4) لهذا الشعب إنني قد خفقت
وجيز القول خير القول قالوا
أرمغان حجاز، ص 451.

(5) وذات أنت تنكرها لشعب
السابق، ص 469.

(6) الشعوب بين صفو الإخاء
إخوة، في حريها أو في المراء
جاويد نام، ص 304.

السراء أو الضراء⁽¹⁾. ومع ذلك قد يسرق شعب شعباً ويأكل طعامه. ويغني بلد على حساب بلد آخر يفقر⁽²⁾.

تقع الشعوب في الأسر. والحكم الأجنبي النزيه مستحيل. ومع ذلك قد يبدو ضرورياً. وثمان ذلك يكون أحياناً الخبز اليومي. فقد تدرب المكسيكيون بفضل الأسباب حتى تعلموا كيف يأخذون مصيرهم بأيديهم⁽³⁾.

سرقة الثروة هو ابن الطبيعة البكر. إذ لا تحب الطبيعة تراكم ثروات كبيرة في يد حفنة قليلة من الناس. وكذلك إذا ما نجح رب أسرة في جمع ثروة فإنها تتبعثر في الأجيال التالية. في حالة الطبيعة، تتوقف دورة رأس المال. فما هو صحيح للأفراد يصح أيضاً للشعوب. فإذا ما جمع شعب ثروة عن طريق الصناعة أو أي طريق آخر، قد تقف عجلة الصناعة في حين أن العمل يعتمد على دورة رأس المال. تظهر الشعوب السارقة وتصرّف الثروة المختزنة. وهناك ممثلون لهذه الشعوب، عوامل لا شعورية للطبيعة لتعدم الصناعة في العالم. وهذا ينطبق على العملات الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر⁽⁴⁾.

تولد الشعوب في قلوب الشعراء. وتزدهر وتموت في أيدي السياسيين⁽⁵⁾. فالدول صور في أذهان الشعراء. تتحول إلى واقع. فتسري عليها قوانين الحياة، النهوض والسقوط، القيام والانحلال، بفعل السياسيين. وقد تكون للخطيئة قيمة تربوية في حد ذاتها، ولكن الشعب الفاضل دائماً شعب غبي إذا ما استكان⁽⁶⁾.

- (1) كل إنسان أخاه يأكل
تتلظى الروح من هذا البلد
السابق، ص 289.

(2) ST. Ref., p. 52.

(3) Ibid., pp. 74 - 5.

(4) Th. & Ref., p. 77, ST. Ref., p. 125.

(5) ST. Ref., p. 109.

- (6) قال: يا أستاذ قل لي
أنت للإسلام شمس
قال رومسي: كل خب
لا تكن بزعم ورد
كن على حبك فخا
هل لهذا الشعب خرفك
في ضمير الكون شرقك
يرغبُ العصفور نقره
تفصف الأطفال ظهره
يمنع الحائم حوله

ويسأل إقبال هل يمكن عمل شيء لهذا الشعب؟ شمس الرومي تشرق في ضمير الكون. ويجب الرومي بأن كل حب يرعب العصفور نقره. فعلى الإنسان أن يحمي برعم ورده من أن ينزعه الأطفال، وأن يحمي حبه بفخ ينصبه يمنع من يحوم حوله، وأن يستر البرعم، ويجعل من نفسه قصاً حوله لحمايته⁽¹⁾.

كفاح الشعب هو طريق التحرر من الاستعمار. ويشيد مجدداً ثابت الأركان. يُظن به الجنون حين يتمرد على الطغيان. شعب الله يكون دائماً ظافراً في الأرض. والجنون هو حب الأوطان. وتلك شيمة المؤمن المقدام. وإذا ارتضى بالذل كفر بالله وبكرامة الأوطان. الاستعمار يؤدي إلى الردى في الدنيا. والأحرار يحيون بعد استشهادهم. يرفعون أسهمهم نحو العلا، ويقيمون راياتهم فوق قمم الجبال التي تذوب تحت أقدامهم. ثورة المجد طي الثياب كالنار يقذفها البركان. لا يعيشون أذلاء محرومين في الدنيا. عطرهم مستتر وظاهر بصرف النظر عن ألوان الربا⁽²⁾.

- (1) الشعب يبني عزه بكفاحه
ولقد يُظن به الجنون إذا بدا
ما فوق أرض الله شعب ظافر
إلا إذا عقل الجنون وإنما
المؤمن المقدام يمضي قاهراً
وإذا ارتضى للذل أمسى كافراً
من كان يدري فرق ما ينتابه
وبأن الاستعمار أسرع بالردى
وبأن نلاحرار بعد فنائهم
وهناك يرفع سهمه نحو العلا
ثم الجبال تذوب في خطواتها
كم ثورة للمجد طي ثيابه
لا يترك الدنيا تعيش وشعبه
العطر مستتر ويسري ظاهراً
لا تخدعك في الربى ألوانها
يا أمم الشرق، ص342.

- (2) فرح لأن الرأس مال ينال منه جنون طوره
ولأنه كالساحر المفضوح بعد أداء دوره
لم يبق إلا الروح تسلك وذلك الشعب العمراء
نزلت على سيناء صعدتها فلملمها حراء
جناح جبريل، ص512.

5 - الرأسمالية والاشتراكية

وبالتوازي مع الملكية والجمهورية كنظام سياسي، هناك الرأسمالية والاشتراكية التي يسميها إقبال الشيوعية. فالملكية مرتبطة بالرأسمالية كارتباط الجمهورية بالاشتراكية، حكم الفرد أو القيصرية أو الملكية لأنه يعتمد على الصفوة بتبني الرأسمالية، في حين أن الجمهورية تتبنى الاشتراكية لأنها تعتمد على حق الشعب. ومع ذلك فلكل من النظامين عيوب.

يعم الفرخ لأن الرأسمالية في تطورها وصلت إلى حد الجنون، وفُضحت بعد أداء دورها. ظهرت روح الشعوب بالرغم من أجسادها العارية. ونزلت عليها صعقة سيناء فأنقذها غار حراء⁽¹⁾. في الرأسمالية أضحي صاحب المال سليل الخليل. وبلا جبريل أصبح كالرسول. يلبس الحق بالباطل، ويؤمن بالقلب بعقل كافر. ولا وفاء لدولة الدنيا لأنها هاربة كالغزال⁽²⁾.

ويتعجب إقبال كيف أن جيرانه ندماء للأمير، وهو فوق حصيره حاسر الرأس فقير. ويجيب الرومي بأنه عليه أن يكون خادماً، حراً قلبه دون حدود، وألا يكون مجلسه من السلطان مثل بعض القروء. وأن يكون الإنسان خادماً لقلب كبير، عالم أو شاعر، خير من الطواف مع التدمان حول كعبة الأمير⁽³⁾.

ولا تنفع اقتصاديات الإحسان على التخفيف من التفاوت بين الأغنياء والفقراء في النظام الرأسمالي. ليساعد المحسن غير المحسن وليس الفقير لأن ما يعطى

(1) صاحب المال سليل لل خليل
مبطل، في الزيف حقاً يضمّر
الجسوم بالثراء سُئنت
جاويد ناه، ص 196 - 197.

(2) قال جيراني جميعاً
وأنا فوق حصيري
قال: كن خادماً حراً
لا تكن في مجلس السلطان من بعض القروء
إن تكن عبداً لإنسان له قلب كبير
هو خير من طواف بين ندماء الأمير
جناح جبريل، ص 252 - 526.

للفقير يعطى ضمنياً لمن لا يعطونه أي شيء. لذلك يبقى غير المحسن في حالة الشح والكريم يدفع له. هذه هي اقتصاديات الإحسان⁽¹⁾.

أما الشيوعية فإنها تطلب الروح بطن الجائع. والروح متميزة عن الجسد. تتساوى البطون في الكفر. ومن صميم القلب ينبع الإخاء⁽²⁾. ذلك اليهودي كارل ماركس هو الكلیم بغير تجل، والمسيح بغير صليب. ليس رسولاً ولكنه معه كتاب. كافر يخترق الستائر. صار كيوم حساب في الشرق والغرب. لا يوجد في الطبيعة فساد أكثر منه. فقد حطم العبيد خيام السادة. لا يدري ماركس طبائع الأمور بالرغم من فضحه سياسة الغرب. فقد أظهر هذا اليهودي المثير للفتن روح مزدك. وقد أصبح كل فتان مجنوناً بسببه⁽³⁾. وينقد إقبال الشيوعية في روسيا ويتهمها بالإلحاد بالطريقة التقليدية. وهو إلحاد مضاد لما أقامه القساوسة من أوثان سياسية واجتماعية ودينية⁽⁴⁾.

والحقيقة أن الرأسمالية والشيوعية بالرغم من الاختلاف في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي إلا أنهما يشتركان في نفس الرؤية للعالم، النظرة المادية الصريحة في الشيوعية والمقنعة بغلاف من الروحية في الرأسمالية. وهو الفرق بين الصدق في القول والنفاق. وإذا كان نقد إقبال للرأسمالية صحيحاً فإن نقده للشيوعية طبقاً للفهم الشعبي لها بأنها إلحاد وكفر ومادية وشيوع هو فهم الأفغاني من قبل في «الرد على الدهريين».

- | | |
|---|--|
| <p>(1) طلبوا الروح بطن حين جاعوا
وعلى الجسم الشيوعي اعتمد
ليس إلا في مساواة البطون
ما احتوى أصلاً له طين دماء</p> | <p>إن أهل الغرب أفلاكاً أضاعوا
ما استمد الروح حسناً من جسد
قوله في كفره هذا المبين
في صميم القلب ذباك الإخاء
أرمغان حجاز، ص 512 - 514.</p> |
| <p>(2) أي سر حوى ضمير الزمان
كان يرجو النجاة بالصلبان
ما أقام القسوس من أوثان</p> | <p>(3) إن سير القضاء جد عجيب
ليس يألوه الصليب سرا قبيل
أمر الوحي ملحدني الروس هددوا
ضرب الكلیم، ص 102.</p> |
| <p>(4) كان دين الحق في الدنيا غربياً
وكما شئت افتتح عصراً جديداً
فيه أهل الشرق والغرب الحيارى
أوجدوا الخبز وديننا ضيعوا</p> | <p>(4) من حديث المصطفى نلت النصيبا
أمنح القرآن من فكر مزيداً
عن كتاب الله من زاح الستارا
هؤلاء الروس شيننا أبدعوا
جاويد نام، ص 212.</p> |

وعلى لسان الأفغاني يبين إقبال أن الهدي هو هدي الإسلام، وأنه هو الدين الحق الذي يفتح أفقاً جديدة للشرق والغرب، ويبدد حيرتهما⁽¹⁾. ويوجه نداء إلى الروس يهديهم إلى الإسلام كما فعل الإمام الخميني مع خروشييف أخيراً. ويعني بالروس الشيوعيين الذي أوجدوا الخبز وضيعوا الدين. لقد حطم الإسلام القيصر وكسرى. واعتلى عرشيهما وحكم. وأخذ السلطان مظهر الملك. هدم الإسلام الكسروية والقصورية. وأثار مصباح الضمير. ومنع تشييد أصنام جديدة يطوف حولها الناس. أرادت الدنيا أن تحول الشعب شيخاً منه تستفيد. والشرق قبلة، شعلة توقد تنير العصر الجديد⁽²⁾. القرآن يهلك الظالمين، ويخلص المستعبدين⁽³⁾.

قدم دين الغرب وأصبح ديراً عتيقاً. وتوحد مع الحكم. ليس أمام الغرب إلا ترك «لا» والاتجاه نحو «إلا» أي الانتقال من النفي إلى الإثبات. لا يقوم نظام العالم إلا على أساس الحكم. يُغلق التاريخ. وتُقلب صفحة جديدة. تقتبس النور من أم الكتاب⁽⁴⁾. الغرب نفسه في حاجة إلى الإسلام. المهم أن يكون سريع الفهم متجرداً عن الهوى⁽⁵⁾.

- | | |
|--|--|
| (1) قيصراً أفنى وكسرى حطما
دوحة السلطان طالت واستوت
نحن في الماضي هدمنا الكسروية
كي تنير اليوم مصباح الضمير
ولتشبث قدميك في المصاف
هذه الدنيا العجوز قد أرادت
ثم ولّ الوجه نحو المشرق
شعلة أخرى بروح توقد
جاويد نامه، ص 213. | واعلى عرشاً له كي يحكما
صورة للملك في الدين انطوت
أنت قوضت بناء القيصرية
عبرة منا اتخذ غير العصور
حول أصنام حذار من ضواف
شعبها شيخاً ومن شيخ أفادت
كيف تنسى يوم ماضي مغرق
ولك العصر الجديد نوجد |
| (2) ما هو القرآن؟ هلك الظالمينا
السابق، ص 215. | والخلاص كان للمستعبدينا |
| (3) إن دين الغرب قد أمسى رميمما
وتلثت الحاكمين اليوم نلاً
إن «لا» ضمن كلام كان نفيا
وإذا شئت نظام العالم
ومن التاريخ تمحو كل باب
السابق، ص 214. | لا تشاهد ذلك الدبر القديم
اتركن «لا» ولتقيم نحو «إلا»
أنت بالإنبات خذ دوماً لتحيا
فليكن فوق الأساس المحكم
فاقيس الأنوار من أم الكتاب |
| (4) ولغرب فبه أقدار وشرق | كن سريع الفهم أسرع مثل برق |
| (5) السابق، ص 215. | |

ويقوم الإسلام على مفاهيم العدالة والمساواة والتضامن الاجتماعي. العدالة كنز لا يُقدر بثمن، ولكن يجب الحفاظ عليها ضد سارق الرحمة⁽¹⁾. وهو الصراع القديم بين أهل العدل، المعتزلة، وأهل الرحمة، الأشاعرة. والمساواة مطلب إنساني عام. إن قوة فكرة تعتمد على قوة الشخصية التي تتجسدها. ومحمد وبوذا ويسوع المسيح تجسيدات عظيمة لفكرة المساواة. والإسلام هو القوة الوحيدة في العالم الذي مازال يعمل في اتجاه المساواة⁽²⁾. ويقوم التضامن الاجتماعي الإسلامي على مبدأ ديني. فإذا ما انفك يضيع وجود الأمة، وتلقى مصير اليهود. فما هي وسائل تقوية التضامن الاجتماعي؟ ما هي الودعة الدينية الرئيسية لدي الجماعة؟ إنها المرأة، المرأة المسلمة التي تتعلم تعليماً دينياً رصيناً لأنها صانعة الجماعة. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. فالتعليم مثل أشياء أخرى تحدده حاجات الجماعة. التعليم الديني كاف للفتاة المسلمة. إذ يستبعد كل الموضوعات التي تقضي على المرأة وإسلامها من تعليمها. وما زال مربو الأمة يهيمنون على وجوههم في الظلام. لم يستطيعوا بعد وضع برنامج دراسي لفتيات الأمة. ربما فقدوا اتزانهم أمام الانبهار بمثل الغرب ليميزوا الفرق بين الاتجاه الإسلامي الذي يبني الوطنية على فكرة مجردة مثل الدين، والتغريب دم الحياة والذي يقيم قصوره للوطنية على شيء مادي مثل الوطن⁽³⁾.

ويسأل إقبال الفلاح عن سر الحياة وهو الذي خلق المحراث الذي يعلوه الغبار منذ آلاف السنين. لقد خمدت ناره في الطين الذي علا النعال. فأين انعكاس الله في حاله؟ أليس من الأجدى القول في الأذان حي على الفلاح وليس حي على الفلاح. الفلاحون هم الذين يطعمون الناس فكيف يكونون وضعهم في الطين؟ ولا يستطيع المعتدون أن يبلغوا منبع الخضر أي عالم الروح⁽⁴⁾.

St. Ref., p. 28.

(1)

Ibid., p. 87.

(2)

St. Ref., pp. 29 - 31.

(3)

(4) أيها الفلاح ما سر الحياة؟
أنت فيها منذ آلاف السنين
خمدت نارك في الطين الذي
علقت أكوامه في نعلك
أرني الله الذي في فعلك
ما الذي يكتمه هذا المدار؟
خلف محراث بغطيك الغبار
علقت أكوامه في نعلك
أرني الله الذي في فعلك

6 - العنصرية والاستعمار

والنظم السياسية الملكية والجمهورية، والنظم الاقتصادية، الرأسمالية والشيوعية، انتهت إلى العنصرية والاستعمار. وهما تبعة الرجل الأبيض. قال أحد البريطانيين يوماً إنه يكره اليهود لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار. وهو اعتقاد يؤدي إلى العداء لباقي الشعوب. ولم يعرف أن تعبير تبعة الرجل الأبيض تتضمن نفس الاعتقاد اليهودي ولكن في صورة أخرى⁽¹⁾.

وفي رسالة السنة الجديدة، يعبر إقبال عن أهمية التقدم المعرفي والتطورات العلمية. ومع ذلك هناك طغيان الاستعمار تحت غطاء الديمقراطية والوطنية والشيوعية والفاشية. تحت هذه الأقنعة تم النيل من حرية الإنسان وكرامته وكأنا في أعتى صور الظلام، وتحول القادة السياسيون إلى شياطين ومصاصي دماء وتسلب وقهر. وانقلبوا من التمسك بالإنسانية وتحرير الإنسان من صنوف القهر ورفع المستوى الأخلاقي والثقافي للإنسان إلى الرغبة في السيطرة والتملك الإمبراطوري. سفكوا دماء الملايين. وأذلو ملايين أخرى، وحولوهم إلى عبيد لاستنزافهم واستعبادهم لمصالحهم. وبعد استعباد الشعوب الضعيفة وإخضاعها سلبوها من ممتلكاتها ودياناتها وعاداتها وثقافتها وآدابها. ثم بثوا الفرقة بينها إلى درجة سفك الدماء. هذا هو ما حدث بالضبط في الحبشة وفلسطين وأسبانيا والصين حيث يسود البؤس في كل مكان، وذبح الآلاف من البشر بلا رحمة. وقضت إنجازات العلم المدمرة على آلاف من الآثار الحضارية للشعوب. ومن لم يقض على الآخرين بالسيف قضى عليهم بالاستنزاف الاقتصادي. كل يبحث عن جلده. ولا أحد يهتم بأمن الآخرين. ووقف مفكرو العالم متفرجين على تدمير الحضارة البشرية في حين أن كرامة الإنسان في احترامه لكرامة البشرية. ويظل هذا العالم ميدان صراع لحيوانات متوحشة حتى تظهر القوى التربوية في العالم لحث الإنسان على احترام

إنما حي على الفلاح قال
أنت أرسلت لها كل السلال
وهم مثلك من حمأة طين
وجل من ظلمات المعتدين

لم يقل للناس حي للفلاح
هو يدعوههم إلى مادية
كيف ترضي أن يكونوا هكذا
إن نبع الخضر لا يبلغه

جناح جبريل، ص 537.

البشرية. وها هي أسبانيا، العرق الواحد، والجنسية الواحدة، واللغة الواحدة، والدين الواحد، يقتل أبناءها بعضهم بعضاً. ويحطمون ثقافتهم وحضاراتهم بسبب اختلاف أيديولوجياتهم. فالوحدة الوطنية ليست دائمة. إنما الأخوة هي الأبقى. وهي أسمى من العرق والوطن واللون واللغة. طالما أن ما يسمى بالديموقراطية والوطنية والاستعمار لم يتم التخلص منه فإن الإنسانية لن تكون كياناً واحداً. أسرة الإله تدافع عن المبادئ والمثل العليا للحرية والمساواة والأخوة. الرجاء إذن لإنسانية قوتها في الحفاظ على الجنس البشري⁽¹⁾.

الحروب في الشرق والغرب نوعان: حرب لاسترداد حقوق الشعوب وهي حروب التحرر، وحرب للعدوان على الآخرين وهي حروب الطغاة⁽²⁾. قام المسلمون بالفتوحات وهي حروب تحرير أو يتم الفتح صلحاً، ولكن حروب الغرب هي حروب استعمارية كما تم استعمار فارس والهند⁽³⁾. ثم شارك المسلمون في تحرير الهند من الاستعمار البريطاني. ومع بعض عقلاء البراهمة أجبروا الغرب على احترامهم⁽⁴⁾.

وفي تصريح يشرح فيه إقبال موقف الوفود الإسلامية في مؤتمرات المائدة المستديرة، يعبر فيه عن سعادته لمقابلة نهرو خاصة بعد قبول غاندي كل المطالب الإسلامية بشرط تأييد المسلمين له في صراعه السياسي من أجل الحرية. وقد رفضت الرجعية قبول هذا الشرط، وقبلته الاتجاهات الجماعية. ومع ذلك طلب غاندي من المسلمين عدم التعامل مع المنبوذين أو قبول طلباتهم وهو تمثيلهم النسبي في المجالس النيابية وهو ما رفضه إقبال نظراً للمساواة الطبيعية بين البشر.

New year's Message, Broadcast from the Lahore Station of the All - India Radio (1) on the 1st January, 1938, Th. & Ref., pp. 373 - 5.

(2) أصل هذا الملك في شرق وغرب كان إرضاء لشعب أو لحرب جاويد نام، ص 292.

(3) بالفتح يفتح البلدان فتحا وهي تمس ملكه إن شاء صلحا لا ينال الملك من هذا الورد فارس والهند مما يشتري السابق، ص 293.

(4) من أفاد الهند تحطيم القبود أيكون الصيد يوما كالصيد عندهم قد أخجلت حُمر البراهيم أي حمر بي رآهم لم يحرق من أولي العرفان أصحاب النظر

ويدافع إقبال عن اتهام نهرو لبعض المسلمين أنهم معادون للوطنية. فإذا كانت الوطنية تقوم على العرق مثل القومية فإن إقبال ضدها. أما إذا كانت دفاعاً عن الاستقلال الوطني والمعاداة للاستعمار فإن إقبال معها. فالوطنية لا تستطيع أن توحد بين الأقوام. وما تحتاجه الهند ذات الأعراق والطوائف المتعددة هو الروح الجماعية⁽¹⁾. ويتصور نهرو أن المسلمين يخافون من الديمقراطية مع أنها هي الحل الأمثل للوطن المتعدد الثقافات. يخشون من قهر الأغلبية وأصحاب السلطة. كما يرفض المسلمون أن تعني الديمقراطية حكم الغرب للبلاد عن طريق الوكلاء المحليين. يحتاج المسلمون إلى طرف ثالث يحمي الأقلية من قهر الأغلبية. ودون ذلك لا يوجد إلا بديلان: إما أن تصبح الأغلبية الهندية عميلاً للاستعمار البريطاني في الشرق أو تقسيم البلاد على أساس طائفي أو عرقي أو تاريخي.

وفي تصريح لشرح موقف المؤتمر من جائزة الجماعة، يبين إقبال أن المؤتمر بالرغم من تمثيله لكل الهند لا يمكن قبول الجائزة أو رفضها، ولكن بتعليقاته على الجائزة يمكن فهم رفض ضمني لها. فالجائزة من رئيس الوزراء البريطاني بناء على طلب من يرفضونها الآن. وينصح إقبال المسلمون بقبولها حتى ولو لم تحقق كل ما يطلبون⁽²⁾.

وطبقاً لنشأة وتطور المثل العليا بين الشعوب وما تثيره من حماس وما تولده من قوة، تُوجه كل طاقات الشعب نحو مركز مشترك. الهند المعاصرة ظاهرة فريدة. سلوكها أقرب إلى علم النفس منه إلى السياسة. يبدو أن المثل الأعلى للحرية السياسية، وهي تجربة جديدة بالنسبة إليها تملك روحها كلها موجهة كل طاقاتها من قنواتها الطبيعية إلى هذه القناة الجديدة للنشاط السياسي. وعندما تستكمل هذه التجربة ستشعر بالخسارة وستتحول إلى شخص آخر جديد بمعنى أنه لن تجد نفسها تحت سلطة الأسلاف الذين كان خيالهم بالنسبة لها مصدر عزاء دائم

(1) الروح الجماعية Communalism.

Statement explaining the attitude of Muslim Delegates to the Round Table conferences issued on the 6th December, 1933, Th. & Ref., pp. 363 - 7.

(2) Statement, explaining the Congress attitude towards the Communal Award, issued on the 19th June, 1934, Th. & Ref., p. 368.

والآخرون مصدر إحباط ذهني. الشعوب أمهات المثل العليا التي تتخصب وتلد شعوباً جديدة عبر الزمان⁽¹⁾.

وعبقرية أورانجرب السياسية كان لها ما يبررها. كان أمل حياته أن يوحد أقاليم بلاده في إمبراطورية واحدة. ولكي يحقق هذه الوحدة الإمبراطورية أخطأ في الخضوع لشجاعته الفائقة. لم تكن له الخبرة السياسية اللازمة. ودون علم بعامل الزمان في التطور السياسي لإمبراطوريته المأمولة بدأ صراعاً لا ينتهي على أمل توحيد الوحدات السياسية العاصية في الهند في حياته. فشل في أسلمة الهند، ليس بالمعنى الديني ولكن بالمعنى الثقافي كما فشل الإسكندر في «تغريق» آسيا. في حين أتى البريطاني مسلحاً بعدد من التجارب السياسية للشعوب القديمة وبصبر ومثابرة السلحفاة، نجح فيما لم ينجح فيه العبقري أورانجرب. إذ لا تعني الغلبة بالضرورة الوحدة. وقد علم تاريخ الأسر المسلمة الحاكمة من قبل أورانجرب أن قوة الإسلام في الهند لا تعتمد كما علم السلف الكبير أكبر، كثيراً على حسن نية الشعب في هذه الأرض بقدر ما تعتمد على قوة العنصر الحاكم. وبالرغم من نظراته السياسية العميقة، لم يستطع أن يقوم بما قام به الأسلاف. كل منهم اعتمد على ظروفه الخاصة. ومع ذلك يظل أورانجرب هو مؤسس الوطنية الإسلامية في الهند. وربما نشأت الوطنية الهندية بفضل تشجيع بريطانيا ولورداتها ورؤساء وزرائها. يكره البريطانيون أورانجرب لأنه أراد توحيد الهند واستقلالها وليس تبعيتها لبريطانيا⁽²⁾.

ومع ذلك يرد إبليس على مستشاريه أن الأرض والسما جميعاً بقبضته. فقد أثار دماء الأقوام في أوروبا. وقضى على قيمة أئمة السياسة وشيوخ الكنيسة. صيحة واحدة قد تذهلهم وتذهب بعقولهم. جاهل يعتبر العمل بيتاً من زجاج. فليحطم كؤوس وأباريق المدنية. والجيوب التي مزقتها يد الفطرة من المحال ترقيعها بإبرة مزدك القديم أو الجديد، كارل ماركس. كيف يستطيع الاشتراكيون المخبولون متفوشو الشعر إصلاح ما فسد؟ إنما الخطر يأتي من هذه الأمة التي مازالت في رمادها شرارة الأمل. فيها أناس يتوضؤون بدموع الأسحار. إنها أمة الإسلام⁽³⁾.

St. Ref., pp. 33 - 4.

(1)

St. Ref., pp. 44 - 8.

(2)

(3) أرماغان حجاز، ص 515 - 516.

الفصل الثاني

حال الأمة

1 - الأمة الإسلامية

هذه الأمة لا تحمل القرآن. ولكنها اعتبرت الرأسمالية دين العبد المؤمن. وأكمام مشايخ الحرم خالية من اليد البيضاء، يد موسى، وغير قادرة على فعل المعجزات. والخوف من مطالب العصر يجعلها لا تطبق شرع النبي مع أنه هو الحافظ لكرامة المرأة، وامتحان المرأ، وخلق الرجال. النظام الإسلامي يقضي على كل أنواع العبودية. يظهر الثورة. ويجعل الأنقياء أمناء على المال والثروة. أعظم ثورة في الفكر والعمل الحاكمة، أن الأرض لك وليست للملوك. إذا اختفى هذا النظام يُحرم المؤمن من اليقين. ويبقى في شرك الإلهيات، منهمكاً في تأويلات الكتاب.

فكيف لا يضيء الليل الحالك هذا الورع التقى، هذا الإنسان الذي حطمت تهليلاته كل قيود الجهات الست؟ هل مات المسيح أم مازال حياً باقياً؟ هل انفصلت الصفات عن الذات؟ هل مات المهدي الذي يحمل صفات المسيح أو انتهى المصلح؟ هل غرقت الأمة في جدل الصفات قديمة أم حادثة؟ وأبها الفرقة الناجية؟ هل بنت الأمة أصناماً جديدة بعد تحطيمها الأصنام القديمة؟ هل بقي بلا عمل حتى ينهزم على بساط الحياة، ويبقى عبداً حتى يوم القيامة، ويترك الدنيا للآخرين؟ هل استبدل بالرسالة التصوف الذي يعمي على عيونه منظر الحياة؟

بخشى إبليس من يقظة الأمة. فدينها احتساب الكائنات. ومن ثم يكون دوره إسكار المسلم وجعله ينتمي بالذكر والتفكر في الأسحار وتوجيهه نحو الخائقات⁽¹⁾.

ونصيحة بلوشي عجوز لابنه يقيم الصحراء، الاعتزاز بالنفس في دنيا الكد والكفاح. وهو خير من الدروشة عارية الرأس، وتحويل الزجاج إلى صخر. تقدير الأمم بيد الأفراد. ولو ضاع الدين من يد الأمة الحرة لحشر المسلم. المعركة معركة الروح والجسد معا. فقد هيجت المدنية وحوشها. وتعتمد على ثبات المسلم. وإبليس يعتمد على آلات أوروبا. تكفي فراسة المؤمن لتقدير الأمم. الإخلاص في العمل شيمة الأسلاف. ولا عجب في أن يتحول الملوك إلى فقراء. إن شرط الأصل في حوار مع الصورة ألا يختفي عن نظره، ويفقد ذاته. والموت الأبدي للأمم المستعبدة. والظالم ميت في الدنيا. ولا ينجي العقل من الأصنام بعد أن صار العارف والعالم والعامة جميعاً عبيداً لها. القلب هو طريق الخلاص⁽²⁾.

يوجز إقبال في وصف «حال الأمة» نظراً لأنه عبر عنه من قبل في «الشكوى والجواب» و«الأتين والحنين». وهو دائم التذكير به. فالشاعر والفيلسوف كلاهما بيدآن من الواقع. يعبر عنه الشاعر بالخيال والصورة، والفيلسوف بالعقل والمنطق.

2 - النظام السياسي الإسلامي

الإسلام مثل أعلى أخلاقي وسياسي⁽³⁾. ويمكن دراسة ذلك من خلال وجهات نظر ثلاث: المعلم والشارع والطالب النقدي. ويفضل إقبال الطالب النقدي. يريد التعبير عن الوحي بلغة العلم الطبيعي والإنساني. وهي لغة العصر الحديث. ويبدو أن هذا المنهج هو المنهج التاريخي الذي تابعه من الاستشراق التقليدي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. إذ يضع الإسلام في إطار تاريخ الأديان المقارن مع البوذية والمسيحية والزرادشتية. ففي مشكلة الشر مثلاً لا تقول البوذية بوجود الألم في الطبيعة والإنسان لأنه كفرد شر. وفي المسيحية توجه الخطيئة في الطبيعة وأثرها قاتل ومصيري في الإنسان. وفي الزرادشتية يوجد صراع

(1) أرماغان حجاز، ص 516 - 518.

(2) أرماغان حجاز، ص 518 - 520.

Th. & Ref., p. 29 - 55.

(3)

في الطبيعة. والإنسان خليط من قوى متصارعة. وهو حر في أن يختار قوى الخير التي ستنتصر في النهاية. وفي البوذية ليس الألم عاملاً جوهرياً في بناء العالم. والتشاؤم نتيجة البيئة الاجتماعية المعادية. وهي نظرة قريبة من الإسلام الذي يضع الخير والشر في الإنسان، ويعطيه العقل للتمييز، والحرية للاختيار. الإسلام قوة وتقدم اجتماعي. والإنسان خال من الألم والخطيئة أو الصراع. وهنا يقترب الإسلام من جان جاك روسو، مؤسس الفكر السياسي الحديث. فروسو هو العدو الأول للتسلط في السياسة كما كان لوثر العدو الأول للتسلط في الدين. وقد أكد الإسلام على قيمة الفرد والشخصية الإنسانية، متواصلاً مع البوذية والمسيحية. والفردية مع الجماعية تنتج المساواة بين البشر. فالبشر مجموعة من الأحرار المتساويين. وهناك من عملوا ذلك بالفعل مثل: كرومويل، فولتير، الأمير عبد القادر الجزائري. تلك قوة الإسلام التي جعلته ينتشر كهداية وليس بالسيف في جنوب شرق آسيا وفي أفريقيا. الإسلام دين سلام وإصلاح في الأرض، وليس دين عدوان وفساد. لذلك كان أنسب نظام للأمة هو النظام الديمقراطي. الخليفة ليس معصوماً ويخضع لنفس القانون. وهو مختار من الناس. ويُخلع إذا ما خرق القانون. الديمقراطية مثل الإسلام الأعلى. والفردية الجماعية مثل أعلى آخر⁽¹⁾. ومن ثم يقوم الدستور الإسلامي على مبدئين: الأول، الحاكمية لشريعة الله والسيادة لها. والإمام ليس معيناً من الله بل مباحياً من الناس. والثاني، المساواة المطلقة بين أعضاء الجماعة. فلا توجد أرستقراطية. ولا يعترف بنظام الطبقات أو العشائر أو الأسر⁽²⁾. الفكر السياسي في الإسلام لا يعرف الوراثة كنظام سياسي. والنظام الإسلامي يقوم على مساواة المسلمين جميعاً أمام القانون، وعدم الفصل بين الدين والدولة⁽³⁾.

ويصف إقبال تطور النظام السياسي الإسلامي على عدة مراحل: الأولى الملكية الانتخابية، فالشعب ينتخب الخليفة ويبايعه. وصفات الخليفة البدنية والنفسية والذهنية تجعله كامل الأوصاف. وقد يخلف الأب الابن كما حدث في الدولة الأموية. المسجد هو المؤسسة السياسية الأولى. وقد صاغ الماوردي مفهوم

(1) الفردية الجماعية Corporate Individuality.

(2) وهو ما عرف في الهند باسم Cast - System.

(3)

العقد بين الحاكم والمحكوم. ويساعد الخليفة الوزير بصرف النظر عن دينه، وحكام الأقاليم الذين يعينون الوزراء وقاضي القضاة ورجال الدولة، وقواد الجيش، وقاضي القضاة ورئيس مجلس القضاء الأعلى. ثم وضع الخوارج أسس الحكم الجمهوري. على ثلاثة مبادئ: بيعة الإمام، حكم المسلمين أنفسهم بأنفسهم في حالة غياب الإمام، عيش الناس بلا إمام. وكان هناك سببان للنشاط السياسي في الإسلام. الأول، عدم اتفاق فكرة البيعة مع القرص والمغول. والثاني حياة الفتح عند المسلمين الأوائل.

وفي تخطيط لمحاضرة عن «المجتمع الإسلامي» يضع إقبال النقاط الثلاث الآتية⁽¹⁾:

أ - البنية العامة للمجتمع الإسلامي: وتقوم على مفهوم خاص للوطنية التي لا تقوم على اللغة أو البلد أو المصلحة الاقتصادية التي تكون عناصر الوطنية. بل هي اشتراك جماعة في تصور واحد للعالم، والمشاركة في نفس الموروث الثقافي. ولا تخاف الأوطان من العقلانية ولكنها بالنسبة للجماعة الإسلامية هي عدو خطير لأنها تقضي على المبادئ التي تقوم عليها الجماعة والتي تجعل وجودها مشروعاً. فالعقلانية تحليل. ومن ثم تهدد بتفكك الوحدة الاجتماعية التي تقوم على الوحدة الدينية. صحيح يمكن للجماعة أن تتعامل مع العقلانية على أرضيتها الخاصة. والعقيدة التي توحد الأمة لها أساس وجودي، وليس أساساً عقلياً. ومن ثم فلا فائدة من تحويل الدين إلى نسق عقلي تأملي لأن موضوع الدين ليس الفكر بل الحياة. غايته بناء نظام اجتماعي لنمو الحياة تدريجياً. الدين في حد ذاته ميثاقيزقيا. ولا يقوم على سمو جماعة على أخرى مثل «ألمانيا فوق الجميع». الجماعة الإسلامية تقوم على فكرة وليس على عرق أو لون.

ب - تجانس الثقافة الإسلامية: وتنبع من وحدة الإيمان الديني ووحدة مراحل الوحي ووحدة الجنس البشري. فالحضارة الإسلامية نتاج تفاعل عديد من الشعوب الآرية والسامية، جامعة بين الرقة والصلابة، نعومة الأم ورجولة الأب. وغزو المسلمين الفرس أعطتهم ما أعطت اليونان بغزوها الزمان.

ج - التواصل في الشخصية الإسلامية: فحياة الشعوب تتطور طبقاً لقانون محدد. في المجتمع البدائي يتم الصراع من أجل البقاء اعتماداً على قوى الإنسان العضلية أكثر من العقلية. ويكون الإنسان الشجاع البطل هو النموذج. فإذا ما قضى الصراع تتحول الحياة العضلية إلى طابع الحياة المشتركة، والتمتع بالحياة والحرية والكرم والصحة والخيرة والتمتع بمباهج الحياة⁽¹⁾. ثم يظهر الطابع الثالث بالسيطرة على الذات كمثل أعلى وتصور جاد للحياة. وهو طابع المجتمع الإسلامي في الهند. يمثل طيمور النوع الأول، وجيهانجير الثاني، وألامجير الثالث.

لم يهتم إقبال فقط بالفكر السياسي بل شارك في الممارسة السياسية لحل قضية الاستعمار في الهند، وحل مشكلة الصراع بين المسلمين والهندوس. ففي الخطاب الرئاسي الذي ألقاه إقبال في «الجلسة السنوية في الجامعة الإسلامية لكل الهند» يعلن فيه أن الإسلام نظرة أخلاقية ينبع منها نظام سياسي ورؤية حضارية⁽²⁾. لا يوجد به كنيسة تعطي لمارتن لوثر الحق في الثورة عليها ضد نظامها الأخلاقي وتسلطها السياسي⁽³⁾. لوثر رمز ضد التسلط الديني، روسو ضد التسلط السياسي. في حين أنه في الإسلام، الله والعالم، الروح والمادة، الروحي والزمني، (وليس الكنيسة والدولة لأن الإسلام ليس به كنيسة) وحدة عضوية واحدة. لا يحتاج الإسلام إلى لوثر لأن مبادئ البروتستانتية فيه مثل الصلة المباشرة بين الإنسان والله، وحرية الاعتقاد. وقد اختارت اللجنة رئيسها. وهو يتفاعل بالإسلام كقوة تحرير للإنسان من حدوده الجغرافية. ويرى أهمية الدين في حياة الفرد والدولة، وأن الإسلام نفسه مصير. فالإسلام ليس مسألة شخصية كالمسيحية بل مسألة فردية وجماعية. أحياناً تختفي الأنانية تحت غطاء الوطنية. وهي رؤية ضيقة محدودة بالطبقة أو القبيلة. وقد أكد نهرو أهمية الروح الجماعية⁽⁴⁾. وهي ضرورة لبناء الهند ككل متجانس. يكون المسلمون في ولاية البنجاب 56٪. وهم في الجيش بنسبة

(1) طابع الحياة المشتركة Convivial Type .

(2) وقد ألقى الخطاب في الالاباد في 12/29/1930 - 161 . Th. & Ref., pp.

(3) من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين والسياسيين مارتن لوثر هو الأكثر ذكراً في الخطاب ثم نهرو ثم السلطان أكبر ثم رينان وجناح. لوثر (5)، أكبر، نهرو (3)، رينان (2)، فنسك (1). وفي تقرير سيمون عن وضع المسلمين في الهند (6)، وشاستري (2)، وبعض الساسة الإنجليز.

(4) الروح الجماعية Communalism .

54٪. وقد طالب المسلمون بدولة إسلامية مستقلة في الهند في شمال غرب الهند. وليس في ذلك أي خشية للهنود من وجود دول دينية فيها من دولة وطنية أو قومية مستقلة. والإسلام يتجاوز الأوطان والقوميات. والبريطانيون وراء التقسيم لإضعاف الهند طبقاً لقاعدة «فرّق تسد» باسم الفيدرالية. والخوف من العلاقة الحميمة بين الهند الهندية والاستعمار البريطاني على حساب المسلمين وإعطاء الهندوس ولايات أكثر من المسلمين، وخلق ولاية نزاع بين الاثنين كما حدث في كشمير، وكذلك إثارة مشكلة الدفاع عن الهند، مهمة من؟ يُخشى من التحام مسلمي الهند مع المسلمين خارجها، وبالتالي تقوية المسلمين على حساب الهندوس، والاستقلال بالبلاد لحساب المسلمين. إن مشكلة الهند ما بين الوطنيات وليس الوطني⁽¹⁾. والإسلام قادر على أن يحفظ للهند تعدديته. فطعام غير المسلمين حل للمسلمين. والزواج في الإسلام مباح بين المسلمين وغير المسلمين. ووجود ما يقرب من سبعين مليوناً من المسلمين (وهم الآن أزيد من مائة مليون) في الهند يعتبر إضافة لها، وليس خصماً منها. وإن بعث فرد مثل بعث أمة.

والإمامة اليوم تحولت إلى سلطة، والقيادة إلى تسلط، والريادة إلى قهر، والمثل الأعلى إلى مصلحة شخصية. أئمة العصر يبعثون على السأم. موتى يدفعون إلى الموت. متخلفون يجعلونك تبحت عن الكمال بعيداً عنهم. سيوف للمنايا تشحذ على مسن الفقر. مفتنون بأنفسهم حولوا شعوبهم إلى سبايا⁽²⁾.

ويدعو إقبال إلى التوقف عن انتظار المهدي، تجسيد القوة، بل إلى إيجاده⁽³⁾.

(1) ما بين الوطنيات Inter - national.

(2) أتسألني الإمامة ما مداها؟
حباك الله مثلي بالخفايا
إمام العصر حقاً من تراه
فتسأم ما تشاهد في البرايا
بمرآة المسمات يسري وجهه
الحبيب فتحتوي عبث الدنيايا
ويشعرك التخلف عن كمال
فينفخ فيك مشبوب السجيا
يمر عليك من فقر مسنا
فيطبع منك سيفاً للمنايا
فتون العلة البيضاء إمام
كأن المسلمين به سبايا

ضرب الكلم، ص 33.

3 - النظام الاقتصادي الإسلامي

يتناول إقبال بعض المسائل الاقتصادية خاصة الميزانية نظراً لأنه كان من قادة المسلمين ورئيساً للجنة «كشمير لكل الهند». وقد تناول هذه المسائل الاقتصادية في خطابات أمام المجلس التشريعي للبنجاب. ويبدو إقبال أشبه بوزير للمالية وليس الشاعر أو الفيلسوف. ويذكر أرقاماً وتوصيات⁽¹⁾.

وفي خطبة أخرى عن اقتراح طلب تخفيض منحة الحكومة للتعليم، يدافع إقبال عن أهمية التعليم وكيف أنه يمس كل الهند، هنودا ومسلمين وسيخاً، رأسمايين وعمالاً. وطلب تخفيض ميزانية التعليم هو ما تريده بريطانيا كحكومة أجنبية لا يهتمها تعليم المواطنين حتى لا يثوروا ضدها. فالتعليم خطوة نحو الاستقلال. ولا فرق بين الحكومة الأجنبية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية كسلطة للقهر. كما يدافع إقبال عن التعليم الإجباري. فالتعليم كالماء والهواء بلغتنا، حق للمواطنين جميعاً، وليس ميزة للبعض على حساب البعض الآخر⁽²⁾.

كما تناول إقبال مسائل الحكم والإدارة والوظائف العامة. ففي خطاب له يقترح تأجيل النظر في الاضطرابات المحلية بشأن المساواة في التعيين في الوظائف الحكومية. فالبعض له النصيب الأوفى منها، بينما يُحرم البعض الآخر تماماً. والإدارة تذكر اسم الله باللسان، وعينها على ممتلكات الناس. ويجعل البعض الصحافة مسؤولة عن ذلك. والبعض الآخر يجعل التصويت في الانتخابات هو المسؤول. وهناك دعوات كثيرة من أجل وحدة الجماعة الإقليمية ونزع روح الحقد بين الطوائف⁽³⁾.

وفي خطاب آخر خاص بشغل الوظائف عن طريق المنافسة الحرة، يرى إقبال أنها مثالية بريئة غير واقعية. فالمنافسة الحرة يصعب تطبيقها في الهند لتأصل

(1) Budget Speech, in the Panjab Legislative Council, 1927 - 8 (5th March 1927) Th. Ref., pp. 310 - 2.

(2) Speech on the cut motion on Government's demand for grant under education delivered on the 10 th March, 1927, Ibid., pp. 313 - 5.

(3) Speech, on the adjournment motion regarding communal riots delivered on the 18 th July, 1927 Th. & Ref., pp. 316 - 8.

الفوارق العرقية والطائفية. والدليل على ذلك ما يحدث في امتحانات الجامعة ومسابقات الوظائف التي تتعدد بالفرق الطائفية والعرقية للمتقدمين والممتحنين. والوطنية أيضاً مثالية نظراً لعدم تأصيلها في الهند في مواجهة الطائفة والعرق. لا يكفي إذن مبدأ المنافسة أو المسابقة إن لم يُقرن بالاختيار أو التعيين لحفظ نسب الطوائف والأعراق في الوظائف العامة بما في ذلك طائفة المنبوذين⁽¹⁾. الوطنية والإنسانية دعوتان مثاليتان في ظروف المجتمع الهندي الحالي⁽²⁾.

ويتناول إقبال موضوع الضرائب على الأراضي الزراعية ويتساءل عن حق الدولة في ملكية الأرض أم أنها ملكية الأفراد؟⁽³⁾. والحقيقة أن الهند لم تعرف ملكية الدولة للأرض نظراً لاتساع الرقعة، ووجود حكومات الولايات، وملايين الفلاحين المعدمين. وفرض نظام ضريبي على دخول الأراضي الزراعية قد يكون مجحفاً بالنسبة لصغار الملاك، بالإضافة إلى تهرب كبار الملاك. يقوم أي نظام ضريبي على أساس العدل طبقاً للدخل الفردي، ونظام الضريبة التصاعدي. ويمكن للدولة أن تلجأ إلى نظم أخرى لزيادة دخلها غير فرض الضرائب مثل تخفيض المصروفات على الإدارة، تخفيض الضرائب على محدودي الدخل وزيادتها على مرتفعي الدخل، تقليل حجم المصاريف على خطط التنمية التي لم تحقق أي عائد. المهم ألا يتحمل المستهلك العبء الأكبر. وقد قامت الثورة في روسيا بسبب اضطهاد الفلاحين من أصحاب الأراضي. يكفي الفلاح دخله كي يقيم أوده هو وعائلته.

وفي خطاب أمام المجلس التشريعي للبنجاب عن الميزانية، ينقد إقبال بيان وزير المالية المفعم بالتفاؤل الكاذب كما هو الحال في الخطابات الرسمية. والحقيقة أنه لأول مرة لم تساهم حكومة الهند في زيادة الميزانية إلا زيادة ضئيلة

(1) المنبوذين The Untouchable.

(2) Speech, on resolution regarding filling of posts by open competitive examination delivered on 19 th July, 1927, Ibid., pp. 319 - 23.

(3) Speech, on the resolution regarding application of the principles of assessment of income - tax to the assessment of land revenue delivered on the 23 rd February, 1928, Th. & Ref., pp. 326 - 32.

عن طريق رفع الدمغات والطوابع. كما حدثت زيادة في الري وفي عدد الفلاحين المسجونين. وترجع زيادة الري إلى زيادة الأمطار. أما زيادة الفلاحين المسجونين لأن مدة عقوبة سرقة أقل المواشي سنتين. كما صرف القليل على التعليم وعلى الخدمات العامة مثل بناء الطرق والمباني العامة. وأصبح المجتمع الهندي قسماً: دائن ومدين. وينصح إقبال بجعل الضرائب لا مركزية حتى تستفيد بها الأقاليم. كما ينصح بتخفيض الرواتب العالية، وشراء المعدات والآلات من أرخص الأسواق⁽¹⁾. وفي خطاب آخر يعطي إقبال تفصيلات أكثر بالأرقام في مناقشة بيان وزير المالية. ويبين العجز في الميزانية ومشكلة البطالة ونقص الصادرات. ويقترح بدائل ثلاثة: إما الإبقاء على النظام الحالي وما يتضمنه من عجز وجوع الملايين والديون أو البطالة أو التخلص من النظام الحالي كلية حيث المصروفات أكثر من الإيرادات. ويمكن الاعتماد على صناعة النسيج والأحذية لزيادة الدخل. وهذا يحتم زيادة الدعم للتعليم⁽²⁾.

ويجمع إقبال بين الموضوعات الاقتصادية القديمة والمشاكل المالية الحالية. فلا يعطي الخراج إلا لأولي الأمر⁽³⁾. وهو تصور قديم للاقتصاد يعادل الضرائب حالياً والمصادر المالية للدولة. ومع ذلك لا يعتبر إقبال صاحب نظرية في السياسة أو في الاقتصاد. هو شاعر أولاً وفيلسوف ثانياً.

4 - الوطنية والقومية والعالمية

ويتعرض إقبال لأسس الأمة: الوطنية والقومية والعالمية. وهي بلغة عصرنا: الوطن والعروبة والإسلام. وهي الدوائر الثلاث التي يوجد فيها المسلم المعاصر والتي تشترك في مركز واحد ثم تتسع الدوائر من الصغرى وهو الوطن إلى المتوسطة وهي القومية إلى الكبرى وهي العالمية.

(1) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1929 - 30 (4 th March, 1929) Th. & Ref., pp. 333 - 6.

(2) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1930 - 1 (7 th March, 1930) Ibid., pp. 337 - 41.

(3) وأقول لك يا عالي المنام
لأولي الأمر ومنكم شأهم
لسوي اثنين الخراج كالحرام
في انكتاب قوله برهانهم
جاويد نامه، ص 292.

أ - الوطنية: هي من وضع الغرب ومكره ولورداته أي مفكره لربط الروح بالتراب، وتفتتت الأمة إلى مصر والشام والعراق واليمن، وفارس وتركيا والحبشة. الدين هو بعث القلب الطاهر من الأرض. هو التوحيد بلا حدود. صحيح أن الإنسان من ماء وطين أي الوطن ولكنه أيضاً روح أي الدين. والإنسان يثور على ظلام الأرض ولا يرضى إلا بالصقور⁽¹⁾.

نشأت الوطنية في الغرب. وتحول الغربيون من الدين إلى السياسة، ومن الأخوة الإنسانية إلى القومية. وتركوا دين عيسى. وعجز الأساقفة عن الدفاع عنه. ووضع الدهري مبادئه بدلاً من دين عيسى. أخذ الغرب الشيطان بدلاً من الله وزعيمهم في ذلك ضد هذا الفلورنسي صاحب «الأمير» ميكافيللي الذي عبد الوثن، القوة والإمارة والدولة. جعل الغاية تبرر الوسيلة. واستعمله الحكام للتسلط على رقاب الناس. أضاع الحق والعدل والفطرة إلى الباطل والظلم والإمارة. حول الملك إلى إله، والدين إلى صنم، والقيح إلى حسن، والضرر إلى نفع، والحيلة إلى غاية⁽²⁾. نشأت الوطنية في الغرب بديلاً عن الدين. وانتهى دين عيسى.

- (1) مكر لورد الغرب كم أعيا الفطن
ما هو الدين؟ القيام من ثرى
«الله هو» من قالها قولاً يجود
يا حكيم الروح تسمو عن جهات
من ظلام الأرض حر قد يثور
قبضة النطين تسميها الوطن
بين أوطان وقوم نسبة
جاويد نامه، ص 195 - 196.

من يخطب على المنبر قاتلاً بأن الملة قائمة على الوطن
كم هو جاهل بمقام محمد العربي
عليك أن تصل بنفسك إلى النبي فإن الدين كله
فإن لم تصل إليه فكل هذا يعد من أعمال أبي لهب
أرمغان حجاز، ص 544 - 545.

- (2) منصب الدين حواه الساسة
دين عيسى بطلت قصته
عجز الأسقف عن تقديره
قوم عيسى حفررو بيئته
مؤق الدهري ثوب المذهب
ذا الفلورنسي عبد الوثن
فتمت في الغرب هذي الآفة
وخبت في دوره شعلته
حادث الألام عن تدبيره
أبطلوا في سوقهم سكرته
ومن الشيطان فد وافى نبي
كحله أودى بنور الأعين

واستسلم القساوسة للسلطة. ومزق الدهري كيان الأمة.

ويشكو الأفغاني من الأحوال الحاضرة. فقد انتصرت الأمة سابقا. وقامت بفتوحاتها. واليوم عمتها أفكار الوطنية والقومية والشيوعية. وضاع منها روح الدين⁽¹⁾.

ظهر الإسلام كاحتجاج ضد عبادة الأصنام. والوطنية ما هي إلا شكل رقيق من أشكال الوثنية، تأليه موضوع مادي كما يتضح ذلك من الأغاني الوطنية للشعوب. ولا يسمح الإسلام بأي صورة من الصور. وما قضي الإسلام عليه لا يمكن أن يعاد كأساس لجماعة سياسية. ولقد ازدهر الرسول، ومات خارج موطنه. وقد يكون لذلك دلالة صوفية⁽²⁾.

الوطن ليس أساساً للأمة⁽³⁾. فالأوطان والأقوام تقطع الأرحام والأخوة والبشر⁽⁴⁾. الوطن في ذهن إقبال هو الدولة القومية في الغرب، وليس الوطن بمعنى

- خط للأملك سفرا منكرا
مزق الحق بسجد السقلم
آزر العصر، بدا تزويره
جعل الملك إلها دينه
جعل النفع عيار الذمم
صارت الحيلة فنا محكما
خطة للوهن فينا حيكنا
أرمد الناس بهذي الحكمة
الأسرار والرموز، ص 106 - 107.

(1) أمة قد دوخت كل الأمم
وتموت الروح من ضعف اليقين
جاويد نام، ص 195.

(2) St. Ref., pp. 26 - 7.

(3) أتري الأوطان أصل الأمم
إنما الأنساب فخر السفهاء
الأسرار والرموز، ص 88.

(4) قطعوا الأرحام بين الإخوة
قدسوا الأوطان إعجابا بها
أنكر الإنسان وجه الإخوة
ذهب الإنسان روحا وانقضى
السابق، ص 105 - 106، المقدمة، ص 50.

تعبد الأرض بها كالصنم؟
حكمها في الجسم، والجسم هاء
صيروا الأوطان أس الأمم
قسموا الإنسان أسرا بها
وانتهت قصة الإنسانية
بقيت أقرامه وهو مضي

الولاء للأوطان والحنين إليها كما ذرف الرسول الدمع وهو يغادر مكة أثناء الهجرة منها. هو الوطن الذي نشأت بسببه حركات الاستقلال الوطني. ولا يوجد تعارض بين الوطن وهو محل الولادة، والقومية أي اللغة التي تتحدث الأقوام بها، والأخوة الإسلامية التي تجمع الشعوب والقبائل. لذلك وحدت الحركة السلفية المعاصرة عند الأفغاني غلال الفاسي وحسن البنا بين الوطنية والعروبة والإسلام في ثلاث دوائر متداخلة، صغرى ووسطى وكبرى، وكما عبر عن ذلك القادة الوطنيون المحدثون مثل عبد الناصر في «فلسفة الثورة».

الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدها الأمكنة. التوحيد لا موطن له. وإشعاعه لا حدود له. الأمة لا ترتبط بالهند أو الروم. الإسلام هو أرض المسلمين. والوطن مكان للسكن وليس للاعتقاد. الإنسان في الزمان وليس في المكان. الأرض في الدنيا والمسلم في الدين. القلب لا تحده أرض. ويهجر المسلم الدار، من أرض إلى أرض كما هاجر الرسول والصحابه والأئمة⁽¹⁾. الأرض للمسلم مسجد، كل الأرض وليس رقعة منها تحاط بسياج. تلك قوة الإسلام والأخوة الإسلامية التي يهابها الأعداء. إذا اعتدوا على جزء من الأمة هبت الأمة كلها شرقاً وغرباً، متجاوزة حدود الدولة الوطنية⁽²⁾. فلماذا التمسك بالقطرة واليم محيط؟ ولماذا الاقتصار على الزهرة والروض فسيح؟ ولماذا الرضا بشعاع

(1) قلبنا الخفاق يأبى موطننا
ليس من هند وروم قلبنا
من على الأفلاك فيه رفعة
كان في الدنيا وفيها ما سكن
لست أدري ما حماء والوطن
قد رأى في أرضنا دنيا لنا

الأسرار والرموز، ص 102 - 103.

ريحه العاصف تأبى مسكننا
ما سوى الإسلام فيه أرضنا
لم ترقه لبلاد نسبة
ذلك المشرق في ليل الزمن
أنا دار أنه قلبنا سكن
وهو في الدنيا كضيف بيننا

(2) لا تحد الأرض قلب المسلم
ليس للمسلم في الأرض عطن
حضل القلب ففي وسعته
أمة ملء الدنئى قد أسسا
صارت الأرض لدينا مسجدا
ذلك المحمود في الذكر الحكيم
تفرع الأعداء من هيبته

لا يرى في تيه آثي وكم
حائر في قلبه كل وطن
ضل هذا الكون في فسحته
جعل التوحيد فيها أسسا
إذ أشاع الفضل فينا وهدي
ذلك المحفوظ بالله الرحيم
في ارتعاد من سنا طلعت

السابق، ص 104.

الشمس والشمس في القلب؟ والحدث ليس له مكان في البحر بل يسبح في كل البحار. التوحيد تحرر من كل الجهات. وينتشر في كل الجهات. وشذى الورد لا يحدده حدود. فلماذا ترك التوحيد، والوقوع في خدعة العصر الجديد؟⁽¹⁾

والأمة المحمدية ليست لها حدود زمانية أو مكانية. الزمن يتغير من موسم إلى موسم. أما الزمان فباق في دوراته الفصلية. الشرق والغرب مستمران إلى الأبد. الدهر ثابت، والأمم تتري عليه. يغادر الصديق وتبقى الصداقة. وينقضي الأفراد وتبقى الأمة. ينشأ الفرد من الطين القليل وتولد الأمة في قلوب العظماء. عمر الفرد عقود من الزمان. وعمر الأمة دهور من السنين. حياة الفرد روح في البدن. وحياة الأمة في تاريخها. موت الفرد بنهاية حياته، وموت الأمة باختفاء مقصدها وغايتها⁽²⁾. يموت الأفراد كما تموت الأمم. وأمة الإسلام لا تموت لأنها باقية منذ

(1) فلماذا أرض أهليه هجر؟
حجب القصاص معنى القصة
هجرة شرع حياة المسلم
إنها النسيار نحو الوعدة
أهجر الزهرة أجل الروضة
شرف الشمس مسير مطلق
لا تكن نهرا من السحب يمد
اقصصن تسخير كل العالم
لا يقيدك مقام في النوري
كل من حرر من ذل الجهات
ترك الورد شذاه فسرى
يا أسيرا قد ثوى في روضة
سبّون نفسك حرا كالصبا
احذرن من خدعة العصر الجديد
الأسرار والرموز، ص 104 - 105.

أنراه خشية الأعداء فر؟
غلطوا في فهم معنى الهجرة
هجرة سر ثبات المسلم
ولأجل اليم ترك القطرة
إن هذا الخسر ربح الكثرة
فيه من فوق البرايا شفق
وكن البحر، عابا لا يحد
لنرى سلطان أهل العالم
وكن الحوت يسبح الأبحر
فلك يزهر من كل الجهات
في فسيح المرح عطرا نشر
عندليبها هائلا في وردة
ثم عنق كل أزهار الربى
التباس النهج حاذر يا رشيد

(2) ثابت في الدهر تقدير الأمم
يسفر الجدل وتبقى الصحبة
ينشأ الفرد من الطين القليل
نفس الأمة يحصى بالمتين
وحياة الفرد روح في بدن
موت فرد نصب ورد للحياة
السابق، ص 107 - 108.

من مسير الغد سيار القدم
يرحل الفرد وتبقى الأمة
تولد الأمة من قلب جليل
وبعيش الفرد عشرات سنين
وحياة الشعب في حفظ السنن
موت قوم ترك قصد للحياة

عهد الذر الأول. لديها الذكر. وهو محفوظ لديها لآخر الزمان. إذا انطفأ المصباح، فالنور باق⁽¹⁾.

تذهب الأمم وتأتي غيرها. والأمة الإسلامية تنهض وتسقط، تصحو وتنام، تستيقظ وتغفل، ولكنها باقية في التاريخ. أمم اليونان والرومان والفرس والمصريين أي حضاراتهم قامت واندثرت. وقامت حضارة الإسلام وبعثت، طالما أن التوحيد في قلبها، والأذان في سمعها، وعشق الكون في وجدانها، ولا إله في كيانها⁽²⁾.

الأمة الإسلامية أمة واحدة تربطها رابطة الأخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وليست القومية الهندية أو الفارسية أو حتى العربية بالمعنى القومي الأوربي وليس بالمعنى الإسلامي حيث العروبة هي اللسان. المسلم ذات فردة. الأمة ذات مشتركة. وهي ليست مجرد إحصاء كمي لعدد المسلمين بل الروح الذي يسري فيها⁽³⁾. وكل الشعوب تنهم المسلمون بالتعصب. والحقبة أن ما يسمى بالتعصب له ما يبرره. وباستعارة صورة من علم الحياة يشبه التعصب مبدأ التفرد الذي يحافظ على

- (1) كسمات الفرد تفنى الأمم
أمة الإسلام تأسى أجلا
لا تخاف الموت هدي الأمة
دام ذكر ما أقام الذاكر
ذلك المصباح أنى يطفأ
أمة الحق إلى الحق تنيب

الأسرار والرموز، ص 108 - 109، المقدمة، ص 50.

- (2) ذهب الروم وفض الموكب
كأس ماسان من الغم دم
وعنت مصر لدهر عرم
وأذان الحق فينا خلدا
إن للكون من العشق حياة
أحيى العشق قلوب تسعر

السابق، ص 110.

- (3) إلى عصبات العرب ما أنا منتهم
فقد علمتني الذات تحليل نافر
بعينك أني كافر غير مسلم
فدينك تعداد لأنفاس محجم
تبدلت فالتبديل في الشرع حكمة
ضرب الكلم، المدخل، ص ع / 52.

ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
يمر على الدارين غير محوم
وأنت بعيني كافر غير مسلم
وديني إحراق لأنفاس مقدم
فليس يطبق الطبق شرعة ضيغم

المجموعة. فكل أشكال الحياة أنواع من التعصب حفاظاً على الحياة الجماعية. لا يتحرك الإنجليزي إذا ما نقد دينه. ويتعصب إذا ما فقت حضارته أو وطنه أو سلوك شعبه في أي نشاط. والسبب في ذلك أن قوميته لا تستند إلى الدين بل إلى الجغرافيا. لذلك يثور ويتعصب إذا نقد وطنه. أما بالنسبة للمسلمين فالقومية فكرة دون أي أساس مادي. هو تصور للعالم. فإذا ما أثارهم أحد تعصبوا لتصورهم للعالم أي لثقافتهم كما يثور الإنجليزي إذا تم النيل من حضارته. التعصب وطنية للدين. والوطنية تعصب للوطن⁽¹⁾.

الدين للوطن إرضاء للواحد الديان وليس للأجنبي، قلوباً وجيوباً وعقولاً⁽²⁾. فكرة الوطنية ولا شك عامل صحي لنمو الجماعات ولكن قد يُغالي فيها. والمغلاة فيها تقيل العناصر الإنسانية العامة في الفن والأدب⁽³⁾.

وإذا كان إقبال يرفض الوطنية كأيديولوجية سياسية محدودة الأفق مثل القومية والرأسمالية والشيوعية إلا أنه يرفض خيانة الوطن. ويخصص سياحته في فلك زحل في «جاويد نامه» إلى الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن، ولم تقبلها حتى جهنم⁽⁴⁾. للأحرار إمامهم. وكل حر يبوؤه المقام. ثم يظهر الخائن في البنغال والدكن، عار على الدين والوطن. يزهد أرواح الأحرار ويشي بهم. يبعث اليأس من نيل المراد. ويشيع في البلاد والفساد⁽⁵⁾. خلع الخائن جسمه ولبس جسماً آخر. تقرب إلى الكنائس وألف الأديرة. حول دينه إلى متجر، وليس رداء عترة وحيدر (علي بن أبي طالب). كل ذلك لنيل أغراض الدنيا. مع أن القدماء ما سجدوا لمغانم الدنيا. يبدو حزيناً على الدين وهو في الباطن من الملحدين. ولا يضيره قتل

St. Ref., pp. 23 - 5.

(1)

مرضاة الإله الواحد الديان
للأجنبي تقرب وتفتان

فالدين إرضاء الدخيل ولبس
فقلوبهم وجيوبهم وعقولهم

يا أمم الشرق، ص 343.

St. Ref., p. 95.

(3)

جاويد نامه، ص 273 - 278.

(4)

أزهق الروح لقوم قاتلان
وهما للدين عار والوطن
الفساد قد أنشأ في البلاد

إن شيطانين فيه يسكنان
ذاك في البنغال هذا في الدكن
أبغضا في اليأس من نيل المراد

جاويد نامه، ص 273 - 274.

(5)

المسلم. ويبث سم الثعبان في الحي كما يبث الفرق والشقاق في القوم. وينشر الفساد في البلاد⁽¹⁾.

وفي خطاب آخر عبر إقبال عن تخوفه من التيار المادي الملحد الذي يسود العالم. أما الوطنية فهي فضيلة طبيعية لها رصيدها في الحياة الأخلاقية للإنسان⁽²⁾. وقد قام غاندي مثل نهرو وإقبال من أجل مساواة جميع الهنود أمام القانون، وإقامة فيدرالية في الهند تحفظ لجميع الطوائف حقوقها. نشأ غاندي في منطقة الجوجرات حول بومباي حيث تقطنها أغلبية مسلمة. وقد اتفق الجميع على مبادئ ثلاثة: حق الشباب في الانتخاب، عدم وجود تمثيل خاص للطوائف خاصة المنبوذين، المطالبة بالاستقلال التام⁽³⁾.

ب - القومية: ويسأل إقبال عن الصراع الحالي بين الدين والقومية وإلى أين ينتهي؟ ويجيب الرومي أن الأشياء الزائفة لا قيمة لها أثناء الليل. ودليل الذهب الصحيح أنه يشرق بالنهار⁽⁴⁾.

- (1) إن قيد الجسم عنه قد خلع
تارة كان ألوقا لتكناتس
دينه ما كان غير المتجر
إنه عن كل هذا لا يحيد
وقديما سوى هذا سجد
وعلى الدين لنا يبدو حزينا
جعفر الأمة هذي من قتل
باسم، ما شاق يوما خله
الشقاق بثه في قومه
الفساد في بلاد حين يظهر
جعفر من روحه ربي أغشنا
السابق، ص 276 - 277.

(2) ألقى الخطاب في لاهور في 21/3/1932. Th. & Ref., pp. 195 - 219.

(3) Ibid., pp. 195 - 206.

(4) قال: إن الدين والقومية اليوم صراع
أتت من تدري بماذا ينتهي هذا النزاع؟
قل: ما في الليل للزائف والمحض عيار
ودليل الذهب الخالص إشرق النهار
جناح جبريل، ص 524 - 525.

ويتأرجح إقبال بين طريق أوروبا وطريق الرومي، ولكنه يختار في النهاية طريق الرومي. فالاعتصام بحبل الحسن في الليل أفضل من الضياع في وضح النهار. والبصيرة أفضل من البصر. لقد احتار العصر كله في هذه الثنائية الجديدة، الأنا أم الآخر؟ الإسلام أم أوروبا؟ ولكن الأنا أفضل. هو طريق حرية الأحرار. ولو كان مظلماً فإن شرر الرومي ينيره⁽¹⁾.

ويضرب المثل بالأمة الألمانية للقومية في اقتصاد الطبيعة. لكل أمة وظيفة حددت لها. ووظيفة الأمة الألمانية تنظيم المعرفة الإنسانية. وقد بدأ الألمان مشروعاً تجارياً آخر يعطيهم إمبراطورية، ولكنهم سيعانون من فقدان المثل الأعلى الأول إلى روح التجارة الثاني⁽²⁾. يوجد المثل الأعلى الروحي للأمة الألمانية في «فاوست» لجوته وليس في الكتب التي ألفها صياد الجليل. والألمان على وعي بذلك⁽³⁾. فالقومية الألمانية تنزع نحو الإنسانية.

ج - العالمية: ويشكو إقبال إلى عصبية الأمم الظلم الواقع على الشعوب، وإجبار الفلاح على بيع أرضه بسعر مذل. ومع ذلك، يتشكك في إمكانية القيام بمسؤولياتها⁽⁴⁾. أنشأها الرئيس ولسون، وأعجب بها برجسون أشد الإعجاب كمنظمة دولية تعبر عن السلام، ولكن مصيرها إلى الزوال. موتها محتوم. وتستطيع أن تعيش «عجوز أوروبا» على رقي إبليس أياماً آخر⁽⁵⁾. ويسمّيها إقبال أحياناً «جمعية الأمم». لقد حاول بؤساء الأرض وضع سنن لتفادي الحروب، إلا أن

(1) أنا لقافلة الرومي متبع
هب عصرنا مثنوباً آخر فلقد
طريق حرية الأحرار مظلّمة
السابق، ص 534.

(2) St. Ref., p. 32.

(3) Ibid., p. 66.

(4) إن مررت بجنيف يا صبا
بيع فلاح وتلك الأرض بيعت
وأناس، ولهم سحر مذل
جاويد نام، ص 291.

(5) مسكينة منذ زمان تحتضر
وموتها محتم لكنما
عجوز أوروبا يجوز عيشها
على رقي إبليس أياماً آخر
ضرب الكلم، ص 111.

نباشي القبور أسسوا شركة لتقسيمها⁽¹⁾. مازال النظام الدولي في حاجة إلى منظمة أو هيئة تقوم على العدل، وعدم المحاباة للقوي على الضعيف، وللغني على الفقير. تخدم مصالح البشرية جميعها، وليس مصالح الغرب وحده، وسيطرة الدول الكبرى عليه. وهو ما يُشاهد هذه الأيام بالمطالبة بإصلاح منظمة الأمم المتحدة.

5 - القاديانية والبابية

تأخذ القاديانية وتسمى أيضاً الأحمدية حيزاً كبيراً من فكر إقبال الديني والسياسي مدافعاً عنها ضد اضطهاد الأغلبية الإسلامية لها في الهند وخارجها بالرغم من صوفيتها. وهو الناقد للتصوف، وتأييد الاستعمار البريطاني لها، وهو المناهض للاستعمار. كان نهرو أصدق حذساً من إقبال في التنبيه على مخاطرها على الإسلام والوطن. ففي مقال له عن «القاديانية والمسلمون السلفيون» (الأرثوذكس) يبين أهمية الخلاف بين الفريقين⁽²⁾. ويأخذ إقبال موقف التلميذ في مادتي تاريخ العالم والدين المقارن مع أن الأمر لا يتعلق فقط بالعلم بل أيضاً بالسياسة. ويعتبر إقبال أن الهند طالما أعطت ديانات لجماعات متعددة. ويعتمد على فكرة الغائية. وهي من أهم الأفكار في الحضارة الإنسانية خاصة الحضارة السحرية كما سماها اشبنجلر مثل الزرادشتية واليهودية والمسيحية اليهودية والكلدانية والصابئة. وقد ظهرت في الإسلام المعاصر حركتان البهائية والقاديانية. الأولى إسلامية صرفة، والثانية تمثلت عناصر خارجية معادية للإسلام. وهي حركة مشابهة لحركة «الصدوقين» Zaddiks في اليهودية. وأشهر زعمائها بعل شيم توف. تؤمن بالمهدية. رفض إقبال إخضاعها بالقوة. ودفع عن نفسه هذا الاتهام. ويطالب الهند والمسلمين بالتسامح معهم باعتبارهم يمثلون ديناً مثل باقي الأديان.

وفي «رد على أسئلة باندت جواهر لال نهرو»، يعيد إقبال الدفاع عن القاديانية (الأحمدية) والبهائية في إيران⁽³⁾. ويتهم إقبال الحركة الوطنية الهندية

(1) بؤساء الأرض راموا سننا
وسمعا أن نباشي القبور
لتزور الحرب في هذه العصور
شركة شادوا لتقسيم القبور
رسالة الشرق، ص 329.

(2) Qadianis and Orthodox Muslims, Th. Ref., pp. 247 - 56.

(3) Reply to Questions raised by Pandit Jawahar Lal Nehru, Th. & Ref., pp. 257 - 90.

بزعامه نهرو بأن مثالياتها السياسية قتلت إحساسها بالواقع، وأنها أصبحت متعصبة ضد حق تقرير المصير لسكان شمال غرب الهند، وأنها هي المسؤولة عن اضطهاد الهويات الثقافية في البلاد والتي من تفاعلها تستطيع الهند أن تصبح ثرية ذات ثقافة صلبة. كما أن القاديانية بدأت تخاف يقظة الحركة الوطنية الهندية لوضع أسس جديدة للأمة غير الأمة التي وضعها الرسول. ويحذر إقبال الهند من قوى التفكك والانحلال تحت دعوى الإصلاح. ويقارن بين طرد اسبينوزا من الرابطة اليهودية وطرد الأحمدية من الرابطة الإسلامية. وشتان ما بين طرد الفكر الحر من جماعة متفلسفة وطرد جماعة خارجة على الأمة عقائدياً وسياسياً. ليست القضية في الحالتين نقد وحدة الوجود بل هي القضية السياسية: رفض اسبينوزا العهد أو الميثاق الأبدي وشعب الله المختار في العقائد اليهودية، وتأسيس فرقة صوفية روحية لا سياسية تقوم على استمرار النبوة. ويطالب إقبال بالتعامل مع الفرقتين الجديدتين البهائية والقاديانية بروح التسامح وتأخذ منهما موقف الفلاسفة وعدم تقديمهما إلى محاكم التفتيش! ويرفض استشهاد نهرو بالكاردينال نيومان، وقبول حكمه على الإسلام. ويعتذر عن الفرقتين بأن المسلمين لم يقدروا جيداً مفهوم الغائية مع أنها دليل على وجود الله. ويعني به تحقق النبوة في الولاية، مع أنه سبق أن شرح معنى خاتم النبوة في «تجديد التفكير الدين في الإسلام». وجعل له فصلاً خاصاً عن «مبدأ الحركة في الإسلام». ويعني به الاجتهاد وليس الولاية. وأحياناً يطلق على الغائية اسم «بروز» وهو ما سماه محمود طه «الرسالة الثانية». ويحاول الاعتذار بالتصوف خاصة بابن عربي في «الفتوحات». وقد ظهرت هذه الحركات كلها في آسيا لسيادة التصوف الهندي. بل إنه يحتج ببطولة السلطان تيبو في مقاومة الاستعمار البريطاني، وكأن التصوف والإشراق أحد وسائل مقاومته وليس تثبيتته. ويعتذر بموقف روسيا الشامخ مع البابية لأن التصوف ليس خطراً على الاحتلال الروسي للجمهوريات الإسلامية. بل إنه يعتذر للفرقتين شعوبياً. فالأحمدية «خليط غريب من التصوف السامي والآري» مع إحياء روحي لا يكتفي بتطهير الحياة الداخلة للفرد فقط طبقاً لمبادئ للتصوف الإسلامي القديم بل بإشباع توقع الجماهير للمهدي المنتظر وذلك بالتبعية المطلقة له. بل يذهب إقبال بعيداً عندما يرى الأحمدية هي التي مهدت لظهور سعد زغلول ومصطفى كامل ورضا شاه، كما مهدوا من قبل للسيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغاني. ويعيب على

نهره إعجابه بأتاتورك، ويجعل المادية في مقابل الروحية ويبين خطر المادية على الدين. لقد ظهرت البهائية في إيران والقاديانية في الهند وكلاهما اتجاء اسماعيلي بالرغم من اعتراض نهره عليهما ومدى تمثيلهما للإسلام الصحيح.

وكتب إقبال ملحقاً لمجلة أخرى لنفس الغرض: الدفاع عن استمرار الوحي الشفاهي في القديانية واعتبارها من الحركات التجديدية⁽¹⁾. وجريدة «النور» من مجلاتها، واسمها دال عليها. يستعمل إقبال ابن خلدون لتبرير تواصل التاريخ. ويحيل إلى السيوطي والبخاري ومسلم فيما يتعلق بالمهدي المنتظر. بل يستعمل الفلسفة الغربية كالعادة. ويستشهد بامرسون الرومانسي عن إمكانية الإلهام. ويحيل إلى «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وإلى كتاب كان ينوي كتابته وهو «مقدمة لدراسة القرآن». بل إنه يعتمد على تصنيف اشبنجلر الإسلام على أنه دين السحر. ومن ثم تدخل فيه القديانية والبهائية بسهولة باعتبارهما نزعتين اشراقيتين.

ظل إقبال يدافع عن القاديانية في الهند والبهائية في إيران ليس فقط في دراسات مطولة بل أيضاً في رسائل إلى الصحف والمجلات⁽²⁾. ويبين أنها لم تخرج على العقيدة الإسلامية، مع أن الموضوع ليس إيماناً بل سياسة. ولا يرى غضاظة في اعتبار بهاء الله نفسه نبياً بعد محمد. لذلك يُروج له الغرب. ومعبده الرئيسي في حيفا، في فلسطين المحتلة التي أصبحت حالياً إسرائيل. ويرى إقبال أن التجديد في الإسلام ضروري. والأحمدية والقاديانية مذهبان تجديديان! وبالرغم من تفرقة القاديانية بين الدين والمجتمع أو الدين والسياسة إلا أنها حريصة على البقاء داخل الإسلام السياسي.

وأرسل إقبال رسالة إلى نهره رداً على رسالته بشأن الموقف السياسي للأحمدية. بين فيها إقبال الأساس الديني للأحمدية في الوحي! ولم يشأ أن يعطي الأسباب التاريخية لنشأتها. وقد فرح مسلمو البنجاب بخطاب نهره الذي يتشكك فيه في نوايا الأحمدية السياسية على عكس موقف إقبال المتعاطف معها. ويعتذر إقبال أنه غير متخصص في علم العقائد (بالرغم من كتابته «تجديد التفكير الديني

Rejoinder to "The Light", Th. & Ref., pp. 295 - 300.

(1)

A letter to the statesman, Th. & Ref., pp. 291 - 4.

(2)

في الإسلام»)، ولكنه يريد أن يضع نفسه على نفس مستوى الأحمديّة. كانت النية صادقة. ولأول مرة وبصراحة تامة يصرح إقبال لنهرو بأن الأحمديّة خونة للإسلام وللهند. ويسأل في خطابه لنهرو عن اقتراحه إنشاء اتحاد للحرية المدنيّة⁽¹⁾.

والعجيب تعاطف إقبال مع البايّة (المرزا علي محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائيّة التي أسسها بهاء الله أحد حواريه، والدفاع عن الفرقتين ضد اضطهاد المسلمين لهم على عكس كشف نهرو لهما بأنهما لا يمثلان الإسلام، وبأنهما من أنصار الاستعمار البريطاني. ويخصص آخر فقرة في الخاتمة لها ويصفها بأنها حركة عالمية مسرفة في نزوعها الإنساني دون اهتمام بالوطن. ولا زالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث. ويؤثر طابعها الصوفي ونزوعها العملي تأثيراً غير مباشر على التغيرات السياسية في إيران⁽²⁾.

6 - كشمير وفلسطين

وبالرغم من حركات التحرر الوطني من الاستعمار إلا أن كشمير مازالت محتلة. تسري النار في أرضها لتغطي على الريح فيختلط اللون الأحمر بشدة الريح⁽³⁾. يطول في البحر صراع الموج حتى ولو ظل المسلمون على الشاطئ في اجتماع. يضرب الكشميري الأحجار في عرض الطريق كي يزيل الجبل العتيق. ترضع الأمم ألف فتى، وتعلمه المقاومة من أجل كشمير. لم يجد أمامه إلا العنف. فالمسلم لا يعيش على الشط بل يغوص في قلب البحر. لا يقف أمام الجبال كمانع بل يحطم الصخر⁽⁴⁾. هو الذي وهب الحياة للشرق. فربما هبط آدم فيها من الجنة

(1) Letter to Pandit Jawahar Lal Nehru dated 21 st June, 1936. Th. & Ref., pp. 306 - 7.

(2) تطور الفكر الفلسفي، ص 134 - 135/142.

(3) أرضنا كشمير منها أصلهم
إن حسبت الأرض تخلو من شر
أصل تلك النار أين؟ ليت شعري
في الجبال عندنا خفق لريح
جاويد نامه، ص 293 - 294.

(4) طال في البحر بنا عنف الصراع
وابننا أي ذلك النهر القديم
لو حوانا البر يوما في اجتماع
منه في الوادي وفي السفح الهزيم

لأنها تشبهها. وقد تعوض سعادة الأرض عن سعادة السماء. صوته جرس للقوافل حتى لا تتخلى عن كشمير. لم يدب اليأس في قلوب الكشميريين. مازال في قلبه حجر وليس ثلجاً. لقد بُعث الشعب الكشميري من القبور، يتأوه من الظلم. وليس أمامه إلا المقاومة وإضرام النار. فكُم من الشعوب أحرقتها الطغاة؟ الاستعمار في كشمير أدهى من حبات تدمره الأنفاس. والشعوب كما تبني تدمر. وجرح القلب وإهانة الكرامة يؤدي إلى الموت. تلك مهمة الشعر، إنشاد الألحان لتحريك والتأثير والتجديد⁽¹⁾. ويدعو إقبال الكشميري لتحرير وطنه. هو زهر الصحارى الذي يضرم النار في قلوب الناس⁽²⁾.

كشمير هي إيران الصغير. هو اليوم بلد خاضع وفقير. وحين يخاف رجل الحق السلطان والأمير تخرج الآهات المحرقة من صدر الأفلاك. الفلاح العجوز على سفح الجبل حزين. ينعى قسوة الأيام. فقد اختفى المجاهدون، العقول النيرة

كي يزيل شأفة الضود العتيق
أرضعته ألف أم ثم شب
لم يجد عند سوانا المصدرا
في الطريق حط ما صخرًا يمثّل؟
يا مديح السبع في مَجّ الزبد
يسعد الموجة جزر بعد مد
ذلك الشرق الحياة من وهبت

ولكشمير أراك غير أمل
تحت ثلج لم يصير جمر رمادا
كيف قام الشعب من جوف القبور
أخضرًا أحرق وأحرق ما يبس
أحرقته نار قلب الأشقياء
وهو بالأنفاس محتوم الخراب
والشعوب قد بنى أو دمر
لم تجد في هذه الدنيا ضرباً
ردد الألحان في الجنات ردد

يضرب الأحجار في عرض الطريق
من فتى في كل أرض قد غلب
إنه بالعنف أبدى المحشرا
عما الصواب عيشنا في حد ساحل
إن ألف الشط موت للأبد
الحياة السير في غور ونجد
أنت في وجه الحياة من قرأت

جاويد نامه، ص 294.

(1) إن منك الصوت أجراس القوافل
في الصدور لم يمت يأس فؤادا
قف تمهل لثرى من غير صور
وتأوه يا فتى لا تبئنس
كم بلاد تحت أفلاك السماء
إن هذا الملك أو هي من حباب
إنما الشعر المصير قنّدا
أنت إن جرحت هاتيك القلوبا
جدد التحريك والتأثير جدد

السابق، ص 294 - 295.

في قلوب للأناسي، هذه النار اضرم
وإذا لم تقتنع بالقول ذا الكون اسطرن

(2) أنت يا زهر الصحارى، قل أخفقت احترافا
كنت في قلب لهيبا، ولهيبا في دماء

السابق، ص 296.

والأيادي العاملة، فليتمهل الإله في يوم الجزاء حتى تثور الشعوب المغلوبة، ويتطهر ضمير الإنسان، ويشع مصباح الأمل. فما الذي ذهب بالنشوة والنشاط من العيون الكشميرية السوداء؟⁽¹⁾

وقد أعطى إقبال بعض التصريحات حول كشمير عندما استقال كرئيس للجنة «كشمير كل الهند»، نظراً لغياب أي دستور لها، وإعطاء الرئيس سلطة مطلقة. وهو حل مؤقت، بالإضافة إلى عدم اعتراض الأحمدية باللجنة وإثارتها بعض الشكوك حول مستقبلها على نقيض موقف مجموع مسلمي الهند⁽²⁾. وأعطى تصريحاً آخر بمناسبة رفضه تنصيبه رئيساً لجمعية «طريق كشمير» نظراً لأنه مازال رئيس لجنة «كشمير كل الهند». وقد روج القاديانيون للمصحافة قبوله لهذا المنصب الجديد. وبالرغم من دخولهم في الهيئة السياسية الإسلامية إلا أنهم يريدون بث الفرقة فيها، وعدم اعترافهم بالمسلمين غير القاديانيين في كشمير. والخشية أن تقوم الجمعية الجديدة التي دعا إليها القاديانيون على أسس طائفية⁽³⁾.

وفي تصريح حول الاضطرابات في كشمير يبين إقبال للكشميريين أن بريطانيا هو العدو الرئيسي وليس الهندوس، وأن هدف بريطانيا هو «فرق تسد»، وضرب المسلمين بالهندوس، والهندوس بالمسلمين. ويدعو إلى الوحدة بينهم وإلا عملت القوى المضادة ضد مصالحهم. كما يدعو إلى وحدة المسلمين. يكفيهم حزب سياسي واحد يمثلهم بدلاً من أحزاب متفرقة⁽⁴⁾. وفي تصريح حول الإصلاحات الإدارية في كشمير، يبين إقبال ضرورة بناء الثقة بين الحكومة والشعب. فقد صيغت الإصلاحات الإدارية له. ومشاركته فيها جزء منها. فالحكومة ليست غريبة عليه، بل تنبع منه⁽⁵⁾.

(1) أرمان حجاز، ص 535 - 537.

(2) Statement, on his resignation of the office of President of All - India Kashmir Committee issued on the 20 th June, 1933, Th. & Ref., pp. 300 - 3.

(3) Statement, on his rejection of the offer of Presidentship of Tehrik - i - Kashmir issued on the 2 nd October, 1933, Ibid., pp. 304 - 5.

(4) Statement, on the disturbances in Kashnair, issued on the 7 th of June 1933, Th. & Ref., pp. 356 - 7.

(5) Statement, on the administration refrom in Kashmir, Issued on the 3 rd August, 1933, Ibid., p. 358.

ويخصص إقبال جزءاً من خطابه الرئاسي الذي ألقاه في المجلس السنوي للمؤتمر الإسلامي لكل الهند لقضية كشمير⁽¹⁾. ويبين تاريخها الإسلامي، وكيف أنها إحدى الولايات الإسلامية ذات الأغلبية المسلمة. وموافرات الغرب لفصل كشمير عن التجمعات الإسلامية، وضمها إلى الولايات الهندية. ويقترح إقبال لحل المشكلة توضيحها في ذهن بعض القيادات الإسلامية، وجمع المال وتكوين رصيد وطني لمساعدة كشمير، وتكوين جماعات من الشبان للتوعية بالمشكلة، وتكوين معاهد مشتركة للرجال والنساء لدراسة القضية، وتكوين جماعة من العلماء والقانونيين من الداخل والخارج على حد سواء.

ويحمل إقبال هموم الأمة ليس فقط في الهند بل أيضاً في أفغانستان. ولم يرها وهي محتلة الآن بعد الغزو الأمريكي. وينادي نادرشاه ملك الأفغان كي يعود لإنقاذ أمة الأفغان من آلامها وجراحها⁽²⁾. وفي «وصية خوش حال خان» يعيد إقبال مناجاته للأفغان. ويطلبهم بشد أزر بعضهم بعضاً. يتمتعون بفتيان صيادين، يرمون شباكهم في السماء لصيد النجوم كرياضة الشجعان. فهم ليسوا أقل من المغول شجاعة. ويطلب ملك الأفغان أن يدفن فوق الجبال. لا تصفعه ريح ولا تمر عليه خيل. يكفي الحجر أن يكون خامداً تحت أكوام الرماد. ولو مرت فوقه ريح كان ذلك حديث الناس. ويضيء قبر تيمورلنك. وتحدث روحه بأن باب الله مازال مفتوحاً وإن سدته الأيام. فأحفاد طوران قادرون على استعادة مجد القدماء⁽³⁾.

(1) ألفي في لاهور في 1932/3/21، Th. & Ref., pp. 19 - 206.

(2) وعسى نادر يأتني
ليرى هذي الحقائق
عنه بفلسل بالدمع جراحات الشقائق
جناح جبريل، ص 538.

(3) يا أمة الأفغان شدوا بعضكم
ما شاهدت عيناى أجمل منظراً
يرمون في بحر السماء شباكهم
ليسوا أقل من المغول شجاعة
أنا خوش حال أحب قبرا إن أمت
لا ريح تصفعه بنقع خامل
ما تبقي غير جمر هامد
أي ريح فوقه لو عصفت
وإذا مرقد تيمورلنك قد
قال لي: يا أيها الباكى أنا
بعضاً وكونوا سادة الأفغان
كجمال صياديكُم الفتیان
صيد النجوم رياضة الشجعان
ليسوا بأدنى منهم في شان
فوق الجبال ممرد البنيان
مرت عليه خيول مغلستان
يتخفى تحت أكوام الرماد
جعلت منه حديثاً للعباد
بدد الليل بسيف من ضياء
روح تيمورلنك فاسمع ما أقول

تحتل أفغانستان مكاناً بارزاً في فكر إقبال بعد كشمير. إذ إن لها حدوداً مفتوحة مع كل الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا. هي قلب آسيا كما أن مصر هي قلب الوطن العربي. ففي تصريح حول مشروع الجامعة الأفغانية يبين إقبال أن أفغانستان المتعلمة صديقة للهند. والتعليم عامل موحد بين الشعبين. هناك وعي يتبلور لدى الشعب في حاجة إلى مزيد من الاستنارة بالاعتماد على التجربة الهندية. لم ينتج التعليم العلماني الخالص نتائج جيدة خاصة في البلدان الإسلامية. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. بل هو مرتبط بحاجة كل بلد⁽¹⁾. وفي تصريح آخر حول ظروف أفغانستان، أنها بلد آمن على الأرواح والممتلكات في وقت تشهد فيه البلاد موجة من العصيان. يؤدي الوزراء واجباتهم خير أداء. لا فرق بين رجال الدين والشباب والعمال في أداء الواجب. وتقوم أفغانستان الآن بتجديد نظم التعلم العام بحيث تتماشى مع البلدان المجاورة. فقد خصص قصر لمبنى الجامعة. ويتطور التعليم العالي في الطب والهندسة. وتربط الطرق بروسيا من أجل ربط وسط آسيا بوسط أوروبا. وتدل النهضة الحالية لأفغانستان على بداية نهضة شاملة⁽²⁾. مستقبل أفغانستان أن حكم التاريخ هو أن الدول المتاخمة لدول أخرى لم تستطع أن تكون وحدات سياسية كبرى. هكذا كان الأمر مع سوريا، دولة تخوم بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذلك من الصعب التنبؤ بمستقبل أفغانستان⁽³⁾.

وكما اهتم إقبال باستقلال كشمير وأفغانستان كذلك اهتم باستقلال تركستان تحت الاحتلال الصيني. ففي تصريح له حول العصيان في تركستان الصينية يبين كيف أن تركستان واقعة تحت الاحتلال الصيني والروسي. نشأ الغضب في تركستان الصينية بسبب تعيين قضاة صينيين في المقاطعة نظراً لأن 99٪ من سكانها مسلمون.

= إن باب الله مفتوح وإن
أنت من أبناء طوران وإن
سدت الأيام أبواب التضرع
فرقت أبناء طوران البشر
جناح جبريل، ص 540.

(1) Statement, on the proposed Afghan University, published on the 19 th October, 1933, Th. & Ref., pp. 359 - 6.

(2) Statement, on the conditions in Afghanistan, issued on the 6 th November, 1933, Ibid., pp. 361 - 2.

(3) ST. Ref., p. 36.

سبب العصيان إذن ليس التعصب الديني بل كان سبباً اجتماعياً اقتصادياً. ربما ما زال العالم يفكر بطريقة العرق. وهو أخطر ما يهدد البشرية. خاصة في آسيا. وقد استطاع الإسلام أن يقضي على هذه النزعات العرقية بانتشاره في ربوع آسيا، وتجنب ما حدث في أوروبا من سيادة النزعات العرقية. ويقترح إقبال استقلال المسلمين في تركستان. وموقف الصين من تركستان هو نفس موقف الهند من كشمير⁽¹⁾.

وكما قسمت بريطانيا الهند بين هندوس ومسلمين كذلك قسمت فلسطين بين عرب ويهود. وأقامت الحكم العنصري في جنوب أفريقيا في نفس العام 1948. وفي تصريح عن التقرير الذي يوصي بتقسيم فلسطين، يعبر إقبال عن إحساسه بظلم العرب. صحيح أن بريطانيا وعدت العرب بالعدل. وترك البرلمان البريطاني موضوع التقسيم مفتوحاً، ويرجو إقبال أن ينطبق قرار البرلمان ليس فقط على فلسطين بل على كل أرجاء العالم الإسلامي. يقصد كشمير وربما جنوب أفريقيا. المشكلة إسلامية حقاً. ففي ضوء تاريخ إسرائيل لم تعد فلسطين يهودية قبل دخول عمر إليها منذ وقت طويل أكثر من 1300 عام. وقد نشئتوا بإرادتهم في كل أنحاء المعمورة كما بين ذلك الأستاذ هوكنجز Hockings. ودونت كتبهم المقدسة خارج فلسطين. ولم تكن فلسطين أبداً مشكلة مسيحية. بل إن بعض النقاد يشككون في وجود بطرس الراهب بالرغم من محاولات الصليبيين جعل فلسطين مشكلة مسيحية. وقد انتهت هذه المحاولات بانتصار صلاح الدين. فلسطين إذن مشكلة إسلامية خالصة.

وقد كشف التقرير الملكي عن خفايا السياسة البريطانية. وكان الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مجرد آلية. والحقيقة أن بريطانيا أرادت وطناً قومياً لها وسط أراضي المسلمين. ولم يحل ذلك المشكلة البريطانية في المتوسط بل بدأت المشاكل للاستعمار البريطاني. وبيع الأراضي المقدسة بما في ذلك مسجد عمر بالإضافة إلى الأحكام العرفية مع اللجوء إلى كرمهم يدل على إفلاس سياسي أكثر من تحقيق خطة سياسية. فإعطاء اليهود أراضي غنية، والعرب أراضي

(1) Statement, on the rebellion in Chinese Turkestan, Published on the 16 th May, 1933, Th. & Ref., pp. 352 - 5.

صحراوية يتنافى مع العدل والحكمة. هي قسمة ضيزى باسم بريطانيا العظمى التي وعدت العرب بالحرية والوحدة.

هذا درس من فلسطين لكل الشعوب الآسيوية يؤدي إلى الوحدة الفورية بين العرب والأتراك ضد سياسة عزل تركيا عن باقي أرجاء العالم الإسلامي بحجة ابتعاد تركيا عن الإسلام، وهي فرية كبيرة. ومن يجهل الشريعة الإسلامية يصبح ضحيتها. لن ينس العرب التجربة التركية وامتحان الأتراك. وليتذكر العرب دائماً أنهم لن يستعيدوا فلسطين اعتماداً على ملوكهم بل على ضميرهم الخاص. والقرار خاص بهم بعد فهم دقيق للوضع وبمبادرة خاصة بهم. إن اللحظة الحاضرة هي أيضاً لحظة اختبار لباقي الدول الإسلامية في آسيا. فبعد إلغاء الخلافة ظهرت أول مشكلة دولية خطيرة ذات أبعاد دينية وسياسية تواجهها القوى التاريخية. بل إن المشكلة الفلسطينية قد تهدد وجودها كأعضاء في المؤسسة الإنجليزية الفرنسية التي تسمى «عصبة الأمم» واستكشاف الوسائل العملية لتكوين جامعة الشعوب الشرقية⁽¹⁾.

لم يحمل إقبال هموم الأمة الإسلامية في كشمير وأفغانستان وتركستان وفلسطين بل أيضاً في فارس وتركيا. لم يكن الهدف تاريخياً خالصاً بل كان أيضاً الربط بالعصر الحاضر خاصة في فارس، ومنح الشاه دستوراً للفرس، وظهور تركيا الفتاة كقوة أساسية في النضال السياسي⁽²⁾.

7 - الاستشراق

مازال الاستشراق يطل برأسه في دراسات إقبال الإنجليزية عندما يتكلم عن المحمديين ويقصد المسلمين، والمحمدية ويعني الإسلام أسوة بالمستشرقين الذين يشتقون اسم الدين من اسم مؤسسه مثل الكونفوشيوسية من كونفوشيوس، والبوذية من بوذا، والزرادشتية من زرادشت، وليس من الفعل الأول في الدين مثل «الإسلام» من «سلم»⁽³⁾.

(1) Statement, on the Report recommendation partition of Palestine, Punjab Muslim League, 27 th July, 1937, Th. & Ref., pp. 369 - 72.

(2) Th. & Ref., p. 75.

(3) Th. & Ref., pp. 39 - 41/43, 50 - 52/54.

ويستعمل إقبال في دراساته النظرية في الفلسفة السياسية المنهج التاريخي السائد في عصره والذي كان سائداً في الغرب في القرن التاسع عشر وتحجر ووقع في النزعة التاريخية⁽¹⁾. فإذا ما درس التفكير السياسي في الإسلام فإنه يبدأ بما كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام حتى ظهور الإسلام. ثم تتابع المراحل التاريخية طبقاً للمراحل المعروفة من الدولة الأموية والدولة العباسية إلى العصر الحاضر⁽²⁾.

ويستشهد بأقوال المستشرقين مثل توماس أرنولد Th. Arnold، واعترافه بانتشار الإسلام سلباً أكثر منه حرباً خاصة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا⁽³⁾. كما يستشهد بفون كريمر Von Kremer بعد معرفة العرب بنظام الوراثة في الحكم⁽⁴⁾. ويستشهد بدوزي Dozy وحكمه على الفرس بأنهم لا يعرفون البيعة، وأنهم مستعدون لتأليه الإمام⁽⁵⁾. ويستشهد بفنسك Wensinck على أن الإسلام عليه أن يواجه الصعوبات التي واجهتها المسيحية بالنسبة لعلاقة الدين والسياسة⁽⁶⁾. ويستشهد بقول رينان إن الإنسان ليس عبداً لعرقه أو لدينه أو بمجرى أنهاره أو باتجاه جباله المحيطة به. بل إن الإنسان بعقله الراجح وقلبه الدافئ يخلق وعياً أخلاقياً يسمى الأمة⁽⁷⁾. ويعتمد على قوله إن الإسلام قد يفقد يوماً ما توجهه الأخلاقي والعقلي لجزء كبير من العالم⁽⁸⁾. ويستشهد بقول هرجونجي Hurgrounje على تطور الشريعة وكيف كفر كل اتجاه الآخر كدليل على ما يفعله المسلمون الآن ضد القاديانية والبهائية. مع أنه لم يحدث تكفير بين المذاهب الفقهية بل بين الفرق الكلامية⁽⁹⁾. ويعتمد على بعض علماء الاجتماع والأجناس ومؤرخي الأديان.

(1) النزعة التاريخية. Historicism.

(2) Political Thought in Islam, Th. & Ref., pp. 56 - 75.

(3) Th. & Ref., p. 47.

(4) Ibid., p. 56.

(5) Ibid., p. 75.

(6) Ibid., p. 165.

(7) Ibid., p. 167 - 8.

(8) Ibid., p. 377.

(9) Ibid., p. 265.

الخاتمة

بعض الملاحظات النقدية

1 - جوهرية الذات: الذاتية هي محور فلسفة إقبال⁽¹⁾. لذلك كان «الذات» و«الذات المشتركة» الباب الأول «الذاتية» بفصليه أكبر الأبواب. هو الخيط الناظم لحبات العقد كلها. كل الموضوعات الأخرى في أبوابها وفصولها تجليات للذاتية. وهي رد فعل على أوضاع المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. كانت أفغانستان تابعة للإنجليز. يدفعون لأميرها منحة سنوية في مقابل فرض وصياتهم على البلاد. وتركستان خاضعة لروسيا. وإيران متخلفة تحكمها التقاليد القديمة. اتجهت إلى مجالس العزاء وإقامة المراثي دون العمل والكفاح والجهاد. وهو ما نبه عليه الخميني بعد ذلك في «جهاد النفس»⁽²⁾. وفرضت روسيا سيطرتها على شمال إيران بموجب معاهدة 1907 في مقابل فرض إنجلترا سيطرتها على جنوبه. وتركيا التي وصلت إلى أبواب فينا مدحورة حتى وصلت جيوش البلغار إلى القسطنطينية ومن قبلها روسيا. والعلماء يقبعون وراء المحافظة القديمة. واحتل الإنجليز مصر في 1882. وامتدوا إلى السودان، ونش قبر المهدي. وكانت فرنسا قد سيطرت على الجزائر منذ 1830. ثم احتلت تونس والمغرب وسوريا ولبنان. واحتلت إيطاليا ليبيا. واحتلت إنجلترا العراق والأردن والخليج واليمن. حاول جمال الدين الأفغاني إيقاف المسلمين قبل إقبال، وتصدر الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج، والفهر والتخلف في الداخل. وكان حال مسلمي الهند أسوأ من حال المسلمين العرب. فقد احتلت إنجلترا الهند. ونشرت الأفكار المميتة في

(1) سمير عبد الحميد إبراهيم، مقدمة الأسرار والرموز، ص 2 - 9.

(2) الإمام الخميني: جهاد النفس أي الجهاد الأكبر، القاهرة، 1980.

روح المسلمين بعد أن ضيقوا علمهم في الرزق، واستولوا على أراضيهم. وأشعلوا نار الفتنة بين المسلمين والهندوس بعد تأسيس حزب المؤتمر. كان لدى المسلمين مدرستان، عليكره لتخريج موظفين للإمارة المدنية، وديوباند لتخريج علماء محافظين. أما الأمراء فقد انشغلوا باللهو عن مصالح الأمة. وقرض الشعراء الشعر التقليدي الميت. وتأسس عام 1906 حزب الرابطة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية. لم يكن الهدف إذكاء روح الحرية عند المسلمين بل مطالبة الإنجليز ببعض الحقوق ضد السيطرة الهندوسية مع الوفاء لبريطانيا. ثم تغير الموقف عام 1911 بعد إلغاء تقسيم البنغال عام 1912. وفي هذه الظروف كتب إقبال مثنوي «أسرار النفس».

ومع ذلك يمكن القول بأن إقبال دفع مفهوم «جوهرية الذات» وكأنها ماهية مسبقة ثابتة دائماً. هو الله نفسه. فالذات Khudi من نفس الاشتقاق لله Khuda. الذات جوهر غير متعين، وعي خالص، لا فرق بين الذات الإلهية والذات الإنسانية⁽¹⁾.

2 - الثنائيات التقليدية: هناك ثنائيات تقليدية شائعة مثل ثنائية العلم والدين كما هو الحال عند برجسون، برودة العلم وحيوية الدين، عجز العلم عن الاقتراب من عالم الروح، وقدرة الدين على النفاذ إليه⁽²⁾. إن لم يكتمل العلم بالدين فإنه لا يصبح علماً. وخطورة ذلك هو أخذ نتائج العلم وتوفيق عقائد الدين ونصوصها عليها وكما هو الحال في التفسير العلمي للقرآن على مدى قرن من الزمان⁽³⁾. وثنائية العقل والوحي أو العقل والقلب أو العقل والعشق وإعطاء الطرف الثاني الأولوية على الطرف الأول هي الثنائية التقليدية بين علوم النظر وعلوم الذوق، بين الحكمة والتصوف بالرغم من تقدم الحكمة نحو الإشراق، والتصوف نحو الفلسفة

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد.

(2) العلم يخلق إبراهيم سرته
هذي الحياة وهذا الكون ما بُدلا
ما يُحسن المَرْجُ تريبب الزهور إذا
العَلَمُ إن لم يُضف نجوى الكلم إلى
إذا تراه نديم القلب والنظر
ما محدث وقديم قول ذي بصر
لم يشترك نسيمات الطل في الزهر
رأي الحكيم فما في العلم من قدر

ضرب الكلم، ص16.

(3) منذ طنطاوي جوهرى في أوائل القرن العشرين حتى زغلول النجار في القرن الواحد والعشرين.

الإلهية. والتقابل بين الكفر والإيمان تقابل تقليدي من علم أصول الدين. أقرب إلى موقف الخوارج حيث لا واسطة بينهما لدى الفاسق أو المنافق. وقد يكون عمل الكافر أفضل من نفاق المؤمن. فالمحك هو العمل لا النظر.

3 - التصوف السلبي: وإقبال ضد التصوف ومع التصوف، ضد تصوف الفناء ومع تصوف البقاء، ضد تصوف العبادات ومع تصوف المعاملات، ضد تصوف الآخرة ومع تصوف الدنيا. فإذا تخلّى العرب والعجم عن الرسالة يبقى الصوفية الأتدر على حملها⁽¹⁾. كل مصطلحاته من الصوفية، المقامات والأحوال والعشق والمحبة والقلب والنفس والوجود والفناء والبقاء والرضا... إلخ. هذا الموقف المشتبّه من التصوف هو الذي جعل إقبال يقبل بعض عناصر التصوف السلبي مثل الفقر بالرغم من محاولة تحويله إلى مقام إيجابي في «الفقر الغيور». وبالرغم من نقد إقبال لبعض المقامات والأحوال السلبيّة مثل الرضا والتوكل إلا أنه يقبل بعض الجوانب السلبيّة التي ليس عليها دليل مثل الخضر والمعجزات، حقيقة لا رواية، والحقيقة المحمدية التي يؤلّه فيها محمد كما ألّه النصاري المسيح. وبالرغم من نقده القضاء والقدر والتوكل إلا أنه ضد الأخذ بالأسباب اعتماداً على التوكل، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف. وبالرغم من نقد إقبال لفقر الهند على باب المساجد للتسول إلا أنه يدافع عن الفقر في أمة بها بون شاسع بين الأغنياء والفقراء.

ويقترّب إقبال من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية في مناجاته له وتسميته الإسلام باسمه ونداء روحه «أي روح محمد»⁽²⁾. وهو تأليه محمد وإخراجه خارج الزمان والمكان، ومشاركته لله في بعض صفات مثل الخلق والسرمدية. في حين أن القرآن يجعل محمد مجرد إنسان يوحى إليه. هو ابن امرأة تأكل القديد، ويمشي في الأسواق. هو كائن إنساني يولد ويموت، يأكل ويشرب، يصوم ويفطر، يتناجى ربه ويأتي النساء. هو رسول الله وخاتم النبيين، أداة لإيصال الوحي من الله إلى الناس كما أوصله جبريل من الله إلى الرسول. وقد حذر

Persian Psalms, P. 69.

(1)

(2) فبين لنا الأسرار روح محمد حفيظ لآي، ياله، أين يذهب؟

ضرب الكلیم، ص 32.

الرسول من إطرائه كما أطرت النصاري عيسى بن مريم. وعندما أنكر عمر أن الرسول قد مات ذكره أبو بكر بآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾. وتختلط الشكوى بالمديح النبوي بالطريقة التقليدية عند العامة أو بتصور الحقيقة المحمدية عند الصوفية، لا فرق بين محمد الإنساني و محمد الإلهي، بين محمد الشخصي و محمد الكوني، بين محمد الرسول و محمد المعشوق. يخاطب الشاعر المصطفى، ويحادثه بضمير المخاطب المفرد، وجهاً لوجه دون واقع يجمع بينهما. الحقيقة المحمدية خلط بين الرسول والرسالة وتفخيم دور الرسول على دور الرسالة، وتحويل الوسيلة، وهو الرسول، إلى غاية وهي الرسالة. مع أن الرسول مجرد بشر، مثل باقي البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

والعجيب أن تنتهي رموز نفي الذات بشكوى الشاعر إلى من أرسل رحمة للعالمين. وهو شكل أدبي مثل الدعاء. كلاهما مناقضان لفلسفة العمل. فالشكوى مذلة، والدعاء ضعف. وأساليب الشكر والشكوى لا تتفق مع فلسفة الذاتية، وأقرب إلى مواجيد الصوفية. فالشكر من العبد الجهول الذي وصل إلى سر الغيب، وأعطى هيام قلب قزب البعيد، والشكوى من أنه موجود بأرض العبيد التي تطيب نفوسها بالرق. فالشكر مقام من مقامات الصوفية يتنافى مع أداء الواجب كما هو في المثل العامي «لا شكر على واجب». والرق ليس موضوعاً للشكوى بل للتغير الاجتماعي والسياسي⁽¹⁾.

ويبدو أن العشق والحياة والشوق والطاقة هي تعبيرات شعرية لموضوع تقليدي محافظ هو الإيمان أو القلب. يدعو إقبال الله أن يجعل عشقه قرين العمل. العشق هو العلم الأسمى وهو جوهر الدين. كما يدعو أن يهبه الله اليقين بدلاً من الشك الذي أمضى فيه سنين كما دعا الخيام والغزالي من قبل. كما يدعو الله أن

(1) لك الحمد إني عبد جهول
منحت القلوب هياماً جديداً
ومن حر شدي يري في الخريف
ولكن خلقت بأرض بها
ولكن وُصِلت بسر الغيوب
أثرت البعيد به والقريب
طروباً بصحبته العندليب
نفوس العبيد برق تطيب

يميته في الحجاز مهبط الوحي، ومسكن المصطفى أرض الإيمان، وليس أرض الأصنام، أرض المقام. فنعم هذا الوطن⁽¹⁾.

4 - الانبهار بالقديم: وبالرغم من نقد إقبال للتراث القديم، الكلامي والفلسفي والصوفي والفقهية إلا أنه من أكبر المدافعين عن الأصالة والقديم ضد الجديد. ويدافع عن التقليد في زمن الانحطاط، فيزداد الانحطاط. ولا يُقام تجديد إلا بالاجتهاد وإعمال العقل. ويدعو إلى التقليد في زمن الانحطاط، والتخلي عن الاجتهاد. وهو مبدأ الحركة في الإسلام. ولا يقابل الانحطاط إلا التقدم، وشرط التقدم إعمال العقل. ولا شأن للقياس، أحد أشكال الاجتهاد، بالمنطق الأرسطي الذي عرفه الشافعي واضع علم الأصول. فقد عاش الشافعي في القرن الثاني (ت 204هـ) وعصر الترجمة لم يكن قد انتهى بعد أو عند أبي حنيفة وإبراهيم النخعي (ت 204هـ) إلى منطق أرسطو وقد توفي 150هـ⁽²⁾. ينبهر إقبال بالقديم وهو غير عالم به على نحو دقيق وباستعمال منهج الأثر والتأثر الأثير عند المستشرقين.

ويرفض الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة. الأشياء حسنة وقبيحة لأن الله

(1) أسألن الله رب العرش لي
رب قد أنعمت بالروح الحزين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا
في إسائر الشك أمضيت سنين
أحرقن نلت من علم اليقين
لم يلخ في ليل عمري نور حق
يا من القلب سواه أغفلا
سيرتي ما ضار فيها العمل
يا رحيمًا بك للناس مفاز
هجر غير الله شأن المسلم
حسرة المسلم أن ضم الممات
وبل يومي، وهنيئًا لغدي
حيث أرض ثراها موطننا
دار حبي وملبكي والسكن
أيها الدهر انظرن هذا السلام

يجعلن عشقي قرين العمل
ونصيا شئت من علم ودين
واجعلن قطر ربيعي دررا
وهو في رأسي مقيم لا يبين
ومن الحكمة في الريب رهين
لم يُنره ليلى شعاع من شفق
إذ نلت أذكر هذا الأمل
كيف مثلي مثل هذا يأمل
كل ما أبغيه موتى في الحجاز
كيف لي عيش ببيت الصنم
أن يكون الدبر مشوى للرفات
إن أقم في ذا الحمى من لحدي
حبذا ثوب تراه مسكنا
أيها العشاق! ذا نعم الوطن
قد رأيت البدء فانظر ما الختام

الأسرار والرموز، ص 149 - 154.

(2) حنين بن اسحق (ت 264هـ)، اسحق بن حنين (ت 299هـ)، ثابت بن قرة (ت 288هـ)، قسطا بن لؤيا (ت 300هـ)، أبو بشر متى بن يونس (ت 328هـ)، يحيى بن عدي (ت 364هـ).

أمر بها أو نهى عنها، وليست في ذاتها. ويتمهم العقلانية الغربية بالتفتيت والتفكيك باسم التحليل مع أن السبر والتقسيم أي رصد العلل وتحليلها هو أحد مناهج «التعليل» في علم الأصول.

والرسول قادر على إجراء المعجزات. ونموذجها عصى موسى التي تفجر الماء من الصخر، والإسراء والمعراج لمحمد. فالمعجزة تدل على القدرة والسيطرة على قوانين الطبيعة.

ويقول إقبال بالحاكمية وبأن الإنسان خليفة الله في الأرض، نفس دعوى المودودي المعاصر له. فالحاكمية لله لا للأيدولوجية ولا للقومية ولا للوطنية. والأخوة الإسلامية تجب الأيدولوجيات والقوميات والنزعات الوطنية. مع أن الله لا يحكم. وليس له ما يمثله على الأرض. الإمامة عقد وبيعة واختيار بإجماع الأصوليين، لا تعيين ولا وراثة.

والشريعة الإسلامية عند إقبال إلهية كما هو الحال عند السلفيين المحافظين مع أنها شريعة «وضعية» كما قرر الشاطبي في «الموافقات». لها ركائزها في «أحكام الوضع» الخمسة: السبب، والشرط، والمانع، والعزيمة والرخصة، والصحة والبطالان. فكل فعل له سبب. وتوفر له شروط. وتزول عنه الموانع، يتم بالحد الأعلى أو بالحد الأدنى. ويتحقق بالنية وليس لمجرد استيفاء الشكل. لا يعني «الحد» فقط المعنى الحرفي وهو «التجاوز» بل يعني أيضاً جرس الإنذار حين الخروج على حكم العقل وقانون الطبيعة وإلا تحولت الحدود إلى خرق لقوانين العقل والطبيعة على حد سواء. والشريعة اليهودية ألواح نزلت من السماء، وليست قوانين أخلاقية هبطت على قلب موسى كما فسر إسبينوزا.

ويدافع إقبال عن الأحمدية القاديانية والبابية بدعوى حرية الفكر والرأي، وهو الذي يدافع عن التقليد وقت الانحطاط. يبدو أن إقبال خضع للحملات الغربية دفاعاً عن هذه الادعاءات المذهبية المعاصرة التي تخرج من فرق الشيعة عامة والإسماعيلية خاصة. وتنحو بالإسلام نحواً صوفياً عالمياً يتجاوز حدود الأوطان كادعاءات الماسونية. وإقبال ضد التصوف، ومثلها البهائية. ويقوم مؤسسوها على ادعاء النبوة أو الولاية أو الإلهام الخاص. يؤيدها الغرب لأنها تسقط ركن الجهاد في الإسلام بدعوة المحبة العامة لكل البشر بما في ذلك المستعمرين والصهاينة.

لذلك كان مركز البهائية الرئيسي في حيفا. وتضغط الدوائر الغربية لجعل البهائية ديناً رسمياً معترفاً به في البطاقات القومية في حين أن الحركات الإصلاحية كلها تتجاوز الفرقة المذهبية العقائدية والفقهية لتوحيد الأمة والعود إلى الإسلام الأول.

وبالرغم من الذاتية ودعوة إقبال للعمل والنشاط ضد التصوف والكسل، إلا أنه ما زال يؤمن بالمهدي، المخلص، الرسول الجديد القادر على إنقاذ الأمة. وإقبال الشاعر قبل المهدي. كلاهما يوقظ الأمة من سباتها. وهو ما لاحظته ابن خلدون أيضاً في أن العرب لا يفلحون إلا بصبغة نبوة أو ولاية. وهو ما يتنافى مع قدرة الشعوب على الحركة، والجماعة على الفعل لصالح انتظار البطل الذي قد لا يأتي. وقد يكون الخلاص في الحاضر دون انتظار المستقبل، بالفعل الجماعي وليس بالفعل الفردي.

ويعظم إقبال الحجاز والعرب ومكة والكعبة. يبجل العرب لأنهم حملة الرسالة، والحجاز لأنها مهدها، ومكة لأنها كعبة المسلمين⁽¹⁾. في حين أن التوحيد لديه غير مرتبط بزمان أو مكان. وقد حملت شعوب أخرى رسالة الإسلام في آسيا وأفريقيا. والعروبة ليست عرقاً أو مكاناً أو مدناً أو شعباً بل لغة. فكل من تكلم العربية فهو عربي. وبيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة. يدل على التوحيد، والتوجه نحو قبلة واحدة، واجتماع الأمة كلها في مكان واحد وزمان واحد لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة من أعدائها.

5 - رفض الغرب: وبالرغم من أن إقبال من كبار المصلحين إلا أن موقفه من الغرب أقرب إلى الرفض منه إلى القبول. صحيح أنه يرفض الحداثة على المتوال الغربي إلا أن المحافظين يعتمدون على هذا الموقف المعادي للغرب للدفاع عن الذات القديم. يمكن نقد الغرب في إطاره النظري، ورد مذاهبه الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى الظروف التي نشأت فيها. ويمكن تحويل الغرب من كونه مصدراً للعلم كي يصبح موضوعاً للعلم وتأسيس علم «الاستغراب». وإذا كان الغرب قد أصبح مصدراً للثقافة الإسلامية المعاصرة منذ أكثر من ثلاثة قرون وتفاعل مع الثقافة الإسلامية القديمة وإنتاج فكر إسلامي حديث فإنه لا يمكن

رفضه أو استبعاده وإلا سار الإنسان ضد منطق التاريخ. ويرفض إقبال كل مظاهر الحداثة في الغرب باعتبارها ضد الدين ومعادية له. والحداثة تجربة تنموية أصيلة في نظرية المعرفة والسلوك وأقرب إلى الاتجاه الإسلامي في الاعتماد على العقل والسيطرة على قوانين الطبيعة.

وفي نفس الوقت يمدح إقبال المصلحين الأتراك لأنهم جمعوا بين الوافد والموروث، بين الغرب والشرق في رؤية جديدة كما فعل أصحاب «التنظيمات» دون الوقوع في نموذج أتاتورك، القطيعة مع الموروث وتقليد الوافد.

وقد استلهم الشاعر الوطني التركي العظيم ضيا آراءه من أوجست كومت بالنسبة للعلمانية والحداثة. وقد لاحظ هوبز أن من يكرر أفكاره ويتعود عليها فإنه لن يكون قادراً على الإبداع فيما بعد. ومن ثم وجب التفاعل مع الأفكار المغايرة، واستلهم ثقافات أخرى لتطوير الثقافة الذاتية. والأمة الإسلامية اليوم تمر بنفس الفترة التي مرت بها أوربا أثناء الإصلاح الديني عند مارتن لوتر. وقد كانت حركة سياسية في جوهرها لإحلال الأخلاق القومية محل الأخلاق المسيحية الشاملة. ثم تحولت القومية والوطنية فيما بعد إلى نزعات عنصرية⁽¹⁾. ويستشهد بأوجست كومت على الجماعة الإسلامية بلا حدود عرقية أو جغرافية أو لغوية بقوله إن الدين يضم كل أبعاد الوجود الإنساني. وتاريخه جزء من تأريخه.

وتنتسب الاشتراكية الملحدة الحديثة لهيجل. أخذت نفس حرارة الدين وحميته⁽²⁾. وهي مادية صريحة تفسر الظواهر الدينية تفسيراً مادياً. ويعتبر بعض علماء الفزيولوجيا كبار المتدينين مثل جورج فوكس G. Fox من مرضى الأعصاب وأن الرسول كان «متهوساً». في حين أخرج يونج ظواهر التدين من علم النفس التحليلي إلا أنه لم يلتزم بمذهبه. واعتبرها تعبيراً عن البنية النفسية الشعورية واللاشعورية.

وبالرغم من عدا إقبال للغرب إلا أنه لقي الدكتور الإيطالي موسوليني الذي أراد إحياء الأمجاد الرومانية الاستعمارية القديمة تحت ذريعة نهضة الأمة وإحياء

(1) تجديد، ص 182 - 188.

(2) السابق، ص 216 - 217.

عظمتها. وهناك فرق بين الأمة التي تقوم على أواصر الأخوة مثل الأمة الإسلامية والأمة التي تقوم على نقاء العنصر مثل الفاشية والنازية والصهيونية.

ويصدر إقبال أحكاماً على الفلسفة الغربية تتسم بعدم الدقة والرفض المبدئي باسم الإسلام أو الإيمان واتهام المذاهب الغربية بالكفر والإلحاد والمادية. فالعلم الغربي كفر أو يؤدي إلى الكفر لأنه يفسر الظواهر بعلمها المادية فحسب. في حين أن تحليل العلل أساس القياس في علم أصول الفقه. والعلمانية ضد الدين لأنها تفصل بين الدين والدولة في حين أنها فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، الكنيسة عن الدولة وليس الدين عن الحياة. ومقاصد الشريعة ابتداء وهي الضروريات الخمس، الحفاظ على الحياة والعقل والقيمة والعرض أي الكرامة والمال أي الثروة الوطنية تتجاوز الفصل الزائف بين الدين والعلمانية. فحقوق الإنسان وحقوق الشعوب تتجاوز هذا الفصل التعسفي.

6 - الاستشراق: ربما خضع إقبال لآثار التيارات العنصرية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر عند رينان وجوتيه وتفرقتهما بين العقلية السامية والعقلية الآرية. وكرد فعل على تمجيد المستشرقين الآرية ونقد السامية يحدث عند إقبال رد الفعل المضاد بتفضيل السامية على الآرية⁽¹⁾. طبيعة الجنس الآري تقوم على الفلسفة في حين تقوم طبيعة الجنس السامي أي العربي على العمل. يعبر الفكر الآري عن وحدة الوجود في حين يعبر الفكر السامي عن التوحيد. لذلك مال الفكر الآري في الهند وإيران إلى القول بوحدة الوجود وأن الذات مجرد زيف. والدول الأوربية تقول بالذات منذ ديكارت وهي آرية. ويقول بعض الصوفية المسلمين بوحدة الوجود وهم ساميون. وتظهر الشعوبية أحياناً في تفسير وحدة الحضارة الإسلامية بأنها تخصيب متبادل بين الأفكار السامية والأفكار الآرية. تجمع بين رقة ونعومة الأم الآرية ورجولة الأب السامي⁽²⁾. والفلسفة الإيرانية هي الأب قبل الإسلام ثم أخذت شكلاً جديداً بعده.

7 - الاشتباه في فكر إقبال: وبالرغم من الجوانب التقدمية في فكر إقبال

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، المقدمة، ص13.

Muslim community, Th. Ref., p. 379.

(2)

خاصة في شعره مثل الذاتية والفعل والحرية إلا أن بعض الجوانب التقليدية مازالت فيه. لذلك انقسم أنصاره إلى فريقين. الأول، يدفع بالاتجاهات الإصلاحية التقدمية إلى الأمام. والثاني، يجر إقبال إلى الاتجاهات التقليدية للمحافظة. فالإيمان هو الحل، وذكر الله المستمر هي نقطة البداية، والتصوف هو الطريق للمحافظة على الشخصية، والإسلام هو أفضل الديانات، والشريعة أسمى الشرائع. ولا فرق بين الشعر والخطابة. والوعظ والإرشاد. يعرف إقبال الحقيقة مسبقاً ويحاول الاستدلال على صحتها بالبرهان أو التعبير عنها شعراً بالصورة الفنية المستقاة من الطبيعة الحية من النبات والحيوان والطير. والإنسان هو المؤمن وليس المواطن أو القومي. والمؤمن وحده هو العالمي نظراً لعالمية الإيمان والأخوة الإسلامية. ووضع المرأة في المنزل لتربية الأولاد وليس المرأة العاملة. ويرفض إقبال التسوية في الدية بين المسلم وغير المسلم كما هو الحال في المدارس التقليدية في الفقه في مقابل مدارس أخرى قديمة وحديثة تسوي في القصاص بين القاتل والمقتول بصرف النظر عن الدين (المسلم وغير المسلم) أو الجنس (الذكر والأنثى) أو الوضع الاجتماعي (الحر والعبد). وفي الفنون ينقد إقبال فن السينما ويعتبرها تمويه الصورة واستبدال الحقيقة بها. والتصوير الفني في القرآن والشعر هو أيضاً استعمال للصورة عن طريق التخيل من أجل التأثير في الناس. ويمدح إقبال الملك فاروق بمناسبة توليه العرش عام 1936. ويقرض له الشعر كما يفعل الشعراء الأقدمون في مدح السلاطين. وقد أنعمت ملكة بريطانيا عليه بلقب «سير». فأصبح «سير محمد إقبال».

المصادر والمراجع

1 - دواوين الشعر

- الديوان الأول. صلصلة الجرس، (بانكا درا). إعداد سيد عبد الماجد الغوري، ج1، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية (الهند)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (د.ت).
- الديوان الثاني. الأسرار والرموز. أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، أسرار خودي ورموز خودي. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).
- الديوان الثالث. رسالة الشرق، (بيام مشرق). نقله إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).
- الديوان الرابع. زبور المعجم. نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري (د.ت).
- الديوان الخامس. جناح جبريل. (بال جبريل) نقله من الأردوية إلى الفرنسية نثرا السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثرا الأستاذ عبد المعين الملوحي. ثم صاغه بالعربية شعرا الأستاذ زهير ظاظا.
- الديوان السادس. ضرب الكليم. إعداد سيد عبد الماجد الغوري. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام.
- الديوان السابع. رسالة الخلود (جاويدنامه). نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة أخرى نثرا من الدكتور محمد السعيد جمال الدين (د.ت).
- الديوان الثامن. والآن... ماذا نصنع؟ يا أمم الشرق. نقله إلى العربية الأستاذ أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعرا الشيخ صاوي شعلان المصري.
- ديوان هدية الحجاز. (أرمغان حجاز) نقله إلى الفارسية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة وتحليل للديوان مع دراسة عن عصره وفكره وأدبه تأليف الأستاذ سمير عبد الحميد إبراهيم، المكتبة العلمية ومطبعها البك رود، لاهور، باكستان 1976.
- درر من شعر إقبال، شاعر الإسلام وفيلسوفه. نقله إلى العربية نظما الأنسة أميرة نور الدين داود، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

- Persian Psalms. Zabari-I-'Ajam, parts I, II, translated into English verse from the Persian by Arthur J. Arberry, Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1948.
- The Renaissance of Islam. Iqbal's Tulu-e-Islam, rendered into English by Abdur-Rahman Tariq and Aziz Ahmed Sheikh, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1966.
- The Guide. Iqbal's Khizr-e-Raah, rendered into English by Tariq and Aziz, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1965.
- The New Rose Garden of Mystery and the Book of slaves. versified english translation of Iqbal's Gulshan-i-Raz-i-Jadid and Bandagi Namah by Hadi Hussain. Introduction by S.A. Vahid, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- The Secrets of The Self, translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D., Lt. D., Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- Complaint and Answer. Translation by A.J. Arberry, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1971.
- A Message from The East. A selective verse rendering of Iqbal's Payam-i-Mashriq by M. Hadi Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

2 - المؤلفات النثرية

- تجديد التفكير الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود. راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1952 ط 2، 1968.
- تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية. ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة 1409هـ - 1989م. العنوان الأصلي للكتاب Development of Metaphysics in Persia.
- *Thought & Reflections of Iqbal*, edited with notes by Sayed Abdul Vahid, SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.
- *Letters and Writings of Iqbal* edited and compiled by B. A. Dar, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.
- *Letters of Iqbal to Jinnah. Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India*, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

المحتويات

5	الاهداء
7	مقدمة
7	1 - تصدير
10	2 - الموضوع والمنهج
12	3 - الترجمات الحالية
16	4 - أعمال إقبال
17	5 - التبويب

الباب الأول الذاتية

21	الفصل الأول: الذات
21	1 - مقدمة: «أسرار النفس»
24	2 - الذاتية الحقيقية الوجودية الأولى
26	أ - يقظة الذات
28	ب - إمكانية الذات
32	ج - وحدانية الذات
33	3 - الوعي الذاتي
33	أ - استقلال الوعي الذاتي
37	ب - الذات الكونية
39	ج - الذات الإلهية
41	4 - العقل والقلب
41	أ - حدود العقل
50	ب - رحابة القلب

52	5 - العلم والعشق
54	أ - العلم الحي والعلم المدون
58	ب - العشق والشوق
64	ج - الجنون
66	د - الحب
68	6 - حرية الاختيار
68	أ - الإنسان حر
74	ب - وهم القضاء والقدر
81	ج - الحرية الذاتية
84	7 - الإبداع
88	8 - المقاصد والآمال
95	9 - ضعف الذات ونفيها
95	أ - ضعف الذات
99	ب - نفي الذات
101	10 - مراحل تربية الذات
101	أ - الطاعة
102	ب - ضبط النفس
104	ج - النيابة الإلهية
110	11 - الذات بين المثال والواقع
111	أ - الحياة كفاح
118	ب - الذات عمل
123	ج - العالم ميدان للفعل
125	12 - الزمان والخلود
125	أ - الزمان الشعوري
127	ب - خلود الزمان
131	الفصل الثاني: الذات المشتركة (الأمة)
131	1 - انبثاق العالم من الذاتية

137	2 - إثبات الذات سابق على إثبات الآخر
139	3 - الفرد والأمة
143	4 - تربية الأمة بالنبوة
144	5 - أركان الأمة: التوحيد والرسالة
144	أ - التوحيد
154	ب - الرسالة
157	6 - انتظام الأمة بالشريعة
161	7 - التقليد والاجتهاد
163	8 - حاجة الأمة إلى مركز محسوس (البيت الحرام)
164	9 - بقاء النوع الإنساني بالأمومة
166	10 - توسيع حياة الأمة لتسخير قوى العالم

الباب الثاني جدل الذات

171	الفصل الأول: إثبات الذات (التأويل)
171	1 - التجربة والنص
173	2 - الذات والنص
173	أ - إثبات الذات
174	ب - الاحساس بالذات
174	ج - تربية الذات
174	د - تكميل الذات
175	هـ - ثمرة تكميل الذات
176	و - التمييز بين الأسرار والرموز
176	3 - اللفظ والصورة
178	4 - البيت والآية
185	5 - القصة الدينية
191	6 - القصة الخيالية
195	الفصل الثاني: نفي الذات
195	1 - التصوف السلبي

202	2 - وحدة الوجود
204	3 - الفناء
208	4 - عبادة الأصنام
214	5 - المسجد والدير
219	6 - العزلة والرهينة
225	7 - إمامة العالم
227	8 - المصلح والدرويش
230	9 - فلسفة العمل
232	10 - الزهد
233	11 - الفقر
234	أ - الفقر والحرية
238	ب - الفقر والملك
240	ج - الفقر الغيور
244	د - القلندر
247	12 - المقامات والأحوال

الباب الثالث الشكوى والأنين

253	الفصل الأول: الشكوى والجواب
253	1 - صلصلة الجرس
256	2 - حيلة العاجزين
257	3 - الشكوى لمن؟
263	4 - موضوع الشكوى: العصر الحاضر
273	5 - جواب الشكوى
279	الفصل الثاني: الأنين والحنين
279	1 - جناح جبريل
282	2 - مصدر الأنين
286	3 - منابع الحنين

294	4 - الحنين إلى الماضي
298	5 - الحنين إلى الأوطان
298	أ - مكة والحجاز
299	ب - قرطبة والأندلس
303	ج - الشام وفلسطين
305	6 - من الماضي إلى الحاضر

الباب الرابع السقوط والنهوض

313	الفصل الأول: أسباب السقوط
313	1 - «ضرب الكلیم» و«رسالة الخلود»
313	أ - ضرب الكلیم
314	ب - جاوید نامه
317	2 - موقف الذات
323	3 - القدرية والمهدية
327	4 - القهر الداخلي والاستعمار الخارجي
330	5 - ما هو الحل؟
337	الفصل الثاني: عوامل النهوض
337	1 - نهوض الحضارات
338	2 - الفكر بين المثال والواقع
340	3 - علوم النظر
345	4 - علوم الذوق
351	5 - علوم التربية
351	أ - مناهج التعليم: من النقل إلى الإبداع
356	ب - المدرسة: من المهنة إلى الرسالة
361	6 - الجمال والفن
361	أ - الجمال والجلال
363	ب - الفن للحياة

- ج - الفنون 365
- 7 - المرأة الجميلة 372

الباب الخامس الذات المضادة

- الفصل الأول: الغرب والتغريب 379
- 1 - رسالة المشرق 379
- 2 - الموت في الروح 381
- 3 - السفور 386
- 4 - عبادة المال والقوة 389
- 5 - الانبهار بالغرب 398
- 6 - تقليد الغرب 403
- الفصل الثاني: الغرب والشرق 411
- 1 - الشعراء بين الشرق والغرب 411
- 2 - الفلاسفة بين الشرق والغرب 416
- 3 - الصور المتبادلة بين الشرق والغرب 423
- 4 - استعمار الغرب للشرق 434
- 5 - تحرر الشرق من الغرب 441
- 6 - من ربح الغرب إلى ربح الشرق 448
- أ - انهيار الغرب 448
- ب - نهضة الشرق 450

الباب السادس التراث والتجديد

- الفصل الأول: التراث الفلسفي القديم 457
- 1 - «زبور العجم» 457
- 2 - تطور الفكر الفلسفي 461
- 3 - الاستشراق 463
- 4 - الشعبية الفارسية 468

472	5 - مراحل الفكر الفلسفي
475	6 - الفلسفة الغربية كوسيلة للتحديث
483	الفصل الثاني: تجديد التفكير الديني
483	1 - تجديد التفكير الديني في الإسلام
484	أ - خصائص الفكر الإسلامي
485	ب - الاستشراق مستمر
487	2 - الفلسفة والدين
487	أ - العقل والإيمان
488	ب - الكلام والتصوف
489	ج - البراهين على وجود الله
490	د - الذات والصفات
492	هـ - الحرية وخلود النفس
494	و - الدين والتقدم
495	ز - الاجتهاد ومبدأ الحركة
501	3 - الفلسفة الحديثة
502	أ - المنهج التجريبي
503	ب - الإيمان الفلسفي
509	ج - الإيمان الصوفي
510	د - الإيمان العلمي

الباب السابع

الدولة الأمة

517	الفصل الأول: نظام الدولة
517	1 - موضوع السياسة
520	2 - الدين والدولة
521	3 - الملكية والجمهورية
524	4 - الديمقراطية وحقوق الشعب
528	5 - الرأسمالية والاشتراكية

532	6 - العنصرية والاستعمار
537	الفصل الثاني: حال الأمة
537	1 - الأمة الإسلامية
538	2 - النظام السياسي الإسلامي
540	أ - البنية العامة للمجتمع الإسلامي
540	ب - تجانس الثقافة الإسلامية
541	ج - التواصل في الشخصية الإسلامية
543	3 - النظام الاقتصادي الإسلامي
545	4 - الوطنية والقومية والعالمية
546	أ - الوطنية
552	ب - القومية
553	ج - العالمية
554	5 - القاديانية والباية
557	6 - كشمير وفلسطين
563	7 - الاستشراق
565	الخاتمة
565	1 - جوهرية الذات
566	2 - الثنائيات التقليدية
567	3 - التصوف السلبي
569	4 - الانبهار القديم
571	5 - رفض الغرب
573	6 - الاستشراق
573	7 - الاشتباه في فكر إقبال
575	المصادر والمراجع

يتبع الأعمال العلمية، بالعربية:

- حوار المشرق والمغرب، (بالاشتراك)، القاهرة، 1990.
- مُقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، 1991.
- هموم الفكر والوطن، (جزءان)، الإسكندرية، 1997.
- جمال الدين الأفغاني، 1998.
- الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، 1998.
- حوار الأجيال، 1998.
- من النقل إلى الإبداع، (تسعة أجزاء)، 2000 - 2002.
- فشتة: فيلسوف المقاومة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- ط2، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، 2003.
- من النص إلى الواقع: محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، (جزءان)، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.
- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
- من الفناء إلى البقاء، (جزءان)، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009.

الأعمال العلمية، بالإنكليزية:

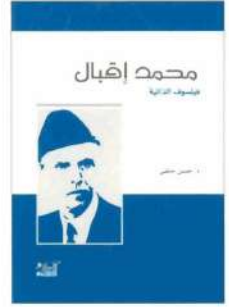
- الحوار الديني والثورة، القاهرة، 1977.
- الإسلام في العصر الحديث، (جزءان)، القاهرة، 1995.

الأعمال العلمية، بالفرنسية:

- مناهج التأويل، باريس-القاهرة، 1965.
- تأويل الظاهريات، باريس-القاهرة، 1966.
- ظاهريات التأويل، باريس-القاهرة، 1966.

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية



لأول مرة يصدر كتاب شامل عن الفيلسوف محمد إقبال اعتماداً على شعره ونثره من أجل مشاركة القارئ في تذوق الشعر. وبالرغم من انقضاء ما يقرب من سبعين عاماً على وفاته إلا أن موقفه بالنسبة للأوضاع الحالية للأمة الإسلامية مازال دالاً ومعاصراً. يعرض فلسفته في الذاتية: الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة. وجدل الذات: إثباتها (التأويل) ضد نفيها. والشكوى والأنين: الشكوى والجواب، والأنين والحنين. والسقوط والنهوض: أسباب السقوط وعوامل النهوض. والذات المضادة: الغرب والتغريب، والغرب والشرق. والتراث والتجديد: التراث الفلسفي القديم، وتجديد التفكير الديني. وأخيراً الدولة والأمة: نظام الدولة، وحال الأمة.

ISBN 9959-29-415-9



9

789959 294159

موضوع الكتاب فلسفة

موقعنا على الإنترنت
www.oaebbooks.com